د. يوسف جميل نعيسة

مجتمع مدينة دمشق

١١٨٦ - ١٢٥٦ هـ
١٧٧٢ - ١٨٤٠ م



الجزء الثاني

د. يوسف جميل نعيسة

مجتمع مدينة دمشق

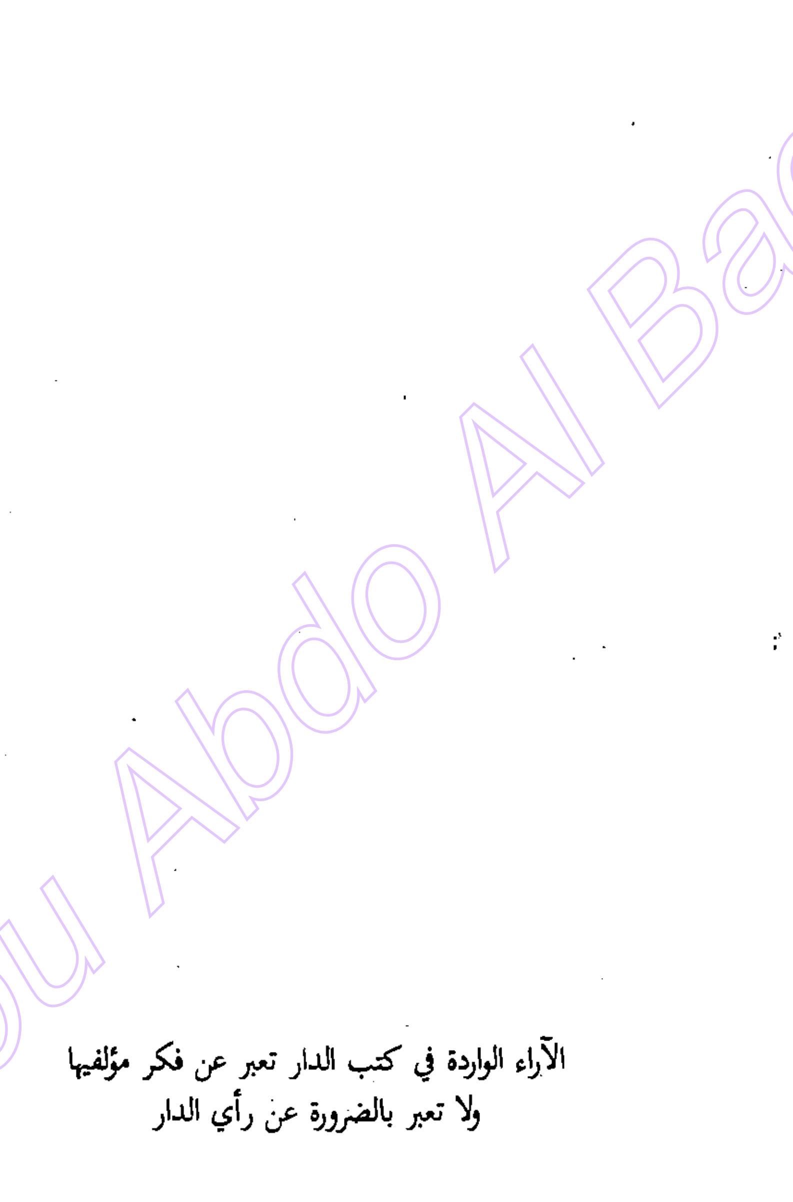
في الفترة ما بين

١١٨٦ - ١٢٥٦ هـ

١٧٧٢ - ١٨٤٠ م

في جزءين

الجزء الثاني



الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

الفصل الثالث

أوضاع دمشق الدينيّة والعلميّة

أهمية دمشق السياسية والدينية

المدارس ودور العلم ــ مناهج التعليم ومراحله ــ التعليم في مدارس استانبول ــ التعليم في ظل الحكم المصري ــ التدريس في الجامع الأموي ــ الاجازات والشهادات العلمية ــ المكتبات والمراكز الثقافية ــ رجال الدين والمدرسون ــ المتصوفون وأهم طرقهم في دمشق ــ القضاة ــ المفتون ــ الأشراف ــ أوقاف دمشق ودورها الاجتماعي ــ ضروب الحيل للسطو على أموال الأوقاف.

أهمية دمشق السياسية والدينية

كانت دمشق إحدى الحواضر العربية الاسلامية الكبرى بوصفها عاصمة للأمويين، رغم ماأحاطها من ظروف سيئة بعد عهدهم، وعلى جانب من الاهمية السياسية والاستراتيجية كحاضرة أساسية لبلاد الشام. وأضاف العثمانيون الى أهميتها السياسية أهمية دينية(١) بعد احتلالها، فاعتبروها رابع المدن الاسلامية بعد مكة والمدينة والقدس(٢).

ولهذا الاعتبار مايبرره، فهي موطن أو مدفن لعديد من الأنبياء وأزواج النبي وأحفاده وأسباطه والصحابة والتابعين والصالحين(٣)، وكانت مركزاً لتجمع قوافل الحجاج المسلمين الوافدين من المناطق الاسلامية الشمالية والشرقية(٤)، وكانت ذات أهمية دينية لغير المسلمين

---

(١) يرى ابن الحوراني وغيره من علماء دمشق، أن ذكر دمشق قد ورد في أكثر من موقع من القرآن الكريم والاحاديث الشريفة. انظر كتابه زيارات الشام المسمى: (الإشارات إلى أماكن الزيارات) ص٢ وص٤ وص٣، دمشق المطبعة العملية سنة ١٣٢٧ هـ.

(٢) انظر: ابن عبد الرزاق الدمشقي المتوفى ١١٠٣ هـ/كناش في ظاهرية دمشق/ تحت رقم عام ٣٧، وكان ترتيب القضاة في الدولة العثمانية على الشكل التالي: قاضي العسكر وقاضي استانبول في مرتبة واحدة وقاضيا مكة والمدينة في مرتبة واحدة ثم قاضيا بروسة وأدرنة ثم قاضيا مركزي الخلافة الاسلامية دمشق والقاهرة. أنظر: رافق. بلاد الشام ومصر، ص٨٤.

(٣) انظر المرادي، محمد خليل. سلك الدرر ....، ج٢، ص١١٢.

(٤) انظر السيوفي، حبيب، سورية ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر. ج ٢. ص ٢٥٧.

خاصة المسيحيين منهم. ففيها موطن قدم بولس الرسول. ابان انتشار المسيحية في مراحلها الأولى كما كانت مرقد لرفاه عدد من القديسين المسيحيين، حيث أنشأ المسيحيون إلى جوارهم كنائس مقدسة[1].

وأخذ العثمانيون بعين الاعتبار أهمية دمشق الدينية من خلال مراعاتهم لوضع دمشق في تدرج المناصب القضائية في الامبراطورية، وأطلقوا عليها (شام شريف). وبقيت دمشق إلى أواخر فترة دراستنا تحافظ على ملامح عصر الركود كما بقيت مغلقة في وجه غير المسلمين إلا مَنْ جاءها متنكرا.

ومن جهة أخرى فقد شجعت الدولة العثمانية روح التعصب، لتسد دمشق في وجه الاوروبيين الطامعين في ممتلكاتها، خاصة وأن ميزان القوى قد رجح كليا لصالحهم في هذه الفترة. فرأت في تأجيج روح العداء الموروثة من الحروب الصليبية مايخدم مصالحها. وساعدت على استمرار أعمال القرصنة في المتوسط ضد الاوروبيين كظاهرة من ظواهر الجهاد[2].

وبقيت دمشق على حالها الى أن دخلت تحت حكم ابراهيم باشا المصري، الذي سعى لتغيير الأحوال السائدة ليس في دمشق فحسب بل في بلاد الشام بادخاله قوانين علمانية عديدة واصلاحات وتغيرات ذات سمة غربية، مما شكل الخطوة الأولى في سبيل التغيير الكبير الذي سيطرأ على دمشق وبلاد الشام فيما بعد، في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية وغيرها، والتي كانت في معظمها بفعل المؤثرات الغربية.

---

(١) انظر: سمارة، يوسف، سورية ملتقى الحضارات. ص ٣٢ وص٣٣.

(٢) انظر: المرادي. سلك الدرر.... ج ٢، ص١٠٣.

المدارس ودور العلم

كان مفترضاً أن يسهم نظام التعليم ومؤسساته ومناهجه في صهر أبناء دمشق في بوتقة واحدة، إلا أنه لم يحقق ذلك لسمته الدينية، فقد كان وقفا على المسلمين دون أهل الذمة كونه امتداداً للعصور السابقة (تعليم ديني)، حيث انصب اهتمام المدارس على تدريس أنهم أولوا أهمية خاصة لمدارس الأحناف،على اعتبار أن المذهب الرسمي للدولة كان مذهب أبي أن أولوا أهمية خاصة لمدارس الأحناف، على اعتبار أن المذهب الرسمي للدولة كان مذهب أبي حنيفة النعمان[1]. ولم تبق هذه المدارس على حالتها السابقة سليمة البناء والعطاء، بل تهدم جلها ولم يعد ترميمه، وتحول بعض ماتبقى منها عن مهمة التدريس، فأصبح مسجداً أو دار سكن أو نادياً للصوفية، أو مستودعاً وهكذا، فمثلا المدرسة البيانية أصبحت جامعا فحسب، وكان إمامه سنة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ ــ ١٧٩١ فخر الأعيان الشيخ درويش بن الشيخ عيسى[2]، والمدرسة القليجية قام بترميمها أحمد القادري بعد خرابها في فتنة تيمورلنك، وأقام الذكر فيها وأسكن في حجراتها عددا من الفقراء[3].

(١) تطالعنا كتب الإخباريين والحوليات والتاريخ بشكل عام بأخبار تلك المدارس كا برر ذكرها في سجلات محاكم دمشق. خاصة فيما يتعلق بمسؤوليها ونظارها وموظفيها المتعددين وبأخبار تربها وأوقافها وبأخبار من تحنّف من أبناء المذاهب السنية الأخرى طمعا في الحصول على وظائفها أو الوظائف الدينية الأخرى.

(٢) انظر: القساطلي، نعمان. الروضة الغناء في دمشق الفيحاء. ص ١٤٣ وص ١٤٤.

(٣) انظر المحبي، محمد. خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر. ج ١. ص٢٠٧، وص ٢٠٨.

وكان لمدارس دمشق سجلات خاصة بها، حفظت لدى قاضي القضاة أو لدى نظار أوقافها[1]. وتحول بعضها الى منزول لنواب قاضي القضاة وغيرهم من الاروام، كالمدرسة المجاهدية الجوانية[2] أو تحول بعضها الى مدافن[3] فحسب. وما أنشيء من هذه المدارس في العهد العثماني كان قليلا إذا ماقيس بما أنشيء في العهود السابقة، وأكثرها ماأنشيء في الفترة السابقة لدراستنا، أي في النصف الاول من القرن الثامن عشر.

وكانت أهداف المدارس التي أنشئت في العهد العثماني في دمشق هي نفس الاهداف التي أنشئت من أجلها في العهود السابقة. فهي أهداف دينية بحتة، وكانت في معظمها للأحناف دون سواهم من المذاهب السنية الأخرى. أما منشؤو هذه المدارس فكانوا من الولاة والدفتردارين وكبار رجال الدين وغيرهم. وتم انشاؤها مابين ١١٣٢ ــ ١١٩٢ هـ / ١٧٢٠ ــ ١٧٧٩ / م ويمكن تفسير ذلك بوضع دمشق الاقتصادي والسياسي الجيد اذا ماقورن بوضع مثيلاتها من المدن الشامية الاخرى، أو بوضع دمشق نفسها في الفترة اللاحقة (فترة دراستنا).

ولقد انشأ معظم هذه المدارس ولاة دمشق من آل العظم، الذين أقاموا بالاضافة الى ذلك، منشآت ذات نفع عام، ساعين من خلال ذلك لترسيخ نفوذهم السياسي في دمشق بعد حماه. وفيما يلي نورد أسماء المدارس العثمانية في دمشق وهي: المدرسة المرادية الجوانية التي بنيت جنوب المدرسة الظاهرية عام ١١٣٢ هـ / ١٧٢٠ / م، وكانت تسمى أزهر دمشق[4]، ثم المدرسة النقشبندية البرانية التي بناها الشيخ مراد المرادي في سوق صاروجا، ثم مدرسة الوالي اسماعيل باشا العظم في سوق الخياطين باطن دمشق، بناها الوالي المذكور عام ١١٤١ هـ / ١٧٢٨ م، ثم المدرسة السليمانية التي بناها سليمان باشا العظم باطن دمشق في باب البريد ١١٥٠ هـ / ١٧٣٧ م، ثم المدرسة الفتحية التي بناها فتحي القلانسي الذي كان دفتردار في عهد سليمان باشا العظم وأسعد باشا العظم، وكان بناؤها عام ١١٥٦ هـ / ١٧٤٤ م، ثم المدرسة العبدلية التي بناها عبد الله باشا العظم

(١) انظر: الدهمان، محمد. مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق. ج ٥، المجلد ٢٢/ ص٢٣٦ وص٢٤١ وص٢٤٢ وص٢٤٣. ربيع الاخر. جمادى الاولى سنة ١٣٦٦ هـ/نيسان ١٩٤٧م.
(٢) انظر: ابن بدران، عبد القادر. منادمة الاطلال ومسامرة الخيال. ص١٤٦.
(٣) انظر: ابن بدران. المصدر السابق. ص١٤٨.
(٤) انظر: ابن بدران. منادمة الاطلال ... ص٢٦٤.

١١٩٢ هـ / ١٧٧٩ م[1]. هذا بالاضافة الى حلقات التدريس في التكايا العثمانية، السليمية والسليمانية وغيرهما، وفي الجوامع التي أنشأوها في دمشق.

وأكثر مايسترعي انتباهنا في فترة دراستنا بشكل عام، ندرة ماأنشىء من المدارس في دمشق، باستثناء فترة الحكم المصري التي كانت متميزة في هذا المجال كما سنرى. ويمكن تفسير هذه الندرة بسوء الاحوال الداخلية والخارجية على حد سواء. فازدادت الاحن على الدولة العثمانية وتتالت هزائمها العسكرية، وترتب على ذلك تبعات اقتصادية ثقيلة ناهيك عن قيام الثورة الصناعية في أوربا التي انعكست بشكل سلبي على الأوضاع الاقتصادية في الدولة العثمانية فسادت الفوضى السياسية في دمشق بسبب النزاعات المستمرة بين القوى السياسية المتناحرة، فانتفى الأمنُ أُسُ الازدهارِ الاقتصادي وجرثومتُه، وضعفت سلطة الولاة وقصرت مدتهم في مناصبهم لعجزهم عن دحر القوات الوهابية، التي سيطرت على الاماكن المقدسة، ونتج عن ذلك توقف قافلة الحج وتوقف معها الرفد الاقتصادي الهام الذي ميزها عن بقية المدن الشامية. كل ذلك انعكس سلباً على البناء والعمران في دمشق.

وأسهم في تقلص عدد المدارس في دمشق، تطاول أيدي المختلسين على أموال أوقافها، فأهملوا الصرف على تلك المدارس، ولم يقوموا بترميم أو اعادة بناء ماتهدم منها، وتحول معظم مابقي منها عن مهامها الاصلية، ونسوق مثالاً على ذلك ماحصل للمدرسة القجماسية التي أصبحت سكنا لصالح الجنيني ومقرا لإحدى الطرق الصوفية. وكذلك دار الحديث الاشرفية التي تحولت إلى حانة لبيع الخمور[2]، ودار القرآن الخضيرية أقام فيها محمد المهدي المغربي المتوفى سنة ١٢٦٣ هـ / ١٨٤٦ م وكان يسلك فيها المريدون ويقيم فيها الاذكار والاوراد.[3] والمدرسة السمسياطية سكنها العديد من المشايخ وكانوا (يقصدون للإستخارة والفأل الحسن)[4]. وأهم ماتبقى من مدارس دمشق إلى هذه الفترة هي: المدرسة القجماسية وهي احدى مدارس الحنفية داخل باب القصروالسعادة،[5] ودار الحديث الاشرفية في

(١) انظر: كرد علي، محمد. خطط الشام. ج ٦. ص٩٨ الى ص ١٠٠.

(٢) انظر: المرادي، سلك الدرر ... ج٣. ص٦٥. ترجمة عبد الرحيم المنير ثم البيطار، عبد الرزاق. حلية البشر.... ج ٢. ص١٦٠٢ ص١٦٠٣.

(٣) البيطار، عبد الرزاق. المصدر السابق. ج ٣. ص١٣٢٦.

(٤) البيطار، عبد الرزاق. المصدر السابق. ج١. ص٦١٢. ترجمة ذيب الحلبوني.

(٥) انظر: النعيمي، عبد القادر. الدارس في تاريخ المدارس. ج١. ص٥٦٤.

العصرونية[1] ، والمدرسة الشامية التي أصبحت داراً للافتاء[2] ، والمدرسة الصميصاتية (السمسياطية) ، والعادلية الكبرى والعادلية الصغرى ودار الحديث الناصرية[3] ، والمدرسة الخضيرية[4] ، والمدرسة العاذرائية[5] ، والمدرسة الاحمدية والظاهرية والسليمانية والسليمية[6] ، ومدرسة الشيخ عبد الرحمن الكردي باطن دمشق في محلة القباقبية في زقاق مابين العبورين[7] ، ثم المدرسة الحافظية بصالحية دمشق[8] ، والمدرسة الفارسية التي كانت تعلم اللغة التركية والفارسية بالاضافة للعربية[9] ، ثم المدرسة الصادرية[10] . كما ورد لبعض المدارس الاخرى في كتب التراجم ، مثل الامجدية والجوزية والعذراوية والأمينية والاتابكية والبيرمية والجواهرية[11] . ولكن معظم المصادر بما فيها سجلات محاكم دمشق الشرعية ، لاتذكر إلا القليل عن طبيعة النشاط داخل تلك المدارس ، وجل ماتذكره اسم من عيّن من المدرسين أو الائمة أو المتولين أو النظار على أوقافها ، أو من سكن في إحدى حجراتها ..الخ مما يدل على اهمالها إلى حد كبير . وشاهدنا على ذلك ماورد في كتاب أحد الاخباريين الدماشقة الذين عاشوا في تلك الفترة وهو حسن آغا العبد الذي يذكر في أحداث سنة ١٢٢٢ هـ/ :

«أن والي دمشق الكنج يوسف باشا قام بالتفتيش على المدارس وأمر المتولية بأن يجيبوا أرباب الشعائر ويقيموا شعائرهم من تدريس وقراءة أجزاء ووعظ وغير ذلك» ويعلق حسن آغا العبد على ذلك بقوله : «وصار في ذلك الأمور لارباب المتولية تبين»[12] . كما يورد محمد خليل

---

(١) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦/ص١٣٥ . ثم البيطار المصدر السابق ج٢ . ص٧٩٢ . البيطار . المصدر السابق . ج٣ ، ص١١٣٤ .

(٢) المصدر السابق . ج٣ ، ص١١٨٦ .

(٣) المصدر السابق . ج٣ ، ص١٣٢٦ .

(٤) المصدر السابق . ج٣ ، ص١٥٩٤ .

(٥) المصدر السابق . ج١ . ص٩٦ وص٢٤١ وص٣٧٤ . وج٢ . ص٧٤٩ .

(٦) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠ / ١٢١٦ ــ ١٢١٧هـ ، ص٥٠ .

(٧) انظر سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٥/١٢١٠ ــ ١٢١١ هـ ص٥٥ .

(٨) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/ ص٢٦٧ .

(٩) انظر : الحصني ، محمد أديب منتخبات لتواريخ دمشق . ج٢ . ص٦٥٨ وج٤ ، وص١٣٠ .

(١٠) انظر : المرادي ، محمد خليل . سلك الدرر في تاريخ القرن الثاني عشر . ج١ . ص٢٢ وص٤٥ . وص٦٢

(١١) وص٦٧ وص٦٨ وص١١٢ وص١١٧ وص١١٨ وص٢١٤ وص٢١٩ وص٢٥٠ .

(١٢) انظر : تاريخ حسن آغا العبد . ص١٤٢ وص١٤٣ .

المرادي في أكثر من موضع من كتابه: سلك الدرر ... أن بعض الولاة أصدروا أوامرهم للمدرسين «بأن يلازموا الدروس والإقراء .... واستمر ذلك قليلا ثم عاد كل لأصله» [1].

ومن جهة أخرى فقد أمكن رصد أسماء بعض موظفي تلك المدارس. فكان منهم، المحدث وشيخ الرواية والحافظ والمفسر والمدرس والمعيد والمفيد والمنتهي والفقيه وكاتب الغيبة وضابط الأسماء ومعلم الكتاب والقاص وقارىء الكراسي والواعظ [2] وخازن الكتب والمؤذن والبواب وغيرهم. وكان لكل واحد من هؤلاء، واجباته المحددة، أما راتبه فقد حدد بدوره، سواء من النقود أو المواد العينية التي كانت تصرف له من أوقافها. ولقد ربطت هذه المدارس بقاضي قضاة دمشق، وتم تعيين نظار ومتوليي أوقافها ومدرسيها وموظفيها من قبل شيخ الإسلام في استانبول. وعند ورود تعيينهم من استانبول كان يسجل من قبل قاضي القضاة في سجلات محاكم دمشق، ومما يلاحظ في هذه الفترة أن السعي للحصول على تلك الوظائف أصبح من أجل رواتبها فحسب، وكانت تورث للأبناء والأحفاد دون القيام بما يترتب عليهم من أعباء تجاهها، بل انصب جل اهتمامهم على إدارة أوقاف تلك المدارس لما تدره عليهم من المرابح، ولهذا قامت الأسر الدمشقية الدينية الكبيرة باحتكار وظائف التولية والنظارة على أوقاف تلك المدارس، مما وفر لها مورداً كبيرا من المال وجاها إجتماعيا عاليا في مدينة دمشق. وحسبنا هنا أن نسوق بعض الأمثلة على ذلك. فآل البكري: كانوا متولين على أوقاف المدرسة الأخنائية [3] كما تولى أوقاف المدرسة الجهاركسية آل المحاسني [4] وآل المرادي على أوقاف المدرسة الدلامية الكائنة بضاحية دمشق [5]. وآل المنيني على أوقاف المدرسة الناصرية الجوانية وآل السيوطي على المدرسة العمرية [6] وآل حمزة على المدرسة المجاهدية في محلة العمارة [7].

ومما تجدر ملاحظته أن الوظيفة الواحدة كانت تقسم بين فريقين أو أكثر بغية الحصول

(١) انظر: سلك الدرر ... ج٢، ص٢٨١ وص٢٨٤.
(٢) انظر: العلبي، أكرم. المرجع السابق ص١٤٠ وص١٤١.
(٣) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/١٢١٦ ـــ ١٢١٧هـ. ص٢٨٣.
(٤) انظر: سجل محكمة الميدان بدمشق رقم ٣٢٣/١٢٤٧هـ. ص٣٠٣.
(٥) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٢٤/١٢٤٧هـ. ص١٠٥.
(٦) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٢٤/١٢٥٠هـ. ص١٦٩ وص١٧٠ وص٣٢٦.
(٧) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٣٦/١٢٥٠ ـــ ١٢٥١هـ. ص٨٣.

على مرتبها،ونسوق مثالاً على ذلك ماورد في سجل المحكمة الكبرى بدمشق حيث «قرر مولانا صديقي زادة محمد سعدي، حاملتي هذا الكتاب نفيسة وعائشة بنتي طالب في الحصة وهي عن وظيفة بوابة المدرسة الوجيهية بمعلوم قدره عثماني، وكذلك بوظيفة قراءة ماتيسر من القرآن العظيم... بمعلوم قدره في كل سنة ثلاثة أكيال ونصف كيل حنطة من حنطة قرية داريا الكبرى»[1].

وهكذا اضمحل حال هذه المدارس مع الزمن وبرز الى جانبها أو بديلا عنها عدد من الكتاتيب لتعليم الأطفال من الجنسين ولكن بشكل منفصل. وأطلق على معلم الكتّاب اسم الشيخ. أما مربو أبناء الاعيان والأمراء فاسم (لالا) وأما معلمة الأناث فاسم الخجا[2].

ووجدت بعض الكتاتيب لتدريس أبناء أهل الذمة أقاموها في بيوتهم أو كنائسهم وفي البيع والأديرة، وانصب التعليم فيها على الكتابة والقراءة والحساب. وكان المعلم في البيت يصعد ديوانا فيسمع ويتسمع ويقرأ ويقرىء ويكتب ويكتّب[3]. ويذكر لامارتين الشاعر الفرنسي الذي زار دمشق في عهد ابراهيم باشا المصري أن الأب بوسو قاده الى أحد الأديرة الذي يعلم فيه أطفالا مسيحيين فقراء[4].

التعليم ومراحله

لقد كان التعليم مقسوماً على مراحل تبدأ أولاها بالكتاتيب وفيها فترتان دراسيتان، في الأولى منها يتلقن الأطفال حروف الهجاء، ومفردها ومركبها وأشكالها، ثم يعلمهم شيخ الكتاب قراءة القرآن والكتابة وحسن الخط، وطرفا من الحساب[5] ومن لم يرغب في متابعة المرحلة الثانية يترك الكتاب مكتفيا بهذا القدر من التحصيل العلمي، فيبحث عن حرفة

---

(١) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١٦/٢٥٠ ـ ١٢١٧هـ. ص١٢٩.

(٢) انظر: جبري، شفيق. مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق. ج٤. مجلد ٣٦. ص٥٣٠/١٩٦١م ثم القاسمي، محمد سعيد. قاموس الصناعات. ج٢. ص٤٩٩. ثم المرادي، سلك الدرر.. ج١. ص٨.

(٣) انظر: أليسوعي، توتل ـ مجلة المشرق، ص٤٠٧ من العدد ٣٦ سنة ١٩٧٧م.

4 - Voyage en Orient.F.6.

(٥) القاسمي، محمد سعيد. قاموس الصناعات الشامية. ج٢، ص٤٠٧ وص٤٠٨.

ليكسب منها مايقوم بمعاشه[1]. وكان الطلاب يجلسون في الكتاب على الأرض ويرددون مايتلوه عليهم الشيخ الجالس في إحدى زوايا الغرفة[2].

ولم يكن معظم مشايخ الكتاب بأفضل من طلابهم، فكانوا أقرب إلى الأميين منهم الى المتعلمين. وكان شيخ المدرسة يأخذ من تلامذته خميسية، يتقاضاها منهم يوم الخميس من كل اسبوع، وكانت تتراوح مابين ٢٥ بارة الى قرش واحد من كل تلميذ. ومن المشايخ مايأخذ مشاهرة من ستة قروش فصاعدا، كما يأخذ الشيخ مرتبا اذا ماأتم التلميذ حفظ السور «سبح» وعند فتحه جزء (عم)، وكذلك اذا وصل الى سورة (ياسين)، وعند النصف وفي الختام. وهذه المرتبات كانت تسمى حلوانا، يكرم بها الشيخ ومن في معيته، ومن عريف كبير أو معين. وعند الختام يعطى من الاكرام، الشرط أولا، أو ماتسمح به نفس ولي الصبي[3].

أما المرحلة الثانية من التعليم ففيها يحضر الطالب دروس الافاضل ذوي المعارف والفضائل ويدرس عليهم مايساعده على فهم القرآن والحديث والمناقشة المنطقية، ويمكن تلمس معظم مواد وكتب هذه المرحلة بشكل عام في كتب تراجم الرجال لهذه الفترة، كسلك الدرر للمرادي وحلية البشر للبيطار وأعيان القرن الرابع عشر للشطي، فكان أهمها «في الفقه، شرح التحرير وشرح النهج لزكريا والدر المختار، وفي الحديث: موطأ مالك وصحيحا البخاري ومسلم والشمائل للترمذي والمصابيح للبغوي والمشارق للصنعاني والجامع الصغير للسيوطي، وفي التفسير: تفسير الزمخشري والبيضاوي، وفي القراءات: الشاطبية والرائية والعشرة، وفي النحو والصرف وعلوم اللغة: الالفية وشروحها وشرح مغني اللبيب وشرح الكافية وحاشية العصام وشرح قطر الندى وشرح التلخيص ومختصر المعاني والبيان، وفي العلوم العقلية: ايسا غوجي وجوهرة التوحيد، وفي التصوف: الفتوحات المكية» وغيرها.

التعليم في مدارس استانبول

كان التعليم في إحدى مدارسها يعتبر مرحلة متميزة في مجال التعليم، ليس من حيث مناهج ومواد التعليم ولكن لأنها كانت تؤهل صاحبها لاستلام أحد المناصب في

(١) الشيوفي، حبيب. سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر. ج٢، ص١٠٧.

2 - See: porter. five years in Damascus. VOL.1.P.142.

(٣) انظر: القاسمي، محمد. المصدر السابق ــ ج٢، ص٤٠٧ وص٤٠٨.

الدولة، على أن بعض أبناء الاثرياء في دمشق كانوا يفضلون متابعة دراستهم في بيوتهم وتحت إشراف آبائهم أو أساتذتهم[1]، في حين البعض الآخر كان يذهب إلى استانبول لمتابعة دراسته في إحدى مدارسها، طمعا في الحصول على أحد المناصب الادارية أو العسكرية.

وأهم مدارس استانبول هي: مدرسة سراي الغلطة ثم مدرسة سليمان صوباشي ومدرسة يار حصار ومدرسة شيخ الاسلام ومدرسة البهرائية ومدرسة خديجة سلطان ومدرسة حافظ باشا ومدرسة قاسم باشا ومدرسة روم محمد باشا ومدرسة مولاي خسرو كتخدا ومدرسة بيري باشا ومدرسة شاه سلطان ومدرسة طوطي لطف ومدرسة انجه قره ومدرسة ذي الفقار ومدرسة باياس أوغلي[2] وغيرها كثير، حيث تجاوز عددها الأربعين مدرسة وكانت تأتي على رأس تلك المدارس، المدارس السليمانية، التي كانت على مراجل تمثل بذلك التدريس المتخصص أو العالي في استانبول حيث كانت تمنح مراتب علمية مختلفة، منها: ابتدائي خارج وحركتي خارج ثم ابتدائي داخل ثم حركتي داخل ثم موصلي صحن غان ثم ابتدائي ألتمشلي ثم حركتي التمشلي ثم موصلي سليمانية[3]. وكان المتخرج اذا ماحصل على إحدى هذه الدرجات وعين في القضاء، يمنح مرتبة معينة تتناسب مع القضاء الذي عين فيه. وكانت أعلى مراتب القضاء مرتبة قضاء العسكر ثم رتبة صدارة روم ايلي التي هي أعلى رتبة علمية في الدولة العثمانية[4].

ولقد أورد الإخباريون الدماشقة أسماء بعض الدمشقيين الذين التحقوا بمدارس استانبول ليحصلوا بعد تخرجهم على مناصب قضائية في الدولة[5]. وفي عهد السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ ــ ١٨٠٧م) جرت محاولة التحديث ولم تقتصر على إنشاء النظام الجديد فحسب بل تجاوزته إلى إيجاد مدارس للضباط ونظام تعليمي للفنون العسكرية والعلوم التي تخدم النواحي العسكرية كالهندسة والطب[6]. ورغم فشل تلك المحاولات وسقوط السلطان

---

(١) انظر: عانوتي، أسامة. المرجع السابق. ص٣٠.

(٢) المرادي، المصدر السابق. ج١، ص٦٩ وص٧٠ وص١٠٧ وص١٤٩ وص١٥٠. ثم ج٣، ص١٣٨ وص٢١٣ وص٢١٧.

3 - Hi Cibb and H. bowen: Islamic society and the west VOL.1.part.2.P.140.

(٤) انظر: البيطار، عبد الرزاق. المصدر السابق. ج١، ص٦٤ وص٧٨.

(٥) انظر: المرادي، المصدر السابق ــ ج١. ص٦٩ وص٧٠. ج٢، ص٩٨ وص١١٥ وص١٥٧. ج٣، ص١٣٨ وص٢١٧.

(٦) انظر: طربين، أحمد. تاريخ المشرق العربي المعاصر. ص٣٣٦.

سليم الثالث نتيجة لذلك، فان السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ ـ ١٨٣٩ م) سعى بدوره لبعث النشاط في تلك المدارس، كمدرسة الفنون البحرية التي أسست عام / ١٧٧٣ / ومدرسة الهندسة العسكرية التي أسست عام / ١٧٩٣ ، وأرسلت البعثات الى باريس اسوة بمحمد علي باشا (والي مصر)، وتعرفت الدولة العثمانية على العلوم العصرية[1] عن طريق المدارس العسكرية المتصلة بالجيش، وأعطت الطلاب المرتبات واعتبرتهم موظفين حكوميين. واستقدمت الخبراء الأوربيين الذين كان أكثرهم ممن اشتركوا في حروب نابليون بونابرت في أوربا فوجدوا المجال مفتوحا أمامهم في الدولة العثمانية واعتنقوا الاسلام[2]. وتخرج على تلك المدارس الأطباء والجراحون والصيادلة، فسدوا جانباً من حاجة الجيش اليهم. أما الاطباء المدنيون فكانوا يتلقون تعليمهم في مؤسسات تقليدية، مثل القسم الطبي في المدرسة السليمانية بالاستانة، واعتمدت في دراستهم وتدريبهم تواليف جالينوس وابن سينا، كما أنشئت، مابين عامي ١٨٣١ ـ ١٨٣٤ م، مدرستان عاليتان للأغراض العسكرية، مثل مكتب الموسيقى الهمايوني ومكتب العلوم الحربية. وهذا الأخير أنشيء على مثال مدرسة سان سيير الفرنسية الشهيرة، وكانت لغة التعليم فيه هي اللغة الفرنسية، ويبدو أن رجال الاصلاح قد شعروا بتدني مستوى الطلبة في المدارس العسكرية العالية، فأنشأوا المدارس الاعدادية العسكرية لتحضير الطلبة لدخول المدارس العسكرية الاختصاصية، وأنشأوا مدارس رشدية عسكرية لتهيئة الطلبة لدخول المدارس الاعدادية، ولم يقتصر وجود هذه المدارس على العاصمة، وانما وجدت أيضا في الولايات التي كانت مراكز لتحشد الجيش النظامي[3]. ولم يحرم أبناء الولايات من دخولها، وكانت مجانية وداخلية وتتكفل الدولة بنفقات طلابها وتتولى نقلهم من مراكز الولايات الى العاصمة. وينطبق ذلك أيضا على المدارس الاعدادية العسكرية. وفكر السلطان محمود الثاني بانشاء مدارس ابتدائية وثانوية للاغراض المدنية، وخطط لانشاء مدارس رشدية ملكية ومدنية، وافتتح عددا منها في سنة ١٨٣٨ م. ولكن على مايبدو أن نجاحه كان محدودا في هذا الصدد.

---

(١) أيضا طربين. المرجع السابق. ص٢٤٠

(٢) انظر: رافق، عبد الكريم. العرب والعثمانيين. ص٣٧٨ وص٣٧٩.

(٣) انظر: طربين، المرجع السابق. ص٢٤٢. ويذكر المرجع السابق أن دمشق كانت مركزا للجيش الخامس العثماني.

التعليم في ظل الحكم المصري

عندما سقطت بلاد الشام بيد ابراهيم باشا المصري سعى لاجراء اصلاحات جذرية في التعليم، فأحدث عددا من المدارس في دمشق، وأطلق عليها اسم المدارس الجهادية[1] وذلك لامداد الجيش والادارة بالكوادر اللازمة. وأدخل الى تلك المدارس العلوم الحديثة والحساب والهندسة وغيرها من العلوم، وقام بالتدريس فيها أساتذة أوربيون. وسجل حكم محمد علي باشا في سورية مرحلة جديدة من مراحل التعرف على أوربا، وغدت البلاد أكثر ترحيبا بالمسافرين والمستوطنين والتجار والمرسلين والمراقبين والمستطلعين الأوربيين.

ولم تعد المدارس وقفا على المسلمين دون أهل الذمة. وقام القناصل والمبشرون الأجانب بفتح المدارس من أجل خدمة أغراضهم. ودخل الى مدارسهم طلاب مسيحيون ومسلمون ويهود، وتعلموا فيها لغات أجنبية وعربية. ولكن تلك المدارس لم تهدف الى صهر مجتمع دمشق في بوتقة واحدة وإنما أسهمت، خاصة مدارس التبشير، في فتح مجتمع دمشق على المؤثرات الغربية، في حين بدأت المدارس الإسلامية التقليدية القديمة تلفظ أنفاسها الأخيرة، وفي الوقت الذي بدأ يرد الى دمشق أبناؤها خريجو المدارس الاوربية الذين عملوا في صفوف الجيش المختلفة، وأسهم هؤلاء في تنظيم مدارس الجيش[2].

التدريس في الجامع الأموي

قامت جوامع دمشق بمهامها التدريسية الى جانب مدارسها، كجامع العداس والدرويشية والسليمانية والسليمية والسنانية وغيرها. إلا أن أهم الجوامع على الاطلاق في هذا المجال كان الجامع الأموي، نظرا لعراقته واتساعه وكثرة أوقافه الدارة ومدرسيه الكثر، وتعدد حلقات التدريس في أرجائه. وكانت تلك الحلقات تعقد في صحنه وأروقته وداخل حرمه.

---

(١) وفضلاً عن المدارس الابتدائية التي أنشأها في جميع أنحاء بلاد الشام أسس كليات واسعة في دمشق وحلب وانطاكية — كان يتاح لطلابها وجميعهم من المسلمين، السكن والطعام والكساء والتعليم على نفقة الحكومة وكانوا فوق ذلك تجري عليهم المرتبات وكان في كلية دمشق نحو ٦٠٠ طالب وفي كلية حلب يزيدون على ٤٠٠ وكان هؤلاء الطلاب يرتدون ملابس موحدة ويتدربون على الفنون العسكرية. انظر: أنطونيوس، جورج. يقظة العرب. ص١٠٤.

(٢) انظر: ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا. ص١١٥.

وأهم حلقاته التدريسية ماكان تحت قبة النسر التي كانت موقوفة لأعلم علماء دمشق[١]. واعتبرت الدراسة تحتها بمثابة المرحلة العليا من الدراسة في وقتنا الحاضر. ويقول ابراهيم الخياري الذي زار دمشق في القرن الثامن عشر «إن الدمشقيين يتزاحمون على التدريس بذلك الموطن ويفتخرون به ويسمون المدرس تحتها مدرس القبة»[٢] ويشمل التدريس تحتها عددا من المواد، كالأصول والفقه والكلام والنحو والحساب والمنطق وغيرها[٣] ولقد لعب مدرسو الجامع الأموي أدواراً سياسية هامة في دمشق، لارتباطهم بشيخ الإسلام في استانبول، ولصلتهم بحكام دمشق من جهة أخرى. فلا غرابة اذا ماتنافسوا على مناصبه فيما بينهم.

ويمكن رصد أهم مدرسي قبة النسر من كتب التراجم لفترة دراستنا هذه وهم: «أحمد المنيني المتوفى سنة ١١٧٢ هـ، ثم استلم التدريس تحتها من بعده علي أفندي الداغستاني إلى أن أصيب بالفالج سنة ١١٩٦ هـ فأناب عنه الشمس محمد الكزبري، وبعد وفاة الداغستاني سنة ١١٩٩ هـ وجه تدريسها لمحمد العطار الذي أناب عنه الشمس محمد الكزبري أيضا، إلى أن توفي العطار سنة ١٢٠٩ هـ، فوجهت أخيرا للشمس محمد الكزبري إلى وفاته سنة ١٢٢٢ هـ، ثم توجهت الى الشيخ عبد الرحمن الكزبري إلى وفاته سنة ١٢٦٢ هـ[٤].

ومن مدرسي هذا الجامع في هذه الفترة الشيخ ابراهيم الاسطواني[٥] ثم الشيخ علي أفندي ابن عبد الرزاق أفندي الذي درس في صحنه[٦]، ثم عين أخوه الشيخ مصطفى بن عبد الرزاق مكانه[٧]، ثم الشيخ راغب الحصني[٨].

---

(١) أنظر: البيطار، عبد الرزاق. المصدر السابق. ج١، ص١٥١ ويذكر البيطار نقلا عن النعيمي المتوفى سنة ٩٢٧ هـ/ ان الجامع الاموي كان يشمل تسعة أئمة وثلاثة وسبعين مقعدا لاقراء القرآن وعشرين سبعا واحدى عشرة حلقة للاشتغال بالعلم والصرف عليها من مال المصالح وثلاث حلقات للاشتغال بالحديث. انظر: نفس المصدر، ص١٤٩.

(٢) انظر: رحلة الخياري المسماة (تحفة الادباء وسلوة الغرباء). ج١. ص١٦٥ وص١٦٧.

(٣) أنظر: عانوتي، أسامة. المرجع السابق. ص٢٩ وص٣٠.

(٤) أنظر: البيطار، بهجة. المدرسون تحت قبة النسر. مجلة المجمع العلمي العربي. ج١. المجلد ٢٤. ص٦٣ وص٧٢ وص٢٢٢. ٢ ربيع الاول ١٣٦٨ هـ/ كانون الأول ١٩٤٩ م.

(٥) أنظر: سجلات الوثائق التاريخية بدمشق المجلد ٢. الوثيقة رقم ٦١، ص٦٥ تاريخ ١٥ ذو الحجة سنة ١٢٤٥ هـ.

(٦) المصدر السابق. الوثيقة رقم ١٦٨/ص٦٧. ٢٤ ذو الحجة سنة ١٢٤٧ هـ.

(٧) المصدر السابق. الوثيقة رقم ١٧٠/ص١٦٧. تاريخ ١٢٤٧ هـ.

(٨) المصدر السابق. الوثيقة رقم ١٧٣/ص١٧٠.

وكانت عادة المدرس الواعظ، أن يجلس على كرسي مرتفع بعد أداء فريضة الجمعة إلى صلاة العصر، ويخصص درسه لرجال الحكم والعلم، ويراعي حال المستمعين من حيث اللغة المستخدمة. ويذكرهم بما يجب عليهم تجاه الشعب[1]، لهذا كان عليه أن يتقن التركية لغة بعض القوم المخاطبين من أولي الامر والسلطان في دمشق، ليسهل عليه نقل آرائه اليهم. واستمر الجامع الأموي في هذه الفترة يقوم بمهامه المختلفة. فاستمر التدريس فيه في مشهد الامام علي بن أبي طالب والحسين بن علي وعائشة أم المؤمنين، وفي مشهد الكلاسة وأبي بكر وعثمان وعمر بن عبد العزيز والكاملية وغيرها. وبقيت المدارس المنفصلة عنه بأوقافها والمتصلة به ببنائها، تقوم بمهامها التدريسية، مثل دار الحديث التقوية ودار الحديث الحمصية ودار الحديث العروية والزاوية المالكية والمدرسة الرواحية والمدرسة الغزالية والمدرسة التاجية والمدرسة السيفية والمدرسة العزية[2].

أما طريقة التدريس فيه، فكانت تتم على شكل حلقات يتحلق فيها الطلاب حول المحدثين الذين يقرأون الحديث الشريف وهم جلوس على كراسي مرتفعة. أما الوعاظ ومدرسو القرآن فيستندون الى سواري المسجد عند أدائهم لمواعظهم.

وزاد في أهمية الجامع الأموي الاجتماعية كونه يقع في قلب دمشق وعلى مقربة من سرايا الحكم والقلعة ومحكمة الباب مقر قاضي القضاة وغيرها من المقرات الرسمية آنئذ. ناهيك عن قدسيته. لهذا كان المكان المفضل لاجتماع عناصر الهيئة الحاكمة ومن لفَّ لفَّهم من وجوه دمشق وأعيانها، بالعامة أثناء صلاة الجماعة أو صلاة العيدين أو عند الملمات أو الكوارث الطبيعية. وكان ملاذا للمستضعفين والنساء والأطفال عند حصار دمشق أو مهاجمتها. وكانت العامة تستغل هذه الفرص للقاء الهيئة الحاكمة لعرض مشاكلها وحلها. وكان بعض الخطباء يذكرون الولاة بواجباتهم نحو الرعية والمحكومين. وكانت تحيط بالجامع الأسواق الدائمة والمؤقتة، فتروج البضائع خاصة في المناسبات المختلفة حيث الحشود الكبيرة من أبناء دمشق وفي بعض الاحيان كانت تجري فيه عقود النكاح تبركا[3]. وكما ترى كان للجامع

(١) البيطار، عبد الرزاق. المصدر السابق. ج١، ص٢٢٨.

(٢) انظر: النعيمي، عبد القادر. المصدر السابق. ج١. ص٩٧ وص٥٥٧. وج٢، ص٣ وص١٠.

(٣) انظر: الحصني، محمد أديب. منتخبات لتواريخ دمشق. ص١٠١٥ وص١٠١٦ وص١٠١٧.

الاموي مهام متعددة. بالاضافة إلى مهامه كجامعة مثل الأزهر في القاهرة، وكان ملتقي علماء دمشق بالعلماء الغرباء، وكانوا في رحابه يتناظرون بالعلوم المختلفة التي كانت سائدة آنئذ. وكانت العادة اذا ماجاء عالم غريب أن لا يقبل علماؤها عليه إلا بعد استماعهم لدرسه في هذا الجامع، فيعرفون من خلال ذلك قدره حق المعرفة ويطرحون عليه الأسئلة المشكلة لمعرفة مدى علمه، ولم تكن سمعته ولا ألقابه ولا مناصبه، لتعفيه من هذا الامتحان، فان نجح فيه احترموه وأقبلوا عليه وأكرموه، وإلا أعرضوا عنه، فلا يسعه عندئذ إلا الرحيل.

ومما تقدم نرى أن الجامع الأموي قد حافظ على مهامه المتعددة في هذه الفترة، فلم يكن دار عبادة فحسب بل اضطلع بمهام علمية واجتماعية وسياسية واقتصادية وغيرها، مما جعله أهم جوامع دمشق على الإطلاق.

الإجازات والشهادات العلمية

كان المشتغلون بالعلم من رجال الدين في دمشق، شأن معظم الأقطار الاسلامية الاخرى، يحرصون على الحصول على مايمكن تسميته اليوم بالشهادات العلمية التي تثبت كفاءتهم، وهذه الشهادات كانت على درجات وباختصاصات مختلفة، فمنها (السماعات) ثم الاجازات الخاصة بعلم من العلوم، وأخيراً الاجازات العامة التي تؤهل من يحصل عليها للإفتاء والتدريس.

أما السماعات (مفردها سماع) فهي أن يكتب الشيخ في آخر الكتاب أسماء الذين سمعوا عليه الكتاب والمواضيع التي فاتت الطالب. وهي أبسط الشهادات، ولاتعني شيئا بالنسبة للطالب الحاصل عليها، كما أنها لاترفع من منزلته العلمية، وهي بمثابة شهادة له على أنه حضر الدرس لا أكثر.

أما الإجازات الخاصة كإجازة عرّافة الكتب أو الخط الحسن.... وغيرها فعلى رأس عرافته الكتب حفظ القرآن الكريم وتجويده أو في الفقه والحديث والفرائض وعلم الكلام والعربية وعلوم القراءات والعقائد، وحتى اتقان إحدى الطرق الصوفية[1]. وعندما يشعر الطالب أنه متمكن من نفسه في كتاب ما أو علم ما من العلوم المذكورة آنفا، يقدم نفسه

---

(١) انظر: المرادي. المصدر السابق. ج٣، ص٢١٥.

طواعية لشيخه أو أي شيخ آخر ويطلب منه اجراء الامتحان المقرر له في هذا الكتاب، فيفتح الشيخ صفحاته في مواضع شتى ويستقرئه اياها، فان مضى بغير تلعثم ولاتوقف، استدل بحفظه تلك المواضع على حفظه لجميع الكتاب وعندئذ يقوم الشيخ بكتابة إجازة له على ورقة صغيرة.

وكانت إجازة الخط العربي بأشكاله المختلفة المعطاة من قبل أساتذة تؤهل صاحبها لاستلام منصب كاتب ولقب (خط جكان) عندما يعمل في دوائر الدولة[1]. ويبدو أن عدداً من الناس كانوا يحرصون على اتقان الخطوط العربية والحصول على اجازة فيها لأهمية الخط في دوائر الدولة أو في نسخ الكتب في وقت لم تكن المطبعة قد أخذت دورها في هذا المجال.

أما الاجازات العامة فتشمل جميع العلوم التي كانت سائدة آنئذ خاصة العلوم الدينية لعلوم المساعدة على فهم القرآن الكريم. وكانت الاجازة تؤخذ بشكل شفهي أو كتابي أو بالمراسلة مع الشيخ «المجيز» المطلوب أخذ الاجازة منه. وقد حرص علماء دمشق على الحصول عليها خاصة من العلماء البارزين آنئذ سواء في دمشق أو خارجها، لانها كانت ترفع من قدر الحاصل عليها.

وحسبنا هنا مثال على الإجازة العلمية المكتوبة، ماأورده صاحب (حلية البشر في تاريخ القرن الثامن عشر) وهي الإجازة التي منحها شيخ الأزهر حسن بن محمد العطار لحسن البيطار في سنة ١٢٢٧ هـ/١٨٠٢م حيث جاء فيها مايلي: «بسم الله الرحمن الرحيم... أحسن مايقدمه السائل في مقاصده ويلزمه في مصادره وموارده حمد الله بأعظم محامده... أما بعد: فإن الشاب الفاضل الأديب العالم العامل الشيخ حسن بن الشيخ ابراهيم البيطار... قد حضر عندي فيما حضرت الى الشام جميع دروسي التي قرأتها بالتمام حضور تدقيق ودراية غير أنه قد حضر تلاوة قليل من الأحاديث الشريفة عن طريق الرواية. ثم استجازني بما تجوز لي روايته فتمنعت قدر الامكان واعترفت بأني لست من أهل هذا الشأن، وعندما ألح علي استخرت الله وأجزته بمطلوبه ومرغوبه، أسعفته بما تجوز لي روايته وتسند لي درايته من أشياخي الذين اقتبست أدوارهم واغتمنت أسرارهم ومنهم ولله الحمد عدد

(١) المصدر السابق. ج٣، ص١٠٤ وص١٣٥ وص١٨٥ وص٢٢٦.

كبير كل له قدر خطير ...»[1]. وبعد أن يعدد أسماء أشياخه الذين أخذ عنهم الحديث ويذكر التآليف العديدة التي ألفها، يدعو لطالبه المجاز بعد ذلك بالتوفيق. ويذكر في أسفل الاجازة المكتوبة اسمه كاملا ومهنته العلمية.

ويبدو أن هذا النوع من الاجازات كان من النوع المعنوي الذي يتباهى بها صاحبها بين أقرانه وخلانه في حين نرى اجازات من نوع آخر كانت تمنح للطلاب في مدارس استانبول. وكانت تلك المدارس على درجات فمنها الداخل والخارج وأتمشلي وموصلة الصحن والسليمانية، وكان الطلاب يلتحقون فيها ليتلقوا العلم في رحابها وغالبا ماكان العلم فيها علما دينيا بالاضافة الى اللغة الفارسية والتركية وكانت تؤهل الحاصل على اجازتها لاستلام منصب معين. وكتب تراجم رجالات دمشق مليئة بأخبار هؤلاء. ونسوق مثالا على ذلك أحد علمائها آنئذ وهو محمد سعدي الدمشقي الذي «دخل طريق العلماء في اسلامبول ولازم قاعدتهم وطريقهم وبعد انفصاله عن المدارس وتنقله بها كعادتهم... أعطي قضاء بغداد وبعده قضاء اسكدار... ثم أعطي رتبة قضاء المدينة المنورة مع قضاء خيرة بولي وخواص آخر على طريق الأربلق.. ومات سنة (١١١١ هـ)»[2].

ولم تعرف دمشق الشهادات والإجازات العلمية، كما هو الحال في وقتنا الحاضر، إلا بعد دخول المؤثرات الغربية وطرائق تعليمها اليها عن طريقين أولهما: في فترة محمود الثاني الذي أدخلها الى استانبول ومنها جاءت الى دمشق، ثم طريق مصر والتي دخلت الى بلاد الشام مع الاحتلال المصري لها، ووصول البعوث العلمية الى مصر. وكان التأثير الفرنسي وطرائقه في التعليم والاجازات غالبا على جميع المؤثرات الأوربية الأخرى.

المكتبات والمراكز الثقافية

لم تشاهد دمشق في هذه الفترة قيام مكتبات منفصلة عن الجوامع والمدارس والمنشآت الدينية الاخرى كالتكايا والخانقاهات والزوايا وغيرها، إلا القليل منها في بيوت بعض رجال الدين وغيرهم. وأهم تلك المكتبات كانت مكتبة المدرسة العمرية في صالحية دمشق. ثم

(١) البيطار، عبد الرزاق. ج١. ص٤٨٩ وص٤٩٠ وص٤٩١ وص٤٩٢.

(٢) المرادي، سلك الدرر.... ج٤. ص٢٨. ثم انظر: ترجمة محمد رحمة الأيوبي ص٤٨. ثم ترجمة محمد الحنفي ص١٠٨. ثم ترجمة السيد محمد المرادي ص١٦٤.

مكتبة مدرسة اسماعيل باشا العظم، التي أسهم في إمدادها بالكتب، ابنه أسعد باشا العظم. ثم مكتبة مدرسة عبد الله باشا العظم التي أضيفت اليها كتب والده محمد باشا العظم سنة ١١٩٠ هـ. ثم مكتبة مدرسة الملا عثمان الكردي. ومكتبة التكية السليمانية ومكتبة المدرسة المرادية ثم مكتبة المدرسة السمسياطية ومكتبة بيت الخطابة في الجامع الأموي ثم المكتبة السياغوشية ومكتبة جامع يلبغا والأحمدية[١] ثم مكتبة الشيخ خالد في محلة القنوات في بيت الشيخ عمر الحضرة[٢] ومكتبة الاشماسية بمدرسة قرب الجامع الاموي ومكتبة الباذرائية[٣] ثم مكتبة المدرسة الظاهرية. ومن المكتبات الخاصة التي ورد ذكرها آنئذ مكتبة عبد الله البصروي «الذي لم يمسك كتبها عن أحد فتفرقت كتبه أيدي سبأ»[٤]. إلا أن معلوماتنا عن محتويات هذه المكتبات ونوع هذه الكتب مازال محدودا ويغلب الظن على أنها كانت في معظمها كتب دينية اسلامية. ولقد منع الاوربيون الوافدون الى دمشق في المرحلة الاخيرة من الاطلاع على هذه المكتبات كما يقول بورتر[٥]. ولم يحل ذلك دون سرقة هذه المكتبات كما حصل لمكتبة سليمان باشا العظم[٦]. ووجدت مكتبات خاصة بأديرة دمشق، حوت بعض المخطوطات باللغتين العربية واليونانية[٧]. وبقي انتشار الكتب يعتمد على النسخ باليد، الامر الذي جعل اعداداً لابأس بها من الرجال يتعيشون من هذه الحرفة. ولم تنتشر الكتب المطبوعة على نطاق واسع حتى عهد ابراهيم باشا، رغم أنه قد أدخل عددا لابأس به من الكتب المطبوعة الى دمشق. واصطحب معه مطبعة حجرية كرسها لطباعة المنشورات والأوراق العسكرية ولقد نبهت هذه المطبعة سكان دمشق إلى أهمية الطباعة، وما طبع من الكتب لم تكن كتبا دينية بل كانت في علوم مختلفة، كما أسهم في ادخال عدد من الكتب المطبوعة الى دمشق، الموظفون المصريون وأعضاء المجلس الاستشاري والأطباء والصيادلة وضباط الجيش والمعلمون والوجهاء من المسلمين والنصارى، وكانت بحدود (٦٠ كتابا) تبحث في العلوم والرياضيات والطب واللغة والفقه والتصوف والتاريخ والجغرافية والرحلات

---

(١) انظر: ابن بدران، عبد القادر. المصدر السابق. ص١٤٠.

(٢) انظر: لوقا، اسكندر. الحركة الادبية في دمشق من ١٨٠٠ — ١٩١٨م، دمشق ١٩٧٦م.

(٣) كرد علي، محمد. خطط الشام. ج٦، ص١٩٥.

(٤) المرادي، محمد خليل. المصدر السابق. ج٣. ترجمة عبد الله البصروي

5 - See: porter. op.cit. VOL.I.P.142.

(٦) انظر: المرادي. المصدر السابق. ج١، ص٨ وص٩.

(٧) انظر: القساطلي، نعمان. الروضة الغناء في دمشق الفيحاء. ص١٢٠. وص١٢١.

والتشريح والجراحة وعلم الامراض وغيرها[1]. وكان على مجتمع دمشق أن ينتظر الى الفترة اللاحقة حتى تدخل المطابع الى دمشق، فتسهم في نشر أعداد كبيرة من الكتب وتبدأ عملية الترجمة الى اللغة العربية، لاطلاع هذا المجتمع على فكر الغرب، أو بالأصح لقيام الغزو الغربي لمجتمع دمشق بطرقه المختلفة، بعد أن فتح أمامه ماكان موصدا من أبوابها، مما أتاح رياح التغيير بالدخول اليها.

(١) انظر: الطيباوي. المرجع السابق. ج٤، المجلد ٤٢، ص٧٧٦ وص٧٧٧ ثم انظر: لوقا، اسكندر. المرجع السابق. ص٥٣.

رجال الدين والمدرسون في دمشق

هذه التسمية عامة شملت الجوامع والمدرسين وزعماء الطرق الصوفية وغيرهم، على اعتبار أن التعليم كان دينيا كما كانت القوانين شرعية. وكان لرجال الدين نفوذهم الاخلاقي والديني والفكري على السكان المسلمين في المدينة، الأمر الذي مكنهم من تسلم منزلة اجتماعية متميزة. وحاولت فئات منهم بذ أقرانها في الحصول على الحظوة لدى السلطات العثمانية، من خلال جمع أكبر عدد ممكن من التلامذة والاتباع الروحيين، وغيرهم بحسب حسابهم في دمشق، وزادت في تدعيم مراكزها باستلامها المناصب الرسمية أو الدينية.

ولم تكن مؤسسات دمشق العلمية أو الدينية مرتبة بشكل رسمي في تسلسل معين، إلا أننا مع ذلك نلاحظ تدرجاً في أهميتها، فعلى مستوى الوظائف والمناصب الدينية كنا نرى في المقدمة [قاضي القضاة ونوابه ثم قضاة المذاهب غير الحنفية (الموخلافة)، ثم المفتون ونقباء الاشراف وخطباء الجامع الاموي ومدرسو السليمانية والسليمية وزعماء الطرق الصوفية وأئمة الجوامع ومدرسوها ومدرسو المدارس].

وكان رجال الدين في دمشق ينتمون الى أحد مذاهب السنة الأربعة. وعلى الرغم من أن أكثر سكان دمشق المسلمين، كانوا يتبعون المذهب الشافعي، إلا أن المذهب الحنفي قد

تقدم عليه في العهد العثماني، لأن الأخير كان مذهب الدولة الرسمي، وكان يأتي ثالث المذاهب في الترتيب، المذهب الحنبلي ومن بعده المالكي. وكان حنابلة دمشق في معظمهم من أصول ريفية، كنابلس وبعلبك[1]. في حين أن معظم أتباع المذهب المالكي في دمشق كانوا من المغاربة أو ربما من بعض أبناء الأندلس الذين صدف وجاؤوا الى دمشق بعد سقوطها بيد الاسبان. وتطالعنا كتب تراجم الرحال بأخبار من غيروا مذهبهم [خاصة من الشافعي أو الحنبلي إلى الحنفي]، بدافع الحصول على منصب قضائي في دوائر الدولة العثمانية، فمثلاً أحمد الخاني الخالدي الذي كان شافعياً. تحنف وتولى منصباً قضائياً[2] وعندما تعاظم خطر الحركة الوهابية في الجزيرة العربية على الدولة العثمانية، الى تحول عدد من الحنابلة الدمشقيين ذوي النفوذ، الى المذهب الحنفي اظهارا منهم لولائهم للدولة العثمانية[3]. في حين نرى عددا آخر من رجال الدين في دمشق، قد تعاطف مع الحركة الوهابية، ولم ينتقل تعاطفهم الى العلن خوفا من نقمة الدولة العثمانية وكان من هؤلاء الشيخ عبد الرزاق البيطار[4] ومحمد سعيد القاسمي وبعض أبناء أسرة (الغبرة) وغيرهم.

ولم تكن علاقة رجال الدين بالسلطة العثمانية، على درجة واحدة. فمنهم من كان يتهافت على أعتابها ساعيا وراء منصب ما، في حين كنا نرى عددا منهم بعيدين عنها ويعيشون من كدهم وعرق جبينهم.

أما تحصيل رجال الدين العلمي فكان متفاوتا، فمنهم من كان أشبه بالأمي، ومنهم من بذل جهدا في التحصيل العلمي والاطلاع وسعى للكتابة والتأليف في العلوم الدينية والعقلية والنقلية، أما تآليفهم في العلوم الطبيعية والتطبيقية فلم تكن ذات بال. إذ أن جلّ اهتمامهم انصب على مايؤهلهم لاستلام منصب ديني أو علمي. واذا مارصدنا مؤلفات هؤلاء لانجد منها سوى تعليقات وحواشي، وحواشي على حواشي لمؤلفات أعلام سابقين. والامثلة على ذلك كثيرة. فمثلا الياس الكردي نزيل دمشق كان له نيف وتسع حواشي

(١) انظر: رافق، عبد الكريم. المشرق العربي في العهد العثماني. ص٢٥١.
(٢) انظر: البيطار، عبد الرزاق. حلية البشر... ج١، ص١٨٤.
(٣) انظر: شليشر، ليندا. المرجع السابق، ص٣٣٢.
(٤) انظر: البيطار، عبد الرزاق. حلية البشر... المقدمة، ص١٧.

وتعليقات[1]، والشيخ حسن العطار كان له اهتمامات فلكية، ويصفه خليل مردم بك بأنه: «عالم فلكي وله رسالة في كيفية العمل بالاصطرلاب»[2] مات سنة ١٢٥٠ هـ /١٨٣٤م ـــ ١٨٣٥م. ثم ابراهيم المعروف بالبهنسي انتهى اليه علم الفلك والهيئة. وكذلك ابراهيم السفرجلاني برع في الرياضيات وأعمال الأوفاق[3] والشيخ أحمد المخللاتي الدمشقي الفرضي المتوفى سنة ١٢٤٠ هـ/١٨٢٤ ـــ ١٨٢٥م انفرد في علمي الفرائض والحساب[4] ومحمد بن مصطفى الطنداني الأزهري سكن في الميدان من دمشق وكان عالماً بالعلوم الدينية والآلات والهيئة والحساب والميقات والحكمة وغيرها[5].

ومن جهة أخرى شكل رجال الدين والخاصة منهم صلة الوصل بين المحكومين والحاكمين لأن معظمهم ينحدر من أصول محلية، فلجأ إليهم المحكومون في دمشق في الملمات. وأكسبهم ذلك نفوذا واسعا لدى المحكومين، وزادهم في ذلك ماملكوه من الاسباب المادية والاقطاعات. إلا أن الظروف الاقتصادية والسياسية التي أحاطت بدمشق في هذه الفترة قد أثرت على أوضاعهم بشكل عام فمرت في مراحل أربعة: أولاها: منذ دخول محمد بك أبي الذهب الى دمشق وحتى بداية حكم أحمد باشا الجزار وفيها تمتعوا بنفوذ واسع، كان امتدادا للعهود السابقة. وسعى رجال السلطة لاسترضائهم وخطب ودهم. واستطاعوا أن يقوموا بمهام الوساطة بين المحكومين والحاكمين. وتبدأ المرحلة الثانية: بحكم أحمد باشا الجزار، الذي اتصف بالظلم وقهر الشعب، فلاذ الشعب برجال الدين كالعادة. وتصدى هؤلاء للجزار، وتمكن أحدهم وهو محمد خليل المرادي المفتي الحنفي في دمشق ونقيب اشرافها من عزله عن ولاية دمشق في سنة ١١٩٩ هـ. مما يدل على مدى نفوذ بعض رجال الدين في دمشق واستانبول في وقت واحد. إلا أن الجزار ما لبث أن استعاد ولاية دمشق بعد ذلك، فقام بعزل المفتين ونصب آخرين مكانهم، وسجن وقتل من خاصة رجال الدين في دمشق بعض رجالها[6]. أما المرحلة الثالثة: من وضع رجال الدين، برزت بالإصلاحات

(١) انظر: المرادي سلك الدرر... ج١، ص٢٧٢.
(٢) انظر: أعيان القرن الثالث عشر في الفكر والسياسة والاجتماع. ص١٥٥ وص١٥٦.
(٣) انظر: المرادي. سلك الدرر.. ج١. ص٩ وص١٥.
(٤) انظر: البيطار، عبد الرزاق حلية البشر.. ج١. ص١٩٢ وص١٩٣.
(٥) انظر: القاسمي، جمال الدين. تعطير المشام بمآثر دمشق الشام. ج١. ترجمة محمد بن مصطفى الطنداني الأزهري الشافعي ـــ مسوذة بدون ترقيم.
(٦) انظر: العبد، حسن آغا. تاريخه. ص٧.

التي قام بها السلطان سليم الثالث ومحمود الثاني والسلطان عبد المجيد ، وما نتج عنها من آثار على رجال الدين ، ففي هذه الفترة تحولت الخاصة منهم الى دعم الدولة بعد أن وقع الجفاء بينهم وبين الانكشاريين بحل أوجاقهم ، وسلك رجال الدين هذا السبيل للحفاظ على معاشهم ومورد رزقهم الذي ارتبط بالدولة بعد أن وضعت الأوقاف تحت اشرافها[1] . إلا أن الفئة الثانية من رجال الدين قد وقفت ضد اصلاحات الدولة وكانت تضم في صفوفها طلبة العلم الشرعي (السغطة) وأصحاب الطرق الصوفية . ولم يبال هؤلاء بموقفهم هذا ، لانهم لم يعتمدوا في رزقهم على منح الدولة وعطاياها .

وتضمنت التنظيمات الخيرية التي قام بها السلطان محمود الثاني إلغاء نظام التيمار ، فتحولت أراضيه الى أراض للدولة وجمعت ضرائبها لتمويل الجيش الجديد[2] ، وأدى ذلك إلى حرمان عدد من رجال الدين من ريع تلك الاقطاعات ، مما أثر على وضعهم الاقتصادي والاجتماعي . وأدى إدخال الدولة نظام التعليم الغربي ، إلى انتزاع ماكان لرجال الدين من نفوذ لدى تلامذة مدارسهم وأهلهم فأضعفه أيما إضعاف[3] . وزادت أحوالهم سوءاً في المرحلة الرابعة والتي كانت متداخلة مع المرحلة الثالثة التي ذكرناها ، ففي المرحلة الأولى التي شملت فترة الاحتلال المصري بكاملها ، لم يقووا على مقاومته كما لم يستطيعوا إعلان ولائهم للمصريين خوفا من اغضاب السلطان العثماني . وأمام هذا الموقف اضطر كبارهم للفرار من دمشق مثل «القاضي والمفتي ونقيب الأشراف وغيرهم»[4] . ولم يكن هؤلاء مهتمين بتبديل سيد بآخر بقدر ماكانوا مهتمين بالحفاظ على مصالحهم الشخصية . بدلالة أنهم مالبثوا أن استرضوا

(١) يقول الدكتور عبد الكريم رافق :
«كثر تحول الملك الى وقف أهلي وذري ، لتحاشي مصادرته من قبل الدولة . ولما كان الوقف مقتصرا على المدن وجوارها المباشر ، حيث شاع الملك وعم تحويله الى وقف ، بينما كانت معظم الاراضي الزراعية في الريف أراضي دولة تعطى كإقطاع أو تجبى وارداتها عن طريق الالتزام فقد تحولت واردات الوقف لتغذية طبقة العلماء ، الذين كانوا نظارا ومتولين للأوقاف ، وجاء هذا الإجراء الجديد ليحرم العلماء من مصدر هام من مصادر قوتهم هذا ناهيك عن صدور المجلة فيما بعد بفضل جهود الفقيه المؤرخ أحمد جودت باشا والتي اشتملت قوانين مدنية مبنية على مزيج من القوانين الاوربية والشرعية فيما يتعلق بالأمور الجزائية والتجارية والعقارية وحق الجنسية واقامة المحاكم غير الدينية لتنفيذ قوانين تلك المجلة مما أفقد رجال الدين الكثير من نفوذهم وسلطتهم ومكاسبهم المادية» . أنظر : العرب والعثمانيين . ص٣٧٩ . وص٣٨٠ .

(٢) انظر : رافق ، عبد الكريم . المشرق العربي في العهد العثماني ، ص٢٧٧ .

(٣) انظر : رافق ، المشرق .... ص٢٧٦ .

(٤) انظر : البيطار . حلية البشر .... ج١ ، ص١٩ .

ابراهيم باشا المصري وعادوا الى مناصبهم في دمشق. ولم يكتفوا بذلك بل أطنبوا ملقاً في كيل عبارات التمجيد لعزيز مصر. ومما جاء في خطبهم: «الهم ياواجب الوجود فيك نسأل وبرسولك الأعظم إليك نتوسل بدوام عز دولة ولي النعم صفي الشيم الدستور الوقور المكرم والمشير المظفر والمعظم أعظم الوزراء في العالم مدير أمور جمهور أخص وأشرف بني آدم الخديوي الأعظم أدام الله تعالى ظل أبهة دولته ونصره وتأييده في الامم أفندم سلطانم»[1].

واستجابوا لطلب ابراهيم باشا في اصدارهم فتوى بخلع السلطان العثماني محمود الثاني، واشترك في اصدار تلك الفتوى، مفتي دمشق وعلماؤها من جميع المذاهب[2]. وعندما قام ابراهيم باشا بعلمنة القضاء في دمشق شعروا بأن السيل قد بلغ الزبى، وأن لامناص من دمار ماتبقى من مصالحهم نهائيا، فادعوا أن هذا الإجراء يعتبر هجوما صريحا على الشريعة. والحقيقة أنه سيفقدهم معظم امتيازاتهم الموروثة، خاصة وأن هذه القرانين قد سارت بين المسلمين وأهل الذمة، وزاد الامر ضغثا على إبالة إدخال المصريين لأهل الذمة في مجلس شورى دمشق، والغاؤهم إلتزام أموال الميري بعد أن أصبحوا يجمعونها بواسطة موظفين خاصين، مما حرم بعض رجال الدين الملتزمين من موارد كبيرة كانوا يجنونها من خلال التزامهم لضريبة العشر من الفلاحين،[3] ظلما.

ناهيك عن حقد السلفيين منهم على المصريين لضربهم الحركة الوهابية في الجزيرة العربية. كل ذلك أجج نار الحقد في صدورهم ورأوا في عودة السلطة العثمانية الى دمشق خير سبيل لاستعادة مافقدوه من مكاسبهم. وبدأوا يحيكون المؤامرات مع المتضررين بالحكم

(١) انظر: ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا.. ص١١٨.

(٢) انظر: البيطار. حلية البشر.... ج١، ص٢٣.

(٣) ومما جاء في كتاب محمد علي باشا الى حكام دمشق المصريين بهذا الخصوص مايلي: «إنني لم أقصد من طرح هذه الضرائب على الأهالي جلب وفر لجانب الميري فقط، بل إني رأيت في ذلك نفعا وسهولة يعودان على الجانبين معا، فقد تيقنت بما يلقاه الاهالي من الجور والظلم والأذى والخسارة من الملتزمين حيث يأتون الى القرى التي التزموا عشرها ويقيمون فيها فمأكول الملتزم ورجاله وعليق دوابهم ومأكول معارفهم الذين يمرون عليهم أثناء السفر جميع هذا على حساب الأهالي، وليس بامكان هؤلاء أن ينقلوا غلالهم من البيادر ما لم يأمر الملتزم بذلك فقد تبقى هذه الغلال على بيادرها حتى موسم الخريف وتتعرض للتلف والفساد من جراء المطر ولوفر من حدوث مظالم وأكل الحقوق بموجب النظام الجديد فانه سيكون نادرا كما اننا لانحجم عندئذ عن اجراء التحقيق اللازم». أنظر: عابدين: محفظة ٢٥٣. رقم ٤٦/المحفوظات. ج٣، ص١٢٠ وص١٢١. نقلا عن ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا. ص١١٧.

المصري من الفئات الدمشقية، ويطلقون الاشاعات التي تثير المشاعر الدينية لدى عامة المسلمين، ويتحينون الفرصة المؤاتية للانقضاض على الحكم المصري.

ومن جهة أخرى يمكن تصنيف رجال الدين على ضوء موقعهم بالنسبة للمجتمع الدمشقي والسلطة العثمانية ومراكزهم الادارية الدينية ونشاطهم الاجتماعي ونسبهم الى أربع فئات أساسية هي: (المتصوفون، والقضاة ونوابهم، والموظفون الذين عملوا في سلك القضاء، ثم المفتون والأشراف).

المتصوفون وأهم طرقهم في دمشق [1]

يمكن تصنيف المتصوفين في دمشق في فترة دراستنا هذه بثلاثة أصناف اجتماعية — متباينة، وأولها فئة المتصوفين الذين عكفوا على العبادة وانقطعوا عن الناس في الزوايا والتكايا وغيرها، ومارسوا شعائر ورياضات طرقهم الصوفية المختلفة وتراوحت ممارساتهم الصوفية بين الروحانية الصافية والخزعبلات المظهرية، وكان للشعب فيهم اعتقاد وقُصدوا للإستخارة والفأل الحسن كما ادعى بعضهم «الكرامات والقطبانية وفعل المعاجز والعلاج للأمراض»[2]. وعمل بعضهم شيوخاً للاسواق في دمشق أو شيوخا لطوائف الحرف. ولم يظهُروا للناس، وانما سمحوا لبعض التجار بمقابلتهم في أماكن اقامتهم، وجدوا بذلك سمعة دينية. ورفع البعض منهم الى مرتبة التقديس، وادعى النسب الشريف، ولبس التاج، وادعى

---

(١) الطرق جمع (طريق) والطريق هو السبيل الذي يطرق بالأرجل أي يضرب. أما الطريقة فهي السيرة والحالة وطريقة الرجل مذهبه وقد ورد اللفظان (طريق وطريقة) في القرآن الكريم قال تعالى: (مصدقا لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم) سورة الأحقاف الآية ٣٠. وقال تعالى: (إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا) سورة النساء الآية ١٦٨: وقال تعالى: (إذ يقول أمثلهم طريقة ان لبثتم إلا يوما) سورة طه. الآية ١٠٤. كما قال تعالى: ويذهبا بطريقتكم المثلى) سورة طه الآية ٦٣. وورد في القرآن الكريم جمع طريقة كما في سورة الجن قال تعالى: (وانا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا) سورة الجن الآية ١١. وكان يطلق على شيخ الطريقة (شيخ السجادة) وتعني من يستقيم على الشريعة والطريقة والحقيقة وهي معربة من (سه جادة) والمراد بها الطرق الثلاث السابق ذكرها. انظر: اللهاوي — كشف اصطلاحات الفنون — مادة سجادة — نقلا عن التفتازاني — المرجع السابق — ص٦٦.

(٢) انظر: المرادي سلك الدرر... ج٤، ص١٩٠ ترجمة مصطفى البكري. ثم: ص٢٢١ ترجمة مصطفى الشعباني.

النيابة المقدسة المحمدية وقصدتهم الهيئة الحاكمة للتبرك وللحصول على ود الشعب من خلال مرضاتهم.

أما الصنف الثاني من المتصوفين، فكان ذا نشاط اجتماعي ديني، تمثل في جمع الاتباع والمريدين، ورأى الدمشقيون من خلال تنظيماتهم متنفسا لمعاناتهم اليومية الناتجة عن سوء الأوضاع الامنية والاقتصادية والسياسية في المدينة. وبرز هذا الصنف في تنظيمات الطرق الصوفية المتعددة التي سنتناولها بالبحث بعد قليل.

أما الصنف الثالث فكان أقل الأصناف السابقة تماسكا، وشمل عددا كبيرا من المسلمين الدمشقيين والغرباء بطبيعة الانتماء الى طريقة صوفية واحدة. ولم يعتكف هؤلاء في الزوايا للعبادة، كما لم ينقطعوا عن الناس لهذه الغاية. ولم يعزفوا عن المشاركة في الحياة العامة أو في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، بل اسهموا بدورهم فيها. وكان منهم من يعمل في صفوف طوائف الحرف والصناعات المختلفة. وكان هؤلاء من فئات اجتماعية مختلفة. فكان منهم رجل الدين أو رجل السلطة أو الفلاح أو العين أو الانكشاري الخ...، ومن خاصة رجال الدين من أخذ بأكثر من طريقة صوفية. فمثلا الشيخ عبد الغني النابلسي الصوفي الشهير كان نقشبنديا وقادري[1]، والشيخ حسين بن سليم الدجاني الشافعي أخذ الطريقة الابراهيمية والقادرية ثم الاحمدية[2] .... ←

(١) انظر: المرادي سلك الدرر... ج٣، ص٣٠.

(٢) أسس هذه الطريقة السيد أحمد بن علي بن ابراهيم ويتصل نسبه الى علي بن أبي طالب ولد في فاس سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩ ـــ ١٢٠٠م ولقب بالبدوي لانه كان ملثما على عادة بدو أفريقيا رحل الى بعض الاقطار العربية والاسلامية وزار قبري القطبين الصوفيين في العراق وهما عبد القادر الكيلاني وأحمد الرفاعي. وتقول الأسطورة التي تبحث في حياته أن القطبين المذكورين قد عرضا عليه المشاركة في مفاتيح البلاد ومقاسمته اياهما في ذلك ولكنه اعرض عن ذلك قائلا: «إنه لايقبل تلك المفاتيح إلا من الله وحده»، مما يدل على أنه قطب صوفي وليس تابعا لاحد من الاقطاب الصوفية الآخرين. اكتسب ألقابا عديدة خلال رحلاته وكان منها في مكة لقب (العطاب) وعندما استقر في طندا من مصر كان ينظر إلى الشمس من على السطح فقلده تلامذته وسموا بالسطوحية أو أصحاب السطح له مؤلفات هي: (حزب ـــ صلوات ـــ وصايا) وفي الوصايا يحض على التمسك بالقرآن والسنة وكان الاتباع يقومون بالاحتفالات في العهد المملوكي إلا أن الاحتفالات قد خفت في العهد العثماني نظراً لصرامة النظام. ومع ذلك بقي له التقديس من قبل المصريين. واعتبر أكبر أوليائها وأطلق عليه (مجيب الأساري من النصارى). أنظر: تفصيل ذلك في دائرة المعارف الاسلامية ـــ المجلد الأول. ترجمة أحمد البدوي ص٤٦٧ ←

.... ← البدوية والرفاعية والشاذلية ومات ١٢٧٤هـ[١]/١٨٥٧ ــ ١٨٥٨م.

أما الطرق الصوفية فمفردها (طريقة أو طريق)، واطلقت على مجموعة الآداب والاخلاق التي تتمسك بها طائفة صوفية ما، وأصبحت لفظة (طريقة صوفية) تشمل مجموعة أفراد من المتصوفين الذين ينسبون الى شيخ معين، ويخضعون لنظام من السلوك اليومي، أو يحيون حياة اجتماعية في احدى الزوايا أو الربط أو الخانقاه، أو في بعض المدارس أو الجوامع، ويلتقون بشكل دوري أو في مناسبات دينية أو رسمية أو عندما تمس الحاجة، فيعقدون مجالس العلم والذكر بانتظام ويتباحثون في المشاكل المختلفة. وبهذا يمكن اعتبارهم تنظيما اجتماعيا له تأثيره الواضح على مدينة دمشق.

ولقد شكل الجهل الذي لف بنقابه الكثيف عقول الناس آنئذ والعجز في حل المعضلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وحتى الطبيعية، تربة خصبة لنمو الطرق الصوفية فتلقى الدمشقيون ممارسات الصوفية الشاذة وخزعبلات بعضهم وادعائهم بالكرامات وفعل المعاجز، بالقبول والتسليم. وربما وجدوا في ممارساتهم تلك وانضمامهم الى تنظيماتهم، متنفسا لمعاناتهم اليومية، وتوهم معظم الناس في دمشق أن الصوفية معقد الرجاء وبلسم الجراح وملاذ لهم ضد غوائل الطبيعة والنكبات الاقتصادية، وأنهم يستطيعون فعل المعجزات. فبكراماتهم يمكن أن يبعدوا الزلازل ويدرأوا أخطار الفيضانات، ويستدروا ماء السماء عندما تنحبس، ويدفعوا الغزاة ومهاجمي المدينة، ويوقفوا جائحات الكوليرا والطاعون ويشفوا المرضى ويخصبوا العاقر ويحضروا الغائب، فتسنموا بذلك جاها اجتماعيا ونفوذا سياسيا بارزا. وقبلت العامة أعمال الجانحين وقول المتخرصين منهم، فلم تستغرب سيرهم بأسمال بالية شبه عراة أو عراة في الشوارع أو مشاركتهم الكلاب في الاكل[٢] أو التمتمة ببعض العبارات المبهمة، وهم

وص٤٦٩. ولقد تفرعت هذه الطريقة إلى فروع عديدة منها مايسمى بالبيت الكبير وهي الأنبابية، المرازقة ــ الكناسية ــ المنايفة ــ السلامية. ثم البيت الصغير وهي: الحلبية ــ الشعيبية ــ التعيانية ــ الحمودية ــ الزاهدية ــ ومن الطرق الأحمدية الاخرى: الفرغلية ــ الشناوية ــ السطوفية ــ البيومية. انظر: التفتازاني، أبو الوفا الغنيمي ــ مدخل إلى التصوف في مصر، ص٢٩٥.

(١) انظر: البيطار، عبد الرزاق. حلية البشر... ج١، ص٥٢٧.

(٢) انظر: المرادي سلك الدرر.. ج٢، ص٦٧، ترجمة حسين الحموي. يقول المرادي في ترجمته «كان يطعم الكلاب مما يأتي اليه من الطعام، وربما أفرغ الاناء على الأرض وأكل معها. وقيل: انه كان المتدرك بنواحي ←

يسيرون في الشوارع. واتصل بعض المتصوفين بالنساء في مناسبات عدة، وعاشر بعضهم الغلمان، وشربوا الخمر والحشيش، وارتكبوا بعض الرذائل التي نهى عنها الدين على مرآى من العامة، فلم (يجدوا من ينكر عليهم ذلك). ويقول الدكتور توفيق الطويل «لو صدرت مثل هذه الاعمال من أي انسان عادي لتعرض صاحبها لاشد العقوبات وربما للموت... فالمجذوب في رأيهم كائن عقله في السماء وجزئه الكثيف في الارض وانه حبيب الله... ومهما ارتكب من الفظائع فان ذلك لايوثر في سمعته... فعقله مستغرق بعبادة الله، وماكان هذا السلوك إلا دجلا أو خبلا أو جنونا»[1].

ولقد تزايد تشعب الطرق الصوفية الرئيسة في دمشق. وازدادت سطحية في ممارساتها وطقوسها ويمكن تفسير ذلك بما آلت اليه الاحوال في الدولة العثمانية من التدهور والانحطاط، وبعجز هذه الدولة عن مجابهة المعضلات الصعبة التي جابهتها، فانتفى تحكيم العقل وغرق الناس في لجة الجهل، ولم يستطيعوا كشف القوانين التي تتحكم بكل مظاهر الحياة، فوجدوا في الغيبيات والخرافات هروبا وسلوى، وسادت روح التواكل، وتوهموا أن علاج بعض هذه المعضلات يكمن في الانضواء تحت لواء التنظيمات الصوفية، ويكمن الترياق في كرامات رجالها. ورأت السلطات العثمانية في تلك الطرق ملهاة للشعب وسندا لها، فلاعجب اذا ماسعت الى مساندتها وتشجيعها. كما رأى البعض الاخر في دمشق، في زعامة طريقة صوفية، مايوفر الجاه الاجتماعي والربح المادي. فسعوا لتأسيس فروع خاصة بهم من الطرق الصوفية، وسميت تلك الفروع بأسمائهم.

ونتج عن تغلغل الطرق الصوفية بين فئات مجتمع دمشق المختلفة، أن علا شأن شيوخها، وسعى الحكام والاثرياء لمرضاتهم[2]، وتوقف معظمهم عن طلب الرزق، لطالما تأتيهم المساعدات والاعانات بغير حساب، وعاشوا في بحبوحة من العيش.

الجامع الاموي وله كرامات ومكاشفات صريحة، وللناس ، اعتقاد عظيم ومن كراماته أنه رأى رجلا يحمل علبة لبن فناداه وأخذها منه وصبها للكلاب فنظر الرجل فاذا فيها فرخ حية...، وكان يلبس الخشن من الثياب ويجلس على القمامات وكانت الكلاب لاتفارقه»

(١) انظر: الطويل، توفيق. التصوف في مصر ابان العهد العثماني، ص٦٥.

(٢) يذكر المرادي في ترجمة الصوفي الياس الكردي المتوفى سنة ١١٣٨ هـ أن والي دمشق رجب باشا قد زاره وكان يقصده ويحبه فطلب منه الدعاء فقال له والله ان دعائي لايصل الى السقف وما ينفعك دعائي والمظلومون في حبسك يدعون عليك... وعرض عليه مائة دينار فأبى أن يقبلها وقال للباشا... ردها على المظلومين الذين تأخذ منهم الجرائم. انظر: سلك الدرر... ج١، ص٢٧٢.

ومن جهة أخرى لم يكن بين المتصوفين، إلا فئة قليلة سعت وراء العلم. وكانت تلك الفئة من خاصة رجال الدين الذين جاءهم الثراء والمال من مسارب شتى (كوظائف الدولة ــ والأقطاعات والدخول في تجارة داخلية أو خارجية). ولم يكن هؤلاء منقطعين كليا عن الناس، أو معتكفين في الزوايا أو التكايا ودور العبادة المختلفة، بل عاشوا شأن أبناء فئتهم الاجتماعية فتبنوا أو تزعموا طريقة صوفية ما في دمشق.

ونظرا لدور الطرق الاجتماعي والسياسي في دمشق، سنحاول قدر الامكان كشف أصول هذه الطرق وفروعها وانتماءاتها وزواياها وتقاليدها ومظاهرها وطقوس عباداتها المختلفة، وعلاقتها بالمجتمع الدمشقي والسلطات العثمانية ثم علاقتها مع بعضها البعض. فمن حيث الاصول والتفرعات نرصد الطرق الآتية:

النقشبندية ــ الخلوتية ــ السفرجلانية ــ المولوية ــ القلندية ــ الحيدرية ــ الرفاعية ــ القادرية ــ الجيلانية ــ السعدية أو الجباوية ــ الشاذلية ــ الصمادية ــ النحلاوية ــ المحيوية ــ الرشيدية ــ البكرية ــ التغلبية ــ الهاشمية ــ التلمسانية ــ الأحمدية ــ العلوانية ــ الشيبانية ــ البرهامية ــ السهروردية ــ البكتاشية ــ الجشتية ــ وغيرها من الطرق والفروع التي غاب عنا بعضها.

ولم تكن هذه الطرق على درجة واحدة من الأهمية في دمشق. وأبرزها ماتبنتها الخاصة في استانبول وهي غالبا الطرق الصوفية الأصول، والتي تفرعت بدورها على يد بعض الشيوخ فأسسوا طرقا خاصة بهم أسموها بأسمائهم، ولايمكن تفسير هذه الظاهرة إلا بطموح الشيوخ الشخصي لنيل الجاه الاجتماعي.

ولقد ترأس هذه الطرق في دمشق شيخ مشايخ، الذي كانت مهمته التحدث على جميع الخوانق والفقراء، وكان يتولى هذا المنصب شيخ الخانقاه السمسياطية، وكانت لديه سجلات وجرائد تحمل أسماء النازلين بالخانقاهات، وسجلا بمبالغ الأموال التي كانت تصرف على كل خانقاه وما الى ذلك[1].

(١) انظر: الأربلي، الحسن. مدارس دمشق وحماماتها. تحقيق الدهمان. نقلا عن مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق. المجلد ٢٢. ج٥. ص٢٢. جمادى الاولى ــ ربيع الآخر سنة ١٣٦٦هـ/آذار ــ نيسان سنة ١٩٤٧م.

واختيرت الخانقاه السمسياطية مقرا لشيخ مشايخ الطرق الصوفية لقدسيتها، نظرا لانها كانت دارا للخليفة الاموي الزاهد عمر بن عبد العزيز.

الطريقة النقشبندية[1]

كانت من أهم الطرق الصوفية لصلتها برجالات السلطة العليا في استانبول، وللدعم الذي قدموه لشيوخها في دمشق. ولقد جاءت هذه الطريقة الى دمشق عن طريق صلتها بالهند، ولكن لم تظهر أهميتها في مجتمع دمشق إلا في أواخر القرن الثامن عشر على يد آل المرادي[2] وغيرهم، ولقد لعبت الظروف التي طرأت على الهند في هذه الفترة دورا في دفع رجالات هذه الطريقة نحو المناطق الغربية من آسيا الاسلامية بما فيها بلاد الشام. وكان من أبرز شخصيات النقشبندية في هذه الفترة في دمشق المفتي محمد خليل المرادي (١١٧٣ ــ ١٢٠٦ هـ/١٧٦٠ ــ ١٧٩٢ م)، الذي كان له مؤلفات عدة وعلى صلة برجالات استانبول. وتصدى لمظالم والي دمشق أحمد باشا الجزار (فكاتب الدولة العلية وعزل أحمد باشا الجزار قهرا عنه)[3] وان دل هذا على شيء، فانما يدل على مدى نفوذ النقشبنديين الدمشقيين في استانبول، وما لهذه الطريقة من اتباع لدى خاصتها. وكان لهذه الطريقة أتباع من خاصة دمشق والهيئة الحاكمة فيها، فمثلا: الدالي باش الكردي الأصل الكنج يوسف كان نقشبندياً (وكان له معرفة من أعيان الدولة في استانبول ولكونه من مشروب الدولة عين

---

(١) أصل تسميتها فارسي مشتق من كلمة النقاش والمراد بذلك هو نقش صورة الكمال بقلب المريد. وأما مؤسسها فهو بهاء الدين النقشبندي البخاري (٧١٧ ــ ٧٩١ هـ). انظر: التفتازاني أبو الوفا الغنيمي. مدخل الى التصوف الاسلامي، ص٢٩٧.

(٢) أبرز أقطاب الطريقة النقشبندية هو جد آل المرادي (محمد مراد الأول) الذي ولد في بخارى عام ١٠٥٠ هـ/١٦٤٠ ــ ١٦٤١ م/ والذي توفي سنة ١١٣٢ هـ/١٧٢٩ م. والذي ترك مسقط رأسه واتجه الى دمشق والهند والقسطنطينية. واستقر في نهاية المطاف في دمشق. وكان قطبا من أقطاب الطريقة النقشبندية التي اكتسبها في إحدى رحلاته الى الهند. انظر: المرادي محمد خليل. عرف البشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام. ص٨٦. دمشق ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م. ثم سلك الدرر.. ج٤، ص١١٤.
ــ وكان من أتباعها من الشخصيات البارزة في دمشق المتصوف الكبير الشيخ عبد الغني النابلسي، استاذ الأساتذة العالم العلامة صاحب المصنفات العديدة. انظر: المرادي. سلك الدرر. ج٣، ص٣٠ وما بعدها. وكان من تلامذته السلطان مصطفى. انظر: غران بيتر. المرجع السابق. ج١، ص٢٧١.

(٣) انظر: العبد، حسن آغا. تاريخه، ص١٠.

والياً على دمشق) سنة ١٢٢٢ هـ/١٨٠٨م[١]. إلا أن هذا الوالي كان جاهلاً ومتزمتاً، فضيّق كثيرا على حرية أهل الذمة، وقتل العديد من الدمشقيين ظلما، وسعى لجمع الأموال بطرق مختلفة، وتقاعس عن تنفيذ أوامر الدولة بالتوجه الى الحجاز لضرب الوهابيين واسترجاع الأماكن المقدسة منهم[٢].

ونروي مثالاً آخر على مدى نفوذ النقشبنديين في دمشق، في حادثة سجن القاضي لاحد شيوخها وهو الشيخ حسن بن ابراهيم البيطار الشافعي الأشعري النقشبندي «فقامت الناس على ساق وأظهروا حال الخلاف والشقاق ورعدت رعود الفتنة وسال سيلها. كل انسان متقلد بأنواع السلاح فاضطر علماء دمشق وأعيانها للتدخل واخراجه من سجنه فأخمدوا بذلك نار الفتنة قبل اندلاعها وكان مع نفوذ هذا الشيخ أن قابل السلطان عبد المجيد خان مرات عديدة وعرض عليه السلطان تخصيص راتب معاشي فرفض ذلك»[٣].

ولبس خرقة المشيخة النقشبندية في دمشق أناس عديدون كالشيخ أحمد البقاعي المتوفي ١٢٠٥ هـ/١٧٩٠ ــ ١٧٩١م[٤]، وكان لهذه الطريقة زوايا عدة في دمشق وخارجها وأبرزها الزاوية النقشبندية بالقرب من منزل آل المرادي في سوق صاروجة، كما أقامت الذكر في التكية الكائنة في محلة القماحين في باب الجابية وكانت لها حلقات كبيرة[٥].

وكان للزاوية دورها السياسي. فهي نقطة تجمع يستطيع المجتمعون فيها مجابهة التحديات والمشاكل التي تواجه المدينة[٦]. ولقد تفرعت هذه الطريقة الى فروع عديدة كان أهمها الطريقة النقشبندية المصلحة أو الخالدية، التي تنسب الى الشيخ محمد أفندي ابن الشيخ نجم الدين ابن مولانا خالد[٧]. ثم فرع الشيخ أسعد أفندي بن الشيخ محمود شقيق

(١) انظر: مجهول. تاريخ حوادث الشام ولبنان. ص٣٥ وص٣٦.
(٢) المصدر السابق. ص٣٨ وص٣٩ وص٤٠ وص٤١ وص٤٢.
(٣) انظر: البيطار، عبد الرزاق حلية البشر.... ج١. ص٤٦٥ وص٤٦٦ وص٤٦٨.
(٤) انظر: الشطي، محمد جميل. أعيان دمشق..، ص٣٥.
(٥) غران، بيتر. المرجع السابق. ج١، ص٢٧٠. ثم المرادي. سلك الدرر... ج٣، ص٢٦٠ وص٢٦٢.
(٦) غران، بيتر. المرجع السابق. ج١، ص٢٧٠.
(٧) هو خالد أبو البهاء ضياء الدين النقشبندي الدمشقي إقامة الشهرزوري الأشعري عقيدة ــ الشافعي مذهبا النقشبندي المجددي طريقة ومشربا القادري السهروردي الكبروي الجشتي اجازة ابن أحمد بن حسين العثماني نسبا ينتهي نسبه إلى الوالي الكامل بير مكائيل صاحب الاصابع الست المشهور بين ←

مولانا خالد، ثم فرع بني الخاني [1] ومن أبرزهم محمد الخاني النقشبندي الذي عينه السلطان عبد المجيد شيخا للتكية السليمانية بدمشق. وبرزت حركة التجديد في هذه الطريقة في أوائل القرن التاسع عشر. وكان معظم شيوخها من أصول غير عربية (فرس وأكراد)، فمنهم أحمد الخطيب الأربلي الذي أقام في جامع المعلق، وصار خليفة للشيخ خالد في السياغوشية، ثم أفرده شيخه لإقامة ذكر الخواجكان في جامع العداس مجمع الخلفاء والمريدين ومات ١٢٥٠ هـ/١٨٣٥ م [2]. ولم يبرز من بين شيوخ هذه الطريقة شخصية روحية بمستوى خالد النقشبندي الآنف الذكر سواء في تركيا أو في دمشق، في حين كان معظمهم من التجار والأثرياء ورجال الدين البارزين [3].

الاكراد (بشيش انكشت) يعني ست أصابع لانه خلقة أصابعه هكذا. وهو الوالي المعروف بالانتساب الى الخليفة الراشدي عثمان بن عفان القرشي. ولد سنة ١١٩٠ هـ بقصبة «قره داغ» من أكبر صناجق بابان وهي من السليمانية نحو خمسة أميال. قرأ وتعلم على علمائها ثم رحل الى بغداد وعاد الى السليمانية ثم رحل الى «سندج» وقرأ فيها العلوم الحسابية والهندسية والاصطرلاب والفلكية على العالم المدقق (جغميتي) عصره وقوشجي مصره علاء الدين علي بن محمد. ثم عاد الى وطنه فوقع الطاعون به محنة ١٢١٢ هـ ومات أثر ذلك معظم أساتذته. فتولى التدريس مكانهم ثم ذهب الى الحج سنة ١٢٢٠ هـ عن طريق الموصل وديار بكر والرها وحلب والشام واجتمع في دمشق بالشيخ محمد الكزبري حيث أجازه بالطريقة القادرية ثم زار المدينة المنورة وأدى مناسك الحج في مكة المكرمة ١٢٢٠ هـ/١٨٠٥ م ثم عاد الى دمشق ثم رحل الى ايران ١٢٢٤ هـ ثم الى بسطام وقرمان وسمنان ونيسابور وزار امام الطريقة البحر الطامي ابازيد البسطامي ثم تركها الى طوس وزار المقامات الشريفة فيها ثم زار بلاد هرات من الافغان ثم جهان أباد وأخذ الطريقة النقشبندية بعمومها وخصوصا على شيخ مشايخ الديار الهندية الشيخ عبد الله الدهلوي واستقى في زاويته للذكر والمجاهدة وشهد له شيخه بالكمال والرسوخ والدراية ـــ وأجازه بالارشاد وخلفه من الخلافة الثانية في الطرائق الخمسة وهي: النقشبندية والقادرية والسهروردية والكبروية الجشتية وأجاز له جميع مايجوز له روايته من حديث وتفسير وغير ذلك من العلوم الدينية واجتمع بالعديد من العلماء ثم رجع الى العراق سنة ١٢٢٦ هـ فكاد له حساده لدى حاكم كردستان فدخل الى بغداد سنة ١٢٣٨ هـ ثم عاد الى السليمانية واتصل بالعديد من أبناء كركوك والموصل واربيل والعمادية وعينتاب وحلب والشام. والمدينة المنورة ومكة المكرمة وبغداد وألف الكتب الكثيرة بالعربية والفارسية وألقى عصا ترحاله أخيرا في دمشق ليموت فيها سنة ١٢٤٢ هـ ودفن في مسجده بالصالحية. انظر: البيطار. حلية البشر ... ج١ ص٥٧٠ ومابعدها.

(١) انظر: الشطي. المصدر السابق ص١٩٣. ثم غران بيتر. المرجع السابق. ج١، ص٢٧٨.

(٢) الشطي: المصدر السابق ص٣٠.

(٣) إنظر: الخالدي، عبد المجيد الخاني. الانوار القدسية في مناقب السادات النقشبندية. ص١٩، ويضم مقطعا من الفرق بين قرب الصحابة الى محمد وقرب الأولياء الى محمد وهو ينظر الى الصحابة بشيء من الازدراء ويؤكد الصدف التاريخية ورحمة محمد (ص) دون تأكيد تفهمهم أو حكمتهم الروحية أو ←

وقام مقام الشيخ خالد في دمشق الشيخ اسماعيل الأناراني الذي واظب على ارشاد المريدين لمدة /١٥/ سنة في جامع العداس[١]، ثم الشيخ أحمد الأغريبوزي المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ/١٨٣٥م ثم، أحمد السركلوي البرزنجي المتوفى أيضا سنة ١٢٥٠ هـ/١٨٣٥م ثم اسماعيل البرزنجي المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ، وكان من أخص جماعة الشيخ خالد، بالاضافة الى الشيخ اسماعيل البصري النقشبندي المتوفى ١٢٤٠ هـ/[٢]/١٨٢٥م، ثم محمد تللو المتوفى سنة ١٢٨٢ هـ/١٨٦٥م الذي تلقى الدعوة لزيارة استانبول في سنة ١٣٥٢ هـ/١٨٣٧م من السلطان محمود الثاني، ووجه دعوات مماثلة لغيره من النقشبنديين في دمشق لزيارة استانبول. وما اهتمام السلطان بذلك إلا لضمان دعمهم له في إجراءات الاصلاح[٣].

وقامت الطريقة النقشبندية بمهامها التربوية شأن بقية الطرق الصوفية، ويبرز ذلك في آداب المريد[٤]، أما من الناحية التنظيمية فقد أصبح لها ولبقية الطرق الصوفية مشيخة عامة لصاحبها التكلم على جميع الطرق وذلك قبيل بداية القرن التاسع[٥] وذلك قبيل بداية القرن التاسع. وكانت مشيخة المشايخ للطرق النقشبندية في آل خالد النقشبندي[٦].

تقديسهم على صراط الصوفي وهذه صفات اتصف بها الاولياء ووجود هذا المقطع هو نموذج للنقد السوري لحركة التحديث التي اسسها التجار والتي ركزت على الصحابة وهي حركة ظهرت في أماكن متعددة في القرن الثامن عشر.

(١) انظر: الشطي، محمد جميل. المصدر السابق ص٦٢.

(٢) انظر: البيطار. المصدر السابق ص٢٤٨ وص٣٢٣.

(٣) انظر: غران بيتر. مؤتمر تاريخ بلاد الشام الثاني.. ج١، ص٢٧١.

(٤) وهي: أولا: أن يكون مشغولا بالذكر القلبي سواء كان ماشيا أو قاعدا وأن يجري لفظ الجلالة على قلبه وأن يترك أصحاب السوء وأن يكون تاركا للفضول مختصرا على قدر الكفاية من المأكل والمشرب والملبس والمنكح، وأن يترك حب الدنيا ناظراً الى الاخوة، وأن لاينام على جنابة وأن يكون مديم الطهارة وأن لايطمع بما في أيدي الناس. وأن يحاسب نفسه على الدوام، وأن يتحرى أكل الحلال، وأن يصون لسانه عن نقل الحديث، فمن حفظ لسانه واستقام قلبه انكشفت له الاسرار، وأن يجالس اخوانه عند ضيق الصدر الخ... أما آدابه مع شيخه فهي كثيرة منها أن أن يعظمه ظاهرا وباطنا وأن لايعلق على تصرفاته ولو كان ظاهرها حراما، كما حددت آدابا للمريد مع اخوانه. ومع غير المسلمين أيضا. انظر: الاربلي محمد أمين الكردي. الهداية الخيرية في الطريقة النقشبندية. مطبعة الحبانية سنة ١٣٢٦ هـ.

(٥) أصبح لكل طريقة شيخ ولكل شيخ خلفاء ونواب ولكل خليفة مريدون، والشيخ يدير أمر الخلفاء والخليفة أمر المريدين من حيث إرشادهم ومراتبهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

(٦) انظر: التفتازاني. المرجع السابق. ص٦٦.

الطريقة الخلوتية[1]

كانت أيضا من الطرق الصوفية ذات الشأن في دمشق، لها أتباع كثيرون بين الفئات الحاكمة في تركيا ودمشق، وهي ماأطلق عليها اسم (الفئة المدرسية) وكان منها فئة ثانية أطلق عليها اسم (الفئة التجريبية) ولم يكن تأثيرها السياسي كبيراً كالفئة الأولى. ويلاحظ ذلك من خلال تراجم شيوخ الخلوتية في دمشق الذين كانوا من أصول محلية (أو عربية) على عكس النقشبندية.

ومعلوماتنا تكاد تكون معدومة عن أول من أدخل هذه الطريقة الى دمشق. ولكن هناك بعض الاشارات في هذه الفترة على أن شيخها كان في آل اليافي. وكانت عادة هذه الطريقة أن لاتنصب خليفة لشيخها إلا أجنبياً[2] عنه. ودليلها أن النبي اختار الصديق للخلافة مع كونه أجنبيا عنه في وجود عمه العباس وابن عمه علي بن أبي طالب. وراعت هذه الطريقة تلك القاعدة. وتأكد لنا ذلك من اطلاعنا على أسماء شيوخها في دمشق، وكان منهم الشيخ شاكر العقاد المولود سنة ١١٥٧ هـ/١٧٤٤ ــ ١٧٤٥م، ثم حسن بن عبد اللطيف الدمشقي الشهير بالعمري المتوفى سنة ١٢٠٠ هـ/١٧٨٦م، وهو تلميذ لأحمد

---

(١) اشتقت هذه التسمية من الخلوة، ولم يكن لاتباعها من علم أو زي يميزهم سوى لبسهم التاج وهذه الطريقة فارسية الأصل ترد في سندها الى أبي النجيب السهروردي (٤٩٠ هـ ــ ٥٦٣ هـ) مؤسس الطريقة السهروردية وقد لعب ابن أخيه أبو حفص عمر السهروردي البغدادي دورا كبيرا في تحديد آداب هذه الطريقة في كتابه (عوارف المعارف) وهو الذي يعتبر مؤسسها الحقيقي وكان السهروردي سنيا في اتجاهه وتأثر به سعدي الشيرازي شاعر الفرس، وقد عني السهروردي في كتابه بالكلام عن الرياضة العملية لحياة الربط والخلوة أو السماع الى جانب عنايته بالبحث بالمنامات والاحوال والمعرفة.

See: Trimingham «The Sufi orders In Islam» P.36.

ثم: التفتازاني. ص٢٩٠. والخلوتية طريقة مصلحة من السهروردية انتشرت بين الطبقات الحاكمة في تركية وسورية وكانت الخلوة من لوازم هذه الطريقة وهي الخلوة السرية للتفرد بالله في الذكر في مكان طاهر والأفضل أن يكون مسجد الجماعة وأن ينوي الفرد الاعتكاف والصوم. والأولى أن يتجرد عن كثرة الاكل والشرب. فان ذلك أولى. فان العطش في الطريق أمر عظيم بل هو مسرع الفتح إذا ساعد التوفيق والعناية ويشرب شيئا من الماء والدبس أو العسل ويكون ذكره في الخلوة. أنظر: المحبي. خلاصة الاثر. ج١. ص٢٥٠.

(٢) يقول المحبي: إن جده لوالدته أحمد القصيري كان شيخا لفرع من الخلوتية، لايختار خليفا إلا الابن أو الاخ أو أحد الاقارب وذلك لادخال الطمأنينة الى قلوب المريدين على اعتبار أن الخير لاينقطع في ذرية الشيخ. انظر: خلاصة الاثر.. ج١، ص٣٨٩.

البعلي الدمشقي الخلوتي[1]، ثم عمر اليافي المتوفى ١٢٣٢ هـ/١٨١٦م ــ ١٨١٧م، ورجل الفتوى هاشم التاجي الجنيني الذي اشتهر بفتاواه والمتوفى سنة ١٢٦٤ هـ/١٨٤٧م، ثم الشيخ محمد شمس الدين بن حسن الطباخ المتوفى سنة ١٢٣٧ هـ/ ١٨٢١م، والذي أخذ الطريق عن أبيه وأصبح شيخا للطريقة الخلوتية[2]، ثم الشيخ أمين أفندي الجندي[3] المولود سنة ١٢٢٩ هـ/١٨١٣ ــ ١٨١٤م والشيخ عبد الله الكتاني الصالحي المولود ١٢٠٨ هـ/١٧٩٣م والمتوفى سنة ١٢٩٢ هـ/١٨٧٥م.

ثم الخلوتية البكرية التي تنسب الى مصطفى البكري وهي خلوتية مصلحة. وكان شيخ هذا الفرع الشيخ محمد المبارك الذي أخذ الطريق عن المرشد العاقل الشيخ محمد المهدي الكلاوي، ثم عمر أفندي الغزي المتوفى سنة ١٢٦١ هـ/١٨٤٥م وأخذ الطريق عن الاستاذ مصطفى النحلاوي البكري[4]، وكان لهذا الفرع من الخلوتية مكان لاقامة الذكر وافادة المريدين يقع في المشهد اليافي في (حجرة كبيرة) من الجامع الاموي[5]. ثم الخلوتية المصلحة السفرجلانية التي ترأسها تاجر دمشقي ناجح هو خليل أفندي السفرجلاني (١٧٩٠ ــ ١٨٣٨م).

أما الفرع الخلوتي الطباخي فكان شيخا له في سنة ١١٥٨ هـ/١٧٤٦م، الشيخ يوسف الطباخ[6] ومن بعده الشيخ خالد النابلسي الدجاني ثم ابن شيخه حسن الدجاني الشهير بالطباخ، وكان لهذا الفرع حجرة في المدرسة السمسياطية يقيم الذكر فيها بعد صلاة الجمعة[7]. ومن مشايخ هذا الفرع الشيخ محمد الزهدي بن عمر الدمياطي الاصل

(١) انظر: البيطار، عبد الرزاق.. حلية البشر.. ج١، ص٥٥٦.
(٢) انظر الشطي، محمد جميل. أعيان دمشق. ص٢٤٨.
(٣) انظر الشطي. المصدر السابق. ص١٤٠ وص٢٤١ وص٢١٣ وص٢٩٠ وص٤٤ وص٦٧ وص١٩٤.
(٤) الشطي. أعيان دمشق ص٢١٥ وص٢٦٢. ثم: غران، بيتر الاسس الاجتماعية في دمشق مؤتمر تاريخ بلاد الشام الثاني، ص٢٧٣.
(٥) الشطي. المصدر السابق ص٢١١. ثم غران، بيتر. مؤتمر تاريخ بلاد الشام الثاني. ج١، ص٢٦٨ وص٢٧٩.
(٦) الحلاق، حوادث دمشق اليومية. ص٦٣. ثم غران، بيتر. مؤتمر تاريخ بلاد الشام الثاني، ج١، ص٢٨٠.
(٧) انظر: الشطي ــ المصدر السابق، ص٧٥.

الدمشقي الحنفي، الذي أحيا هذه الطريقة، أخذ الطريق عن والده ومات سنة ١٢٧٠ هـ/١٨٥٤ م، ثم الشيخ محمد شمس الدين بن حسن المعروف بالطباخ الذي توفي سنة ١٢٣٧ هـ.

وكان للطريقة الخلوتية (مقدم) يساعد شيخها في إقامة الاذكار وتسليك المريدين. فمثلا محمد المهدي المغربي الزواوي المالكي كان مقدما لهذه الطريقة وكان يسلك المريدين ويقيم الأذكار في المدرسة الخضيرية، توفي سنة ١٢٢٦ هـ/١٨١٢ م [١]. وكان للطريقة الخلوتية زاوية خاصة بها تقع بالقرب من باب جيرون. وكان أبو بكر الدسوقي الخلوتي الشافعي المولود في دمشق سنة ١١٢٤ هـ/١٧١٣ م يقيم الذكر والتوحيد على عادتهم في تلك الزاوية [٢]. ويذكر ابراهيم الخياري الذي زار دمشق في القرن الثامن عشر ان هذه الزاوية كانت في باب البريد [٣]، وعلى العموم فباب البريد وباب جيرون ليسا بعيدين عن بعضهما وربما التبس الأمر على الخياري كونه ليس من أبناء دمشق.

وكانت لهذه الطريقة زاوية وتكية بالقرب من باب الله خارج دمشق أنشأها الوالي أحمد باشا المعروف بكوجك أحمد الأرنؤودي الذي حكم دمشق سنة ١٠٣٩ هـ/١٦٣٠ م. [٤] ومن مشايخ الخلوتية في دمشق أبو السعود بن أيوب الحنفي الدمشقي [٥] ثم يوسف المملوك الذي أخذ الطريق عن حسن الطباخ المتوفى سنة ١١٢٣ هـ/١٧١٢ م والذي أخذ الطريق بدوره عن الشيخ حسن الكتاني الصالحي [٦] ثم محمد العباس الذي أخذ الطريق عن ابراهيم بن سعد الدين الخلوتي ولم يخلفه أحد من ذريته على زاويتهم [٧]، ثم حسن النخال الذي أخذ الطريق عن مصطفى الصديقي الدمشقي ولقنه الذكر وأسماه وأجازه بالخلافة وألبسه كسوة الطريقة، وكان معاشه من عقارات ورثها عن آبائه يقتات بها كفافا [٨].

---

(١) البيطار عبد الرزاق المصدر السابق ج٢، ص١٣٢٩ وص١٣٣٧ وص١٣٣٨.
(٢) المرادي، محمد خليل. سلك الدرر ... ج١، ص٥٢.
(٣) انظر: المحبي، خلاصة الأثر، ج١، ص٣٨٥.
(٤) انظر: تحفة الادباء وسلوة الغرباء. ص١٧١.
(٥) انظر المرادي. سلك الدرر. ج١، ص٦٣. ثم المحبي. خلاصة الاثر.. ج١. ص٣٨٥.
(٦) انظر: المحبي أيضا. ج٢، ص٣٥.
(٧) المصدر السابق. ج١. ص٤٢.
(٨) انظر: المصدر السابق ج٢. ص٣٤.

آداب الطريقة الخلوتية

كانت لهذه الطريقةآدابها وتقاليدها شأن بقية الطرق الصوفية. وكانت في معظمها شكلية تتعلق بمجاهدة النفس وقهر الجسد وتحديد نوع من الطعام وكمية ماء الشرب. ثم الانقطاع عن الأهل والولد والزوجة ... وسائر الناس. وكانت تقاليدها في هذا المجال تختلف من فرع الى آخر من فروعها[١] وكانت لهم طريقة في الاذكار يرددون في خلوتهم كلمة (لا اله إلا الله) آلاف المرات فلاتخرج تلك العبارة بعد ذلك إلا على شكل (هو هو هو)، وينشدون كلام السادة الصوفية ويقوم بذلك أحد المنشدين أو يرددون ذلك سوية في مجالسهم، كما كانوا يكثرون من الاستغفار والتسبيح والصلاة على النبي.

وكانت لهم تقاليدهم في خلوة الجماعة بحيث لاتتجاوز الثلاثة أيام، أما الفرد الواحد فيخلو لنفسه حسبما شاء من ثلاثة أو سبعة أو خمسة عشر أو ثلاثين يوما أو سبعين يوما في العام، أو العمر كله وهي الخلوة الكلية بالسر المطلق. ويرى بعضهم أن الانسان لايتخلص من أحكام نفسه إلا اذا توالت مجاهداته لها وتتابعت خلوته حولا كاملا بحيث يسيطر على نفسه كليا ولاتعود تستولي عليه.

ولقد اختار الخلوتيون اثني عشر اسما تذكر بالترتيب شيئاً بعد شيء على حسب الوارد[٢]. وكانوا يتقيدون بنوع من الزي خاص بهم. كما تمسكوا بمظاهر أبعدتهم كثيراً عن جوهر العبادة الصوفية الاصيلة. فكنت ترى المريدين أثناء الاذكار محلقين يدورون وقد وضعوا أيديهم بعضها في بعض يذكرون الله في رقصة يسمونها الهوية قائلين (هو هو هو) وكان بعضهم يركبون أيديهم الى الوراء أما رؤوسهم فيحركونها بالتصعيد والتسفيل والتلوي على هيئة لعبة يسميها النصارى ركض الديك[٣].

---

(١) انظر: الطويل، توفيق، المرجع السابق. ص٦٨.

(٢) يذكر المحبي في كتابه خلاصة الأثر ... أن أحد فروع الخلوتية في مدينة حلب. كان في كل ستة أيام من الشتاء له خلوة عامة يجتمع فيها المريدون فيصومون ثلاثة أيام ويأكلون عند المساء مقدار أوقتين من الحريرة ورغيفا من الخبز أكثر من أوقية، ولايشربون الماء القراح بل يشربون القهوة ويستمرون في الذكر والعبادة آناء الليل وأطراف النهار وأما باقي الايام فيقومون سحرا ويتهجدون على قدر طاقتهم ثم يأخذون في الذكر الى وقت الاسحار ثم يصلون الصبح لكون الشيخ حنفيا ويقرؤن الأوراد ويصلون الاشراق، وهكذا يفعلون العبادات في أوقات الصلوات المفروضات.

انظر: ج١ ص٣٩٠. ترجمة الشيخ إخلاصي الخلوتي.

(٣) انظر: الطويل، توفيق. المرجع السابق. ص٦٩، وص٧٠، وص٨٣.

وكانت تتزيا بالزي الابيض وحددت لون الكلاة والنطاق في الوسط، ومؤسس هذه الطريقة جلال الدين الرومي[1] المعروف بملا خنكار (منلاخدا وندكار) دفين قونية أطلق عليه أتباعه اسم «مولانا»، ومن هنا اشتقاق اسم الطريقة، وهو من أعظم شعراء الفرس على الاطلاق ويعرف أتباعه باسم «الدراويش» أي الفقراء. وكانوا يحاولون في رقصاتهم الدائرية التواجد على أنغام الموسيقى، اشتهروا في أرجاء العالم الاسلامي، وكانوا يدعون في أوربا بالدراويش الراقصين[2].

انتشرت هذه الطريقة في أنحاء الدولة العثمانية حتى بلغ عدد تكاياها ٣٦٠ تكية وكان مركزها قونية. وكان لهذه الطريقة أتباعها في مدينة دمشق، واسست لها تكية في عهد والي دمشق العثماني حسن باشا (٩٩٣ هـ) عرفت بتكية الدراويش، وكانت تقع بالقرب من جامع تنكز ولها محراب حسن ومنبر خشبي لطيف، والى اليمين الداخل درجات ينزل بها الى

---

(١) هو محمد بن محمد بن الحسين بن أحمد جلال الدين الرومي، كان فيلسوفا وشاعرا وعالما وفقيها حنفيا. ولد بمدينة بلخ سنة ٦٠٤ هـ/١٢٠٧م وانتقل مع أبيه إلى بغداد وكان في الرابعة من عمره آنئذ ثم درس بالمدرسة المستنصرية. ورحل بعد ذلك إلى قونية في سنة ٦٢٣هـ ودرس على أبيه وانتسب الى خليفة أبيه برهان الدين المحقق الترمذي، وأكمل دراسته بحضور حلقات علماء عصره في حلب ودمشق، وعاد الى قونية فأكمل سلوكه في خدمة برهان الدين تسعة أعوام، وكان بارعا في العلوم العقلية والنقلية ويؤم حلقة درسه جمع غفير من الطلاب من مريدي أبيه، ومازالت أيامه تمضي بالتدريس ولياليه تحيا بالعبادة حتى تعرف بشمس الدين محمد التبريزي. فترك مجالس التدريس وشغف بالشعر والسماع. وأدى ذلك الى تعرضه للنقد وعاد الناس عليه باللائمة فاضطر صاحبه لترك قونية ثم عاد الى قونية وعادت بعودته مجالس السماع وعاد القوم الى قدحه ولومه، وحاول مغادرتها مرة أخرى إلا أنه في هذه المرة منع من ذلك وقتل وألقيت جثته في بئر، وعلم جلال الدين بما آل اليه أمره، فذهب الى البئر وأخرج جثته منها، فغسله وكفنه وصلى عليه ودفنه في المقام المعروف بزاوية شمس الدين. اثر ذلك غادر جلال الدين قونية الى الشام وبعد وفاة صلاح الدين (جلبي) حسام الدين بدأ فترة حاسمة من حياته في التصوف والتأليف والتصنيف. وشغل الرياضة وسماع الموسيقى ونظم الاشعار وأنشدها ونظم كتابه «المثنوي» وتوفي في قونية سنة ٦٧٢ هـ/١٢٧٣م، ولايزال قبره فيها معروفا حتى اليوم. قائما في التكية التي أنشأها.

انظر: كيال، منير، رمضان وتقاليده الدمشقية، ص١٠٩ وص١١٠. ثم الخياري، ابراهيم. تحفة الأدباء وسلوة الغرباء، ص٢١١. ثم: دائرة المعارف الاسلامية. كلمة (جلال الدين الرومي)، ص٦١ وص٦٢. الترجمة.

(٢) انظر: التفتازاني، أبو الوفا، مدخل إلى التصوف الاسلامي، ص٢٩٨.

صحن مستطيل يؤدي الى قبة الحضرة، حيث كان دراويش المولوية يقومون برقصهم المعروف، وفي قلب تلك الحضرة قبر لأحد شيوخها، وحوالي تلك الحضرة أيضا عدة غرف لسكن الدراويش[1]، وكان يرأس الطريقة دائما واحد من سلالة جلال الدين يطلق عليه اسم جلبي[2].

ولهذا لانلاحظ أحدا من رجال الدين الدماشقة استلم مشيخة هذه الطريقة في دمشق، وجميع من ورد ذكرهم في مشيختها في هذه الفترة هم من أصل رومي، لم تلعب هذه الطريقة دورا سياسيا بارزا كغيرها من الطرق الصوفية في دمشق، في حين كان لشيوخها السطوة التامة لدى أركان الدولة في استانبول وخاصة عند سلاطينها، ويظل مجلس السلطان العثماني غاصا بأشياخها. وحسبنا هنا أن نسوق مثالا على مدى الجاه الاجتماعي الذي تمتع به أحد شيوخها في انطاكية حيث «كان يمشي في موكبه مايقارب مائة رجل من حفدته ومريديه»[3].

على أن أبرز مشايخها في دمشق في هذه الفترة كان (الشيخ عبد الرحمن المولوي الرومي القونوي نزيل دمشق وشيخ تكية المولوية. قدم اليها واستوطنها وصار شيخا لها في تكيتهم وكان يحفظ كتاب (المثنوي) وكان خاتمة مشايخ هذا الطريق في دمشق وبعده لم يشابهه أولاده ولا الذين صاروا مشايخ لها من بعدهم ومات سنة ١١٥٧ هـ/١٧٢٥ م ودفن في التكية المذكورة)[4].

ثم الشيخ عبده أفندي بن الشيخ صالح أفندي. ومعلوماتنا عن هذا الشيخ لاتتجاوز ماورد في سجل القسمة العسكرية بدمشق حيث «نصب في ١٧ شوال سنة ١٢٥٣ هـ ناظرا شرعيا على الوصية الحرمة زينب بنت علوش آغا الارناؤوط على ولدها القاصر من بعلها المرحوم محمد آغا بن يوسف آغا العنتبلي، من قبل القاضي محمد طاهر أفندي نائب وقسام قاضي قضاة دمشق»[4]. ومن مشايخها أيضا في الفترة الأخيرة، سعيد الاحمدي المولوي المتوفى سنة

---

(١) انظر: ابن عبد الهادي، يوسف. ثمار المقاصد في ذكر المساجد. ج٣، ص٢٠٠.
(٢) انظر: دائرة المعارف الاسلامية كلمة (جلال الدين الرومي)، ص٦١. الترجمة.
(٣) انظر: المحبي. المصدر السابق. ج١، ص٥.
(٤) انظر: المرادي. سلك الدرر. ج٢، ص٣٢٩.
(٥) سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٤٠، سنة ١٢٥٠هـ — ١٢٥٤هـ. ص١٠١.

١٢٨٦ هـ/١٨٧٠م ويقول محمد جميل الشطي إنه: «خدم هذا المسلك باخلاص وصدق وحافظ على أملاك التكية المولوية وكان يطبخ الطعام كل يوم لمريديه الدراويش القاطنين فيها»(١).

وكان من عادة هذه الطريقة، اذا مات شيخها، وضعت على قبره هيئة كسوته المولوية المتميزة التي كان يلبسها في حياته(٢). وحافظت هذه الطريقة على تقاليدها الخاصة بتسليك المريدين(٣).

ولم تكتف الطريقة المولوية بعقد مجالسها(٤) في يوم الاثنين والجمعة من كل اسبوع بل

---

(١) روض البشر ... ص١٣٠ وص١٣١.

(٢) المرادي. سلك الدرر. ج٣، ص١٦٠.

(٣) أما طريقتها في تسليك المريدين فكانت تتم على الشكل الآتي: يقوم الشخص الذي يريد سلوك الطريقة (أي التابع) بالطلب من شيخها أن يسمح له بمتابعة حلقات الذكر التي تعقدها ليلة الاثنين والجمعة من كل اسبوع. ريثما يقوم شاويش الطريقة بالبحث عن سلوك وأخلاق هذا التابع في حيه وبين أصحابه ومعارفه فاذا تأكد من سلامة سمعته وطويته وسلوكه يعلن الشيخ عن قبوله ويطلب منه إحضار الجبة الخاصة بهذه الطريقة ثم الكلاة أو السكة «طربوش خاكي اللون مخروطي الشكل» الخاصة بالرأس ويعين الشيخ موعدا للاحتفال بقبوله. ويبلغ شاويش الدراويش عن هذا الموعد. حيث يقلد شيخ الطريقة (التابع) الكلاة ويعلن قبوله درويشا في الطريقة وبعد أيام يولم الدرويش على سماط للدراويش ولمة تسمى (لقمة الطعام أو ملح الطريقة) كي يتعرف بالدراويش فيصبح أخا لهم في الطريقة والممالحة وكان للطريقة في مجالسها، أعباء توزعها على الدراويش وكل درويش يسمى بحسب العبء الملقى عليه. فهناك (الميدانجي) وهو مايعرف بالشاويش ومهمته التحري عمن يريد سلوك الطريق المولوي، ثم (النيازان) وهو عازف الناي ثم (قدوم خان) وهو مناوب القدوم على النقارات ثم (القسي باشي) وهو يلاحظ الدراويش أثناء الدوران في حلقة الذكر ثم (النعت خانة) وهو قارىء الدعاء.

(٤) أما مجالسها فكانت تتم على الشكل التالي: يدخل الدراويش الى الحضرة (السمع خانة) قبل شيخ الطريقة بالألبسة التقليدية فيقبلون الأرض ويجلسون وبعد فترة وجيزة يدخل الشاويش (الميدانجي) فينهض الجميع فيحييهم باحناء الرأس ويحيي الحضور ويرد الحضور التحية ويقف الشاويش جانبا ومن ثم يدخل الشيخ فيحيي الجميع بنفس الطريقة وفي نفس الوقت يرد أحد المطربين (المنشدين) من الدراويش الجالسين في سدة عالية مخصصة لهم «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته» ويمدها حتى يصل الشيخ الى البسط مركز جلوسه فيجلس ويجلس الجميع وبذلك يكتمل الحضور. ويبدأ الاحتفال بعشر من آي الذكر الحكيم يتلوه أحد المنشدين من السدة. ومن ثم ينهض (النعت خانة) فيقرأ التالي: إذا رمت المنى يانفس رومي — لمولانا جلال الدين الرومي. وعندما يصل الى كلمة «حضرة مولانا» تضرب ثلاث ضربات على القدوم فتبدأ النايات بالنفخ باشراف (سماع مولوي خانة) وبمصاحبة القدوم ثم ينهض الدراويش ويبدأون ←

عقدت جلساتها في ليلة ٢٧ رجب والنصف من شعبان والمعراج، والمولد النبوي الشريف وليلة القدر. كما كانت تتقدم جنائز الأعيان والأثرياء وبعض الصالحين وكان دراويشها ينالون جعالات، بعضها من الناس الذين يرعونهم وبعضها من الأوقاف التي حبست لزاويتهم. وكانت الطريقة المولوية برئاسة شيخها، تشارك بقية الطرق الصوفية في توديع شهر رمضان

الدوران وينهض الشيخ عن البسط فيحيي الحضرة ثم يلتفت الى (العشي باشي) فيحييه ويدور الشيخ ويدور خلفه العشي باشي ومن خلفه الدراويش. وعندما يتمايل مع المشي عند البسط خلال الدوران يتبادلان التحية باحناء الرأس وهكذا يتمايل الدراويش الى آخر الدورة ثلاث مرات يعود بعدها الشيخ إلى مكانه وهو يدور ويعلق هذه الدورات الثلاث دورة (سلطان ولد).

وخلال الدوران يضعون أيديهم على الصدر والقلب في هيئة الجمع وينطلق أحد المطربين من السدة بالمدائح النبوية بمصاحبة الناي. وبعدها تصاحب (القدوم) النايات ويخلع الدراويش الجبب السوداء (الخرقايات) ويبدون بلباسهم الابيض الفضفاض فيتقدم العشي باشي الى امام الشيخ فيحييه ويقبل يده ويرجع جانبا ويحزو حزوه الدراويش ومن ثم تبدأ حلقة الدوران مع الناي. وفي نفس الوقت يتوسط العشي الحلقة ويوزع أماكن الدراويش في الدوران ويشرف على دوراتهم حتى لايصطدموا أثناء الدوران واذا بدا أي خلل ينبه المخطىء بضربة على الأرض بقدمه فيتبعه ويرجع الى الصواب ثم يدور العشي دورتين ويخرج من الوسط الى جانب الشيخ فيحييه ويرد الشيخ التحية وهنا يتوقف المطربون والدراويش ويعودون الى مجالسهم فيخرج الشيخ عن البسط الى نصف الحلقة فينحني تحية للدراويش ويردون التحية ويعود الى مكانه. ثم يبدأ الانشاد بالمدائح النبوية بمصاحبة الناي والقدوم. وبعد المدائح تكرر طقوس الدوران مرتين أخريين ويدور الدراويش في كل مرة حتى لايتعبوا وفي رابع مرة يكون الدوران في الأوج يخرج العشي من الحلقة الى أمام الشيخ والدراويش يفتلون بالخرقاية السوداء مع الدراويش وعندئذ يتوقف الانشاد وتصاحب الذكر الناي والقدوم «يشرف مولوي خانة» ثم بعد ذلك ينشد أحد المطربين من أعلى السدة بمصاحبة الناي مدائح نبوية وفي هذه الاثناء يرجع الشيخ وهو في حالة الدوران من وسط الحلقة الى مكانه على البسط وعند وضع قدمه على البسط يحيي البسط، وهنا يتوقف كل شيء، ويرتدي الدراويش الجبب السوداء ويجلسون صامتين في أماكنهم لسماع عشر من القرآن الكريم ختام الحضرة، وبعد الفاتحة ينهض الجميع يتقدمهم العشي إلى الشيخ الذي يضع يده على صدره فينحني العشي ويقبل يد الشيخ بينما يقبل الشيخ كلاة العشي، ومن ثم يقف العشي جانبا ويحذو حذوه جميع الدراويش، وبعدها يقبلون أيادي بعضهم من أجل السماح عن بعضهم ان صدف أن أخطأ أحدهم أثناء الدوران عن غير قصد منه ثم يصرخ العشي بصوت عال «أي والله كايذان» لقراءة دعاء الختام ويكون بالفارسية ويقرأ الشيخ «تيايتي اذدان برما حاظر ناظر باق دملر صفالر رباد أولاد مقابلي شريف خير الله دام حضرة مولانا في القبور سر مكان هذا الرحاب هو وياكم هو»، وبعدها يطلع الشيخ من على البسط ماشيا على قفاه فيحييها ويظل سائرا على قفاه حتى يخرج، وبعد التحية يصرخ أحد المطربين من أعلى السدة بصوت عال وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ويمدها حتى خروج الشيخ من الباب ويحذو حذوه العشي والدراويش.

— وللطريقة المولوية احتفالاتها الخاصة في احياء ليلة ٢٧ من رمضان. وكان الشيخ يولم على سماط افطارا
=

عندما يتم الثلاثين يوماً ، وذلك في الجامع الأموي ، وفي مكانها المحدد ، بتلاوة الأوراد والأذكار والتهليل والتكبير والمدائح النبوية والتوديع .

الطريقة القادرية

كانت تتزيا بالزي الاخضر ، أما بيارقها وعمائم أتباعها فبيضاء . تنسب هذه الطريقة الى الشيخ عبد القادر الجيلاني[1] الذي أنجب عدة أولاد منهم يحي وصالح وعبد الرزاق

للجميع ، وبعد صلاة التراويح يعقد الذكر في مقر التكية المولوية ، ويحضر ذلك من شاء من الناس ، ومنهم من توجه لهم دعوات خاصة . ويجري الذكر على نحو ماوصفناه . وبعد ذلك يخرجون من التكية يتقدمهم الشيخ والعشي باشي في شبه مظاهرة الى دار التغلبي في السبع طوالع حيث يعقد ذكر آل التغلبي ، فيسهم الدراويش في ذلك الذكر بالدوران . وبعد ذلك يخرجون الى دار اليافي في القوافين قرب مسجد الأموي حيث يشاركونهم على نحو مشاركتهم عند آل التغلبي . ثم يخرجون الى دار الشيخ غزال في القيمرية ثم الى دار العيطة . ومن هناك الى دار القضماني عند جادة ستي رابعة . فيشاركونهم في ذكرهم ويتسحرون عندهم ، وبعد السحور يذهبون الى المسجد الاموي فيدخلونه من الباب الشرقي للمسجد وينزلون بحالة الدوران من الطبقة الاولى دون موسيقى (ورد السحر) على شكل مشراط طويل يتقدمه العشي باشي حتى المترنم حيث يعودون الى مكان الانطلاق ويدورون ثاني طبقة وعند مقام النبي يحي ينزل الشيخ وهو يفتل وخلفه الدراويش وعندها يتوقف الذكر ويقرأ الشيخ دعاء الختام ولكنه بدلا من جملة (دام سر حضرة مولانا في القبور يقول سر نبي الله يحي) ثم يصلون صلاة الصبح ويخرجون . انظر كيال ، منير . رمضان وتقاليده الدمشقية . ص١١٢ وص١١٤ وص١١٥ وص١١٦ وص١١٧ .

(١) هو السيد محي الدين أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح موسى جنكي دوست بن السيد عبد الله ابن السيد يحي الزاهد بن السيد محمد بن السيد داوود بن السيد موسى الثاني بن السيد عبد الله بن السيد موسى الجون (بضم الجيم) يعني الأبيض ابن السيد عبد الله المحض (وهو لقب معناه خالص) ابن السيد الامام الحسن المثنى ابن السيد الحسن السبط ابن الامام الهمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب .

ـ أما نسبه لامه فهي : فاطمة بنت عبد الله الصومعي بن جمال الدين محمد بن محمود بن طاهر بن الامام أبي العطاء عبد الله بن الامام كمال الدين عيسى بن السيد الامام علاء الدين محمد الجواد بن الامام علي الرضا بن الامام موسى الكاظم بن محمد الباقر بن الامام علي زين العابدين ابن الامام عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب .

ولد في جيلان سنة ٤٧٠ هـ/١٠٧٧م ثم ترك جيلان وجاء الى بغداد سنة ٤٨٨ هـ/ والتحق بالمدرسة النظامية ثم أخذ قسطا من الفقه الحنبلي وكان على ! ـرسة النظامية آنئذ أحمد الغزالي الصوفي المعروف وخلفه عليها أخوه أبو حامد ، ولقد استلم أول تقليد للخرقة في الفقه الحنبلي على يد سعيد علي المفارحي على طريقة الخضر ولكن لاتوجد أي دلائل تشير الى أنه تلقى أية تمارين صوفية إبان عمله في مدرسة الخير حماد والدباس سنة ٥٢٥ هـ/١١٣١م .

وترك المدرسة هذه وساح في بادية العراق زاهدا في الدنيا لمدة دامت خمسا وعشرين سنة كاملة وذلك ←

(٥٢٨ ـــ ٦٠٣ هـ) وعبد العزيز المتوفى سنة ٦٠٢ هـ، عمل عبد العزيز وعبد الرزاق على نشر تعاليم والدهما بجد واخلاص كما قام تلامذته بتدريس مذهبه في العالم الاسلامي، ونهج بعضهم منهجا منسجما مع تعاليمه وأسسوا فروعا لهذه الطريقة. وأبرز هؤلاء علي الحداد في اليمن ومحمد البطاحي في سورية ومحمد بن عبد الصمد في مصر[1]. واتسمت طريقة عبد القادر الجيلاني بشكل عام بالطابع الخلقي في تربية التلامذة (وايصالهم الى تجريد التوحيد والحضور في موقف العبودية)[2]. وقد امتدح ابن تيمية طريقته لتقيدها بالكتاب والسنة. وطريقته هذه كانت نظاما عاما أكثر منها طريقة صوفية محددة. انتشرت هذه الطريقة مع فروعها في معظم الأقطار الاسلامية مثل اليمن وسورية ومصر وافريقيا والسودان والهند وتركيا وأصبحت من الطرق الكبرى وظل عبد القادر بطريقته تلك ملهما للملايين من المسلمين حتى يومنا هذا[3].

ويبدو أن هذه الطريقة قد ترسخت أقدامها في دمشق بفضل آل الكيلاني الحمويين الذين جاؤوا الى دمشق واستقروا فيها، ومن أبرزهم اسحق الكيلاني المولود سنة ١١١١ هـ/١٧٠٠ م الذي أخذ الطريق عن والده ولقنه الذكر واشتهر أمره بين الناس وكان الحكام والقضاة يجلّونه[4] ولاغرابة في ذلك اذا ماعلمنا أن آل الكيلاني يدعون انحدارهم من

حتى سنة ٥٢١ هـ/١١٢٧ م/ حيث عاد الى بغداد وقد تجاوز عمره الخمسين عاما وهنا برز كمبشر وواعظ واعتبر الحلاج على خطأ وبدأت شهرته تنتشر كزاهد حنبلي وليس كصوفي. وحافظ على زي العلماء ولم يلبس زي المتصوفين وسكن وأسرته في رباط تابع لمدرسة أنشأها له تلامذته سنة ٥٢٨ هـ/١١٣٤ م. لايوجد لدينا أي دليل على أنه قام بتسليك المريدين فيها كما لانرى في هذه الفترة أي شخصية صوفية تدعي لنفسها الانتساب لمدرسته الصوفية في تلك الفترة من الزمن.

كتب عنه في هذه الفترة كل من أحمد الغزالي وأبو نجيب السهروردي وأبو يوسف الحمداني وتقي الدين الواسطي واتفق هؤلاء على أنه كانت لعبد القادر احتفالات دينية ودورات تعليمية دينية أيضا ولكنه لم يهدف الى نشر طريقة صوفية خاصة به. وعلى مايبدو أنه بعد وفاته ومع مرور الايام اتخذ بعض أناس معينين خرقته معتمدين في نشرها على بركته وسرعان ما انتشر في الافاق الاسلامية.

(١) انظر: أبي النصر. حسنين. الشجرة الذكية في مناقب السادة البازية والقادرية والرفاعية طبع استانبول سنة ١٣٠١ هـ ثم القادري محمد. نزهة الخاطر في ترجمة سيدي عبد القادر. طبع استانبول سنة ١٣٠٧ هـ.

(٢) القادري. المصدر السابق.

3 - Trimingham. op.cit. PP.40.41.

(٤) انظر المرادي، محمد خليل، سلك الدرر ... ج١. ص٢١٩ وص٢٢٠.

مؤسس الطريقة الاصل (عبد القادر الجيلاني). **ومن مشايخهم** أيضا ياسين الكيلاني[1] ومريده الشيخ حسين البيتيماني الذي أخذ الطريق عنه وقام بالتدريس في زاويتهم الكائنة تجاه الشيخ محمد الحميري في ميدان الحصا. وكان يقيم الذكر في مدرسة اسماعيل باشا العظم بالخياطين ومات سنة ١١٧٥ هـ/١٧٩٣ م[2]. ومن أبرز مَنْ ورد ذكرهم من شيوخها في كتب التراجم في هذه الفترة، الشيخ أحمد البقاعي والشيخ طه الكردي المتوفى سنة ١٢١٠ هـ. ثم الشيخ حامد العطار تلميذ طه الكردي ثم الشيخ قاسم الحلاق المولود في دمشق سنة ١٢٢٣ هـ والشيخ محمد طه غزال[3]. ولقد اشتهر شيوخها بالتواضع وعدم ابراز الابهة في مواكبهم على عكس بعض شيوخ الطرق الصوفية آنئذ[4]. إلا أنه من جهة أخرى، كانوا يدعون اتيان الخوارق والمعاجز والكرامات لأنفسهم والزواج من بنات الجن وانجاب البنات منهن كما يذكر الشيخ محمد جميل الشطي[5].

ولقد تفرعت هذه الطريقة شأن الطرق الصوفية الأخرى الى فروع عدة، كان أهمها في دمشق الفرع الكيلاني، وأبرز شيوخ هذا الفرع، الشيخ محمد سعيد الكيلاني المولود في دمشق سنة ١٢٣٧ هـ/١٨٢٢ م، ويصفه عبد الرزاق البيطار بقوله: «خدم طريقة جده حسب المراد وجلس على سجادة المشيخة وجعل داره مورد المريدين ومأوى القاصدين»[6]. ومن فروعها أيضاً الفرع الصمادي، الذي ينسب الى الشيخ ابراهيم الصمادي الذي جلس على سجادة المشيخة في زاويتهم التي بناها داخل باب الصغير الجواني، وكذلك من شيوخها الشيخ عبد القادر بن موسى الذي خلف والده ولزم الزاوية لايبرحها إلا في الجمعيات ومراسم العيدين وشهود بعض الجنائز وتهنئة حكام الشرع والسياسة أو لأمر يتعلق بأهل البلد. وقبل وفاته ١١٢٤ هـ، عيّن مقدما للطريقة الشيخ علي الطيان ثم جلس على سجادتها أخوه من بعده[7]، ثم السيد عبد القادر الصمادي الذي وجهت عليه رتبة السليمانية وتولية وقف

---

(١) المصدر السابق. ج٤، ص٢٣٨. ثم ج١. ص٢٩٢.
(٢) المصدر السابق. ج٤، ص٦٨.
(٣) انظر: الشطي، محمد جميل. المصدر السابق. ص٣٥ وص١٥٦ وص٧٣ ص١٧٤ وص٢٢١ وص٢٤٦.
(٤) انظر: المحبي. المصدر السابق. ج١. ص٢٩٢ وص٣٩٣.
(٥) انظر: كتابه أعيان القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر. ص٢٤٦.
(٦) انظر: حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر. ج٣. ص١٣٣٩.
(٧) انظر: المرادي. المصدر السابق. ج٣. ص٦٠ وص٢٥٨.

السلطان ابراهيم بن الأدهم ١١٩٥ هـ، ولقد خلف والده على مشيختها[1]. ثم الشيخ أحمد الكزبري الذي كان مدرسا تحت قبة النسر بالجامع الأموي، وجهت عليه مشيخة الصمادية القادرية ومات سنة ١٢٩٩ هـ[2]. ومن فروع القادرية أيضا الفرع المواهبي، الذي كان يقيم الاذكار في مسجد محلة سويقة الحجارين الذي تحول بعد ذلك إلى زاوية لهذا الفرع، وكان من مشايخه حسن الزيات[3].

ومما تقدم نرى أن الطريقة القادرية لم تبق وقفا على أبناء اسرة الجيلاني في دمشق بل تشعبت الى فروع عديدة، على يد شيوخ من أسر دمشقية مختلفة. ويمكن تفسير هذا التشعب على أنه ظاهرة اجتماعية كانت لها مبرراتها ضمن اطار هذه الفترة التاريخية.

الطريقة الرفاعية

تنسب الى الشيخ الشريف أحمد الرفاعي[4] ٥١٢ هـ — ٥٧٨ هـ / ١١١٦ — ١١٨٢ م. وكانت تتزيا بالزي الأسمر والأبيض. وكان الرفاعيون من أصحاب

---

(١) انظر: الشطي، محمد جميل، المصدر السابق. ص١٨٥.

(٢) انظر: البيطار، عبد الرزاق.. حلية البشر... ج١، ص١٦٧.

(٣) انظر المرادي، محمد خليل. سلك الدرر.. ج٣، ص٥٧. ترجمة عبد القادر شاهين.

(٤) هو أبو العباس أحمد الرفاعي محي الدين أبي الحسن بن السيد علي بن السيد يحيي بن السيد ثابت بن السيد حازم بن السيد أحمد بن السيد علي بن السيد رفاعة احدى القبائل العربية الحسن المكي بن السيد المهدي بن السيد محمد أبي القاسم بن السيد الحسن بن السيد الحسين بن السيد أحمد الاكبر بن السيد موسى الثاني بن السيد ابراهيم المرتضى ابن السيد موسى الكاظم بن السيد جعفر الصادق بن السيد محمد الباقر بن السيد علي زين العابدين بن الامام الحسين بن الامام علي بن أبي طالب.

عاصر عبد القادر الجيلاني لذلك يدعي البعض أن طريقته هي فرع من القادرية وهو غير صحيح بدلالة توضح طريقته ابان حياته في حين أن الطريقة القادرية لم تبرز كطريقة (لها خرقة) إلا بعد ممات الجيلاني بفترة طويلة من الزمن وحتى بعد الطريقة الرفاعية.

ولقد تميزت الطريقة الرفاعية بالعديد من الطقوس والمظاهر. قام بوضع ذلك وبالتفصيل شيخها (أحمد الرفاعي المذكور) بنفسه وانطلقت هذه الطريقة من أم عبيدة بالبطاح بالعراق ولهذا سميت بالبطاحية أو الرفاعية. ومعلومتنا عن أحمد الرفاعي قليلة أما طريقته هذه فهي قريبة من السهروردية رغم أن الرفاعي ولد من أسرة عربية وأمضى كامل حياته في مسقط رأسه (أم عبيدة — البطاح) التي تقع مابين البصرة وواسط وكانت هذه المنطقة محاطة بالمستنقعات لوقوعها في جنوب العراق حيث شط العرب وغزارة المياه. ولم يترك الرفاعي مسقط رأسه إلا لمرة واحدة عندما ذهب الى الحج سنة ١١٦٠ م. أما تحصيله العلمي، في مجال الفقه والتصوف، فكان قليلا كما لم يكتب شيئا سوى بعض الأوراد القليلة التي تعزى إليه ورغم ذلك فلم

الاشاير والمراد بها سيرهم مع العديد من الطرق الصوفية ليلا حاملين الشموع رافعي الاصوات بالذكر والتهليل والصلاة والسلام على سيد المرسلين، إلى أن يصلوا الى مكان الاحتفال أو المكان المحدد لهم. وكانت عادة هذه الطريقة المصافحة، لزعمهم أن الشيخ أحمد الرفاعي قد صافح النبي ﷺ وذلك تأكيداً منهم على رابطتهم الحسية والمعنوية مع النبي محمد ﷺ. ولقد تفرعت هذه الطريقة بدورها الى بيوت وفروع عديدة[1]. وكان أبـــرز

تكن هذه الاوراد على مستوى عال من الاتقان والعمق إلا أن المنطقة التي عاش فيها كانت موئلا للحركة الصوفية العربية. خاصة مدينة البصرة التي كانت قاب قوسين أو أدنى من موطنه فمنها جاء معروف الكرخي (٨١٣م) والذي كان والداه من الصابئة وكان شيخه علي أبو فاضل القاري الواسطي الذي أدخله في طريقته وانه ورث مجموعة دينية أطلق عليها اسم (الرفاعية) لان منصور البطاحي (عمه لامه) والمتوفى سنة (٥٤٠هـ/١١٤٥م) أعطاه الخرقة عندما كان في السابعة والعشرين من عمره وأقره عليها في بلدته (أم عبيدة) وبعد وفاة شيخه هذا أصبح شيخا للطريقة وتقلد سجادة ارشادها أو تاجها الروحي كما كتب ابن خلكان في حدود سنة ٦٥٠هـ/١١٥٦م.

ان أبا العباس أحمد بن أبي الحسن علي عرف علي أنه بن الرفاعي وكان رجلا دينا وفقيها على المذهب الشافعي... انضم اليه عدد كبير من الفقراء الدراويش الرفاعية أو البطاحية واشتهر أتباعها بالتعامل بالأفاعي الحية. كما اشتهروا بإدخال الخناجر والسيوف والأشياء المتقدة في أجسادهم أو القبض عليها ثم أكل الزجاج دون أن يصابوا بأذى. ويعتبرها البعض على أنها من معاجز الصوفية وكرامة من الله لهم.

انظر: أبو النصر، حسنين. الشجرة الذكية في مناقب السادة البازية والرفاعية والقادرية. ص٢٧.

ثم انظر: التفتازاني. المرجع السابق. ص٧٥.

ثم انظر: Trimingham . op.cit. pp;37.38

ولمزيد من التفصيل يمكن العودة الى دائرة المعارف الاسلامية ج١٠، ص١٤٧ وص١٤٨ وص١٤٩ ـــ الترجمة.

(١) يذكر الدكتور توفيق الطويل أن الطريقة الرفاعية لها ثلاثة بيوت هي: البازية ـــ الملكية ـــ الجيبية والفرق بين الفروع والبيوت أن لكل فرع شيخاً. أما البيوت فجميعها لها شيخ واحد. انظر كتابه؛ التصوف في مصر ابان العصر العثماني. ص٧٧ وص٧٨.

ولانرى في دمشق من بيوتها أو فروعها إلا القليل. وقد تمثّلت على يد بعض الأسر والشخصيات الدينية مثل فرع الحريري الذي ينسب الى أبي محمد علي الحريري المتوفى في بصرى من حزيران سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٨م. والمعروف أن الحريري كان ملامتيا. وكانت هذه الطريقة وقفاً على الأشراف ثم انتقلت الى دمشق بانشاء زاوية لها هي الزاوية الطالبية التي أقامها طالب الرفاعي المتوفى سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م ومن فروع الرفاعية أيضا الطريقة الحيدرية وهي طريقة باطنية تركزت في خراسان جنوب مشهد اشتق اسمها من قطب الدين حيدر وحلت محل القلندرية وانشأت لها خانقاه تابعة لابي بكر طوسي القلندري على ضفة نهر جومنا. وأسس هذه الطريقة في دمشق محمد بن يوسف بن جمال الدين الصواجي حيث لجأ الى دمشق فارا من وجه المغول الغزاة واستقر فيها سنة ١٢٢١م ومات سنة ٦٣٢هـ/١٢٦٢م

←

فروعها في دمشق الفرع الجباوي أو السعدي. وينسب هذا الفرع (الجباوي أو السعدي) الى سعد الدين أبي محمد الشيباني الجباوي. أخذ الطريق عن والده مزيد الشيباني، وانتشرت به الخرقة السعدية وعمّر رواقا في قرية جبا من أعمال دمشق، وأرشد بها السالكين، وكان للشيخ مزيد طريقان في الخرقة، الأول منهما عن أبيه الشيخ يونس الكبير الشيباني، الذي يصل الى الامام علي بن أبي طالب، والثاني عن الامام القطب الشيخ أحمد الكبير الرفاعي[1]. ولقد اتخذت الطريقة الجباوية اللون الأخضر زيا لها وانتشرت في البلاد الشامية واستانبول وكان لهذه الطريقة أكثر من مكان في دمشق لاقامة الاذكار والأوراد وتسليك المريدين. كما كان لها زاوية في القبيبات من الميدان، تقيم التوحيد والاذكار فيها.[2] وكان لآل سعد الدين زاوية في الشاغور البراني، لها أوقاف محبوسة عليها ويقام فيها الاوراد والاذكار[3]، وكانت هذه الطريقة

ولقد لاحظ «فريزر» عندما زار بغداد ١٨٣٤ م، أن دراويش هذه الطريقة يشتغلون بالكيمياء القديمة ومنهم المنجمون والعرافون — وانهم يلفون على أكتافهم جلود الأسود والفهود أو الوعول غير المدبوغة ويسمحون لخصل شعرهم بأن تنمو حسب الارادة أو يضفرونها بأشكال مختلفة غريبة. وقلما يسيرون وهم بدون سلاح وهم دوما مزودين تزويدا حسنا بالوسائل التي يستخدمونها في صنع بعض الظاهرات الكيميائية التي تلفت النظر وبمعاجين العشق وأشربة المحبة والرقي والتعاويذ ومختلف وسائل فتح البخت وعلم الغيب لتساعدهم في انتحالهم للمهارة في شؤون الكهانة والعرافة. انظر: فريزر، جيمس بيلي. رحلة فريزر إلى بغداد. ١٨٣٤ م. ص١٦٠.

كما يميز فقراؤها بوضع الأساور الحديدية في أيديهم والاطواق في أعناقهم وكذلك الأقراط في آذانهم حتى انهم يضعون الأطواق في أعضائهم الذكرية بحيث يمنعهم ذلك من ممارسة الجماع. وهذا يعني في عرفهم كرفاعية (انتصار الروح على الجسد الفاني) ولقد انتشرت هذه الطريقة في إيران وسوريا ثم الاناضول والهند ثم ذاب اتباعها في الطريقة القلندرية.

وكان للطريقة القلندرية الحيدرية زاوية في دمشق تقع ظاهر دمشق قرب العونية وفيها دخلت الفقراء الحيدرية الشام وكان من شعار هذه الطريقة في دمشق لبس الفراجي والطراطير وقص لحاهم وترك شواربهم وهو خلاف السنة وقاموا بذلك اتباعا لشيخهم حيدر حين أسره الملاحدة فقصوا لحيته وتركوا شواربه فاقتدى هؤلاء في ذلك وهو معذور مأمور وليس لهم قدوة.

انظر: النعيمي — عبد القادر «الدارس في تاريخ المدارس» ج٢. ص٢١٢.

والدرويش القلندري كان يعمل على غريب العادات فلايعتد بهيئة ولايبالي بما يعرف عن حاله وما لايعرف ولا ينعطف إلا على طيب القلوب وهو رأس ماله. انظر: الطويل، توفيق. المرجع السابق. ص٨٤.

(١) انظر: البيطار. حلية البشر. ج١. ص١٤ وص١٥.

(٢) انظر: المرادي محمد خليل سلك الدرر ... ج١، ص٤١.

(٣) انظر: المصدر السابق. ج١، ص٤١ وص٤٢. يقول المرادي هو: «ابراهيم سعد الدين المكنى بأبي الوفا بن يوسف عبد الباقي بن أبي بكر بن بدر الدين بن حسين بن محمد بن سعيد بن أبي بكر بن ابراهيم

تقيم حفلة ذكر لها في الجامع الأموي يوم الجمعة بعد الصلاة.[1] وفي فترة متأخرة من القرن التاسع عشر كانت تقيم حلقات ذكرها في المقام التوحيدي الكائن في محلة القيمرية وذلك ليلة الجمعة من كل اسبوع وليلة الاثنين أيضا[2] واستقر فقراء هذه الطريقة في مسجد تركي حسن في الميدان الفوقاني[3].

وبقيت مشيخة هذه الطريقة في أبناء وأحفاد وأسباط استاذها وشيخها المؤسس سعد الدين الجباوي، سواء في دمشق أو في بعض المدن الشامية، ولقد نشبت خلافات بين أفراد هذه الاسرة على مشيختها وأماكن اقامة الاذكار والاوراد الخاصة بها[4]. كما حصل لها في مدينة حلب حيث يورد لنا المحبي أخبار هذا الخلاف الذي وقع بين أبي الوفا ابن محمد السعدي الذي ورث مشيخة الطريقة عن والده، وبين الشيخ عبد الرحيم السعدي الذي كان أكبر سناً أكثر اتزانا من الأول، مما دفع بالقاضي لعزل أبي الوفا. فذر قرن الفتنة بين أتباع الطرفين لدت رعودها، مما دفع بالشيخ محمد بن سعد الدين للذهاب من دمشق الى حلب وتدخل بالأمر فأطفأ نار الفتنة[5].

ولقد جلبت هذه الطريقة لآل الجباوي وسعد الدين المال والجاه الاجتماعي في دمشق وغيرها. وكان سلوك شيوخها لايختلف عما كان لدى الخاصة من رجال الدين آنئذ. فكانوا يسعون لتأمين مصالحهم الشخصية أولا ولو كانت على حساب الشعب. ونسوق مثالا على ذلك ماحصل ابان تمرد علي باشا جانبولا والأمير فخر الدين المعني، ومحاولتهما دخول دمشق

ابن علي الأكحل بن الاستاذ الشيخ سعد الدين بن موسى الشيباني الجباوي المعروف بأسلافه بابن سعد الدين الشاغوري... وبنو سعد الدين أشهر من كل مشهور وهم قوم مجاذيب صلحاء يغلب عليهم التغفل الحركات وهم معروفون بالصلاح وقد خرج منهم جماعة أجلاء. زاويتهم وسجادة خلافتهم مقرها الميدان في دمشق (بمحلة القبيات) بها يقيمون التوحيد والاذكار غير أن المترجم وأسلافهم كانوا قاطنين في محلة الشاغور البراني ولهم زاوية وأوقاف تولى تولية وقف الجامع الأموي الشريف وبعد وفاته لم يخلفه أحد من ذريتهم على زاويتهم. أقول: ولقد قمت بتفقد هذه الزاوية في حي الشاغور بتاريخ ٦/١/١٩٨١م فوجدتها أصبحت مسجدا للصلاة فقط.

(١) انظر المحبي. خلاصة الاثر. ج١، ص٣٣.

(٢) انظر: كيال، منير. رمضان وتقاليده الدمشقية. ص١٠٧ وص١٠٨.

(٣) انظر: ابن عبد الهادي، يوسف. ثمار المقاصد في ذكر المساجد. ج٣، ص٢٥٣.

(٤) انظر: البوريني، حسن. تراجم الأعيان من أبناء الزمان. ج١، ص٣٠٥، دمشق سنة ١٩٥٩ م.

(٥) انظر: تفاصيل ذلك في خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر. ج١، ص١٥٣ وص١٥٤.

مركز الوالي العثماني . ورغم أنه كان بالإمكان التصدي لقواتهما بـ ٥٠٠ مقاتل يدرؤن عن دمشق أذية قواتهما من الدروز والسكبان ، إلا أن شيخها أصدر أوامره للقوات المحلية التي همت بالدفاع عن أحيائها بقوله : «من رفع يده بالسلاح قطعتها»[(١)] ، ودخلت قواتهما إلى حي الميدان وعاثت فساداً ، في حين لم يصب وأهله بأذى .

ويورد المرادي مثالا آخر على تغفل بعض شيوخها . ففي ترجمته لشيخها ابراهيم سعد الدين يقول المرادي : «كان متغفلا يجلس على حوانيت القهوة ودابته فوقها رقعة الاعتبار وهيئة المدرسين فيصير العوام وغيرهم يهزأون به لاجل ذلك . وكان يأكل البرش المعجون المشهور ويلبس الأثواب المفتخرة المزينة ويجلس بها على حوانيت الأسواق»[(٢)] . ومع ذلك فإن شيوخها من آل سعد الدين قد اعتبروا من أعيان دمشق وخاصة رجال دينها ، وكان يحسب حسابهم في كل محفل وحين البأس ويشاركون في استقبال الولاة العثمانيين ورجالاتها[(٣)] .

ولقد عمل شيوخها بمعالجة المجانين ، وشاركوا بالاحتفالات الدينية والعامة المختلفة سواء في زاويتهم الخاصة أو في الجامع الاموي[(٤)] أو في السيارات التي كانت تطوف دمشق في مثل تلك المناسبات .

الأذكار والأوراد

لانرى جديدا بالنسبة للأذكار والأوراد لدى هذه الطريقة عما ألفناه في الطريقة الرفاعية الأم وفروعها الأخرى . استخدم أتباع هذه الطريقة في أذكارهم موشحات ألفها الشيخ عبد الغني النابلسي[(٥)] . وكان للذكر كثير من الاداب[(٦)] تسبقه وتصحبه وتعقبه .

---

(١) انظر : تراجم الاعيان من أبناء الزمان . ج١ ، ص٢٧٨ .

(٢) انظر : سلك الدرر . ج١ ، ص٤٢ .

(٣) انظر : البوريني ، حسن . تراجم الاعيان من أبناء الزمان . ج١ ، ص٢١٤ .

(٤) انظر : المرادي ، محمد خليل . سلك الدرر ... ج١ ، ص٤٠ .

(٥) أولاها التوبة والتطهير والصلاة ونحوها . وثانيها = يحدد طريقة الجلوس والجو الذي يختار لذلك وحالة القلب والخاطر واختيار صيغة الذكر ونحو ذلك . وثالثها = التهيؤ لاستقبال الوارد مع العزوف عن شرب الماء الخ.. انظر : الطويل . ص٦٦ . وكان ميل السواد الاعظم الى الجهر ماوسع الذاكر ذلك حتى لقد حدد البعض طريقة الاهتزاز أثناء الذكر والجهة التي فيها عند نطق كل كلمة وبعض هذه الالفاظ تحور الى غير منطوقها . فمثلا كلمة (الله) كانت تلفظ (هام ــ هام) انظر : المحبي . ج١ ، ص١٥٣ . كما

ومن فروع الطريقة الرفاعية في دمشق ــ الفرع الشيباني ــ أو الطريقة الشيبانية تقيم حلقة الأذكار كل ليلة جمعة من الاشهر الثلاثة (رجب ــ شعبان ــ رمضان) في الساحة البرانية من المدرسة التقوية الشافعية[1] في دمشق، إضافة إلى ذلك كان شيخها يونس التغلبي يقيم الاذكار في داره بمحلة العمارة في ليال من تلك الأشهر الثلاثة[2] المذكورة. ويبدو أن الطريقة التغلبية قد تفرعت من الشيبانية على يد آل التغلبي فنسبت إليهم. وكان من شيوخها عمر بن عبد القادر التغلبي المتوفى سنة ١٢١٥ هـ/١٨٠١ م. ويقول البيطار في

اعتبرت بعض الفروع الرفاعية الجهر بالذكر غير محبب. انظر: الطويل، ص٦٤. فكانت تردد كلمة (لا اله الا الله) ثلاث مرات والعينان مغمضتان. أيضاً: الطويل. ص٨٦.
أما الاوراد فتكون على الشكل التالي: ذكر (استغفر الله ١٠١ مرة) ومن ثم كلمة التوحيد (١٠١ مرة) وبعدها كلمة الجلالة (١٠١ مرة) واللطيفية (١٠١ مرة) ثم بعد ذلك يقدم المنشدون وصلة من المدائح النبوية من أقوال الشيخ عبد الغني النابلسي وفي الختام يهب شيخ الطريقة ذلك كله لشرف الرسول (ص) ولصاحب الرحاب مؤسس الطريقة. فاذا تم ذلك نهض مريدو الطريقة في صف متواصل ــ يتوسطهم الشيخ بلباسهم (الموحد) مستفتحين بـ(الله يادائم) ٣٣ مرة (وياحي ياقوم) ٣٣ مرة واسم الجلالة ٣٣ مرة ثم ماتيسر من الفتوحات الربانية من الاذكار حسب الإلهام والتجلي. ويشارك الحضور بالترديد. ويصل المريدون الى مرحلة تجلي تام حتى أنهم يكاد يفقدون ارتباطهم بمن حولهم. وشارك الطريقة السعدية في الاحتفالات الدينية برمضان كل من الطرق الشاذلية والرفاعية والاحمدية والمولوية. انظر: كيال، منير. ص١٠٧ ص١٠٨. أما طريقتهم في (البيعة) فان الطالب اذا وفد الى شيخهم أمره بأن يتوضأ ويصلي ركعتين بنية التوبة والإنابة ثم يجلس المرشد (الشيخ) مستقبلا القبلة جاثيا على ركبتيه بالادب والخشوع ويجلس الطالب امامه لاصقا بركبتيه ثم يقرأ الفاتحة ثلاث مرات ويأخذ المريد بعده ويقرأ قوله تعالى: (إن الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق ايديهم فمن نكث على نفسه) ثم يأمر المريد بأن يقول (استغفر الله ــ استغفر الله العظيم الذي لا اله إلا هو الحي القيوم وأتوب اليه تبت الى الله ورجعت الى الله ونهيت نفسي عما نهى الله ورضيتك شيخا لي ومرشدا لطريقة الرفاعي فيقول المرشد: وأنا أقمتك مريدا بهذه الطريقة العلية وعلى هذا العهد المبارك ثم يقول له: قم مريدا في هذه الطريقة.. انظر: الطويل. ص٨٦. ثم هناك الطريقة العلوانية: وتنسب هذه الطريقة الى الشيخ علوان الحموي الذي كان يقيم في حماه وكان لهذا الشيخ مصنفات عظيمة منها (نسمات الاسحار) و(مصباح الهداية) و(شرح التائية الفارضية والتائية الصفدية وغير ذلك). وكان من أتباعها أبو بكر العمري العطار الاديب الدمشقي الشافعي والد أبي بكر المذكور مريد الشيخ عمر المذكور. انظر: البوريني، حسن. ج١. ص٢٨٨. وكانت الطريقة تقرأ أورادها نهار يوم الجمعة. ومن شيوخها أبو الوفا ابن الشيخ علوان. وهذه الطريقة محض سنية محمدية. أتباعها معظمهم في حماه وحلب. المحبي. ج١، ص٢٥٧ وص٢٥٨ وص٢٨٢.

(١) انظر: ابن بدران، عبد القادر. منادمة الاطلال ومسامرة الخيال. ص٩١.
(٢) انظر: الشطي، محمد جميل. روض البشر ... ص٢١٨.

ترجمته: كان يغلب عليه الجذب حسن الإرشاد وطاهر الامداد[1]. وكان من شيوخ هذه الطريقة الشيخ عمر أفندي الغزي المتوفى سنة ١٢٦١ هـ، ثم الشيخ عمر بن الشيخ عمر بن عبد القادر التغلبي الذي استلم مشيختها بعد والده. ثم الشيخ ظاهر باطن الصالحي المتوفى سنة ١٢٩٣ هـ/١٨٧٧ م[2] والشيخ عبد القادر الحنبلي التغلبي[3] وغيرهم. وكان للطريقة الرفاعية في دمشق فروع أخرى، كالفرع الدسوقي الذي كان من أتباعه مصطفى بن محمد الحلبي الاصل الدمشقي الصوفي الدسوقي، وكانت له كرامات ومات سنة ١٢٠٥ هـ/١٧٩١ م[4]. ثم هناك الطريقة الرشيدية. ولانعلم إن كانت هذه الطريقة قائمة بذاتها أو أنها فرع من طريقة صوفية رئيسة، والمرجح أنها تفرعت عن غيرها، إلا أنها لم يكن لها اتباع كثيرون في فترة دراستنا. ولقد ذكرها يوسف بن عبد الهادي، وقال إنها كانت تستخدم مسجد الشيخ حماد في الميدان الفوقاني مقرا لها[5]، ويبدو أن أصولها كانت من مكة المكرمة ثم انتقلت الى دمشق. وكان من مشايخها في دمشق أمين بن عبد الغني الغطار الذي أخذها في مكة المكرمة عن المرحوم الشيخ ابراهيم الرشيد الذي منحه الإجازة العامة ومات سنة ١٣٢٦ هـ[6]. وبقيت هذه الطريقة في دمشق حتى أواخر القرن التاسع عشر، وكان شيخها في هذه الفترة أحمد مجيد الذي كان يقيم في دوما[7]. ويبدو أنها لم تلعب دوراً اجتماعياً أو سياسياً بارزاً في دمشق كما لعبته مثيلاتها من الطرق الصوفية.

ومن فروع الرفاعية الهامة الشاذلية[8]: وكانت بدورها متفرعة الى فروع عدة، ولكل فرع شيخه الذي يعين بدوره مقدما على الزاوية، وكان يشترط به أن يكون عالما فاضلا طلق اللسان، كما كان لها نقيبها وامامها والواعظ فيها والمدرس والمنشدون في حلقة الذكر والمقرىء. أما فقراؤها فكانوا لايعيشون حياة خمول أو كسل أو بلا عمل، بل كان كل واحد منهم يؤدي

---

(١) انظر: حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر. ج٢، ص١١٣٥ وص١١٣٦.

(٢) انظر: المصدر السابق. ص٧٦٠.

(٣) انظر: المرادي. المصدر السابق. ج٢. ص٣٢٤. ثم: الشطي. المصدر السابق، ص٢١٥.

(٤) انظر: البيطار، عبد الرزاق. المصدر السابق. ج٢. ص١٥٥٦. ثم الشطي. المصدر السابق. ص٢١٨.

(٥) انظر: ثمار المقاصد في ذكر المساجد. ج٣، ص٢٠٠.

(٦) انظر: البيطار، عبد الرزاق. حلية البشر... ج١، ص٣٤٢.

(٧) انظر البارودي، فخري. مذكرات فخري البارودي. ج١، ص١٨.

8 - See: Trimingham .op.cit.P,38.

عملا على قدر حاله وحسب استعداده وثقافته . وكان من أشياخها عبد الفتاح السباعي الذي أخذ الطريق من الشيخ عبد الغني الغزي ومات سنة ١١١١هـ/ ١٧٠٠م . وسميت فروع الشاذلية بأسماء مؤسسيها في دمشق وفلسطين ، كآل الوفا ، والسفرجلاني ، واليشرطي

تأسست هذه الطريقة في النصف الأول من القرن الثالث عشر للميلاد . وأول من أسسها هو عبد السلام بن مشيش وسميت بالشاذلية نسبة إلى أبي الحسن الشاذلي (من شاذله بتونس) أ. تابع لعبد السلام بن مشيش . وكان مركزها في الأصل في الجنوب المغربي ، موطن الجزولي ، وقد استوطن الشاذلي الاسكندرية في أواخر حياته سنة ٦٤٢ هـ مع تلاميذه ومريديه ، وكونوا مدرسة صوفية مشهورة بها ، وكان من أبرز من وفد مع الشاذلي الى مصر من تلاميذه ، الشيخ ابو العباس المرسي ، الذي خلفه في قيادة أتباع الطريقة ، وظل قائما عليها حتى توفي في الاسكندرية سنة ٦٨٦ هـ ، وخلفه عليها بعد وفاته أبرز من تلقى دعوته من تلاميذه المصريين ونعني به عطا الله الاسكندري .

وكان تصوف الشاذلي والمرسي وابن عطا الله ، وهم أركان المدرسة الشاذلية ، مخالفاً لمدرسة ابن عربي ومذهبه في وحدة الوجود ، وترى قربهم من الغزالي المتقيد بالكتاب والسنة وكان الشاذلي يقول لمريديه إذا عرضت لكم الى الله حاجة فتوسلوا اليه بالامام أبي الحامد الغزالي .

ولقد تفرعت الطريقة الشاذلية الى العديد من الفروع (الطرق) وبلغت أربع عشرة طريقة هي : الجوهرية ــ القاسمية ــ المدنية ــ الملكية ــ الهاشمية ــ الفروسية ــ التهامية ــ الحندوشية ــ الادريسية ــ القاوقجية ــ السمانية ــ العفيفية ــ العيسوية الخلوتية ــ المنسوبة الى السيد مصطفى البكري وقد تفرعت هذه بدورها الى عدة فروع هي : الحصنية ــ السباعية ــ الصاوية ــ الضيفية . ويقول الدكتور أبو الوفا الغنيمي التفتازاني : إن الشاذلية قسمت الى بيتين البيت الكبير والبيت الصغير وكل بيت الى فروع . والملاحظ أن بعض الفروع لم يرد ذكرها لدى الدكتور توفيق الطويل . كالسلامية والوفائية والمحمدية . ولم يكن لهذه الفروع كلها زوايا وأتباع في دمشق بل كل مانرصده منها هي الحصنية واليشرطية والقاوقجية والسفرجلانية والهاشمية والوفائية والاويسية والتلمسانية والخلوتية والصاوية والدرديرية ، وكان من أبرزها في دمشق الهاشمية التي كانت تشارك في الاحتفالات الدينية العامة بقية الطرق الصوفية بدمشق . وحسبنا هنا أن نلمح بعض تعاليم الطريقة الشاذلية وأورادها وأذكارها ، فتعاليمها تتلخص في أصول خمسة هي : تقوى الله سرا وعلنا ــ واتباع السنة قولا وعملا ــ والاعراض عن الخلق اقبالا وادبارا والرضى عن الله . انظر : التفتازاني . ص٢٩١ ص٢٩٢ . ثم الطويل : ص٧٧ ص٧٨ . ثم الشطي : ص٣١٥ . ثم البيطار : ج١ . ص٩٧ وج٢ . ص٧١٨ .

وأما ابن بشيش فاسمه مشتق من البشاشة . أخذ الطريق عن عبد الرحمن المدني المشهور بالزيات عن الشيخ تقي الدين الفقير عن القطب محي الدين عن نور الدين أبي الحسن ــ عن تاج الدين عن القطب شمس الدين السيواسي عن زين القزويني ــ عن اسحق ابراهيم البصري ــ عن أبي القاسم أحمد الشرواني أبي محمد سعيد ــ عن سعد عن محمد فتح ــ عن بسعيد القزويني عن أبي محمد صابر أمير المؤمنين الحسن بن فاطمة الزهراء عن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عن سيد الأولين والاخرين نبينا محمد (ص) انظر : الحسنية اليشرطية ، فاطمة . رحلة الى الحق . ص٧١ وص٧٢ .

وغيرهم . وبرز من مشايخها أيضا آل العش وأبو الشامات والعجلوني والقاسمي[1] وغيرهم ومن أبرز شيوخ الطريقة الشاذلية في دمشق حسن السفرجلاني المتوفى سنة ١٢٢٠ هـ/١٨٠٥ ــ ٦/[2]م وصالح العش الذي أخذ الطريق عن القطب الشهير محمد القاسمي المكي[3]، ثم الشيخ أحمد العجلوني المولود بدمشق سنة ١١٧٠ ، والذي أخذ الطريق عن والده وتوفي سنة ١٢٥٢ هـ[4].

أما أهم فروعها في دمشق فهي :
الوفائية ــ السفرجلانية ــ الاويسية ــ الهاشمية ــ التلمسانية ــ الصاوية ــ الدرديرية[5] ــ اليشرطية . إلا أن تلك الفروع لم تكن على مستوى واحد من الاهمية . وكانت الوفائية أهم تلك الفروع، وكان من أشياخها في دمشق في هذه الفترة، أبو الانوار شمس الدين محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن عارفين سبط بني الوفا الذي توفي في ١٨ ربيع الاول سنة ١٢٢٨ هـ/١٨١٣ م[6] وكان لها فرع في حلب[7].

ثم الفرع السفرجلاني، الذي أسسه الشيخ صالح بن محمد بن عبد الرحمن السفرجلاني المولود سنة ١١٤٨ هـ/١٧٣٦ م، وعاش مائة وسبع سنين، ومات ١٢٢٥ هـ/١٨٤٠ م[8] ثم الفرع الأويسي الذي ينسب إلى الشيخ أويس الرومي، ورد إلى بعلبك من بلاد الروم، وكان له اثنا عشر ألفا من المريدين، وهذا الفرع يعتقد أن الولي اذا مات انقطع مدده واختفت كرامته[9]. ثم الفرع اليشرطي[10] الذي دخل الى عكا من

---

(١) انظر : الحسينية اليشرطية، فاطمة. رحلة الى الحق، ص١٤٢.
(٢) انظر : المرادي. سلك الدرر... ج٣، ص٤٦.
(٣) انظر : البيطار، عبد الرزاق. حلية البشر.... ج١، ص٤٢٣. وج٢، ص٧١٨.
(٤) انظر : الشطي، محمد جميل. أعيان دمشق... ص١٤٦.
(٥) انظر : كيال، منير. المرجع السابق. ص١١٨.
(٦) انظر : البيطار. حلية البشر... ج١، ص٩٧.
(٧) انظر : المرادي. سلك الدرر... ج٢، ص٥٨.
(٨) انظر : البيطار. حلية البشر... ج٢، ص٧١٨.
(٩) البوريني، حسن. المصدر السابق ج٢، ص٦٩. وكان من شيوخها سعيد الغبرة الذي كان يقيم الذكر في المدرسة الجقمقية ثم الشيخ عبد الحليم العجلوني المتوفى سنة ١٢٨٠ هـ انظر : الشطي. ص٢٣١.
(١٠) انظر : الحسينية اليشرطية، فاطمة. رحلة الى الحق، تبحث فيه الطريقة اليشرطية. طبع بيروت بدون تاريخ.

ترشيحا، ثم انتقل منها الى داريا في دمشق. وكان من مشايخة أبناء أبي ريشة وأبي الشامات. وكانت زاوية ابي الشامات الشاذلية في القنوات بلطجية ثم في دار القرآن الخضيرية[1].

وكان أيضاً من شيوخ الشاذلية اليشرطية في دمشق، سعيد الخالدي الدمشقي الشاذلي الترشيحي اليشرطي المولود سنة ١٢٢١هـ/١٨٠٦ ـ ١٨٠٧م، ثم أبو بكر الكردي وحسن البيطار وعبد الغني العطار وعبد الرحمن الكزبري وحامد العطار ومحمود أبو الشامات وغيرهم، وقام بنقل هذا الفرع من ترشيحا الى داريا، خالد البقاعي، واتصل بسعيد الخالدي المذكور وأعطاه الطريق. ولقد أثار نقمة علماء دمشق بتصرفاته الشاذة عن طريق الاسلام، مدعياً أن ذلك من جوهر الدين بحسب فهمه فيقول: محمد جميل الشطي: (استخف بالعلماء وأنكر العلم والعمل وكان يتكلم بكلام لايرتضيه من في قلبه ذرة من الاسلام)[2].

وترى فاطمة اليشرطية في هذا الفرع رأيا مغايرا للشيخ محمد جميل الشطي فتقول: إن الحياة في رحاب الزاوية اليشرطية لم تكن حياة دروشة بل حياة رقي روحي اسلامي، وكانت تلك الحياة تجمع بين الذكر والعلم والعبادة والمعرفة وتأدية واجبات انسانية، وكان الطعام يقدم فيها للمريدين والزائرين الذين لايقل عددهم عن أربعمائة أو خمسمائة في كل يوم. هذا عدا عن المتجردين (وعائلاتهم وأولادهم)، ويبيت هؤلاء الزائرون فيها، وتمد الموائد فيجلس الفقراء جماعات يأكلون ويقف بعضهم يحملون بأيديهم أباريق الماء، ويزداد عدد الزائرين في أيام المواسم الى مافوق الألف أو الالفين في اليوم. وكان ينفق على الزاوية من ريع ماحبس لها من الأوقاف ومما يقدمه المريدون من المال والهدايا ومن مال الشيخ اذا كان له مال. وكان المتجردون في الزاوية يقومون بكل ماتطلبه أطيان وأملاك وأراضي الزاوية المحبوسة عليها، كحراثة أراضيها وزراعتها وجني محاصيلها دون مقابل، ويقدمون الناتج والمحصول للزاوية، بالاضافة إلى تنظيف الزاوية من الداخل وحياكة الثياب وتنجيد الفرش وشراء الحاجيات من السوق والكنس والرش والتنوير وغير ذلك من الأعمال. وكان فقراء الطريقة الشاذلية والمتجردون في زواياها، من عهد مؤسسها الأول، هم من أبناء الاسر والعائلات الكريمة والقديمة[3]. إلا أن ذلك لم يكن عاما وشاملا بالنسبة للطرق الصوفية الاخرى والزوايا التابعة لها في دمشق، كما لم يسر ذلك على

(١) انظر: ابن عبد الهادي، يوسف. ثمار المقاصد.... ج٣، ص٢١٩.
(٢) انظر: كتابه، أعيان دمشق.... ص١٣٢.
(٣) انظر: رحلة الى الحق. ص٢٥٢ وص٢٥٣ وص٢٥٤ وص٢٥٥.

وتيرة واحدة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فالعديد من أوقاف هذه الزوايا وغيرها من المرافق ذات النفع العام قد أكلت من قبل المتلاعبين بأموالها والمقيمين عليها ، فأثر ذلك أيما تأثير على الحياة في رحاب الزوايا لحاجتها الى المال الذي يصرف عليها . فلاعجب اذا ماتحول العديد من الزوايا الى مساجد فحسب أو تحول من النفع العام الى النفع الخاص .

القضاة

شكل القضاة فئة بارزة من رجال الدين في دمشق . وكان جهاز القضاء مؤلفاً من القضاة والموظفين ، يرأسهم القاضي الحنفي الذي كان يعين من استانبول لمدة عام . وكان يطلق عليه اسم قاضي القضاة أو القاضي العام[1] ، وكان يساعده في مهامه ، قضاة من المذاهب السنية الأربعة[2] ، الذين سموا بنواب القاضي ، وهم تابعون له . ولما كان المذهب الرسمي للدولة العثمانية هو مذهب أبي حنيفة النعمان ، فقد تحنف بعض رجال الدين الدمشقيين طمعا في الحصول على منصب القضاء[3] .

وبحسب تنظيمات القضاء التي أجريت في القرن الثامن عشر ، اعتبر قاضي العسكر وقاضي استانبول في مرتبة واحدة ، يليهما قاضيا مكة والمدينة في مرتبة واحدة ، ثم قاضيا عاصمتي السلطنة السابقتين (بروسة وأدرنة) ثم قاضيا مركزي الخلافة الاسلامية دمشق والقاهرة[4] .

---

(١) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٦٦ / ١٢٥٠ ـــ ١٢٥١ هـ . ص٩ وص١١ وص٢٢ . ثم سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٤٠/ص٧٠ .

(٢) كان القاضي المالكي يعين في بعض المحاكم من دمشق وفي بعض الأحيان ، نظراً لقلة من كان من المالكيين في دمشق ومعظمهم من المغاربة الذين استوطنوها . ويذكر شرف الدين موسى الانصاري أنه وجد في أواخر القرن السادس عشر في محكمة الميدان قاضي للمالكية وآخر للشافعية انظر : كتابه المخطوط : نزهة الخاطر وبهجة الناظر . الورقة ١/٣٨٨ المكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم/٧٨١٤ .

(٣) يذكر الشيخ عبد الرزاق البيطار : أن الشيخ أحمد بن محمد الخاني الخالدي النقشبندي كان شافعي المذهب إلا أنه لما تولى القضاء في بعض الامكنة للضرورة الداعية لذلك ألزمته ظروف الاحوال للانتقال الى مذهب سيدنا أبي حنيفة النعمان وبقي في النيابة تارة في بعض المحاكم الشرعية الدمشقية وتارة في بعض البلاد وخارج الشام . انظر : حلية البشر . ج١ ، ص١٨٤ وص١٨٥ .

(٤) انظر: رافق. عبد الكريم. بلاد الشام ومصر ... ص٨٤ . الطبعة الثانية . ثم كتابه : العرب والعثمانيون . ص٥٢ وص٥٣ . ثم انظر :

Gibb and Bowen, op.cit,P,89,

ومما تجدر ملاحظته في هذه الفترة ، أن معظم القضاة العامين في دمشق ، كانوا من أصل رومي . وأن نفوذهم الاجتماعي لم يكن بارزا إلا من خلال سلطتهم ، اذ سرعان ماكانوا يفقدون نفوذهم بمجرد عزلهم من مناصبهم، على عكس نوابهم الذين كانوا من أصول دمشقية ، لان نفوذ الأخيرين لم يكن مستمدا من مناصبهم فحسب ، بل ومن خلال نفوذهم المحلي . خاصة وأنهم ينحدرون من أسر دينية بارزة في الغالب . وبقوا في مناصبهم مدة أطول من بقاء قاضي القضاة . إذ نادرا ماجدد للقضاة العامين في مناصبهم لسنة أخرى في هذه الفترة . إلا عدداً قليلاً منهم . ولقد انعكس ذلك بشكل سلبي على القضاء والعدالة في دمشق .

وكان ينظر قاضي القضاة (القاضي العام) بالمسائل التي تعرض عليه في مقر عمله في (المحكمة الكبرى) ، في حين توزع نوابه على محاكم دمشق المختلفة . وكان قاضي القضاة يعين له نائبا أو اكثر ليمثله عند الحاجة ، ويعين مكانه نائب في حال عزله ، ويبقى النائب على رأس عمله الى مجيء القاضي العام الجديد الى دمشق ، وأطلق على هذا النائب في مثل هذه الحالة (نائب مابين) . وكان هؤلاء النواب من أصل رومي أو دمشقي . وكانت توكل هذه المهمة للمفتي الحنفي في دمشق أحياناً ، وتوكل الى شخص واحد ولعدة مرات[1] . أما في حال وفاة القاضي العام وهو في منصبه ، يقوم نائبه بتسيير أعمال القضاء حتى نهاية مدة ولايته[2] ، وقد يبقى في حال عزله ، يسير أمور القضاء حتى يعين قاض جديد[3] . وكان مقر قاضي القضاة في المحكمة الكائنة في البزورية التي اطلق عليها اسم المحكمة الكبرى أو محكمة البزورية نسبة الى مكان وجودها من دمشق . أما المحاكم الفرعية في دمشق فكانت داخل أسوارها وخارجها ، وتوزعت على أماكن التكتلات السكانية الرئيسة في دمشق ، مثل : محكمة الميدان (في حي الميدان) ثم محكمة السنانية نسبة لمكان وجودها في محلة السنانية (قرب جامع سنان باشا)[4] ،

1 - See: Rafeq, the Province of Damascus 1723-1783. P.44.

2 - Ibid. p.45.

(٣) انظر : رافق ، عبد الكريم . العرب والعثمانيون . ص٥٣ . ويذكر عبد الكريم رافق أنه قد وجدت في دمشق في القرن الثامن عشر عدة محاكم صغيرة كمحكمة باب مصلى .
انظر : The law court Registers pp.143.144

(٤) انظر : سجل محكمة الميدان رقم ١٢٦٤/٤١١ ـــ ١٢٦٥هـ ، ص٢ وهناك المحكمة البيانية في دمشق ومقرها في المدرسة البيانية ولكنها ألغيت قبل فترة دراستنا . انظر : المرادي ـــ محمد ـــ سلك الدرر ج٤ ، ص٢٧٥ .

ثم محكمة قناة العونية أو المحكمة العونية وأحيانا ترد باسم محكمة العمارة نسبة للمحلة التي تقع فيها[1]، بالقرب من جامع الجوزة في محلة العمارة البرانية القزازين[2]، ثم محكمة الصالحية التي تقع في صالحية دمشق[3].

وكان قاضي القضاة إذا لم يقم بنفسه بمهام القسمة المختلفة، يكلف نوابه في ذلك، كالقسمة العسكرية والقسمة البلدية وقضاء قافلة الحج الشامي، وكانت لنوابه سجلات خاصة بذلك، مايزال بعضها إلى الآن في دار الوثائق التاريخية في دمشق.

وأبرز الأسر التي استلم أبناؤها القسمة في دمشق هي: المحاسني — وحمزة — والصديقي — والأسطواني — والرشيد — والحسيني — والنوري وغيرها[4].

أما منصب قاضي القضاة فشغله أروام أحناف عينوا من قبل السلطة المركزية في استانبول. وأبرز هؤلاء في هذه الفترة: محمد مكي الذي كان قاضي القضاة في دمشق سنة ١١٨٦ هـ/١٧٧٢ — ١٧٧٣ م[5]. وفي سنة ١١٩٦ هـ/١٧٨١ — ١٧٨٢ م كان عبد الرحمن أفندي حسين آغا زاده، وفي ١١٩٨ هـ/١٧٧٤ — ١٧٧٥ م كان ابراهيم آغا أفندي، وحل محله في سنة ١١٩٩ هـ/١٧٨٤ — ١٧٨٥ م امام زاده محمد أمين[6] ثم عزل، وحل محله في سنة ١٢٠٠هـ/ ١٧٨٥ — ١٧٨٦م وارداري شيخ زادة محمد

---

(١) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩/١٢٦٤ هـ/ ص١٢٥.

(٢) انظر: بن عبد الهادي، يوسف. ثمار المقاصد في ذكر المساجد. ج٣، ص٢٠٧.

(٣) المرادي سلك الدرر. ج١، ص١٠ وص١٧٠.

(٤) ففي سنة ١١٨٦ هـ/ كان قساما في دمشق سليمان أفندي المحاسني. وفي سنة ١١٨٧ هـ كان قساما محمد شاكر أفندي ثم مصطفى حافظ أفندي وفي سنة ١١٩٣ هـ عين أحمد حمزة قساما وفي ١٢٠٢ هـ عين أسعد أفندي المحاسني قساما ونائبا في محكمة الباب، انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠/١٢٠٠ — ١٢٠٢ هـ/ ص١٧ وص٤٥١.
ثم: السجل رقم ١٨٢/ محاكم دمشق /١١٨٣ — ١١٩٠ هـ. ص٤٣ وص١٢٠ وص١٤٣.
ثم: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/ ص٤٨ وص٢١٦.
وأيضاً سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/ ص١٢١. وأيضا سجلها رقم ٢٦٠/ ١٢٢٢ — ١٢٢٣ هـ. ص٢٢ وص٤٢ وص٥٢.
وسجل محكمة القسام بدمشق رقم ١٢٥٨/٣٣٠ — ١٢٦٠ هـ. وص١٤ وص٢٢.

(٥) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٩/ ص٧٠.

(٦) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/ ص٢٣٥ وص٢٤١.

أفندي، ومن بعده مفتي زادة ابراهيم سليم أفندي، وفي ١٢٠٧ هـ/١٧٩٢ ـــ ١٧٩٣ م عين شريف زاده محمد أفندي، وفي ١٢٠٩ هـ/١٧٩٤ ـــ ١٧٩٥ م حل محله السيد محمد نور الدين أفندي وعزل ليحل محله السيد عبد الله محمد أفندي بن حسن أفندي المرادي [١]، وفي سنة ١٢٩٠ هـ/١٧٩٥ ـــ ١٧٩٦ م كان قاضي قضاة دمشق محمد أفندي شيخ زادة ثم عزل ليحل محله مفتي زادة ابراهيم سليم أفندي [٢] وفي سنة ١٢١٤ هـ/١٧٩٩ ـــ ١٨٠٠ م كان قاضي القضاة اسماعيل بيك زادة عبد الله ثم سيده محمد نور الله [٣] وفي سنة ١٢٢١ هـ/١٨٠٦ ـــ ١٨٠٧ م ابراهيم أفندي دفتردار حفيدي وحل محله في ١٢٢٢ هـ/١٨٠٧ ـــ ١٨٠٨ م كسكين خليل أفندي وبقي حتى ١٢٢٣ هـ/١٨٠٨ ـــ ١٨٠٩ م حيث عزل وحل محله عماد زادة السيد حمود أفندي [٤] وفي سنة ١٢٣٧ هـ/١٨٢١ ـــ ١٨٢٢ م استلم هذا المنصب كتخداسي زادة محمد صادق بيك [٥] وفي سنة ١٢٣٩ هـ/١٨٢٣ ـــ ١٨٢٤ م كان مفتي زادة السيد عبد الله وفي سنة ١٢٤٢ هـ/١٨٢٦ ـــ ١٨٢٧ م حسن باشا زاده امامي حسين أفندي وفي سنة ١٢٤٥ هـ/١٨٢٩ ـــ ١٨٣٠ م سلحدار خليل باشا السيد علي رضا أفندي [٦] وفي سنة ١٢٤٧ هـ/١٨٣١ ـــ ١٨٣٢ م بكلي زاده محمد أسعد أفندي [٧] وفي سنة ١٢٤٧ هـ/١٨٣١ ـــ ١٨٣٢ م السيد محمد عاطف أفندي قبوأوغلي زادة وفي سنة ١٢٤٩ هـ/١٨٣٣ ـــ ١٨٣٤ م حفيدي كتخدجي زاده عبد الحليم أفندي وفي ١٢٥٠ هـ/١٨٣٤ ـــ ١٨٣٥ م صدقي زاده محمد رفعت بيك أفندي [٨].

وكان معظم نواب قاضي القضاة من المذاهب السنية من أصول محلية، فمثلا في سنة

---

(١) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٤/١٢١٠ ـــ ١٢١١ هـ. ص٣ وص٤٨. ثم انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٣٨/ ص٨٤. ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٥/ ص٥٠ ثم سجلها رقم ٢٥٠/ ص١٢٣.

(٢) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٣٨/ ص٧٣ وص٧٦.

(٣) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/ ص٨١ وص١٠٩.

(٤) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٦٠/ ص١ وص١١ وص١٧٣ وص١٥٩.

(٥) انظر: سجل القسمة العسكرية رقم ١٢٤٨/٣٣٠ ـــ ١٢٤٥ هـ. ص٤.

(٦) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٣٤/ ص٦٨ وص١٩٤ وص٥١.

(٧) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٣٠/ ص٣.

(٨) انظر: السجل رقم ٣٣٤/ ص٨ وص٢٠٤ وص١ وص١٤.

١٢٤٧ هـ/١٨٣١ ـ ١٨٣٢ م كان السيد حسين أفندي المرادي نائبا وقساماً في دمشق لقاضي كتخه جي زادة عبد الحليم [١]، وفي ١٢٦٢ هـ/١٨٤٥ ـ ١٨٤٦ م عين نائبان لقاضي القضاة في دمشق وهما شاكر أفندي العمري وحامد أفندي تللو. وكانت العادة في مثل هذه الحالة، قيام قاضي القضاة بتحديد صلاحيات النائب وتسجيلها في سجل المحكمة [٢].

وأبرز الاسر الدمشقية التي استلم أبناؤها منصب نائب قاضي القضاة في محاكم دمشق المختلفة هي: اسرة الخلوصي [٣] والوفائي [٤] و المالكي [٥] والكيلاني والعمري [٦] والبرقاوي [٧] والقاري والسمان [٨] والعجلاني [٩] والغزي [١٠] والصديقي [١١] والبكري وحمزة [١٢] والسرميني [١٣]

(١) انظر: سجل القسمة البلدية بدمشق رقم ٣٢٧/ ١٢٤٧ هـ ـ ١٢٤٨ هـ ـ ص٢.

(٢) انظر: سجل محكمة الميدان رقم ٤١١/١٢٦٥ هـ. ص٢.

(٣) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٠/١٢٠٨ ـ ١٢٠٩ هـ، ص١١٢. ثم السجل رقم ٢٣٥/١٢١٠ ـ ١٢١١ هـ. ص٦٤.

(٤) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦/ ص١٨٧ وص١٩١.

(٥) كان الشيخ أبو السعود بن أيوب الانصاري المالكي مولى خلافة بالمحكمة العونية بدمشق ثم عمر أفندي الحنفي المولى خلافة في نفس المحكمة وكذلك يحي أفندي الحنفي كان مولى خلافة بالمحكمة الكبرى بدمشق انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق. رقم ٢٦/ ص٢٣٨ وص٢٣٩.

(٦) كان من هاتين الاسرتين قاضيان هما: محمد صالح أفندي كيلاني ومحمد شاكر أفندي انظر: سجل محكمة الميدان رقم ٤١١/ ص١٥.

(٧) كان الشيخ محمد أفندي البرقاوي قاضيا للحنابلة في دمشق انظر: المصدر السابق ص٣٣ وص٣٤ كما كان مصطفى البرقاوي قاضيا للحنابلة في دمشق سنة ١٢٣٠ هـ ومات ١٢٥٠ هـ، انظر: الشطي المصدر السابق، ص٢٨١.

(٨) كان نائبا لقاضي القضاة في دمشق السيد مصطفى أفندي القاري. وكان الشيخ محمد بن الخير السمان قاضيا للشافعية في دمشق. انظر: سجل القسمة العسكرية رقم ٣٠٨/ ١٢٤١ ـ ١٢٤٣ هـ. ص٢.

(٩) كان نائبا لقاضي القضاة في المحكمة الكبرى السيد حمزة أفندي العجلاني انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠/ ص٥٥٨.

(١٠) كان محمود الغزي الدمشقي قاضيا للشافعية في محكمة الباب انظر: المرادي، سلك الدرر، ج٤، ص١٢٦.

(١١) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٢٧/١٢٤٧ ـ ١٢٤٨ هـ. ص١١٧ وص١١٨ وص١٢٣.

(١٢) شليشر، ليندا. المرجع السابق. ص٣٣٥.

(١٣) انظر: المرادي، المصدر السابق ج٢، ص٥٦. استلم علي أفندي حسيب العطار النيابات في محاكم دمشق ومات سنة ١٢٤٢ هـ انظر: الشطي، محمد جميل. المصدر السابق، ص٢٠٣.

وحسيب العطار وغيرها . ولم تكتف الأسر الدمشقية بذلك بل سيطرت على وظائف المحاكم المختلفة ، فكان منهم رؤساء الكتّاب والكتّاب والتراجمة والمقيدون والمسودون والمحضرون والبوابون ووكلاء المتخاصمين في المحاكم . فمثلا كان ابراهيم الحكيم الشريف لامه رئيسا لكتاب محكمة الصالحية [1] . وعبد الوهاب العكري الحنفي الصالحي عمل كاتبا في محكمة الصالحية ومحكمة الميدان ثم في محكمة الباب الكبرى [2] ، ومحمد الأيوبي الدمشقي الحنفي ولي رئاسة الكتاب مرتين في المحكمة الكبرى [3] ، وحسن آغا جبري ولي رئاسة الكتاب في محكمة الميدان ومن بعده في سنة ١٢٣٩ هـ محمد نجيب العطار [4] . وفي منتصف القرن التاسع عشر كانت أهم الاسر التي استلم أبناؤها رؤساء كتّاب أو كتابا في محاكم دمشق هي : النابلسي ـ المحاسني ـ الدردي ـ العمري ـ تللو ـ القدسي ـ البرقاوي ـ الادلبي [5] والجاكوش وشمسي باشا والشاهين وجبري [6] والمرعشلي [7] والحسيني والقلعي والاسطواني والعاتكي والبربير [8] . ومن التراجمة في المحاكم كان الحاج حسين بن علي الحلبي ترجمانا في محكمة الميدان بديلا عن بكري آغا الخربطلي [9] ، وكان أبرز التراجمة في محاكم دمشق ، أبناء أسرة الترجمان التي توارث ابناؤها تلك المهنة عن الآباء . ويقول محمد سعيد القاسمي : إن مهنة الترجمة يعيش منها أربابها [10] . وكان من المحضرين السيد ابراهيم جلبي الشامية الهواري ومصطفى الجلبي [11] وغيرهم . وكان المحضرون توفنكجية (شرطة) ويرأسهم

---

(١) انظر : المرادي ــ المصدر السابق ج١ ، ص١٠ .
(٢) انظر : المرادي ــ المصدر السابق ج٣ ، ص١٤٣ .
(٣) المصدر السابق ج٤ ، ص٢٤ .
(٤) انظر : سجل محكمة الميدان رقم ٣٠٤/سنة ١٢٣٨ ــ ١٢٤٠ هـ . ص٢ .
(٥) انظر : سجل محكمة الميدان رقم ٤١١/سنة ١٢٦٤ ــ ١٢٦٥ هـ . ص٧٤ . ثم الشطي ، محمد جميل . المصدر السابق . ص١٥٠ .
(٦) انظر : السجل رقم ٣٢٣/ محكمة الميدان /١٢٤٧ هـ/ ص٣ وص١١ وص٣٦ وص٤٣ وص٥٠ .
(٧) انظر : سجل القسمة البلدية بدمشق رقم ٢٥٥/٣٥٧ ــ ١٢٥٦ هـ . ص١٩٤ .
(٨) انظر : سجل القسمة البلدية بدمشق رقم ٢٩٠/١٢٢٠ ــ ١٢٣٧ هـ . ص٥٣ . ثم سجلها رقم ٣٣٠/ سنة ١٢٤٨ ــ ١٢٦٦ هـ . ص٨ وص٢٢ .
(٩) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/١٢١٦ ــ ١٢١٧ هـ . ص٢٠٩ .
(١٠) انظر : قاموس الصناعات الشامية ج١ ، ص٧٠ .
(١١) انظر : السجل رقم ٣٢٦/ محاكم دمشق ، ١٢٤٨ هـ ، ص٣٢ . ثم المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٢٤/ ١٢٥٠ ، ص١٥٠ .

التفنكجي باشي ومهمتهم إحضار المدعى عليه الى المحكمة. ووجد وكلاء عن الناس لدى المحاكم عملوا لدى محكمة القسمة العسكرية أو البلدية والكبرى والسنانية. ولم يكن هؤلاء موظفين رسميين بل كانوا ينوبون عن الناس في الدعاوي في المحاكم ويناقشون القضاة في المسائل الفقهية[1]. ويبدو أنهم سببوا مضايقات للحكام بأعمالهم هذه، مما دفع بقاضي القضاة لإصدار أوامره الى نوابه في المحاكم والى كتابهم فيها، لمنع الوكلاء من «مقارشة المواد في محاكمهم وتعاطي الوكالات لانهم يعلمون الناس الحيل»[2]. ولقد تضايق الوكلاء من منعهم من ممارسة عملهم، فاضطروا لتقديم معروض للسماح لهم بالعودة الى سابق عملهم، إلا أن السلطات المصرية في دمشق أصرت على منعهم، ولم تسمح إلا لمحمد شيخ الصباغين «كونه صاحب أعيال وليس له كار ولامعاش». وكان من الوكلاء في دمشق في العهد المصري «عبد الكريم آغا جبري والشيخ قاسم الكفيف وسيد عبد الكريم كبارة، وحسني أفندي المحاسني وطاهر أفندي البازة الذي كان كاتبا في محكمة الباب، ثم سيد يحي البحرة والشيخ طايع البغدادي ومحمد موسى باشا ومصطفى الذهبي ومصطفى زند الحديد»[3]. ويبدو أن بعض هؤلاء الوكلاء كانوا يعملون في مجال القضاء في العهد المصري، ونتيجة لادخال بعض التعديلات في هذا المجال، فقد البعض عمله فلجأ للعمل في الوكالة عن المتخاصمين لدى المحاكم وهذا العمل بمثابة المحاماة في وقتنا الحاضر.

أما فيما يتعلق بطريقة المحاكمة، فكان القاضي يجلس في قاعة مخصصة لذلك على بساط أو سجادة، ويجلس الى جانبه الكتّاب وبعض الحجاب، ويكون باب القاعة مفتوحا للجميع، ويحضر الباش رسل (BASH RUSUL أي رئيس المحضرين) المتداعين أمام القاضي. وقد لايقوم بجلب المدعى عليه الى القاضي إلا بعد أن يدفع المدعي له قرشا أو قرشين مقابل ذلك. وبعد حضور المتخاصمين الى المحكمة، يمثل الطرفان أمام أحد شهود المحكمة، فيستمع الى أقوالهم ويسجل ذلك، ويأخذ رسما عن ذلك قرشا أو أكثر، ويصدر الشاهد المذكور الحكم، واذا كانت الدعوى بسيطة وأقر المدعى عليه بحق المدعي، تنتهي المسألة عند هذا الحد، وإلا فتعرض القضية من جديد مرة أخرى على نائب القاضي العام الجالس في قاعته في المحكمة. واذا ماأشكلت القضية فقهيا، على القاضي أن يطلب الفتوى بذلك من

(١) انظر: الشطي، محمد جميل. أعيان دمشق، ص١٧٤.

(٢) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٤٠/ ١٢٥٠ ــ ١٢٥٤هـ. ص١.

(٣) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٥٥/٣٥٧ ــ ١٢٥٦هـ. ص١.

المفتي ، وفي هذه الحالة يدفع المدعي رسما للمفتي مقابل الفتوى ويحضرها الى القاضي ليصدر حكمه بالقضية . أما القضايا الهامة جدا والمعقدة ، فكان ينظر فيها القاضي العام بحضور نائبه وأحيانا بحضور بعض علماء دمشق وعلى رأسهم المفتي .

وكانت تشمل الموضوعات التي ينظر فيها القاضي الوقوعات الخمس التي تشمل : المناكحات والطلاق والولادات والوفيات ومكان الاقامة ، وأمور الاحوال الشخصية ، كالهبة والوصية والنفقة ، وغيرها من الامور ، كالملكية والاوقاف والتجارة وغيرها .

وكان القاضي ينظر في القضية وهو جالس على السجادة وأمامه الطرفان المتخاصمان في حالة الجلوس أو القرفصاء ويستمع الى كلامهم بحضور الشهود . واذا ماحمي النقاش بين المتخاصمين وعلت أصواتهم ، يدخل موظفو القاضي لاعادة الهدوء ، وقد يستخدم القاضي عصاه . وبعد إصداره الحكم يخرج المتخاصمان من المحكمة باحترام[٢] . وكان البت في أية قضية ، مهما كانت عويصة ، لايدوم أكثر من شهرين ، ويكون الحكم قطعيا .

أما فيما يتعلق بأجور القضاة فكان مسموحا للقاضي أن يأخذ ٢٫٥٪ من قيمة الأشياء التي يجري التقاضي بشأنها ، وسمي هذا المبلغ بـ(بتكاليف المحكمة) ، أو يقوم بدفعها مَنْ كسب الدعوى من المتخاصمين ، ولكن القضاة لم يكتفوا بهذه النسبة ، بل سعوا لزيادتها[٣] ، كما سعوا للحصول على دخول أخرى من خلال بيعهم للمناصب التابعة لهم ، مقابل مبالغ من الاموال . وحددت لبعض القضاة رواتب تقاعدية بطريقة التأبيد (الاربلق) ، فمثلا أبو الصفا المفتي بن أيوب العدوي الصالحي الدمشقي الخلوتي ، خصص له راتب تقاعد قضاء «قارا الى أن مات على طريق التأبيد»[٤] ، وحصل البعض منهم على منح حكومية وماشابه ذلك ، بالاضافة الى أخذه نسبة معينة من تركات الموتى ، وحصلوا على إقطاعات في دمشق من الدولة العثمانية ، ومع ذلك فقد مال بعض القضاة الى الرشوة من المتداعين ، فانحازوا الى أحد الطرفين دون الآخر . ويمكن تفسير ظاهرة الرشوة التي تفشت بين القضاة آنئذٍ بجشعهم أو بسبب ظروفهم المادية السيئة التي قصرت عن سد مصروفاتهم من جهة ، أو

1 - See: Gibb and H.Bowen . op . cit . vol . 1 . part .2 . p.130.

2 - See: Volney .op.cit. P.369.

3 - H.Gibb and H.Bowen . op. cit. PP.125-127.

(٤) انظر المرادي . سلك الدرر ... ج١ ، ص٦٣ .

لانهم لم يحصلوا على مناصبهم من استانبول بحسب كفاءتهم بل بقدر مادفعوه للسلطة هناك من رشوة حيث كان منصب القضاء يباع ويشرى بعد عرضه في سوق المساومة. وكان يرسو هذا المنصب على من يدفع الثمن الأعلى(١)، وكان هذا السوق يعقد سنويا(٢)، ولقد اعترف السلطان محمود الثاني بذلك في إعلانه سنة ١٨٢٨ م/١٢٤٣ ـــ ١٢٤٤ هـ ومما جاء فيه: «أن منصب القاضي حتى الآن يشرى بواسطة الرشوات، ويسند لأشخاص غير أكفاء(٣)» وكان من الطبيعي بعد كل ما تقدم أن لايحاسب القضاة على ماأصدروه في بعض الأحيان من أحكام جائرة، بفعل الرشوة سعيا منهم لجمع المال المطلوب قبل العزل، ومن ثم لمجابهة سود الأيام المرتقبة من جهة، أو لرشوة جديدة في استانبول مقابل منصب جديد.

ولقد لاحظ أبو القاسم الزياني المغربي إبان زيارته لدمشق في أواخر القرن الثامن عشر تفشي الرشوة بين القضاة فيقول: «هذه عادة قضاة المشرق كلهم، نسأل الله السلامة العامة في هذه الورطة، فقد عمت البلوى في هذه الدولة العثمانية في القسطنطينية وبلاد الترك كلها ومصر وبلاد الشام والعراق ...، وباعوا آخرتهم بدنياهم متفقين على ذلك من غير توقف ولا تأمل. ولا تخوف ولا انستحياء ولاتستر ...، فانها عندهم جباية في أصول يسمونها بالمحصول، فتجد القاضي يناضل على قبضه من غير ارتياء ولا استحياء ولاحشمة ولا اعتبار لشفقة أو رحمة كأنه حق واجب ويزاد للجليس والحاجب... فيا حسرة على الاحكام الشرعية المرضية المرعية، فقد ضاعت حقوقها وشاع عقوقها»(٤).

وارتبك وضع القضاة بعد دخول القوات المصرية الى دمشق وتوقيع اتفاق كوتاهية بين السلطان محمود الثاني ومحمد علي باشا، حيث أبقى هذا الاتفاق تعيين قضاة الشرع في الشام بيد السلطان، فخشي الحكم المصري من عدول هؤلاء عنه وانحيازهم الى جانب السلطان، وأن يؤثر ذلك في أحكامهم، فأوصى محمد علي باشا بمراقبتهم مراقبة خفية وشديدة، وأمر بوجوب عرض أحكامهم على كبار رجال الادارة قبل تنفيذها، كما لمس

---

(١) انظر: الذكرى المئوية لوفاة السعيد الذكر البطريرك مكسيموس الثالث المظلوم ١٨٥٥ ـــ ١٩٥٥م، ص٣٠، لبنان، حريصا، ١٩٥٧م.

2 - Volney. op.cit. P.369.

3 - See: Koury .G. province of Damascus. PP.186.187.

(٤) انظر: الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا. ص٢٧٨ وص٢٧٩.

عجزهم عن النظر في بعض الدعاوى الحقيقية والتجارية ، فسمح لمجالس الشورى أن تبت فيها حرة طليقة . ولم يحجم المصريون عن التدخل ، عند الحاجة في فهم الشرع الشريف وتطبيق أحكامه ، وراقبوا فتاوى المفتين وبعض رجال الدين وزجروهم فيما أصدروه من فتاوى تثير الفرقة المذهبية والنعرات الطائفية ، وهددوهم بانزال العقاب بهم [1]. ومع ذلك بقيت الرشوة تؤخذ من قبل القضاة وأعوانهم بشكل سري ، وتقلص نطاقها بعد اتساع .

المفتــون

عينت السلطات العثمانية في استانبول مفتياً لكل مذهب من مذاهب السنة الرئيسة في دمشق، (الشافعي ـــ الحنبلي ـــ الحنفي) وتقدم المفتي الحنفي على غيره من المفتين ، رغم تفوق عدد الشافعيين في دمشق على بقية أبناء المذاهب الأخرى .

واعتبر المفتي المرجع الرئيس في المسائل الفقهية ، والمفسر لأي إشكال قانوني ، وبقي الانتماء المحلي يعبر عن الانتماء الى المذهبين الأولين ، على حين كان الأخير (الحنفي) يمثل السلطة ويلقى حماية استانبول . أما المذهب الرابع وهو المالكي فكان أتباعه قلة في دمشق ، ومعظمهم من أبناء المغرب العربي ، الذين وفدوا الى دمشق ، ولم يعين في دمشق مفتي للمالكية حتى سنة ١٢٦٤ هـ .

وكانت مهمة المفتي من الناحية النظرية مراقبة القرارات التي تتخذها المحاكم العثمانية في دمشق [2] . وكان يعين من قبل شيخ الاسلام في استانبول ، ولقب بدوره بشيخ الاسلام . وكان يأتيه المقرر سنويا ، وقد يبقى في منصبه حتى وفاته ، إلا اذا استعفى أو عزل . ويأتي المفتي في المرتبة الادارية والاجتماعية في دمشق بعد نائب قاضي القضاة [3] . وكان بعض المفتين يجمعون في أيديهم عدة مناصب إدارية أو دينية بالاضافة الى منصب الافتاء . فمثلا السيد حمزة أفندي العجلاني كان مفتيا للاحناف ونقيبا للاشراف في دمشق [4] ، وكذلك محمد خليل

(١) انظر : ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا ، ص١١١ .

(٢) انظر : شليشر ، ليندا . المرجع السابق . ص٣٣٢ .

(٣) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١١/٢٤٠ ـــ ١٢١٦ هـ ، ص٤٤٥ . ثم انظر سجلها رقم ٢٣٩/ ص١٨٨ .

(٤) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٦٠/ ص٧٩ .

المرادي . وكان معظم المفتين الأحناف والشوافعة من أصول دمشقية ، على حين كان المفتون الحنابلة من أصول ريفية ، كرحيبة أو الضمير أو بعلبك أو نابلس ، لأن معظم الحنابلة في دمشق يرجعون في أصولهم الى تلك القرى والمدن .

وتوزع منصب افتاء الأحناف في دمشق بين الاسر التالية : المرادي ــ المنيني ــ المحاسني ــ العجلاني ــ الصديقي (البكري) ــ الحصني ــ والجندي ــ والكردي ، ولم نلحظ سوى أحد المفتين في هذه الفترة كان من أصل غير دمشقي ، وهو محمد أمين الانطاكي الذي توفي سنة ١٢٠٧ هـ والذي كان مفتياً في مغنيسيا[(١)] .

وكان مجموع المفتين الأحناف مابين عامي ١١٨٨ ــ ١٢٦٨ هـ ستة عشر مفتيا ، منهم تسعة مفتين من آل الحصني وثلاثة من آل العجلاني[(٢)] .

ولقد أوردت الباحثة ليندا شليشر ، من جامعة (مين) في ألمانيا الغربية لائحة بأسماء المفتين الاحناف بدمشق وتواريخ استلامهم لمناصبهم وذلك مابين ١٧٧٤ و١٨٤٨م وهم على الشكل التالي :

السنة	الاسم
١٧٧٤	محمد أسعد بن خليل الكردي
١٧٧٥	اسماعيل بن أسعد المنيني
١٧٧٧/١٧٧٨/١٧٩١	محمد خليل بن علي المرادي
١٧٩٦/١٧٩٧/١٧٩٨	عبد الله بن ظاهر المرادي
حوالي ١٨٠٣	عبد الرحمن المرادي
١٨٠٢ ــ ١٨٠٤	أسعد بن سعيد المحاسني
١٨٠٤ ــ ١٨٠٥	حمزة بن علي العجلاني
حوالي ١٨٠٥/١٨٠٦	سعيد بن حمزة العجلاني
١٨١٠/١٨١١	سعيد بن محمد البكري
١٨١٤/١٨١٥	علي بن حسين المرادي
١٨١٤/١٨١٥/١٨٢٠	حسين بن علي المرادي

(١) انظر : المرادي ، محمد خليل . عرف البشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام . ص٢٢١ .

(٢) انظر : المرادي . عرف البشام .... ص٢٢٠ وص٢٢٣ .

وكذلك حسن تقي الدين الحصني المتوفى سنة ١٨٤٨ م[١]، إلا أن السيدة شليشر أغفلت ذكر محمد أمين الجندي الحنفي، الذي كان مفتيا في عهد ابراهيم باشا المصري[٢] والسيد محمد الداراني الذي حلف اليمين القانوني أمام شيخ الاسلام في استانبول ليقوم بوظيفة الافتاء في دمشق[٣]، ولكننا لانعلم فيما اذا كان مفتيا للاحناف أم لغيرهم من المذاهب الاخرى.

وكان غالب المفتين الشافعيين في دمشق، في هذه الفترة، من آل الغزي وهم: السيد عمر أفندي الغزي والسيد عبد الغني الغزي ثم محمد شريف الغزي الذي توفى سنة ١٢٠٣ هـ فحل محله ابنه كمال الدين الغزي[٤] ثم محمد أفندي الغزي[٥]. ولم يزاحم آل الغزي على هذا المنصب سوى شخصين هما: عبد الرحمن الكفرسوسي المتوفى سنة ١١٧٩ هـ[٦] ثم حسن تقي الدين الحصني الشافعي في سنة ١٢٤٦ هـ.[٧]

أما افتاء الحنابلة فكان في آل البعلي والسيوطي والسيوفي[٨] والجراعي[٩] والشطي[١٠]، وكان المفتي الحنبلي يتولى نظارة الجامع الأموي والجامع المظفري في صالحية دمشق المعروف (بجامع الحنابلة). ولم يعين مفتٍ للمالكيين في دمشق إلا بدءاً من سنة ١٢٦٤ هـ، لقلة عددهم. وأول من استلم هذا المنصب صالح المغربي السمعوني المالكي الخلوتي نزيل دمشق[١١].

ومن جهة أخرى ساعد المفتين في مهامهم أمناء الفتوى وكتاب ومسوّدون. وكان أمين

---

(١) انظر: المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام. ج١. ص٣٣٣. سنة ١٩٧٨ م.
(٢) انظر: الشطي، محمد جميل. أعيان دمشق. ص٥٨ وص٦٧.
(٣) انظر: سجلات الوثائق التاريخية في دمشق ـــ المجلد ٢/ ص١٤١ وص١٤٣ / ١٢٤٧ هـ.
(٤) انظر: الشطي. المصدر السابق. ص٢٢٦ وص٢٥٦.
(٥) انظر: الشطي. المصدر السابق. ص٢٥٧.
(٦) انظر: الشطي. المصدر السابق. ص٢٦٠.
(٧) انظر: أيضا الشطي. ص٨٥.
(٨) انظر: الحصني، محمد أديب. منتخبات التواريخ لدمشق. ج٢، ص٦١٥ وص٦٦٢ وص٦٧٨. ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٤٠/١٢١١ ـــ ١٢١٢ هـ، ص٢٤٤.
(٩) انظر: الشطي، محمد جميل. أعيان دمشق.... ص٦٣ وص٦٤ وص٧٩.
(١٠) انظر: الشطي، المصدر السابق. ص١٥٠.
(١١) انظر: الشطي ـــ المصدر السابق. ص١٥٠.

الفتوى يعد الاستفتاء ويعرضه على المفتي ليجيب عليه. وكثيرا ماقام أمين الفتوى بالمهمة نفسها، لان بعض أمناء الفتوى كان ضليعا بالفقه وعلوم الدين. فمثلا ابراهيم الصالحاني الذي كان أمينا للفتوى لدى المفتي الحنفي «كان فقيها وفرضيا وفلكيا ومؤقتا» مات سنة ١١٩٧ هـ[١]، ومن أمناء الفتوى من أصبح مفتيا، فمثلا طاهر أفندي الآمدي الدمشقي الحنفي، كان أمينا للفتوى مدة طويلة، ثم عين مفتيا في دمشق، وبقي في منصبه حتى أحداث عام ١٨٦٠ حيث نفي الى الماغوصة[٢]. وعمل لدى المفتي، أكثر من أمين للفتوى، فمثلا المفتي حسين المرادي اعتمد على أربعة أمناء للفتوى وهم: السيد محمد عابدين والشيخ حسين الكبيسي والشيخ هاشم التاجي والشيخ سعدي العمري وغيرهم. وأيضا المفتي الحنفي أمين بن محمد الجبري العباسي كان لديه عدد من أمناء الفتوى وهم: سعدي العمري وعبد الله السكري وعماد الدين عابدين ومحمد البيطار، وعين كاتبا له صالح قطنا ومسوداً أبا الخير عابدين.[٣] ومن أمناء الفتوى في دمشق في هذه الفترة، أمين الطرابلسي الذي عمل لدى مفتيها محمود أفندي الحمزاوي[٤]، ثم حسين الكبيسي البغدادي الدمشقي المتوفى سنة ١٢٥٢ هـ[٥]، ثم الشيخ صالح أياس الدمشقي الحنفي الذى تولى أمانة الفتوى بدمشق أيام مفتيها أسعد أفندي البكري الصديقي ومات سنة ١٠٥١ هـ[٦]، ثم الشيخ محمد البرهاني[٧]، وكذلك اسماعيل أفندي حمزة الذي كان أمينا للفتوى لدى المفتي حسين أفندي المرادي[٨]، ثم سليم الطيبي[٩] وغيرهم من آل المنيني وقزيها[١٠].

ولقد اعتمد المفتون على هؤلاء الامناء في الاجابة على الاستفتاءات التي كانت توجه

---

(١) انظر: المرادي، سلك الدرر ... ج١، ص٦.
(٢) انظر: الشطي، محمد جميل. المصدر السابق، ص٣٠٧.
(٣) الشطي ص٨٩. ثم انظر: الحصني، محمد أديب. المنتخبات ... ج٢، ص٦٤٤.
(٤) أيضا المصدر السابق. ص٧٢.
(٥) أيضا المصدر السابق. ص٨٩.
(٦) المصدر السابق. ص١٤٣.
(٧) المصدر السابق. ص٢٧٤.
(٨) المصدر السابق. ص٦٥.
(٩) المصدر السابق. ص١٣٥.
(١٠) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٢٠/١٢٤٨ — ١٢٦٦ هـ، ص٢١ ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٤٠/١٢٥٠ — ١٢٥٥ هـ. ١٤٧.

اليهم كل بحسب فقه مذهبه. **أما طريقة الاستفتاء فكانت** توجه الى المفتي بشكل مكتوب، وحسبنا هنا أن نورد مثالا على ذلك ماوجه الى المفتي الحنفي محمد أبي الصفا، الذي ورد في إحدى سجلات محاكم دمشق، ومما جاء فيها «نسألك العصمة في السؤال والجواب. ماقول شيخ الاسلام في كذا وكذا.. فأجاب بعد الحمد لله بكلمة نعم... والحالة هذه.. والله أعلم» وقام المفتي بالتوقيع ومهرها بختمه [1]. ويصف أحد علماء دمشق الذي عاش في هذه الفترة حال الفتوى بقوله: «إن مايكون في زماننا من فتوى الموجودين ليس بفتوى بل هو نقل كلام المفتي ليأخذ به المستفتي... ويعتمد في ذلك إما على سند أو يأخذ من كتاب معروف تداولته الأيدي» [2].

ـ الأشراف

كان الاشراف في دمشق فئة اجتماعية متميزة لعبت دورها الاجتماعي والاقتصادي. ولكن دورها السياسي في أوائل القرن الثامن عشر فاق ماكان عليه في فترة دراستنا. ولقب الشريف بالسيد وميّز بالعمامة الخضراء. وتمتع الاشراف بمكانة اجتماعية دينية مرموقة وبامتيازات قانونية واقتصادية خصتهم بها الدولة العثمانية. فاستثنتهم من الخدمة العسكرية، وتمتعوا بريع ممتلكات خاصة أوقفت لهم، كما خصتهم ببعض الإقطاعات وتسلموا منحا من السلطان العثماني في وقت الحج، وأعفوا من الخضوع لسلطة المحاكم العثمانية في دمشق فيما يتعلق بأمورهم الشخصية، واستعيض عن ذلك بمثولهم في المحاكمة أمام نقيبهم [3].

وترأسهم نقيبهم الذي ارتبط بنقيب الأشراف في استانبول. وكان يعين سنويا في منصبه الذي كان من أكثر المناصب الدينية اعتباراً، إلا أن الأشراف لم يكونوا أكثر القوى السياسية نفوذا، نظرا لحلول قوى سياسية أخرى محلهم في هذه الفترة، وكان على رأس هذه القوى الانكشارية اليرلية.

---

(١) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠/ ١٢٠١ ــ ١٢٠٢هـ. ص٥٧١. ثم سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩/ص٢٣٠.

(٢) انظر: ابن عابدين، محمد. رد المحتار على الدر المختار، وهو شرح لتنوير الابصار في فقه مذهب الامام الاعظم أبي حنيفة النعمان ج١. ص٦٣ وص٦٤. طبع مصر في ٥ أجزاء.

(٣) انظر: شليشر، ليندا. المرجع السابق. ج١، ص٣٢٧.

وبلغ عدد الاسر الشريفة نيفا وستا وعشرين أسرة دمشقية[1]. اضافة إلى أسر شريفة وفدت الى دمشق واستقرت فيها بعد أن أثبتت انتماءها الشريف، وكانت من المغرب العربي وبعض الاقطار الاسلامية الأخرى[2] وكان أكثر أشراف المغرب العربي الوافدين الى دمشق من النسل الحسني، وبيدهم شجرات النسب التي تثبت دعواهم. وجاء هؤلاء على فترات متلاحقة، كان آخرها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

وكانت بعض الاسر الشريفة الدمشقية، تعتبر نفسها أكثر «عراقة في نسبها» من الاسر الأخرى. وكانت هذه الأسر تدعي نسبها الى الحسين بن علي بن أبي طالب أو الى الحسن، أو أحد أبنائهما أو أحفادهما، من ناحية الأب. ومن تلك الاسر «الألفي ــ العجلاني ــ العاني ــ الحجار ــ الحصني ــ حمزة ــ زين العابدين ــ دقاق الدودة ــ دسوقي ــ كيلاني ــ مرادي ــ مرتضى ــ منير ــ وموقع والبهنسي ــ بيازيد ــ حسيبي ــ خطيب ــ السرميني» ولقد تأكد التميز في درجة الشرف بحسب نسب الاب في دمشق في تلك الفترة[3]. ومع ذلك ادعت أسر استقرت في دمشق لنفسها الشرف المكتسب عن طريق الام الشريفة. وتطالعنا سجلات محاكم دمشق بأسماء هذه الاسر التي نالت الشرف عن هذا الطريق مثل: «أسرة الطيلوني وقزيها والدقر[4] والحمصي والزلعة والعلبي والعطار والايوبي والشاهين والجرباصي[5] وزند الحديد[6] والجلاد والمغربي والعش والقدسي والقرمشي[7] والصواف والمعراوي والخشة[8] وغيرهم. ويرى أحد فقهاء الأحناف الدمشقيين الذي عاش في هذه الفترة وهو محمد أمين الشهير بابن عابدين «أن الشرف

---

(١) انظر: أيضاً المرجع السابق. ص٣٢٨.

(٢) انظر: الحصني، محمد أديب، منتخبات التواريخ لدمشق، ج٢، ص٨٠٠.

(٣) انظر: شليشر، ليندا. المرجع السابق. ص٣٢٨.

(٤) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩ /١٢٣٧ ــ ١٢٤٥هـ. ص٤٠.

(٥) انظر: السجل رقم ١٨٢ /محاكم دمشق/ ١١٨٣ ــ ١١٩٠هـ. ص١٤٩ وص١٥٠. ثم سجل محكمة الميدان بدمشق رقم ١٢٣٨/٣٠٤ ــ ١٢٤٠هـ. ص٦ وص١٠ وص١٥.

(٦) انظر: السجل رقم ٢٢٠/محاكم دمشق/ ١٢٠١ ــ ١٢٠٢هـ/ ص٤٩٤ وص٥٦٩.

(٧) انظر: السجل رقم ٣٢٣ /محكمة الميدان/ ١٢٤٧ / ص١٢١. ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم٣٣٤/٢ ص٨ وص١٢.

(٨) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٠١/٢٢١ ــ ١٢٠٣هـ. ص٤٣ وص٢٠٨ وص٢٤٧.

لايثبت من جهة الأم .. وهو غير معتبر»[1] وتفسر هذه الظاهرة بالمكانة الاجتماعية المرموقة لاشراف دمشق وطموح العديد من الدمشقيين للوصول اليها والاستفادة من امتيازاتها. فادعوا النسب الشريف ولبسوا العمامة الخضراء اسوة بالأشراف الأصلاء. إلا أن الدولة العثمانية، رغم مشاغلها، لم تغفل عن ذلك بل كانت توجه بين الفينة والأخرى، أوامرها إلى نقباء الاشراف في الولايات ومنها دمشق للتحقق من أنساب الادعياء ووضع حد لهم. مما دفع بنقيب أشراف دمشق للتدخل لدى قاضي القضاة «لمنع هؤلاء من لبس الشارة الخضراء والادعاء بالشرف»[2].

ومن جهة أخرى وجدت بين أشراف دمشق الفروق المعتادة بين (الخاصة والعامة) شأن الفئات الدينية الاخرى، على ضوء الملكية الشخصية والدخل الفردي وطبيعة العمل، فكان خاصة الاشراف من أسرها البارزة التي تسلمت معظم المناصب الدينية الرفيعة ودعمت مراكزها بملكيتها الواسعة في الأرض والمرافق الاقتصادية الأخرى، ناهيك عن توليها لأوقاف المدارس والجوامع والحرمين الشريفين وغيرها، الأمر الذي وفر لها بحبوحة من العيش، في حين كان عامة الأشراف كعامة دمشق، عاشوا على دخول محدودة من صنعات وحرف مختلفة، وعاقر بعضهم الخمرة[3]، واستخدموا كأدوات طيعة في أيدي خاصتهم، فتصدوا بهم لمن هدد مصالحهم أو نافسهم على مناصبهم. فمثلا عندما عين السيد عبد الرحمن الكيلاني الحنفي الحموي القادري نقيبا للأشراف في دمشق، شعر هؤلاء بالخطر على مصالحهم فحركوا رعاع الأشراف ضده وهجموا على داره الكائنة بالقرب من باب القلعة وأرادوا إيقاع الضرر فيه... فعزل ومات سنة ١١٩٥ هـ/١٧٨٠ ــ ١٧٨١ م[4].

واكتسب عامة الاشراف كنياتهم من الحرف التي زاولوها في دمشق كالحجار[5] والعطار[6] وتوجد أدلة أخرى على إن بعضهم كان سليل حرفيين كعائلة الفلاقنسي التي

(١) رد المحتار على الدر المختار. ج٣. ص١٨.
(٢) انظر سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦/ ص٢١٨ ص٢٥٦ ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٠٢/ ص١٨.
(٣) انظر: المرادي، محمد خليل. سلك الدرر. ج٤، ص٢٤٦.
(٤) المصدر السابق. ج٢، ص٢٩٤.
(٥) انظر: سجل محكمة الميدان رقم ٣٠٤ / ١٢٣٨ هـ ــ ١٢٤٠ هـ. ص١٠.
(٦) انظر: السجل رقم ١٨٢ /محاكم دمشق/ ١١٨٣ ــ ١١٩٠ هـ. ص١٤٩.

كانت من النساجين (الحياكين) وبعض أفراد عائلة الحمزة الذين كانوا من الخياطين وبعض أفراد أسرة سلطان الذين كانوا من المؤذنين[١].

ولم يقتصر سكن الاشراف على منطقة معينة في دمشق رغم وجود بعض الأزقة التي كانت تحمل أسماءهم، مثل زقاق الأشراف في باب الجابية بالقرب من سيدي الشيخ عامود، وزقاق الأشراف باطن دمشق بمحلة الخراب[٢]، بل سكنوا في احياء دمشق المختلفة سواء داخل أسوارها أو خارجها. ففي سنة ١٢١٦ هـ كان يسكن نقيب الاشراف من آل العجلاني في زقاق المنجدين[٣] باطن دمشق، وكذلك حسن أفندي حمزة الحسني كان يسكن في حي القيمرية بالشارع السلطاني[٤]، في حين كان بعض آل العجلاني يسكنون خارج اسوار دمشق في حي الميدان. ومن الأشراف من سكن في قرى دمشق. ولم يستمد الأشراف نفوذهم الاجتماعي، من نظرة احترام الدماشقة لهم فحسب، بل استطاعوا تحقيقه من خلال حصول خاصتهم على المناصب الرفيعة في الدولة، كالقضاء والافتاء والتدريس ونظارة الاوقاف ومشيخة الطرق الصوفية والحرف بالاضافة الى نقابة الاشراف. وبرزت منهم في هذا المجال أسرة المرادي والعجلاني والمنير والسرميني وحمزة والصديقي والتحسين وغيرها.

وكان أشراف دمشق في معظمهم من السنة بمذاهبها المختلفة وقلة منهم كانت من الشيعة الاثني عشرية كآل المرتضى[٥]. وبلغ عدد الأسر الشريفة على المذهب الحنفي تسع عائلات وعلى المذهب المالكي ثماني عائلات، وعلى الشافعي ثلاث عائلات، ولكن لم تكن إحدى هذه الأسر من الحنابلة[٦].

ولم يلعب تنظيم الأشراف في دمشق دورا سياسياً بارزا في هذه الفترة، شأن أقرانهم في حلب، الذين كانوا أكثر تماسكاً فيما بينهم، من أشراف دمشق، الذين أثير الخلاف فيما

---

(١) انظر: شليشر، ليندا. المرجع السابق. ص٣٢٩.
(٢) انظر: السجل رقم ٢٣٥ /محاكم دمشق/ ص١٨٠ وص١٨٩.
(٣) انظر: سجل المحكمة الكبرى بلمشق رقم ٢٥٠ /١٢١٦ ــ ١٢١٧ هـ. ص٢٥.
(٤) انظر: المصدر السابق. ص١٠٣.
(٥) انظر: الشطي، محمد جميل. المصدر السابق. ص١٣٦. ترجمة السيد سليم مرتضى.
(٦) انظر: شليشر، ليندا. المرجع السابق. ص٣٢٩.

بينهم على منصب نقيبهم وسلطاته التي حددت بالاتي : «حفظ أنسابهم وتمييز بطونهم ومعرفة من ولد منهم (ذكر أم انثى) واجبارهم على السلوك الذي ينسجم مع سمو نسبهم وتنزيههم عن المكاسب الدنيئة ، ومنعهم من المطالب الخبيثة وكفهم عن ارتكاب المآثم وانتهاك الحرمات ، ومنعهم من التسلط على العامة كي لاتكرههم . واستعطافهم في استيفاء حقوقهم منها ، واستيفاء حقوقها منهم ، وأن ينوب عنهم في استيفاء حقوقهم من بيت المال ، ويراعي قسمها بينهم بحسب الشروط والأوصاف المرعية ، وأن يمنع زواج نسائهم إلا من الاكفاء لشرفهن ، وأن يقوّم ذوي الهفوات ويقوم بالفصل في منازعاتهم ويتولى أوقافهم فيما ملكوه وإقامة الحدود عليهم فيما يرتكبون وتزويج الايامي اللواتي ليس لهن أولياء ، ويوقع الحجر على من يصاب بالعته منهم»[١].

وقام نقيبهم بتمثيلهم أمام السلطات وتبوأ بذلك مركز الوجاهة الاجتماعية . وكان معظم نقبائهم في دمشق من أسرتي العجلاني وحمزة وشاركتهما في ذلك أسرة التحسين والمرادي والصديقي ، وكان ترتيب النقباء على الشكل الآتي :

عبد الله اسماعيل العجلاني	١٧٧٠ ـــ ١٧٧١ م
حمزة بن يحي الحمزة	١٧٧١ ـــ ١٨٠٢ م
محمد خليل بن علي المرادي	١٧٨٥ ـــ ١٧٨٦ م
حمزة بن علي العجلاني	١٨٠٢ ـــ ١٨١٢ م
سعيد بن حمزة العجلاني	١٨١٢ ـــ ١٨٢٠ م[٢]

وفي سنة ١٢٤٥ هـ استلم النقابة أحمد رشيد تحسين الحسيني[٣] ، ومن بعده أحمد عارف تحسين[٤] ، الذي بقي نقيبا للأشراف في دمشق الى سنة ١٢٤٨ هـ حيث حل محله السيد محمد خليل أفندي الصديقي[٥] . وأوكل أمر أشراف القرى إلى قيمقام نقيب الاشراف

---

(١) انظر : البيطار ، عبد الرزاق . حلية البشر ... ج٢ . ص١٠٤٣ وص١٠٤٤ .
(٢) انظر : شليشر ، ليندا . المرجع السابق . ص٢٣٠ .
(٣) انظر : سجلات الوثائق التاريخية بدمشق المجلد ٢ . ثم الوثيقة رقم ٣٥/ ص٤٣ تاريخ ١٢٤٥ هـ .
(٤) المصدر السابق الوثيقة رقم ١٧٢/ ص١٧٠ سنة ١٢٤٧ هـ .
(٥) سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٢٦/ ص١٠٩ .

الذي كان تابعا له. وكان هذا المنصب أيضاً في أسر دمشق الشريفة، وكان قيمقام نقيب الأشراف يعين سنويا. واستلم هذا المنصب السيد عبد المحسن العجـــلاني مابين ١٢٤٥ ـــ ١٢٤٧هـ[١].

ولقد تعرض الأشراف، شأن بقية القوى المحلية في دمشق، لضربات عديدة نتيجة للظروف السياسية والاقتصادية التي أحاطت بدمشق، فوجهت اليهم ضربات موجعة على يد والي دمشق أحمد باشا الجزار. ففي سنة ١٢١٨هـ قام زبانيته بعزل نقيب الأشراف حمزة أفندي العجلاني ونصبوا مكانه خليل أفندي الصديقي «بموجب بيوردي من الجزار»[٢]، ولم يكتف الجزار بذلك بل أصدر أوامره بقتل عبد الرحمن المرادي وأسعد أفندي المحاسني، فخنقا في قلعة دمشق سنة ١٢١٨هـ[٣]. وأصدر أوامره بقتل آخرين من خاصة الأشراف وابتزاز أموال التجار منهم، كالسيد محمد الصواف الذي سجنه وعذبه وأخذ منه عدة أكياس من القروش. ولم ينج الأشراف الذين عملوا في طوائف الحرف من الابتزاز وتشويه أجسادهم على يد زبانية الجزار.

وأصاب الأشراف ماأصاب رجال الدين من الضرر نتيجة لاصلاحات محمود الثاني من جهة، وللمتغيرات التي أدخلها حكم ابراهيم باشا المصري، في مجال التزام أموال الميري، والقضاء والتدريس، ودعوته لمساواة أهل الذمة مع المسلمين، وإدخاله القناصل الاوربيين، مما انعكس على الوضع الاجتماعي بشكل عام، فتأثر الأشراف بذلك، لما حرموه من امتيازاتهم العديدة نتيجة لتلك الإجراءات. وتغلغلت أكبادهم مع بعض الخاصة من رجال الدين ضد ابراهيم باشا، وبدأوا يحرضون على الثورة والعصيان، إلا أن شدة حكم ابراهيم باشا جعل حقدهم نارا تعث تحت الرماد لم تقو على الاندلاع إلا في أحداث عام ١٨٦٠م.

---

(١) انظر: سجل الوثائق التاريخية بدمشق المجلد رقم٢. الوثيقة رقم ٣٥/ ص٤٣. ثم الوثيقة رقم ٦٠/ ص٦٥. ثم الوثيقة رقم ٩٦/ ص١٠٠. ثم الوثيقة ١٤٢/ ص١٤٢. ثم الوثيقة رقم ١٧٢/ ص١٧٠.

(٢) انظر: العبد، حسن آغا، قطعة من تاريخ حسن آغا العبد، ص٨٩.

(٣) انظر: الشطي. المصدر السابق. ص٦١ وص٩٣.

أوقاف دمشق ودورها الاجتماعي

قسم الوقف الى وقف خيري[1] أو وقف أهلي[2]، أما الخيري فكان إما لاغراض دينية أو لاغراض دينية ودنيوية. أما الوقف الأهلي فكان نوعين: وقف طائفي أو وقف ذري. أما نوع الملكية الموقوفة فكانت إما أموالاً منقولة أو غير منقولة. والأموال المنقولة، إما صامتة أو ناطقة. وكان الحرمان الشريفان (مكة والمدينة) والجامع الأموي والتكية السليمانية والبيمارستان النوري والقيمري، ثم جامع أحمد شمسي باشا وجامع لالا مصطفى باشا، أكثر مانالت من الجهات والمؤسسات الخيرية من الأوقاف. وكانت دائرة الأوقاف من السعة بحيث شملت معظم أملاك دمشق، من هنا جاءت أهمية الوقف الاقتصادية والاجتماعية الدينية. وكثر عدد العاملين في مؤسساتها الخيرية، والمنتفعين بأموالها، وتعددت بذلك تسمياتهم. وكانت الأوقاف تحت اشراف القضاة وتوابعهم في دمشق وكان المتولي من أهم موظفي الوقف، ويقوم بمهامه بموجب براءة سلطانية من استانبول. ففي هذه الفترة كان سليم آغا بن عبد الله الوكيل بن مصطفى آغا بن المرحوم حسن آغا الاسلامبولي متولياً على أوقاف البيمارستان النوري[3]. في حين نرى أن من تولى أوقاف الحرمين الشريفين في دمشق كانوا من الأروام، ففي سنة ١٢١١ هـ كان ولي آغا بن محمد الرومي متوليا على الأوقاف المذكورة. وشاركهم في ذلك بعض الدماشقة، ففي سنة ١٢٠١ هـ كان متوليا على الاوقاف المذكورة محمد القدسي

---

(١) الوقف الخيري: هو ما حبس لجهة دينية كالمساجد والمعابد ومدارس العلم ودور الصناعات ورباطات المجاهدين وزوايا وتكايا الصوفية والفنادق لابناء السبيل ومستشفيات للمرضى ومقابر للموتى ودور لإيواء العاجزين والصرف عليهم ولاداء فريضة الحج وتجهيز البنات الى أزواجهن وهن اللواتي لاقدرة لهن على ذلك. ولفكاك الأسرى ولتعديل الطرق والأرصفة ولتعويض كسر الأواني ولجر قنوات المياه ولانشاء المنارات وتأمين الأرامل ومساعدة المساكين وتقديم مساعدات نوعية للقرويين والمسنين وتأمين لباس أطفال المدارس ورز للطيور وطعام وماء للحيوانات وتمويل نزهة الأطفال في زمن الترفيع ودفن الفقراء بعد تجهيزهم وغيرها. انظر: الحصني، محمد أديب تقي الدين، منتخبات تواريخ لدمشق. ص٩٧٩. ثم ابن بدران، عبد القادر، منادمة الأطلال، ص٥٤ وص٥٥.

(٢) الوقف الأهلي: وهو إما طائفي ــ كوقف الحنابلة والشافعية والشيعة. أو طوائف أهل الذمة كالموارنة والارثوذكس واليعاقبة ــ أو وقف ذري وهو ماحبسه الواقف على أبنائه وأحفاده وأسباطه وأعقابهم الى انقراضهم ثم يحول الى جهة خيرية بحسب شرط الواقف.

(٣) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/١٢٠١ ــ ١٢٠٣ هـ. ص٩.

الزهاوي ثم محمد هبة الله التاجي[1]، وكانت أوقاف الجامع الأموي على المذاهب السنية الثلاثة الرئيسة في دمشق (الشافعية والأحناف والحنابلة)، ومن موظفي الوقف الآخرين الناظر الذي صح أن يكون ذكرا أو أنثى من ذرية الواقف، خاصة اذا كان الوقف ذريا، وقسم ريع النظارة بنسب معينة بحسب الأنصبة الشرعية على مستحقيها .

ومن موظفي الوقف أيضا الجابي، الذي كان يقوم بجباية الأموال من مستأجري أملاك الوقف أو مستثمريه، ويقوم بدوره بدفع الاموال للناظر، ويحصل على منصبه بموجب براءة سلطانية، وكان له راتب مخصوص على ذلك. ومن مهامه فض الدعاوي والمخاصمات لدى الحكام والصرف والايجار والحبس والافراج والمكاتبة والاشهاد على الوجه المعتاد[2]. وبرزت في هذا المجال اسر دمشقية تغلب اسم عملها في الأوقاف على كنيتها الاصلية واصبحت تعرف به كآل الجابي .

ومن موظفي الأوقاف وكيل الجابي، الذي كان يقوم بمهام الجابي بتوكيل منه عندما لايقوم الأخير بهذه المهمة شخصيا، وكان للوكيل على ذلك مبلغ معلوم. ثم قيم مقام المتولي، الذي كان ينوب عن المتولي لدى القاضي فيما يتعلق بأمور الوقف[3]. هذا ناهيك عن عدد من الموظفين والكتاب الذين عملوا في مصالح الوقف المختلفة، وفي المؤسسات الوقفية الخيرية. ففي التكية السليمانية في دمشق كان يوجد قراء ووعاظ وحفاظ ومتولون وكتاب وجباة وأئمة ومؤقتون وبوابون وفراشون وكناسون وشغالون ومبخرون ومصرفون وشيوخ أجزاء ومراقبون وأساتذة وتلاميذ وخبازون ووكلاء خرج وحمالون وخزانون وغيرهم ماينوف على ١٠٣ أشخاص[4].

وكان لوقف شمسي أحمد باشا في سنة ١٢٣٨ هـ (١٧٦) إرسالية متولي، و٣٦

---

(١) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٤ /١٢٦٠ ــ ١٢١١هـ. ص٥٠. ثم سجلها رقم ٢٣٩/ ص٢٩٨ وص٥٠٨. ثم سجلها رقم ٢٤٠/ص٤٨١. أيضا السجل رقم ٢٣٥/محاكم دمشق/ ١٢١٠ ــ ١٢١١هـ. ص٢٨. ثم سجل رقم ٢٥٠ /المحكمة الكبرى بدمشق. ص١٠.

(٢) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/١٢٠١ ــ ١٢٠٣هـ. ص١٩٨.

(٣) انظر: السجل رقم ٢٣٥ /محاكم دمشق/ ١٢١٠ ــ ١٢١١هـ. ص٨٨.

(٤) انظر: الحسني، جعفر. التكية السليمانية في دمشق. مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق. الجزء الثاني. المجلد ٣١/ص٢٢٦ وص٢٢٧. ١٩ شعبان ١٣٧٥هـ/ ١ نيسان ١٩٥٦م.

وظيفة ناظر وقف و ٣٠ قائمقام و ٢٤ وظيفة مختلفة، ووظيفتا كتاب. وكانت به أيضا وظائف عدة لآل الاسطواني وعلي آغا وآل الشرباتي وآل المجد وآل العمري وآل منلا أفندي وغيرهم[١].

ولم يكن الوقف حصرا بالمسلمين، بل كان لأهل الذمة أوقاف عديدة، حبست على جهات خيرية وأهلية مختلفة تخص أبناءهم ومنشآتهم الدينية، وسجلت هذه الأوقاف في سجلات محاكم دمشق أمام قضاتها أو نوابهم إلا أن هذه الاوقاف لم تصل في اتساعها وغناها الى ماوصلت إليه الاوقاف الاسلامية لسبب بسيط، هو قلة عدد الذميين إذا ماقيس بعدد المسلمين في دمشق، وحبست أوقافهم الخيرية على البيع والأديرة وغيرها، وكانت أوقاف المسيحيين على طوائفهم المختلفة، كالأرثوذكس، الموارنة واليعاقبة والكاثوليك والكبوشيين، في الفترة الأخيرة[٢] وغيرها. ولقد أشرف على أوقافهم، موظفون وقيمون شأن الأوقاف الاسلامية. وكان متولو أوقاف النصارى من النصارى أنفسهم وبحسب طوائفهم، أما نظار تلك الأوقاف فكانوا مناصفة بين النصارى والمسلمين، وحددت اسماء النظار والمتولين براءات سلطانية.. فمثلاً: في سنة ١٢٠١ هـ كان متوليا على وقف دير صيدنايا بطريق طائفة النصارى دانييل جرجس حنا بموجب براءة سلطانية[٣]. كما تولى أوقاف دير طورسينا في دمشق القس يوسف بن الياس حنا[٤]، ومن بعده في ١٢١٠هـ/١٧٩٥ — ١٧٩٦م تولاها الراهب جستنيان ولد المعلم متري[٥]، وفي نفس هذا العام كان متوليا على أوقاف الموارنة القس روفائيل عبد المعطي المسابكي الموراني[٦]. أما أوقاف اليعاقبة في دمشق فقد

---

(١) انظر: سجلات الوثائق التاريخية بدمشق. المجلد الثاني. ص١.

(٢) انظر سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/ ١٢١٦ — ١٢١٧هـ. ص٩٣ وص٩٤ وص٩٥. ثم سجل المحكمة العونية رقم ٢٦٠/١٢٢٢ — ١٢٢٣هـ. ص٩. ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٩/ ١٢١٠ — ١٢١١هـ. ص٧٢ وص٩٥. ثم السجل رقم ٣٧٩/ محاكم دمشق ١٢٥٩هـ. ص٤ وص١٥ وص١٧.

(٣) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/ ١٢٠١ — ١٢٠٣هـ. ص٣١٦. ثم: سجلها رقم ٢٥٠/١٢١٦ — ١٢١٧هـ. ص٩٣ وص٩٤.

(٤) المصدر السابق. ص٤٣٧.

(٥) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٩/١٢١٠ — ١٢١١هـ. ص٩٥.

(٦) المصدر السابق. ص٧٢.

تولاها في ١٢١٦ هـ/١٨٠١ ــ ١٨٠٢ م سليمان ولد حور[1]، وفي سنة ١٢٥٩ هـ تولي أوقاف الروم الكاثوليك الخواجة ميخائيل ولد المعلم ابراهام الاسود[2]. ولقد سجلت أوقاف المسيحيين واليهود في سجلات محاكم دمشق المختلفة، كسجلات المحكمة الكبرى وسجلات المحكمة العونية وسجلات محكمة الميدان، لقرب هذه المحاكم من أحيائهم السكنية، في حين لانرى مثل هذه المعاملات في سجلات محكمة الصالحية، للأسباب التي ذكرناها آنفا.

وكانت أوقاف اليهود محدودة في دمشق لقلة عددهم فيها، وجل أوقافهم كانت خيرية ومحبوسة على كنيسهم في قرية جوبر، وكان ناظرا ومتوليا على هذا الوقف في سنة ١٢١٧ هـ، بشة ابن يوسف آرازي، الذي جرى تعيينه بالتماس وحضور جماعة من طائفتهم أمام القاضي[3]. وكذلك وقف يعقوب اليهودي الذي كان ناظرا عليه في سنة ١٢٢٣ هـ يعقوب اسحاق بموجب تقرير حصل عليه في سنة ١١٨٤ هـ[4]. ولكننا لانعلم طبيعة هذا الوقف، أكان خيرياً أم أهليا ؟، ومع ذلك كان لليهود أوقاف أهلية وغير أهلية، سجلت جميعها في سجلات محاكم دمشق الثلاثة الآنفة الذكر.

ومما يسترعي انتباهنا في هذه الفترة، المشاكل التي كان يحدثها إسلام أحد أهل الذمة فيما إذا كانت له حصة من أوقاف دينية سابقة لإسلامه، وكانت مثل هذه الحالة تعرض على القاضي، فيأمر بصرف تعويض له مقابل تنازله عن حصته في الوقف، ونسوق مثالا على ذلك ماحصل في سنة ١٢١٠ هـ/١٧٩٥ ــ ١٧٩٦ م عندما أسلم جرجس سمور (الذي أسمى نفسه بكري) والذي كان يقاسم أخاه فرنسيس مناصفة في النظر على وقف جدهما، فحكم القاضي للأخ الذي أسلم، بأخذه مبلغا من المال مقابل تنازله عن حصته في النظر على وقف جده لأخيه النصراني[5].

ضروب الحيل للسطو على أموال الأوقاف

نتيجة لاتساع أملاك الاوقاف وغناها، وللظروف الاقتصادية والسياسية المضطربة،

---

(١) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١٦/٢٥٠ ــ ١٢١٧ هـ. ص١٣٠.
(٢) أنظر: سجل محكمة الميدان رقم ٣٧٨/ سنة ١٢٥٩ هـ. ص١٥.
(٣) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١٦/٢٥٠ ــ ١٢١٧ هـ. ص٣٦٢.
(٤) انظر: سجل المحكمة العونية بدمشق رقم ١٢٢٢/٢٦٠ ــ ١٢٢٣. ص٣١٣.
(٥) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١٠/٢٣٣ ــ ١٢١١ هـ. ص١٤٧.

ورغبة في الثراء والحفاظ على دخول مادية عالية وبالتالي الحفاظ على الجاه الاجتماعي، سعى العديد من الدماشقة وغيرهم من عناصر السلطة للسطو على ريع الأوقاف وممتلكاتها بحيل متباينة. ولم يكتفوا بذلك بل حولوا ملكياتهم الخاصة الى أوقاف ذرية للتهرب من مصادرة الدولة لاملاكهم، التي كانت تحصل لاتفه الاسباب..

وهانحن نبسط فيما يلي أهم الحيل التي ابتكرها الطامعون في أملاك الأوقاف «الأرضين والمسقفات وغيرها،» فكان على رأسها: (المرصد) بالنسبة للعقارات المسقوفة. فادعي على أنه دين على ذمة العقار الموقوف يوفى من أجرة العقار بعد استيفاء المتولي عليه مقدارا معجلا من المستأجر الذي سماه (خدمة) وفرض مقداراً مؤجلاً على العقار استوفاه منه مسانهة وسماه (دينا مؤجلا).

وأبدعوا حيلة أخرى بالنسبة للأراضي الزراعية الواقعة في ملك الاوقاف، فاتبعوا طريقة أخرى أسموها (شد السكة أو مشد السكة) وتعني استحقاقاً لحراثة الارض التي ليست مملوكة الرقبة للحرث. وكذلك أداء مرتب الوقف إذا كانت موقوفة الرقبة بعد أداء حق حرثها. وما أن حل القرن التاسع عشر حتى ساد الغموض التام بين الأرض الموقوفة والارض غير الموقوفة، أو الموقوفة بشكل صحيح بغيرها من الاراضي الموقوفة وقفا غير صحيح، وشمل الاختلاط الاراضي ذات الوقف الاهلي بغيرها من الاراضي ذات الوقف الخيري. فضاع بذلك عدد كبير من الاراضي الموقوفة بتقادم العهد[1]. وقام المتولون على الأوقاف أيضا بالتلاعب بمناشير السلاطين، وتكتموا عليها ليتاح لهم التلاعب بشروط الواقفين من الميادين أو الحالات الخيرية، ولاختلاسهم حقوق المستحقين من الوجهة الاهلية. واستغل بعض الدماشقة قاعدة (الاستبدال) بالنسبة للوقف. فاستبدلوا بالتواطؤ مع الحكام والقضاة أملاك الأوقاف الجيدة بأملاك سيئة لاتجدي نفعا تحقيقا لمصالحهم الشخصية[2]. وابتدعوا (الكدك أو الجدك) ثم القميص والحكر والاحترام والقيمة في مجال الأرضين. والمراد بكلمة (القيمة) هو جدران البستان (الدكوك) ومايشتمل عليه من جذور وشروش الفصة ومعجن المشمش.

---

(١) انظر: الحصني، محمد أديب، منتخبات التواريخ لدمشق، ص٩٨٣.

(٢) لمزيد من التفصيل يمكن العودة الى ابن عابدين، محمد أمين. رد المحتار على الدر المختار. ج٣. ص٥٣٥ وص٥٣٧. وهو أحد الفقهاء الذين عاشوا في هذه الفترة وكتبوا عنها. ولد سنة ١١٩٨ هـ ومات سنة ١٢٥٢ هـ. ثم الشطي، محمد جميل. ص٢٤٩ ومابعدها.

أما الكدك فكان منهم بدعة، شملت المسقفات كالحمامات والحوانيت. اما كدك الحمامات فكان يشمل الفرش والأساس كالسجاد والوزرات والمداسات وغيرها، وشمل كدك الحوانيت ماوضعه المستأجر فيها من أبواب ورفوف وغالات وغيرها. وكذلك بالنسبة لحوانيت المقاهي والحلاقة. وكان الكدك يسمى (خلوا أو حق السكن). ويراد به قطب الرحى وأحجارها.

ولم تقتصر حيلهم على ذلك بل شملت عرصات البناء الموقوفة، فأسموها (حكرا) وذلك بأن يأذن المتولي للمستأجر بانشاء بناء على العرصة الموقوفة، على أن يكون هذا البناء ملكا له بعد أن يؤدي لمتولي الوقف مقدارا معجلا يسمى (خدمة). ويتعهد بدفع مبلغ من المال يؤديه مسانهة يسمى (دينا مؤجلا). وقام مستأجرو أرض الوقف، بغرس غراس فيها أسموا تلك الغراس (احتراما)، وكان ذلك حيلة منهم للسيطرة على الوقف، وحرمان مستحقي ريعها منها.

ولقد استفحلت ظاهرة الاحتيال وكثرت المشاحنات والمنازعات بين أصحاب الحقوق، في الأوقاف والمتسلطين عليها، مما أدى الى تعدد الشكاوى الى القضاة ونوابهم في دمشق. وسجلات محاكمها مليئة بمثل هذه القضايا. وحسبنا هنا أن نسوق مثالا على ذلك ماورد في سجل المحكمة الكبرى في عام ١٢١٦ هـ بخصوص (استبدال) بساتين جارية في وقف المرحوم جمال الدين الخضيري والمستقرة تحت نظر قاسم آغا بن محمد آغا الدمشقي وابن عمه اسماعيل آغا: وذلك بالدراهم والدنانير، ورغم أن تلك العملية كانت احتيالاً لشراء أملاك الوقف المذكور، وتلحق ضررا كبيرا به، إلا أن القاضي وافق على عملية الاستبدال في ١٣ شعبان ١٢٢٦ هـ[1] مبرراً ذلك بحجج واهية. ولقد شمل الاحتيال أيضا أوقاف أهل الذمة[2] كما شمل أوقاف المسلمين ويعلق محمد أمين عابدين على عمليات الاحتيال بشكل عام فيقول: «إن أهل السوء المستأجرين ملك الأوقاف تواطؤا مع الحكام وسيطروا على هذه الاملاك واحتكروها وورثوها لابنائهم وأحفادهم.. فأدى ذلك الى نقصان فاحش في مردود

---

(١) انظر: تفصيل القضية في سجل المحكمة المذكورة رقم ٢٥٠/ ص٨٣ كما وردت مواد احتيال مماثلة في سجل محكمة دمشق الكبرى رقم ٢٢١ /١٢٠١ ــ ١٢٠٣هـ. ص١٧٨ وص٧٨ وص٢٢٨ وص٢٣٠ ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١١/٢٤٥ ــ ١٢١٦هـ. ص٣٤٤.

(٢) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/ ص١٣٠.

الأوقاف»[1]. ولم يكتف المختلسون بحيلهم تلك بل سعوا بعضهم للتلاعب بأموال الأوقاف وأكلها بالباطل جهارا كما حصل لمتولي أوقاف الجامع الأموي من أسرة سعد الدين. ويعلق المرادي على تصرفهم هذا بقوله: (اضمحل حالهم وخربت دورهم بسبب ذلك)[2]. وجرت بعض المحاولات لاصلاح حال الاوقاف من قبل بعض الفقهاء ورجال الدين وغيرهم، فاتجهوا الى القضاة لوضع حد لتلك الألاعيب والحيل على أملاك الأوقاف. وكان منهم محمد أمين عابدين الذي استصدر أوامر من قاضي قضاة دمشق فيما يتعلق (باجراء المدة الطويلة والتالية والمنتظرة وثبوت المرصد والبيع الحكمي وغيرها)[3]. إلا أن هذه المحاولة لم تكن حلاً عاماً وجذرياً لمشكلة الأوقاف، كما أنها لم تستطع أن تعيد الأوقاف إلى مسارها الصحيح، فانعكس هذا الوضع السيء سلبا على المؤسسات الخيرية والمنشآت العامة التي اعتمدت في تغذيتها وصيانتها على ماتدره أوقافها، فآل أمرها الى الاضمحلال والخراب. فاضطر السلطان محمود الثاني لانشاء مديرية خاصة (تحولت الى وزارة فيما بعد) لتنظيم أمور الاوقاف بعد أن فسد رها، وكثر تحويل الملك الى وقف أهلي أو ذري، لتحاشي مصادرته من قبل الدولة، ولما كان الوقف مقتصرا عادة على المدن وجوارها المباشر، حيث شاع الملك وعم تحويله الى وقف، بينما كانت معظم الاراضي الزراعية في الريف أراضي دولة تعطى كاقطاع وتجبى وارداتها عن طريق الالتزام، فقد تحولت واردات الوقف لتقوية فئة العلماء، الذين كانوا نظارا ومتولين للاوقاف، وجاء هذا الاجراء الجديد ليحرم العلماء من مصدر هام من مصادر قوتهم وليزيد بالمقابل من سلطة الدولة[4]. وتحول هؤلاء إلى دعم الدولة لطالما أن معاشهم يعتمد عليها.

---

(١) رد المحتار على الدر المختار. ج٣، ص٥٤١.

(٢) محمد خليل.. سلك الدرر... ج١. ص٤٢.

(٣) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٢٦ /١٢٤٨هـ. ص١١٦ وص١١٧.

(٤) انظر: رافق، عبد الكريم. العرب والعثمانيون. ص٣٧٩ وص٣٨٠.

الفصل الرابع

البنى الإجتماعيّة في دمشق

الأسرة الشامية

أسر دمشق البارزة ــ الاسرة الفلاحية ــ غذاء الأسرة الفلاحية ــ الاسرة الواسعة في مدينة دمشق ــ هندسة البيت الشامي ــ القصور في دمشق ــ بيوت الريف في مقاطعات ولاية الشام ــ حرمة البيوت وقدسيتها ــ حياة الاسرة الدمشقية ونشاطها داخل البيت ــ المرأة الدمشقية ــ حجاب المرأة الدمشقية ــ عمل المرأة في دمشق ومقاطعاتها ــ ظاهرات الانحراف في المجتمع الدمشقي:

١ً ــ الزرب
٢ً ــ الرشوة والغش وأسبابهما
٣ً ــ السرقة والسطو والبلص
٤ً ــ تناول المخدرات ومعاقرة المسكرات
٥ً ــ الشذوذ الجنسي
٦ً ــ ظاهرة العهر.



الأسرة الشامية

من الثابت أن العثمانيين لم يتدخلوا في شؤون الأسرة في بلاد الشام، فبقيت على حالها الموروث إلى العقد الرابع من القرن التاسع عشر، من حيث بنيتها وتنظيمها وتماسكها وسكنها وعاداتها وتقاليدها. وإذا ما طرأ عليها تطور ما، كان طفيفاً وبطيئاً، نظرا لثبات علاقات الانتاج وطرقه من جهة، ولا نعزال دمشق عن المؤثرات الاوربية نسبياً من جهة أخرى، في وقت بدأت فيه أوربا تقود ركب الحضارة الانسانية. وبقيت دمشق مغلقة في وجه الأوربيين إلى الاحتلال المصري، حيث غدا الغزو الاقتصادي واسعاً وعميق التأثير، أعقبه غزو أوربي فكري، نتج عنهما بداية تفكك البنى الاقتصادية والاجتماعية القديمة التي كانت سائدة، لتحل محلها بنى وعلاقات اجتماعية جديدة.

وعلى ضوء ذلك يمكننا أن نلمح مرحلتين أساسيتين مرت بهما الاسرة في فترة دراستنا الاولى منهما: هي التي سبقت الغزو الأوربي الآنف الذكر، والثانية: انفتاح دمشق على الغرب في منتصف القرن التاسع عشر، حيث انعكس ذلك على الاقتصاد الدمشقي بشكل عام، وأثر بدوره على المجتمع من جهة أخرى. ولم تتأثر الأسرة في ذلك فحسب، بل أدت تلك الأوضاع المستجدة إلى حدوث مفرزات اجتماعية جديدة أنف منها المجتمع ولكنه لم يقو على التخلص منها كما سنرى.

وفيما يلي سنتناول وضع الاسرة في المرحلة الاولى ، سواء في مدينة دمشق أو ريفها ، ولقد عبر عن الأسرة بألفاظ عدة ، اختلفت بين سكان دمشق وسكان القرى المحيطة بها . وسكان الاماكن البعيدة عنها ، سواء في جبال القلمون أو في حوران أو فلسطين أو البادية .

وكانت كلمة الاسرة في دمشق تعني (عائلة) أو عيلة بالكلمة الدارجة ، وشملت جميع أفراد الاسرة من ذكور أو إناث الذين يحملون اسمها ، ويرتبطون فيما بينهم بروابط الدم . وكان الذكر يهب اسم اسرته لابنائه ، في حين لم يمنح المجتمع للمرأة هذا الحق . وكانت تعني بالمعنى الضيق (الاسرة الزوجية) ، المكونة من الزوجين وأولادهما فحسب ، كما تعني الاسرة الواسعة لتشمل بالاضافة إلى ذلك من يعيلهم رب الاسرة . فيقال عنه (صاحب عيلة) أو (أبو عيلة) إذا كان عدد من يعيلهم كبيراً ، وتشمل بالاضافة إلى الأولاد ، الأحفاد والاسباط في بعض الحالات .

وأطلق اسم (بيت) على الاسرة ، كما أطلق اسم (دار) على العائلة في جنوب بلاد الشام (فلسطين) والمقصود بذلك (الاسرة) التي تسكن داراً واحدة أو عدة دور .

واستخدم الفلاحون ، خاصة في المناطق البعيدة عن المدينة ، كلمة (حمولة) للدلالة عى الاسرة الكبيرة ، وتشمل جميع أعضاء الاسرة ، الرجال والنساء ، الذين يرتبطون مع بعضهم بروابط الدم ، وينسبون إلى جد واحد ، كحمولة الحريري في حوران . ويسمى الفرع من الحمولة (فندة) كما في حوران أيضاً وقبائل البدو . وضمت الفندة مجموعة الافراد من جيل واحد أو من عدة أجيال ممن يرجعون إلى عضو معين من الحمولة ، ويحملون اسم هذا العضو . وتتفرع من الفندة فندة أخرى وهكذا .

ويضاف إلى أسماء الاسرة الواردة سابقا كلمة (أهل) . وتعني هذه الكلمة الاب وأولاده وآحفاده العذاب والمتزوجين الذين يعيشون عادة في نفس المنزل[1] . أما الابن الذي يعيش تحت سقف أبيه ، مع زوجته وأولاده ، فيسمى مجموعهم (العيال)[2] .

وفي بعض الجبال القريبة من دمشق أو الوديان ، وجدت اسر اقطاعية كبيرة ، حكم

---

1 - See: Daghestani.K. «la Famle Muslmane conteporáine En Syrie» PP.147-153. Paris. 1932.

(٢) الغزي . الكواكب السائرة . ج ٢ ، ص ١٩٢ .

بعضها مقاطعات كانت تابعة لولاية دمشق وصيدا، أو إمارة جبل لبنان، وكان لها شيوخها، وتفرعت هذه الاسر إلى اسر كبيرة، وجمعتها تسمية واحدة، أطلق عليها كلمة «آل»، كآل تلحوق أو آل عبد الملك أو آل عماد[1]، في مناطق لبنان، ثم آل جرار أو طوقان في نابلس وهكذا.

أما العشيرة فضمت مجموعة أسرية أوسع مما ذكرناه آنفا، وكانت لدى البدو والحضر، وشملت كل من توالد في نطاق التسلسل البنوي، حتى الجيل العاشر، أو بمعنى آخر ضمت الأجيال المتولدة من خمسة أحفاد وضمت العشيرة عدة حمايل، وتعترف كلها بسلطة شيخ واحد[2] يرأسها. وبرز ذلك واضحاً في المناطق التي كانت على علاقة بالبداوة، كما في قرى حوران والجولان، ولدى البدو أنفسهم.

ولقد لعبت هذه الروابط دوراً في شد أزر المتخاصمين في دمشق، إبان الصراعات التي كانت تحدث فيها في هذه الفترة. نتيجة لبقاء من استوطنها من المهاجرين على علاقة وطيدة مع أصولهم في الريف.

ومن جهة أخرى، روعي في النسبة، ذكر اسم الوالد والجد، وذكر اللقب والمذهب الذي ينتمي اليه (حنفي ــ شافعي ــ حنبلي ــ مالكي..) والنشأة (حلبي ــ حمصي ــ بغدادي ــ أضنلي ــ سوسي.. الخ) والطريقة الصوفية التي يتبعها (نقشبندي ــ دسوقي ــ رفاعي..) والحرفة التي يعمل بها. ودليلنا على ذلك كتب التراجم وسجلات محاكم دمشق. وروعيت الالقاب الاجتماعية والعسكرية والعلمية والادارية والدينية، واستخدمت عبارات التفخيم لأبناء الهيئة الحاكمة والفئات الارستقراطية والغنية، انسجاماً مع النظام الاقطاعي الذي كان سائدا. فأضيف اسم (السيد) لسليل الأشراف أو (الشريفة) للمرأة التي تنحدر من نسل الأشراف، بالاضافة إلى كلمة (قادن) أو (خانم) بحسب وضعيتها الاجتماعية عازبة أم متزوجة. واستخدمت كلمة (أفندي) كلقب تفخيم لأفراد الاسر الدينية، وموظفي الدولة أصحاب القلم. وذكرت الرتبة التي حصل عليها من الدولة (باشا،

---

(١) العبد، حسن آغا. المصدر السابق. ص ١٦٧، وص ١٦٨ وص ١٦٩.

(٢) كان حاكم المقاطعة يلقب بالشيخ أو المقدم. انظر: الصايغ، المقترب في حوادث الحضر والعرب. ص٦٢ و ص٦٣.

بيك، آغا، جوربجي، صوباشي) الخ... وورثت هذه الألقاب للابناء، وخوطبوا بها، أما أفراد أهل الذمة من نصارى ويهود، فكان يعرف الفرد باسمه الشخصي وعندما يذكر اسم أبيه يقال (ولد فلان) ثم يذكر اسم اسرته، مضافا إليها كلمة (الذمي النصراني أو الذمي اليهودي).

أما الرقيق من (المماليك والعبيد والاماء والجواري) فكانوا يخاطبون بأسمائهم الشخصية، وإذا ذكروا في سجلات محاكم دمشق لسبب ما، فتذكر أسماؤهم الشخصية ويكنّون بأبناء (عبد الله) نظراً للجهل بأسماء آبائهم. ويضاف إلى ذلك أصل الرقيق وعرقه في بعض الأحيان (الأسود الكرجي ..الخ) وقد يكنّي الرقيق باسم سادتهم، فيقال فلانة أمة فلان، أو فلانة أو مستولدة أو معتوقة فلان، أو فلانة أو فلان تابع فلان... وهكذا.

ولقد لعب الانتماء، إلى الاسرة الواحدة وحمل اسمها، دوراً في زيادة الروابط المعنوية والخلقية والروحية بين أفرادها، فتمسك هؤلاء الأفراد بتقاليد معينة، وكانوا حريصين على الحفاظ عليها. وكانت روابط الام والأب لها أهميتها. ولهذا أخذ بعين الاعتبار التزاوج من أسر معينة، خاصة بالنسبة للاسر الارستقراطية والغنية، في حين نرى أسراً نشأت في دمشق، دون أن يكون لها جذور في مجتمعها نتيجة لزواج الغرباء من بنات الغرباء أو من بنات دمشقيات. ومثال ذلك ما كان يحصل لجنود القابي قول في دمشق الذين تزوجوا منها وتحولوا إلى يرلية.

وكتعبير عن قوة البنية الأسرية وصلابتها ووحدتها، تركزت السلطة فيها بيد كبيرها. بالإضافة لأمورها الاقتصادية والاجتماعية والمنزلية. فالاب «الرئيس» هو الذي ينفق على الاسرة، خاصة وأن أولاده يعملون بأمرته في المتجر أو المحترف، ويقدمون ما يحصلون عليه من مال لابيهم «الرئيس»، ويقوم هذا الرئيس بتنظيم الصرف والانفاق والادخار ومصروف الجيب للأبناء والاحفاد. ويخصص شهرية للمتزوجين منهم... ولهذا كان محور جميع النشاطات الاجتماعية والاقتصادية للاسرة، وتمتع باحترامها، وكانت له هيبة في نفوس أفرادها[1].

وشاعت عادة تقبيل يده كل صباح، دلالة على ما يكنه كل فرد من طاعة واحترام،

---

(١) ليلى، الصباغ. المرجع السابق. ص١٤٤ وص١٤٥ . ثم: حطب، زهير. تطور بنى الأسرة العربية والجذور التاريخية والاجتماعية لقضاياها المعاصرة. ص١٧٩ .

وكان الأب يعاقب أبناءه الذين لا يرضى عن سلوكهم، لاعادتهم إلى جادة الصواب، بطرق مختلفة. وكانت أكبر نساء البيت (الجدة أو زوجة الجد)، لها سلطتها على نساء البيت جميعهن، وتقوم بتوزيع العمل عليهن، (كالطبخ والمسح والشطف والكنس والجلي والغسيل)، إلى غير ذلك من المهام المنزلية.

وكان التماسك الداخلي سمة أساسية للأسرة الواسعة في دمشق. وبرز تماسكها في رضى كل فرد منها بالقيام بما أوكل اليه من مهمات وأعمال، أو اندفاعه في سبيل بقية أفراد الاسرة، والأفراد يشعرون بأنهم ضروريون لحياة الاسرة التي ينتسبون اليها، في نظامها واستمرارها[1].

وإذا مات الأب انتقلت السيطرة للابن الأكبر، وقد يبقى الاخوة على ما كانوا عليه، طالما أن الأم على قيد الحياة، ويعملون سوية، وتبقى أماكن شغلهم أو المشاغل أو الأرض مشاعا بينهم، بحيث لا تباع ولا يدخل غريب اليها.

وكانت الاسر المركبة (الكبيرة) تقطن أحياناً في بيت واحد، أو عدة بيوت متجاورة. ويضم البيت الكبير الزوجات والابناء والاحفاد في الاسر الغنية بالاضافة إلى ذلك يضم الخدم من الارقاء والعبيد والجواري والاماء، وربما وكيل خرج يشرف على مصروف البيت وبعض الحوزيين والسيّاس[2].

وكانت الاسر تتزاور في المناسبات وغيرها. ففي الأعياد تزور الاسر كبيرها أولا، ويعتبر ذلك من واجباتها، وتقوم نساء الأسرة بنفس المهمة فيزرن زوجة «عميد الاسرة» وتقدم الاسر التهاني بالافراح والتعازي بالاتراح، وتولى عناية خاصة للأسرة المنكوبة بفقد عزيز عليها[3].

أسر دمشق البارزة

وإذا ما حاولنا التعرف على أبرز أسر دمشق في هذه الفترة، لرأينا أنها من أصول

---

(١) حطب، زهير. المرجع السابق. ص ١٨٠.

(٢) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩ / ١٢٣٧هـ. ص ١٧٤، حيث ورد ذلك في تركة أحد أشراف دمشق الأغنياء وهو السيد مصطفى الدقر الذي توفي سنة ١٢٣٨ه. ثم انظر: مذكرات فخري البارودي. ج ١، ص ١٣.

(٣) انظر: كيال، منير. رمضان وتقاليده الدمشقية. ص ٦٤ وص ٦٦.

مختلفة، يعود بعضها إلى الفتح الاسلامي، أو إلى فترة لاحقة، وبعضها الآخر جاءها بعد الفتح العثماني، وهذه الاسر من أصول عربية أو غير عربية، كالفارسي أو التركي أو الهندي أو الكردي الخ...

وكانت تلك الأسر مختلفة في مستواها المادي والاجتماعي ونفوذها السياسي، وحتى الثلاثينات من القرن التاسع عشر كانت تقسم إلى اسر دينية أو عسكرية أو شبه عسكرية أو مدنية. والدينية منها عرفّ ابناءها الحسيبي بأنهم العلماء والاشراف. وكانت هذه الاسر تسيطر على المراكز الادارية الدينية المختلفة، وعلى معظم الطرق الصوفية في دمشق. أما الاسر العسكرية فكانت تضم الأغوات والاعيان والزعماء من السباهية، وكان منها أغوات متقاعدون أو أغوات في (أوجاقي القابيقول واليرلية)، أو أغوات في قوات المرتزقة.. والأسر المدنية تكونت ممن عمل في الزراعة والتجارة والحرف.

ولقد بدأت بعض المتغيرات تطرأ على تلك التركيبة الاجتماعية بدءا من سنة ١٨٣١م/١٢٤٦هـ بفعل ما طرأ على الساحة العثمانية من إصلاح وبتأثير ما أدخله المصريون إلى دمشق على مختلف الأصعدة والمستويات الاجتماعية والاقتصادية والادارية والفكرية، وبفعل الثورة الصناعية في أوربا وتأثيرها على الدولة العثمانية بشكل عام.

فتغير حال رجال الدين والهيئة العسكرية وأهل الذمة والحرفيين والمزارعين وكان ذلك بداية مرحلة جديدة على الساحة الاجتماعية تميزت عن المرحلة السابقة. وشكلت إرهاصاً لمتغيرات واسعة النطاق ستظهر في الفترة اللاحقة.

واستطاعت بعض الاسر في دمشق أن تدرك طبيعة هذه المرحلة وما ستجره من تبدلات اجتماعية وسياسية واقتصادية، فكيفت نفسها مع الواقع الجديد لتحافظ بذلك على مكانتها في سلم دمشق الاجتماعي، في حين جهلت أسر أخرى هذه الحقيقة مما أدى إلى إزاحتها من مكانها لتحل محلها أسر أخرى.

ولقد حرصت الاسر الدمشقية على الحفاظ على ألقابها التفخيمية تمييزاً لنفسها عن الاسر الأخرى، فكلمة (زاده) استخدمت إضافة إلى اسم الاسرة، وكلمة (بك) إلى أبناء الباشوات والباكوات، وكلمة (آغا) على أبنا الاغوات، وكلمة (أفندي) على رجال الدين

وأبنائهم ، وكلمة السيد على الشريف ، وكلمة (الشريفة) أو قادين أو كلتاهما معا للشريفة العازبة وكلمة (خانم) للشريفة المتزوجة[1] . واستاذ على المشرف على اقطاع ما ، والأوسطة للدلالة على رئيس حرفة ، والمعلم والحكيم والخواجه على بعض أهل الذمة البارزين في حرفة ما في الصيرفة وهكذا ، كما استخدمت تلك الالقاب في المستويات الدنيا .

ولقد استطاعت الاسر الدمشقية الدينية البارزة ، وعريقة الأصول التي تنحدر من آل البيت أو من صلب أحد الصحابة ، أن تحصر في أيديها ، معظم المناصب الدينية الهامة في دمشق (كالقضاء والافتاء ونقابة الاشراف وخطابة الجامع الاموي والتدريس فيه والنظر على أوقافه والتدريس في التكية السليمانية والسليمية والنظر على أوقافهما والنظر على أوقاف الحرمين الشرفين في دمشق ، ومشيخة الطرق الصوفية الهامة ، وغيرها من المناصب الدينية المختلفة ذات الشأن في دمشق . فلا غرابة إذا ما استطاعت هذه الاسر أن تشكل جانبا كبيراً من هيئة أهل العرض .

ودخلت هذه الاسر في علاقات متينة مع رجالات استانبول ، لضمان سيطرتها ونفوذها ، وجرّتْ تلك المناصب الخلافات فيما بينها ، فكادت لبعضها البعض من أجل ذلك ، وقام بعض أفرادها باعتناق المذهب الحنفي بديلا عن مذهبهم الاصل طمعاً في المناصب الرفيعة التي خص بها الأحناف دون غيرهم . ونسوق مثالا على ذلك ما قام به بعض أفراد من آل حمزة في دمشق[2] ، وآل العجلاني وآل عابدين الذين كانوا شافعيين وآل الـمري الذي كانوا حنابلة فتحنفوا[3] جميعاً .

---

(١) انظر : فاتر ، شيري . المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام . ج ١ ، ص١٠٦ وص١٠٧ .

(٢) كان من آل حمزة (حمزة بن حمزة الحسيني نقيبا للاشراف في دمشق سنة ١٢١٧ هـ . ثم اسماعيل بن حمزة الذي ولي أمانةالفتوى ومات سنة ١٢٢٢ هـ . ثم حسين بن حمزة الحسيني الذي ساد أهل زمانه ، وتولى نظارة الجامع الأموي ومات سنة ١٢٠٣ هـ . ثم نسيب بن حمزة الحسيني نقيب السادة الأشراف الذي توفي سنة ١٢٠١ هـ . ثم درويش بن حمزة الذي تولى نقابة الأشراف (١٢٠٠ — ١٢٤٩ هـ) ، ثم عبد القادر بن حمزة بن درويش الذي ولي أمانة الفتوى . ثم محمد بن نسيب بن حمزة أحد أعلام دمشق) . انظر : مردم بك ، خليل . أعيان القرن الثالث عشر في التفكير والسياسة والاجتماع . ص ٢١ وص ٢٢ وص ٢٥ وص ٢٦ وص ٢٧ . الطبعة الأولى ١٩٧١ م ثم الطبعة الثانية ١٩٧٧ م .

(٣) انظر : خوري ، فيليب . المرجع السابق — ج ١ ، ص٤٤٣ . ثم مردم بك . المرجع السابق . ص ٣٤ وص ٣٦ وص ٣٧ ثم : العبد . تاريخه ، ص ٣٥ .

ومن جهة ثانية أحصى بعض المؤرخين ست عشرة أسرة دينية بارزة في دمشق هي : أسرة الحمزة التي استلم أفرادها نقابة الاشراف ووكالتها لفترة طويلة ولمرات عديدة، وأسرة عجلان أو العجلاني، التي تنحدر من الفاطميين وجاؤوا إلى دمشق في القرن الخامس عشر، فنازعوا آل حمزة على منصب الاشراف في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وحصلوا على مالكانات في غوطة دمشق ودوما. وسكنوا في حي العمارة الذي كان سكناً للعديد من الاسر الدينية آنئذ[1]. وتسلم (فرع منجك) من هذه الأسرة منصب شيخ مشايخ الطرق الصوفية والحرف[2]. ومن الاسر الدينية البارزة أيضاً، أسرة (آل تغلب) أو التغلبي وآل سعد الدين وآل المنيني وآل العمري الذين ينتسبون إلى الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب (ض)، وآل البكري أو الصديقي الذين ينتسبون إلى الخليفة الأول الراشدي أبي بكر الصديق (ض).

وكان من هذه الأسرة نقباء أشراف ومفتون. ثم آل السرميني والمنير الذين شغلوا عدة مرات منصب الافتاء أو نيابة الافتاء. في حين نرى أفرداً من أسرة الكيلاني والعمادي وسعد الدين والتغلبي واليافي والسفرجلاني والعيطه والدسوقي قد استلموا شيوخاً للطرق الصوفية في دمشق[3]. أما آل المنيني فكان منهم خطباء في الجامع الاموي، وشاركوا آل الحصني في إفتاء الاحناف في دمشق[4].

ثم آل المحاسني الذين شغلوا منصب خطيب الجامع الأموي. وكان لهذا المنصب أهميته البالغة، نظراً لأن الخطيب كان يمثل صلة الوصل بين الحكومة الامبراطورية والزعامة المحلية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وبقي هذا المنصب في يدهم إلى سنة ١٨٦٠ م[5]. ونافسهم آل الخطيب على ذلك. واستلم آل المحاسني بعض المناصب الدينية

---

(١) انظر : خوري، فيليب. المرجع السابق. ج ١، ص ٤٥٨ وص ٤٥٩.
(٢) انظر : ابن بدران، عبد القادر. منادمة الاطلال. ص ٣٠٥ ثم خوري. المرجع السابق ج ١، ص ٣٢٩.
(٣) انظر : خوري، فيليب. المرجع السابق. ج ١، ص ٣٢٩.
(٤) انظر : شليشر، ليندا. المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام. ج ١ ص ٣٣٢ وص ٣٣٣ و ص ٣٣٥ وص ٣٣٦.
(٥) انظر : خوري، فيليب. المرجع السابق. ج ١، ص ٤٤٢.

الأخرى، كمنصب الافتاء ونيابة القضاء في محاكم دمشق وكتّابا فيها[1]. ثم آل الغزي وهي عائلة دينية قديمة في دمشق، جاءتها في القرن الخامس عشر، وشغل أبناؤها منصب مفتي الشافعية، واحتكروا هذا المنصب حتى القرن العشرين[2]. وكان لعديد منهم مالكانات في منطقة دوما وغيرها.

ثم أسرة الجيلاني التي تدعي نسبها إلى عبد القادر الجيلاني (١٠٧٨ ـــ ١١٦٦ هـ / ١٦٦٨ ـــ ١٧٠٥ م) استقر أحد فروعها في حماه، وحصلوا هناك على مالكانات من الدولة العثمانية في القرن السابع عشر، وجاء بعضهم إلى دمشق في القرن الثامن عشر، وشغلوا فيها منصب نقيب الأشراف، وبعض المناصب الدينية، ومشيخة الطريقة الصوفية الجيلانية[3].

ثم آل العطار أو الحسيبي فيما بعد، وأصل هذه الاسرة من حمص، استقرت في دمشق في أواخر القرن السابع عشر، وبعد ثلاثة أجيال كان أفرادها قد دخلوا المهن التعليمية، وفي الجيل الرابع شرع علي العطار (١٧٤٢ـــ ١٨٢٧م/ ١١٣٦ـــ ١٢٤٤)، الذي اشتهر كرجل علم وقضاء، في اثبات انحدار اسرته من سلالة الرسول، وقام بتغيير اسمه إلى (الحسيب) ثم قام ابنه (١٧٩٢ـــ ١٨٧٦م/١٢٠٦ـــ ١٢٩٠هـ) بمتابعة طموح والده بالحصول على أراضي قرب دمشق على شكل منح من الدولة العثمانية، ثم أصبح عضوا في المجلس، مما جعله يفكر بضرورة نقل منزله من حي العقيبة الشعبي إلى حي

---

(١) عين أسعد أفندي المحاسني مفتياً في دمشق سنة ١٢١٣ هـ انظر: العبد، حسن آغا، تاريخه، ص ٣٥ وص ٧٥. ثم انظر: المحاسني، سليمان. حلول التعب والالام بوصول أبي الذهب إلى دمشق الشام. ص ١٠ وص ١١. تحقيق صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، ١٩٦٢م.

(٢) كان منهم: أحمد بن عبد الكريم من ١٦٩٧ ـــ ١٦٩٨ م وحتى وفاته ١٧٣٠ / ١٧٣١م.
ثم: مصطفى بن أحمد من ١٧٣٠ ـــ ١٧٣١ م وحتى وفاته ١٧٤٢ / ١٧٤٢م.
ثـم: محمد بن عبد الرحمن من ١٧٤٢ ـــ ١٧٤٣م وحتى وفاته ١٧٥٣ / ١٧٥٤م
ثـم: محمد شريف بن محمد من ١٧٥٤ وحتى وفاته ١٧٨٨ ـــ ١٧٨٩ م.
ثـم: كمال الدين بن محمد شريف ١٧٨٨ ـــ ١٧٨٩ وحتى وفاته ١٧٩٩ / ١٨٠٠م
ثـم: عمر بن عبد الغني (١٨٠١ ـــ ١٨٠٢ م وحتى وفاته).
ـــ: ذكرت ذلك ليندا شليسر في المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، المنعقد في دمشق ١٩٧٨. ج ١، ص ٣٣٤.

(٣) انظر: خوري، فيليب. المرجع السابق. ج ١، ص ٤٥٩ وص ٤٦٠.

القنوات الارستقراطي. وأصبح من آل العطار أئمة للجامع الاموي وتولوا تدريس السليمانية في دمشق[1]. وآل المرادي الذين يعودون في أصولهم إلى سمرقند، جاء جدهم إلى دمشق في حدود ١٦٨٥م/١٠٩٦هـ. وقد أقام في القسطنطينية عدة سنوات قبل ذلك، وأنشأ في العاصمة علاقات جيدة مع السلطان والوزراء. وتمكنت هذه الاسرة في القرن الثامن عشر، بفعل هذه الصلات، ولزعامتها للطريقة النقشبندية، من الحصول على إفتاء الاحناف في دمشق. ودخلت في صراع مع آل العمادي وآل الحمزة على هذا المنصب. واستلم آل المرادي بالاضافة إلى ذلك مناصب دينية هامة، كنقابة الأشراف، وزعامة الطريقة النقشبندية، وبعض المناصب القضائية، وتمكن أحد أفرادها وهو محمد خليل المرادي، الذي كان مفتيا للاحناف في دمشق، من عزل والي دمشق أحمد باشا الجزار في سنة ١١٩٩هـ/١٧٨٥[2]. ومن أسر دمشق الدينية آل الكزبري، الذين كان منهم مدرسون في الجامع الأموي تحت قبة النسر[3]، وآل البيطار الذين استقروا في الميدان وخرج منهم جماعة من أجلة العلماء والشعراء، واستلم الشيخ محمد بن حسن بن ابراهيم أميناً للفتوى، وكان الشيخ عبد الرزاق خطيبا لجامع في حي الميدان، وكان له نفوذه السياسي في دمشق[4]. وآل العمادي اسرة قديمة برزت في دمشق في القرن الثامن عشر، من خلال تسلمها مناصب عديدة، كمنصب الافتاء، ودخلت في صراع من أجل هذا المنصب مع آل المرادي خلال القرن الثامن عشر[5].

ولقد استطاعت تلك الاسر أن تكوّن لنفسها نفوذاً سياسياً في دمشق، اعتماداً على مناصبها المختلفة، وعلى زعامتها للطرق الصوفية، وعلى الإقطاعات الواسعة التي حصلت عليها من الدولة، فشكل ذلك سنداً لها في صراعها فيما بينها، وساعدها على شراء النصير والسند في استانبول[6]. وحفاظاً من هذه الاسر على مصالحها في دمشق، لم تحدد موقفاً واضحاً مما

---

(١) انظر: خوري فيليب. المرجع السابق. ج ١. ص ٤٤٢. ثم مردم بك، خليل. المرجع السابق. ص ٣٠.

(٢) انظر: العبد، حسن آغا. تاريخه. ص ٩. ثم البيطار، عبد الرزاق. حلية البشر.... ج ٣، ص ١٣٩٣ وص ١٤٠٥. ثم خوري، فيليب. المرجع السابق ج ١، ص ٤٤٢.

(٣) انظر: مردم بك، المصدر السابق، ص ٢٤.

(٤) البيطار، عبد الرزاق. حلية البشر. ج ٣، ص ١٤٢١ الحاشية.

(٥) خوري، فيليب. المرجع السابق. ج ١، ص ٤٤٢. ثم البديري الحلاق، المصدر السابق، ص ٤٩.

(٦) خوري، فيليب. المرجع السابق. ج ١، ص ٤٤٦.

كان يقع فيها من الصراعات، بين القوى السياسية والعسكرية المختلفة أو بين المحلية والغربية، بل كانت تتريث إلى انجلاء الموقف، فتحدد موقفها على ضوء مصالحها الشخصية.

ونسوق مثالا على ذلك ما حصل عشية وصول ابراهيم باشا المصري إلى بلاد الشام، وطلبه من رؤساء تلك الأسر تحديد موقفهم فأجابوه بأنهم يكنون الاحترام الزائد لمحمد علي والي مصر، الا أنهم عليهم احترام الوالي العثماني، الذي يمثل السلطان، فأظهروا بذلك نوعا من الحكمة، إلى أن يتكشف الموقف عن المنتصر في الصراع [1] وهو موقف انتهازي صرف كما سنرى.

أما الاسر المدنية في دمشق، فكانت من أصول عربية أو غير عربية، وآبرزها على الاطلاق، أسرة العظم التي توزعت سلطتها ما بين حماه ودمشق، والمرجح أن هذه الأسرة تنحدر من أصول تركية، وتنسب إلى جدها ابراهيم العظم، الذي عاش في معرة النعمان في القرن السابع عشر، وكانت معرة النعمان آنئذ مركزاً تجارياً هاما للبدو ما بين حماه وحلب. قتل ابراهيم العظم في إحدى الصدامات دفاعا عن مصالح الدولة العثمانية فكافأت ولديه (اسماعيل وسليمان) بمالكانات في حمص وحماه والمعرة. واستغل الولدان منصبهما وثروتهما في الحصول على منصب أرفع كولاية دمشق، وقامت الاسرة بشراء الاملاك الواسعة بالاضافة إلى ما لكاناتها، فخلق ذلك لها بحبوحة من المال والجاه لعدة أجيال [2].

وبقي نجم الأسرة متألقاً حتى الجيل الثالث منها، والمتمثل بمحمد باشا العظم والي دمشق، المتوفى فيها سنة ١٧٨٣م/١١٩٧هـ، ورغم حصول بعض أبنائها على منصب الولاية في أكثر من مكان من الدولة العثمانية (كعبد الله باشا ودرويش باشا ويوسف باشا)، إلا أن نجم هذه الاسرة أفل بوفاة محمد باشا العظم. والملاحظ أن هذه الاسرة لم يبرز أحد منها بالعلم رغم ما أنشأته من المدارس العديدة وغيرها من الأوابد في دمشق.

ويورد محمد أديب آل تقي الدين الحصني في كتابه، أسماء عدد من الاسر الدمشقية (عربية وغير عربية)، برزت في هذه الفترة في أحياء مختلفة من دمشق وأرباضها، ومن هذه

---

1 - See: Koury .G. op.cit.P.195.

(٢) انظر: خوري، فيليب. المرجع السابق ج ١، ص ٤٤٦.

الأسر، أسرة التكريتي من أعيان الصالحية وانتهت اليهم رئاستها[1]، وآل العظمة التي كانت أسرة كبيرة.

اشتغل معظم أبنائها بالزراعة والتجارة، واستلم بعضهم مناصب في الإدارة العثمانية[2]، وآل صلح بك الذين ينتمون لجدهم الكنج يوسف باشا، الذي كان واليا على دمشق سنة ١٢٢٢ هـ. وكانت له دار كبيرة تقابل دار أسعد باشا العظم. وآل الركابي الذين ينحدرون من عشيرة بني ركاب القاطنة في جهة الكويت، وكانوا على قرابة بالنعيم والطحان والجملان، وعملوا بالزراعة والتجارة[3]، ثم أسرة آل يوسف وجدهم محمد بك ابن يوسف من قبيلة الزركلية من أعيان الاكراد في ديار بكر، أحب تجارة الأغنام واختار موضع تجارته دمشق، فاتسعت ثروته وجعل منزله منهلا للقاصد والوارد، مات سنة ١٢٥٠ هـ، وورثه ابنه في تلك التجارة، اتصل ببشير الشهابي الثاني فمنحه قسما من قرية مجدل عنجر، ثم تقلد بعد ذلك وظيفة الكلار ومحافظ الركب الشامي[4]. ثم أسرة الحكيم استقرت بالميدان بعد مجيئها من طرابلس الشام وذكر المرادي: أن جدهم يوسف بن محمد كان رئيسا لأطباء دمشق ومات سنة ١١٠٥ هـ/ ١٧٩٤ م. ومن تجار الحبوب في الميدان آنذاك آل حتاحت وآل الموصلي[5]، ثم آل الدالاتي، هاجر جدهم إلى دمشق من الغرب واشتهروا بتجارة الطحين، وبرز أناس منهم في الثروة والوجاهة[6]. ثم بنو الحباب الذين اشتهروا بتجارة الحبوب واستقروا في الميدان، وآل الموره لي الذين ينتسبون إلى جدهم اسماعيل باشا الأرناؤوطي الأصل، الذي وفد إلى دمشق في القرن السادس عشر، وترك لهم أوقافاً كثيرة، مكنتهم مواردها من الوجاهة[7]، ثم آل الصوان والقباقيبي والشحادة والقباني والنشواتي وعطارين الذين

---

(١) منتجات التواريخ لدمشق، ص ٦٩٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٨٤٩.

(٣) المصدر السابق، ص ٨٥٠.

(٤) المصدر السابق، ص ٨٥١. ويدعي بن بدران أن أسرة آل اليوسف تنحدر من أصول شريفة من قبيلة الأزرقية التي تنتسب إلى جعفر الصادق بن علي زين العابدين بن الحسين. انظر حول ذلك: الكواكب الدرية في تاريخ عبد الرحمن اليوسف صدر سورية. ص ٦ وص ٧ وص ٨ وص ٩. دمشق ١٩٣٩ م.

(٥) الحصني: المصدر السابق، ص ٨٥٣ وص ٨٥٩ وص ٨٦١.

(٦) منتخبات التواريخ لدمشق، ص ٨٦٣. ثم العبد، حسن آغا. تاريخه ص ٩٠.

(٧) الحصني، ص ٨٦٤.

كان منهم التجار الذين اشتهروا بثرائهم في عهد والي دمشق أحمد باشا الجزار[1] ثم آل مردم بك الذين يعودون في أصولهم إلى جدهم والي دمشق لالا مصطفى باشا، في القرن التاسع عشر استطاع الاخوان علي (١٨١٣ــ ١٨٨٧م/ ١٢٢٨ ــ ١٣٠٢هـ) وعثمان (١٨١٩ــ ١٨٩٦م/١٢٣٤ــ ١٣١١هـ) من الذهاب إلى القسطنطينية واستطاعا اثبات نسبهما للوالي المذكور، فحصلا من الدولة العثمانية على الموافقة بالاشراف على وقف جدهما. وهكذا بدأ نجم هذه الاسرة بالتألق. وآل نصري الذين عملوا في تجارة الحبوب وكان منهم شيخ طحانة في سنة ١٢١٠هـ/١٧٩٦م، وهو محمد بن نصري، الذي استطاع جمع ثروات كبيرة من خلال احتكاره للطحين[2].

وبرزت بعض الاسر الذمية في مجال الثروة والمال والصيرفة والتزام الجمارك. ومن هذه الاسر، اسرة آل فارحي اليهودية التي عملت في مجال الصيرفة والدفتردارية في ولايتي صيدا ودمشق. أما الاسر النصرانية فبرز منها أسرة عنحوري والشلهوب والشامية والصباغ والعدرا والمشاقة والمخلع. واعتمدت هذه الأسر في بروزها على ثرواتها التي جمعتها من التجارة وإدارة الحرف المختلفة، واستلام بعض المناصب المالية لدى الولاة. وعمل بعض النصارى كتراجمة لدى القناصل فيما بعد، بعد أن فتحت دمشق على الغرب بدخول ابراهيم باشا المصري اليها، وحصل هؤلاء على براءات سلطانية لتأمين الحماية لانفسهم، وجنوا ثروات كبيرة بعد مساواتهم بالمسلمين، وقيامهم بدور الوسيط التجاري للغرب في دمشق وغيرها.

وحاولت بعض الاسر المدنية أن تبني لنفسها جيوباً سلطوية محلية في دمشق. على عكس الاسر الدينية التي سعت لتمتين أواصرها باستانبول، رغم ضعف السلطة المركزية، وذلك للحفاظ على مصالحها الشخصية.

وبقي حال الاسر المدنية هكذا إلى دخول القوات المصرية إلى دمشق في سنة ١٨٣١م/ ١٢٤٦هـ، فسعت لدى هذه السلطات لحماية مكتسباتها المادية وامتيازاتها الاجتماعية، بأن دخلت ضمن التنظيم الاداري المصري لمدينة دمشق، وأصبحت تشكل جانبا من «أهل العرض» في دمشق[3]. وعملت «وسيطاً» بين الدولة ومجتمع دمشق. ولا

(١) العبد، حسن آغا. تاريخه، ص ٢٥ وص ٩٩ وص ١٠٢ وص ١٠٣. ثم الحصني، ص ٨٧٠.

(٢) العبد، حسن آغا. تاريخه، ص ٢٧.

(٣) انظر: خوري، فيليب، المرجع السابق، ص ٤٤٩.

يسمع الوسيط الناجح إلا أن يظهر بمظهر المنسجم مع السلطة، ولو فعل غير ذلك لما استطاع الوصول اليها، فيعرض مصالح من يمثلهم في مجتمع دمشق للخطر، وبالتالي يفقد ثقتهم ويظهر كأنه أداة بيذ السلطة.

أما الأسر العسكرية وشبه العسكرية في دمشق فقد سكنت غالبا خارج أسوارها وتوزعت على أحياء رئيسة كالميدان والعمارة وسوق صاروجة وبدرجة أقل في حي البحصة والقنوات والشاغور والصالحية. وأبرز هذه الاسر كانت تنحدر من أصول تركانية سواء من (الاناضول أو الروملي، أو من أصل كردي. وكان بعضها ينحدر من أصول بدوية أو من بعض مدن الاقطار العربية كالموصل وبغداد وديار بكر. والمغرب بأقطاره الثلاثة أو صعيد مصر. ويمكن تسقط أخبارهم في كتب اليوميات والتراجم. ولقد شكل هؤلاء عنصر اضطراب في مجتمع دمشق، فلم تقو بسهولة على استيعابهم للوهن الاقتصادي العام الذي أصابها، خاصة في النصف الأول من القرن التاسع عشر وسعى هؤلاء للانضواء تحت زعامات مختلفة لحماية أنفسهم في وقت ازداد الصراع بين هذه القوى على مصادر الرزق التي شحت في دمشق وغابت عنها هيمنة الولاة الأقوياء الا ما ندر.

ولقلة معلوماتنا عن قدرات الأغوات على التحريك السياسي في أحياء سكن هذه القوى، فقد تسربت إلى الطرق الصوفية ونقابات التجار والحرفيين لتوفير الرزق وحماية أنفسها عند الحاجة. ولدينا بعض المعلومات على أن بعض أغواتها أصبحوا حماة لنقابات التجار في الميدان خاصة لنقابة تجار الحبوب. وبرز منهم في ذلك الحي عبد الله آغا سكر الذي أصبح في النهاية أكبر تجار القمح في الحي المذكور(١).

ولقد عبر كتاب التراجم والسير والإخباريون في القرن الثامن عشر والتاسع عشر في كثير من الاحيان، عن احتقارهم لمثل هذه الاسر ولاغواتهم، لأنهم خلقوا حالة من عدم الاستقرار في دمشق، وروعوها مرات عديدة. كما أسهمت هجرتهم في اكتظاظ المدينة، من جراء سيولهم المتدفقة اليها، سواء من البدو أو الفلاحين القادمين من حوران بفعل ضغط البدو على قراهم، أو بعض القبائل الكردية القادمة من شرقي الأناضول، أو المغاربة الذين جاؤوا طلباً للرزق والمجاورة.

---

(١) انظر: خوري، فيليب. المرجع السابق. ج١ ص٤٤٩.

وكان حي الميدان أكثر الأحياء استقبالا لسيل المهاجرين. وانخرط بعضهم في الأعمال الزراعية، وتلقفت الأسر العسكرية المحلية بعضهم الآخر فضمتهم إلى صفوفها. وقام بعض الولاة بضم البعض الآخر إلى صفوف قواته الخاصة، وجرت في الصالحية عملية مماثلة للاكراد المهاجرين، حيث برز في صفوفهم زعماء خاصون لقبوا أنفسهم بالاغوات، وشكلوا قوات شبه عسكرية، قوامها رجال قبائلهم ومن هنا يمكن فهم الخوف الذي تولد لدى زعماء الإسر التقليدية في دمشق الذين جوبهوا بهذه القوى الوافدة مجددا.

... ومن خلال سلسلة من العوامل استطاعت زعامات هذه الاسر، أن تسيطر على بعض مرافق الحياة الاقتصادية في دمشق، كتجارة الحبوب والمواشي في الميدان وغيره من الاحياء. وسعى بعضهم للحصول على الإلتزام والمالكانات في حوران وغيرها. وحصل أغواتهم على نفوذٍ قوي، ودخلوا في علاقات متينة بتزاوجهم من بنات الوجهاء المحليين.

وما بين عامي ١٨٠٠ ــ ١٨٦٠ م/ ١٢١٥ ــ ١٢٧٦ هـ. استغل أبناء هذه الاسر تطورين اقتصاديين ليصبحوا جزءا من فئة الوجهاء المدنيين. وتم ذلك من خلال استغلالهم للأراضي الواسعة في حوران، وسيطرتهم على الفلاحين فيها، مما وفر لهم سلاحا قويا في سيطرتهم على تموين دمشق بالقمح وتحديد أسعاره. وفي هذه الفترة كانت الصناعات التقليدية القديمة تتعرض لبعض الضربات من جراء تدفق بعض المصنوعات الأوربية إلى دمشق، وأدى ذلك إلى إضعاف بعض الاسر المدنية، التي كانت تعتمد في رزقها على تلك الصناعات، وعوضت عن ذلك بحصولها على المالكانات، ثم أخذت تقدم الأموال بالفائدة مسبقا للمزارعين إلى حين جني المحاصيل، وبأسعار زهيدة، مما جعل هؤلاء يجنون المرابح الكبيرة على حساب الفلاحين، وقامت بتقليد هذه الاسر، الاسر شبه العسكرية فجنت المرابح مثلها، وحققت لنفسها نفوذا سياسياً واجتماعيا.

وأبرز الاسر العسكرية في هذه الفترة، عائلة التركماني التي شكلت ربع أوجاق الانكشارية اليرلية، واستقرت في الميدان، ودخلت في صدامات دموية مع قوات الولاة العثمانيين، كأسعد باشا العظم وعبد الله باشا الجته جي وغيرهما. ثم أسرة الشوملي[1]، والبارودي التي خلف لها جدها حسن آغا كتخدا ثروة طائلة. جاء من مصر وعمل لدى

(١) انظر: خوري، فيليب. المرجع السابق. ج ١، ص ٣٥٠.

عبد الله باشا العظم، وأصبح ولده محمد بك يقرض الناس النقد، وقام ببناء دار كبيرة له في حي القنوات، جاءت روضة للناظرين وقام بشراء مزارع وقرى، وقام محمد بك بمصاهرة آل البكري[1]. ثم أسرة المهايني وهي أسرة كبيرة تعود في أصولها إلى قرية مهين التابعة لقضاء النبك في وقتنا الحاضر. ومن مشاهيرهم صالح آغا، وكان مثال الزعامة والوجاهة والشهامة العربية، وكان منهم أغوات وجوربجية في أوائل القرن التاسع عشر وكانوا ناقدي الكلمة لدى الحكام والامراء[2]. ثم آل شمدين الذين كان جدهم ذا ثروة عظيمة وسدة كبيرة عند عشيرته وقومه، له مواقف عظيمة بالمدافعة عن دمشق أيام ابراهيم المصري، وقد شكره على ذلك السلطان عبد المجيد[3].

هذا ناهيك عن عديد من الأسر التي برزت في أوجاق القابي قول واليرلية وقوات المرتزقة كالبغدادي والهواري والموصلي والمغربي. ثم الزعفرنجي والسمان ومورلي. وأرفا أميني والمادن وسوقية وطالو والأزمرلي وعقيل وسبح وقباني والعبد والكردي وأغربوظ والشماع وغيرهم[4]. وتوزعت هذه الاسر على أحياء المدينة، واستطاعت أن توطد أقدامها في مجتمعها، وحافظت غالباً على أسمائها إلى وقتنا الحاضر.

الأسرة الفلاحية

بعد أن لمحنا، فيما سبق، وضع الأسرة الدمشقية بشكل عام، ثم نشأتها وتفرعاتها، كان علينا أن نرصد وضع الاسرة الفلاحية وبنيتها، على ضوء تأثير الظروف المختلفة التي أحاطت بريف دمشق في هذه الفترة. فقد كان الفلاح يتطلع للعمل الزراعي والانتاجي بشكل جماعي، وكان عليه في نفس الوقت، تأدية الضرائب للدولة والاتاوات لرجالها وللبدو

---

(١) انظر: الحصني. منتخبات التواريخ، ص٨٦٣. ثم الشطي، محمد جميل. أعيان دمشق، ص٤٠. ثم العبد، حسن آغا تاريخه، ص٨٠ و ص٨١.

(٢) انظر: الحصني منتخبات التواريخ، ص٨٦٣ وص٨٦٤. ثم العبد، حسن آغا تاريخه، ص١٠٥ و ص١٠٦.

(٣) انظر: الحصني منتخبات التواريخ. ص٨٩٩.

(٤) انظر العبد، حسن آغا. تاريخه ص١١ و ص١٥ و ص١٢ و ص١٦ و ص١٨ و ص١٩ و ص٢٢ و ص٢٥ و ص٢٧ و ص٣٥ و ص٣٧ وص٤١ و ص٤٣ و ص٤٤ و ص٤٨ و ص٦٠ و ص٧١ و ص٧٢ و ص٨٠ و ص٨٨ و ص٨٩ و ص٩٣ و ص٩٦ و ص١٠٩ و ص١٥٦ و ص١٦١.

في بعض الأحيان، وأن يسد حاجاته الحياتية. وكان الانتاج شأناً أسرياً يعمل له أعضاء الأسرة كبيرهم وصغيرهم، والذكر. وأنيط بكل فرد منهم عمل يتناسب وإمكاناته. ومن هذا المنظور أصبحت الأسرة وحدة عمل وانتاج ريفي.

يضاف إلى ما تقدم تأثره بالظروف الأمنية والخصومات العائلية على مستوى القرية والعشيرة، التي شملت بتوضعها السكني قرى عديدة. إذ كثيراً ماجرت الأسر إلى صدامات دموية، لم تكن السلطات العثمانية بعيدة عن تحريكها وتغذيتها. لهذا سعت بعض الأسر لاكثار نسلها، فلجأت إلى استيلاء الزوجات بشكل مبكر، ومجدت الخصوبة لديهن، وزوجت أفراد الاسرة في سن مبكر وطلقت العاقرات[1] من الزوجات أو أهملتهن، ومجدت الذكورة لأن الذكر عامل ومقاتل. وحافظ للنسل، ولا يحتمل جلبه للعار كالانثى ولا يحتاج للحماية مثلها.

وفي مجال ملكية الأرض والعمل عليها، قامت الدولة العثمانية بسن القوانين لتنظيم انتقال حق التصرف بالأرض وحصره ضمن نطاق الاسرة الواحدة، لتضمن بذلك دفع ما ترتب عليها من الأموال والضرائب. فبقيت الأرض مشاعة في الأسرة وانتقل حق التصرف بها للأولاد والأحفاد والاسباط. وسعت الدولة لتقليص التأثيرات السلبية على الزراعة، الناتجة عن هجر الفلاحين للأرض والقرية، فوقفت في وجه هجرتهم وأعطت حق التصرف في الأرض الواسعة لأهل القرية، وكان عليهم دفع الضريبة عنها مهما تناقص عددهم. وأدت هذه السياسة إلى ترسيخ الاسرة الفلاحية الواسعة.

ومن جهة أخرى حمت الروابط العائلية والعشائرية التي تربط أفراد الاسرة الفلاحية من تأثير قوة القهر والمظالم التي فرضت على الفلاحين من أصحاب الأرض ورجال السلطة. فعاش الفرد ضمن مجتمع يقنعه بأن النظام السائد هو أفضل النظم رغم القيود التي كانت تغله[2].

وعرفت الاسرة الفلاحية تماسكاً صلباً في داخلها مكنها من الصمود لاقسى الظروف التي تعرضت لها نتيجة لتكاثف أفرادها، وتوزيعها لقوة الضغط، مما ساعدها على الاستمرار

(١) الصباغ، ليلى. المجتمع العربي السوري، ص ٥١.

2 - See: Cibb & Bowen .op.cit. VOL.1.PP.212-246.

والامتداد والتفرع فشد أفرادها من أزر بعضهم البعض في السراء والضراء، وزاد في تماسكها توجه أفرادها في زواجهم إلى داخلها[1]، فكلما بردت حرارة القربى بعث فيها زواج جديد دفئاً جديداً.

وعلى مستوى تموين الاسرة، فقد اكتفت ذاتياً، وأمنت لنفسها معظم احتياجاتها، نظراً لكثرة عدد أفرادها، فزودت نفسها باللحم والبيض والألبان ومشتقاته، بتربيتها للمواشي والطيور الداجنة. ويذكر فتح الله بن أنطون الصايغ، أن الفلاحين كانوا يؤمنون لأنفسهم «جميع الفحم والحطب والجاج والبيض والزبدة واللبن والحليب والعنب والتين وأكثر الفواكي من عندهم كذلك جميع الذي يفيض من حبوب بعد مونته يبيعه إلى أهل البلد والمدينة، من كامل أجناس الحبوب حتى البصل والتوم وجميع المأكولات والعسل والشمع وكثير أشيا»[2].

وقامت المرأة بدور رئيس في هذا المجال، فهي التي كانت تشرف على تربية الدواجن، وجمع بيضها وحلب المواشي، وترويب الحليب وتستخرج السمن والقريشة، وتصنع الكشك وتنسج الصوف والقطن، وتدبغ الجلود في بعض الأحيان، تنسج البسط والخيام. واستخدمت المقايضة بمنتجاتها في شراء ما تحتاجه الأسرة من البائعين، وفي الأسواق الاسبوعية التي كانت تعقد في القرية أو الخانات القريبة والبازارات. ودفعت الأسرة ما ترتب عليها من الضرائب في بعض الأحيان عينا من منتجاتها[3].

ولقد قسمت قرى الفلاحين إلى حارات، سميت الواحدة منها باسم إحدى الجهات الأربعة، أو إحدى الاشجار المعمرة، أو أحد الينابيع أو المزارات، أو احدى الاسر. ووجد في القرية أحياناً نجار وحداد وصانع فخار وبيطار وبناء ومجبر وكحال وأحياناً داية، وكل هؤلاء يقدمون خدماتهم لأسر القرية، وكان في القرية بائعون وحراس ومسجد أو كنيسة أو كلاهما معاً.

ورغم سعي السلطات المصرية لتعمير القرى وإعادة الفلاحين إلى المهجور منها، وتشجيعهم على الاستقرار فيها، وتوطين البدو، إلا أن الأسر الفلاحية المسلمة، قد تعرضت

---

(١) انظر: حطب، زهير. المجتمع العربي السوري، ص١٥٩.

(٢) انظر: المقترب في حوادث الحضر والعرب. ص ٤٥ ب وص١٤٦.

(٣) المصدر السابق، ص ١٧٤.

لهزات كبيرة، فاقت معظم الهزات التي تعرضت لها في الفترة السابقة. وبرز ذلك في فرض المصريين لنظام التجنيد الاجباري مما ترتب عليه سحب الشباب من قراهم إلى مصر لاعدادهم وتدريبهم على فنون القتال. ولم يكن الفلاحون وأبناء بلاد الشام بشكل عام، قد اعتادوا على ذلك من قبل. وشعرت الاسر بأن التجنيد سيفقدها أبناءها، وللتخلص من ذلك لجأت إلى تشويه أعضاء أبنائها لتخليصهم من السوق إلى الجندية، ففقأت إحدى عيني الشاب، أو قطعت إحدى أصابعه، أو كسرت رجله «لأجل يجعلهم سقطات غير نافعين للعسكرية وأكثرهم يهربوا يتخبوا بالحروش ودغلات الأشجار». وإذا ما القي القبض على الفارين، يربطون مع بعضهم البعض، ويرسلون إلى المدينة «مقيدين بالجنازير إلى حين إرسالهم إلى مصر». فمات الكثيرون من الشباب وفر الأباء «حتى لا يقروا على أبنائهم»، أما في المدن فكانت الأسر «تخبيء أبناءها تحت الأرض سنين طويلة، من غير اظهارهم على وجه الأرض، وصار الكبار تخبيء أولادها في بيوت القناصل، ومنهم من يسفّر أولاده على خارج ايالة الحكم المصري، مثل قبرص وكريد وأضاليا وبر الترك واسلامبول وأزمير وغيرها، ولا سيما عند العرب للجول... واستمر ذلك زمان طويل حيث ماهو مرة واحدة بل خمس مرات حتى عريت البلاد من الشباب، فكلما صار عنده مبلغ من الشباب المملوكين يرسلهم إلى مصر، ويجيب عسكر مصري بدلهم إلى سورية»[(١)].

ومن جهة أخرى، لم تقو الأسر الريفية على إعفاء أبنائها من التجنيد الاجباري، كما فعلت بعض الأسر الغنية مستخدمة الرشوة لتحقيق ذلك، وانعكس هذا الوضع بشكل سلبي على الأسرة الريفية وانتاجها.

غذاء الأسرة الريفية

سعت معظم الأسر للاكتفاء الذاتي في مجال تأمين غذائها. فزرعت المحصولات التي تحتاجها في غذائها اليومي، كالقمح والشعير، لتأمين الدقيق والبرغل، ونادراً ما خلت وجبة من وجباتها من الخبز والبرغل. وزرعت العدس لصنع الحساء أو لإضافته إلى البرغل لصنع المجدرة[(٢)].

---

(١) المصدر السابق، ص ٧٨ آ وص ٧٨ ب وص ٧٩ ب وص ٨٠ آ وص ٨ ب.

(٢) انظر الصباغ، ليلى. المجتمع العربي. ص ٥٨ وص ٥٩.

وزرعت الحمص لنفس الغاية أو لاكله بأشكال مختلفة. وزرعت الذرة البيضاء التي الفت قاعدة في غذائها، فأكلتها خبزا أو طبخا مضافاً اليها بعض النباتات أو اللبن.

وسعت لتأمين ماشيتها في فصل الشتاء من التبن والعلف، فزرعت بعض أنواع من البقول. وفي الغوطة زرعت الفصة والبرسيم لهذه الغاية، والفول لتأكله أخضر ويابساً، والخروع لاستخراج زيته اللازم للإنارة ليلاً. واستخدمت في بعض الأحيان زيت الزيتون أو الشحوم لنفس الغاية.

وملكت الجمال والخيول والحمير للركوب والنقل والحراثة، والحمام والدجاج والأوز والبط للاستفادة من لحمه وريشه وبيضه. وملكت الثيرات للحراثة والجر واستخدمتها في جر عربات النقل والتحميل، لأنها أصلح الحيوانات في جر العربات على الطرقات والأراضي آنئذ[1].

وقامت بتربية الأبقار التي اختلفت أنواعها مابين الغوطة وحوران والجولان وجبال القلمون، وعهدت برعيها إلى رعاة من القرية، أو ربيت في بساتين الغوطة. أما الأغنام والماعز فعهدت بتربيتها إلى رعاة أو إلى البدو أو بعض أفراد الأكراد، الذين أتقنوا هذه الحرفة، وكان ذلك مقابل أجرة عينية، كالحبوب أو لقاء جزء من إنتاجها (حليب ــ خراف ــ صوف).

وقامت النساء بدعم الوجبات الغذائية للاسرة بالسعي في الحقول والبراري لقطف الأعشاب التي تؤكل نيئة أو مطبوخة لوحدها، أو مع الخبز والبرغل، فشكلت جانبا من غذاء الأسرة، بالاضافة إلى ما أنتجته الاسرة من الفواكه والثمار، كالزيتون والعنب والتين والرمان والمشمش والاجاص والجنرك وغيرها[2]. واختلف ذلك من مقاطعة إلى أخرى. وكان فلاحو الغوطة أكثر غنى بالفواكه من فلاحي المقاطعات الأخرى، نظراً لخصب تربة الغوطة وري بساتينها المستديم، واعتدال مناخها. وحصل الفلاحون على ملح الطعام من جيرود (ما بين دمشق والقريتين)، ومن الملاحات المحلية الشامية (جبول وتدمر). وحصل فلاحو حوران على ملحهم من عكا. واستخدم الفلاحون الملح في صنع الطعام والخبز وفي حفظ الجلود النيئة.

---

(١) البديري: الحلاق. حوادث دمشق اليومية، أحداث ١١٦٣ هـ، ص ١٤٤.

(٢) انظر: باسكوال، جان بول، المؤتمر الثاني لتاريخ بلاد الشام، بحثه بعنوان: البيئة والتغذية في حوران في القرن التاسع عشر. ج١، ص٤١٧ و ص٤١٨.

وقام فلاحو الغوطة بتأمين حاجتهم من زيت الزيتون، مما زرعوه في أراضيهم، أما فلاحو حوران فاستوردوه من عجلون. وزرع الفلاحون البطيخ والمقاتي في حوران والمناطق المحيطة بدمشق[1].

وحصل الفلاحون على البلح من متاجر دمشق ومن القوافل التجارية، التي عبرت مناطقهم ومن البدو الرحل الذين كانوا يندفعوا في فصول معينة من السنة باتجاه قراهم. وقام بعض البائعين الجوالين بتأمين ذلك للفلاحين في قراهم.

أما السكر والقهوة والرز فكانت من الكماليات، فاستوردت القهوة من اليمن عن طريق القوافل التجارية إلى القرن الثامن عشر، وبعد ذلك قامت الدول الأوربية (فرنسا ــ انكلترا) بتصديره إلى بلاد الشام. واستورد الرز من مصر وكان غالي الثمن[2]. وكان ثمن كيلو الغرام الواحد يعادل ثمن ١٠ كيلو غرام من القمح، وكان يقدم للضيوف في مضافات الشيوخ خاصة، ولا تأكله سوى الأسر الغنية لارتفاع أسعاره.

أما السكر فاعتبر من أعظم المصادر الغذائية في توفير الطاقة للجسم، واعتبر تناوله قبل القرن السادس عشر في أوربا من قبيل الترف، وظلت هذه النظرة اليه في بلاد الشام بعد ذلك بثلاثة قرون، وظل معتبراً من الأصناف الغذائية الكمالية حتى النصف الأول من القرن العشرين. وعلى الرغم من أن زراعته في بلاد الشام، قد زالت ولم تعد للظهور إلا في آواخر القرن التاسع عشر. واعتمدت بلاد الشام في استهلاكه على ما تصدره بريطانيا وفرنسا وعلى ما استوردته من مصر. واستخدم سكان ريف دمشق وفقراؤها بديلاً عنه الدبس أو رب العنب والخرنوب والعسل. وكانت الاسر تبتاعه من أسواق دمشق أو من الباعة المتجولين في الريف.

وكان احتساء القهوة محدوداً حتى القرن التاسع عشر بالنسبة للعامة في المدينة والريف، واقتصر على تقديم المر منها في المضافات. وبقي احتساؤها في دمشق بشكل سري، نظراً لتشدد بعض العلماء والسلطات العثمانية في منعها، وبقي الحال كذلك إلى أن أصدرت

(١) باسكوال، جان بول، المرجع السابق. ص ٤١١ وص ٤١٧ وص ٤١٨.
(٢) بيع أردب الأرز في سنة ١٨٤٠م في اللاذقية بمائتين وخمسين قرشاً. انظر: الصايغ. المقترب.....، ص ٨٨. وكان الأردب عبارة عن ثلاث قفات مصرية.

هذه السلطات بلاغاً بإباحة شربها علناً[1]، فأصبح الناس يشربونها في منتزهاتهم ومجالسهم وأصبح لشربها تقاليد اجتماعية معتبرة[2].

ولقد اتصف تنوع غذاء الأسرة الريفية بالرتابة وقلة التغيير في نوع المأكل. فكان أساس وجبات الفلاح، الحبوب التي صنع من دقيقها الخبز (قمح ــ ذرة بيضاء ــ شعير ــ حمص ــ جلبان)، وطحنت هذه الغلال في طواحين تدار بقوة الماء، وخبز العجين على الصاج أو التنور. وقامت النساء بهذه المهمة، وقدم ساخناً في بعض الأحيان ليؤكل معه البرغل أو بعض الخضار المطبوخة أو الأعشاب. وطبخ البرغل ساذجا أو مضافا إليه الحمص والعدس أو الخضار أو بعض الأعشاب البرية. وطبخ الفلاحون الفريكة (خاصة في حوران) نظراً لكثرة انتاجهم من القمح وطبخوا الحساء من العدس المجروش أو الكشك، وزودوا البرغل أو الحساء بالزيت والسمن أو الزبدة ومقلي البصل أحياناً.

أما الألبان فشكلت قاعدة الغذاء للاسرة بعد توالد المواشي، وتوفر الحليب، فشرب بعد تسخينه أو رائبا، وأضيف الرائب إلى مطبوخ الذرة والبرغل. وصنع منه الكشك، ليؤكل في فصل الشتاء خاصة. واحتفظت الاسرة بالدبس والزبيب ويابس التين والمخللات والمكاديس والمقددات والجبنة والزيتون وغيرها.

---

(١) انظر: الغزي. المجلد الثاني، ص١٣ و ص١٢٦.

(٢) انظر: الحصني، منتخبات التواريخ، ص٥٦٨ و ص٥٦٩. ولقد استشهد الغزي بابن طولون الذي ذكر أن المقاهي سميت في دمشق باسم الحمامات. ويذكر باسكوال في المرجع السابق (أن القهوة ظهرت في جنوب الجزيرة منذ أواخر القرن الرابع عشر ويمكننا متابعة انتشارها المتدرج باتجاه مكة والقاهرة، حيث حظر استعمالها على الناس في مطلع القرن السادس عشر. وفي غضون هذا القرن شاعت في الشام فتعاطاها سكان دمشق للمرة الأولى عام ٩٤١ هـ/١٥٣٤م/ مما أثار خلافاً شديداً في أوساط العلماء الذين انقسموا فيما بينهم، وسرعان ما أفضى الخلاف إلى تحريمها عام ٩٥٣ هـ/١٥٤٧م/ والواقع أن إجراءات التحريم شاعت في جميع أرجاء الدولة العثمانية في مطلع القرن السابع عشر وأدى ذلك إلى تباطؤ انتشارها لفترة من الزمن ثم ظهرت ثانية بعد الغاء الحظر ورغم انتشارها بين الأهالي (مدينة وريف) في أوسع فئاتها ويدل ذلك على استيراد القهوة المتزايد من جزر الأطلسي نتيجة لتزايد الاستهلاك من جهة ولتخفيض الرسوم الجمركية في أرجاء الامبراطورية من جهة أخرى. انظر: ج ١، ص ٤٢٠ من المرجع المذكور.
ويذكر البديري الحلاق في أحداث ١١٦٢ هـ أن أسعد باشا العظم أعلن أن كل من شرب القهوة في دمشق شنق أو صلب ثم أمر برفعها فرفعت من سائر قهاوى الشام وأسواقها. وصار شربها في الشام من أعظم المصائب. ثم بدأ الناس يشربونها. ويذكر البديري في موضع آخر من أحداث ١١٦٣ هـ/أنه شاهد الناس جالسين على شفير النهر وهم على أكل وشرب قهوة.

أما اللحوم فلا يرد ذكرها في وجبات الاسرة الريفية آنئذ إلا في المناسبات، كالأعياد، وبعض الأفراح وايفاء النذور. فتقاسم الأهل لحم الذبيحة، ولهذا الغرض، قامت الاسر الفلاحية (في جبل لبنان والقلمون) بتربية بعض الخواريف وتسمينها لتذبح في تشرين وتحفظ على شكل (قاورما) وكان يفرز لحم الأحمر ثم الدهن والشحم ويقلى ويوضع بعد ذلك في مسامن لتؤكل مسمنة بعد أخرى عند الطلب بدلاً عن اللحم الطازج الغالي الثمن والنادر الوجود في القرية آنئذ[1].

ولقد أجمع الرحالة الذين زاروا حوران على أن سكانها كانوا يعيشون حياة شظف، وكانوا قانعين في شؤون مأكلهم ومشربهم. وحتى الأغنياء منهم كانوا يعيشون حياة فقرائهم، ولا يتجلى ثراؤهم إلا في اكرام ضيوفهم، ويقول: (بوركهارت Burkhardt): لقد اقتصرت الاسر الفلاحية الحورانية في غذائها على وجبتين من الطعام في اليوم، وكان خبزها من دقيق الشعير بدلاً من القمح، واقتصرت في تناولها اللحم على مرتين في العام[2].

أما فيما يتعلق بتأمين مياه الشرب، فقد اختلف الوضع من قرية إلى أخرى، وبحسب وفرة المياه ومصدرها صيفا وشتاء (كالانهار أو الينابيع والأبار وبرك مياه الأمطار وغيرها). ولقد أوكلت مهمة جلب المياه من مصادرها إلى النساء، اللواتي استعملن في جلبه الأواني الفخارية المختلفة وغيرها، وأبرز الأواني الفخارية التي استخدمت في حفظه (الزير) وهو عبارة عن اناء فخاري كبير يوضع في ساحة الدار في مكان مخصص ويملأ بالماء ويغرف منه بقصعات عند الحاجة[3]، كما في قرى حوران والقلمون. وكانت مهمة الزير تبريد الماء بطريق الارتشاح والبخر وترسيب العوالق به. وكان فلاحو حوران يستوردون أوانيهم الفخارية من راشيا[4]، الواقعة في سفوح جبل الشيخ الشمالية الغربية.

الأسرة الواسعة في مدينة دمشق

شاهدت مدينة دمشق، في هذه الفترة، الاسرة الواسعة والمتفرعة كما في أرباضها.

---

(١) خاطر، لحد. العادات والتقاليد اللبنانية. ج ٢ /ص٤ و ص١٣٣ و ص١٣٤.
(٢) باسكوال. جان بول المرجع السابق. ج ١، ص ٤٢٣.
(٣) انظر: باسكوال، جان بول: المرجع سابق. ج ١، ص٤٢١ و ص٤٢٣.
4 - See: Burckhardt .J.L. op.cit.PP.292.294.

وكان ذلك نتيجة لتركة تاريخية من جهة، ولأوضاع اقتصادية من جهة أخرى. وبرز ذلك في مركزة السلطة بيد الأب أو الجد، وفي تماسك الأسرة الداخلي ووحدتها البنائية، وبسكنها في بيت كبير واحد أو بيوت متجاورة. وكان البيت الكبير يضم الأب والأم والأبناء والبنات والعمات والكنات والأحفاد. ويرجح تسمية الأسرة بـ (بيت فلان) للدلالة على اسم الأسرة أو العائلة. ولقد وصل عدد أفراد الأسرة في بعض الأحيان إلى خمسين شخصاً أو ما يزيد عن ذلك، وأسكن كل ولد متزوج مع زوجته في غرفة من البيت الكبير. أما بقية الأبناء العذاب فخصصت لهم غرفة واحدة أو أكثر وأفردت للبنات مثل ذلك، وللجدة التي هي على قيد الحياة والأخوات والعمات العوانث وربما المطلقات.

وكلما تزايد عدد أفراد الأسرة، وضاق البـ ت الكبير عليها لجأت إلى بناء بيت جديد مجاور للبيت الكبير ان أمكن، وإلا انتقلت إلى حي آخر، فتعمر بمجموعها بيوتاً لسكنها. وصادف أن كانت الدخلات والحارة ببيوتها وقفاً على سكن اسرة واحدة كبيرة، تعود في أصولها إلى جدٍ واحد. ويمكن ملاحظة ذلك في تسميات العديد من الدخلات والحارات التي أخذت أسماءها من الاسر التي سكنتها كما سنرى.

وكان البيت الكبير قاعدة لأعمال العائلة، من الناحيـة الاقتصاديـة والاجتماعية والسياسية أحياناً، كما كان مقر عمل لبعض شيوخ الحارات وكبار التجار ورجال الدين ومشايخ النقابات. ولهذا وجد فيه جناح للضيوف (السلاملك) المخصص لاستقبال الغرباء عن البيت... وغيرهم من أبناء الحارة طلباً للمشورة أو الخدمات القروض أو الاجتماعات والمؤتمرات.

وفيما يتعلق بنسب أسر دمشق في هذه الفترة، تراه مرتكزاً على أحد أسس ستة هي:

١ـــ إما على أساس النسبة إلى مدينة شامية أو عربية كأسرة: الحمصي ـــ الحموي ـــ الحلبي ـــ النابلسي ـــ الغزي ـــ الشطي ـــ الطرابلسي ـــ الصيداوي ـــ البيروتي ـــ الجبرتي ـــ البغدادي ـــ الموصلي ـــ التكريتي ـــ الديار بكرلي. واستخدمت أحياناً «لي» التركية بديلاً عن ياء النسبة في اللغة العربية للتعريف بالمنسوب.

٢ـــ أو على أساس النسبة إلى مدن عثمانية في الاناضول أو الروملي مثل: أسرة الاضنلي

ـ الاسلامبولي ـ الأماصيلي ـ الازميرلي ـ الموره لي ـ الأرناؤوط ـ الكرماني ـ الأورفه لي .

٣ـ أو على أساس النسبة إلى حرفة الأب أو الجد أو نسبة إلى رتبة عسكرية أو منصب إداري عثماني وهكذا... مثل: بيت الأغا ـ الباشا ـ الكتخدا أو الكاخيا أو الكيخيا ـ الشربجي (جوربجي) الدوه جي ـ الشهبندر ـ القدسي ـ الجوخدار ـ البيرقدار ـ المملوك ـ المعتوق ـ الأوربه أميني ـ الكلارجي ـ الدالي ـ الدالاتي ـ الهواري ـ الخزندار ـ الأوضه باشي ـ اليوزباشي ـ الطوغلي ـ البلوكباشي ـ الزربا ـ المهتار ـ الصاغرجي ـ الياسرجي ـ القواص ـ الترجمان ـ الباشكاتب ـ المحتسب ـ الشاويش ـ السباهي ـ الدزدار ـ السكباني ـ الكرد أوغلي وغيرها . وما زالت هذه الكنيات في أسماء الأسر تعيش بين ظهرانينا في دمشق في الوقت الحاضر بعد أن ضاعت كنياتها الأصلية فحلت محلها ألقابها تلك .

٤ـ أو على أساس حرفي كبيت: الحداد ـ النجار ـ البيطار ـ الحكيم ـ الصواف ـ المنجد ـ العقاد ـ المزيك ـ القباقيبي ـ البني ـ القهوجي ـ الحلونجي ـ الخانجي ـ المعلم ـ الخوجة ـ الحمامي ـ الصباغ ... الخ .

٥ـ أو أخذت نسبتها من بعض الصفات كبيت: الحلو ـ والمز ـ والأبيض ـ الأسود ـ الأزرق ، الأحمر[1] .

٦ـ أو على أساس النسب لطريقة صوفية مثل: الحريري ـ النقشبندي ـ الرفاعي ـ السعدي ـ الجيلاني ـ الشاذلي ـ اليشرطي ـ الدسوقي ـ وغيرها .

ولقد حملت بعض الأسر مثل هذه الكنيات ، إلا أنها لم تكن تعمل بالحرف التي اكتسبت اسمها منها . فآل السكر في الميدان كانوا تجارا ومزارعين . وآل العطار كانوا من رجال الدين ومدرسين في الجامع الأموي والسليمانية[2] .

---

(١) انظر: حطب ، زهير . المرجع السابق . ص١٧٨ و ص١٧٩ .

(٢) فاتر ، شيري . المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام . ج ١ ، ص ١٠٤ وص ١٠٥ .

هندسة البيت الشامي

كان البيت ملاذ الاسرة ومركز نشاطها، فلا عجب إذا ما انصب اهتمامنا على دراسة هندسته، وما طرأ عليه من الترتيبات في هذه الفترة، سواء في مدينة دمشق أو بعض المقاطعات التابعة كجبال القلمون ولبنان وسهل الغوطة وحوران.

ولقد لعبت عوامل عدة في هندسة تلك المساكن، كظروف الأمن والعادات والتقاليد والمعتقدات، ونظرة السكان إلى الحياة وحسهم الجمالي، وطبيعة الاسرة وحجمها العددي ووضعها المادي ومركزها الاجتماعي وأصولها القومية بالاضافة إلى المناخ، فلا غرابة إذا ما اختلفت هندسة البيوت ما بين الريف والمدينة والسهول والجبال. ولقد لعبت دوراً في هذا المجال، طبيعة مواد البناء المتوفرة ناهيك عن ظروف الأمن، التي فعلت فعلها في هندسة البيوت، فضحى السكان بالعديد من الأسس السابقة، طلباً للأمن ونشداناً للاستقرار في مساكنهم، في وقت سادت فيه الفوضى وأصبح الضعفاء نهباً للأقوياء.

وفيما يلي سنحاول تلمس أوضاع البيوت الدمشقية: التي تباينت حجماً واتساعاً وغنى وفقراً، فمنها ما بنيت جدرانها بالحجارة المقطوعة المزية أو الكلسية أو البازلتية السوداء، وأحكم بناء تلك الجدران بشكل دقيق، والتصقت حجارتها فوق بعضها بالجص[1] والكلس مع التراب الذي يعقد معها فتلتحم كأنها جسم واحد. وهذا النوع لا يقوى عليه إلا الأثرياء.. ومنها ما بني باللبن (بكسر الباء) وهو التراب المجبول بالماء يوضع بقالب من خشب مربع ثم يجفف بالشمس، وبعد يبسه يبني به الفقراءُ بيوتَهم، أو من لا قدرة له على البناء بالحجارة. ومنها ما يبنى بالتراب خاصة وهو المسمى بالدك.. ومنها ما يبنى بالتراب والكلس وصنعته كالدك، إلا أن هذا أعظم جرما منه مع زيادة بالكلس في ترابه، وذلك بأن يتخذ لوحان من الخشب مقدران طولا وعرضا منصبان على أساس ويباعد ما بينهما على رغبة صاحب البناء، ويوصل بينهما بأذرع من الخشب يربط عليها بالحبال، وتسد الجهتان الباقيتان من ذلك الفراغ بلوحين آخرين صغيرين، ثم يوضع فيه هذا التراب أو الرمل مخلوطاً

---

(١) يقول القاسمي: إن الجبصين يصنع من حجارة يحرق في أتون ثم يطحن في رس بواسطة دابة ثم يلقى ناعماً وينخل فيصير جبصينا تلتصق فيه الأحجار عند البناء. والجبصين للحجر كالمسمار للخشب. انظر: القاسمي قاموس الصناعات..، ج ١، ص ٧٧.

بالكلس إلى أن يمتلىء ذلك الفراغ بين اللوحين على الصورة التي ذكرناها ويسمى ذلك الطابه وصانعه الطوّاب وهكذا شطرا بعد شطر أو لوحاً فوق لوح إلى أن ينتظم الحائط كأنه قطعة واحدة . وأغلب بناء الفقراء والفلاحين من الدك الذي يتعرض للسقوط والانهيار من جراء الأمطار الغزيرة والثلوج والهواء في فصل الشتاء[1] . ويذكر البديري الحلاق في أحداث سنة ١١٥٥ هـ/ ١٧٤٣ م أن الله «أغاث عباده بالأمطار كالبحار وذلك في ابتداء كانون الثاني واستمر ليلا ونهارا وأثلجت الدنيا سبع مرات واستمر ذلك خمسة وأربعين يوماً انهدمت أماكن بحيث ما بقي محل ولا جهة في الشام إلا وقع الهدم فيها »[2] . مما يدل على كثرة البيوت المبنية بهذه الطريقة أو من اللبن في دمشق في هذه الفترة .

وعرف الدمشقيون طرقاً أخرى في بناء بيوتهم ، كاستخدام الخشب واللبن في بناء الجدران ، وكانت قطع الخشب تستخدم ضمن الحائط طولياً وعرضياً ، وتثبت فيما بينها بمسامير وتملأ الفراغات فيما بينها باللبن لبنة فوق أخرى وبشكل مائل . ويكون وضع المدماك من اللبن مختلفاً عن المدماك المجاور له . وهكذا طلباً لقوة الجدار الذي يطين بعد ذلك من الخارج والداخل لعزله عن المؤثرات الخارجية .

واستخدم الدمشقيون أيضاً حجارة الغمس وحجارة الغشيم مع طين وكلس ، مدماكا فوق آخر ، أو مداميك سفلية من الحجارة لتتحمل تأثير الرطوبة ، وفوقها إلى نهاية الجدار مداميك اللبن والدك . واستخدموا أيضاً الحجارة البيضاء المزية أو البازلتية السوداء أو كلتيهما معاً في بناء فتحات الأبواب والشبابيك والقمارى واليوكات والكتبيات والأقواس في داخل البيت . وشاهدت دمشق أيضاً استخدام أسلوب العقد من الحجارة في البناء . وشمل العقد الجدران والسقف من البناء ، كما في الخانات والمدارس والتكايا والزوايا والحوانيت وبعض الأسواق والجوامع والحمامات وغيرها ، واستخدم أسلوب القباب في سقوف الأبنية كما في

(١) ويذكر القاسمي في كتابه السابق . ج ١ ، ص ٥٢ ، وص ١٤٤ . «وأن الطوّاب يقوم بتخمير التراب مع التبن بالماء ويعجنه بعد تخميره ويضعه على أرض مستوية في قوالب . ويرفع القالب متى تماسك . وهكذا قالب وراء قالب ، ثم تصبح كالحجارة بتعرضها للشمس . واللبن أقوى من الدك . وبعض الأهالي في دمشق الفقراء الذين لا يقدرون على عمارة بيوتهم من الحجارة يعمرونها من اللبن فإذا طلي وجهه بالكلس وحفظ من الماء فإنه يبقى مائتي سنة » . انظر : أيضاً المصدر السابق . ج ٢ ، ص٥٦ و ص٥٧ .

(٢) انظر : حوادث دمشق اليومية ص٣٤ .

التكية السليمانية وخان الحماصنة وأسعد باشا العظم، ومدرسة الخياطين وغيرها. وأدخل القوس الرومي في بعض أبنية دمشق.

ويبدو أن معظم الغرباء الوافدين إلى دمشق في هذه الفترة قد أقاموا بيوتهم في أرباضها وحول أسوارها. وكانت بيوتهم مبنية من مواد بسيطة كالدك واللبن الا ماندر. وتعرض بعضها للهدم من جراء فيضان نهر بردى وغزارة الأمطار والثلوج كما حصل في سنة ١١٦٠ في شهر محرم الموافق لكانون الثاني سنة ١٧٤٩ م حيث يقول البديري «زادت المياه بسبب سيل عظيم ودخوله للشام فحصل طوفان لم يسمع له نظير من قديم الزمان هجم الماء من نصف الليل إلى الشام. أغرق جميع ما كان في طريقه.. وقد شاب من هولها الكبير والصغير وقد غرق فيها أناس غير محصورين مع ما أتلفت من بهائم وأموال... وانهدمت أماكن كثيرة لا تحصى وتركتها بلاقع»[1]. ولقد أدخل بعض المهاجرين إلى دمشق نماذج من بناء أقاليمهم التي هاجروا منها كأبناء ريف حلب الذين كانوا يبنون سقوف بيوتهم من القباب على شاكلتها[2]. وسميت تلك الحارة من الميدان بحارة القبيبات منسوبة إلى ذلك النموذج من البناء.

أما الغوطة فقد أمدت أبناءها بما يلزمهم من الأخشاب للبناء، كخشب الحور والصفصاف والسرو وغيرها والتي كانت تزرع في الغوطة وريف دمشق[3]. وكانوا يسقفون بيوتهم بوضع الأخشاب أفقياً وتسمى (النقض) وتغطى بالعوارض والقصب والبلان والوزال والاتربة[4] الحمراء والقصرمل والتبن والكلس وتخلط بنسب معينة[5] وتتصلب هذه الخلطة مع الزمن بحيث تكون طبقة كتيمة غير نافذة للماء فلا تدلف أيام الشتاء المطيرة والمثلجة إلا ماندر. وتتم عملية السقف أو التطيين في أيان الصيف. وكان يقوم بهذه الحرفة في دمشق

---

(١) حوادث دمشق اليومية. ص ٨٦.
(٢) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٦٠ / سنة ١٢٢٢ هـ ــ ١٢٢٣ هـ. ص ٧٥.
(٣) انظر: سجل محكمة الميدان بدمشق رقم ٤١١ / سنة ١٢٦٥ هـ، ص ٣١.
(٤) خاطر، لحد. المرجع السابق. ج ٣، ص ١١١.
(٥) جلب التراب الأحمر على الدواب من محافر خاصة به وكان يباع في دمشق مع قدوم الشتاء لتطيين سطوح المنازل ولتعويض ما ذهب منه بفعل المطر والتعرية. انظر: القاسمي، محمد سعيد المصدر السابق. ج ١، ص ٦٨. ويذكر القاسمي: أنه كان يوضع لكل حمل تراب قفة تبن ويخمر أياماً ويمزج مع بعضه ثم يستعمل.

أبناء القلمون من دير عطية والنبك وما جاورهما من القرى، بحيث يأتون إلى دمشق لتطيين الاسطحة[1] وكانوا يسمون بالطيانة.

وروعي في هندسة السطح أن يكون مائلا ميلا خفيفاً نحو المزراب ليسهل عملية سيلان الماء بسرعة إلى الشارع أو ساحة الديار الداخلية فمصرف الماء المالح. ويذكر راسل أن المواد التي استخدمت في أسطحة بيوت حلب كانت آنئذ مشابهة لما استخدم في دمشق فهي خليط من الجبصين والملاط والقطران والقصرمل وتتصلب هذه الخلطة إذا ما فرشت صيفاً، وسرعان ما تتكسر إلى شرائح إذا ما فرشت شتاء بحيث لا تنفع في درء الأمطار أو تمنع الدلف وحفظ الجو الداخلي للغرف[2].

أما عملية طلاء جدران البناء من الداخل فسميت (الزريقة) وكانت تتألف من خليطة القصرمل والكلس وسقط قشر القنب[3]. أما طلاؤها من الخارج فمن الطين الناعم المخلوط بالتبن لحمايتها.

ولقد رصفت أرضية البيوت بطرق مختلفة، فبعضها وهو القليل، رصف بالرخام، وبعضها الأخر بالحجارة المزية أو البازلت، وفوقها الخشب. وروعي في رصف الحجارة أو الرخام أخذها أشكالاً جميلة مختلفة، وهذا ما كنا نراه في قصور الخاصة وبعض الأبنية ذات النفع العام. أما بيوت العامة والفقراء فاستخدم في رصفها (عدسة) مكونة من القصرمل والكلس[4].

ويأتي بعد ذلك التلبيس من الداخل وكانت تتم العملية بمزج (خلط) قنطار من الكلس باثني عشر (رطل) من قشر القنب المقطع، وقد لون بألوان مختلفة، وقام بالرسوم الخاصة على الحيطان أناس مخصوصون.

ولقد تأثر فن العمارة وهندسة البناء في دمشق بعوامل عدة. فمنها ما كان ناتجاً عن

---

(١) انظر سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ /١٠٢٣ هـ. ص ١٧.

2- See: RUSSELL. A. op. cit. Vol. 1.P. 35

أما طلاء الجدران فكان يخلط قنطاران من الكلس باثني عشر رطلا من قشر القنب المقطع.

(٣) القاسمي: المصدر السابق ج ٢، ص ٢٩٦، وص ٢٩٧، وص ٤١٥.

(٤) القاسمي: المصدر السابق. ج ٢، ص ٢٩٧.

تركة تاريخية ومنها ما كان متأثراً بعامل المناخ، والتقاليد والعادات الاجتماعية كحجب النساء عن أعين الجيران والمارة وادخار مؤونة الاسرة لفترة طويلة، وايواء بعض الحيوانات التي تستخدمها، والحالة المادية للأسرة ووضعها الاجتماعي وعدد أفرادها والعناصر الملحقة بها، والحالة المادية للأسرة ووضعها الاجتماعي وعدد أفرادها والعناصر الملحقة بها من الرقيق والخدم، ناهيك عن مساحة الأرض المعدة للبناء، والنظرة للحياة والحس الجمالي والاستمتاع داخل البيت[1].

ومع ذلك فقد أسهم العثمانيون في هذا المجال في اتجاهين:

الأول منهما: يبدو في نقلهم أسلوب البناء والهندسة الرومية إلى مدينة دمشق. ويمكن مشاهدة ذلك في الأبنية ذات النفع العام أو الخاص، التي أقاموها في دمشق، كالخانات والتكايا والمدارس والجوامع وقصور الولاة والحكام.

أما تأثيرهم الثاني فظهر في فترة دراستنا، وكان تأثيراً غير مباشر نتج عن ضعف السلطة العثمانية في دمشق واضطراب حبل الأمن فيها، فانعكس ذلك على تصميم مساكنها وخططها وشوارعها، وبرز في ضيق أزقتها وتعرجها وكثرة الدخلات المسدودة وصغر مداخل البيوت إلى درجة يضطر فيها المرء للإنحناء عند ولوجها، وصفحت أبوابها الخشبية بصفائح لتزيدها مناعة ولتصمد في وجه المهاجمين عند الحاجة. وأدخلت الدهاليز في تصميم بعض البيوت عند مداخلها، فكنت تراها طويلة ومعتمة كونها مقبية بالخشب أو بحجارة العقد لتوفر الأمن لساكنيها[2].

ولم يستطع معظم الدمشقيين استبدال اللبن والدك في بناء جدران بيوتهم بالحجارة،

---

(١) لم يتغير نمط بناء دمشق حتى نهاية القرن التاسع عشر. ويقول الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي الذي زارها بعد القضاء على ثورة أحمد عرابي في مصر أن «عماراتها من الطين والخشب وبالاحجار كباقي بلاد الشام وقليلاً منها كالمساجد والمدارس القديمة ومباني السلاطين والملوك والامراء القدماء وبعض بيوت جديدة في هذا العصر أنشئت على الطراز الجديد المعتاد الان في مثل بيروت وغيرها من البلاد التي تقدمت في العمارة في هذا الزمان. الا أنها مع كونها في الظاهر مبنية بالطين والخشب مزينة بالباطن بالرخام الملون والنقوش الذهبية، فلقد رأينا داراً أصلها من عمارة الشيخ المرادي في الشام قديماً وانتقلت إلى ملك أولاد القوتلي في هذا العهد القريب، وبها من حسن الصنعة وكمال البهجة ما يبهر العقول ويدهش الخواطر وتحار فيه الأعين والنواظر. انظر: نفحة البشام في رحلة الشام. ص ١٣١. لبنان ١٤٠١ هـ.

2 - See: Burton .I. the inner Life of Syria, Palestins and the Holyland.P.34.

نظراً لارتفاع أسعارها، مما سهل نقبها واقتحامها من قبل المهاجمين أثناء الصدامات بين القوات المتصارعة فيها. ففي سنة ١٢٢٠هـ /١٨٠٥ ـــ ١٨٠٦م تمكنت قوات الانكشارية البرلية «من ثقب بيوت في زقاق الخندق عن طريق جدارها الملاصق لقهوة السكرية فدخلوا على القول من بيت محمد نصري وبيت سالم طيورة[١]».

وأدت نقاط الضعف تلك إلى زيادة التصاق جدران البيوت، وبخاصة ما كان منها مطلاً على الشوارع والأزقة، وألغيت النوافذ من هذا الاتجاه، وإذا ما وجدت فكانت ضيقة ومسلحة بقضبان حديدية قوية بعد تطويقها بحجارة قوية بدلاً من اللبن أو الدك. أو فتحت شبابيك تطل على الشوارع في الطوابق العليا. وسلحت بقضبان الحديد، ووضعت عليها المصبعات لحجب نظر السابلة عمن في الداخل. وأصبحت معظم الشبابيك داخلية تطل على أرض الديار، فتوفر الهواء والضوء للمنازل. واندفعت بعض جدران البيوت إلى الشوارع والأزقة سعياً وراء توسيع المساكن من الداخل على حساب الصالح العام مما أدى إلى تعرج الشوارع والطرق. واندفع (قلد) أسطحة الطوابق السفلى إلى الشوارع وباتجاه المجاورين لتوفر للطوابق العليا بعض الأمتار في الاتساع، مما أثار المشاحنات بين الجيران. ويقول القاسمي: «نظراً لكثرة ازدحام العمران، كان الناس في دمشق يتشاحون في الفضاء والهواء وللأعلى والأسفل ومن الانتفاع بمظاهر البناء مما يتوقع معه حصول الضرر من الحيطان فيمنع جاره من ذلك إلا ما كان فيه حق ويختلفون أيضاً في استحقاق الطرق والمنافذ للمياه الجارية وغير ذلك. وربما يدعي بعضهم حق بعض في حائطه أو علوه أو فنائه المتضايق الجوار. أو يدعي بعضهم اختلال حائطه خشية سقوطه. ولعب العارفون بالبناء وأحواله دوراً بارزاً في فصل الخصومات بين المتنازعين. فيستدلون على ذلك بالمعاقد والقلد ومراكز الخشب وميل الحيطان واعتزالها ومقسم المساكن على نسبة أوضاعها ومنافعها وتسرب المياه مجلوبة أو مرفوعة بحيث لا تضر عما مرت عليه من البيوت والحيطان»[٢].

ويمكن تفسير هذه الظاهرة بضيق مساحة البيوت على ساكنيها نتيجة لتزايد عدد أفراد الأسرة ورغبتهم بعد الزواج بالبقاء في مساقط رؤوسهم يتعاونون على متاعب الحياة ويدافعون

(١) انظر: العبد، حسن آغا. تاريخه. ص ١٢٥.

(٢) انظر: قاموس الصناعات الشامية. ج ١، ص٥٣.

مجتمعين عند الحاجة فإذا ماتشتشوا غرقوا في بحر الغرباء الذين غصت بهم دمشق في هذه الفترة[1].

واحتال السكان الاصليون على ضيق المساحات فأبدعوا الصيباتات[2] في البناء، وسعت بعض الأسر لشراء أجزاء من بيوت ملاصقة لبيوتها (مربع أوَ أكثر). وفي تلك الحالة كانت تقوم الاسرة المشترية بسد الأبواب والشبابيك المطلة على البيت المستخرجة منه وتفتح أبواب وشبابيك جديدة ان أمكن في الجدران المطلة على المسكن الذي ضمت اليه. ومثال ذلك ما جرى في سنة ١٢٤٧ هـ/ ١٨٣١ — ١٨٣٢ م/ في زقاق العواميد الواقع في باب توما حيث قام «موسى دياب بشراء مربع (غرفة) مستخرج من دار الحاج مصطفى أبي الجود وضم المربع المذكور إلى داره»[3]

ونتج عن هذه الظاهرة أن اختلت هندسة البيوت وأهملت الشوارع والازقة وامتلأت بالقاذورات والنفايات، وجرت في طواريقها مياه آسنة، وامتلأت بالأوحال والطين خاصة أيام الشتاء المطيرة وكان على السكان تعويض ما افتقدوه من نظافة الشوارع والأزقة بنظافة البيت. وبما يونق البصر في ساحته الداخلية، فكنت ترى في أرجائه بحرات وأحواض الأزهار والورود، وعرائش الكروم، وغيرها من الأشجار المثمرة كالمشمش والتوت والبرتقال والنارنج. وتطوق تلك الأحواض ساحات مبلطة في الغالب توفر الهواء وأشعة الشمس خاصة في البيوت الكبيرة الواسعة.

وشكلت تلك الباحات مرتعا لأطفال الاسرة ونسائها. ونادراً ماروُي بيت في دمشق، مهما كان صغير المساحة، خالياً من تلك الفسحة السماوية. وكان في البيوت الكبيرة بالإضافة إلى ذلك عدد من الايوانات سواء (في السلاملك والحرملك) هم المربعات والطزرات وبيوت المؤونة (الكلارات) والمطابخ والاصطبلات وأحياناً الحمامات. وغيرها، وتطل شبابيكها على الساحة الداخلية.

---

(١) انظر: العبد، حسن آغا، تاريخه. ص ٤٧ و ص ٥٢.

(٢) قام الدماشقة ببناء بعض الغرف فوق الشارع اعتماداً على أحد حيطان البيت وحائط بيت الجيران المقابل بالاتفاق معهم. وأطلق على هذه الغرفة اسم (الصيبات) ويشاهد العديد منها حتى وقتنا الحاضر في بعض أحياء دمشق القديمة كالشاغور البراني والعمارة. انظر: كيال، منير. الحمامات الدمشقية وتقاليدها. ص ١٥١ وص ١٥٢.

(٣) سجل: محكمة الميدان بدمشق رقم ٣٢٣/١٢٤٧ هـ. ص ٩.

وتوفرت المياه للبيوت من طوالع خاصة بها بحق معلوم، جلبت اليها من أحد فروع بردى الثلاثة (القنوات وبانياس ويزيد) لتصب في بحراتها ومطابخها ومراحيضها، ومنها إلى أقنية الماء المالح فقليط ليخرج إلى بساتين شرقي الشاغور وليموت في الميدانين[1].

وغالباً ما خصصت في البيت (مهما كان صغيراً) غرفة لاستقبال الضيوف تكون خارجية. أما في البيوت الكبيرة أو القصور فخصص جناح للضيوف أطلق عليه اسم (سلاملك). ويصور لنا لامارتين أحدها أجمل تصوير عندما كان في دمشق سنة ١٨٢٣م /١٢٣٨هـ بصحبة القنصل الفرنسي المسيو بودان، ولقد أدهشه الفرق بين ما رآه في الشوارع والأزقة وما شاهده في داخل أحد بيوت أغنياء النصارى فيقول: «دخلت أزقة مظلمة قذرة ومتعرجة في الحي الأرمني التي تشبه أكثر قرانا حرمانا، فالبيوت مبنية من الطين، جدرانها مثقبة من الخارج ونادرا ما ترى فيها النوافذ وإذا ما وجدت فهي صغيرة ومدهونة بلون أحمر وتحميها شباك ومصبعات خشبية، أما الأبواب الخارجية فتشبه أبواب الاصطبلات وترى بالقرب منها أكوام النفايات وبرك الماء الآجن. وإذا ما ولجت من الباب إلى داخل البيت مررت بدهليز مظلم يفضي بك إلى داخل البيت. وهنا تفاجأ بصورة تختلف كليا عما شاهدته في الخارج حيث الأناقة والنظافة والثراء. فالباحة مفروشة بالبلاط تطوقها حجرات عديدة وعريضة مبلطة بحجر صقيل أو بالرخام الأبيض والأسود وتطوق أبواب تلك الحجرات ألواح المرمر أما درفات الأبواب فخشبية منقوشة ومزخرفة بالأرابيك أما سقوف هذه الحجرات فمرتكزة على أقواس حجرية مزينة بدورها. وفي أعلى الجدران ترى القماري[2] وأرضية هذه الغرف «المربعات» مفتوحة على بعضها بشكل خانات الشطرنج وفي المدخل ترى البحيرة الصغيرة وباتجاه كل ضلع من أضلاع المدخل تقابله غرفة مربعة أو مستطيلة قليلاً تسمى (المربع) وعددها ثلاث مربعات في ثلاث اتجاهات، وأرضية المربعات أعلى من أرضية

---

(١) انظر: الصيادي، محمد عز الدين. الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية. ص ٢٦.

(٢) القماري عبارة عن شبابيك علوية يوضع عليها الزجاج وربما كان ملوناً ليجلب النور إلى داخل القاعات ويقول الاستاذ شفيق جبري: (إن القمري هي شبه شباك صغيرة في أعلى الحائط قريب من السقف مركب من زجاج ملون بألوان مختلفة ويعتقد أنها ربما سميت بهذا الاسم نسبة إلى لجوء ضرب من الحمام اليها وتغشيشها فيها). انظر: مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق. ج٣. المجلد ٤٢. ص٣٧. سنة ١٩٦٧م. ويلتقي القاسمي مع الأستاذ جبري في أصل هذه التسمية فيقول: سميت بالقمرية نسبة إلى طائر القمري أو طائر كريم».

المدخل ويصعد منها إلى المربع بدرجة واحدة. وبلطت أرضياتها بالرخام أو بخشب الأرز بأشكال جميلة تثير الاعجاب»[1].

أما (بورتر) الذي عاش في دمشق حتى سنة ١٨٥٥ / ١٢٧١ ـ ١٢٧٢ هـ فيصف هذه البيوت ولا يتناقض في ذلك مع لامارتين بل يوضح الصورة التي عرضها الأخير. فاللوان أو الايوان تراه غالبا في البيوت الكبيرة وهو عبارة عن موزع له ثلاثة جدران، والجهة الرابعة تقام على قوس مفتوح مرتكز على عامودين. وتطل على الساحة، وبها بابان يفضي كل منهما إلى قاعة، أما الجدار الذي يقابل القوس فيكون مسدوداً أو به قنصلية حجرية أو رخامية لتوضع عليها فوانيس الاضاءة وغيرها.

وكانت عادة الدماشقة فرش قاعة السلاملك من جهاتها الثلاثة بالطوطايات (فرشات صغيرة) والوسائد، وفي بعض الأحيان وضعوا فوق الطوطايات البساطات أو السجادات. وكان السجاد الفاخر يستورد من بلاد فارس أو بغداد وتغطى به أرضية القاعات، واستخدموا الفرش الحريري في وسط القاعات والجلود. وغطيت الديفانات بأقمشة ثمينة أو بسجاد أكثر نعومة من سجاد الأرض. وترى في قاعة الحرملك أسرّة الأطفال. أما رب الأسرة فكان يجلس على أريكة في السلاملك ويضع ريشة طويلة إلى جانبه، فعندما يريد الكتابة يضع الورقة على ركبتيه أو في يده اليسرى. ويستقبل ضيوفه ويقدم لهم الغلايين والقهوة والشراب[2].

وأطلق على الجناح الثاني في البيوت الكبيرة أو القصور اسم (الحرملك)، وكان مرتعا للعائلة وللحريم بشكل خاص، انطلاقاً من عادة حجب النساء عن المحرمين عليهن، وكان يحمي باب الحرملك في قصور الأغنياء والحكام أحد (الخصيان)[3]. ويذكر بورتر أنه استطاع زيارة جناح الحرملك[4] في أحد بيوت دمشق التي كان يقيم فيها أديسون مستأجراً. وتعود

---

1 - See: La, Martine .op.cit. VOL.2.P.35.

2 - Se Lamartine. op.cit. VOL.2.PP.4.5.

(٣) يذكر راسل أنه لم يكن في بيوت حلب العادية أجنحة منفصلة من أجل النساء وكان سيد البيت عندما يضطر للذهاب خارجه لايقفل باب بيته فحسب بل يأخذ مفتاحه معه.

انظر : Russell .A. OP. Cit. VoL1. P,238

4 - See: Porter, «five years in Damascus.» VOL.1. PP.33-34-35.

ملكية هذا البيت لعلي آغا الذي كان موظفا في خزينة دمشق ابان الحكم المصري . وكان علي آغا مسلماً ذا عقل نير ومتحررا وبعيداً عن التعصب ولكنه أعدم على يد العثمانيين بعد عودتهم إلى دمشق . ولتعاونه مع المصريين انتقلت ملكية البيت لابنته . وبنى الحرملك في هذا البيت على مربع مساحته ٣٦٠ ياردة مربعة ، ورصف بالفسيفساء والرخام ، وفي وسطه ساحة تتوسطها بحرة ماء تحيطها نافورات عديدة صغيرة ، يفور منها الماء ليخفف من وطأة حرارة الصيف ، ومن حولها أحواض زرعت بأشجار البرتقال والليمون والنارنج ، وعندما تزهر يفوح شذاها في الأرجاء .

بالاضافة إلى شجيرات الياسمين والسوسن ، تسلقت كرمات على عرائش في أماكن مختلفة من الباحة فوفرت ظلالا وارفة . أما القاعات فطوقت الباحة من معظم جهاتها ، وتطل الأبواب والشبابيك عليها [1] .

ومن جهة أخرى فقد اهتمت بعض الفئات الاجتماعية الغنية بتزيين جدران بيوتها وسقوفها وأرضية قاعاتها ، واستخدمت في ذلك القاشاني والفسيفساء لرصف الجدران والسقوف بأشكال مختلفة[1] ، ولكن ذلك كان قليلا وفي حدود ضيقة جداً ، لارتفاع أثمانها ولقلة ما استورد منها من بلاد العجم ، وحلّ محلها في التزيين الخشبُ والمعاجين المختلفة الملونة بأشكال بديعة كما زينت الجدران بالآيات القرآنية أو الأبيات الشعرية أو العبارات المأثورة والحكم المشهورة . ولم يصل خشب التزيين على الجدران من الأرصفة إلى السقف بل ترك الجزء العلوي منها ليطلى بالكلس . وفي هذا الجزء تقع القماري ، وسمي هذا النوع من التزيين (بالرومي) . كما زينت بعض الجدران بأشكال النباتات وسمي هذا النوع (بالعجمي) ، وفي هذه الجدران شبابيك غير نافذة (خزانات) ذات رفوف أطلق عليها اسم (الكتبيات[2]) وضعت عليها المزهريات والزبادي والصواني والكتب وغيرها .

---

(١) استخدمت للزينة وتنسب إلى مدينة قاشان قرب أصفهان من بلاد فارس ، ويقال إن الفرس قد اقتبسوا هذه الصنعة عن البابليين ، ودلت الحفريات والاثار الباقية من فلسطين على أن الكنعانيين قد عرفوها أيضاً أما الفسيفساء فكان عبارة عن نقوش زجاجية ملونة رصفت قطعها بطريقة ترسم صوراً وأشكالاً ومناظر طبيعية جميلة . انظر : المعلوف ، اسكندر . مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق/ ج ١ المجلد الأول ص ٢٢ . سنة ١٩٢١ م .

(٢) كانت الكتبة بارتفاع ذراعين وعرض ذراع وعمق ثلث أو نصف ذراع وتقسم طبقات خصصت لوضع الكتب في الأصل إلا أن دولة العلم دالت آنئذ فأصبحت تستخدم لوضع ماتقدم من الهدايا والتحف والأواني . انظر : القاسمي . قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ . ص ٣٦٣ .

ووجدت شبابيك مماثلة لما ذكرناه إلا أنها أكثر عمقاً من الأولى، وأطلق عليها اسم (اليوكات)، وضعت فيها اللحافات والفرشات وبعض أثاث البيت كالسجاد والبسط. وقامت الكتبيات واليوكات مقام المكتبات والخزانات والصمديات في وقتنا الحاضر. ولقد وصل ارتفاع الجدران في بعض الاحيان إلى ٣٠ قدما. وكان السقف يطعم بالذهب ويزخرف بالمرايا خاصة في بيوت الاثرياء والقصور، وأخذت الزخرفة أشكالا نباتية وهندسية مختلفة من نوع العجمي والارابسك، وكانت بألوان متعددة، كاللازور والأحمر والقرمزي والأزرق الغامق والبني والبيج وغيرها. يقول بورتر: (لم يقو على زخرفة مثل هذه البيوت في دمشق سوى أغنيائها، حيث كانت الغرفة الواحدة تصل إلى / ٢٠٠٠ / جنيه استرليني. ولقد قامت قلة من الاسر اليهودية الاكثر غنى بذلك، بالاضافة إلى كتابتها لآيات من التوراة على جدرانها، ولكن بيوتها مع ذلك لا يمكن مقارنتها ببيوت أغنياء المسلمين التي فاقتها فخامة وغنى في زخارفها[١].

وروعي في تصميم البيوت التكيف مع المناخ واختلاف درجات الحرارة صيفا وشتاء، فبنوا فوق بيوتهم بعض الغرف العلوية التي كانت تسمى (قصرا)، وما كان منها بسيطا سمي (فرنكة). واستخدموا الطابق العلوي للنوم صيفا، في حين أهملوه شتاءً ليناموا في الطابق السفلي[٢] من البيت طلباً للدفء.

ولقد اختلف فرش أرضيات المربعات بين فئة، اجتماعية وأخرى. فالفقراء استخدموا في ذلك الحصر بدلا عن السجاد الفاخر. وكانت الحصر أنواعا. فالجيدة منها تسمى (المصرية). وكان منها نوع آخر يصنع في قرى الشام كقرية (بلودان) نفيس جدا عليه نقوش جميلة ومنسوج بشكل جيد، أما النوع الثاني فيسمى (الحصر الدباجية)، وهي حصر غليظة جدا، وكان يؤتى بها من قرية (حران) من قرى مرج الغوطة وكانت تباع في دمشق عند العلّافة (جمع علّاف) يشتريها الفلاحون وأصحاب القهاوي. ووجد نوع من الحصر أرق من الانواع السابقة جيء بها من قرية (الحَولة) وكانت تباع في دمشق لدى الحبوباتي[٣]. ووضع بعض العامة في دمشق البسط فوق الحصر والطوطايات التي هي عبارة

---

1 - Porter .op.cit. PP.37.38.

(٢) انظر: سامي، عبد الرحمن بك. القول الحق. ص٨٢.

(٣) انظر القاسمي. قاموس الصناعات. ج ١ ص ٩٩ وص ١٨٢.

عن نوع من الفرشات (طراحات) **صغيرة محشوة قطنا أو** صوفا، كما استخدموا لنفس الغرض جلود الغنم المدبوغة.

وكان من أثاث البيوت (البوريات والسكملات الساذجة والمطعمة بالصدف والخزائن والصناديق والمرايا والكراسي وإسكماجايات وغيرها [1] واستخدمت في المطابخ القصاع الغفارية والمالقي [2]. بالاضافة إلى الأواني النحاسية المختلفة الأغراض والأحجام وبعض الأواني الصينية كالزبادي والصحون وغيرها، واختلف ذلك من أسرة إلى أخرى، من حيث نوع الخشب والتطعيم والعدد. ونادراً ما خلي بيت من بيوت دمشق أنئذ، من الأثاث الشرقي، الذي كان على جانب من الذوق والجمال مهما كان متواضعاً.

واستخدمت في إنارة البيوت الدمشقية ليلاً، قناديل اعتمدت في وقودها على زيت الزيتون، أو الزيوت النباتية الأخرى [3]، كزيت الخروع الذي زرع لهذه الغاية في أكثر من مكان في بلاد الشام، بالاضافة إلى الشموع التي صنعت في دمشق، وكان منها ثلاثة أنواع: المقاصيري وهو الأبيض الفاخر، والعسلي. أما الثالث فسمي بـ (مَنْ السمك) جلب من البلاد الغربية، وكانت الرغبة فيه أكثر من النوعين الأولين. وكان يجلب مع الحجاج، وكان منه نوع يستخدم خصيصاً في الأعراس [4].

واستخدم الشمع في وعاء سمي بـ (الفنار)، وكان يصنع من القماش الخام أو الورق، بطول ذراع وباستدارة نصف ذراع يطبق وينشر، أحد طرفيه بقطعة من نحاس إذا كان خاما، ومن الجلد إذا كان ورقاً، وبوسطه محل لوضع الشمعة، وله من الطرف الأعلى، المصنوع أما من النحاس أو من الجلد، بابان مفتوحان من وسطه، فتركب الشمعة فيه بطرفه الأعلى وتطوق الباب الأعلى علاقة من شريط، للقبض عليها، فتركب الشمعة وسطه وتشعل عند اللزوم وينشر [5].

---

(١) القاسمي. المصدر السابق. ج ٢، ص ٢٧١ ــ السكملات ــ مفردها اسكملة وهي ماتعني في وقتنا الحاضر التربيزة ذات القوائم القصيرة أو الطاولة المستديرة التي تستخدم للأكل وهي بدورها ذات قوائم قصيرة.

(٢) القاسمي: قاموس الصناعات. ج ٢، ص ٣٣٥.

(٣) القساطلي، نعمان. الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، ص ٩٥.

(٤) القاسمي: قاموس الصناعات. ج ٢، ص ٢٥٦.

(٥) القاسمي: قاموس الصناعات. ج ٢، ص ٢٥٦، وص ٢٥٨.

ولقد استعملت ، في دمشق في أواخر هذه الفترة ، فوانيس الغاز التي استخدمت زيت الغاز (الكيروسين) لإنارة البيوت والطرقات والحارات ، فكسدت بذلك صناعة الشموع في دمشق [١]. واستخدمت في عهد ابراهيم باشا المصري قناديل قزاز [٢].

وكانت للبيوت الدمشقية المضاءة ليلا مع من فيها ، سحرها عند الغربيين ، ويعبر عن ذلك (بورتر) بقوله : «عندما كانت تغيب الشمس ، ويلف الظلامُ الكونَ بنقابه الكثيف ، ويحجب عن ناظريك كل شيء . يخترق هذا الظلام بريق عيون الحوريات الجميلات ، واشعاع حليهن من المعادن الثمينة والحجارة الكريمة . وكانت المصابيح المتقدة هنا وهناك في المربعات والقاعات ترسل ضياءها في الأرجاء ، لتدحر فلول الظلام ، وينسكب ضياءها على وجوه تلك الحوريات وحليهن وعلى مرايا الجدران ، فتتشتت أطيافا لتزيد المكان روعة وسحرا» [٣].

واستخدم الدمشقيون في الشتاء كوانين خاصة ، صنعت من خليطة معروكة ومخمرة من التراب الناعم والتبن والماء ، وبعد يبسها تشعل فيها النار للتدفئة . وكانت تلك الحرفة رائجة آنئذ . وبدأ الطباخ الحديدي يزاحمها في نهاية فترة دراستنا ، عندما استخدمه الأغنياء للتدفئة والطبخ معاً ، وبقي الفقراء يستخدمون الكانون الترابي إلى فترة متأخرة من الزمن [٤].

وكان وقودها الحطب وفضلات ثمار الزيتون والمشمش والفحم الخشبي وغيره . وكانت الاسرة تتجمع حوله في أيام الشتاء فيستمعون إلى السير والحكايا والأحاديث المنوعة قبل ذهابهم إلى النوم .

أما فيما يتعلق بشرب مدينة دمشق ، فظلت طريقته كما كانت سائدة من قبل ، تعتمد في ذلك على مياه الأنهار والينابيع والأبار . وجل ما قدمه العهد العثماني في هذا المجال ، صيانة وترميم ما تهدم من المجاري ، خاصة بعد اصابتها بالتلف نتيجة للهزات الأرضية التي ضربت

---

(١) القاسمي : الصناعات . ج ٢ ، ص ٣٤٣ .

(٢) جاء في الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا المجلد ٣ ــ ٤ . ص ٢٢٠ «ورد رجعة مختومة بختم حسن آغا صاغقول آغا سواري مؤرخة في ١٢ ل ١٢٥٤ هـ/تتضمن أخذ ثمانية قناديل قزاز عن كل قنديل خمسة وعشرون فضة للميري» .

3 - See: Porter J.L. op.cit. VOL.I.P.37.

(٤) القاسمي : قاموس الصناعات . ج ٢ ، ص ٣٩٦ .

دمشق في القرن الثامن عشر والتاسع عشر. وكانت العادة إدخال المياه إلى البيوت بواسطة أنابيب فخارية خاصة، بحقوق معينة محددة لكل بيت بثخانات الأنابيب التي تحمل المياه اليه، وقدرت ثخانتها بالاصبع، وسجل ذلك في سجلات محاكم دمشق. وتنازل أصحاب البيوت الصباغة في المحاكم عن هذا الحق للشاري. وكثيراً ما أثارت تلك الحقوق مشاكل ومشاحنات اجتماعية، خاصة عند شح الماء أو عندما تكون تلك الأنابيب تغذى أكثر من دار واحدة. ووجدت آبار مشتركة على الحد الفاصل بين بيتين متجاورين لامدادهما بالمياه. أما الأنابيب المائية فكانت على أنواع منها (الزمرد) وهو أصغر الأنواع و (الشركس) وهو أكبر من الأول و (الايراني) وهو أكبر من الثاني و (السبيلي) و (المجبر) (والزنجاري) وهو أكبرها قياسا. وكانت المياه الحلوة (العذبة) تخرج من الأحواض لتمر في الأخلية والمراحيض للنظافة، وما فاض منها يدفع بالفضلات إلى سياقات (كهاريز أو مجاري) خاصة مقبورة في الأرض تصب في مجرى رئيس، ليجري فيه الماء إلى مصرف الماء المالح (قليط)، أما البيوت التي بنيت فوق منسوب مجرى مياه الأنهار، فاستخدمت النواعير لرفع المياه اليها، كما في بعض بيوت الصالحية. وزودت البيوت الأخرى التي حرمت من المياه الجارية بمياه الآبار والينابيع والسبلان القريبة.

وواجهت هذه البيوت مشكلة تصريف قاذورات آبار المراحيض بعد امتلائها فوجد أناس مخصصون لتنظيفها وصيانتها كانوا في معظمهم من اليهود[1].

القصور في دمشق

برز التأثير العثماني في المباني ذات النفع العام والتي ذكرناها سابقاً. أما القصور فقام ببنائها الولاة والمفتون والقضاة وغيرهم من الأثرياء والتجار، وأكثر ما بني من القصور قام به الولاة مقلدين في ذلك قصور استانبول، ثم قام مَنْ دونهم بتقليدهم وهكذا.

وروعي في هندسة القصور الاعتبارات الاجتماعية والتقاليد الموروثة، بالاضافة للاعتبارات الاخرى. وتكونت تلك القصور غالباً من أجنحة ثلاثة: جناح الضيوف أو السلاملك، وجناح خاص بالاسرة للحريم والزوجات والابناء وسمي (بالحرملك) أما الجناح

(١) القاسمي: قاموس الصناعات. ج ٢، ص ٣٥١.

الثالث فكان للخدم وبه الاصطبلات. وتأثر تصميم الجناحين الأولين برغبات أصحابها والحاجة التي أنشئت من أجلها. وكانت تلك القصور مترفة بزخارفها الزجاجية، ومطعمة بالخشب ومسحوق الفضة والذهب. وبالزخارف الحجرية المكفتة فوق النوافذ وعتبات الأبواب والقماري وسقوف الغرف، بأشكال يصعب حصرها. واستخدم الجبصين للرسم النافر[1]. وكان السلاملك رائع الابهاء واسعها متسما بالجمال كبير القاعات والايوانات، وأما الحرملك فكان أعظم شأناً لأنه كان مرتع النساء السجينات بين جدرانه، فكان لا بد له من تعويضهن عما افتقدنه من ذلك، فوفر لهن المعيشة المرفهة. وروعي فيه دخول الشمس ووفرة الظلال عند الحاجة لاختلاف الحاجة إلى ذلك بين الشتاء والصيف، وهناك البحرات الصغيرة والكبيرة والساحة المبلطة بالحجارة أو الرخام مرتع صبايا الأسرة ونسائها وأطفالها، والأحواض التي غرست بها الأشجار والزهور وعرائش الكرمة منثورة بانسجام في أنحاء الساحات الداخلية. ولعل قصر أسعد باشا العظم أكثر هذه القصور روعة وجمالا. أقيم في نهاية سوق البزورية وكان في الأصل مكانا لضرب الفلوس في صدر الاسلام ثم داراً لمعاوية ابن أبي سفيان، ثم داراً للذهب في عهد النائب المملوكي تنكز. وشرع أسعد باشا العظم في بنائه في سنة ١١٦٣ هـ/١٧٤٩ ــ ١٧٥٠ م بعد أن هدم لصالحه، ما حوله من الخانات والدكاكين، واعتمد في بنائه على عدد كبير من حجارة ورخام الأبنية المهدمة في دمشق، وروعي في هندسته وجود أجنحة ثلاثة: السلاملك والحرملك وجناح الخدم والاتباع، ويعتبر هذا القصر أجمل قصور دمشق التي بنيت في العهد العثماني تخطيطاً وتزييناً، وأغناها زخرفة[2].

---

(١) كيال، منير. المصدر السابق. ص ١٧٦.

(٢) استخدم في زخرفته المرمر والرخام. ويقول إيكوشار من المحتمل أن يكون المرمر قد جيء به من ايطاليا، إلا أنه من المؤكد أن بعضه قد جمع من الدور والقصور الموجودة في دمشق، ففرشت الصحون بالرخام كلها، وركبت بأشكال هندسية مختلفة، فتجد هذه الأشكال المستطيلات والمثلثات والدوائر والمنحنيات والأقواس، ومن حيث لونها ترى الأبيض والأسود والأحمر، وفي بعض الأماكن من القصر ترى زخارف محفورة في الرخام، وقد أحيطت بخطوط من ذهب. أما الخشب المزوق فذو شأن لأنه ينسب للعصر التركي، ويستخدم لتغطية عمدان السقوف والأبواب ولكسوة الحيطان ودهن هذا الخشب بصورة عامة بأصباغ مختلفة، فيها توافق وانسجام، وزخرف بأشكال هندسية نباتية ترى فيها ضروباً من الزهور وأنواعاً من الفاكهة والخضراوات، وقد نجد بعضه يحمل أبياتاً من الشعر وهذا الشعر أغلبه في مدح الرسول (ص)، أو أبياتاً من بردة البوصيري حول الحيطان وفي أطراف السقوف وفي الإيوانات وفي

ولم يكن قصر أسعد باشا العظم وحيدا في دمشق، بل شيدت قصور أخرى قبل عهده وبعده. الا أن عدد ما بني في النصف الأول من القرن الثامن عشر، كان أكثر ما بني من القصور في فترة دراستنا هذه. ويمكن تفسير هذه الظاهرة بظروف دمشق الأمنية والاقتصادية السيئة وغياب السلطة وقصر مدة الولاة والحكام في مناصبهم، فلم يفكروا في بناء القصور بل انصب اهتمامهم على جمع الأموال وبأسرع ما يمكن، واخفائها كي لا تصادر أثناء عزلهم.

وأهم القصور في دمشق، التي وصلتنا أخبارها في هذه الفترة وما بعدها هي: قصر والي دمشق عبد الله باشا العظم حيث تولى هذه المنصب أكثر من مرة، لهذا بني قصرا فخماً في الطرف الشمالي من البزورية، وحوى على مقاصير وقاعات شرقية كبيرة وجميلة. وممرات علوية وسفلية وبرك ماء كبيرة وكان مكوناً من ٣٦٠ غرفة[1] ثم قصر محمد باشا العظم الذي أقامه لصيقاً للمدرسة القجماسية جوار سوق الأروام[2]، ثم قصر والي دمشق الكنج يوسف باشا الذي أصبح في العهد المصري مقرا للحكومة، ثم قصر أحمد أفندي ديوان أفندي باشا بالقرب من حائط الأحمدية في سوق الاورام. وشيدتْ قصور لنواب القضاة والمفتين والدافتردارين ونقباء الأشراف والاغوات والتجار وغيرهم[3]. وتوزعت تلك القصور في أحياء دمشق داخل سورها وخارجه. فكان لآل العطار الحسيبي قصر في حي القنوات، ولآل العابد قصر في باب الجابية وما زال حتى الأن، ولآل الشمعة والمرادي والعجلاني وغيرهم قصور في حي العمارة. وأقام أغنياء دمشق وخاصتها قصورا في الصالحية للاستجمام، ويمكن تسقط أحوالها في شتات أخبارها الواردة في كتب التراجم واليوميات. فأورد المحبي والمرادي والبديري الحلاق أخبار تلك القصور مبثوثة في صفحات كتبهم، فكان منها قصر محمد أفندي فروخ أحد أمراء الحج الشامي، وكان يقع في طريق المرج الأخضر[4]. وقصر السيد

القاعات. ونلاحظ السقوف أشكالاً هندسية متنوعة ونافرة وهي آية من آيات الزينة وبها أكبر مجموعة من الأخشاب الثمينة والخشب الذي يكسو الحيطان به زخارف نباتية بألوان زاهية بها خيوط الذهب.
انظر: كيال، منير. المصدر السابق. ص ١٧٤ و ص ١٧٥.

(١) انظر: القساطلي، نعمان. المصدر السابق، ص ٩٦.
(٢) المرادي. سلك الدرر.. ج ٤، ص ١٠٢.
(٣) البديري، المصدر السابق، ص ١٦٨.
(٤) المرادي. سلك الدرر ج ٢، ص ٣٨ ثم: القاياتي، محمد، نفحة البشام في رحلة الشام، ص ١٣٧.

يوسف المالكي مفتي المالكية في الجسر الأبيض من الصالحية حيث صرف عليه مالا كثيراً[1]. وقصر أبي البقاء بن عبد الله الصفوري الأصل الدمشقي الصالحي في الصالحية، وكان من أحسن المتنزهات[2]. وقصر آل العمادي في الصالحية[3]. وقصور آل الصديقي وسعيد أفندي الاستانبولية وآل الترجمان وآل سنان في الصالحية[4]. وبنى أحمد جورجي بن أحمد آغا سمان زاده قصرين في الصالحية قدر ثمنهما في سنة ١٢١٢هـ/١٧٩٨ بـ ٣٩٠ قرش[5].

ونلاحظ تراجعاً في بناء القصور حتى دخول المصريين إلى دمشق في سنة ١٨٣١م/١٢٤٦ ـــ ١٢٤٧هـ، حيث فتحوا دمشق على المؤثرات والبضائع الغربية ووفروا الأمن فيها، وأعلنوا المساواة بين طوائفها ونتج عن ذلك أن دخل بعض الدمشقيين في علاقات تجارية مع الغرب وصرّفوا بضائعه فيها، فجنوا من خلال ذلك مرابح كبيرة. فأقاموا القصور في دمشق[6].

---

(١) المرادي. سلك الدرر. ج ٤، ص٢٢٤ وص٢٤٥ ترجمة يوسف المالكي.

(٢) المحبي، محمد. خلاصة الأثر... ج ١، ص١١٣

(٣) المبي، المصدر السابق. ج ١، ص٣٣٣.

(٤) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٥/ ١٢١٠ ـــ ١٢١١هـ، ١٦١.

(٥) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٣٨/١٢١١ ـــ ١٢١٢هـ، ص٤٥.

(٦) وأبرزها قصر متري شلهوب الذي بناه سنة ١٨٤٦م/١٢٦٢هـ وكلفة ٢٦ ألف ليرة، ثم قصر أنطون أفندي الشامي، وهو أجمل وأوسع من القصر الأول وبني في نفس العام وأنفق على بنائه ٣٠ ألف ليرة. ثم دار يوسف أفندي عنبر في حي المتكنة لم يكن له نظير في دمشق، كان بناؤه سنة ١٨٦٧م/١٢٨٣هـ. وأنفق عليه ٤٢ ألف ليرة، ثم دار شمعايا أفندي ودار الخواجة اسلامبولي ودار الخواجة لزبونا (جميعهم من اليهود) ولم تكلف الدار الواحدة أقل من ٢٠ ألف ليرة وأقيمت كلها في الحي اليهودي من دمشق سنة ١٨٦٥م/١٢٨١هـ مما يدل على ثراء هذه الأسر وشعورها بالأمن. ثم دار سعيد الطويل بجوار الأموي ثم دار مراد القوتلي بزقاق العواميد ثم دار حسن آغا البارودي ودار محمد سعيد باشا.
انظر: القساطلي. نعمان. المصدر السابق: ص٩٧.
وبقيت دمشق رغم ما جاءها من مؤثرات، محافظة على نمط بنائها الشرقي حتى مطلع القرن العشرين وعندما زارها محمد علي باشا سنة ١٣٢٨هـ (وهو أحد أعضاء الاسرة الخديوية في مصر) قال: (كم كنت جذلا ومسروراً من أن أهل الشام لا يزالون إلى اليوم محافظين على آثار أسلافهم وتاريخ عمائرهم إذ أن أكثرهم ما فتيء يسكن البيوت الضيقة ولا سبب لهذا فيما نعلم إلا أن العوائد الأوربية لم تتغلب عليهم ولم تنل منهم).
انظر: كتابه: الرحلة الشامية، ص ٨٢.

بيوت الريف في مقاطعات ولاية الشام

كانت بيوت الريف أكثر حفاظاً على أنماطها الموروثة، وحافظت على الفروق فيما بينها (من حيث هندستها والمواد المستخدمة في بنائها واتساعها وملحقاتها) بتأثير الاختلافات الطبيعية والمناخية والاجتماعية بين تلك المقاطعات. ونلاحظ تلك الفوارق ما بين الغوطة وجبال القلمون وحوران وجبال لبنان والبقاع وهكذا.

واختلفت بيوت العامة عن بيوت الامراء وشيوخ القرى والاقطاعيين. فامتازت بيوت الأخيرين عن بيوت الفلاحين من حيث فخامتها واتساعها وعدد غرفها. ودلت هذه البيوت على غنى أصحابها ونفوذهم ورغبتهم في إظهار أبهتها والمفاخرة بها مع الآخرين. فكنت ترى أحياناً أرض الديار لها بوابة خاصة فخمة واسعة يحيطها إطار حجري منحوت ومزدانة بالنقوش والزخارف، تعلوها قنطرة في وسطها بلاطة من رخام أو حجارة صلبة كالبازلت كما في حوران، وترى عليها أبياتاً من الشعر تنتهي بتاريخ تشييده، وعلى جانبها قد ترى رسم أسد رابض قيّد بجنزير. وعند أسفل عضادتيها مقعدان يجلس على كل منهما حارس لاستقبال أي زائر بما يليق بمقامه ويتناسب مع علاقته بصاحب البيت. وعندما تعبر البوابة إلى الداخل ترى درجاً يؤدي إلى السطح الذي بني عليه طابق علوي تنتقل اليه أسرة البيت. عندما يشتد الحر في الصيف غالباً. وبعد هذا الدرج ترى منزولا (مضافة) خاصة باستقبال الضيوف أو عابري السبيل، تليها غرفة القهوة واعداد الاطعمة للضيفان. ثم ترى غرفاً أخرى لاقامة الخدم والحرس وغيرهم من الأجراء والاتباع المعهود اليهم بمختلف المصالح والاعمال. ونسوق مثالا على ذلك ما أورده لحد خاطر عن بيت إقطاعي في جبل لبنان. كان مؤلفا من أجنحة ثلاثة أمامها قناطر وفسحة دار مفروشة ببلاط محلي حسن النحت تتوسط هذه الفسحة بركة ماء في وسطها فوارة يتعالى الماء منها صعدا وفي جنباتها مقاعد حجرية فرشت بالطراريح والمساند المحشوة قطناً، يجلس أهل البيت وزائروهم في بعض اللقاءات الخاصة، ولم يكن ذلك عاماً لدى جميع الاقطاعيين.

وكانت غرف بيت الاقطاعي فسيحة ارتكزت سقوفها على أعمدة وأقواس، أعدت للإيفاء بمختلف الأغراض. ففيها المطبخ لاعداد الطعام وبيت المؤونة لخزنها، وزرائب للجياد والماشية من الغنم والماعز، ومستودع للعلف والحطب، وغير ذلك من مستلزمات المعيشة. وكانت غرفه مبيضة بالكلس، وأبوابها مثبتة ومتقنة ومدهونة بألوان زاهية وبعضها غير مدهون.

ومن الاقطاعيين في لبنان من كانوا يمهدون أمام دورهم الميادين ليزاولوا ألعاب الفروسية والحركات الحربية، وهو على ظهور الجياد يكرون ويفرون يهجمون ويواقعون بخفة ورشاقة تعجب المشاهدين. وفي بعض المناسبات، غير العادية، كانوا يستخدمون هذه الميادين لاستقبال الجماهير المتوافدة اليهم في الأفراح والمآتم، أو لعقد الاجتماعات العامة لبحث ما يطرأ عليهم من أحداث خطيرة وشؤون هامة، كالنهوض إلى ثورة أو حرب أو جباية ضريبة فرضتها الدولة.

وكان بعض الاقطاعيين يحيطون دورهم بحدائق يزرعونها بأنواع الأشجار المثمرة أو الحراجية أو بالخضار أو الأزاهير، ويتخذونها في بعض الأوقات متنزهاً لهم لتخفيف الهموم[1].

ونلاحظ أن معظم إقطاعي دمشق، وحتى أساتذة القرى، قد سكنوا في المدينة ولم يسكنوا في الريف، ويعود ذلك إلى أن بعض الأقطاعيين في دمشق كانوا (غرباء) عنها، ولم تكن له الزعامة العشائرية الكبيرة كما في جبل لبنان. لهذا فضلوا السكن في دمشق وزاروا تلك الاقطاعات القريبة بين الحين والآخر، أو أوكلوا أمر إدارتها إلى بعض من يثقون بهم.

أما بيوت الفلاحين فلم تختلف في هندستها عما ورثوه عن الآباء والاجداد في هذا المجال. وجل ما نلاحظه من تغيير، في هذه الفترة التي جفاها الاستقرار والامن، أن روعي التصاق جدران البيوت ووضع قلد البيتين المتجاورين على جدار مشترك، وفتحت في الجدران الداخلية طاقات لاتصال الأسر عند الخطر. وبني بيت المؤونة داخل البيت يدخل اليه منه. وكذلك وضعت المواشي داخل البيت أحياناً خوفاً عليها من اللصوص والسطو. ونتيجة لالتصاق الاسطحة كنت تستطيع في بعض القرى أن تسير من سطح أول بيت في الحارة إلى آخر سطح فيها دون أن تطأ قدماك أرض الزاروب (الزقاق)، كما اندفعت الأبنية إلى الزواريب فضاقت وازدادت تكسراً عما كانت عليه في السابق.

وقام الأباء عندما ضاقت بيوتهم عن استيعاب أبنائهم وأحفادهم، ببناء بيوت مجاورة أو ملاصقة لبيت الاسرة. واستقرت الاسر الكبيرة بكاملها في حارة واحدة من القرية، وأسبغت اسمها على تلك الحارة. كل ذلك ساعد الفلاحين على الدفاع عن أنفسهم عند إحداق الخطر، وبقيت الاسرة الفلاحية متماسكة إلى أعلى درجات التماسك.

(١) انظر: التقاليد اللبنانية. ج ٢، ص١٢٢ و ص١٢٣.

أما فيما يتعلق بمواد البناء المستخدمة في إنشاء بيوت الفلاحين، فقد اختلفت من قرية إلى أخرى، وذلك بحسب المتوفر منها في تلك القرى. فكان منها حجر الغشيم أو الحجر الأبيض الصلب كما في القلمون، أو الحجارة البازلتية في حوران والجولان، أو اللبن أو الدك في الغوطة والبقاع: وكانت ترفع سقوف البيوت المتسعة على ركائز تكون على شكل أقواس حجرية أوعلى شكل أعمدة حجرية أو خشبية (الساموك)، وتستلقي فوق الساموك أو السواميك بخشبة قوية وطويلة تصل مابين الجدار والجدار المقابل (البغلة) وترتكز فوقها أخشاب كثيرة بمسافات معينة وبشكل متصالب معها وتسمى (القلد)، وتأتي فوقه فروع الأشجار أو القصب أو الخشب مرصوفة إلى جانب بعضها بشكل منسق أو بشكل فوضوي. وتأتي فوقها أعشاب قوية لتحجز ما يلقى فوقها من التراب وغيره. ويكون هذا النبات من (البلان أو الدلفان أو الحصى) ثم يضيفون فوقها طبقة واحدة متساوية من الطين تسمى (البلة)، وأخيراً يختم السطح بطبقة من الحوار ممتزجة بحصى رفيعة ترص بالمدحلة جراً أو بالناعوص أو الماعوص وبتكرار الدحل يتماسك السطح ويتجمد.

أما جدران البيوت الخارجية فيكثف تطيينها لتقي من بداخلها من الرطوبة والحرارة وتطين جدرانها الداخلية باتقان. واستخدمت في ذلك طرق متباينة اختلفت باختلاف ريف دمشق، فاستخدم في غوطة دمشق قشر القنب والكلس في حين استخدمت في حوران التربة الحمراء والتبن والحوار وهكذا.

ولقد روعي امتداد السقف إلى خارج الحائط بمقدار معين لمنع جريان مياه الأمطار على الجدران الخارجية. وأطلق على هذه الزوائد اسم (سفارات أو ظفارات)[1].

واهتمت مناطق البقاع والقلمون وحوران والغوطة وحتى مدينة دمشق بهذه السفارات ويلاحظ ذلك فيما تبقى من بيوت الشاغور الجواني والجورة ومأذنة الشحم وسوق صاروجا وغيرها من أحياء دمشق القديمة.

وأكثر ما يسترعي انتباهنا في هذه الفترة سكن بعض فلاحي حوران، حيث قام هؤلاء باستخدام البيوت القديمة في مناطقهم والمبنية من قرون عديدة يعود بعضها إلى عهود سبقت

(١) انظر: خاطر، لحد. المرجع السابق. ج ٢، ص١٢٤.

الاسلام وكانت سقوفها مبنية بصفائح (ألواح) من الحجارة البازلتية الصلبة وضعت فوق بعضها بطريقة فنية محكمة بحيث لا تسمح بدخول الماء إلى الداخل كما في بصرى وازرع ومحجة وجاسم وغيرها من (قرى حوران)، وبنيت جدرانها من حجارة البازلت الضخمة فحالت دون اقتحامها من الخصوم وامتنعت على اللصوص والبدو، في وقت غابت فيه السلطة العثمانية عن جنوب بلاد الشام تقريباً. أما أبواب البيوت الخارجية فكانت كبيرة تسمح بدخول الجمال محملة إلى ساحة الدار، وكانت أبواب المربعات أو الغرف الداخلية ضيقة يصعب اقتحامها.

ولقد استرعت بيوت حوران الآنفة الذكر انتباه الرحالة الأجانب الذين زاروها في هذه الفترة وقام أحدهم بوصفها بالقول: (يرتكز السقف على قوس حجري بعرض م ٢ـــ ٣ أقدام في الوسط وعلى الجدران الأربعة للبيت. وكان السقف مكوناً من حجارة هي عبارة عن ألواح حجرية بعرض قدم وبسماكة خمس بوصات وبطول نصف الغرفة (أي من الجدار إلى ظهر القوس) ونهاية الألواح الحجرية تستقر على الحجارة الأخرى جانبياً بحيث تتشابك هذه الحجارة مع بعضها بشكل قوي. وكانت بعض السقوف مكونة من طبقتين من هذه الحجارة بدلاً من طبقة واحدة، الأولى منهما بعد (القوس) حيث نرى فراغاً ما بين كل لوح حجري وآخر، أما الثانية فلها بُعدٌ مماثل وكانت تستلقي قريبة من بعضها على زوايا ألواح الحجارة في الطبقة الأولى. وكان ارتفاع سقف الغرف عن الأرض يتراوح ما بين ٩ ـــ ١٠ أقدام. أما الشبابيك والنوافذ فيها فكانت نادرة، وإذا ماوجدت فكانت صغيرة وفوق أسكفة الباب، ووجدت في بعض القرى غرفتان أو ثلاث غرف ذات أقواس واحدة فوق الأخرى على كل غريب لا تراه إلا في القرى والأماكن ذات الطابع الأثري في حوران[1].

وروعي في بناء البيوت في منطقة القلمون ولبنان انسجامها مع طبيعة المناخ الذي يختلف قليلاً عما هو في حوران وغوطة دمشق. فبالاضافة إلى استخدام الأقواس والاعمدة في حمل السقف، استخدموا جذوع الأشجار الضخمة التي كانت تنبت في تلك الأقاليم، كالقطلب والسنديان، ووضعوا للأسطحة مزاريب لتصريف مياه الأمطار، وجعلوا الأسطحة مائلة قليلاً لتسهل مسرى المياه. وصنعوا المزاريب من جذوع التوت المجوفة، وكان الفلاحون

1 - See: Burckhardt. J.L. op.cit.57.58.

يتعاونون لجرف الثلوج عن سطوح بيوتهم، وأدخلوا تصميماً هندسياً مناسباً للتخفيف من تأثير الثلوج والرياح الشديدة في الشتاء، فأقاموا (الكلين) وهو عبارة عن حائط مزدوج لمقاومة الرياح الجنوبية الغربية الشديدة التي كانت تسمى (بالشرد). أما الجداران الباقيان وهما من جهة الشمال والشرق (المسقط) فكانا مفردين. وهذه التصاميم اكتسبت بالخبرة وورثها الأبناء عن الآباء.

وكانت أبواب البيوت من درفة واحدة صنعت من خشب محلي، ضمت ألواحه إلى بعضها البعض بخوابير خشبية، وله من الوراء نتوءان أو سباران الواحد من أعلاه والثاني من أسفله. يدور بهما في نقبين متوازيين عند فتحه وغلقه. ومن الجهة المعاكسة وعلى مرمى اليد قفل خشبي يسمى (سكرة) مكون من خشبتين مجوفتين، أولاهما عمودية فيها مسامير تتحرك هبوطاً وارتفاعاً تسمى (سواقيط) والثانية معترضة متحركة فيها أربعة ثقوب تدخل فيها تلك السواقيط بمفتاحها الخشبي عندما يراد قفلها، وترفع به إلى فوق عندما يراد فتحها. وبالاضافة إلى السكرة هناك أيضاً قفل آخر يدعى (النجر) وهو عبارة عن خشبة غالباً ما تكون مربعة على اجانب من الثخانة وفي صدرها حلقة من حديد توضع وراء الباب في ما يقابل السكرة فإذا نامت الاسرة ليلا أقفلته بجرها إلى الأمام، وإذا ما استيقظت صباحاً فتحته باعادتها إلى حيث كانت.

وأول الولوج إلى البيت يرى ما يسمى بالمجازة، وهي عبارة عن حفرة من الأرض عمقها بين ١٠ ــ ١٥ سنتمترا وبعرض متر وبطول مترين تقريبا وبعضها ترابية وبعضها الآخر مبلطة مع إفريزها بحجر ناعم، فيخلع الداخل نعله حسب العادة، ويلج البيت حافيا حفاظاً على نظافته مما يحمل من الوحول شتاء ومن الغبار أو التراب صيفاً.

وفيما يلي الباب إلى أحدى الجهتين، ترى موضعاً من الخشب لجرتين ودويك وابريق يملأ ماء للشرب، ويسدون فوهته بكتلة من القماش حفظاً لمائه مما يستكره. وفي بيوت اللاذقية كنت ترى في إحدى الزوايا القصية من البيت، أي بعيداً عما تجلس الأسرة أو تنام، جرنا خاصاً صنع في جدار البيت بارتفاع متر تقريباً، لوضع وعاء الفخار (دبليز أو جرة) مملوء بماء الشرب، وتحته من أرضية البيت مجازة نافذة إلى الخارج تفضي بفضلات الماء إلى الطاروق فالزاروب.

أما فيما يتعلق بدواجن الفلاح فكان يتم مبيتها على عرزال مقام في إحدى زوايا البيت خوفاً من سرقتها أو السطو عليها ، أو في قن ملاصق لجدار البيت من الخارج له فتحة محكمة الإغلاق خوفاً من تسرب الثعالب إلى داخله وافتراس ما به من الدجاج وكانت الدجاجات تبيض القن أو في كوات غير نافذة في الجدار الداخلي للبيت ، صممت خصيصاً لذلك . وتركت فتحة صغيرة في باب البيت لولوج الدجاجات اليه .

أما مواشي الفلاح فوضعت أيضاً في غرف مجاورة لبيته أو داخل البيت في احدى زواياه تحت العرزال الذي يضع فوقه ميبساته من المؤونة وحاجاته الاخرى كالبصل اليابس والمكانس والخفيف والقرع وغيرها .

وكنت ترى أيضاً رفوفاً من الخشب مثبتة على الجدران على ارتفاع قامة الانسان لتصف عليها الأواني المنزلية كالقدور والمقلايات والطناجر والصحون والملاعق ، أو لوضع أدواته التي يحتاجها في حياته اليومية كالبلطة والقدوم والمنشار والحالوش والأمراس وغيرها[1] .

ويقتطع الفلاح جزءا من البيت في جهته الخلفية بجدارين مزدوجين متقابلين قدامهما مشبكات من الطراريح وقصب البزاز مطينا بالدلفان ومطروشا بالحوار على نحو غيرهما من الجدران ، وفي وسطهما باب يصل بين داخل القطع وخارجه ، وإلى يمين الواقف أمام الباب « يوك » تحفظ فيه الفرشات نهاراً ، وله ستر أنيط في أعلاه إلى قضيب من حديد بزردات معدنية وازدان أسفله بأنواع من المخرمات والتناتف ، وفي داخل هذا القطع أرض تقام عليها دواير مربعة .

لتخزن فيها أنواع الحبوب والدقيق ، ولكل كوارة منفذ في أعلاه تفرغ فيه المستودعات للحفظ وفي أسفلها ثقب يدعى « جيّازة » له سدادة من أقمشة عتيقة تفتح كلما مست الحاجة إلى استخراج شيء من تلك المستودعات .

أما ماوراء القطع فيدعى المخزن ، وأخص ما يخزن فيه أصناف المؤنة بأنواعها ، والامتعة كالصدور والدسوت والألكان والاسكملات والصوج والاطباق والجوارش وأجران الكبة

---

(١) انظر : خاطر ، لحد . المرجع السابق . ج ٢ . ص١٢٧ و ص١٢٨ .

والمدقات والصناديق القديمة المزدانة بالنقوش وصواني القش المصنوعة من قش القمح أو الشعير وغيرها[1].

أما مفروشات البيت فكانت من الحصر والبلس وجلود الأغنام واللباد. وكان أغنياء الفلاحين يزيدون على ذلك البسط والسجاد والطراريح والمساند، والبعض يستخدم توطايات (طراحات) وأنطاع.

واستخدم الفلاحون في تدفئتهم طرقا مختلفة، فمنهم من حفر (نقرة) في وسط البيت، وفوق النقرة (الروزنة) لابتلاع الدخان، ومنهم من استخدم الأثفية تحت الأوجاق، أو أشعل الفحم في الكانون. واستخدم الفلاحون طرقاً ووسائل مختلفة للإضاءة ليلًا، ففقراؤهم استخدموا شظايا جذوع اللقش تنحت من جهة واحدة وتشك في ثقوب الجدار المجاور للجهة التي يسهرون فيها ويشعلونها حتى إذا احترقت كلها استبدلوها بغيرها. وكان البعض الأخر يستخدم شظايا جذوع الصنوبر كمناطق جبال اللاذقية حيث توفر مثل هذا النوع من الأشجار في غاباتها. واستخدم بعضهم أسرجة من فخار تدعى (صفيدات) ملأوها بزيت الزيتون ووضعوا فيها ذبالة من قماش مفتول يشعلونها بنار الموقدة أو بعود ثقاب، ويضعونها على رفراف في الجدار أو العمود، أو على مسرجة من خشب تنقل إلى حيث تدعو الحاجة[2]. ولقد استخدم فقراء دمشق والغوطة زيت بذور المشمش وهو ما كان يسمى بـ (زيت المر) في الإنارة لرخص أسعاره إذا ما قورن بزيت الزيتون. وفي حوران استخدم زيت بذور لخروع. أما الأغنياء فكانوا يستعملون الشموع التي تنصب في شماعدين من نحاس أو فضة وتوضع على مائدة من خشب يلائم مكانها مقاعد الجالسين وما حولهم، وكان خارج البيت الريفي في الغالب، عبارة عن فسحة دار معرضة للشمس والهواء الطلق، وفي صدرها مصطبة مرتفعة عن الأرض نحوا من نصف ذراع، تطين أرضها بالدلفان وترفع فوقها خيمة من أغصان الشجر، ان لم يكن هناك عريشة متشابكة الأغصان أو شجرة تظلها من عهد

---

(١) انظر: خاطر، لحد. المرجع السابق. ج ٢، ص١٢٨.

(٢) انظر: خاطر، لحد. المرجع السابق. ج ٢، ص١٣٠. ثم: القاسمي، المصدر السابق. ج ٤ ص٢٥٦ و ص ٣٤٣. ثم انظر: Porter.J.L. op.cit. VOL.P.37

ثم ابن كنان. المواكب الاسلامية في الممالك والمحاسن الشامية. تحقيق حكمت اسماعيل ص٤٢. جامعة دمشق سنة ١٩٨٢م.

طويل، وتمد عليها الحصر والطراريح والمساند ليجلس عليها أهل المنزل كلما شاؤوا الراحة من أتعابهم اليومية، ولا سيما في القيلولات والسهرات مع من يزورهم من الجيران والأقرباء والاصدقاء. ثم يقيم الفلاح صيرة أو زريبة لماشيته (من بقر أو غنم أو ماعز) وما يكون عنده من بغل أو حمار أو حصان يستخدمها في النقل والحمل، تكون هذه الصيرة في الجانب الأبعد من البيت مكونة من أربعة جدران مزودة بباب ومعالف وفوقها خيمة من السواميك وأوراق الشجر، وإلى جانبها مزبلة يجمع فيها الروث ويصنع قسماً منه أطباقاً للقز، والقسم الآخر ينقله لتسميد مزروعاته أو يستخدمه وقوداً بعد تجفيفه. وينصب عرزالا بجانب الصيرة لحراسة ماشيته من الحيوانات المفترسة واللصوص إن لم يتوفر له المكان داخل البيت نظراً لكثرتها.

وكان الفلاح يخص داره بحاكورة من أجل زرعها بالخضراوات والأشجار المثمرة، وكان الفائض من نتاجها يوزع على الأصدقاء والأقرباء مجاناً [1].

حرمة البيوت وقدسيتها

أخذ البيت قدسيته من حرمة الاسرة التي قدستها جميع الطوائف والمذاهب، سواء في دمشق أو ريفها، لان بين جنباته عرض الانسان وهو أعز ما يملكه كشرقي. والملاحظ في هذه الفترة أنه لم تراع هذه الحرمة بل اعتدي عليها أكثر من مرة رغم استهجان المجتمع الدمشقي لذلك، خاصة ابان الصراعات بين الأطراف المتناحرة، كما استباحها رجال السلطة وجنودها [2].

والشواهد على ذلك عديدة فكثيراً ما هاجم الجنود البيوت ودخلوها عنوة واستباحوها واعتدوا على أعراض النساء فيها [3] وكتبُ إخباريي تلك الفترة مليئة بمثل هذه الحوادث، ففي عهد أسعد باشا العظم وفي سنة ١١٦٠هـ/١٧٤٨م قامت قواته بمهاجمة قوات البرلية في الميدان «فلم يبق فيه مكان إلا ودخلوه وإذن لهم المتسلم بالنهب والسلب من السويقة إلى آخر الميدان فنهبوا: وقتلوا وهدموا. فسلبوا الأموال وقتلوا الرجال وسبوا الحريم وفضحوا

(١) انظر: خاطر، لحد. المصدر السابق. ج ٢، ص١٣٢.
(٢) انظر: العبد، حسن آغا، تاريخه. ص٧٧ و ص٩١.
(٣) انظر: البديري. حوادث دمشق...، ص٧٠ أحداث سنة ١١٥٩ هـ ثم ص٨٧.

نساءهم»[1] وفي نفس العام قامت قوات أسعد باشا العظم بمهاجمة قرى لبنان (فانتهكوا أعراض النساء فيها)[2] وعندما عزل أسعد باشا العظم وحل محله حسين باشا مكي وهوجمت قافلة الحج اضطرت الدولة لعزله وتعيين عبد الله باشا الجته جي فأعد العدة لمهاجمة معقل اليرلية في الميدان في سنة ١١٧١هـ/١٧٥٧م فاضطرت النساء وبعض الرجال لمغادرة حي الميدان قبل أن تقع الكارثة وتهاجمه قوات الوالي، إدراكاً منهم أن النساء لسن بمأمن من اعتداء الجنود. وعندما زحفت قواته على الميدان «لم يتركوا كبيراً ولا صغيراً إلا قتيلاً أو أسيراً ولم يتركوا بيتاً ولا دكاناً ولا امرأة ولا طفل الا استعملوا النهب والسبي وهتك الأعراض من سلب النساء وسلب البنات الأبكار»[3] ولقد اعتبرت عملية الاعتداء على البيوت والنساء أشد أنواع الانتقام الذي يمارس ضد الخصم آنئذ نظراً لما للأعراض من أهمية بالغة، فهي شرف الانسان وكرامته.

على أن الأعتداء على البيوت وأعراض النساء لم يجر فقط عند الصدامات بين الأطراف المتناحرة في دمشق، بل قام الجنود الغرباء دونما سبب بمهاجمة بعض النساء واغتصابهن. ففي سنة ١٢١٤هـ/١٨٠٠م قام العساكر (بكبس البيوت ينزلوا على حريم الناس)[4] وعندما تزايد عدد الجنود الغرباء في دمشق من المرسلين للتصدي لنابليون بونابرت في مصر، قام هؤلاء في ١٢١٦/هـ١٨٠٢م بالبحث عن أي مأوى لهم في بيوت دمشق، ولم يراعوا حرمة هذه البيوت «فالدار الذي يجدوا فيها ياخر ينزلوا يربطوا خيلهم طيب غصب»[5].

وعندما انسحبت تلك القوات من دمشق وعاد الصدام بين فئات الجند، عاودوا عادتهم في اقتحام البيوت والاعتداء على النساء ففي سنة ١٢١٧هـ/١٨٠٢ــ١٨٠٣م «اشتغل الشربين العسكر وبين أولاد العمارة وصار من الدالاتية قتل ونهب وسلب وسبي حريم»[6] ويذكر العبد في أحداث ١٢١٨هـ/١٨٠٣ــ١٨٠٤ أن والي دمشق الكنج

---

(١) انظر: البديري. حوادث دمشق...، ص١١٩.
(٢) انظر: البديري. حوادث دمشق...، ص٩٩.
(٣) انظر: البديري، حوادث دمشق...، ص٢١٤ و ص٢١٥.
(٤) انظر: العبد، حسن آغا، تاريخه، ص٦٢.
(٥) انظر: العبد، حسن آغا، تاريخه، ص٦٩.
(٦) انظر: العبد، حسن آغا، تاريخه، ص٧٧.

يوسف باشا «عمل ركبة بعساكره إلى **نحو طرابلس فقام هؤلاء** بنهب القرى[1]» . وفي سنة ١٢١٩ هـ/ ١٨٠٤ ــ ١٨٠٥ م قام جنود والي دمشق أحمد باشا الجزار باحتلال (بيت ترجمان المحكمة وطالعوا حريمه وباعوا جميع ما في البيت)[2] . والأمثلة على ذلك كثيرة، ويصعب حصرها في هذا المجال . فالبيوت لم تصن حرمتها ولم تحمها القوانين، واستطاع الأقوياء أن يتحدوا ذلك . وكانت السلطة من الضعف بحيث لم تستطع أن توفر الحماية لتلك البيوت، أو أن رجالها هم أنفسهم الذين قاموا بذلك في حالات الصدام مع الأطراف الأخرى التي ناصبتهم العداء، فانتقموا منها باقتحام بيوتها وهتك أعراضها .

حياة الأسرة الدمشقية ونشاطها داخل البيت

إن معلوماتنا عن معيشة الاسرة الدمشقية داخل بيتها في هذه الفترة ناقصة إلى حد ما . فقد أغفلت معظم المصادر حياة أسر العامة، وانصب اهتمامها على تصوير بعض الجوانب من حياة أسر الخاصة . لهذا جاءت معلوماتنا مبتسرة، ويعود ذلك إلى أن من اهتم بتصوير هذا الجانب من الحياة الاجتماعية في دمشق كان من الرحالة الأوربيين، أو العرب أو المسلمين، الذين زاروا دمشق لفترة من الزمن . وإذا ما علمنا أن بعض أسر الخاصة هي التي استضافت مثل هؤلاء داخل بيوتها، وتم ذلك في جناح السلاملك دون بقية الأجنحة، لذلك فإن أحداً من الرحالة لم يستطع وصف حياة الاسرة كاملة . ناهيك عن نظرة الحذر والريبة في الرحالة الأوروبيين في وقت ساد التعصب وهيمن على عقل وقلوب الناس . وشذ عن هذه القاعدة استقبال بعض الأسر المسيحية واليهودية لبعض الرحالة . وكتب هؤلاء عن مشاهداتهم . وقام رحالة من العرب والمسلمين الذين زاروا دمشق، بوصف عملية استضافتهم في بيوت أسر الخاصة في دمشق . ولعب الاحتجاب دوراً في عدم الالمام بطبيعة الحياة داخل البيت كله . ورغم هذه العقبات فقد سعينا لتتبع نثار هذه المعلومات من بطون الكتب المختلفة سعياً منا لرسم صورة مقبولة عن حياة أسر الخاصة والعامة، في المدينة والريف . لهذا رصدنا نشاطاتها الحياتية المختلفة داخل البيت، كالنوم والاستيقاظ واستقبال الضيوف من الجنسين، ونشاط أفراد الأسرة داخل البيت وخارجه، ووجبات طعامها وحجاب النساء،

(١) انظر : العبد، حسن آغا، تاريخه، ص٨٧ .

(٢) انظر : العبد، حسن آغا . تاريخه، ص١٠٧ .

وعلاقة أفراد الأسرة بعضهم ببعض، وتسليتهم وغير ذلك من الأمور الحياتية اليومية في تلك الفترة، والمؤثرات العثمانية على ذلك.

ففيما يتعلق بالاستيقاظ كان يختلف ما بين أسر العامة والخاصة. فالفقراء كانوا يستيقظون باكراً بحثاً عن الرزق في حين كان المترفون يستيقظون مع شروق الشمس أو بعده بقليل، فيحتسون القهوة ويدخنون الغليون، وبعد ساعة من ذلك يتناولون وجبة الافطار، وغالباً ما تكون من «الخبز والعسل والدبس أو الفواكه واللبن والجبن أو البيض والكعك المجبول بالزبدة»[1]، وغيرها كل حسب اقتداره المادي. وبعد تناول وجبة الافطار يسعون إلى أعمالهم ولا يعودون إلى الفراش خلال النهار، إلا قلة منهم، وهؤلاء يستلقون على الفراش لمدة ساعة في جناح الحرملك بعد تناول وجبة الغذاء. ولا يعودون مرة أخرى إلى فراشهم إلا بعد ٣ ــ ٤ ساعات بعد ذلك. وكان الحرفيون والتجار يتناولون وجبات غذائهم في دكاكينهم ومحارفهم، أو في غرفهم الخاصة من الخانات التجارية. ويجلبون وجبة الغذاء من بيوتهم أو يشترونها من السوق كالخبز والجبنة والفاكهة أو اللحم المشوي (الكباب). وكانت وجبة العشاء في اليوم هي الوجبة الرئيسة، يتناولونها ما بين الساعة الخامسة والسادسة مساءاً، وبعدها قد يذهب البعض إلى أحد بيوت القهوة للتسلية، ويبقون هناك إلى صلاة العشاء، ثم يأوون إلى بيوتهم، أو يقومون بزيارة الأقرباء والأصدقاء ونادراً ما يرى أحدهم خارج بيته بعد العاشرة مساءاً.

وكان التنقل خارج البيت يتم سيراً على الاقدام أو ركوباً على الحمير لارتياد الاماكن القريبة، وكانت الخاصة تستخدم العربات أو الخيول، وقد يرافق الواحد منهم اثنان إلى أربعة من الخدم والعبيد سيراً إلى جانبه لحمايته والسهر على راحته. ويورد لنا البديري الحلاق مثالا على ذلك في أحداث عام ١١٥٩ هـ/ ١٧٤٦ ــ ١٧٤٧ م أن القاضي كان يمتطي ظهر الحصان عند التنقل من مكان لأخر وأمامه رجاله وأعوانه[2].

ولقد اهتم هؤلاء بتلك المظاهر لما لها من أهمية لدى الناس آنئذ، فزينوا سروج الخيول (ورخوتها) واستطالت دلايات السروج الموشاة والمطرزة إلى الأرض. وكتبوا بعض العبارات

---

1 - See: Russell. op.cit. VOL. PP.166-167.

(٢) انظر: البديري، حوادث دمشق، ص٥٦ و ص٥٧.

على البردعة إضافة إلى اسرافهم في تزيينها ، حتى غدت كتلة من الفضة أو كادت . ووضعوا السيف على الجانب الايسر من الحصان ، واهتموا بتنزيل حروف الآيات القرآنية من المعادن الثمينة على نصال السيوف (كالذهب وغيره) ، ووضعوا الدبوس من الجانب الايمن لجسم الحصان ، حتى بدأ رأسه مثقلا بالفضة أو الذهب .

وكان الرجل عند عودته إلى البيت يترجل عند الباب الخارجي ليأخذ حصانه أحد خدمه ، ويسير إلى باب الجناح فينزع حذاءه عند العتبة ، فيتناوله منه خادم آخر ويقدم بديلا عنه بابوجا خاصا ملفوفاً بقطعة قماشية ليلبسه فوق الشخشور ، وينتقل به إلى الداخل ، وكانت العادة أن يخلع المرء حذاءه عند عتبة باب القاعة أو المربع ويسير حافياً أو بالشخشور إلى الداخل .

ومن جهة أخرى لم تظهر النساء في الشوارع بعد غياب الشمس ، وكن يمتنعن عن التجول عندما يختل حبل الأمن لسبب ما ، أو عندما يتدفق إلى دمشق الجنود الغرباء خوفاً من الاعتداء عليهن . وكانت سلطات دمشق ، في مثل هذه الحالات ، ترسل مناديا في الشوارع والأسواق لتنبيه النساء بعدم الخروج ، كما حصل في سنة ١٢١٣ هـ/١٧٩٨ ــ ١٧٩٩ م حيث دخل إلى دمشق آلاف الجنود العثمانيين في طريقهم إلى فلسطين لمواجهة قوات نابليون « فنادى حاكم الوقت على النسوان أن لا تطلع من بيوتها لأجل الفساد من كثرة الخلق والغربية هلي في الشام »(٢) .

وكانت المرأة إذا ما رغبت في زيارة الأخريات ، تقوم بذلك في ضوء النهار ، على أن تعود إلى بيتها قبل غروب الشمس ، وإذا ما شعرت بأنها ستتأخر في العودة إلى بيتها بعد ذلك ، تبات عند مضيفتها إلى اليوم التالي . ويقوم رجال الأسرة المضيفة في مثل هذه الحالة باخلاء غرفة الضيوف أو الحرملك ليناموا في غرفة أخرى أو في السلاملك .

أما الفرشات فكانت محشوة بالصوف ، وتمد على أرضية الغرفة قبل النوم ، وترفع بعد الاستيقاظ لتوضع في (اليوك) المخصص لها . ولقد تعددت « اليوكات » في البيوت الكبيرة حتى وصلت إلى عشر يوكات في بعض الأحيان .

1 - See: Russell .op.cit. VOL.1.PP.173-177.

(٢) انظر : العبد ، حسن آغا . تاريخه . ص ٥٢ .

ولقد اختلفت عادة الايواء إلى الفراش بين فئة وآخرى . وكانت العادة أن يخفف المرء من ثيابه قبل النوم . فيبقي على الصدرية والسراويل والتربان أو (العرقية) على الرأس ، في حين كان البعض الأخر ينام بكامل ثيابه ، كأبناء العامة والفلاحين .

ومن كان مغرماً بالتدخين يشعل غليونه (الجوبوق) وهو مستلقٍ على فراشه يعب من أنفاسه حتى يدب النعاس في أجفانه ، فيلقي بالغليون إلى جانب فراشه ليذهب في سبات عميق . فتقوم الزوجة أو الجارية بتغطيته باللحاف وتبعد الغليون عن الفراش . وإذا جفى الكرى أجفانه يلجأ إلى زوجته أو إحدى جواريه لتسليته سواء بالأحاديث ، أو بالعزف على إحدى الآلات التي تجيدها أو بالغناء ، ويتناول خلال ذلك جرعات من القهوة وأنفاساً من التبغ[1] .

ونظراً لاختلاف درجات الحرارة بين الليل والنهار والصيف والشتاء ، اتبع الدمشقيون سبلاً لاتقاء البرد ولافح الحرارة . فناموا في الشتاء في الغرف المعزولة والواطئة من البيت ، واستخدموا النار للتدفئة في الكوانين والطباخات . وكان الوقود الرئيس المستخدم في ذلك ، الفحم الخشبي ، مما تسبب في بعض الأحيان بحوادث الاختناق . أما في حلب فكانت حرارة الصيف شديدة مما اضطر السكان فيها للنوم على أسطحة المنازل أو في خيام نصبوها في ساحات البيوت خاصة لهذا الغرض ، أو ناموا في الايوانات[2] ، ومصادر تاريخ دمشق التي بين أيدينا لا تذكر أن مثل ذلك كان يحصل لسكان دمشق رغم أن مناخ دمشق مشابه لمناخ حلب . وربما لعبت نوافير المياه المتدفقة في بحرات البيوت دوراً في تلطيف الجو صيفاً . واستخدم الدمشقيون الغرف العلوية والقصور من بيوتهم ، وكذلك القصور التي بنيت في الصالحية وغيرها للاصطياف لهذه الغاية . فقد بني عدد كبير منها على ضفاف الانهار والجداول وبين الأرياض .

وأشرف على راحة الخاصة في بيوتهم الخدم والجواري والاماء والعبيد ولقد أوكل أمر الخدمة للخصيان في جناح الحرملك . وكلف الخدم بمهام عديدة كأعمال النظافة المختلفة ونقل الأخبار والرسائل ، وجلب مواد الطعام والطبخ من الأسواق واعدادها . وكان ذلك يتم بايعاز واشراف «الخانم» رئيسة البيت أو تحت اشراف من ينوب منابها . ويقومون بتوزيع

---

1 -. See: Russell. op.cit. VOL.I.PP.144.145.176.

2 - Ibid VOL.I.P.146.

الطعام على الغرف والمخادع والمربعات بحسب توزع أفراد الاسرة الكبيرة وضيوفها. وفي حال تعدد الزوجات عند رب الاسرة يخصص جارية لكل واحدة منهن. وقد تهدى العروس جارية من أهلها عند زفافها لعريسها.

وكان الرجال يتناولون في الغالب طعامهم منفصلين عن النساء والاطفال في حين كان العامة يتناولون وجبات الطعام مع أسرهم[1].

وكانت العادة أن توضع أطباق الطعام على قماش دائري، يبسط في وسط القاعة فوق السجاد أو البسط، أو توضع الاطباق فوق صدر من النحاس[2]، أو فوق طاولة قصيرة القوائم بارتفاع ١٥ بوصة من الأرض يطلق عليها (اسكملة). وتكون الأطباق (الصحون) من الصيني أو الفضة لدى الأغنياء أو النحاس المطلي بالقصدير وهي الغالبة، لدى العامة. وتحتوي الأطباق على أصناف متنوعة من الطعام كالبقول والسلطات ولحم (الرستو) واللبن والكعك الأبيض والخبز. أما الملاعق فكانت مصنوعة من الخشب (الخاشوقة) وهي مكورة كترس السلحفاة الأجوف. ولم يستخدموا الشوك والسكاكين في تناول الطعام كما في الغرب.

وتعددت أصناف الاباريق التي ملئت بالماء ووضعت إلى جانب المائدة. فكانت لدى الاغنياء والخاصة مصنوعة من الفضة في حين كانت لدى العامة من النحاس أو الفخار. وقامت الاسرة بتحضير (طست) إلى جانب المائدة لغسل الأيدي إذا ما استضافها أحد.

وكانت العادة، قبل التحلق حول المائدة لتناول الطعام، القيام بنزع بعض الثياب الخارجية ذات الأكمام العريضة التي تعيقهم عند تناول الطعام مثل (الفروة والعباءة). وكانوا يجلسون جاثين على ركبهم وكواحلهم أو يجلسون فوق فرشات ومخدات توضع حول المائدة لهذا الغرض.

وتأتي صحاف الأكل مغطاة في بعض الأحيان، وتباعاً، إلى المائدة، وقد تصل في بعض الولائم ولدى الاغنياء إلى ٣٠ طبقاً. وغالباً ما يكون الصحن الأول من الحساء

(١) انظر الداغستاني، كاظم. البيت الشامي الكبير، ص ١١٤.

(٢) يذكر عبد الرحمن سامي بك. أن الصدر كان مصنوعاً من النحاس الأصفر غالباً وقطره ١٫٥ متراً يوضع على كرسي (قاعدة) يرتفع عن الأرض بمقدار نصف ذراع وتوضع عليه صحاف الطعام وقد تستخدم الأسرة صدراً آخر إلى جانبه لقطع الحلوى والفواكه. وإذا كان المضيف من أبناء اليهود فتجلس الرجال مع النساء إلى مائدة واحدة في حين لم يحدث ذلك لدى الأسر الاسلامية لداعي الاحتجاب.
انظر: القول الحق في بيروت ودمشق، ص٨٦ و ص٨٧.

(الشوربة) أما الصحن الأخير فمن الأرز أو اللحم والتوابل، وما بينهما أنواع عديدة من المأكولات. وكانوا مغرمين بأكل لحم الضأن (الغنم) مشوياً (كباباً أو قطعاً) أو مطبوخاً بطرق عديدة، سواء مع الخضروات أو البقول أو مع العجين (كالقوزي ولحمة بعجين والفطاير والبرك) الخ...

ولقد تسربت بعض المأكولات التركية إلى المطبخ الشامي في هذه الفترة (كالضولمة والبالوزة والدندرمة والكنافة الاسلامبولية والبغاجة وداؤود باشا واليبرق واليالنجي والضرمة شكروبيلاف الأرز المطبوخ مع اللحم المفروم[1]، هذا ناهيك عن تسرب أطباق أخرى تعود في أصولها إلى غير الاتراك، مثل المأكولات الفارسية والهندية والكردية والمغربية، دخلت إلى المطبخ الدمشقي بتأثير أبنائها الذين اختلطوا في المجتمع الدمشقي لسبب أو لآخر في هذه الفترة، واستضافت الهيئة الحاكمة في أكثر من مناسبة، عناصر تركية هامة فحاولت أن ترضي أذواقها فأدخلت إلى مطبخها تلك المأكولات.

فلا غرابة إذا ما أصبح المطبخ الدمشقي مطبخاً للمأكولات الشرقية والغربية على حد سواء فيما بعد. وأسهمت الغوطة في تقديم ما تحتاجه دمشق من الخضار والفواكه، والاعشاب والبقول المختلفة. ولقد ذكر ابن كنان (١٠٧٤ ـ ١١٥٣ هـ/١٦٦٣ ـ ١٧٤٠ م عديداً منها «كالخس والأسفاناج والهندبا والرجلة والبقلة الحمقاء والمباركة والليئة واليمانية التي كانت تسمى بالجرموز وكانت تؤكل هي والغلف بالخل والزيت، ثم بقلة الروم والسلق والكرنب والحماض البري الذي يؤكل أصله، وفرعه وكان ينبت لنفسه في الآجام والمياه العائمة. وكذلك الخضروات المختلفة والبقول والترخون والقنبيط (الكرنب الشامي)، وكان منه نوعان الصنوبري المكتنز والمفرق ويؤكل باللحم والسمن والخل والمري والبصل والثوم والكرات والرزيانج الرومي والكحون الحلو وهو البسباس الشامي والكزبرة[2]، ومن البقول الحمص والفول والعدس والذرة والجلبان والكرسنة والبسلة ثم الزيتون بأنواعه المختلفة[3]، كما أنتجت الكوسا والباذنجان. ثم أدخلت زراعة البندورة «الطماطم» في هذه الفترة إلى دمشق والتي جاءتها من أمريكا.

(١) القاسمي، جمال الدين. مسودة كتابه. تعطير الشام بمآثر دمشق الشام، وهي خالية من الترقيم.

(٢) انظر: المواكب الاسلامية في الممالك والمحاسن الشامية. ص٣٤٦ و ص٣٤٧ و ص٣٤٨ و ص٣٤٩ و ص٣٥٠.

(٣) انظر: ابن كنان. المصدر السابق. ص٣٥٩ و ص٣٦٠ و ص٣٦١.

ووردت تسميات لخضار رومية كثيرة في هذه الفترة ربما قام العثمانيون بادخال زراعتها إلى غوطة دمشق، وقام المصريون بادخال زراعة القطن والنباتات الغذائية مثل البطاطس وبعض أنواع من العنب والقصب وغيرها[١] وأدخلوا بعض أنواع من الأغنام الاسبانية والكريتية إلى بلاد الشام[٢].

ونتيجة لفائض انتاج الغوطة من الخضراوات والفواكه والاعشاب والبقول وغيرها في فصل الربيع والصيف لجأ الدماشقة إلى حفظ بعضها إلى فصل الشتاء بطريقة التجفيف أو التخليل والمكاسيد أو المربيات. فعملوا الكشك من البرغل واللبن في فصل الربيع والصيف، كما حفظوا اللحم (خاصة الاسر الفقيرة) بطريقة التقديد أو القاورما.. مؤونة للشتاء، وكانت عناية الدمشقيين بالكشك أقل من عناية أهل الريف به، فالدمشقيون يطبخونه باللحم والسمن ويصنعون منه الشوربة. وكانوا يطبخون الكشكة الخضراء وهي طرية قبل تجفيفها، وكانوا يضيفون اليها الجوز ومفروم البصل والبقدونس والزيتون والزيت. أما الفقراء منهم فيطبخونها بالزيت ومفروم البصل. وكان الكشك لدى الفلاحين من أهم أنواع المؤونه يدخرون منه كثيراً، وهو غالب في الشتاء في طعامهم[٣].

وبقيت المأكولات الاوربية بعيدة عن المطبخ الدمشقي طيلة هذه الفترة على ما يبدو، إلا ما جاء منها عن طريق استانبول، أوعندما انفتحت دمشق على المؤثرات الغربية، فأقام فيها قناصل وتجار وجاليات، سربت عاداتها ومأكولاتها الى المجتمع الدمشقي مع الزمن.

وكان الخبز عنصراً أساسياً في كل وجبة من وجبات الدماشقة، وكان أصنافاً: كالحواري[٤] والخسكار والمغسول[٥] والسميد والمغربي والطابوني[٦] والملة[٧] والقطايف

---

(١) ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا. ص١٠٣.

(٢) ذكرى البطل الفاتح. ص١٠٤.

(٣) القاسمي، محمد سعيد. قاموس الصناعات. ج٢، ص١٨٨.

(٤) الحواري: هو المصنوع من لباب الحنطة المغسولة. انظر: ابن كنان. المصدر السابق. ص٣٥٧.

(٥) المغسول: ما يصنع من لباب الخبز اليابس ينقع في الماء الحار ثم ينقى ويوضع عليه الماء (غمره) حتى يبلغ غاية النفاخة. ابن كنان. المصدر السابق. ص٣٥٧.

(٦) الطابوني: كالتنور اللطيف مدفون في الأرض حتى لا يبقى إلا أقله ثم يجعل في أرضه الحصا ويجعل عليه طبق

(٧) حديد وفوق الطبق زبل أضرمت فيه النار ويجعل العجين على تلك الحصا ثم يعاد الطبق حتى ينضج. المخبوز على الزبل.

والمطبوخ[1]. وما يعمل من غير الحنطة فكثير، وأجود الدقيق بالرحا المائية فانه خير من البهائي. ثم خبز المطابق[2] وخبز الأباريز ويسمى القرصة وصورته عجين بسيرج وسمسم، ثم خبز الحكماء المخلوط بالثوم وهو صحي. ومن يأكله يعمر طويلاً، ثم البقسماط (وهو نوع من خبز الطوارئ) والسفر لمقاومته لعوامل الطبيعة، ثم خبز الشعير وأجوده الحديث الأبيض وغذاؤه أقل من القمح، ومنه نوع يسمى السلت ويعمل منه كشك له نفع. ويبدو أن تعدد أنواع الخبز يدل على تعدد الأذواق بتعدد أبناء القوميات المختلفة في دمشق آنئذ. ومما يسترعي انتباهنا من أنواع الخبز الخسكار والبقسماط والاباريز والمغربي وهي كما نرى ترتبط بأصول تركية وفارسية أو مغربية.

ومن جهة أخرى كانت العامة تثور لارتفاع اسعار المواد الغذائية في دمشق لسببين أولهما: لأن الخاصة، كالقضاة والولاة وغيرهم، لم يقوموا بمهام الاحتساب ومكافحة الاحتكار ومراقبة الاسعار، وثانيهما لأن الخاصة نفسها كانت تحتكر المواد الغذائية أو تتغافل عن المحتكرين. ونادراً ما تخلو صفحات كتب اليوميات والإخباريين في هذه الفترة من أخبار هذه الظاهرة وغضب العامة بسببها. فالبديري الحلاق يذكر في أحداث ١١٥٦هـ/١٧٤٣ ـــ ١٧٤٤م «أن الخبز لا يوجد والحكام يخزنون وأهل البلد يفعلون كفعلهم وإلى الله المصير»[3] ويذكر في موضع آخر من نفس العام أن العامة في دمشق قد «هجمت على المحكمة وطردوا القاضي ونهبوا الأفران وسبب ذلك كثرة الغلاء والازدحام على الأفران وقلة التفتيش على صاحب القمح والطحان والخزان»[4].

والاخباري الثاني حسن آغا العبد اهتم بأسعار المواد الغذائية وعلى رأسها القمح والشعير، المادتان الرئيستان في غذاء الشعب، فيذكر في أحداث ١٢١٨هـ/١٨٠٣ ـ ١٨٠٤م «أن الحنطة كانت موجودة وثمنها ستون قرشا والشعير بأربعين في أوائل السنة ومن

---

(١) المطبوخ: يؤخذ قدر من الحديد يجعل به العجين وهو لين جداً ويوضع القدر في التنور بنار هادئة حتى ينضج ويخرج أحسن من تخبز الفرن وأخف من الملة وأحسن من التنور والمطابق.

(٢) المطابق: خبز يابس يوافق ذوي الكد والتعب وأجوده المتخمر العجين. انظر ابن كنان. المصدر السابق. ص ٣٥٩ وص ٣٦٠ وص ٣٦١.

(٣) المصدر السابق: ص ٣٨.

(٤) المصدر السابق. ص ٤١.

الظلم صار القمح ماله وجود وكان من يبيع بثمن مجهر ومخفي بسبعين وثمانين قرشاً صاغ ماله وجود »[1] .

المرأة الدمشقية

شكلت المرأة نصف المجتمع فكان من الحق أن نوليها اهتمامنا بالدراسة ، رغم أن مجتمع دمشق لم يولها الاهتمام المطلوب في هذه الفترة ، فلم تكن نظرته اليها كنظرته إلى الرجل . وزاد في التضييق عليها في مختلف مجالات الحياة ، مما أدى إلى مسخها فكرياً وعقلياً .

وكان من الطبيعي أن ينعكس ذلك على من تقوم بتربيتهم . ومجّد مجتمع دمشق الذكر وفضله على الانثى . ولم ينظر اليها أكثر من نظرته إلى الجارية في أغلب الأحيان . ويقول البديري في أحداث سنة ١١٥٥ هـ/١٧٤٣ م « جاءتنا جارية مباركة كنا قد اشترينا لنا منزلاً جديداً في محلة التعديل[2] وكنا في ضيق فقلنا لعل بقدومها يحصل لنا الفتح الفاتحة فسميناها صالحة جعلها الله فالحة [3] » .

وكانت معاملتها السيئة تلك تتنافى كلياً مع ما حض عليه الدين ومع ما ورد في القرآن والسنة . إلا أن واقع الأمر كان كذلك ، ولاحظه الرحالة الغرباء عندما زاروا دمشق في تلك الفترة . وتحاشى الدمشقيون ذكر المرأة في مجالسهم وحتى أمام أصدقائهم . لاعتقادهم بأن ذلك يمس بالشرف . وإذا ما صادف وجود امرأة ورجل في مجلس واحد فنادراً ما تشارك المرأة في الحديث . وإذا ما تكلم الرجل كان على المرأة أن تصمت احتراما منها للرجل . وشعور منها بنقصها . وكان ذلك عاماً لدى الاسر الاسلامية واليهودية والمسيحية في دمشق وعلى حد سواء[4].

ولم يكن واقع المرأة في مجتمع دمشق بعيداً عن المؤثرات العثمانية بطريقة ...

---

(١) انظر : تاريخ حسن آغا العبد . ص ٥٧ وص ٩٦ . كما أورد أخبار الغلاء في أحداث ... و ١٢٣٠هـ / ١٨٠٠ ــ ١٨١١ ــ ١٨١٥ ــ ١٨١٥م وربط ذلك بـ... مختلفة . داخلية وخارجية . انظر : تاريخه . ص ١٤٩ وص ١٥٨ .

(٢) التعديل جزء من حي القنوات في دمشق ما زال قائماً حتى الآن .

(٣) حوادث دمشق اليومية . ص ١٨ .

(٤) ... PP 181-263.

فمن التقاليد التي أدخلوها إلى مجتمع دمشق في هذا المجال، والتي تعتبر مهانة للمرأة، تقبيلها ليد زوجها عند لقائهما بعد غياب أو في كل صباح، تعبيراً عن الاحترام والطاعة. وكان ذلك من التقاليد التركية القديمة[1]. وفي الحقيقة لم تكن هذه الظاهرة سوى إشعار للمرأة بدونيتها.

وقامت الاسر الارستقراطية والغنية بتلقين بناتها ألفاظ الاحترام للرجل أثناء مخاطبته، ولو كان الرجل المخاطب (زوجها)، كأن تخاطبه (ياباشا — أو يابك أو يا أفندي أو يا آغا) وهكذا، واعتبرت كل واحدة لا تتقيد بمثل هذه الألفاظ أثناء المخاطبة على أنها سيئة الأدب[2].

أما الرجال فلم يراعوا مشاعر زوجاتهم بلجوئهم إلى الزواج أكثر من مرة، وبالتسري بالجواري والإماء واستيلادهن. ولم يسمح للمرأة أن تبدي رأيها في ذلك. ولقد وصل عدد الزوجات والسراري لدى بعض الخاصة في بعض الأحيان إلى عشرات النساء. ونسوق مثالاً على ذلك متولي أوقاف السليمانية آنئذ في دمشق سليمان آغا بن عبد الله العجمي «كان لديه أربع زوجات وكان يتسرى بعدد كبير بمن ملكه من الجواري والإماء»[3].

ولجأت الاسر الغنية إلى اسلوب آخر إمعاناً في احتقار مشاعر بناتهن،فرفضت تلك الاسر في غالب الأحيان مَنْ تقدم مِنَ الرجال لخطبة بناتهن، مما أدى إلى تزايد عدد العانسات لديها. وكانت تلك الاسر تهدف من وراء ذلك حفظ نصيب بناتهن من الإرث بيد الاخوة. وكلفت العانسات بتربية اخوتهن وأخواتهن الصغيرات، ومن ثم تربية أبناء الاخوة بعد زواجهم[4]. وفي أحسن الحالات فرض عليهن زواج من الأقرباء لحفظ الثروة في الاسرة. وهكذا حرمت المرأة من إبداء رأيها في انتقاء شريك حياتها، وكان ذلك من حق الوالدين والاخوة. وإذا ما أظهرت رأيها اعتبر ذلك ماساً بشرفها[5]، وزوجت الفتيات في سن مبكر ودون سن البلوغ، بحيث لم تقو على ابداء رأيها مما تسبب ذلك في تزايد حوادث الطلاق في مجتمع دمشق.

---

(١) انظر: الداغستاني، كاظم. المصدر السابق، ص ٩٩.
(٢) الداغستاني: المصدر السابق. ص ١٢٨.
(٣) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٠١ / ١١٩٠ — ١١٩٢ هـ. ص ٢.
(٤) الداغستاني: المصدر السابق. ص ٨٤ وص ١٠٢.
(٥) الداغستاني: المصدر السابق. ص ١٠٧.

أما فيما يتعلق بتعليم المرأة فكان نادراً وفي حدود ضيقة. وأوكل أمر هذه المهمة إلى إمرأة أطلق عليها «الخجة» أو قامت الاسرة بذلك. ولهذا لم تبرز من نساء دمشق في مجال العلم أية امرأة، كما لم يقم كتاب التراجم بالترجمة للنساء اللهم إلا لاثنتين ورد ذكرهما في كتاب (سلك الدرر .. للمرادي) وواحدة في كتاب (حلية البشر ...) للشيخ عبد الرزاق بيطار وهي زوجته، ولم تر أسر دمشق ضرورة في تعليم المرأة[1].

واعتبر سلوك المرأة سبب بلايا دمشق، فإذا انتشر الطاعون أو الجراد، أو ارتفعت الاسعار أو ضربت الزلازل دمشق أو شحت السماء أو ساد القحط، كان ذلك بسبب تبرج المرأة وخروجها إلى المنتزهات على ضفاف بردى[2] حسب زعمهم.

ولهذا احتجزت الاسر الارستقراطية نساءها في بيوتها الكبيرة، وقام رب الأسرة بتأمين معيشتهن داخلها، وخُصص لهن جناحٌ خاصٌ (الحرملك)، وكان أشبه بمجتمع نسائي كامل، يمارسن نشاطهن ضمنه، ومنعن من الخروج حتى إلى المساجد أو لمشاهدة المراكب المختلفة، وتسقطن أخبارها من الخدم وبعض النساء، ولبسن الإزار وتعذر عليهن مقابلة النساء إلا قلة ممن أتين لزيارتهن. فأسدل عليهن حجاب كثيف دون المجتمع، وترتب على ذلك عواقب وخيمة، وأصبحن أسيرات أفكار التخلف السائدة، وانغمسن في ممارسات خرافية، وسعين للاستئثار بالزوج، ووصلن في ذلك إلى درجة الإذلال. وسلط عليهن تعدد الزوجات، ولم تستطع الواحدة منهن ابداء الرأي إلا من خلال أولادها[3]. فلا غرابة إذا ما أصبحن موطناً للعادات المستقبحة وأصبحت الواحدة منهن رقماً في حشد الحريم.

وكانت المعاشرة الزوجية وقفاً على الزوجات الجميلات والجواري صغيرات السن. وإذا ما رغب أحد الرجال بالزواج، يختار صغيرة السن من الفتيات طلباً للمتعة الجسدية[4]. خاصة إذا ما كان لديه أولاد.

ولقد أسرف بعض الرجال في هذا المجال حتى أربى عدد زوجاته بين من هي على

---

(١) الداغستاني: المصدر السابق. ص ٤٨.

(٢) الداغستاني: المصدر السابق. ص ٥٢ وص ٥٣ وص ٥٤.

(٣) المرادي: سلك الدرر .. ج ١، ص ٢٦٤.

4 - See: Russell .A. op.cit. VOL.1.PP.276.277.

العصمة أو مطلقة على العشرين امرأة. ويورد لنا المرادي مثالاً على ذلك مصطفى الكيلاني الذي تزوج باثنتين وعشرين زوجة ببلده وسياحته، ورزق بعدة بنين ماتوا في حياته ما عدا ذكرين وبنت واحدة[1].

وعرف ريف دمشق تعدد الزوجات آنئذ، خاصة لدى أصحاب الدخول المتوسطة، طلباً للذرية كيد عاملة في الأرض وللزود عن حياض الأسرة أو العشيرة حين اليأس، وكان الفرد يبحث عن زوجة عندما تزداد ثروته، وانصب الاهتمام على صغيرة السن أو الولود. وخص الرجل كل زوجة من زوجاته بغرفة من بيته. وكانت (الضرات) يتخاطبن بكلمة (أختي) إلا أن ذلك لم ينف نشوء المشادات بينهن[2] بين حين وآخر، أما السرية (الضرة) من الجواري فكانت تخاطب الزوجة الحرة بسيدتي[3].

وكان التنافس بين نساء الأسرة أكثر مما لدى رجالها، وشمل ذلك الكنات (أو الكنائن) والحماة والزوجات، وأجج الانجاب والجمال وتفضيل الزوج لاحداهن، نار الغيرة والتنافس بينهن، وإذا خبا أواره يبقى ناراً تحت الرماد لا يلبث أن يستعر. وتنتقل البغضاء إلى أبنائهن والى الأزواج، إلا أن سلطة الأب القوية كانت تكبت هذه المشاعر في أغلب الأحيان وتمنعها من الظهور. وكانت الكنائن في بعض الأحيان يتفقن فيما بينهن ضد الحماة. وتستخدم الحماة طرقاً مختلفة لذر بذور الفرقة بين الكنات، وتلجأ إلى أبنائها لتأديب كنائنها «زوجاتهم». وكانت العادة لدى الأسر الارستقراطية في دمشق أن تبقي خلافاتها العائلية ضمن البيت، وألا تتجاوز حدوده إلى الخارج[4].

ولقد أفضت الغيرة بين الزوجات إلى ارتكاب الجرائم خاصة لدى أسر العامة، ففي أحداث سنة ١١٦٣هـ / ١٧٤٩ ــ ١٧٥٠م أقدمت زوجة على قتل زوجها لتفضيله ضرتها عليها، فقطعت ذكره ومات إثر ذلك[5].

(١) انظر: المرادي، سلك الدرر. ج ٤، ص ٢٣٠.
(٢) الصباغ، ليلى. المرجع السابق. ص١٥٣. ثم: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٠٢/١٢٠١ــ ١٢٠٢هـ. ص ٥٦٤.
(٣) انظر: المحكمة العسكرية بدمشق رقم ٢٠١/ ص ٣ وص ٦ وص ١٠.
(٤) الداغستاني، كاظم. المصدر السابق. ص ١٢٢ وص ٢٥ظ.
(٥) البديري، المصدر السابق. ص١٤٧.

ومن جهة أخرى ميّز مجتمع دمشق بالألقاب الاجتماعية بين نساء الخاصة والعامة وأهل الذمة، كما ميّز بين العازبة والمتزوجة، واختلفت تبعاً لذلك طريقة مخاطبتهن، خاصة في محاكم دمشق، فالمرأة المسلمة من العامة خوطبت بالحرمة، وإذا كانت متزوجة ومسنة ولها أولاد خوطبت بالخانم[1]. أما المرأة اليهودية أو النصرانية فورد ذكرها في سجلات محاكم دمشق (المرأة الذمية النصرانية أو اليهودية)، وإذا ما كانت متوفاة زيدت على ذلك كلمة «الهالكة» ويقابل ذلك المرحومة أو المتوفاة بالنسبة لأختها المسلمة، وأسبغت ألقاب التفخيم للشريفات وبنات رجال السلطة مثل «الشريفة أو القادن». أو (فخر المخدرات)[2]. وإذا كانت شريفة أو من الخاصة، يطنب في إسباغ الألقاب عليها كالمصونة فلانة.. أو فخر المخدرات وزبدة الموقرات ذات الحجاب المنيع والجاه الشريف الرفيع المصونة فلانة[3]. أو فخر المخدرات زين الموقرات الست المصونة والجوهرة المكنونة فلانة خانم[4].

ومن جهة أخرى اهتم مجتمع دمشق بخصب المرأة وانجابها للأولاد، فإذا ما كانت عاقراً تهمل لدى أسر الخاصة، وغالباً ما تطلق لدى العامه، لأن الرجل لا يستطيع أن يصرف على زوجتين في وقت واحد. واعتبروا كبر العائلة بركة تقابل بالحمد، وحصنوا أبناءهم بالله تبركاً، وإذا ما سئل أحدهم هل لك أولاد؟ كان يجيب عندي منهم لله كذا وكذا أو عندي بعيون الشيطان سبعة أو ثمانية، ويقول المثل «بلاهم ولا بلاهم» أي متاعبهم ولا الحرمان منهم.

وخير دعاء للعازب أن يظفر بعروس وفق مزاجه. أما العازبة فيدعون لها بزواج اخوتها أو بقائهم. أما الدعاء بزواجها فكان يبعث بها على الحياء والخفر، وكانوا يسمون الصغار

---

(١) انظر: سجل محكمة الميدان رقم ٣٧٨/ ١٢٥٩هـ، ص ٣.

(٢) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦/ ص ٢٣٢. «والدة محمد آغا من بلوكباشية دمشق».

(٣) السجل السابق ص ٧٣٦ «الشريفة راجحة زوجة عربش الحبال القبوقولي. ثم الشريفة خديجة قادين بنت السيد حسن أفندي صفي الدين الكفرسوسي». انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٠٢/ ص ١٨ ثم: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦/ ٢٤٠ (رابية بنت مصطفى بيك متولية على أوقاف جدها لالا مصطفى باشا).
ثم: السجل رقم ٣٧٩/ محاكم دمشق/ ص ٤١٢ عائشة خاتون ابنة فخر العلماء المدرسين الكرام السيد الشريف الحسيب النسيب كمال الدين أفندي الحسيني».

(٤) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٩/ ص ٣١٩.

عرساناً، والصغيرات عرايس تيمناً بزواج الفريقين. ويخصون العازب على الزواج ويقولون «قرش الزواج ميسور».

وشاهد مجتمع دمشق زواج القاصرين والقاصرات. فزوجت الفتاة في سن الرابعة عشر من عمرها، والأمثلة على ذلك كثيرة فمثلاً «أصدق الحاج سعيد بن عبد الغني السابق المتولي على ولده عبد الغني القاصر عن درجة البلوغ وتحت ولايته بالأبوة شرعاً مخطوبة ولده عاتكة القاصرة عن درجة البلوغ على صداق قدره خمسمائة قرش فضة صحيحة صاغ ميريه على حكم التفصيل ثلاثمائة وخمسون قرشاً منه مقدم صداقها ومائة قرش وأحد وخمسون قرشاً صاغا مؤخر صداقها مؤجل عليه إلى حين أحد الفراقين الموت أو الطلاق»[1].

ويذكر فولني أن الشرقيين يتزوجون في سن مبكر، وكثيراً ما عقدوا قران الفتاة التي لا يتجاوز عمرها التاسعة أو العاشرة على فتى لا يتجاوز اثنتي عشر أو ثلاثة عشر من العمر. وربما حملهم على تزويج أبنائهم في سن مبكرة الخوف من سقوطهم في طريق الرذيلة[2].

وكانت الأسرة تستقبل نبأ حمل الزوجة بفرح، وإذا لم تحمل بعد زواجها سعت والدتها وربما حماتها من أجل تحقيق ذلك، فيذهبن إلى الدايات ويستخدمن المجربات من الأدوية والعقاقير، وينذرن النذور للأولياء والصالحين، ويلجأن إلى المشعوذات والمشعوذين، فيقوم هؤلاء بكتابة الرقى والتعاويز، وربما الآيات والطلاسم والتمائم، ويصفون طريقة إستعمالها، كأن تضعها فوق عينيها أو عتبة دارها، أو تذوبها في ماء وتشربها أو تضع الحجاب في عظم عنزة أو في ضريح مهجور الخ...

وكثيراً ما استغل بعض المشعوذين لهفة النساء العاقرات، فكانوا سبباً في هتك أعراضهن وطلاقهن، وفسقوا بهن ويقول القاسمي: (كان المشعوذ يكتب على بطن المرأة ويقول لها لا يؤخذ إلا هنا وكان كلما كتب يلمس كأنه غلط ليستأنف الكتابة.. أو يقول لها التميمة لا تكتب إلا بمائين ماء الرجل وماء المرأة حتى يضطرها بخداعه لتسليم نفسها»[3].

---

(١) انظر: السجل رقم ٣٢٢ / محاكم دمشق / ص ١٥١ القضية ١٤ جمادى الآخرة ١٢٤٧ هـ.

(٢) السيوفي، حبيب. سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر ج ٢، ص١١٣ لبنان صيدا. المطبعة المخلصية ١٩٤٩م.

(٣) القاسمي: محمد سعيد، قاموس الصناعات.. ج ٢. ص ٢٣٢ وص ٢٣٤.

وروعي في علاقات الزواج الانتماء الاجتماعي، أو علاقات القربى. فالبنات أزواجهن من أبناء الاعمام أو الأخوال، وهكذا. فمثلاً: «تزوجت أسماء خانم بنت أسعد باشا العظم من ابن عمها محمد بك العظم»[1]. ومن يرصد ظاهرة الزواج في سجلات محاكم دمشق يرى حقيقة ما ذهبنا اليه، ففيها ترى بنات الحرفيين يتزوجن من أبناء الحرفيين، سواء من الحرفة الواحدة أو الحرف المختلفة، «فحسين أحمد الشالاتي، تزوج بخاتون بنت السيد محمد القضماني، وسالم آغا بن عبد الله الاسمر اللون تزوج بخديجة بنت حسين آغا والسيد ابراهيم الخضري تزوج بعائشة بنت سعيد القصار. ومحمد بشة بن محمد لباد نجار تزوج بكلسن بنت عمر اللحام والسيد سلامة بن السيد خالد التوتنجي تزوج بكلسن بنت محمد باكير الحواصلي[2] وهكذا.

كما أن عدداً كبيراً من الغرباء الذين كانوا في أصولهم جنوداً في الأوجاقات المختلفة، والذين أصبحوا يرلية وانخرطوا في تنظيمات طوائف الحرف المختلفة، دخلوا في علاقات وطيدة مع أمثالهم عن طريق الزواج فمثلاً: محمد الأوزون كان متزوجاً بعائشة بنت ولي أفندي الاسلامبولي، ومحمد آغا بن اسماعيل آغا كان متزوجاً من خديجة قادن بنت عبد الرزاق قبقول آغاسي،ثم الدالي علي بشة بن محمد التركماني الينكجري بدمشق كان متزوجاً ببنت يونس بن خوجة التركماني[3].

ودخلت أسر الخاصة بعلاقات زواج مع بعضها مراعاة منها للاعتبارات الاجتماعية. فالسيد ابراهيم أفندي عمادي زاده كان متزوجاً من آمنة بنت محمد آغا الداغستاني. وإذا ما حصل زواج مغير لهذه القاعدة خاصة لدى اسر الخاصة الكبرى قوبل بالاستهجان. فمثلاً: عندما زوج أسعد باشا العظم ابنته من مملوكه، علق بعض الخاصة من رجال الدين في دمشق بقولهم (الله يرحم أيام الحسب والنسب فإلى أين نحن صائرون)؟[4].

---

(١) الداغستاني. المصدر السابق. ص ٧٢.

(٢) انظر سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٣٨/ الصفحات ص ٧٤ وص ٧٧ وص ٨١ وص ١٠٠. لعام ١٢١١ ــ ١٢١٣ هـ.

(٣) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩/ ١٢٦٤هـ ص ٤١ وص ٤٩. ثم سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦/ص ٢٤٤.

(٤) الداغستاني: المصدر العابق. ص ٦٩.

وعلى ضوء مراعاة الاعتبارات الاجتماعية في الزواج، روعي أيضاً مبلغ صداق المرأة، فاختلف ما بين فئة وأخرى. ويمكن رصد ذلك من خلال سجلات محاكم دمشق المختلفة، وزاد صداق الفتاة العذراء الباكر على صداق الثيب أو الأرملة المطلقة. وتراوح الصداق، ما بين ١٠٠ و ١٥٠٠ قرش فضة صحيحة، المعجل منه الثلثان، أما الثلث الآخر فيؤجل إلى حين الفراقين الطلاق أو الوفاة، ونلاحظ أن مبلغ صداق المرأة المسيحية قد قل عن صداق أختها المسلمة في دمشق[1]. ويمكن تفسير هذه الظاهرة بسوء أحوال النصارى المادية آنئذ من جهة، وبمسعى رجال الدين المسيحيين لتسهيل عملية الزواج بين أبناء طوائفهم من جهة أخرى، بحيث لا يقف «المهر» حائلا دون ذلك.

أما طلاق المرأة فتأثر بعوامل عدة، كان أبرزها العامل المادي والحاجة، بالاضافة إلى العقم وغياب الزوج في أماكن مجهولة ولمدة طويلة، ولهذا نجد أن أكبر نسبة من حوادث الطلاق كانت بين العامة خاصة الفقراء منهم، في حين لم تكن النسبة عالية لدى الخاصة، ولذلك لأن العامل المادي لم يلعب دوراً في ذلك. كما أن خلاف الزوجين سيسيئ لعلاقة الزوج واسرته مع اسرة الزوجة المطلقة. لذلك آثر الزوج الابقاء على الزوجة عوضاً عن طلاقها. ناهيك عن أن أحواله المادية الحسنة، تمكنه من الزواج بأخرى، ومن اقتناء الجواري والإماء والتسري بهن.

ولقد تزايدت نسبة الطلاق بشكل عام في فترة دراستنا عما كانت عليه في الفترة السابقة لسوء الأوضاع الاقتصادية والسياسية، وبلغت تلك النسبة حدودها القصوى في العهد المصري، بدخول عامل جديد أسهم في ذلك، وهو سوق الشباب إلى الجندية وارسالهم بعيداً عن زوجاتهم إلى مصر ليدرّبوا فيها، ومن ثم زجهم في جبهات القتال ضد العثمانيين، مما دفع بالعديد من الشباب للفرار إلى الأماكن التي لاتقع ضمن الحكم

(١) يصف لنا الاخباري فتح الله الصايغ تلك الحالة في اللاذقية وريفها آنئذ بقوله: «بعد خلوصه من مسك أولاد النصيرية أول خطرة ابتدأ مسك أولاد المسلمين وهناك ترى الأهوال التي حصلت من تقليع عينين وتقطيع أصابع وتكسير أيادي شي يقشعر لأبدان والتخباي تحت الأرض في المقابر المخيفة سنين من غير إظهارهم على وجه الأرض وصارة الكلير تخبي أولادها في بيوت القناصل ومنهم من يسفر أولاده إلى خارج ايالة الحكم المصري مثل قبرص وكريت وأضاليا وبر الترك واسلامبول وازمير وغيرهم ولا سيما لعند العرب للجول ويروحوا اباتهم معهم لئلا ينطلبوا منهم وياكلوا عذابات وحبس وضرب ويلتزموا بحضورهم ويسلموا للنظام. انظر: المقترب في حوادث الحضر والعرب ص ١٨٠آ و ص ٨٠ب.

المصري[1]. وهكذا أصبحت الزوجات الفقيرات بلا معيل وكثر عددهن مما دفعهن لطلب الطلاق في محاكم دمشق، معتمدين في ذلك على تلك الحجة أمام القضاة (حيث لا مال ولا معيل لهن) فاضطر القضاة للنزول عند رغباتهن في التفريق بينهن وبين الأزواج. وكثيراً ما حصلت بعض الحوادث المؤسفة في ذلك، كأن يعود الزوج بعد غياب طويل فيرى زوجته متزوجة بغيره[2].

حجاب المرأة الدمشقية

كان حجب المرأة عاماً في دمشق (المسلمة والذمية)، ولكن حجاب المرأة المسلمة تميّز عن المرأة المسيحية واليهودية[3]. فلكل واحدة منهن حجابها الذي ميزها عن أخواتها خارج بيتها، ولم يسمح باختلاط الجنسين، لهذا حرم على الشباب رؤية خطيبته قبل الدخول بها. وكان من العار أن يتم زواج قام على العشق والهوى، سيما إذا كان الزوجان من أسرتين مختلفتين (لا تربطهما رابطة القرابة). ولهذا كان من الصعوبة بمكان أن يرى الشاب خطيبته. وبرزت هذه الظاهرة لدى الخاصة في دمشق. لأنه نادراً ما كان يسمح لبنات الخاصة بالخروج من بيوتهن، لهذا لجأ الشاب إلى حيل متعددة لرؤية فتاة أحلامه. كأن يتفق مع المؤذن أثناء آذان الظهر ليصعد معه إلى أعلى المئذنة، فيطل على بيت الخطيبة، ليلقي النظر على الصبايا وهن ملتفات حول بحرة الماء في ساحة الديار[4]. فيوفر لنفسه فكرة عن شكل الفتاة وقدها وجمالها.

وفرض الحجاب داخل البيوت الكبيرة التي كانت تحوي أكثر من أسرة صغيرة، فلم يسمح للنساء بالخروج من مخادعهن دون حجاب لوجود غير المحرمين في البيت. فامرأة الأخ يحظر عليها أن تبرز أمام شقيق زوجها، وإذا ما اضطرتها الحاجة لعبور ساحة الديار تتلفع بمئزرها بحيث لا يبان من جسدها إلا وجهها[5].

---

(١) انظر القاسمي جمال الدين تعطير الشام بمآثر دمشق الشام. المسودة وهي خالية من الترقيم.
(٢) انظر: سجل محكمة الميدان رقم ٢٢٣ / ١٢٠٢ ـــ ١٠٢٤ هـ / ص ٥٧.
(٣) انظر: تفصيل ذلك في فقرة زي المرأة الدمشقية الوارد في أزياء دمشق سابقاً.
(٤) انظر: الداغستاني. المرجع السابق. ص٩٥.
(٥) أيضاً: الداغستاني. ص١١٢.

وحجبت المرأة (من الخاصة) نفسها عن الأنظار في طريق الحج بأن وضعت نفسها في هودج أو تختروان، الذي كان عبارة عن خيمة محمولة على عضادتين يحملها جملان أو بغلان، فيها مقاعد ولها باب ونافذة تنسدل عليها ستائر. وكانت ترافقها جارية تشرف على خدمتها [1].

وفرض الحجاب على النساء في شوارع دمشق، فلم يخرجن دون الأزر البيضاء أو الملاءات السوداء. وإبان الإحتفالات والمواكب كن يقفن منفصلات عن الرجال، وكان يستهجن وقوف الرجال إلى جانبهن مهما كانت درجة قرابتهم، كما يستهجن منهم التحديق في وجوههن. وإذا حصل ذلك، كانت المرأة تقوم بإسدال حجابها على وجهها [2].

ومن جهة أخرى استغلت بنات الهوى الحجاب للتستر تحته، والتنقل إلى حيث أردن، مما اضطر السلطات العثمانية في سنة ١١٦٢ هـ/١٧٤٨ـــ ١٨٤٩م لأن تصدر أمرها في رفع غطاء الوجه بغية تمييز الساقطات. واستثنى ذلك الأمر نساء والي دمشق أسعد باشا العظم ونساء الكيخيا موسى. ويقول البديري الحلاق «نادى منادي على النساء لا يسبلن على وجوههن مناديل إلا حرم الباشا ونساء موسى كيخية» [3].

ولقد اكتسبت الأسر الدمشقية (من الخاصة). التي أقامت لبعض الوقت في استانبول، بعض العادات الرومية، كجلوس نساء الاسرة الواحدة مع رجالها وهن سافرات على موائد الطعام، وتبادل أطراف الحديث معهم، أو الجلوس في ساحة الديار دون حرج [4]. وقامت بعض أسر أهل الذمة بتقليد الغربيين في حياتهم نتيجة لاحتكاكهم بهم بعد انفتاح دمشق، وبدأت بعض العادات الغربية تدخل إلى حياتهم، ومنها تخفيف قيود الحجاب. في حين كانت قرى دمشق متشددة في حجب النساء. وكان لكل قرية من قرى الغوطة تقريباً زيها الخاص في مجال الحجاب، في حين حافظت نساء قرى حوران والقلمون على أزيائهن السابقة

---

(١) المرجع نفسه. ص٩٧.
(٢) المرجع نفسه. ص٢٧ و ص٢٨ و ص٣٦.
(٣) حوادث دمشق اليومية. ص١٣٤.
(٤) الداغستاني. المرجع السابق. ص١١٥.

والموروثة من عهود سابقة. وبقي حال المرأة بشكل عام، يسير على هذا المنوال حتى نهاية القرن التاسع عشر[1]، وإن اختلف إلى حد ما بين المرأة المسلمة وأخواتها (الذميات) بفعل المؤثرات الغربية.

عمل المرأة في دمشق ومقاطعاتها

شكلت المرأة نصف أفراد المجتمع القادرين على العمل تقريباً، إلا أنها لم تسهم بهذه النسبة بل اقتصر نشاطها على بعض مرافق الحياة، واستبعدت من وظائف الدولة المختلفة والجيش والعديد من الحرف والصناعات والوظائف الدينية المختلفة تقريباً، ومارست بعض الأعمال التي وفرت لها الرزق كبعض الحرف أو العمل بالأرض وتربية الحيوانات والاشراف على بعض الاملاك والأوقاف الذرية أو التعليم (كالخوجة)، بالاضافة إلى تربيتها للأطفال. وتعود تلك القيود بالدرجة الأولى لدواعي الحجاب، ولعدم اعتراف المجتمع لها بامكاناتها الجسدية والعقلية التي تمكنها من الوقوف على قدم المساواة مع الرجل.

ويمكن رصد أهم الأعمال التي ارتزقت منها النساء في دمشق، مثل (الخوجة)، وهي معلمة البنات. وكان عدد المعلمات من هذا النوع قليلاً لقلة من أرسل من البنات للتعلم آنئذ. ثم عملت المرأة في حمامات دمشق في دور النساء فيها، فكانت منهن الاسطة والبلانة والتبع. وعملت المرأة في توليد النساء (داية) ومزينة للعروس قبل زفافها وأثناءه مع والدة العروس والعريس، ومحمرة أو نقاشة بالحناء للأيدي والأرجل وممسدة لتدليك ولف الوليد[2]، ومرضعة للأطفال وخبازة وخياطة وغسالة للمتوفيات من النساء، بعد حصولها على قرار من

---

(١) يقول الرحالة المصري محمد عبد الجواد القاياتي الذي زار دمشق في أواخر القرن التاسع عشر «أما أحوال النساء من أهل الإسلام، فيبرزن غير متبرجات ولو كن متنزهات ومتفرجات، وعلى وجوههن المناديل وعلى رؤوسهن الإزار الطويل، وأما نساء النصارى في الشام فهن قليلات جداً لا يعرفن فيها ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى كما في مثل بيروت فإنهن كنساء الإفرنج وإن كن في الأصل من جبل لبنان. إلا أنهن قلدن الأورباويات الآن وزدن من هذا الشأن بكل مافي الإمكان، إلا أن التكشف من أعظم الدواعي وأكبر البواعث والمقدمات المثيرة المهيجة المحركة لسواكن الشهوات» انظر: نفحة البشام في رحلة الشام. ص١٤١.

(٢) انظر: القاسمي، ظافر. المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام. ج١. ص١٥٨ و ص١٥٩ و ص١٦٠ و ص١٦١ و ص١٦٢.

قاضي دمشق، ثم غسالة للثياب في بيوت الأغنياء، وكحالة للعيون ومعالجة القرع (المقبعة)، وخادمة وطباخة. وفي مجال الحرف عملت النساء طرازات وغزالات ونسّاجات وصابغات الحصر[1] ومجمدات (تجميد غصون الكروم) وشوارات، ومعشبات (نازعات للعشب الضار من بين المزروعات). ولقد شاركت المرأة في الريف الرجل في كل الأعمال وربما زادت عليه في بعض الأعمال، وعملت بعض النساء لطّامات (حيث كن يلبسن الثياب السوداء ويسخمن وجوههن وأيديهن بمسحوق الفحم ويحللن شعورهن وينسبن الميت ولهن أجر على ذلك) هذا ناهيك عن المهام داخل البيت كالطبخ وتنظيف الأواني والبيت بشكل عام، واعداد مؤونة الشتاء، إلى غير ذلك من الأعمال المختلفة.

أما النساء الارستقراطيات فقل عملهن وانشغلن ببعض الأعمال المنزلية وأعمال الابرة والسنارة والغزل ونسج الدراعات والتنانير والعرقيات وما شاكل ذلك، وأو كلن ماعدا ذلك من الاعمال إلى الخدم والجواري تحت اشرافهن، وأو كلن لبعض الأقرباء أمرُ الذهاب إلى المحاكم، وإذا ما دعتْ الحاجة إلى ذلك، كاجراء عقود البيع أو التنازل عن عقار أو تأجيره أو مقاضاة الأخرين.

ومن خلال بعض الاحصائيات التي أجريناها، فإن حوالي ٦٠٪ من المعاملات في سجلات محاكم دمشق كانت بأسماء النساء، فمنهن البائعة أو الشارية أو الناظرة على وقف أو مستأجرة أو مؤجرة (الكدك)، أو عهد اليها الاشراف على القاصرين من الاطفال اليتامى وهكذا. وما سيطرت المرأة عليه من العقارات، أكان من أموال أبويها أو زوجها الذي رغب في اعطائها وضعاً اقتصادياً لضمان حياتها في حدود القوانين والارث التي أقرتها الشريعة، أو الاشراف على ا لابناء القاصرين بعد وفاة الأب وكان ذلك الاشراف يتم بموجب وصية شرعية تثبت في إحدى محاكم دمشق.

ويمكن تفسير هذه الظاهرة غالباً بتعدد الزوجات، على اعتبار أن الزوج يشيخ قبل زوجته الفتية وعند دنو أجله يوكل اليها أمر الاشراف على أبنائه من بعده، ليجنبها بذلك

---

(١) خاطر، لحد. المرجع السابق. ج١، ص٣٠٤.

مضايقة الأهل والاقرباء[1] وتطالعنا سجلات محاكم دمشق بأكثر من ٩٠٪ من الوصيات على القاصرين، الذين أوكلت أمورهم لأمهاتهم دون غيرهن.

(١) الأمثلة على ذلك كثيرة وكثيرة جداً، وحسبنا أن نسوق ما ورد في سجل المحكمة العسكرية رقم ٢٠١ / سنة ١١٩٠هـ الصفحات ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٦٤، ٣٢، ١٣٢. ثم الوثيقة رقم ٩٤ / تاريخ ١٧ جمادى الأولى ١٢٠٥هـ، ثم الوثيقة رقم ٩٥ / تاريخ ٣ جمادى الثاني ١١٩٩هـ. ثم الوثيقة ٩٩ / تاريخ غرة شوال ١٢٠٥هـ. ثم الوثيقة رقم ١١٢ / تاريخ ٤ ذي الحجة ١٢٢٣هـ. ثم الوثيقة رقم ١٢٣ / تاريخ ٤ جمادى الأولى ١٢٣٨هـ. ثم الوثيقة رقم ١٤١ / ١٢٥٧هـ. ثم الوثيقة رقم ١٤٢ / ١٢٥٧هـ. ثم السجل رقم ٤١١ / محاكم دمشق / ١٢٦٥هـ.

ظاهرات الانحراف في المجتمع الدمشقي

استفحلت تلك الظاهرات في هذه الفترة نتيجة لعوامل عديدة أحاطت بالدولة العثمانية (داخلية وخارجية). وأبرز تلك العوامل، تدهور أوضاعها الاقتصادية والسياسية والعسكرية والادارية، حيث أضعفت تلك العوامل السلطة المركزية في استانبول، وانعكس ذلك بشكل سلبي على أحوال ولاياتها المختلفة. وزاد في سوء أحوال دمشق. ما أحاط بها، من أحوالها الداخلية والعربية، فاشتد الصراع مابين الامراء المحليين والحكام الاقطاعيين من جهة، وما بين هؤلاء وولاتها من جهة أخرى، بالاضافة إلى الصراعات بين الولاة المعزولين والولاة المعينين مكانهم. ودفعت دمشق ضريبة هذه الصدامات. وزاد من ضعف ولاة دمشق اصطدامهم مع ولاة صيدا الأقوياء، وعجزهم عن ايقاف نشاط البدو ضد حواضر الولاية، مما دفع بأبنائها للهجرة إلى مدينة دمشق والضغط على اقتصادها، فزاد من ارباكه. وعجز ولاة دمشق عن حماية قوافل التجارة والحج مما أدى إلى إصابة اقتصاد المدينة بخسائر فادحة. ناهيك عن عجزهم عن التصدي للحركة الوهابية التي استفحل أمرها في الجزيرة العربية، وسيطرتها على مكة المكرمة والمدينة المنورة، الأمر الذي أدى إلى تقليص قافلة الحج الشامي، وبالتالي تقليص ما تجلبه من نفع اقتصادي لدمشق، وقد توقفت هذه القافلة لسنوات عديدة. ولعل أكبر الضربات التي وجهت إلى اقتصاد دمشق، ما أصاب حرفييها وبعض تجارهابفعل الثورة الصناعية في أوربا، فزادت من أوضاعها ضغثا على إبالة، وما أعقب

ذلك من جراء فتحها على الغرب في ظل الاحتلال المصري، فانهارت بذلك معظم حرفها، بسدها أبواب الرزق في وجه معظم حرفييها.

وكان من الطبيعي أن تفرز هذه العوامل ظاهرات إجتماعية سلبية، ازداد معها عدد المنحرفين في دمشق. وسنحاول فيما يلي رصد تلك الظاهرات السلبية وأهم فئات المنحرفين في المجتمع الدمشقي، مثل المتمردين على السلطة أو العابثين بالقانون والشريعة. والمرتشين والغشاشين واللصوص، والمبتزين لأموال المستضعفين، والمتناولين للمخدرات والمسكرات سراً وعلانية، والشاذين في علاقاتهم الجنسية. واستفحال أمر العاهرات وبائعات الهوى.

ولقد حاول بعض العقلاء من رجال الدين ورجال السلطة، وضع حد لتلك الظاهرات بعد أن خدشت حياء المجتمع وكبرياءه، إلا أن مساعيهم باءت بالفشل، لأن المشكلة كانت أعمق من أن تعالج باجراءات سطحية. كما أنهم على ما يبدو، لم يدركوا الأسباب الرئيسة التي ذكرناها، والتي كانت تفوق طاقتهم. أما المصريون. فقد حاولوا معالجة بعض هذه الجوانب السلبية، فقاموا بمكافحة الآفات الزراعية كالجراد والفئران[1]، وسعوا لتوطين البدو في حواضر لاتقاء خطرهم عن الريف والمدن[2].

وحسنوا طرق المواصلات والموانيء، وأصلحوا النظام الجمركي[3]، وضربوا على يد

---

(١) قام بمكافحة الجراد الذي كان يسبب خسائر كبيرة في المحاصيل الزراعية كل عام فخصص عدداً كبيراً من رجاله لمكافحة موجة الجراد، واستخدم في ذلك الطرق الناجعة ومنذ ١٨٣٥م/١٢٥٢هـ تم تسجيل نقص محسوس في الأضرار الناتجة عن هذه الحشرات. انظر:
Enkiri. op.cit.P.294.

(٢) يعلق مستر كامبل على عملية ربط البدو الرحل بالأرض بقوله على أنها إحدى أكبر الإصلاحات التي قامت الحكومة المصرية في سورية، حيث كان البدو يعيثون فساداً في الحواضر فأصبحوا نافعين وأسهموا في تقدم الزراعة بعدما أقلعوا عن عادة النهب، ويمكن اعتبارهم بذلك مواطنين صالحين انظر:
Enkiri. op.cit.P.294.

(٣) وكتب (Boisle Comte) في سنة ١٨٣٣م/١٢٤٨هـ. مايلي: «كان للهيمنة المصرية على سورية أثر فوري. فقد نقلت السلطات المصرية النظر في الشؤون القضائية والإدارية إلى الاسكندرية بدلاً من القسطنطينية، وفتحت دمشق للاحتكاك بالأجانب الأوربيين، وجهدت لاقامة تحسينات في المواصلات والنقل وبناء الموانيء على الساحل، فزاد انتاج البلاد إلى درجة ملفتة للنظر واصلاحاته هذه فتحت دمشق لوكلاء التجار الأجانب، وقام الحكم المصري بتوسيع مينائي صيدا وبيروت وتطهير ميناء اسكندرونة، وحولوه ←

المختلسين والنشالين[1]، وعلى يد الموظفين الذي أساؤوا استخدام وظائفهم. فتحسنت الأوضاع الأمنية وبالتالي الأوضاع الاقتصادية بعض الشيء، مما انعكس بشكل ايجابي على الاوضاع الاجتماعية. الا أنهم من جهة أخرى فتحوا دمشق للاوربين فانعكس ذلك سلباً على أوضاعها الاقتصادية. كما أن صراعهم مع العثمانيين ومعارضة معظم الدول الأوربية لوجودهم في بلاد الشام، أو توسعهم في الأناضول، دفع بالأوربيين والعثمانيين على حد سواء، لخلق المتاعب للمصريين، وبرزت في المقدمة حركات التمرد ضد المصريين في أماكن عديدة من بلاد الشام. كل ذلك انعكس بشكل سلبي على الأوضاع في بلاد الشام. وبرزت مظاهره السلبية خاصة في الأماكن القصية والنائية عن مركز السلطة في دمشق[2].

وعلى ضوء ما تقدم نرى أن مرحلة الحكم المصري قد خففت بعض الشيء من تلك الظاهرات السلبية، إلا أنها أسهمت من جهة أخرى بخلق ظروف اقتصادية سيئة أدت بدورها إلى استفحال بعضها، بمعنى أن تلك المرحلة لم تستطع معالجة مسبباتها بشكل حاسم.

إلى ميناء حربي لهم. ويلاحظ (Boisle combte) أن تجارة سورية البحرية قد تطورت في عهد المصريين، فكانت صادراتها /١٢،٠٠٠،٠٠٠/ فرنكاً في حين كانت وارداتها /١٩،٠٠٠،٠٠٠/ فرنكاً كما يوافق كامبل (CAMBEL) وجميع الرحالة وغيرهم من الأوربيين، الذين زارو سورية، على أن تجارة سورية قد تزايدت في عهد المصريين مابين عامي ١٨٣٣ ـــ ١٨٤٠م /١٢٤٩ ـــ ١٢٥٥هـ/. ولضمان استثمار رؤوس الأموال قام المصريون بإصلاح النظام الجمركي والضريبي. انظر:
Enkiri. op.cit.P.295.

(١) يقول فتح الله الصايغ «صدف أحد الفلاحين يقود حماراً محملاً حطباً فقام أحد العسكر المصريين بأخذ الحمار غصباً عنه، وأخبر أمير اللواء بما حصل، فقال للترجمان عد إلي الساعة الرابع وخذ النتيجة، فحالا ضربة الترنبيطة (الطبلة) واجتمع كامل عسكر اللوى وضباطه، وجابوا العسكري بحضور كل العسكر وبطحوه على الأرض وجلس بلطجي على رأسه وبلطجي على رجليه، وتنين بلطجية كل واحد بيده كرباج واشتغل الضرب». ثم أعيد الحمار إلى صاحبه واعتذر له عن ذلك. ويورد حادثة مماثلة قام بها يوزباشي من الجيش المصري فأجبر اليوزباشي على إعادة حمل الحطب إلى صاحبه بنفسه.
انظر: المقترب في حوادث الحضر والعرب. ص٧٥آ و ص٧٥ب و ص٧٦آ.

(٢) ففي سنة ١٢٥٥هـ «نزل الحرامية على قرية صرفند العمار التابعة لمتسلمية الرملة وسرقوا ٢٢ راس من البقر وحصة حوائج ومصاغ، وتوجهوا وماعرف أحد منهم. وفي حادثة أخرى نزل اللصوص على قرية سلبيت التابعة لمتسلمية الرملة وقتلوا فيها رجلاً اسمه محمد نصر مع ابنه وتوجهوا ولم يعرفوا.».
انظر: رستم، أسد. الأصول العربية ... ص٢٦١.

ومن ناحية ثانية يمكن القول، بأن بعض ظاهرات الانحراف، لم تكن وقفاً على فئة دون أخرى، بل ترى خللا عاماقد أصاب أخلاق الناس وعقولهم، ويندر خلو مصدر تاريخي، عالج أحداث هذه الفترة، من أخبار هذه الظواهر الشاذة. ككتب اليوميات والحوليات والتراجم والرحلات. ولتسهيل دراسة هذه الظواهر، ولأهميتها في السياق التاريخي العام لمدينة دمشق، رأينا أن نبوبها في فقرات بحسب أهميتها:

الزرب

مفردها زربة. وهي لفظة يونانية الأصل أطلقت على أشقياء الجند والرعاع[1]. وأطلق العامة آنئذ على الصدامات والحروب والثورات لفظة (زرنبات)[2]. كما أطلقت كلمة زرب أو زرباوات (جمع زربة) على الذعر، وهي تقابل كلمة الفتّوات[3] في مصر والعيّارين في العراق.

شكل الزرب شريحة من الانكشارية، فرزتهم أوضاع دمشق الاقتصادية والاجتماعية، وجند بعضهم لصالح بعض الشخصيات ليجابهوا بهم قوى القابي قول والمرتزقة وغيرهم. وكانت لتسميتهم هذه مدلولها السياسي والعسكري عندما شغلوا حيزاً سياسياً في مدينة دمشق في هذه الفترة، ويبرز هذا الاختلاط في مدلولاتهم لدى الاخباريين، فلا يفرقون بينهم وبين اليرلية. وعمل بعض الزرب في مجال الاقتصاد فكان منهم (حرفيون ولهم كدكات)[4]. ويذكر البديري الحلاق في أحداث ١١٥٨ هـ/ ١٧٤٥ ــ ١٧٤٦ م (أن أمر الزرباوات قد تعاظم في دمشق وهم الأشقياء فاستطالوا في سب الدين وظلم الناس... كما كان لهم زعيم في حي الميدان هو مصطفى آغا بن خضري الذي لقب نفسه بسلطان الشام)[5]، ويدل ذلك على أن هؤلاء قد شكلوا قوة سياسية في دمشق في وقت ضعفت فيه السلطة العثمانية، وحاولوا أن يتصدوا لعناصر السلطة وللخاصة. إلا أن تصرفهم لم يتصف بالتعقل، ولم يكن لهم برنامج سياسي أو اقتصادي، وانما أفرزتهم ظروف مجتمع دمشق، وجمعتهم كراهيتهم للارستقراطية فيها. فاستغلت الارستقراطية أخطاءهم لتزيد من كراهية الدمشقيين لهم[6].

(١) انظر: رافق، عبد الكريم. تاريخ المشرق العربي في العهد العثماني. ص١٨٢.
(٢) انظر: الصايغ، فتح الله. المقترب في حوادث الحضر والعرب. ص٥٣آ.
(٣) انظر: البديري. حوادث دمشق. ص٥ الحاشية.
(٤) البديري. نفس المصدر. ص١٨ و ص١٩.
(٥) البديري. نفس المصدر. ص٦٢ و ص٦٧.
(٦) رافق، عبد الكريم. تاريخ المشرق العربي في العهد العثماني. ص١٨٧.

وحاول أسعد باشا العظم أن يستغل غضب العامة في سنة ١١٥٩هـ/١٧٤٦م، عندما ثارت لارتفاع الأسعار، ومهاجمتها للقاضي، لأنه لم يقم بمهام المحتسب، وقطع الوالي المذكور الطريق على ثورتها باظهاره أن سبب المشكلة هم الزرب أنفسهم وأن حلها لا يتم إلا بتصفية زعمائهم.

فقام في ٢٢ صفر ١١٤٩هـ/١٧ آذار ١٨٤٦م بمهاجمتهم في اتجاهين: الأول في حي الميدان والثاني باتجاه سوق صاروجة. وبعد احتلال الحيين قام بملاحقة الزرب في حارات دمشق، وساعده في ذلك مشايخ الحارات، وهدد كل من يحمي أو يخبيء أحدهم، فصار شيوخ الحارات «يتتبعون الأشقياء واحد بعد واحد ويقولون لحضرة الباشا هذا الشقي فلان الفلاني وهذا الاغا الفلاني وهذا الشربجي الفلاني. فيضرب أعناقهم أمام باب السرايا وترك جسومهم تأكل منها الكلاب مدة طويلة حتى صاروا عبرة لمن اعتبر». وفر عدد كبير من الزرب خارج دمشق، فالتجأ بعضهم إلى البدو و (عرب ابن كليب) وإلى ضاهر العمر في طبريا، وآخرون إلى جبل الدروز عند آل تلحوق وآل عبد الملك. وفي سنة ١١٦١هـ/١٧٤٨م قام الزرب بمهاجمة الزبداني ثم مدينة دمشق مستغلين غياب والي دمشق أسعد باشا العظم مع قافلة الحج، فتصدى لهم متسلمه (موسى كيخيا) وردهم على أعقابهم اعتمادا على قوات المرتزقة والقابي قول[1]. وبقي عدد كبير من الدمشقيين يتعاطفون مع الزرب مما عرضهم لنقمة أسعد باشا العظم، حيث قام باعدام عدد منهم بتهمة مساعدة الزرب[2]. وقام أمير جبل لبنان بإبعاد من لجأ منهم إلى مقاطعاته كي لا يسيئ إلى علاقته مع أسعد باشا العظم، وقبض ظاهر العمر على عدد منهم وقام بقطع رؤوسهم وأرسلها إلى استانبول، ليدلل بذلك على طاعته وخضوعه للسلطة العثمانية، ورغم الضعف الذي أصاب الزرب في أواخر عهد أسعد باشا العظم، إلا أن الحال قد تغير في عهد خلفه حسين باشا مكي. وعندما عزل الأخير عن ولاية دمشق أرسلت الدولة بديلاً عنه عبد الله باشا الجته جي، فدخل دمشق في ٢٧ ربيع الثاني ١١٧١هـ/٨ كانون الثاني ١٧٥٨م. مصطحباً معه قوات كبيرة من الدالاتية واللاوند والارناؤوط، بهدف تصفية الزرب والتصدي للبدو الذين روعوا قافلة الحجاج في عهد سلفه حسين باشا مكي، وقام بمهاجمة معقلهم في حي

---

(١) انظر: البديري. حوادث دمشق... ص٦٩.

(٢) انظر: رافق. تاريخ المشرق...ص١٨٨.

الميدان فلم يستطع الزرب الصمود في وجهه، واخترقت قواته حي الميدان دافعة أمامها قوابت الزرب إلى أن وصلت إلى بوابة الله جنوب حي الميدان. وقامت قواته بقتل من صادفته منهم أو اعتقاله، ويقول البديري: «لم يتركوا كبيراً ولا صغيراً الا قتيلا أو أسيراً... مستعملين القتل والنهب وهتك الأعراض... وانتكبت أهل الشام في ذلك العام نكبة ما عهدت من أيام تيمور»[1].

ولقد سعت السلطات العثمانية للقضاء على الزرب أكثر من مرة، إما بالتصفية الجسدية أو الملاحقة، ورغم أن ذلك قد خضض شوكتهم إلا أنه لم يقض عليهم نهائياً. فكانوا كلما آنسوا من أنفسهم القوة ومن السلطات العثمانية الضعف، سعوا لسد الفراغ السياسي في دمشق، كشريحة من قوى اليرلية، مما أقض مضجع السلطات العثمانية وأربكها، خاصة وأنه لا يمكنها أن تتغاضى عن وجود قوى في دمشق تعكر صفو أمنها، نظراً لأهميتها الدينية ودورها في قافلة الحج الشامي، في وقت كانت الدولة تعاني من هزائمها العسكرية على جبهات القتال مع روسيا وغيرها.

فلا غرابة إذا ما رأينا أن المسؤولين العثمانيين يعاودون الكرة في ضربهم وملاحقة عناصرهم أينما وجدوا. ففي سنة ١٢١٤ هـ/١٧٩٩ ــ ١٨٠٠م قام الصدر الأعظم يوسف باشا باعتقال عبيد الأدهمي أحد زعماء الزرب في دمشق عندما لاقاه خارج دمشق وقال له: «انتي كنت زربا في الشام وطردتوا ابراهيم باشا... وجابه بالجنزير الى دمشق وبعد أربعة أيام ختم بيته وقتله..»[2]. ولم يكتف الصدر الأعظم بذلك بل لاحق زعماء الزرب كأبي حمزة وابن خنفس وغيرهما حيث قام بقتلهم. وقام والي دمشق أحمد باشا الجزار بملاحقة الزرب أيضاً فقتل بعضهم واعتقل بعضهم الآخر، مما أدى إلى فرار الناجين منهم إلى خارج دمشق، كحلب وجبل الدروز. ويقول ميخائيل الدمشقي معلقاً على ذلك بقوله: «الذي وقع انضام جداً»[3]. وفي سنة ١٢١٨ هـ/١٨٠٣ ــ ١٨٠٤ م قامت قوات الجزار «بمسك الأولاد من الشام كل يوم يمسكوا أربعة خمسة ويحبسوهم بزنزان القلعة ويشتغل العذاب من الأكراد الذي باعثهم الجزار إلى الشام بالكاشات والحدايد والعصي وغير ذلك إلى أن

(١) البديري. المصدر السابق. ص٢١٤ و ص٢١٥.

(٢) العبد، حسن اغا: تاريخه، ص٥٨ و ص٥٩.

(٣) نفس المصدر. ص٢٧.

ينهوا الرجل من القتل والعذاب ». وبقي الزرب على هذه الحالة إلى وفاة الجزار ١٢١٩هـ/١٨٠٤ـــ ١٨٠٥م حيث استرجعوا أنفاسهم، فقاموا على قدم وساق في دمشق للانتقام من زبانيته المتمثلة بقوى السكبان والدالاتية والأكراد « فتعذبهم الخلق بعد ما كانوا يعذبوا المخاليق »[١].

وهكذا أدرك الزرب، أن أدوات السلطات العثمانية في التصدي لهم، كانت من القوى الغريبة عن دمشق، كقوات القابي والمرتزقة وغيرهم، ولهذا سعوا لابعاد الغرباء عن دمشق وحاولوا قفل أوجاق اليرلية في وجههم، ويعلق العبد في أحداث ١٢٣٠هـ/١٨١٤ـــ ١٨١٥م: « أن أهل الشام حملوا السلاح، ونبهو على الغربية يرحلو عن الشام وأن ما رحلوا فدمهم مهدور كما ذهب الزرب إلى آغا اليرلية اسماعيل شربجي بن المهايني وأجبروه على عدم قبول الغرباء في أوجاق اليرلية »[٢].

وفي سنة ١٢٢١هـ/١٨٠٦ـــ ١٨٠٧ ازداد عدد قوات اليرلية والزرب في دمشق بدخول اعداد كبيرة من فلاحي الغوطة في تنظيمهم. ويقول العبد: إن هؤلاء « دخلوا بأخباز أو غير أخباز ومن القول أربعمائة خمسمائة ومن الضيع نحو ألفين ومن الصالحية نحو ألف واحد »[٣]. وقاموا بالتصدي لقوات القابي قول في شوارع دمشق، وبدأ إطلاق النار بين الطرفين من على الاسطحة والأسواق والمآذن[٤]. وبقي الحال كذلك إلى منتصف شهر شعبان ١٢٢١/هـ كانون الثاني ١٨٠٧م حيث عاد والي دمشق عبد الله باشا العظم من الدورة، إلا أنه لم يستطع أن يفعل شيئاً، فازورّ في داره، ولم يذهب إلى سراية الحكم، وخاف من بطش الزرب، فلجأ مع حريمه إلى بيت مصطفى الاورفلي إلى شهر رمضان من ذلك العام[٥].

ونتيجة لخطورة الوضع في دمشق والأماكن المقدسة في الحجاز، قامت الدولة العثمانية بعزل عبد الله باشا العظم، وعينت مكانه الكنج يوسف باشا واليا على دمشق، وقام الوالي

---

(١) نفس المصدر ص١٠١ و ص١٠٢ و ص١١٠.
(٢) نفس المصدر. ص٤٥ و ص٤٦ و ص٤٧.
(٣) : نفس المصدر. ص١٢٧ والمقصود بالقول ـــ هو قوات القابي قول في دمشق.
(٤) نفس المصدر. ص١٢٩.
(٥) نفس المصدر ص١٢٨ و ص١٣٩ و ص١٣٠.

الجديد بقتل بعض زعماء الزرب، كاسماعيل شربجي بن المهايني وغيره[1]. الا أن الوالي المذكور لم يكمل طريقه في تصفية الزرب، بل التفت إلى تأمين مصالحه الشخصية واهمال أمرهم، كما أهمل أمر الحركة الوهابية التي أقضت مضاجع السلطات العثمانية واستفحل أمرها.

وشاهدت استانبول في هذه الفترة اضطرابات شديدة بسبب الغاء أوجاق الانكشارية وادخال بعض الاصلاحات إلى جسم الامبراطورية. واستطاع السلطان محمود الثاني في ١٨٢٦ / ١٢٤١ ـــ ١٢٤٢م حسم الموقف لصالح التنظيمات، واقامة النظام الجديد في الدولة. وشعرت الانكشارية في دمشق أن ذلك سيصيب مصالحها بشر مستطير، لذا صممت على مقاومته بأي ثمن. وعندما أرسل السلطان في ١٨٣١م/١٢٤٦ـــ١٢٤٧هـ. الصدر الاعظم محمد سليم باشا واليا على دمشق لفرض ضرائب جديدة عليها، لتوفير المال من أجل النظام الجديد، شعرت قوى اليرلية بتضييق الخناق حول رقبتها، فكان لابد من تحركها، فأبعدت الغرباء عن أوجاقها كالمواصلة والتكارتة والمغاربة خوفا من استخدامهم ضدها. ثم قام الاغوات المحليون بعقد مؤتمرهم في الربوة و« تحالفوا على الطلاق ووضعوا يدهم على السيف والمصحف بأنهم يكونوا رأيا واحدا وحالا واحدة وكلمتهم واحدة وصليان لا يمشوا ولوا ذهبوا (هلكوا) على آخرهم »[2].

وفي عصر يوم الجمعة ١٥ ايلول ١٨٣١م/١٢٤٦ـــ١٢٤٧هـ. قام زعرحي العمارة بضرب الموظفين المكلفين بتسجيل أسماء دافعي الضرائب[3]، وهي ضريبة الصليان على العقارات والدكاكين وغيرها، وحاولوا استغلال المشاعر الدينية الاسلامية فأشاعوا بأنها جزية. وشعر الوالي أن لابد من فرض هيبة الدولة، كما لابد من كسر شوكة اليرلية والزرب، ونشب الاصطدام بين الطرفين وذهب ضحيته عدد كبير منهما، وتحول الصدام إلى حرب شوارع في حي القنوات والشاغور والميدان، وتمكنت قوى الزرب من تطويق السرايا، وأجبرت الوالي على الفرار منها إلى جامع المعلق ومنه إلى خان الدالاتية. وفي النهاية تمكنت من قتل

---

(١) نفس المصدر. ص١٣٧.

(٢) انظر: مجهول. مذكرات تاريخية. ص٢٦

(٣) انظر: الدمشقي، ميخائيل. المصدر السابق. ص٥٠

الوالي مع عدد كبير من جنوده . واستطاعت قوى الزرب أن تنفرد بحكم دمشق بدءا من ٢٥ تشرين الأول ١٨٣١ / محرم ١٢٤٦ هـ . وأجبرت السلطات العثمانية على الاعتراف بها ، وغض الطرف عما قامت به في دمشق مرحلياً ، أمام الخطر الأكبر المتمثل بزحف قوات ابراهيم باشا المصري على بلاد الشام . ولقد زاد موقف الدولة العثمانية ، القوى اليرلية غروراً وثقة بالنفس ، « فسارت بالعراضات في أحياء دمشق تحرض على القتال »[١] ضد ابراهيم باشا المصري القادم اليها . وخرجت بعد ذلك لملاقاته في سهل كوكب . وفي ١٤ محرم ١٢٤٧ هـ / ١ حزيران ١٨٣٢ م . وجرى الصدام بين الطرفين ، فلاذت قوى الزرب بالفرار مخلفة وراءها عشرة أنفار قتلى كان أحدهم « لحام دكانه في باب البريد حلبي أسمه سعود رجل مشهود له بالمرجلة »[٢] .

وتشتت قوات الزرب نتيجة لتعقب ابراهيم باشا المصري لفلولهم ، لضمان سيطرته وتوفير الامن والاستقرار في دمشق ، وأدى ذلك إلى تناقص عددهم وتدني شأنهم ، وبقي حالهم كذلك إلى أن استعادت القوات العثمانية دمشق سنة ١٨٤٠ م / ١٢٥٥ — ١٢٥٦ هـ فقامت بتصفية حسابها مع من تبقى من زعمائهم الذين قادوا الثورة ضد الوالي محمد سليم باشا .

الرشوة والغش وأسبابهما

استفحلت هاتان الظاهرتان نتيجة لتردي الأوضاع الاقتصادية . وترتب على تلك الأوضاع أن وقع ضعاف النفوس والجشعون تحت وطأة الطمع ، فانحرفوا عن الطريق السوي ، ومالوا إلى الرشوة ، فانتشرت بين موظفي الدولة على اختلاف درجاتهم ، وأصبح أمرها معروفاً لدى العامة والخاصة ، وشملت وظائف الدولة من القمة في استانبول الى أدنى مستوياتها في دمشق تقريباً ، وأصبحت المناصب العليا (كالولاية — والدافتردارية — والقضاء — والإفتاء — ونقابة الاشراف وغيرها) ، لاتمنح بحسب الكفاءة بل مقابل مبلغ من المال ، وأقيمت أسواق المزايدات عليها بين الطامحين ، فاستلمها أناس غير أكفاء . فكان من الطبيعي أن يسعى

---

(١) انظر : البيطار ، عبد الرزاق . حلية البشر ... ج ١ . ص ٣٢٠ .

(٢) مجهول . مذكرات تاريخية . ص ٥٤ .

هؤلاء لتعويض ما دفعوه ثمناً لمناصبهم، بالإضافة إلى ادخار مبالغ من المال لأيام قد تدعو اليها الحاجة بعد العزل، خاصة وأنهم يعلمون أن المنافسين ينتظرون دورهم للحصول عليها.

ونتج عن ذلك، أن أهمل أصحاب المناصب مهامهم في الغالب، وتغاضوا عن إجراء أي إصلاح، والتفتوا إلى تأمين مصالحهم الخاصة، فأرهقوا الشعب بطلب المال، ومارسوا الظلم من أجل جمعه، فتفاقمت الأزمات الاقتصادية والاجتماعية، وضاعت حقوق الضعفاء، وطغت المحاباة على الحقوق في دوائر الدولة المختلفة، وعم الفساد والرشوة، وأصبح ماعداهما شذوذاً في نظر المجتمع الدمشقي. وحسبنا أن نسوق مثالا على ذلك ما أورده الإخباري الدمشقي الشيخ أحمد البديري الحلاق في أحداث سنة ١١٦١ هـ/١٧٤٨ ــ ١٧٤٩ م يقول: «إن أهل دمشق سعوا لعزل قاضي الشام السيد محمد أفندي بشمقجي زاده لأنه لا يأكل الرشوة ولا يميل في دعوى»[١].

ويورد المرادي مثالا آخر على تفشي الرشوة بين أصحاب المناصب الدينية وكيفية سعي البعض لمحاربتها فيقول: «إن المفتي الحنفي بن العمادي كان يزجر أمين الفتوى على التركاني خوفاً من إدخال الرشوة في أمور الفتيا عليه»... ويردف المرادي قائلاً: «رحم الله العمادي رحمة واسعة حيث قطع أيدي المرتشين»[٢]. مما يدل على انتشارها بين أصحاب المناصب الدينية.

ويذكر الشيخ عبد الرزاق البيطار في حلية البشر «ان السيد أسعد أفندي بن نسيب أفندي حمزة الدمشقي كان يتنقل في مجالس الحكومة من مجلس إلى آخر عضوا من الأعضاء وإن الناس تقصده لجلب النفع ورفع البلاء ويقدمون له جانبا من الدراهم والدنانير ليساعدهم فيقبلها على طريق الهدية من غير تأخير»[٣].

وعندما استفحل أمر الرشوة وشراء المناصب بالمال، اضطر السلاطين لاصدار فرمانات شاهانية لتحذير جميع العاملين في الدولة من الظلم والرشوة. إذ لا يفي تعيين مثل هؤلاء بالغرض بل يكون عبئاً على الدولة والشعب[٤].

---

(١) حوادث دمشق اليومية. ص١٣٢.

(٢) المرادي، محمد خليل. سلك الدرر... ج ٣. ص٢٢٩.

(٣) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر. ج ١، ص٣١٠.

(٤) انظر: سجلات الوثائق التاريخية بدمشق. المجلد الثاني. الوثيقة رقم ١١/ ص١٩ و ص٢٠ و ص٢١ و ص٢٢ / تاريخ ٢٣ ح/ سنة ١٢٤٤هـ. ثم الوثيقة رقم ١٤/ص٢٤ و ص٢٥. تاريخ ٣/٧/١٢٤٤هـ.

أما الغش فقد انتشر بدوره وكانت دوافعه نفس الدوافع إلى الرشوة. وشملت هذه الظاهرة بعض أفراد العامة من مجتمع دمشق، كالحرفين والصنّاع الغرباء المقيمين فيها وغيرهم، «طلباً للرزق أو طمعاً في جني المرابح، فشمل نواحي عديدة كصك النقود وحرفة البزاز والبني والصبان والحلاب والحناوي والخباز والبرازقي والقشاط والبوايكي والدلال والسمسار والعميل والضمان للبساتين والفواكه والطبيب والساعاتي والرمال والعرافة والمنجم والراقي والسائل والكلاب والسراق»[1]. وغيرهم. وتطالعنا كتب التاريخ لهذه الفترة بحوادث عديدة من عمليات الغش، التي أدخلت إلى المواد الاستهلاكية. فمثلا البديري يورد في أحداث سنة ١١٦٠هـ/١٧٤٧ــ١٧٤٨م أن رجلا باع جرة على أنها مليئة بزيت الزيتون، فإذا هي مليئة بالماء وعلى وجهها بعض الزيت[2]، كما أدخل الغش إلى القشطة والأرز الناعم[3]، وأضاف بعض الحلابين الماء إلى الحليب وباعوه على أنه خالي الغش، وأضاف بعض الخبازين إلى دقيق القمح دقيق الفول أو الحمص أو الكرسنة أو التراب أو الصفوة (الرماد)، حتى أصبح «لاتأكله البهائم»[4].

ووقع الخبازون أسرى غش الطحانة للدقيق المباع لهم، ويعلق القاسمي على فعل الطحانة بقوله: «ندر من استمرت ثروته منهم إلى آخر حياته، وذلك لما انطوى عليه أصحاب هذه الحرفة من الغش الواضح البين، وهو طحن أصناف الحبوب التي قيمتها دون الحنطة، كالذرة والناعم من طحين البرغل وما يبس من البطاطا وادخالها مع طحين الحنطة وبيعها إلى الفرانة[5].

وأدخل بائعو الفحم الخشبي الحجارة اليه. ويعلق القاسمي على ذلك بقوله: «لا يفلحوا ما لم يتوبوا»[6].

أما المطربازيون الذين كانوا يبيعون الأمتعة، فقد سلكوا طريقاً آخر في الغش

---

(١) انظر: السباعي. أضواء على قاموس الصناعات الشامية. من ص١٥٥ الى ص١٦٤. نقلا عن القاسمي
(٢) حوادث دمشق اليومية. ص١٥٥.
(٣) القاسمي، المصدر السابق. ج ١. ص١٠٥ وج ٢. ص٣٥٣.
(٤) القاسمي، المصدر السابق. ج ١. ص١٢١.
(٥) قاموس الصناعات الشامية. ج ٢. ص٢٩٠.
(٦) القاسمي، المصدر السابق. ج ٢. ص٣٣٦.

والاحتيال، فكانوا يتواطؤون على من يريد بيع أمتعته لحاجته إلى ذلك «فيشترونها بربع ثمنها، وإذا ما ذهب البائع يتزايدون فيما بينهم. الا أن هذه الحرفة عديمة البركة لكثرة الغش»[1]. وتواطأ أصحاب البساتين من غوطة دمشق في موسم ضمان الثمار مع بعض الضمانة لرفع أسعار الضمان وإيقاع البسطاء من الضمانة في اشراكهم)[2]. ووجد النصاب الذي يذهب إلى القرى أو إلى البدو، فيتعمم بشاش أخضر، ويتوكأ على عصا معروفة (بالجوكلانة) تارة يرقي وأخرى يكحل، ويصحب معه ورقة ملفوفة بأخضر يزعم أن فيها نسبه أو سند طريقته[3].

وهكذا اختلفت الاساليب والطرق الملتوية من أجل جني المال والكسب غير الحلال. على أن أسوأ أنواع الغش في هذه الفترة، ما انصب على خلط النقود بمعادن خسيسة أو التنقيص من وزنها. فانعكس ذلك عى قدرتها الشرائية بشكل سلبي، وشمل ضررها كل من تعامل بها.

وتعود عملية خلط النقود بمعادن خسيسة إلى عوامل خارجية وداخلية، أحاطت بالدولة العثمانية، كان من أهمها استعمار العالم الجديد من قبل الدول الأوربية، وتدفق المعادن الثمينة اليها، ثم تحول معظم طرق التجارة الدولية من الشرق الأقصى إلى أوربا، عن طريق رأس الرجاء الصالح، ثم انعكاس حركة التجارة عبر بلاد الشام. فأدى ذلك إلى حرمان العثمانيين من دخول كبيرة.

ناهيك عن تفوق أوربا عسكرياً مما حرم الدولة العثمانية من غنائم الفتوحات ولعل أشد الضربات الموجعة التي وجهت إلى اقتصاد الدولة العثمانية كانت في قيام الثورة الصناعية في أوربا اعتماداً على طاقة البخار، فأدى ذلك إلى تفوق المصنوعات الأوربية كماً ونوعاً. فكنست المصنوعات المحلية من الأسواق، كما اتبع الاوربيون طريقة البيع بالنقد بدلا من المقايضة بالبضائع العثمانية مما أدى إلى نزف كبير في المعادن الثمينة، واستقرت في جيوب الأوربين، وشكل ذلك ضغطاً كبيراً على نقد الدولة العثمانية، فأربك اقتصادها، وعجزت عن حل تلك المعضلة رغم أنها سلكت سبيلين إلى ذلك:

---

(١) القاسمي، المصدر السابق. ج ٢. ص٤٥٠.
(٢) القاسمي، المصدر السابق. ج ٢. ص٢٨٥.
(٣) القاسمي، المصدر السابق. ج ٢. ص٤٨٤.

أولهما إدخال المعادن الخسيسة في صلك نقود جديدة وطرحها للتداول بين أيدي المواطنين، مما أدى إلى انخفاض قدرة النقد الجديد الشرائية، فارتفعت الاسعار وحاول المواطنون الاحتفاظ بالنقد القديم والتعامل به بدلا من النقد الجديد، وكان النقد المتداول عديد الأنواع، فمنه العثماني ومنه الأوربي ويمكن رصد هذه الأنواع في سجلات محاكم دمشق. كالبارة والقرش الميري الصاغ والقرش المعاملة الشامية، وهناك النقود الذهبية المجرية و البندقية والنمساوية والانكليزية والاسبانية وغيرها.

أما السبيل الثاني الذي سلكته الدولة العثمانية فهو: سحب المعادن الثمينة من المواطنين، فطلبت منهم تسليم ما بحوذتهم، وما يمكن الاستغناء عنه لدى النساء والرجال، كالحلي وبعض الحاجيات الخاصة، وما استخدم منه في صناعة رخوت الخيل والجمال والغلايين وأبزاز وعلب التبغ وغيرها.

ونتج عن ذلك أن سعى بعض الطامعين والجشعين لاقتناص هذه الفرصة، فجنوا مرابح كبيرة باستخدامهم أساليب الغش المختلفة. وكان على رأس هذه الفئة الصيارفة والتجار والمهربون وغيرهم. أما الصيارفة فقاموا بتخفيض وزن النقد المضروب مجدداً. وقام آخرون بضرب نقود مخلوطة بمعادن خسيسة، وقاموا بترويجها في الأسواق للتداول خفية عن الدولة. ويذكر البديري الحلاق في أحداث سنة ١١٦٣ هـ/ ١٧٤٩ / ١٧٥٠م أنه «جرّس رجل في دمشق قيل أنه يدق الزغل في المعاملة فركب حمار بالمقلوب وسخم وجهه بالسواد وآلة العمل (الضرب) على صدره ودير به في البلد كلها»[(١)].

وتطالعنا سجلات الوثائق التاريخية في المتحف الوطني بدمشق ببعض الفرمانات الصادرة عن الباب العالي، والموجهة إلى والي دمشق والسلطات المالية فيها، تحضهم على فرض التعامل بالنقود الجديدة وملاحقة الغشاشين ومهربي النقد القديم.

ومما جاء في نص فرمان سلطاني صادر في عام ١٢١٧ هـ/ ١٨٠٢ ـــ ١٨٠٣م «ان الدولة العثمانية منذ عدة سنوات تخوض حروباً لتأديب عصابات الروم الموجودين على الحدود مدفوعين من قبل الروس واضطررنا لدعوة عدد كبير من الجنود للتصدي لهم وبسبب ذلك

(١) حوادث دمشق اليومية. ص١٦٢.

للدولة مصاريف باهظة وتلافياً للنقص الخطير في ميزانية الدولة فقد أصدرنا بعض النقود من فئة خمسة قروش و ١٠٠ مصرية و ٢٠٠ مصرية لتخفيض الاعباء عن كاهل الخزينة السلطانية ووضعنا هذه النقود في التداول وهي ممهورة بخاتمنا فعلى جميع المسؤولين التعامل بها »[1].

إلا أن استجابة الدمشقيين لذلك كانت سلبية، فاحتفظوا بالنقود القديمة وتعاملوا بها، واستمر الغشاشون بضرب النقود بوسائلهم الخاصة، واستمر تهريب واحتكار النقد القديم من قبل تجار السوق السوداء. فاضطرت الدولة لاصدار فرمانات أخرى نعتت أولئك: « بأصحاب النفوس المريضة الذين يستغلون ظروف الدولة الصعبة لارضاء جشعهم واملاء جيوبهم بشكل غير مشروع »[2].

وكان لابد للدولة العثمانية بعد ذلك من اتخاذ اجراءات حاسمة، فأرسلت بعض موظفيها إلى دمشق للاشراف على تبديل النقد الجديد، ووضعه للتعامل في يد الدمشقيين، ثم ملاحقة المتلاعبين بالنقد والغشاشين. فأرسلت في سنة ١٢٤٥ هـ/ ١٨٢٩ ــ ١٨٣٠ القائمقام أحمد خلوصي مع بعض الموظفين، وحملته اختام السلطان لختم النقد المضروب في دمشق منعاً للتلاعب وعندما وصل إلى دمشق أقام مركزاً لضرب النقد وتبديله. ثم بث العيون لمراقبة المتلاعبين بالنقد وملاحقتهم. واستطاع أن يلقي القبض على بعض تجار السوق السوداء في هذا المجال وكان منهم: « ألتنجي أوغلي وصنجق بك. ورئيس الصيارفة وشريكه حسن وصاحب الخان حاج محمد قسطموني حيث كانوا يتجمعون في إحدى التكايا ويخبئون فيها النقود المهربة »، وطلب من استانبول نفيهم إلى أماكن بعيدة عن دمشق ليكونوا عبرة لغيرهم[3].

٣ً ــ السرقة والسطو والبلص

كانت هذه الظواهر أيضاً من إفرازات الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والادارية السيئة التي أحاطت بدمشق في تلك الفترة.

(١) انظر: المجلد ٢ الوثيقة رقم ٣٣/ ص٣٩ و ص٤٠.

(٢) المجلد ٢/ الوثيقة رقم ٤٣، ص٥٢ القسطنطينية ٢ ربيع الأول ١٢٤٥ هـ.

(٣) انظر: المصدر السابق المجلد ٢/ الوثيقة رقم ٤٤/ ص٥٢.

ولقد أخذت السرقة تسميات مختلفة في بحسب الطريقة التي اتبعت في تنفيذها. فالسّراق مثلاً هو الذي يأخذ مالا خفية من حرز بليل أو نهار، ويسمى أيضاً الحرامي باصطلاح أهل الشام ولقد اشتقت الكلمة من (الحرام) لحصوله على مال حرام وبطريقة غير مشروعة، ثم النشتري وهو من يراقب شخصاً معه كيس دراهم مثلا وينظر أين وضعه من ثيابه فيحاذيه في المشي سيما في الازدحام فيسحبه من جيبه إذا أمكن وان لم يقدر شق ثوبه بسكين صغير يسمى «النشتر» ويأخذ ما معه[1]. ولقد وجدت هذه الفئات من اللصوص في دمشق آنئذ كما وجد من يصرّف لهم مسروقاتهم كالبسطاطي[2] مثلاً. وتعاون اللصوص فيما بينهم في قرى الغوطة الغربية والشرقية، فكان بعضهم يقوم بسرقة الحيوانات والمواشي في أماكنهم ويبيعونها في أماكن بعيدة عنهم كي لا يكشف أمرهم.

وكانت العادة، عندما يتعرف صاحب السلعة المسروقة عليها، أن يذهب إلى القاضي ليبلغه ذلك، فيرسل الأخير توفنكجيا أو أكثر (بمثابة شرطي) لاستدعاء المدعى عليه إلى المحكمة، ويأتي بالشهود ويقوم بالفصل في الدعوى. ونسوق مثالا على ذلك ما حصل في سنة ١٢٢٢هـ / سنة ١٨٠٨م حيث ادعى زين بن اسماعيل الغزالي لدى نائب قاضي قضاة دمشق في المحكمة العونية على مصطفى الاسكندراني بأن في حوزة المدعى عليه فرسا شقراء تعود ملكيتها للمدعى، وأنها سرقت منه منذ سبع سنوات. وبعد اجراء التحقيق والمحاكمة تبين للقاضي أن الفرس قد اشتراها مصطفى الاسكندراني من بلاد بشارة، وأن ملكيتها تعود للمدعي، فحكم القاضي باعادة الفرس لصاحبها السابق (المدعي)[3].

ورغم أن السرقة كانت عامة في المدينة والريف، إلا أن المناطق الوعرة والطرقات التي تمر بها، وكذلك الممرات الاجبارية في وديان الجبال، والطرق القريبة من الاحراج والغابات أو القريبة من أطراف البادية، كانت أكثر خطورة على المسافرين والسابلة من بقية المناطق الأخرى، على اعتبار أن تلك المناطق بعيدة عن حماية السلطة من جهة وقريبة من مناطق لجوء اللصوص من جهة ثانية.

لهذا نرى سجل محكمة حماة مليء بمثل هذه القضايا، ومعظم السرقات انصبت على

---

(١) القاسمي: قاموس الصناعات الشامية / ج ١، ص١٨٣.

(٢) البارودي، فخري. مذكراته. ج ١، ص٧٤.

(٣) سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٦٠ / القضية بتاريخ ٩ رجب ١٢٢٢هـ.

المواشي والحيوانات والمختلفة سواء من مراعيها أو مرابضها، أو أخذت عنوة من أصحابها (تشليح وسطو) لتباع بعد ذلك في بازارات بعيدة عن حماة [(١)].

ولم يكن، حال أطراف دمشق وأرباضها وريفها بشكل عام، أفضل مما كان عليه الحال في حماه، ويقول القاسمي: «لا يمكن لأحد أن يغفل عن داره أو بستانه إلا وتلعب فيه أيادي أولئك الأشرار. فلا يجدون متاعاً إلا أخذوه ولا حيواناً إلا وأحرزوه.. هؤلاء الأشقياء يتألفون من جملة أشخاص في كل قرية أو شخصان، فإذا ما سرقوا شيئاً ما من قرية غربي دمشق، يقوم رفقاؤهم المقيمون في القرى الشرقية أو الشمالية بتخبئته ونقله. ولم يخل يوم من وقوع سرقة أو جملة سرقات [(٢)]».

وفي مدينة دمشق لم تنجُ جوامعها أو أضر- ة الاولياء، وحتى قبور الموتى فيها، من شر اللصوص، ويذكر البديري الحلاق في أحداث سنة ١١٦٦ هـ/ ١٧٥٢ ــ ١٧٥٣ م أن لصوصاً قاموا «بنهب ضرائح الصحابة والأولياء في غرة رجب فخلعوا شباك سيدي بلال الحبشي، وأخذوا شباك مزار الشيخ عبد الجبار بن سيدي عبد القادر كيلاني الذي يقع في غربي باب الصغير، وأخذوا ثوب تابوت سيدي أبيّ الذي يقع قبلي حضرة الشيخ رسلان [(٣)]». وفي سنة ١٢١١ هـ/ ١٧٩٦ ــ ١٧٩٧ م وجد أناس في الشاغور «اعتادوا على تشليح الموتى وقام الوالي باعدام اثنين منهم شنقاً» [(٤)]. ولم تنج قافلة الحجاج من اللصوص.

وبرع بعض اللصوص في دمشق وذاع صيتهم. ويذكر البديري في أحداث سنة ١١٦٤ هـ/ ١٧٥٠ ــ ١٧٥١ م «أنه في ٨ جمادى الأولى اغتيل رجل شقي من الصالحية يعرف بالفستقي كان كما قيل داهية دهماء ومصيبة عظماء شجاع يرد مائة شجاع بعصا، سارق ما سمع بمثله بين اللصوص المشتهرين بالحيل فمتى وضع يده على أعلى حائط ومتى علق

---

(١) انظر: سجل محكمة حماة رقم ٥٠/ ١٢٥١ ــ ١٢٦٣هـ حيث ورد في ص٢٥٤ «سرقة بغل وفي ص٢٤٧ سرقة حمار أسود وفي ص٢٤٦ سرقة بغل أغبر اللون وفي ص٢٥٤ سرقة فرس حمراء وفي ص٢٦١ سرقة فرس شقراء اللون وفي ص٢٤٤ سرقة فرس زرقاء اللون وفي ص٢٤٢ سرقة حمار أخضر اللون وفي ص٢٢٣ سرقة ثور أغبر أزرق وفي ص٢٢٢ سرقة ثور أحمر أعتر أكحل».

(٢) القاسمي، محمد سعيد. قاموس الصناعات... ج ٢. ص٤٠١ و ص٤٠٢.

(٣) انظر: البديري. المصدر السابق. ص١٧٥.

(٤) الدمشقي. ميخائيل. تاريخ حوادث الشام ولبنان، ص٤٨.

ظفره به صار بأعلاه، وإذا أغلق عليه الباب وقفل خرج منه مهما كان، وهذا كله لم يتجاوز العشرين من عمره»[1].

ولقد استفحل أمر اللصوص وأقضوا مضجع المدينة وريفها[2]، فحاولت السلطات ملاحقتهم واستخدمت أشد العقوبات ضدهم. ففي سنة ١١٦٢ هـ/١٧٤٨ــ١٧٤٩م قام المتسلم في دمشق بشنق ثلاثة اللصوص في شجرة الدلبة التي في المرجة أمام باب تكية[3] السليمانية. ومع ذلك لم يقض على هذه الظاهرة ولم يمتنع بقية اللصوص عن السرقة. ويقول العبد في أحداث سنة ١٢١٩هـ/١٨٠٤ــ١٨٠٥م «الحرامية متوالية كثيرون في الشام»[4]. ولم تخف وطأة السرقة واللصوص إلا في فترات الهدوء والاستقرار وسيادة الأمن، كما في عهد محمد باشا العظم حيث يقول المرادي: «راقت دمشق وما والاها في أيامه وصفا لاهلها العيش، ونامت الفتن وسلم الناس مع الإحن»[5].

أما ظاهرة السطو والتشليح فكانت تمارس ضد المستضعفين، من أبناء الشعب والفلاحين وأبناء السبيل وقوافل التجارة غير المسلحة وقوافل الحجاج في بعض الأحيان، وقام بهذه العمليات عناصر مختلفة، منهم اللصوص وقطاع الطرق المسلحون، وكذلك الجنود والبدو[6].

ولقد أورد مؤرخو تلك الفترة حوادث عديدة من عمليات السطو والنهب وقطع الطرق وذكروا بعضاً ممن فقد حياته على يد أولئك الأشرار. فيذكر البديري في أحداث سنة ١١٦٤ هـ/ــ ١٧٥٠ــ١٧٥١م «يوم الاثنين ٢٢ جمادى الثانية قتل اثنان من رعيان التركمان في أرض الغوطة في الحفرة على يد بعض المغاربة ظنوا أن معهم مالا فعندما أوقعوا بهما ذلك الحال وجدو مع أحدهما ربع ريال والثاني قليلاً من الفلوس فرجعو خاسرين الدنيا والدين»[7].

---

(١) حوادث دمشق اليومية، ص١٥٦.

(٢) المصدر السابق، ص١٣٣.

(٣) المصدر السابق، ص١٧٣.

(٤) حسن آغاالعبد. تاريخه ، ١١٩.

(٥) المرادي. سلك الدرر. ج ٤، ص١٠١.

(٦) انظر: البديري. حوادث دمشق اليومية، ص١٥٢.

(٧) انظر: البديري. المصدر السابق، ص١٥٨.

ويذكر المرادي أن قطاع الطرق بين القدس والخليل قتلوا يحيى الدجاني الشافعي الخلوتي وقام قطاع الطرق في شعبان من عام ١١٨٥ هـ ١٧٧٠ / ١٧٧٧١ م/ بقتل السيد يعقوب الكيلاني الحموي الدمشقي على طريق المصرة[١] ولهذا اضطر المسافرون من مكان إلى آخر لتوقيت سفرهم ضمن القوافل المحروسة تحسباً لكل طارئ.

ولقد نفذ الجنود والبدو أخطر عمليات السطو والنهب ضد الفلاحين والحواضر. وخاصة الجنود المرتزقة (الدالاتية واللاوند والسكبان والمغاربة)[٢]. والمواصلة والتكارتة والبغادة وغيرهم. ويمكن تفسير هذه الظاهرة بالعوامل السابقة بالاضافة إلى أن هؤلاء كانوا يرتزقون من خلال تقديم خدماتهم كمقاتلين لمن أراد ذلك، مقابل أجور معينة فعملوا لدى الولاة وبعض الأمراء والاقطاعيين والملتزمين وغيرهم. ولم تكن رواتبهم دائمة، كما أنها لم تسد حاجتهم، لهذا استغلوا أية سانحة لاغتصاب الاموال والأعراض، والأمثلة على ذلك كثيرة في تلك الفترة، ففي سنة ١٢١٣ هـ/ ١٧٩٨ ــ ١٧٩٩ م عزل عبد الله باشا العظم عن ولاية دمشق وخرج منها وبصحبته عدد كبير من جنوده «فابقا العسكر في البلاد يومين وليلتين حتى نهبوا القرايا من مأكول ومنظور حتى غالب البلاد عزموا على الرحيل لأجل الضرر الذي حصل لهم»[٣].

وعندما قام والي دمشق الكنج يوسف باشا بحملة ضد مصطفى بربر الموجود في قلعة طرابلس قام جنود الوالي المذكور «بنهب بعض بلاد الشام من قرايا الشام وغيرهم»[٤]، وعندما تصدى هذا الوالي للبدو في منطقة المرج شرقي الغوطة «نهب جنوده في طريقهم كم ضيعة»[٥].

ولقد أذاق زبانية الجزار دمشق الأمرين من عمليات البلص والابتزاز، ولم ينج أحد من

---

(١) سلك الدرر. ج ٤، ص٢٢٨ و ص٢٣٥.

(٢) لقد جاء في أحداث سنة ١٨١٢ م من كتاب «تاريخ حوادث الشام ولبنان» ما يلي: «كان عسكر المغاربة وغيرهم يكمنون في الطرقات وكل من وجدوه هاربا يعرفوه وقتل جملة أنفار من حرافيش البغادة الذين كانوا بالقلعة. فانعرض للباشا عن تصدي العسكر فأمر لرؤسائهم أن يجمعوا ناسهم ويمنعوهم من الاذى». انظر مجهول. ص٥٦. تحقيق سبانو.

(٣) انظر: العبد، حسن آغا. تاريخه، ص٤٥ و ص٤٦.

(٤) انظر: العبد أيضاً ص٨٧.

(٥) انظر: العبد أيضاً ص٩٣.

أبنائها من مظالمهم وابتزازهم. ويقول حسن آغا العبد معلقاً على ذلك بقوله: «الطرح على الخلق أشكال وألوان من بن وتنباك وآلاجة وحرير وشاشات وزنانير وبيوت وخانات وبساتين وعثمانية ووظائف غير ذلك والعياذ بالله تعالى[1]» وعندما توفي الجزار وأجبرت دمشق جنوده على مغادرتها قاموا «بنهب المزة والمعضمية والجديدة وعرطوز وهكذا جميع البلاد هلي في طريقهم من حمير ومغل وأواعي وغير ذلك»[2]. وفي عهد خلفه ابراهيم باشا الدالاتي (قام الجنود بنهب البلاد وبعد عودته من الحج قام جنوده بنهب قرى الغوطة) ويعلق العبد على ذلك بقوله: «دشرهم على ضيع الشام»[3].

ومن جهة أخرى شاهدت شوارع دمشق عمليات خطف الأشياء الثمينة من أصحابها، ولم تنج حتى عمائم الرجال الثمينة من ذلك[4]، وكانت تلك العمليات تتم ليلاً وفي المنعطفات «ويتحدث الناس صبيحتها أن فلاناً خطفت البارحة عمته»[5].

وحاول المصريون ابان حكمهم دمشق القضاء على تلك المظاهر السلبية بالقضاء على مسبباتها الاساسية، فشملت اجراءاتهم مجالات الحياة المختلفة في بلاد الشام، الاجتماعية والقضائية والاقتصادية والسياسية، وسعوا لتوفير الامن والاستقرار، فجمعوا السلاح من الأهلين ووزعوا قواتهم لحفظ الأمن في شوارع دمشق[6]، وقاموا بمطاردة المشاغبين والزعر العابثين بالأمن[7]، وأشركوا في مجلس الشورى أفراداً من أسر دمشق البارزة لضمان ولائهم وسعوا لتوطين الفلاحين في القرى المهجورة وأصلحوا بعض الأراضي ومجاري الأنهار[8]، أملا

---

(١) انظر: العبد. تاريخه. ص١١٢.
(٢) العبد. أيضاً. ص١١٦.
(٣) انظر: العبد. أيضاً. ص١٢٠.
(٤) كان بعض الخاصة والاغنياء مرتدين عمامات من الاغباني يطلق عليهااسم عزيز خان وكانت غالية الثمن يصل ثمن الواحدة الى خمسمئة قرش ولهذا أغرت النشترية في سرقتها.
(٥) قاموس الصناعات الشامية. ج٢. ص٣٧٥.
(٦) انظر: مجهول. مذكرات تاريخية. ص٦١.
(٧) المصدر السابق. ص٦٠.
(٨) ففي سنة ١٨٣٣م / ١٢٥٠هـ تم تنظيم سورية إدارياً وشكل المصريون مجالس شورى مكوناً من ٢٢ عضواً من أعيان دمشق دون تمييز ديني، وكانوا من المسلمين والمسيحين واليهود، وأسندت الادارة المالية الى شخصية مالية قديرة هو (حنا البحري) فتمكنوا من تنفيذ مشاريع اجتماعية وادارية ومالية كثيرة وترميم مشاريع سابقة... وتفرغ ابراهيم باشا هذه السنة لدراسة وضع الفلاحين والتجارة، فأسس في دمشق البنك

في خلق مجتمع يسوده العدل وتتوفر له أسباب الرزق فتضمحل تلك الظواهر السلبية التي هي من صفات عصر الانحطاط .

تناول المخدرات ومعاقرة المسكرات

٤ ـــ وقف مجتمع مدينة دمشق الاسلامي موقفاً مضاداً وصريحاً من كل مادة تخامر العقل ، أولا تقرها الشريعة الاسلامية سواء كانت مخدراً أو مسكراً ، وكانت أية محاولة لخرق هذه النواهي أو التقاليد تقابل بالرفض والاستهجان .

إلا أنه مع ذلك نلاحظ تزايداً في معاقرة الخمر وتناول المخدرات في هذه الفترة ويمكن تفسير هذه الظاهرة على أنها عملية هروب للانسان من متاعب الحياة الناتجة عن الظروف السيئة التي أحاطت بدمشق على المستويات المختلفة ، فأقدم البعض على شرب الخمر ، وأكلوا الحشيش المسمى بورق القنب وتناولوا الأفيون والبنج[1] . وتناولوا أنواعاً من المخدرات على شكل سراب أو لعوق أو معاجين . وكان من المعاجين نوع يسمى البرش ، وهو ما صنع من الفلفل الأبيض والأسود وأوراق نبات القنب والأفيون وغيرها[2] .

إلا أن معلوماتنا تبقى ناقصة عن عدد الذين كانوا يتناولون المخدرات في دمشق في هذه الفترة ، إذ أن المصادر أغفلت ذلك ، وربما لأن تعاطيها كان سراً ومرفوضاً من المجتمع والسلطة

الزراعي لإقراض صغار الفلاحين والملاكين ، وقام بتوسيع مجاري الانهار والقنوات للمساعدة على الري وتوسيع الزراعة . وقام بتجفيف المستنقعات ، وأمد الفلاحين بالبذور المحسنة من الشونات (المستودعات الميرية) ... ويقول القنصل الفرنسي في اللاذقية وهو المسيو (جيوفروا GEAOYFROY) إن ابراهيم باشا قد أجبر الفلاحين على زراعة عدد كبير من أشجار التوت والزيتون والعنب في كل قرية فتضاعفت زراعة منطقة اللاذقية وأجبر البدو والرحل على الاستقرار على الارض وزراعتها فزرعت أراضي لم تزرع من قرون ... كما يذكر الدكتور جون ياورنبج أنه« لايوجد محصول فلاحي نقصت زراعته في سورية وانما حصل العكس في عهد ابراهيم باشا المصري فجميع أنواع الخضار والحبوب كمواد للتصدير أصبحت تزرع على نطاق واسع في كافة أنحاء سورية كما أجبر كبار الموظفين والاغنياء من السكان على اعادة بناء القرى المهجورة وزرع أراضيها فقامت نهضة زراعية عارمة في مقاطعات حلب وانطاكية وعينتاب وبيلان وكلس ودمشق ... » . انظر :

Enkiri Gabriel: Ibrahim Pacha. PP.291.292.293

(١) الافيون هو ما استخرج من الحشائش . انظر : ابن عابدين ، رد المحتار ... ج ٢ ص٥٨٣ .

(٢) البكري ، عادل . مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق . ج ١ المجلد ٤٨ / ص١٧٣ و ص١٧٤ و ص١٧٥ / ذو الحجة ١٣٩٢هـ /ك٢ / ١٩٧٣م .

على حد سواء. وحسبنا أن نسوق مثالا على **استهجان** ذلك ما ورد في كتاب المرادي «أن ابراهيم بن سعد الدين كان يأكل البرش المعجون[1]»، ويقصد بذلك أن سلوكه هذا كان مستهجناً، خاصة وأنه سليل أسرة دينية فيها مشيخة الطريقة الصوفية السعدية ذات الشأن في دمشق.

أما الخمرة فقد تعددت أنواعها. فمنها ما صنع من العنب والتين والبلح، وقام بصناعتها أهل الذمة إلا أنه لم يسمح لهم باحتسائها علناً[2]. ومع ذلك فإننا نرى عدداً من الجنود (خاصة الغرباء منهم) والزرب وبنات الهوى وغيرهم، كانوا يشربونها سراً وعلناً، متحدين بذلك التقاليد العامة ومشاعر المجتمع. وأصبحت بعض الخانات والمقاهي مكاناً للشرب والشاربين. ولقد اعتبر رجال الدين أن ذلك من أسباب النكبات والمصائب التي حلت بدمشق، حتى أن بعض الاخباريين يذكر هذه الظاهرة بمرارة وهو حسن آغا العبد حيث يقول: «السكر صار مباح في الشام»[3].

وعندما أرسلت السلطات العثمانية قوات من استانبول إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة لحمايتها من الوهابيين ووصلت إلى دمشق بقيادة أحد الباشوات وعسكرت في التكية السليمانية، منتظرة خروج قافلة الحج الشامي لتصاحبها إلى الديار المقدسة، أمضت تلك المدة «على السكر ليلاً ونهاراً»[4].

ومع ذلك بقي الخمر مستهجناً من مجتمع دمشق. ولهذا سعى بعض الولاة إلى كسب ود المسلمين في دمشق بمنع شرب الخمرة وحتى خزنها وتقطيرها. ففي سنة ١٢٢٠ هـ/١٨٠٦ م قام والي دمشق الكنج يوسف باشا الذي كان كردياً متعصباً وصوفياً نقشبندياً، بإصدار أوامره إلى نصارى دمشق باراقة ما بحوزتهم من الخمور في الشوارع والطرقات وتحت طائلة المسؤولية، فاريق المخزون منها خوفاً من بطشه.

إلا أن ابراهيم باشا المصري سلك سلوكاً مغايراً في هذا المجال، عندما أباح شرب الخمر

---

(١) سلك الدرر... ج ١. ص٤٢.
(٢) كان يطلب اليهم في أوائل العهد العثماني (حفر حفيرة والاختباء بها عندما يشربونها). انظر ابن طولون. مفاكهة الخلان.. ج ١. ص٢٨٨.
(٣) تاريخ حسن آغا العبد، ص١١٦.
(٤) المصدر السابق. ص١٢٢.

وصنعها . ولم يكتف بذلك بل أوعز بانشاء خمارة خاصة بالسلطات المصرية ، وبتلزيمها في مزاد علني ، مقابل مبلغ من المال «وبقي المزاد لمدة خمسة عشر يوماً حتى انتهى حال التزام الخمارة بسبعمائة كيس وصار ضمانها من عيد الصليب وضمنها يهود واسلام وأخذوا خان المصبنة الذي في الخراب وقاعة النشا وعملوهم خمارة» ويعلق صاحب مذكرات تاريخية على ذلك بقوله : (تشوف الاسلام بأسوأ حال لأنه شيء قبل هذا عمره ما صار قبلاً بالشام)[1] .

ويبدو أن ابراهيم باشا لم يقصد من انشاء الخمارة الإساءة أو التحدي لمشاعر المسلمين ، بل أراد من خلال ذلك تقليد الغرب في كل شيء ، بما في ذلك صنع الخمر وشربها ، كطريقة لتحديث دمشق .

وأصبح يتردد على الخمارات ، بعض أبناء دمشق من المسلمين وغيرهم ، وأصبحت الخمرة تباع في المقاهي وعلى قارعات الطريق .

إلا أن ذلك قوبل بمعارضة بعض المسلمين ، واعتبر تحدياً لمشاعرهم ومعتقداتهم . ولكنهم عجزوا عن مقاومته على ما يبدو ، مما أجج نار حقدهم على النظام المصري ، خاصة عند احتسائها علناً وفي العراضات . ففي سنة ١٢٤٨ هـ / ١٨٢٣ م صارت عراضة في حارة الخراب قوامها رجال مسيحيون وكان أحدهم يركب جملاً وبين يديه سودايتان من الخمر يحتسي منهما وعلى مرأى من المشاهدين المسلمين «فصاروا يبكون من قهرهم»[2] .

الشذوذ الجنسي

ونقصد بالشذوذ الجنسي العلاقة الجنسية بين شخصين من جنس واحد (أنثى مع أنثى أو ذكر مع ذكر) وقد لعبت عوامل عدة في هذه العلاقة . فلم تكن الأوضاع الاقتصادية السيئة هي السبب في هذه العلاقة الشاذة فحسب بل أسهمت في ذلك عوامل اجتماعية كالتشدد في الحجاب ومنع الاختلاط بين الجنسين ، ثم العوامل النفسية البحتة .

إلا أن المصادر التي بين أيدينا لم تسعفنا في معرفة العلاقات الجنسية الشاذة بين النساء ، وجل ما بين أيدينا نتف من معلومات تتعلق بالعلاقة الشاذة بين الذكور .

---

(١) انظر : مجهول . ص٦٦ .
(٢) انظر مجهول أيضاً . ص٥٦

وإذا ما حاولنا رصد حالات الاختلاط بين الجنسين في بلاد الشام، نجد أنها لم تكن كما في أوربا من جهة، ولم تدم هذه الحالات لفترة طويلة إذا حصلت صدفة في مناسبات معينة ولمدة محدودة، يصعب فيها انشاء علاقات عاطفية متينة بين الجنسين إلا في ما ندر.

وأهم هذه الحالات التي كان اللقاء يتم فيها هي: بمناسبة الاحتفال في العاشر من محرم (عاشوراء) عند قبر الست زينب في قرية رواية، حيث يختلط الرجال بالنساء، وقد تحصل بعض المفاسد هناك نتيجة لذلك. ثم الخميس الثاني من شهر رجب من كل عام. وقصد بعض الجهلة من الرجال والنساء المساجد لقضاء وقت ممتع. فكانت النساء يجتمعن بالخطباء والمنشدين والوعاظ، وتخبر المرأة جاراتها بأن فلاناً المنشد الواعظ له صوت يرمي الطير[1]. وسعى الشباب إلى المساجد لمراقبة النساء وهن داخلات أو خارجات منها، كما ذهب فريق منهم للعب بالشطرنج والكعب والقدح والضرب بآلات فيها[2].

وشكلت بساتين الشام وجنائنها وضفاف أنهارها منتزهات لكلا الجنسين. ويذكر البديري في أحداث سنة ١١٦٣ هـ/ ١٧٤٩ ــ ١٧٥٠ م «أنه في ١٨ ربيع الأول خرجنا إلى سيران بناحية الشرف المطل على المرجة مع بعض أحبابنا وكان الوقت في مبادىء خروج الزهر وجلسنا مطلين على المرجة والتكية السليمية وإذا بالنساء أكثر من الرجال جالسين عل شفير النهر وهم على أكل وشرب قهوة وتتن كما يفعل الرجال وهذا ما سمعنا بأنه وقع نظيره حتى شاهدناه ولا حول ولا قوة إلا بالله»[3] فشكلت هذه المناسبات والأماكن مجالا لاستراق النظرات بين الرجال والنساء ولو عن بعد إلا أنها مع ذلك لم تشكل اختلاطاً بين الجنسين إذا أن مجتمع دمشق قد رفضها رفضاً قاطعاً. والاختلاط الوحيد الذي كان مسموحاً به هو اختلاط الجنس الواحد. لهذا كان ثمة مجال لنشوء علاقات جنسية شاذة بين أفراد الجنس الواحد وبشكل سري. إلا أن المجتمع كان لا يستهجنها فحسب بل يقمعها بشدة. ولا غرابة

---

(١) مثل عامي محلي دارج يطلق للدلالة على الصوت الجميل الذي يطرب الطير فينتشي له فيقع.

(٢) أسنى المقاصد. ص٢٠ و ص٢٨. نسمات الاسحار، ص٢٠١ و ص٢٠٣. كتاب التاريخ /ص١٩٩ب وتوجد من كتاب نسمات الاسحار عدة نسخ في ظاهرية دمشق أرقامها ٨٤٦ و١٤١٥ و١٤١٦ والكتاب أصلا يذكر كرامات الاولياء والصالحين لكنه تعرض فيه بشكل مفصل لتقاليد الخطبة وعقد القران والزفاف في الشام مما لانجده عند غيره فكشف بذلك عن جانب هام من جوانب الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في تلك الفترة.

(٣) حوادث دمشق اليومية. ص١٤٠.

في ذلك فان الشرقيين كانوا يرفضون أية علاقة جنسية بين جنسين مختلفين قبل الزواج فكيف يسمحون بعلاقة شاذة بين أفراد الجنس الواحد؟ إلا أنه مع ذلك استطعنا أن نرصد، اعتماداً على ما ورد في المصادر التاريخية لهذه الفترة، علاقات شاذة خاصة بين الذكور «اللواط». ولم يكن الشذوذ في فئة اجتماعية معينة بل كان في معظم الفئات الاجتماعية في دمشق.

ويذكر المحبي في أكثر من موقع من كتابه، حوادث الشذوذ المختلفة، فمثلاً: «أبو بكر العمري الدمشقي من غريب خبره أنه هام بغلام أمرد وكان مجاوراً لحجرة في بعض المدارس فوجد في حالة لا يصح التصريح بذكرها القبيح فأمر به.. أن يطوق عنقه بساق ذلك الغلام ويطاف به في الأسواق بمشهد من الخاص والعام فاغتنمها فرصة وجعل يقبلها إلى الأقدام[1]» ثم أبو السعود الدمشقي المعروف بابن الكاتب كان مغرماً بغلام وأنفق عليه مالا كثيراً وقتل نفسه هياماً به بأن أكل سبعة دراهم من الافيون[2]. وهام أحمد القاياتي بغلام فكان القاياتي يجلس في دكان يقابل الدكان التي يعمل بها الغلام لمشاهدته[3].

ويذكر البديري في أحداث ١١٦٨هـ / ١٧٥٤ / ١٧٥٥م أن «امرأة قتلت زوجها مع جماعة من الاشقياء، بدعوى أنه ينام مع مملوكه ولا ينام معها[4]». ويذكر المرادي أن خطيب جامع السليمية في صالحية دمشق «كان ميالاً الى المرد والمعذرين»[5].

ولقد تشدد بعض الولاة العثمانين في دمشق في معاقبة اللوطيين، فمثلا والي دمشق الكنج يوسف باشا أُخبر في منتصف شوال من سنة ١٢٢٢هـ /١٨٠٧ ١٨٠٨م أن «اثنين من الشباب قيل أنهما لاطا بعضهما فأرسل التفنكجي باشي وأحضرهما اليه وأمر بعد

---

(١) محمد بن فضل الله. خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر. ج ١. ص٩٩ و ص١٠٠.

(٢) المحبي: المصدر السابق. ج ١. ص١١٨.

(٣) المحبي: المصدر السابق. ج ١. ص١٦٧.

(٤) انظر: حوادث دمشق اليومية. ص١٨٥.

(٥) سلك الدرر. ج ٢، ص٢٠٦ ويذكر المرادي في ج٣، ص٢٠١ «أن مصطفى البيري كان يرفقه الشيخ مصطفى العمري الدمشقي في أحد الايام في محلة القباقبية بالقرب من دار العمري فنظر الى غلام كان يعمل في حانوت خاله لبيع التين. قده مائل وورد خدوده ذابل... فقال له المترجم بعنا شيئا من التين وأضف اليه شيئا من المسك. فرد الغلام هذا المسك من خالي فقال المترجم:

بحبة مسك قد حباني جؤذر ... وأشجى فؤاداً كان من حبه خالي
وقال ألا لا تحسب المسك من دمي ... لكوني غزالا انما المسك من خالي

ذلك بارسالهما الى جامع بني أمية والقائهما من على مئذنة العروس فرميا من فوقها فمات أحدهما بالحال والثاني بعد أربعة أيام »[1]

ويذكر البيطار أن الشيخ أحمد الكاملي المغربي المراكشي البصير كان يتغزل بالغلمان والشراب «وتواجد لهم تواجدا مغرقا في الارتياب قد دلنا صريح مقاله على حقيقة حاله. فاستخدم غلاما يزري بالقمر في ليلة أربعة عشر فأكثر الناس عليه القيل والقال وأخرجوه من دائرة الاعتدال وعرفوا ما أكنه وأسره وسلبوه ما كان عنده من الفرح والمسرة .. وأخرجوه عن دائرة المروءة والنخوة وعلموا حاله واستذروا أمر حاله فلما عرف ذلك أخذ غلامه وسافر »[2].

ظاهرة العهر

لم يقبل مجتمع دمشق العربي الإسلامي، بإقامة علاقة جنسية بين الذكر والانثى الا عن طريق الزواج أو التسري بما ملكت الايمان من الجواري والاماء، حفاظا منه على الاسرة والنسب، لهذا أعتبر أية علاقة عدا ما ذكرناه علاقة عهر مرفوضة ومستهجنة، وترك باب التوبة مفتوحا لمن أنحرفت. وقبلها في صفوف المجتمع كزوجة، وعفا عما ارتكبته من فواحش اذا لم تعد اليها ثانية. والامثلة كثيرة على ذلك، تطالعنا بها قضايا عديدة سجلت في سجلات محاكم دمشق وغيرها. فمثلاً الحرمة عائشة بنت باكير البلاجكلي في سنة ١٢٢٢ هـ/١٨٠٧ ــ ١٨٠٨ م جاءت الى قاضي القضاة علي حسيب أفندي في المحكمة العونية بدمشق وأعلنت أمامه «أنها تابت إلى الله تعالى ورجعت عن جميع المعاصي وطلبت منه الموافقة على زواجها من أحمد العبسي على صداق قدره ثلاثون قرشا صاغ. منه عشرون صاغ معجل وعشرة صاغ مؤجل لحين الفراقين .. وشهد لها شاهدان بالمحكمة[3]».

وفي سنة ١٢٥٩هـ/١٨٤٣ ــ ١٨٤٤م جاءت خالدية بنت عمر الشامية الى القاضي وأقرت بأنها خاطئة ومرتكبة للفحشاء وأنها الآن جاءت تائبة راغبة في قوله (ﷺ) التائب عن الذنب كمن لا ذنب له فتابت وأقلعت والتمست من مولانا الحاكم الشرعي الأذن لها

(١) العبد تاريخه، ص١٤٠.

(٢) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر. ج١، ص٢٥.

(٣) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٦٠/١٢٢٢هـ. ص٣١.

بالزواج بخاطبها محمد بن السواس[1]. وحصلت هذه الظاهرة في بقية المدن الشامية. وتطالعنا سجلات محكمة حماه بحوادث مماثلة. ففي سنة ١٢٥١ هـ/١٨٣٦ م جاءت عائشة بنت حسين الشاويش التي كانت ترتكب الفحشاء إلى القاضي وأعلنت توبتها[2] ثم جاءت امرأة أخرى في ١ صفر ١٢٦٠ هـ/٣ آذار ١٨٤٥ م وهي حنيفة بنت عبده الشامي وأقرت نفس الاقرار وطلبت من القاضي الموافقة على زواجها[3] من أحد الرجال.

وعلى المستوى التنظيمي فقد اعترفت الدولة بالعاهرات طائفة حرفية بدمشق وفرضت عليهن ضريبة معينة للدولة. ووضعن تحت إشراف الصوباشي، وجاءت هذه الفئة في الدرك الأسفل من الهرم الاجتماعي في دمشق، وأطلق عليهن تسميات مختلفة (كالمغاني ــ المومسات ــ وبنات الخطا أو الهوى[4]. كما اطلق عليهن اسم العاهرات ــ أو الشلكات والزانيات، إلى غير ذلك من التسميات.

وأكثر مايسترعي انتباهنا هنا، أنهن شكلن طائفة معروفة في مجتمع على عكس الشاذين الذين بقيت ممارساتهم الجنسية سرية. كما يسترعي أنتباهنا أيضا تزايد عددهن في هذه المرحلة حتى أن الشيخ عبد الله السويدي الذي زار دمشق وأقام فيها ما بين ٢٢ شعبان و٢٠ شوال سنة ١١٥٧ هـ ٣٠ ايلول ــ ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٧٤٥ م، قد دهش من كثرة الخلاعة وجرأة الزناة والزواني في المدينة[5].

وقامت بنات الهوى بممارسة الجنس في أماكن عديدة من دمشق، كالخانات حيث كن يلتقين بالتجار والجند والغرباء الذين يقيمون فيها، وفي المقاهي ملتقي الذعر والجند أيضا، وفي البساتين المحيطة بدمشق والاماكن المهدمة أو المهجورة[6]، أو في بعض بيوت الدماشقة إلا أن ذلك لم يكن مقبولا من جميع سكان البيت مما أدى إلى حصول أحداث

(١) سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٣٦ / ١٢٥٠ ــ ١٢٥١ هـ. ص١٢٥.
(٢) سجل محكمة حماة رقم ٥٠ / ١٢٥١ ــ ١٢٦٣ هـ. ص١١٧.
(٣) المصدر السابق. ص٢٤٦.
(٤) البديري: المصدر السابق ص٣٩.
(٥) انظر: السويدي، عبد الله. النفحة المسكية في الرحلة المكية. الورقة ٩٤ ب نقلا عن الدكتور عبد الكريم رافق. بلاد الشام ومصر ص٣٣٨ و ص٣٣٩.
(٦) انظر المحبي. خلاصة الاثر ... ج ١ ص٢٠١. ثم المرادي. سلك الدرر ج ٤، ص٩٨.

مؤلمة أودت بحياة بعضهم نتيجة لذلك أو إحتجاجاً عليه، ففي سنة ١١٥٦ هـ/ ١٧٤٤م انتحر الشيخ يوسف الرفاعي برمي نفسه من أعلى منارة جامع الدقاق إلى الارض لأن أخ زوجته أتى الى بيته بإحدى الخاطئات [١].

وكان للمومسات زقاق خاص بهن في آخر سوق السنانية من دمشق، يعرف بزقاق قليط إلى أن قامت السلطات العثمانية بنقلهن الى محلة المرقص [٢]، ولا نعلم أن كان المكان الجديد الذي نقلن اليه بمثابة مكان لعهر منظم وتحت إشراف السلطات أم أنه سكن خاص بهن معزول عن بقية أحياء دمشق. فالمصادر التاريخية الموجودة بين أيدينا تقصر عن توضيح ذلك.

ولقد وجد من الرجال في دمشق من عمل على تصيد الرجال للمومسات مقابل أجر معين وسمي الواحد منهم بـ «القواد أو الديوس أو العرصة وأحيانا كان يسمى (أبو نجيب). وعمل بعضهم عرصة للأكابر من أبناء دمشق وكان مكرما مبجلا عندهم» [٣].

ولو تساءلنا عن أصول العاهرات، فيما إذا كن من الفئات الاجتماعية الدنيا في دمشق، أم من اصول دمشقية مولدا ونشأة؟ أم أنهن من آصول قومية متباينة؟ أم أن بعضهن كن من الجواري والاماء أعتقن لسبب ما ونلن حريتهن ولم يجدن موردا للرزق بعد العتق سوى سلوك طريق العهر والرذيلة؟ أم أنهن زوجات للجنود الذين صاحبنهم الى دمشق فقتل أولئك الازواج أو ماتوا، أو قاموا بتطليقهن فتركن دون مورد رزق أو معيل لهن؟.

والاجابة على هذه التساؤلات، وبشيء من الحذر، أنهن من جميع هذه الفئات والاصول، أسهمت في إفرازهن عوامل اقتصادية وسياسية قاسية، فأنزلقن في مهاوي الرذيلة ووجدن مرتعا خصبا في الحشد الهائل من الجند والغرباء المختلفي الاصول، الذين وردوا إلى دمشق تحت ضغط الظروف الداخلية والخارجية التي أحاطت ببلاد الشام، فقد من لهم المتعة الجسدية مقابل المال.

وسعى بعض الجند وغيرهم للايقاع ببعض النساء المحصنات المتزوجات في أشراكهم.

---

(١) البديري: المصدر السابق، ص٥٠.
(٢) البديري: المصدر السابق، ص١١٩.
(٣) البديري: المصدر السابق، ص١٤٦ و ص١٤٧.

ولقد أورد الاخباريون عدداً كبيرا من حوادث الخيانات الزوجية. ففي سنة ١١٦٣ هـ/ ١٧٥٠ م قتل فرّان في حي العقيبة على يد أناس كانوا يفسقون بزوجته في بيته. وفي نفس العام قتل رجلٌ كردي زوجته في محلة سوق صاروجا، حيث تبين له أنها عابت في غيابه عندما كان يؤدي مناسك الحج[1]. وحوادث اخرى كثيرة يضيق المجال عن ذكرها. ولقد شكلت العاهرات في دمشق طائفة حرفية معترفا بها. وكان تضامنهن قويا الى الدرجة التي مكنتهن من القيام بعراضات في أسواق دمشق وشوارعها في مناسبات مختلفة «حاملات الشموع والقناديل والمباخر وهن يغنين ويصفقن بالكفوف ويدقن بالدفوف والناس وقوف صفوف تتفرج عليهن وهن مكشوفات الوجوه سادلات الشعور وما ثم ناكر لهذا المنكر»[2].

وعندما كانت تتراخى السلطة كن يتمادين حتى على علية المجتمع في دمشق ففي سنة ١١٥٧هـ/ ١٧٤٦م قامت احداهن وهي سملون التي كانت سكرانة بمهاجمة موكب القاضي في الصالحية وكانت تحمل بيدها سكينا مما حدا بحرسة لدفعها عنه. وكان ذلك سببا لمقتلها فيما بعد، وأدخل الروع في قلوب أخواتها من بنات الهوى «فسافر عدد منهن وأنزوى البقية»[3].

ولما استفحلت ظاهرة العهر في دمشق في عهد واليها أسعد باشا العظم وأصبحت، هذه الظاهرة، تخدش الحياء العام وتقلق المجتمع، تداعى الحكام والاعيان للاجتماع بالوالي المذكور لحل المشكلة، وخاطب أحدهم الوالي بقوله: «دعنا نعمل لهم طريق اما بترحيلهم أو بوضعهم بمكان لا يتجاوزونه أو نتبصر في أمرهم» فرد الوالي قائلا: «إنني لا أفعل شيئا من هذه الأعمال ولا أدعهم يدعون علي في الليل والنهار» مما يدل على أن ذلك كان سيتسبب في قطع مورد رزقهن الوحيد الذي كن يعتمدن عليه في معيشتهن. وانفض الاجتماع «ولم يحصل من اجتماعهم فائدة»[4].

ومع ذلك بقي موقف الوالي أسعد باشا من هذه الظاهرة حرجاً، فكانت تتجاذبه

---

(١) البديري: المصدر السابق، ص١٥٤.
(٢) البديري: المصدر السابق، ص٣٩.
(٣) البديري: المصدر السابق، ص٥٧.
(٤) البديري. المصدر السابق، ص١٢٧ و ص١٢٨.

قوتان متضاربتان، أولاهما: قوة علية القوم وأعيان دمشق الذين أرادوا تهجيرهن خارج دمشق، والقوة الثانية: وجدانه الشخصي الذي أشعره بمدى الحيف الذي سيقع عليهن فيما لو هجّرهن وسد باب الرزق في وجههن. وفي سنة١١٦٢ هـ/١٧٤٩ م رضخ أسعد باشا للقوة الاولى وأمر بإخراج بنات الهوى (وهم الشلكات من البلد إلى خارج البلد وأظهر أنه يريد أن ينفيهن الى بلاد أخرى ونبه على مشايخ الحارات أو من وجد في حارته ذو شبهة لا يلومن الا نفسه). الا أن هذا الاجراء لم يكن الدواء الناجع والحاسم لمشكلة استفحلت مع الزمن وتعددت أسبابها وأعضلت عن الحل، فعدن الى سابق عهدهن في الاسواق والأزقة والخانات وغيرها لبيع الهوى. وأمام هذا الواقع لم يكن أمام الوالي من حل سوى الاعتراف بالامر الواقع وفرض على كل واحدة منهن عشرة قروش شهريا «وجعل عليهم شوباصيا»[1].

وفي نهاية القرن الثامن عشر والنصف الاول من القرن التاسع عشر تزايدت الفوضى السياسية في دمشق وتزايد الصراع حدة بين القوى العسكرية المحلية والغربية. مما أدى الى اعتداء الجنود المتصارعين على النساء المحصنات انتقاما من الازواج والابناء، كما حصل في سنة ١٢١٧ هـ/١٨٠٣ عندما جرى الصدام بين اليرلية والدالاتية في حي العمارة[2].
وكانت النساء تلجأ في مثل هذه الصدامات الى البيوت وتوصد دونها الابواب. واذا ما هدد الجنود المدينة كانت النسوة اللواتي يقطن خارج الاسوار يلجأن الى داخل أسوار المدينة، كما حصل في سنة ١٢١٨ هـ/١٨٠٤ م[3]. وعندما تدفقت قوات كبيرة من أستانبول الى دمشق في طريقها الى فلسطين ثم مصر للتصدي لقوات الحملة الفرنسية، كان الجنود يسكرون «وينزلوا على حريم الناس»[4]. وعندما تزايدت القوات المتدفقة على دمشق من استانبول حيث بلغ عدد أحدى الدفعات في ١٧ ذو الحجة من عام ١٢١٣ هـ/أيار ١٧٩٨م «نحو ستة ألاف رجل معهم بلكباشية وجاويشية.. وذلك اليوم نادى حاكم الوقت على النسوان أن لا تطلع من بيوتها لأجل الفساد من كثرة الخلق والغربية هلي في الشام»[5].

(١) البديري. المصدر السابق، ص١٣٤.
(٢) العبد، حسن آغا. تاريخه، ص٧٢.
(٣) العبد: تاريخه، ص٩١ و ص٩٢.
(٤) العبد: أيضاً، ص٦٢.
(٥) العبد: أيضاً، ص٥١ و ص٥٢.

وبقيت ظاهرة العهر في دمشق واستمرت بنات الهوى تبيع الهوى لمن يريد ، وحاول بعض الولاة ابعادهن عن طريق الرذيلة واغرائهن بالزواج أو التوبة ، ومنعهن من الوقوف للعسكر ، كما فعل والي دمشق الكنج يوسف باشا في سنة ١٢٢٢ هـ/١٨٠٧ ـــ ١٨٠٨ م حيث «استتوب منهم كم وحدة»[1]. ورغم تقصير المصادر التي بين أيدينا عن تتبع أخبار بنات الهوى في دمشق من هذا التاريخ ، إلا أنه لم يطرأ أي تغيير ذي بال على الساحة الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية يؤثر بدوره على هذه الظاهرة سلباً أو إيجاباً ، إلى دخول ابراهيم باشا المصري إلى دمشق ١٨٣١ م/١٢٤٦ ـــ ١٢٤٧ هـ حيث بدأ بتغيير بعض مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في دمشق إلا أن مصادر هذه المرحلة تقصر بدورها عن ذكرهن وتصوير أوضاعهن .

---

(١) العبد : أيضاً ، ص١٣٩ .

الفصل الخامس

الأزياء في دمشق وريفها ومدلولاتها المختلفة

الأزياء ومدلولاتها الاجتماعية

أزياء الهيئة الحاكمة في دمشق ــ أزياء العامة ــ زي نساء دمشق ــ زي المرأة الدمشقية خارج بيتها ــ لباس القدمين عند المرأة في دمشق ــ زينة المرأة الدمشقية وحليها ــ أزياء أبناء ريف دمشق ــ أزياء نساء الريف الدمشقي ــ حلي المرأة في الريف الدمشقي ــ التجميل وأدواته لدى نساء ريف دمشق ــ زي أهل الذمة «النصارى واليهود والسامرة» ــ زي البدو ــ زي البدوية ــ القماش والفراء .

الأزياء ومدلولاتها الاجتماعية

لم يهتم العثمانيون ، بعد احتلال بلاد الشام ، بتغيير الأزياء الشعبية التي كانت سائدة فيها . والتغيير الوحيد الذي شاهدته دمشق هو في أزياء الهيئة الحاكمة بما فيها أزياء الجند العثمانيين بديلا عما كان عليه زي المماليك(١) . وبقي الحال كذلك إلى فترة الاصلاحات وخاصة في فترة السلطان محمود الثاني ومابعده ، حيث سعى هذا السلطان لادخال الأزياء الغربية إلى جهاز السلطة العثمانية(٢) . ولكن تأثير ذلك على دمشق كان محدوداً . ولم يتسع هذا التأثير إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، مرتكزاً بالدرجة الأولى على إجراءات الحكم المصري فيها .

ولهذا بقيت الأزياء الشعبية ، في بلاد الشام بخطوطها العامة ، صورة لتعامل الانسان مع المحيط الطبيعي والتركيب الاجتماعي ، وفلسفته في الحياة من جهة ، ونتيجة لتركة تاريخية طويلة الأمد ، فكان من تلك الأزياء مايعود إلى أصول عربية قديمة مثل الكنعانية الآرامية والآشورية أو غير عربية مثل الفارسية ، واليونانية والبيزنطية والعربية الإسلامية . بالإضافة إلى

(١) انظر : رافق ، عبد الكريم . تاريخ المشرق العربي في العهد العثماني . ص٥٦ .

2 - See: Shaw. J. Stanford. «history of the Ottoman empire and modern Turkey». VOL.2.P.49 Cambridge univsrsity Press. January. 1977.

مؤثرات الهنود وبعض القوميات الأخرى التي جاءت إلى بلاد الشام بأزيائها فتركت تأثيرها في هذا المجال .

ومما يسترعي انتباه الباحث تعدد أزياء المدن آنئذ أكثر من الريف ، لأن المدن كانت مقراً للفاتحين والحاكمين والتجار والغرباء عبر تاريخها . وبقي اختلاط الوافدين بالريف أقل مما حصل في المدن . وإذا مااستقرت قبائل وأقوام في الريف ، فقد انعزلت عن بعضها بحدود معينة ، وحافظت على أزيائها على مدى عصور طويلة . ناهيك عن تأثير البيئة والمناخ في رسم خطوط الأزياء وألوانها ونوع أقمشتها .

وكانت للأزياء ، بالإضافة إلى ماتقدم ، وظيفة اجتماعية هامة ، حرص القوم على إبرازها لإرضاء المجتمع وتحقيق أهدافه وأفكاره وفلسفته في الحياة . لهذا نراها بشكل عام ، مريحة تنسجم بتفصيلها ومقاييسها مع حركة الجسم العامة ، ومع طبيعة الأرض وعناصر المناخ ، وطريقة الجلوس على الأرض وتشمير الأكمام عند الوضوء ، ومع حركتي الركوع والسجود ، ومراعاة الحجاب والحشمة .

ولقد أرضت غرور وكبرياء الشوام ، لهذا كنا نرى المبالغة في الثياب في كل شيء ، من حيث الطول المتزايد الذي يصل إلى الأرض ، والاتساع الذي يكسب صاحبها المهابة والوقار ، وكانت تخفي تقاطيع جسم المرأة الذي يثير الشهوة[1] وروعي في ألوانها الحدة القوية ، والاسراف في التزيين بالرسوم الدقيقة ، واستخدام الحلي المختلفة ، والإسراف في فخامة غطاء الرأس (للرجال والنساء) ، وتجميله بالعملات والمصاغات الذهبية والفضية خاصة بالنسبة للنساء ، والغلو بإظهار الغنى والترف تجاه الآخرين وأكثر مايبرز ذلك لدى العناصر الغنية والهيئة الحاكمة .

وهناك سمة أخرى اتسمت بها تلك الأزياء ، وهي الصدق والابتعاد عن التمويه ، فمثلاً لم تستخدم النساء حمالات الصدر كالأوربيات آنئذ . واستبعدت مشدات الوسط وحشوات العجز والأكعاب المرتفعة في الأحذية ، عدا القباقيب التي كانت طويلة ولأهداف أخرى . ولم نر في المصادر التاريخية التي عالجت تلك الفترة من تاريخ بلاد الشام مايثبت استخدام

(١) كانت الأزياء تراعي طبيعة السلوك المحافظ ، ففي اتساعها مراعاة لإخفاء شكل الجسم وتقاطيعه المغرية تحقيقاً لفكرة الكبت الجنسي المطلوب مراعاتها من كلا الجنسين ، الذكر والأنثى على حد سواء .

الدماشقة للمساحيق في تلوين البشرة بلون آخر، سوى الحناء واستخدام الوشم والكحل. وإذا ماستخدموها، كانت لأغراض دينية أو طبية. ولكن الدماشقة أسرفوا في استخدام الفراء والحلي والتطريز والزركشة تحقيقاً للكبرياء والتمايز الإجتماعي[1].

ومع ذلك نلاحظ وحدة في الأزياء، في خطوطها العامة، لدى جميع فئات الشعب الدمشقي تقريباً، وإن كان ثمة فرق في الزي بين شخص وآخر، فيعود ذلك إلى انتماء الشخص الاجتماعي أو الجنسي (ذكر أم أنثى)، ويبرز الاختلاف في حجم العمامة ولون قماشها ونوعه أو زينتها وطريقة لفها على الترबان والقاووق، وفي ألوان الثياب الخارجية ونوع قماش الثياب بشكل عام، واستخدام الفراء أو عدمه، وطريقة التفرية ونوع الفراء (فراء ثمين أم بخس) ثم نوع الزنار أو الكمر (قماشة وتفريته أو معدنه) ومايوضع في تلافيفه من أدوات، كالخنجر والطبنجة والدواية والساعة الخ...

وعلى ضوء ذلك نلاحظ فروقاً بين أفراد الهيئة الحاكمة من جهة وبين بقية أبناء الشعب بفئاته المختلفة من جهة أخرى، كما نرى تمايزاً بين كل فئة وأخرى من فئات الهيئة الحاكمة. فزي الوالي يختلف عن زي الدفتردار، والأخير يختلف زيه عن القاضي، وهذا يختلف زيه عن نوابه. وزي المفتي يختلف عن أمين الفتوى، وكاتبها ونقيب الأشراف يختلف عن السابقين، كما يختلف في زيه عن بقية الأشراف. وآغا الانكشارية يختلف في زيه عن الانكشاريين الآخرين وعن الصوباشي، ويختلف زي المرتزقة فيما بينهم بحسب أصولهم القطرية والقومية، ويختلفون بدورهم عن زي الإنكشارية (القابي قول واليرلية).

وعلى مستوى أبناء دمشق كان الزي متبايناً. فهناك زي أبناء دمشق الأصليين، وهناك أزياء أبناء الأقاليم الشامية الذين استقروا في أطراف دمشق وحول سورها، وأزياء الفلاحين تختلف عن بعضها بحسب قراهم وأقاليمهم. وكنا نرى أزياء متباينة بحسب الأصول القطرية والقومية. ناهيك عن الاختلاف في الزي بين المسلمين وأهل الذمة، والاختلاف أيضاً بين فئات أهل الذمة (نصارى ــ يهود ــ سامرة).

ومن هنا يمكن القول أن الأزياء في دمشق، كانت تعطينا في تلك الفترة من الزمن،

---

(١) انظر: حمامي، حسن. الأزياء الشعبية وتقاليدها في سورية. ص٣٩ و ص٤٢.

صورة ظاهرية عن بنية مجتمع دمشق على جميع الأصعدة والمستويات. لهذا انصب اهتمامنا على دراستها وإفراد فصل خاص بها. كما انصب اهتمامنا على تعدد الثياب وأنواع الأقمشة المستخدمة في صناعتها، وأنواع الفراء وزركشتها وتزيينها، فكنا نرى تبايناً في هذا المجال بين فئات المجتمع الشامي. من حيث تعدد الثياب واختلافها بين مايلبس منها داخل البيت وخارجه، أو في المناسبات المختلفة. خاصة لدى الأغنياء والحكام، في حين لا نرى ذلك لدى الفقراء وأغلب الفلاحين والبدو[1]. وعلى صعيد الزركشة والتطريز، استخدمت الخيوط بالسنارة[2] وبالإبرة، وبألوانها المختلفة لتزيين الثياب الخارجية خاصة. وكانت الزركشة متنوعة وذات موضوعات مختلفة تعود في معظمها لتركة تاريخية كبيرة لمدنيات غابرة، وبقيت حتى فترة دراستنا، فظلت أصيلة في خطوطها في ريف دمشق أكثر مما كانت عليه داخل دمشق، نظراً لانعزال الريف عن المؤثرات الوافدة إذا ماقيس بالمدينة آنئذ.

أما موضوعات الزينة فشملت الخطوط الهندسية البسيطة والمقطعة والمستمرة والمستقيمة والمتكررة والمتوازية والمتشابكة والأفقية والشاقولية. ومنها الموضوعات الهندسية الكاملة كالمثلث والمربع والدائرة وشارة الزائد. وشملت صوراً للنباتات كالأشجار والورود، وصوراً لحيوانات الأليفة والنافعة كالهدهد والطاووس والغزال والقواقع والأسماك، والحيوانات الضارة كالأفعى، وصوراً للشمس والقمر والنجوم. وهي رسوم موروثة لها مدلولاتها الجمالية السحرية والدينية.

وروعي في تكرار الرسوم الهندسية والنباتية توازناً وتناظراً بحيث يؤمن التوازن والاستقرار بين طرفي الثوب. واستخدم الدماشقة التزيين والزركشة في مواضع عدة من الثوب، وفي كل موضع منه كان له رسم يتناسب معه، فشجرة الحياة تطرزها المرأة على ثوبها من مكان الصدر، وعندما كانت تطرز على أكمام الرجل كانت تعني أنه يطلب قلب المرأة عامراً بالحب

---

(١) يمكن ملاحظة ذلك في مخلفات الحاج حسين آغا الكردي المتوفى سنة ١٢٥٦هـ. انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤/ص٢. ثم مخلفات أسماء بنت أحمد جوزة من قرية كفر سوسة، لم يكن لها ثياب في تركتها. انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤/ص١٥.

(٢) انظر: سجل القسمة العسكرية رقم ١٢٥٣/٣٦٥ ــ ١٢٥٨هـ، ص٢٢٠. ثم سجلها رقم ١١٩٤/٢١٥ ــ ١٢٠٠هـ، ص٩٥، حيث كانت تملك جبتين أولاهما بفرو القاقوم والثانية بفرو السمور ظهارتاهما مشغولتان بالتارة.

والحياة. وعندما كانت تزين سنابل القمح حواف ثوب العروس من الأسفل فذاك يعبر عن رمز التفاؤل في كثرة الخير والبركة والذرية المتعددة. أما شجرة السرو فكنت تراها في «صدرية» الرجل أو في قطشية النساء (الداير) وترمز إلى ديمومة وبقاء الحياة من زرع وضرع. ثم رسم الورود والزهور لدى ثياب النساء تحقيقاً للجانب الجمالي فيها. وهناك تطريز عنق الثوب الذي يوحي بالقلادة، وكان يوحي تطريز الأكمام وحوافي الثوب والصدر بالتفاؤل. أما رسم السمك فيرمز للخير والبركة، والغزال الأقرن الذي وجد على صدرية الرجال كان يرمز للرقة والرشاقة. أما الطاووس فيرمز للأبهة وكان يرى في ثياب الرجال والنساء على حد سواء. والهدهد طائر البشارة والسعد ورمز الحظ لدى النساء. أما العصفور أو البطة فكنت ترى رسمها في ثياب المرأة ومحارمها، ويوحي بالرقة والجمال. أما رسم الأفعى فيرى على الصدر والأكمام النسائية. ويوحي بالمكر والدهاء والموت وهو حرز لهن. وصور الشمس في ثياب النساء تعود إلى فترة عبادة الشمس أما صور القمر والهلال والماء في ثياب النساء فهي رمز للخصب والحياة[1].

مما تقدم ندرك أن أبناء دمشق وريفها قد تشبثوا بأزيائهم الوطنية الموروثة في العهد العثماني، وأن هذا العهد كان تأثيره سطحياً في هذا المجال، فاقتصر على أفراد الهيئة الحاكمة والجيش واستمر ذلك إلى عهد الإصلاح كما سنرى. وفيما يلي سنرصد بشيء من التفصيل بعض أزياء الهيئات الاجتماعية المختلفة في دمشق وخارجها على امتداد فترة دراستنا.

أزياء الهيئة الحاكمة في دمشق.

كانت أزياء هذه الفئة متميزة وتُرى في المناسبات الرسمية والدينية وغيرها. وهي واحدة تقريباً في الولايات العثمانية. إلا أنه يتعذر علينا رصدها في تفاصيلها لدى كل شخصية من تلك الشخصيات، التي مثلت السلطة العثمانية آنئذ، نظراً لكثرة عددها وتباينها ولقلة مابين أيدينا من مصادر تسعفنا في هذا المجال. إلا أن مالا يدرك كله لا يترك جله.

ولقد اتسمت أزياء هذه الفئات بإسرافها في استخدام الفراء، سواء في تزيين أطراف الثياب أو في تبطينها. وكان الفراء على أنواع عديدة بحسب جلود الحيوانات الفرائية، فمنها فرو القاقوم والسمور والنمس والوشق والقط والناقة والغنم والمرعز وغيرها. وركبت هذه الفراء

(١) انظر: جمامي، حسن. المرجع السابق. ص٦١ و ص٩١.

على ثيابهم المصنوعة من أفخر الأقمشة التي كانت منسوجة من خيوط الحرير أو القطن أو الصوف (الأجواخ)، فضلاً عن استخدامهم للمجوهرات والمعادن الثمينة في تزيين أجزائها البارزة. وكانت ألوان ثيابهم متنافرة على الجسم، فمنها الأسود والأحمر والبرتقالي إلى جانب الأخضر والبنفسجي والأزرق والأبيض[1]، وغيرها من الألوان.

وأكثر مايسترعي انتباهنا لباس الرأس أو العمامة[2]، وسميت بأسماء مختلفة، واختص بلبسها الرجال الأكثر رصانة واعتباراً من الناحية الاجتماعية، وقل من لبسها دون الأربعين. ولبسها (رجال الدين والموظفون الدينيون، والقضاة ونوابهم والمفتون ونقباء الأشراف وخطباء الجوامع ومدرسو المدارس والأعيان والولاة والدفتردارون والأغوات ومشايخ الحارات وغيرهم). وكان منها أنواع: أهمها الاسطواني والمخروطي. وتألفت العمامة من ثلاثة أجزاء هي: الطاقية المستديرة من القطن بيضاء اللون، كانت تلبس على الرأس مباشرة. ثم يأتي فوقها الطربوش أو القاووق ويلف عليه الشاش. وكان الشاش بألوان مختلفة. وتختلف طريقة لف الشاش من شخصية إلى أخرى، وأسرفوا بتزيينه في بعض الأحيان بالحجارة الكريمة والجوهرات. أما النوع الثاني فكان المخروطي الشكل، وتألف بدوره من طاقية بيضاء جامدة القوام ذات رأس مرتفع، يلف حولها الشاش. وهذا النوع من مؤثرات شمال أفريقيا. وكان الشاش مطبعاً بشكل منظم ومبروماً حول نفسه ثم حول الطاقية. وكان أكثر شيوعاً من الأول لدى الهيئة المحكومة، في حين كان الاسطواني هو الأكثر شيوعاً لدى الهيئة الحاكمة[3]، وكان القضاة الأتراك يلبسونه، ثم قام علماء دمشق بتقليدهم. أما الأشراف فلفوا الأغباني على الطربوش. وأبطلت العمامة على المستوى الرسمي في عهد السلطان محمود الثاني، وعم استعمال الطربوش

---

(١) انظر: الصور الضوئية للأزياء العثمانية ـــ الوثيقة رقم ٧/١١٥. ثم الوثيقة رقم ٩/١١٧. ثم الوثيقة رقم ١١/١١٩ ثم الوثيقة رقم ١٥/١٢٣. حيث ترى صوراً لعدد من أعضاء الهيئة الحاكمة العثمانية مثل «باش قلاغور آغا ثم قول أوغلي باش جوقداري. ثم باش قلعة جي آغا. ثم بلوك آغاسي. وجوقدار وآغا القهوة والترجمان ثم خاصكي آغا وتوتنجي وصالمة نفري وشويار آنفري ونظام جديد نفري وإكلري فالبا يلتي». دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٢) تعود العمامة في أصلها إلى العرب السوريين الكنعانيين كما يقول العالم الأثري هوزي. وكانت تقليداً للخوذة العسكرية لملوك مابين النهرين في الألف الثالثة ق. م. ثم استمرت في عصري اليونان والرومان ومن بعدهما في العصور الإسلامية ومازال حجمها يتزايد ويعتبر ذلك مثالاً للاعتزاز وعلو المكانة الاجتماعية والقدر حتى فترة دراستنا. انظر: حمامي المرجع السابق. ص٢٩١ و ص٢٩٢.

(٣) : حمامي. المرجع نفسه. ص٢٩٣.

بين أفراد الهيئة الحاكمة. ويذكر القاسمي في أحداث سنة ١٢٤٢هـ ـ ١٨٢٦ ـ ١٨٢٧م/١٢٤٢ ـ ١٢٤٣هـ أن والي دمشق عبد الرؤوف باشا ١٢٤٤ ـ ١٢٤٦هـ/١٨٢٩ ـ ١٨٣١م قد خرج مسافراً بموكب الحج وهو يلبس الطربوش بغير عمامة[١].

وحل الطربوش النمساوي محل الطربوش الكبير[٢] تشبهاً بالأجانب، وأطلق عليه اسم فس (FEZ) أو فينية نسبة إلى مكان صناعته وهي فينا عاصمة النمسا، وكان شكله أسطوانياً أحمر أو أبيض اللون ثم أصبح يسمونه (فاس) نسبة إلى مدينة فاس في المغرب الأقصى، كي يموه على المسلمين منشؤه الأصلي ويرضي مشاعرهم الدينية[٣].

وإبان الحكم المصري لدمشق قام المصريون بارتدائه دون عمامة، بدءاً من ابراهيم باشا المصري، وقلده في ذلك الأمير بشير الشهابي، وسماه جون باورنج (الطاقية الحمراء). وكانت هذه الطاقيات تستورد من فرنسا ثم مالبثت أن عم لبسها، فارتداها التجار[٤]، ثم عامة الناس، بدءاً من عام ١٨٣٨م/١٢٥٣ ـ ١٢٥٤هـ. وكان قد أرسل ابراهيم باشا «٢٠ صبياً من الحرفيين من دمشق إلى مصر لتعلم صناعة الجوخ والطرابيش ولادخال هذا الفن إلى دمشق فتتحول أرباح الأجانب من هذه البضاعة إلى أبناء البلاد»[٥]. واستبعد من أزياء الهيئة

---

(١) قاموس الصناعات الشامية. ج٢، ص٣٧٧.

(٢) كان الطربوش ثقيلاً وواسعاً وكانت طرته طويلة وعريضة جداً تتدلى على الكتفين وتنشر على الرقبة وأطراف الكتفين، ويقول بعضهم إن حكمة ذلك وقاية نقرة (القفا) من أشعة الشمس والرياح. انظر: القاسمي، محمد سعيد. المصدر السابق. ج٢، ص٣٧٧.

(٣) كان الطربوش يعرف في مصر والمغرب باسم (شاشية) أما عرب اسبانيا فكانوا يسمونه (غفارة). وكلمة طربوش محرفة عن الكلمة الفارسية (سربوش). وتعني زينة رأس الأمير. ثم حرفت إلى (شربوش) فأصبح شبه عمة تلتف حول قافية حمراء من الجوخ، سطحها الأعلى يتراوح مابين ١٠ ـ ١٢ سم، تطوى بشكل مثلث، وتظهر ثنياتها من أعلى الرأس، وتعلق في وسطها طره أو شرابة غليظة زرقاء تتدلى حتى العنق وكان يعرف في بلادنا باسم الطربوش العباسي أو المغربي، ولا يزال هذا النوع يرتديه علماء الأزهر في مصر. انظر: حمامي، المرجع السابق. ص٢٩٣.

4 - See: Polk. «the oponing of south Lebanon»; P.164.

(٥) انظر: عابدين ـ دفتر ٢١٠ رقم ٩٥ غ ـ المحفوظات ج٢. ص٣١٣. نقلاً عن ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا، ص١١٦.

الحاكمة الكشمير والشال نظراً لقلة ماورد منهما إلى دمشق، بسبب توقف قافلة الشرق، وبسبب ماحل محلهما من البضائع الأوربية في أسواق دمشق.

أما الزي بشكل عام، فكان مكوناً من عدد من الثياب، سواء منها مالبس على الجذع أو الرأس أو مايلبس على الوسط والساقين والقدمين، ومنها مالبس فوقها جميعا بدءاً من المنكبين إلى الكاحلين. وشذ عن ذلك في بعض التفاصيل زي النظام الجديد[1]، وجنود المدفعية[2] والسقاباشية[3]، الذين صممت أزياؤهم بحيث لا تعيق حركتهم أثناء العمل، فخفف الكثير من تلك الثياب، فهناك القميص المصنوع من الحرير أو الكتان أو القطن وبألوان مختلفة يأتي على الجذع مباشرة، ثم يأتي الشخشير أو الشخشور (الجقشير) باللون الأحمر أو البني أو الأزرق أو الأصفر[4]، وهو مايسمى بالسراويل التي تثبت على الوسط بدكة لتنهدل إلى الأسفل ولتزم عند كل كاحل. وانهدالها يغطي القدمين إلا مقدمتيهما، ويرتدى المست من الجلد الأصفر وهو بديل عن الجوارب في وقتنا الحاضر[5].

وجاء فوق القميص القنباز (أو الغنباز) بأكام واسعة، ويصل إلى الركبتين، ويأتي فوقه الضلماية أو الضولمان، وهي مفتوحة من الأمام لتظهر من تحتها الصدرية بأزرار خاصة مكونة عن خيوط مكورة، وكانت الصدرية عامة لدى الحاكمين والمحكومين، إلا أن الفئة الأولى والأغنياء صنعوها من الأقمشة الثمينة. وكانوا يرتدون فوق هذه الثياب الفروة (الكرك) أو الجبة، كانت فضفاضة كالعباءة وأكامها طويلة وواسعة، وتضيق هذه الأكام عند المعصمين في زي بعض أعضاء الهيئة الحاكمة. وهي من النوع المتصالب مفتوحة من الأمام وتتدلى إلى الكاحلين أما قماشها فمن الجوخ غالباً[6]. وإذا مالوحظ اختلاف في الجبة بين فرد وآخر، فيكون في لونها وتفريتها وأكامها (ضيقاً أو اتساعاً). فمثلاً كانت حوافي جبة القاضي ورئيس كتابه غنية بالفراء بالإضافة إلى تفرية أكامها. إلا أن الاختلاف فيما بينهما يبدو في لونهما. أما جبة أمين الفتوى فهي كالجبتين السابقتين إلا أن أكامها ضيقة ومفراة على العضد[7].

(١) انظر: الأزياء العثمانية. الوثيقة رقم ١٥ / ١٢٣. دار الوثائق التاريخية بدمشق.
(٢) انظر: المصدر السابق. الوثيقة رقم ١٩ / ١٢٧.
(٣) انظر: المصدر السابق. الوثيقة رقم ٢٧ / ١٣٥.
(٤) انظر: المصدر السابق. الوثيقة رقم ٧ / ١١٥، ثم الوثيقة رقم ٨ / ١١٦، ثم الوثيقة رقم ٩ / ١١٧.
(٥) المصدر السابق. الوثيقة رقم ٩ / ١١٧.
(٦) المصدر السابق. الوثيقة رقم ٨ / ١١٦.
(٧) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٥ / ١٢٥٣ — ١٢٥٨هـ، ص٥٣ و ص٥٤ و ص٨٢.

ولقد استخدم بعض رجال الهيئة الحاكمة أنواعاً من الزنانير من أقمشة مختلفة، وكان البعض منها مبطناً بالفراء. وكانت الزنانير تلف حول الوسط فوق الصدرية ثلاث لفات غالباً. وقد يكون الزنار العادي ملفوفاً على نفسه، وهو من لون واحد أو من عدة ألوان[1]. وثبتت الطبنجات أو الخناجر أو السيوف أو الدواة أو الساعة في الزنار. واستخدم بعضهم في تزيين ثيابهم الخارجية، حلياً ومجوهرات ثمينة، وبأشكال مختلفة، خاصة في المواكب والاحتفالات الرسمية والدينية وغيرها. وقد أسرفوا في ذلك إلى درجة فاقت الوصف، وأثارت دهشة المشاهدين من الغرباء الأوربيين في مثل تلك المناسبات. فإدوار لوكروى يصف والي دمشق أحمد باشا الجزار عندما توجه إليها من عكا بقوله: «كان يغيب ضمن الأصفر والأحمر والأخضر والذهب والزمرد والياقوت الأحمر ولا يعلم أسبيكة هو أم علم؟»[2].

ولم يقتصر استخدام الزينة والحلي على بعض الباشوات، بل شاركهم في ذلك بعض الرجال، فاستخدموا الزينة في أصابع اليد وحتى القدمين وفي حاجياتهم الشخصية. فالسيوف زينت قبضاتها ونصالها والطبنجات والغدارات ورخوت الخيل، كما زينت أذن الذكر الوحيد لأبويه بحلقة وحيدة وسمي بأبي حلقة[3]. وفاء لنذر وهكذا.

ولقد تبدل زي الباشوات في عهد السلطان محمود الثاني، الذي أدخل بعض الأزياء الأوربية إلى الهيئة الحاكمة، وبدأ بنفسه عندما خلع زيه التقليدي وارتدى زي ملك أوربي، وقام بتقصير لحيته ولبس على رأسه القبعة الغربية المعاصرة، والسترة الرجالية التي تبلغ الركبتين، والبنطلون بديلاً عن الأزياء الفاخرة الشرقية، التي كان يلبسها سابقوه من السلاطين العثمانيين[4]. وراعى ذلك بالنسبة لمرؤوسيه من أعضاء الهيئة الحاكمة. فمثلاً عندما قام بتقليد حسين باشا، مبيد الإنكشارية، منصب القيادة العليا، ألبسه «معطفاً قصيراً ذا نبيقة مزركشة بأسلاك الذهب وأهداه سيفاً مرصعاً بالألماس»[5] ناهجاً في ذلك نهج الغربيين.

أما زي الدفتردار فكان مكوناً من الثياب السابقة التقليدية، إلا أن جبته قد امتازت

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص٣٠.

(٢) انظر: كتابه «أحمد باشا الجزار» ص١٦٠ و ص١٦١. ترجمة جورج مسرة. البرازيل، سان باولو ١٩٢٤م.

(٣) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ / ١٢٠١ — ١٢٠٣هـ. ص٢٧٥.

4 See: Shaw .J. Standford. op.cit. VOL.2.P.49.

(٥) انظر: زكي، عبد الرحمن. التاريخ الحربي لعصر محمد علي الكبير. ص٣٩٨. سنة ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م.

بلونها الأحمر، وبتطويق حوافيها بفراء بني، وتعمم بعمامة أسطوانية تتسع قليلاً من الأعلى، وبلون شاشها الأبيض وبروز نبيقة حمراء من أعلاها [١].

وكان زي آغا الإنكشارية لا يختلف عما أوردنا من أزياء الهيئة الحاكمة التقليدية، إلا بكمر أخضر في وسطه دون زنار، وطوق الكمر وسطه لمرة واحدة. وتبرز الصدرية البيضاء في أعلى جذعه، وهي ذات أزرار كروية مصنوعة من الخيوط، ويعتمر بعمامة ضيقة من أسفلها ومتسعة من أعلاها، يطوقها شاش أبيض مدرب يسمح لقمة الطربوش الأحمر بالبروز من الأعلى. أما جبته فكانت زيتية اللون خالية من الفراء لكنها مبطنة من الداخل بقماش زيتي اللون[٢].

وتطالعنا سجلات محاكم دمشق للقسمة العسكرية بتركة أزياء أغواتها، وكانت تتألف غالباً من الاتي: العنتري ـــ المضربية (المدربية) الصدرية ـــ الميتان ـــ الطربوش ـــ والشاش البنش الجوخ ـــ الفروة الزنارية ـــ والتقميطة والمست والبابوج الأصفر[٣]. وتدل هذه التركة من الثياب على أن أغوات دمشق كانوا يرتدون ثياباً مختلفة بحسب تواجدهم داخل البيت أو خارجه.

ولقد تميز زي قاضي القضاة (شيخ الإسلام) عن غيره من أعضاء الهيئة الحاكمة، بالفرجية البيضاء (الجبة) المصنوعة من الجوخ، المفراة بفرو السمور الأسود، ويبدو ذلك في حوافها الخارجية. ونسوق مثالاً على ذلك ماحصل في ٢٦ جمادى الثاني من سنة ١١٩٢هـ لأسعد ابن عابدين، الذي تلقى خلقة شيخ الإسلام البيضاء وكانت عبارة من فروج من الجوخ الأبيض حشوها السمور الأسود لا يلبسها إلا شيخ الإسلام المنصوب. والفروج أو الفراجة هي الفرجية بلغة أهل الشام[٤].

---

(١) أنظر: الأزياء العثمانية: الوثيقة رقم ٣٠/١٣٨ دار الوثائق التاريخية التابعة للمتحف الوطني بدمشق.

(٢) المصدر السابق: الوثيقة رقم ٩/١١٧.

(٣) تركة محمد آغا بن حسن آغا المتوفى سنة ١٢٦٤هـ. ثم تركة أمين آغا بن عمر آغا مصيطر المتوفى سنة ١٢٦٥هـ. انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤١٩/١٢٦٤ ـــ ١٢٦٥هـ. ص١١١. تاريخ القضية ١٣ شوال ١٢٦٤هـ. ثم انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤/١٢٥٠ ـــ ١٢٥٨هـ. ص١٠.

(٤) انظر: المرادي. سلك الدرر. ج١. ص٢٢٩.

وامتاز زي الجوباشي أو الصوباشي (**رئيس الشرطة**) بعمامته الضيقة من الأسفل والعريضة من الأعلى يطوقها شاش أبيض. وكان حليق الذقن وشارباه طويلان[1]. وفيما عدا ذلك فلا يختلف زيه وثيابه عما أوردناه سابقاً. وتطالعنا سجلات القسمة العسكرية بدمشق بتركة أحد الصوباشية المتوفين فيها والتي كانت ثيابه تتألف من: جبة ــ فروة عنس وبنش فروة عرق (عدد ٢) ثم بنش جوخ وجبة جوخ وعنتري آلاجة. وبنش أحمر وشالة عجمية وطربوش كبير وشاش وقاووق وجقشير ورخت فضة وبشلق بالإضافة إلى خنجر مكفّت وطبنجات وبارودة[2].

أما زي الجوخدار فكانت ثيابه مفصلة بطريقة مخففة نسبياً، ويمتاز بعمامته التي يطوق قاووقها، شاش أبيض ملفوف بدوره على شكل الأفعوان، وجبته قصيرة ومفراة بلون أسود، وأكمامها ضيقة، ويحمل عصا في بعض الأحيان يرتكز عليها أثناء المسير[3] وحسبنا هنا أن نسوق مثالا على ذلك ماخلفه الجوخدار حسين آغا المتوفى سنة ١٢٦٤هـ، والتي كانت مكونة من: «الطربوش والعباية وعنتري آلاجة وجبة فروة مارنوص وشروال وزنار طرابلسي وشالة عجمية وعباءة سوداء»[4]. ومما يلاحظ بأن زي الجوخدار بشكل عام قد حافظ على ماكان عليه سابقاً، إلا أن الطربوش قد حل محل العمامة. ويعود ذلك للتغييرات التي أدخلت إلى زي الهيئة الحاكمة بفعل تنظيمات السلطان محمود الثاني.

وكان زي الشاطر (التاتار) كزي الجوخدار، إلا أن زي الأول كان مخففاً أكثر من الثاني، ويساعده على السير السريع، فنرى قصراً في شخشيره وضآلة في عمامة الرأس وقلة الفراء على ثيابه، أما لون جبته فباهت ليساعده على إخفاء الأوساخ والغبار الناتج عن طول المسافات التي كان يقطعها[5]. بالإضافة إلى سمك نعله الزائد عن المألوف، ليصمد أمام المسافات الطويلة ووعورة الطرق.

وامتاز زي الباشي آغا بعمامته الضيقة من الأسفل والعريضة من الأعلى، يبرز في

---

(١) انظر: الأزياء العثمانية. الوثيقة رقم ٢٨ / ١٢٦ / دار الوثائق التاريخية بدمشق.
(٢) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٣٨ / ١٢١١ ــ ١٢١٢هـ. ص٦٦.
(٣) انظر: الأزياء العثمانية. الوثيقة رقم ٩ / ١١٧.
(٤) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩ / ص١٠٥.
(٥) انظر: الأزياء العثمانية. الوثيقة رقم ١٣ / ١٢١.

مقدمتها القاووق بلونه الأحمر والمدرب بخطوط طولية، وعلى شكل مثلث رأسه إلى الأسفل وقاعدته في الأعلى. ولا يصل رأس المثلث إلى نهاية الشاش بل يترك بقية منه[1].

أما الجلاد فكان زيه ينسجم مع المهمة التي أوكلت إليه في تنفيذ الإعدام، فأكام جبته غير فضفاضة كي لا تعيق حركة يديه. بالإضافة إلى قصرها فتصل إلى مادون الركبتين فقط، ويرتدي من جزعه وإلى الأسفل شخشيراً أسود يصل إلى منتصف الساقين، وهو حليق اللحية طويل الشاربين ويعتمر بعمامة بسيطة مكونة من قاووق يُلف عليها شاش أبيض وضيق، ويحمل سيفه العريض[2].

ولم تشاهد دمشق زي الجنود المشابه لزي جنود أوربا إلا في عهد المصريين ومابعده في عهد السلطان عبد المجيد. ولقد حاكى زي النظام الجديد، زي الأوربيين في هذا المجال، فخفف من الثياب السابقة الشيء الكثير، وتقلص الاهتمام بالفراء الثمين وحل محله فراء الثعالب[3] وحل الطربوش (الفاس) (FEZ) النمساوي الصنع محل العمامة والقاووق أو التربان، وحلت الجاكيت على الجزع خالية من الياقة وبأكام طويلة حتى الرسغين بلونها الأصفر أو الأحمر، مكان القنباز أو الضلمان «الضلماية» والممتدة من الكتفين باتجاه الأسفل ــ وحل نطاق الجلد على الخصر مكان الزنار. وحل البنطلون مكان السراويل وهو بلون أسود.

أما الحذاء فكان (المركوب) بلونه الأسود أو الأحمر أو الأصفر[4]. مما يساعد الجندي على سهولة وسرعة الحركة، كما ارتدى العباءة عند الحاجة. وكان جنود المدفعية يرتدون زي النظام الجديد، وعلى الرأس قلبق أسود أسطواني وطويل، أما الوسط فخال من نطاق أو حزام (زنار)، وتحت الجاكيت صدرية خاصة. ويرتدون الجوارب في أقدامهم تقليداً للأوربيين في ذلك[5].

---

(١) انظر: الأزياء العثمانية. الوثيقة رقم ١٣ / ١٢١.

(٢) انظر: الأزياء العثمانية. الوثيقة رقم ١٨ / ١٢٦.

(٣) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦ / ٣٣٣.

(٤) انظر: الأزياء العثمانية. الوثيقة رقم ١٥ / ١٢٣.

(٥) انظر: المصدر السابق. الوثيقة رقم ١٩ / ١٢٧.

ولقد قلد الجيش المصري **زي الجيش الفرنسي، فكان** لباس الجندي المصري يتألف من الآتي: طربوش أحمر وسترة ضيقة (صدرية) وبنطلون (سروال واسع) ونطاق يُشد على الخصر ورباط للساق (طوزلق) وحذاء بلدي أحمر (مركوب). وكانت هذه الملابس تصنع من قماش قطني سميك في الصيف، أما ماكان يلبس في فصل الشتاء فصنع من الجوخ. وكان لون هذه الملابس متضارباً كما ذكر المعاصرون. فمثلاً يذكر الجنرال بوبيه رئيس البعثة العسكرية أن لون اللباس كان يختلف باختلاف الكتائب العسكرية، مابين الأسود والأحمر والأسمر. ويقول الكابتن جول بلانا: إن السترة (الصدرية) والبنطلون كانا يصنعان من الجوخ الأحمر ومن نوع (السرج)، أما الدكتور كلوت بك فيذكر أن لون الصدرية كان أحمر (حصراً)، ويسكت عن لون السروال (البنطلون)، وطبق هذا النظام من الألبسة على الضباط إلا أنها كانت مصنوعة من الجوخ. وتزينها ضروب من التطريز، بالإضافة إلى الصدرية ذات الأزرار التي كان الضباط يلبسونها تحت السترة. وكانت تكسب الضباط رونقاً جميلاً. وكانت هذه الملابس تشبه الزي الوطني المصري في القرن التاسع عشر. وكان الجنود في الصف يرتدون الملابس البيضاء المصنوعة من القطن الغليظ، أما الفرسان فيرتدون ملابس تختلف باختلاف الوحدة، فمثلاً الفرسان ورجال المدفعية وجنود الحرس، كانوا يرتدون شتاء صدرية زرقاء في حين كان رجال الأسلحة الأخرى يرتدون صدرية حمراء. وكانت حلل ضباط الخيالة ذات جدائل مقصبة، أما الفرسان (المدرعون) من أهالي بعلبك الشام، كانوا يرتدون على رؤوسهم خوذات من الطراز الذي كان معروفاً في أيام الصليبيين.

ولقد وضع الفرسان غير المدرعين على رؤوسهم، القالوطة المصنوعة من الصلب، تحيط بها عصابة من نفس المعدن. وكانت تثبت قطعة طويلة من الحديد، لوقاية الأنف من ضربات السيف، أمام واقية العين. وكان لصف الضباط شارات تدل على رتبهم العسكرية، فالأنباشي كان يحمل على صدره شريطاً واحداً، والجاويش اثنتين، والباشجاويش ثلاثة والصول نصف هلال من الفضة والملازم الثاني نجمة من الفضة والملازم الأول نصف هلال ونجمة من الفضة واليوزباشي هلالاً ونجمة من الذهب والقائمقام هلالاً من الذهب ونجمة من الذهب مرصعاً بالألماس وهكذا.

وفي فبراير (شباط) ١٨٤١م صدر فرمان سلطاني بتقييد اللباس والشارات

العسكرية كي تكون كما في الدولة العثمانية، والغاية من ذلك أن لا تشعر مصر على أنها مستقلة عن الدولة العثمانية[1].

ومن أزياء رجال الدين، زي نقيب الأشراف وأزياء الطرق الصوفية. أما زي نقيب الأشراف فكان مشابها لزي قاضي القضاة (شيخ الإسلام) إلا أنه يختلف عنه بلون جبته التي كانت لدى الأول فاتحة اللون ويعتمر بعمامة لها شاش أخضر. وعندما أدخل الطربوش كلباس للرأس قام نقيب الأشراف بلف الشاش الأخضر حول الطربوش، وكان الأشراف بشكل عام حريصين على الحفاظ على مظهرهم الخارجي، خاصة في المناسبات والاحتفالات وفي دوائر الدولة وعند زيارة الحكام[2]. إلا أن زي الأشراف لم يكن على درجة واحدة من الإتقان والثراء، بل توقف ذلك على درجة غنى كل واحد منهم، واختلف لذلك نوع القماش المستخدم في صنع ثيابهم، كما اختلف نوع فرائها وحتى زينتها، وعدد الثياب من النوع الواحد. وكان من الطبيعي أن نلاحظ ذلك بين غنيهم وفقيرهم. فأحد أغنياء الأشراف في دمشق وهو السيد عبد الله جلبي بن السيد مصطفى الدقر المتوفى سنة ١٢٣٨هـ/١٨٢٣م بلغت تركته مئات الألوف من القروش، وكان من تركته الثياب الآتية: «عدد كبير من الجبات المختلفة بلونها وقماشها وفرائها وعدد كبير من البنش والقمصان المضربيات (المدربيات) والسراويل والأثواب والأكمار والتقميطات والميتانات والعنتري والمحازم والجقاشير وعدد من الجواري والإماء والعبيد»[3]. في حين نرى تركة شريف آخر من دمشق، لم يكن على درجة غنى الأول، ولهذا لم يكن في تركته من الثياب العدد الكبير، وذاك الشريف هو السيد صالح بن الشيخ أمين العش المتوفى في ١٩ شوال ١٢٣٧هـ/١٨٢٣م وكانت تركته مؤلفة من الآتي: «بنش جوخ وجبة جوخ وعنتري آلاجة وجقشير وشالة وقميص

---

(١) انظر: رستم، أسد. الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا. ج١، ص٨٩.

2 - See: Russell .A. op.cit. VOl..I.PP.159.160.

(٣) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩/١٢٣٧ ــ ١٢٤٥هـ. ص١٧٤. ثم: تركة فرع الشجرة الزكية الشريف محمد أفندي بن اسماعيل العجلاني الذي بلغت تركته ١١٩٤٠ قرشاً وهو مبلغ كبير من المال آنئذ، وكان من تركته القلجين والشال الإنكليزي بالإضافة إلى الثياب المتعددة والمتنوعة والمفزاة بفراء ثمين. انظر، سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٥/١٢٥٣، ص١٥٠ القضية تاريخ ١٨ ذي الحجة سنة ١٢٥٣هـ.

ورقيق وشاش وقاووق وشالة عجمية وشالة بيضاء وجزمة ومست وبابوج»، وبلغت ثروته مئات القروش[١].

أما أتباع الطرق الصوفية فكانوا من حيث الأزياء صنفان: أولهما زاهد في الثياب لا يرتدي إلى الخشن منها[٢]، أو لا يبدل ثيابه إلا بعد مضي سنوات طويلة. فمثلاً أبو زيد الحلبي المتصوف «لم ينزع قميصه نحو اثنتي عشر سنة» ومات ١١٧٣هـ/١٧٥٩ ــ ١٧٦٠[٣]. في حين كان بعض المتصوفين يتصدق بالثياب الجديدة، ويرتدي الثياب الخشنة القديمة مثل الياس الكردي المتوفى سنة ١١٣٨هـ/١٧٢٦م[٤].

أما الصنف الآخر من المتصوفين في دمشق فبرز آنئذ في معظم أتباع الطرق الصوفية المختلفة. وتميز هؤلاء بلباس الرأس ولون الشاش والجبة أو بعض الثياب. فأصحاب الطريقة الرفاعية كانوا يلفون الشاش الأخضر على التاج[٥]، أما زيها فكان الأسمر والأبيض[٦]. أما إذا كان الشاش ملفوفاً على الطربوش فيدل على أن صاحبه من السادة الأشراف وهذا هو الفرق بينهما. وكان أصحاب الطريقة القادرية يلفون شاشاً أسود حول عماماتهم، وإذا كان شريفاً، فتعلو الشاش قطعة من اللون الأخضر المقصب. وكان أتباع الطريقة المولوية يلبسون على رؤوسهم قلنسوة طويلة (كلاة) من الصوف الأحمر أو الوبر بالإضافة إلى الجبة السوداء[٧]. وكان زي الطريقة الرفاعية والسعدية اللون الأخضر[٨].

(١) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩/١٢٤٥هـ. ص١٧٤.

(٢) انظر: المحبي. خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر. ج١. ص٣٧٢ و ص٣٧٥.

(٣) انظر: المرادي. سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر. ج١. ص٧٣ مطبعة بولاق. مصر. ويذكر المرادي أن حسين الحموي المتصوف كان يلبس الخشن من الثياب ومات سنة ١١٠٦هـ. انظر: سلك الدرر. ج٢. ص٦٧ و ص٢٧٢.

(٤) المرادي: المصدر السابق. ص٢١٧.

(٥) العلاف، أحمد حلمي. دمشق في مطلع القرن العشرين. ص٢٤. تحقيق علي جميل نعيسة. دمشق، ١٩٧٦م.

(٦) انظر: التفتازاني، أبو الوفا. مقالة له في مجلة كلية الاداب بالقاهرة. تحت عنوان: الطرق الصوفية في مصر. العدد١، ص٧٥. القاهرة. سنة ١٩٦٣م.

(٧) العلاف: المصدر السابق. ص٢٥.

(٨) التفتازاني، أبو الوفا، المرجع السابق. ص٧٦.

أزيـاء العامـة

اتفق زي الرجال مع زي النساء في نواحي عدة، مثل التزيين والزركشة، وفي تسمياته والإسراف في أبعاده، وكان الخلاف بين الزيين بسيطاً، وأقل مما نراه الآن بينهما من فروق، وشاركت دمشق في ذلك المدن الشامية الأخرى.

وتعود تلك الأزياء في أصولها إلى عدد من المؤثرات والحضارات التي قامت في منطقتنا. فكان منها مايعود إلى أصول عربية قديمة كالآرامية والكنعانية والآشورية وغيرها وإلى أصول غير عربية كالحبشية والفارسية والهندية والإغريقية والبزنطية، وبرزت في هذه الفترة أزياء أهل المغرب العربي التي جاءت مع أبنائه إلى دمشق، بالإضافة إلى أزياء أبناء الأقاليم العثمانية غير العربية.

ونسجت الأقمشة من خيوط القطن أو الكتان أو الصوف أو الوبر أو الحرير، وكانت خالصة أو بنسب معينة من تلك الخيوط، وذلك لترضي أذواق الدمشقيين. وكان منها المصنوع محلياً أو المستورد من أقاليم الامبراطورية العثمانية أو خارجها.

ونلاحظ أيضاً شغف العامة باقتناء الفراء الذي كان مثار الإعتزاز والتفاخر. إلا أن مااستجد من أحداث على الساحة العثمانية والدولية، وحتى الدمشقية، في هذه الفترة، قد أثر أيما تأثير على ظاهرة اقتناء الفرو الثمين. فلجأ بعض العامة إلى اقتناء فرو الثعالب والغنم، أما البعض الآخر فعزف عن اقتنائه كلياً، ليس لارتفاع أسعاره فحسب، وإنما لاضطراب حبل الأمن، وضعف السلطة المركزية وفقدانها هيبتها، مما جعل المواطنين عرضة لابتزاز الحكام. فاضطر بعض الأثرياء للتظاهر بالفقر وعزفوا عن لبس فاخر الثياب، واستعاضوا عنها بلبس الأسمال البالية خارج بيوتهم، لإبعاد أنظار عوانية[1] الظالمين من الحكام.

وبقي الناس ميالين إلى ارتداء الثياب ذات الألوان الناصعة، كالأحمر والوردي والأبيض والبنفسجي، إلى عام ١٨٤٧م/١٢٦٣ ــ ١٢٦٤هـ، حيث هجر أبناء الفئات العليا الثياب من تلك الألوان ولبسوا الجوخ الأسود والأزرق والكستنائي، في حين استمرت فئات العامة باقتناء الثياب من الألوان السابقة الذكر[2].

---

(١) انظر. حمامي. المرجع السابق، ص٥٨.

2 - See: Polk.op.cit.PP.164-166.

وبدخول البضائع الأوربية إلى دمشق وعلى نطاق واسع، بدأ العديد من أبنائها يعزفون عن الأقمشة المصنوعة محلياً أو المستوردة من الشرق، لتحل محلها الأقمشة الانكليزية، نظراً لرخص أسعارها، إذا ماقورنت بأسعار الكشمير والشال. وأصبح حتى البدوي يضع على رأسه كوفية مستوردة من برمنغهام. أما أبناء ريف دمشق فاستمروا بصنع ثيابهم الخاصة مما يغزلونه من خيوط القطن أو الصوف، فصنعوا منها عباءاتهم (من الصوف وسراويلهم من نسيج القطن الخشن المحلي) ولكن اهتمامهم بالنسيج الأوروبي مالبث أن تزايد مع الزمن، وبدأوا يخيطون ثيابهم منه وخاصة رمادية اللون، لتناسب العمل في الأرض، وكانت مثل هذه الأقمشة أهم منتجات بريطانيا النسيجية .

ومن جهة أخرى كان أبناء دمشق ينفرون من الأزياء الأوربية، وكان لابسوها يتعرضون للإهانة. لهذا راعى الأوربيون، عند دخولهم إلى دمشق، خلع أزيائهم القومية واستبدالها بأزياء محلية، كي لا يتعرضوا لمضايقات الشعب. وبقي هذا الحال إلى عهد ابراهيم باشا المصري «حيث قام بتعويد الدمشقيين على رؤية هذه الأزياء»[1] .

وسنحاول فيما يلي رصد أهم الأزياء عند عامة دمشق وخارجها، وسيشمل الرصد زي الرأس والجزع وأسفل الجسم، مع ذكر أهم الحلي والمجوهرات والزينة المستخدمة لدى الرجال والنساء وسنتناول زي الرجال أولاً ثم بعد ذلك زي النساء وهكذا.

١ ــ لباس الرأس لدى الرجال

وقد تنوع لباس الرأس، ونادراً ماكنا نرى أحداً من الرجال حاسر الرأس، لأن خلع مثل هذا الغطاء كان مستهجناً، وكان نوعه يدل على انتماء صاحبه الاجتماعي، وكان القاووق[2] أساس لباس الرأس ، وتنوعت العمامة الملفوفة عليه لدى العامة بشكل يصعب علينا حصر

1 - See: Douin .G. «Mission boisle comte en Syrie». P.202.

(٢) القاووق: وهو عبارة عن قلنسوة تلبس على الرأس يفصلها صانعها من جوخ أو غيره. وكان يطلق على صانعها في دمشق اسم القاوقجي، وكان يفصل على قدر الرأس وله بطانة وظهارة يحشى مابينهما بالقطن وسطح دائرتها المماس للأعلى (الترس) عريض مدوّر يلائم القاوقجي ظهارته وبطانته بدروب عديدة وأسلاك مخيطة. وفي الترس نقوش من الخياطة وضروب لطيفة تجمع على زرها الوسط. وكان يلبسه ويعتم به العلماء والوزراء والأعيان مع الشاش الأبيض. انظر: القاسمي. المصدر السابق. ج٢. ص٣٧٣

أنواعها ، فالطرطور[1] للأولاد وللدلاة ، والقلبق[2] لاتباع الطريقة الصوفية المولوية وللجنود ، والكلاة[3] للدراويش المولوية ، والطبزية[4] لمشايخ الطرق الصوفية ، والتاج[5] للمتصوفة ، والكفية للبدو وبعض سكان القرى وهكذا .

---

(١) الطرطور : لباس رأس قديم عند السوريين ، وهو على شكل مخروطي ، لبسه الأولاد على الرأس في هذه الفترة كما لبسه الجنود الدلاة ، وكان لديهم من اللون الأسود المصنوع من جلود الغنم الصغار . انظر : العبد ، حسن آغا : تاريخه ، ص١٧ . الحاشية . ثم انظر : الأزياء العثمانية ـــ القسم الخاص ـــ الوثيقة رقم ١٩ / ١٢٧ . ثم الوثيقة رقم ١١ / ١١٩ .

(٢) القلبق : كان بمثابة لبادة تلبسها المولوية ، وكان يغشى بجلد الجدي الصغير ، وكان يلبسه الجنود بعد أن يضيفوا إليه عمامة صغيرة لا تغطيه بكامله ، ثم أصبح يصنع من جلد الخروف الأسود بدلاً من جلد الجدي . وكان يزين ترسه العلوي بالسيم أو القصب . وكان القلبقجي وهو صانع القلابق يفصله من الجوخ على قوالب خاصة ومكابس من الخشب . انظر : الأزياء العثمانية القسم الخاص . الوثيقة رقم ٧ / ١١٥ . ثم القاسمي قاموس الصناعات . ج٢ ، ص٣٧٩ . ثم سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢١٥ / ١١٩٧ ـــ ١٢٠٠هـ ، ص٧٧ و ص٧٨ .

(٣) الكلاة : وكان يلبسها الدراويش ، وهي من اللباد غالباً ، فيلبسها دراويش الطريقة المولوية وغيرهم في دمشق . انظر : حمامي . المرجع السابق . ص٢٩٨ .

(٤) الطبزية : ويقال لها الطبزة وهي اسم لكسوة كبرى وعمة عظمى تلف من الشاش الأخضر الكثير الأزرع على القاووق أو العرف ، وكان يلبسها العلماء ومشايخ الطرق في مواعيد خاصة وأوقات معينة وفي ليالي إقامة الأذكار ، وهذه الطبزية تختلف في حجمها ، فمنها الصغير والمتوسط والمفرط في كبره ، وكانت ترى بأشكال مختلفة على بعض القبور القديمة من حجر منحوت أو قماش وكانت بعض بيوت العلم الدمشقية تحتفظ بها لوفاة عالم أو شيخ طريق . يضعونها على النعش ناحية رأس الميت إعلاناً بأنه عالم أو شيخ طريق أو نسيب . انظر : القاسمي ، محمد سعيد . المصدر السابق . ج٢ ، ص٣٧٤ .

(٥) التاج : كان يلبسه بعض المتصوفة ، فمنهم من يتعمم عليه ، ومنهم من لا يتعمم عليه . أما اللبادة البيضاء فكانت على أشكال ، لكل شيخ طريق شكل خاص منها ، كاللبادة الطويلة بطول لبادة المولوية ، يلف عليها صوف أبيض بهندسة خاصة ، ومنها لبادة الطربوش ومنها لبادة مضلعة . وكان من لا يجيد التعمم على القاووق أو اللبادة يرسلها إلى من يجيدها وهم أشخاص كانوا معروفين يرتزقون من ذلك ، فكانوا يتقنون هيئة العمة وشكلها على حسب رغبة صاحبها ومظهره وطريقته ومن الناس من كانت عمته على قاووق مدور كالدف الكبير المعروف بالمزهر وكثيراً من العلماء كان يتعمم على القاووق بالشاش الأبيض ومنهم من كان يتعمم بعمائم من الحرير المطرز المعروف بـ (عزيز خان) أو بالأغباني ، وهي عمة سائر التجار وبقية الناس .

وكان لأكثر الناس عمامتان فأكثر ويقولون عمة للرياسة وعمة للسياسة ، ويعنون بذلك عمة لمقابلة الناس وعمة للدار وتعاطي الحرفة . فالأولى روعيت نظافتها أكثر من الثانية ولما كثرت الطرابيش وانتشرت في عهد

٢ ـــ لباس الجـذع

تكوّن لباس جزع الرجل آنئذ من ثياب عديدة، اختلفت بألوانها وتفصيلها، فمنها ماكان يصل إلى وسطه أو إلى ركبتيه أو يصل إلى كاحليه، ومنها ماكان بأكام تصل إلى الرسغين أو ماكان بدون أكام. وصنعت تلك الثياب من أقمشة مختلفة، فكان منها القطني أو الحريري أو الكتاني، أو من خيوط مختلفة. واختلفت أيضاً تلك الثياب من فئة إلى أخرى بحسب أحوالها المادية. فالأغنياء أدخلوا إلى بعضها الفراء، سواء في بطانتها أو في أكامها أو حوافها. واختلف تبعاً لذلك نوع الفراء المستخدم، واستخدمت الثياب المفراة في فصل الشتاء، نظراً لما توفره من الدفء للجسم. واستخدم في بعضها التطريز والتزيين بموضوعات مختلفة وأهم هذه الثياب هي: القميص[1] ويأتي على الجزع مباشرة، ثم تأتي فوقه الصدرية[2]. وتتممها السراويل أو الشخشير بحيث ينسجمان مع بعضهما في اللون ونوع القماش. ثم القنباز أو العنتري وكان يلبس بديلاً عن الصدرية إذا كان قصيراً، أما الطويل منه فكان يصل

السلطان محمود الثاني أخذت القواويق تتناقص وصارت الطرابيش تجلب من الخارج، وبدأ أمرها ينتشر حتى عم. واستعاضت الناس بها عن جميع ماتقدم من القاووق والعرف والطبزة واللبادة عدا بقية مشايخ الطرق، وصارت الناس تتعمم على الطربوش. وبدأوا يتلطفون بحجم العمامة. انظر: القاسمي، محمد سعيد المصدر السابق. ج١. ص٣٧٥ و ص٣٧٦.

(١) القميص: ثوب رقيق أو من قماش قطني أو من الحرير. وكان يحل محل هذا القميص ثوب آخر يلبس مكانه أو فوقه، مصنوع من قماش خريري، أو قطني، أطلق عليه الكيرمازوت (Kermazoot) وكان ساذجاً أو مزهراً، وهو غالي الثمن مبطن بفرو، وضعه الأغنياء من فراء القاقوم (Ermine) وبره قصير، وكان بدون أكام، مطوق بزيق (كنار) ضيق من الفرو حول الرقبة، ويتدلى بطوله إلى مادون الفخذين وإذا ماصنع له كمان كانا يصلان إلى مابعد الكوعين. وكان القميص المصنوع من القطن عريض الأكام ويصل من الكتفين إلى أسفل الجسم. انظر: حمامي، المرجع السابق، ص٢٧٦.

(٢) الصدرية: كانت مفتوحة من الأمام، وفي منتصفها أزرار صغيرة بحجم حبة الحمص، ولا يقل عددها عن الخمسين، وهي من الخيوط الحريرية المبرومة الملتفة على بعضها، تزرر عند الحاجة، وكانت تطرز من الأمام على جانب الازرار من الأعلى إلى الأسفل، ويوضع طرفها السفلي تحت السراويل، ويلفهما زنار من الشال أو الحرير (قماش مبطن من الداخل) بقماش آخر أو فراء، ويختلف نوعه مابين الصيف والشتاء. ويكون الزنار مطرزاً بمواضيع هندسية ونباتية.
وضعت الصدرية الصيفية من الحرير الأطلسي اللامع المخطط من نوع الصاية بأقلام عمودية، ذات لونين متباينين كالأبيض والأزرق أو الأبيض والخمري أو الأسود والأصفر، أو من الحرير السكري (كريم ساذج) أو من الأغباني. انظر: حمامي. المرجع السابق، ص١٤٨ و ص١٤٩.

إلى الكاحلين ، ويسمى الضلماية أو الضلمان[1] . ثم الميتان[2] والبنش أو الدامر[3] . والجبة[4]

(١) تستقر على الجسم بسهولة ويسر ، وتربط برباط قماشي من أحد الجانبين . وهي مفتوحة (متصالبة) وعليها عدد من الأزرار الصغيرة كما في الصدرية . حيث تزرر على الصدر . وإذا مالبست الصدرية تحت الضلمان ، تكون الأخيرة مفتوحة بحيث تسمح للصدرية بالبروز من تحتها .
وكانت الضلماية من القماش البسيط أو الخام المزهر . وكانت أجناساً مختلفة كالمصرية والحامدية . والآلاجة والبفتة . أما بالنسبة لطولها ، فكانت بمثابة ثوب طويل يصل إلى مشط القدمين ، مفتوحة بكليتها من الأمام . فهي إذن من اللباس المتصالب ، ويقول لوروا غوران إن القنباز «عريض من الأسفل ثم يضيق تدريجياً نحو الأعلى ويردف الطرف الأيمن عادة فوق الطرف الأيسر ، ويغلق عند العنق بزر ظاهر . وله كان طويلان يتسعان عند راحة الكف ليساعدا على التشمير عند الوضوء والطعام . ويكون إما من الجوخ أو الحرير الساذج أو المقلم بخطوط طويلة ملونة بعدة ألوان ـــ ويستخدم القنباز الحريري في فصل الصيف ، ويسميه العامة (الصاية) أو شاية وقد يكون من الحرير الأبيض الساذج وهذا مايسمى بالروز أو من حرير الأغباني ذي الخيوط الحريرية الصفراء المطرزة على القماش برسوم نباتية ملتفة . وكان القنباز الحريري (الصاية) يسمى بأسماء عديدة بحسب ألوانه فمنه : الحامدية والعطافية والشاهية والأساورية والديما ، وهناك أنواع أخرى للصاية (القنباز) كالمصرية والهندية والعثمانية ، أما قنباز الشتاء فكان يصنع من الجوخ الساذج أو المقلم» .
انظر : حمامي . قاموس الصناعات ، ج٢ . ص٢٧٢ و ص٢٧٣ و ص٢٧٤ و ص٢٧٥ . ثم انظر : العلاف . أحمد حلمي ، دمشق في مطلع القرن العشرين ص٢٦ .

(٢) الميتان : ويأتي فوق الصدرية أو الضلماية . وكان عبارة عن قطعة نصفية مفتوحة من الأمام ، ذات أكمام طويلة وتبقى مفتوحة دائماً من الأمام ، ويتصالب طرفاها من الأسفل فوق الزنار ، وليس بها أزرار . أما قماشها ولونها فكانا متممين لقماش الثياب ولونها بشكل عام ، تطرز بالقصب من الأمام وعلى طرفي الكمين بزخارف هندسية متنوعة . انظر : حمامي . المرجع السابق ، ص١٤٩ و ص١٥٠ .

(٣) البنش أو الدامر : كان في الأصل لبس أهل الجبال والبوادي والسهول ، وكان عندهم قصيراً وغنياً بالزخارف ، وهو قطعة من الثياب تشبه المعطف القصير ، يصل بطوله إلى الفخذين ، متسع فضفاض ، أكمامه طويلة وواسعة ، ذات فتحة مطرزة وليس له أزرار ، وكان ثوباً للرجال والنساء ، ولشدة محبة الناس لهذا اللباس الجميل والمريح ، كان يلبس من قبل الرجال والنساء ، وكان منه أنواع : الشالي الخياري والجوخ والقبوط ويفرّى بأنواع الفراء المختلفة .
انظر : حمامي . المرجع السابق ، ص٢٥٥ . ثم انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم / ٢١٥ / ص١٠ و ص٣٠ .

(٤) الجبة : هي معطف من الجوخ قديم في حياة الشرقيينَ ، أخذه العرب عن كهنة الآشوريين والفرس ، وتحدث عنه ابن سعد في طبقاته . ولقد عرف هذا اللباس ماقبل الإسلام ، والجبة مبطنة وطويلة حتى القدمين ، وهي من الأمام أقصر من الخلف ، وإذا مالبست فوقها عباءة فتحزم الجبة من الوسط ، وليس للجبة ياقة أو جيوب ، وكانت عريضة الأكمام ، وتقور على استدارة العنق ، ولا تلتقي حافتاها الأماميتان إلا بضمهما بواسطة اليدين . وليس لها أزرار ولا عروات ، ولذا كانت تبقى مفتوحة على الدوام ، وتكشف ماتحتها من الثياب الداخلية ، وكانت العباءة تلبس فوقها عند تهطال الأمطار أو الثلوج ، وبطنت الجبة عند الأغنياء وعناصر ←

والمدربية[1] أو المضربية كما كانت العامة تلفظها آنئذ، ثم الزنار الذي كان يشد على الوسط ويسمى محزماً أو حزاماً أو شالاً أو شالة أو شملة، ويتفق وجوده مع الثياب المفتوحة من الأمام، ويمسك بأطراف ثياب الجذع والسراويل، ويلف عدة لفات حول البطن. واختلف طوله وعرضه من شخص إلى آخر، وكان ساذجاً أو مقلماً، وصنع من أقمشة مختلفة كالحرير أو الصوف، أو القطن، وأضيفت شراشيب خاصة إلى زنار المرأة، وربط من الجانب الأيسر من جسمها، أو كان له بزيم لتثبيته بدلاً من الربط، وكان منه الحلبي أو الحمصي أو اليمني أو الحموي أو شلما. ومن حرير القز أو الإسلامبولي أو الطرابلسي أو الدهدار[2]. وكانت له استخدامات مختلفة، كأن تثبت ضمنه الساعة والطبنجة والخنجر أو الدواة أو المسواك[3]. أو تحفظ فيه الدراهم أو بعض الأوراق الخ...

واستخدم حزام الجلد للوسط. وكان من المعدن أو الجلد وأطلق عليه اسم (كمر) أو

الهيئة الحاكمة بالجوخ أو الفراء في أطرافهما وعنقها وأكمامها بنوع من الفراء الثمين المعروف بالسمور أو القاقوم أو النمس وغيره من الفراء، وكان لون الفرو ينسجم مع لون الجبة لدى فئات الحكام، تمييزاً لكل واحد منهم عن الآخر، وكانت تسمى لدى رجال الدين بالفرجية، وعندما تفرَّى وتكون طويلة تسمى الفوقانية.

انظر: حمامي. المرجع السابق. ص٢٧٨ و ص٢٨١. ثم: DOZY op.cit. P.330.

(١) المدربية: لفظها العامة آنئذ المضربية ووردت هكذا في سجلات محاكم القسمة المختلفة في دمشق. ويبدو أنها كانت لباساً عاماً لدى جميع فئات الشعب الدمشقي، الأغنياء والفقراء النساء والرجال، وهي عبارة عن جبة طويلة مقلمة على الغالب بألوان متساوية تبطن من الداخل. توضع بين القماش الأصل وبطانته طبقة خفيفة من القطن، وتدرب كلها خياطة بخطوط مستقيمة أو مائلة. ومن هنا أخذت اسمها (المدربية). وقد تحزم بزنار شالة أو شالة عريضة، ثم يلبس فوقها دامر، وتشبه في تفصيلها المعطف، إلا أنها عريضة الأكمام وتبقى مفتوحة على الدوام لتظهر من تحتها السراويل والصدرية والكشمير.

انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤/سنة ١٢٥٠ ــ ١٢٥٨هـ. ص٢ و ص٤ و ص١١ و ص٢٢ و ص٤٠.

ثم: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٥/سنة ١٢٥٣ ــ ١٢٥٨هـ. ص٣٠ و ص٣١ و ص٥٢ و ص٥٣ و ص٥٤ و ص٥٦ و ص٥٧ و ص٨١ و ص٨٢.

ثم: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩/سنة ١٢٣٧هـ. ص١٨٤ و ص١٣٤ و ص٢١٥ و ص٢٠٦ و ص١٩٥ و ض١٩٢ و ص١٨٧.

ثم: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢١٥/سنة ١١٩٧ ــ ١٢٠٠هـ، ص٥ و ص١٠.

(٢) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢١٥/ص٥ و ص٩ و ص٩٠. ثم سجلها رقم ٣٦٤/ص٢٠. ثم سجلها رقم ٢٩٩/ص١٨٥ و ص١٨٦.

(٣) انظر: حمامي، المرجع السابق، ص١٥١ و ص١٥٢ و ص١٥٣.

رخت. وكانت به حافظات للنقد أو لبعض الحاجيات الصغيرة. وكان يستخدمه الحرفيون فوق السراويل والصدرية والميتان، ويكون في مثل هذه الحالة له جلدتان طويلتان أو أكثر يدخلها الحرفي في أحد طرفي الكمر بواسطة قطع حديدية صغيرة في وسطها مسمار للتثبيت[1]. وفي نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر انتشر لباس الزنانير المقصبة الطرابلسية وغيرها، واعتبرها بعض رجال السلطة العثمانية المتزمتين خروجاً على المألوف، فأصدروا أوامرهم بإبطالها[2]. وكانت القطشية[3] وهي كالدامر إلا أنها أقصر منه تلبس فوق الثياب.

٣ ــ أما ثياب الجزء السفلي من الجسم بدءاً من الوسط، فكان الرجل يرتدي السراويل أو الشخشير أو الجقشير أو الجنتيان أو الجروال، وهو سربال الرجال، وكان من القماش الأحمر أو البني أو الأصفر، يثبت على الوسط بزمه بواسطة خيط (دكة) ويزم على نهاية الساقين عند الكاحلين، بحيث ينهدل ليغطي معظم القدمين. وكان يحافظ على حرارة الجسم الداخلية من تأثير تقلبات الجو الخارجي.

أما فيما يتعلق بلباس القدمين، فكان يأتي أولاً (المست)[4] أو المزد. الذي لبسه الدمشقيون حتى أوائل القرن التاسع عشر بديلاً عن الجوارب. وكان المست يصل بطوله إلى مفرق الكاحلين ويبقى في القدمين في حال الدخول إلى المجلس أو المسجد، بعد خلع الحذاء، ويُسار به على السجاد أو الحصر، دون أن يمسها بأذى ويبقى نظيفاً، ولم يخلعه لابسه سواء أثناء وضوئه بالماء أو أثناء أدائه فريضة الصلاة.

ولم تدخل الجوارب أو (القلشين أو القلجين) على نطاق واسع إلا بعد دخول ابراهيم

---

(١) انظر: العلاف، أحمد حلمي. دمشق في مطلع القرن العشرين، ص٢٦ و ص٢٧.
(٢) العبد، حسن آغا. تاريخ حسن آغا العبد. ص١٣٩.
(٣) القطشية: جاءت تسميتها من شكلها المختصر، فهي كالدامر قصيرة بطولها مفتوحة من الأمام بدون أكمام أو أزرار، وقد تكون بأكمام طويلة، إلا أنها على كل الأحوال قصيرة الجزع، وتخاط من الجوخ الأحمر، أو الأزرق أو الخمري، وتزين بمطرزات من القصب ذات مواضيع هندسية أو نباتية أو حيوانية على الصدر والظهر، وتلبس عادة فوق السراويل في الاحتفالات الرسمية، وكانت من أزياء الهيئة الحاكمة المفضلة. وربما تعود في أصولها إلى البيزنطيين، حيث اقتبسها العثمانيون وجاءت إلى بلادنا معهم.
انظر: تحامي. المرجع السابق، ص١٥٠ و ص١٥١.
(٤) كلمة تركية تعني نوعاً من الجلد الطري الملون بالأسود أو البني أو الأصفر. الذي يكسو كامل القدمين.

باشا إلى دمشق، ونلاحظ ذلك من خلال تركة المتوفين من جنوده[1]، ثم بعد ذلك عم لبسه بين أفراد الهيئة الحاكمة وانتشر بين العامة فحل محل المست بالتدريج.

ولقد تعددت أنواع الأحذية التي لبست فوق المست أو القلجين، سواء داخل البيت أو خارجه. فكان منها البابوج أو الصرماية أو الجزمة أو القبقاب أو الثبّات[2]. ثم شاع لبس الكندرة في حدود سنة ١٢٨٠هـ[3]. وكان البابوج والصرماية هما الأعم من الأحذية لدى الرجال والنساء، في حين لا نرى إلا ذكراً محدوداً لأنواع الأحذية الأخرى في تركات المتوفين، الواردة في سجلات القسمة المختلفة لمدينة دمشق آنئذ، مما يدل على قلة شيوعها. كما ورد ذكر الجزمة، وهي من النعال ذات الرقبة التي تغطي جزءاً من الساقين. أما الأغنياء فكانوا يرتدون في أقدامهم حذاءاً أطلق عليه اسم (الثبات)[4]، وحوّرته العامة إلى (الصباط)، وسمي بذلك لثباته في القدمين نظراً لطول رقبته، وربما كان المقصود به الجزمة نفسها[5]. وسمي البابوج بالسزموز أو السرموزة والكلمة فارسية الأصل، شكله كالجندول، ولم يسمح لغير المسلمين بلبس الأسود منه[6] في حين كانت ألوانه مختلفة لدى أفراد الهيئة الحاكمة، كالأسود والأصفر والبيج[7]. ومن الأحذية الصرماية التي اختص بصناعتها الزرابيلي وغيره من

(١) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٥/سنة ١٢٥٣ ــ ١٢٥٨هـ. ص٤١ و ص٥٦ و ص١١٣ و ص١٥٠.

(٢) انظر: حمامي. المرجع السابق، ص٢٣٧ و ص٣٠٢.

(٣) ويقول القاسمي: أن صنعة الكندرجي في منتصف القرن السابق (ق ١٩) كانت عديمة الوجود حتى ذلك التاريخ، وكان ماهو موجود من لباس القدمين الخف والبابوج. الأصفر والصرامي الحمر، ولما انتشرت الكندرة، والتي كانت من لباس الفرنج، انتقد من لبسها، بحجة أنه لا يجوز تقليد الفرنج فيما يناقض الدين. ويعقب القاسمي على هذا الرأي بقوله: «إن إدخال الدين في الأزياء من الجهل». انظر: قاموس الصناعات الشامية. ج٣، ص٣٩٤.

(٤) انظر: حمامي. المرجع السابق. ص١٦٦ و ص٣٠٣. ثم سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢١٥/١١٩٤ ــ ١٢٠٠هـ، ص١١٧ و ص٢٢٧.

(٥) العلاف، أحمد حلمي. المصدر السابق. ص٢٦. ولقد ورد ذكرها في سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩/ص١٨٨ و ص٢١٧. وذلك في مخلفات الحلاق محمد بن السيد طالب الزعتري ومخلفات السيد صالح العش. القضية تاريخ ٣ ربيع الأول سنة ١٢٣٨هـ ثم القضية تاريخ ١٩ شوال سنة ١٢٣٧هـ.

(٦) انظر: حمامي، المرجع السابق، ص٣٠٢. ثم الحلبي. يوسف بن ديمتري. المرتاد في تاريخ حلب وبغداد. ص٣٠ و ص٤٧.

(٧) انظر: الصور الضوئية للأزياء العثمانية. الوثيقة رقم ١٧/١١٥. ثم الوثيقة رقم ٨/١١٦. ثم الوثيقة رقم ٩/١١٧. ثم الوثيقة رقم ١٠/١١٨.

صانعي الأحذية[1]، وصنعت من النعل والسختيان الأحمر[2]، وكان يرتديها الجنود ويضعون فوقها على الساقين طماقات للوقاية بعد أن أصبح الشخشير قصيراً إلى مادون الركبتين مباشرة، تقليداً لزي الجندي الأوربي، طبقاً للتنظيمات التي أجراها السلطان محمود الثاني. أما المركوب فكان لباساً للقدمين لدى أبناء دمشق وريفها على حد سواء، ولبسه أفراد الجيش المصري في دمشق بالإضافة إلى المركوب الافرنجي[3]. أما الخف الذي صنع من الجلد فكان لباس القدمين للرجال والنساء، ولقد زين خف النساء الغنيات بالقصب أو بشريطين من خيوط الذهب، ورصع بالجواهر، وكان يصنع من الصوف ويبطن بثوب من الكتان أو الجلد الرقيق[4].

ومن لباس القدمين أيضاً القبقاب: الذي كان يلبس داخل البيت وخارجه، خاصة في أيام الشتاء، وكان يصنع من خشب الصفصاف أو الحور أو الجوز لكثرة هذه الأشجار في دمشق، وله سير من الجلد يطوق مشطي القدمين، واستخدمه الكبار والصغار والرجال والنساء. وكان لقبقاب النساء وظيفة جمالية، لأنه يزيد من طولهن ويرفع ثيابهن عن الأرض، فيسرن فيه بغنج ودلال، خاصة في الحفلات. ولقد راجت صناعة القبقاب في دمشق وكانت له سوق خاصة جنوب الجامع الأموي. ووصل عدد قباقيب بعض النسوة إلى ٣٠ زوجاً. وكانت القباقيب تعرض مع جهاز العروس، ولقد تفنن القباقبية بصنعها فطّعموا خشبها بالمعادن والحجارة الكريمة والصدف، وطرزوا سيورها بخيوط من الفضة والذهب. وكانت القباقيب أنواعاً متعددة كالشبراوي والساذج والمطعم بألوان مختلفة[5]. ولقد اختلف شكل القبقاب ونوعه مابين الأغنياء والفقراء، واختلف مالبس منه داخل البيت وخارجه، وبقي استعماله في دمشق حتى القرن العشرين.

---

(١) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩/ص١٣٤ و ص١٢٦. ثم الصور الضوئية للأزياء العثمانية. الوثيقة رقم ١١/١١٩.

(٢) انظر: سجل القسمة العسكرية رقم ٣٦٥/ص٥٦. تركة حسين آغا الكردي بن محمد آغا بازو.

(٣) المصدر السابق. ص٤٥ و ص٣٩ و ص٤٠.

4 - Dozy. op.cit. PP.155.157.159.

(٥) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩/١٢٣٧ — ١٢٤٥هـ. ص١٨٤. من مخلفات القباقيبي الشيخ محمد أحمد سنهاجي الذي كان يصنع مثل هذه القباقيب في سوق القباقبية في دمشق. القضية تاريخ ١٢٣٨هـ. ثم الداغستاني، حكاية البيت الشامي الكبير. ص٢٩ و ص٣٠. دمشق ١٩٧٢م. ثم الغلاف، أحمد حلمي. دمشق في مطلع القرن العشرين. ص٢٧.

ومن جهة أخرى فإن الثياب التي ذكرناها آنفاً كانت تقريباً سائدة لدى الدمشقيين، مع وجود بعض الفروق بين فئة اجتماعية وأخرى، من حيث بعض تسمياتها، وعددها ونوع القماش المصنوعة منه، ونوع الفراء المستخدم في تزيينها الخ...

وحسبنا أن نسوق بعض الأمثلة على تركات عينات من الرجال ينتسبون إلى فئات اجتماعية مختلفة. فمثلاً: تركة الشيخ (رجل الدين) أمين بن فيض الله أفندي من الثياب والمتوفى سنة ١١٩٧هـ/١٧٨٢ ـــ ١٧٨٣م، كانت مكونة من الآتي: قطش (قطشية) جبة زرداوة ـــ فروة سمور ـــ بنش زرداوة (كورك) (أي مفرى) ثم بنش فرو قاقوم. وبنش شالة ـــ ثم جقشير من الجوخ ـــ ثم شالة برزي (كورك) وقطش عرف (كورك) وشالي جبة ـــ وجبة كورك فرو قاقوم وساعة حلايلي وسيف وقبوط مع بشلق وقاووق». ثم تركة المؤذن (رجل دين) عبد الرحمن محمد كانت مكونة من: «بنش جوخ ـــ بنش ناقة ـــ ساعة حلايلية ـــ قنباز ـــ قميص ـــ رقيق ـــ زنار ـــ وشال وقاووق ـــ جبة شالة ـــ غدارة ـــ طبنجة ويطقان»[١].

وهناك أمثلة أخرى من تركات ثياب الحرفيين في دمشق كالصرماياتي والزرابيلي والحلاق والعتال والمعصراني، نسوقها هنا للتعرف على أزيائهم آنئذ. فالصرماياتي سليم بن أمين المتوفى سنة ١٢٤٥هـ كانت تركته من الثياب تتألف من الآتي: «بكدلية ـــ فروة ناقة ـــ مضربية ـــ أسلك ـــ قميص ـــ طربوش ـــ أغبانية ـــ عنتري آلاجة ـــ كمر ـــ صدرية»[٢]، ثم الزرابيلي حسين بن عوض كانت تركة ثيابه مكونة من الآتي: «جبة ـــ عنتري قطني ـــ شالة انكليزية ـــ عباية ـــ فروة زرناية ـــ قميص كتان ـــ طربوش ـــ مضربية ـــ جوز زرابيل»[٣]، ثم الحلاق الحاج محمد بن السيد طالب الزعتري وتكونت تركة ثيابه من الآتي: «اسلك ـــ قميص جبة آلاجة ـــ فروة ـــ زنار حموي ـــ عنتري قلميص ـــ عباية سودة ـــ عنتري قطني ـــ مست ـــ جزمة»[٤]، والجلالاتي السيد محمد بن السيد عبد الله كانت

---

(١) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢١٥/١١٩٤ ـــ ١٢٠٠هـ، ص٥ و ص٩٦ واليطقان نوع من السيوف.

(٢) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩/ص١٣٤. القضية ٥ ربيع الثاني ١٢٤٥هـ.

(٣) المصدر السابق. ص١٢٦، القضية في شهر رجب سنة ١٢٤٥هـ.

(٤) المصدر السابق. ص١٨٨، القضية في ربيع الثاني ١٢٣٨هـ.

تركته مكونة من «جبة جوخ ــ شروال جوخ ــ عنتري آلاجة ــ زنار ــ شالة افرنجية ــ فروة ناقة ــ طربوش ــ مضربية»[1]، ثم العتال عبد القادر ابن جمال كانت تركته: «عنتري آلاجة ــ عباية سوداء ــ جبة جوخ ــ شروال ــ ثوب ــ لفات هندية ــ لفة بيضاء ــ مضربية ــ فروة تنارية ــ طربوش ــ قميص»[2]، ثم تركة أحد المعصرانية من الثياب كانت «فروة زرداوية ــ فروة زنارية ــ فروة ناقة ــ بنش جوخ ــ بنش شالي ــ جبة جوخ ــ جبة شالة ــ عنتري آلاجة ــ صدرية شالة أغباني ــ قميص ــ رقيق ــ جقشير جوخ ــ شاش ــ وقاووق»[3].

هذا ناهيك عن بعض الأزياء التي كانت تشاهد في دمشق، ممثلة في أزياء أبناء الأقطار العربية والأجنبية الذين استقروا في دمشق وحافظوا عليها، وربما كانت وسيلة للتعارف فيما بينهم. ولم تكن أزياؤهم تختلف كثيراً عن أزياء الدماشقة إلا في بعض التفاصيل، أو بعض أنواع من الثياب اقتضتها الظروف المناخية وبعض التقاليد الاجتماعية في أوطانهم. ونضرب مثالاً على ذلك زي أبناء المغرب الذين عمل بعضهم جنوداً مرتزقة لدى الولاة والحكام، وتميزوا بالبرنس المغربي[4] وعمامة الرأس، وكذلك زي أبناء ماردين الذين تميزوا ببنش خانصوف والصربوغي[5] وهكذا.

ولقد بدأ زي الرجال يتغير في دمشق بالتدريج، بدأً من رجال الهيئة الحاكمة والجند، نتيجة لتطبيق الإصلاحات والنظام الجديد، فاضطر أولئك الرجال للبس الزي الأوربي انسجاماً مع مجريات التنظيمات التي أدخلها السلطان محمود الثاني ومأأدخله ابراهيم باشا

(١) المصدر السابق. ص٢١٠/١٢٣٧هـ.
(٢) سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩/١٢٣٧هـ. ص٢٤١.
(٣) المصدر السابق. ص٢٣٣، شعبان ١٢٣٧هـ.
(٤) تركة محمد آغا كرتلي المغربي والمكونة من: فروة ناقة ــ جبة جوخ ــ ميتان آلاجة ــ جروال ــ صدرية ــ برنس مغربي ــ قميص ــ صرماية ــ وكمر ــ ساعة فضة. انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٣٨/١٢١١ ــ ١٢١٣هـ. ص٧٣.
(٥) تركة أحد أبناء ماردين الذي توفي في دمشق والتي وردت في سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩/١٢٦٤ ــ ١٢٦٥هـ. ص١٨. القضية تاريخ ١٥ رمضان سنة ١٢٦٤هـ ــ وكانت مكونة من الآتي: بنش خانصوف ــ بنش جوخ ــ جبة جوخ ــ فروة ناقة ــ مضربية شال ــ قميص عنتري ــ صربوغي وقميص ولباس وقميص خولية وساعة فضة ــ ومست وبابوج.

المصري بعد احتلاله لدمشق، ثم بدأت تتسرب الأزياء الأوربية إلى رجال أهل الذمة بالتدريج ثم بعد ذلك إلى بقية رجال دمشق. وكان الزي مزيجاً من المحلي والأوربي[1] إلى أن ساد الزي الأوربي في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

زي نساء دمشق

لم يختلف زي نساء دمشق عن زي الرجال في الخطوط العامة ومسميات الثياب. إلا أن ثياب المرأة كانت أكثر تزييناً وزركشة واختلف زيها في داخل البيت عما كان عليه خارجه، حيث كانت مضطرة للخروج بالحجاب في الشوارع والأسواق. وبقي زي النساء على حاله الموروث من عهود سابقة. ولم يطرأ أي تبدل يذكر في هذا المجال، إلا في زي نساء الفئة الحاكمة والغنية خاصة اللواتي قلدن فيه نساء عليّة القوم في استانبول.

ولقد تعددت ثياب المرأة، وبرز ذلك في لباس الجزع والوسط والقدمين، واللباس الخارجي الذي جاء فوقها جميعاً. فأضاع بذلك ماقد يبرز من تقاطيع جسمها ووجهها. وأهم ثيابها هي: القميص والسروالة والثوب والقرية والبلك والزبون ثم القنباز أو العنتري والميتان والدراعة والزنار والمدربية (المضربية) والجبة والمست والبابوج والقبقاب وغيرها.

أما الثوب[2]: فقد بقي هذا النوع من اللباس حتى القرن التاسع عشر، وكان يصنع من الحرير الساذج أو المقلم ويصل إلى القدمين، وأكام عريضة عند الطرفين، وله فتحة من الأمام، وعلى طوله دراعة حلب أو زبون وادي الفرات، وفتحتان جانبيتان تمتدان من محاذاة الفخذين وحتى القدمين. وله مطرزات من الحرير على الصدر، ويستخدم داخل البيت.

---

(١) ويذكر عبد الرحمن بك سامي، الذي زار دمشق في أواخر القرن التاسع عشر، أن ملابس الرجال في دمشق كان جلها من القنباز، له قبة يبلغ ارتفاعها قيراطاً ونصف القيراط، وأكامه ضيقة وطولها إلى الكتف وأطول قليلا ويتمنطق الرجال فوقه بشالات أو زنانير حريرية أو غير ذلك، كانوا يلبسون فوق ذلك العليانات، إلا أن معظمهم عدلوا عن هذه العادة وصاروا يلبسون صيفاً البانطات الخفيفة الحمل، وشتاءً الفراء والبانطات الثقيلة. وجميعهم يلبسون الطرابيش الاسلامبولية. إلا أن معظم المسلمين يتعممون فوقها بعمامات من قماش الأغباني، وطلبة العلم منهم يتعممون بعمائم من قماش الشاش الناصع البياض وبعض العملة من النصارى واليهود يلفون على طرابيشهم المناديل. وقد أخذ البعض في التسرول أو لبس البنطلون وأخص من لبس البنطلون خدمة الحكومة. انظر كتابه: القول الحق في بيروت ودمشق. ص٧٩.

(٢) الثوب: هو اللباس بشكل عام إلا أنه قد يأخذ معنى خاصاً فيعني لباساً فضفاضاً. انظر: DOZY. PP.105-106.

ثم القزية : وهي ماتسمى أحياناً بالقزي أو **الكزي**، صنع من حرير القز، وصبغ في دمشق بقشور الرمان المغلي الذي يعطيه لوناً خمرياً، وزين برسوم هندسية مختلفة.

ثم التلي : وهو من أروع أزياء نساء دمشق آنئذ، وربما اشتق اسمه من كلمة (تول) الفرنسية والتي تعني القماش الحريري الأسود، المفرغ بخيوط متشابكة كخلية النحل عامة، وكان يدخل إليه بعض خيوط الفضة الرفيعة بأشكال طولانية ومستقيمة وعليها بعض الرسوم الهندسية المختلفة. ولارتفاع ثمن هذا الثوب آنئذٍ اقتصر لبسه على النساء الغنيات.

أما البلك : فهو من الأزياء القديمة للمرأة ويعني الثوب بالتركية، يمتد من الكتفين حتى القدمين ويضيق في قسمه الأعلى، وله عند الصدر فتحة، ويضاف إلى هذا الثوب صدرة قصيرة وضيقة ذات أكمام طويلة لها فتحة كبيرة و، ستديرة، وتشد طرفي الصدرة إلى الأسفل أشرطة أو أزرار ليرتفع صدر المرأة فيبرز الثديان نحو الأمام والأعلى. ولهذا كانت النساء يغطين صدورهن بشاشية رقيقة عند خروجهن من البيت إحتشاماً [1].

ثم الزبون أو المدربية : وكلمة زبون كلمة تركية، أما كلمة المدربية فهي عربية (من التدريب) ولقد لفظها العامة آنئذ «المضربية» كما وردت أيضاً في سجلات القسمة في دمشق، وكانت عبارة عن ثوب نسائي يصل إلى تحت الركبتين مفتوح من الأمام ويحزم بشرائط خاصة، وهو من حرير أو أطلس له وجه وبطانة، ومابينهما يحشى بالقطن ويدرب بإخاطته. وقد يكون من الحرير المبرقش وأحياناً من الجوخ أو المخمل الساذج أو من القطن المصبوغ بالأزرق، وعليه كثير من المطرزات، وله فتحتان جانبيتان صغيرتان من الأسفل. وكان تطريز المدربية النسائية يشمل أشكالاً هندسية أو رموزاً أو زخارف نباتية مختلفة من الأمام والخلف. وكانت المرأة ترتديه في البيت وعند استقبال الضيوف، أو عندما يكون الفصل صيفاً، وفي ساعات الصباح والمساء والسهرات الطويلة التي كانت نساء دمشق يقمن فيها حفلات السمر والغناء شتاء. كما استعملتها المرأة خارج بيتها. وكانت منها المفراة أو المصنوعة من خام الشيت[1]. وقلما تخلو تركات نساء دمشق في هذه الفترة من هذا النوع من الثياب، مما يدل على شيوعها بينهن. ونسوق مثالاً على ذلك ماجاء في تركة الحجة حسنة بنت السيد ابراهيم

---

(١) انظر : حمامي. المرجع السابق، ص٣١١ و ص٣١٢ و ص٣١٣ و ص٣١٦ و ص٣١٧. ثم سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢١٥/١١٩٧ ـــ ١٢٠٠هـ. ص٩٥. ثم سجلها رقم ٢٩٩/ص١٨٤.

الموصلي المتوفاة سنة ١٢٣٨هـ[١]، ثم الجارية المعتوقة نسرين بنت عبد الله[٢]. ثم أسما بنت علي الشيخ من كفر سوسة[٣]، وزينب بنت السيد عباس قدح[٤] وغيرهن.

السروالة: كانت المرأة ترتديها تحت أثوابها كسراويل الرجل، تثبتها على وسطها بدكة، وتنزل وتثبت على الكاحلين، فتنهدل على القدمين أو تتركان حرتين. وصنعت السروالة من قماش رقيق لهذا وردت تسميتها باسم (رقيق) في سجلات القسمة بدمشق. وزينت السروالة بخيوط الحرير، وطعمت أحياناً بخيوط الذهب وبأشكال ومواضيع مختلفة. أما ألوانها فتراوحت مابين السماوي والخمري والأسود. وكانت المرأة ترتدي فوقها سترة طويلة من نفس اللون والقماش بمثابة القميص على الجزع. وتعلوها عصبة ثمينة (وتسمى أحياناً تقميطة) وغطاء طويل بحيث تنسجم هذه الألبسة مع بعضها بالشكل واللون[٥]، وكانت تصنع من النسيج الهندي أو الدمشقي أو اليمني أو الحلبي أو المصري وغيره[٦].

العنتري أو القمباز: وكان هذا الثوب لدى نساء دمشق. ونادراً ماتخول تركة أية امرأة متوفاة من ذكر هذا النوع من الثياب. وكان العنتري على أنواع، فمنه الالاجة أو الرقيق أو المخطط أو الصرتي أو الكمخة أو الزمام[٧] أو المحجر أو الهندي أو الأوز أو المخرج بالقصب أو اليمني أو الديما أو الورقلي[٨] وغيرها.

وكانت المرأة تضم ثيابها مع السروالة إلى جسدها بالزنار، وهو بمثابة حزام الوسط

---

(١) السجل السابق رقم ٢٩٩/ص١٥١.
(٢) المصدر السابق. ص١٨٤.
(٣) المصدر السابق. ص٢١٨.
(٤) سجل القسمة العسكرية رقم ٣٦٥/١٢٥٣هـ. ص١٢٥. ثم سجلها رقم ٣٦٤/١٢٥٦هـ. ص١٥.
(٥) حمامي. المرجع السابق، ص٣١٧ و ص٣١٨.
(٦) السيوفي، حبيب. سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثالث عشر نقلاً عن فولني. ص١٠٠ و ص١٠١. لبنان المطبعة المخلصية في صيدا سنة ١٩٤٩م.
(٧) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤/ص٤ و ص٢٢. تركة أسما بنت شريف العطار الحلبي.
(٨) سجل القسمة العسكرية رقم ٢٩٩/ص١٨٤ و ص١٩٦ و ص٢٤١ و ص٢٤٠ و ص٢١٨. ثم سجلها رقم ٢١٥/ص٥.

وسمي زناراً أو حزماً أو كمراً أو شالاً ، وكان متنوعاً فمنه مثلاً القز (من الحرير) أو الصوف ومنه زنار دهدار وزنار آلاجة ومنه ماكان مفرى بفراء السمور أو بغيره من الفراء[1] ثم الزنار الحمصي والشالة[2] والمقصب والطرابلسي وغيرها من الزنانير القماشية[3] .

ولقد استخدمت النساء بدلاً من الزنار الكمر المصنوع من أحد المعادن الخسيسة أوالثمينة كالنحاس أو الفضة أو الذهب . وطعم الكمر بالأحجار الكريمة وسمي بالرخت وكان وقفاً على نساء الأغنياء وجواريهم المفضلات نظراً لثمنه المرتفع . وثبت الرخت على وسط المرأة بأبازيم خاصة .

زي المرأة الدمشقية خارج بيتها

لم تخرج المرأة الدمشقية ، مسلمة كانت أم ذمية ، خارج بيتها إلا متحجبة ، إلا في حالات نادرة[4] واستخدمت لذلك فوق ثيابها الإزار[5] والملاءة . واختلف الحجاب مابين المتزوجة والعازبة والمرأة المسلمة وأخواتها الذميات في بعض مظاهره الخارجية . وكانت المرأة تتلفع بالازار أو الملاءة من رأسها إلى قدميها ، دون أن يشف ذلك عن شيء من جسمها ، وكان الازار أبيض بالنسبة للعازبات والمسيحيات عموماً ، أما المتزوجات فكن يضعن على الوجه منديلاً من الموسلين بلون أبيض أو أسود رقيق أو سميك ، وكان مثقوباً من الأعلى ليسمح للعين برؤية الدرب . وكان الازار عاماً لدى نساء دمشق البالغات وعلى اختلاف

---

(١) سجلها رقم ٢٩٩ / ص٢١٠ و ص١٨٧ .

(٢) انظر : أيضاً سجلها رقم ٣٦٤ / ص٢ و ص٧ و ص ٢٢ و ص٤٠ .

(٣) ولقد وضع الزنار القماشي بطول من ٤ ــ ٥ أمتار وبعرض من ١٠ ــ ١٢ سم وتكون من قطعات قماشية مختلفة ألوانها كالمقصب والأحمر والأسود والأخضر وغيرها من الألوان . وانتهى طرفاه بشراشيب وكانت المرأة بعد لفه على وسطها تعقده من الناحية الي ى . ظر : حمامي . المرجع السابق . ص١٩٥ و ص٢٢٧ و ص٢٢٨ .

(٤) انظر : الداغستاني ، كاظم . والبيت الشامي . ص٥٨ و ص٥٩ .

(٥) الإزار مكون من قطعتين مستطيلتين دمجتا دمجاً عرضانياً بطول ثلاثة أمتار ونصف وعرض متر تقريباً . وكان الجزء العلوي يلف رأسها وكتفيها وذراعيها وظهرها ، وبلغ القسم السفلي الساقين حتى القدمين ، وثبت على الخصر كما تثبت الفوطة ، ولم يسمح الإزار بظهور ثياب المرأة الداخلية .. وكان لونه أبيض بالنسبة للعازبات . انظر : مجلة العمران الصادرة في دمشق عن وزارة البلديات ، العدد ١ . سنة ١٩٦٧م .

فئاتهم الاجتماعية . ويمكن رصد ذلك من خلال تركات النساء المتوفيات والوارد ذكرهن في سجلات القسمة المختلفة في دمشق[١] إلا أنه بألوان مختلفة كالأبيض والأزرق والأسود[٢] .

ولقد اتخذ الازار ألواناً وأشكالاً مختلفة[٣] خاصة في قرى دمشق ، حيث كنا نرى كل قرية تتميز نساؤها المحجبات بازار خاص من حيث شكله ونوع قماشه ولونه . وقامت النساء الغنيات بتوشية ازارهن بخيوط الذهب والقصب[٤] . واستخدمت النساء الدمشقيات الملاءة كحجاب لهن ، ويعتقد أنهن تأثرن بذلك بنساء الأندلس . واستخدم بعضهن العباءة التي تغطي جسدهن من قمة الرأس إلى أخمص القدم . وكانت المرأة عند سيرها في الأسواق والشوارع ، تمسك بها من الأمام لتحجب بذلك ماقد يبدو من ثيابها[٥] . وفي أواخر هذه

(١) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢١٥ / ص٢٢٧ . مخلفات فاطمة قادن بنت أحمد أفندي البهنسي . ثم سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤ / ص٤ و ص١١ و ص٥٩ . تركة الذمية المسيحية أليس بنت نعمة ومرته بنت نقولا الدياك الوارد ذكرهما في نفس المصدر السابق . ثم مخلفات الجارية محبوبة بنت عبد الله سمرات اللون . ثم مخلفات أسما بنت شريف العطار . كما ورد في نفس المصدر ، ص١٢ . ومخلفات زمزم بنت الحاج محمد البغدادي . المصدر السابق . ص١٢ .

(٢) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ / ١٢٠٠ ــ ١٢٠٣هـ . ص٢٦٥ .

(٣) يذكر أليكس راسل : أن نساء حلب كن لا يظهرن في حلب إلا محجبات بالأزر التي هي على نوعين أولهما : مايسمى بالفرجي وهو العام بالنسبة للنساء المسلمات ، والآخر وهو الإزار الحلبي . الذي يشبه القفطان الواسع بأكمام طويلة ومستقيمة . أما غطاء الرأس فمربع الشكل يتدلى على الظهر ، وأحياناً يكون من الكتان الأبيض أو من الشال أو أي قماش آخر ، والفرجي يصل إلى عقب القدمين ، ويغطي جميع الملابس التي تحته ، من العنق حتى الكاحلين ، كما يغطي العنق والرأس منديل أبيض وتخلعه المرأة بمجرد دخولها إلى الحرملك ، واستخدمت بعض النساء المسلمات قماش الكريب (CRAPE) بديلاً عن المنديل وكان يفتح عند وجهها قليلاً ليسمح لها بالتنفس بحرية أكثر مما كان عليه في السابق بحيث تبقى العينان والأنف بدون تغطية . أما حجاب المسيحيات واليهوديات فكان مصنوعاً من الشيث القطني (الساذج أو المخطط) . وكانت المرأة اليهودية ترتدي حجاباً من نموذج خاص بها ، وهو مخطط على شكل مربعات الشطرنج ، وبه تمييز عن غيرها من النساء ، وكانت تترك إحدى ذراعيها حرة خارج الإزار انظر : Russell. op.cit. VOL.1. P.113.

(٤) انظر : سامي ، عبد الرحمن بك ، القول الحق في بيروت ودمشق . ص٨٠ . بيروت ١٩٨١م .

(٥) وكانت الملاءة تتكون من ثلاث قطع منفصلة عن بعضها وهي :

أ ــ القطعة السفلى : وهي بمثابة / تنورة / أو خراطة عريضة جداً تثبت حول الخصر بدكة وتزم حوله وتنزل بطولها إلى القدمين .

ب ــ القطعة العليا : وتسمى الفجة أو الفوقانية أو برلين كما يلفظها العامة ، وتكون على شكل مثلث متساوي الأضلاع فيغطي رأسه رأس المرأة ، ثم يردف طرفاه إلى الخلف ليستر نقرة المرأة وكتفيها

الفترة بدأت النساء في دمشق بتقليد الأزياء الأوربية وبخاصة من النساء الذميات (المسيحيات واليهوديات)، اللواتي احتككن بالأوربيات عندما أقمن بين ظهرانيهن في العقد الرابع من القرن التاسع عشر. ولكن التأثر بأزياء الأوربيات كان بطيئاً، وكان وقفاً على الثريات من الذميات*.

ويمكن الاستدلال على بطء محاكاة الأزياء الأوربية في دمشق بما أورده المصريان عبد الرحمن القاياتي[1] وعبد الرحمن سامي بك[2] والأديب الفرنسي بيير لوتي[3]، الذين كانت

وظهرها، ثم يردف من جديد إلى الأمام ليستر قفا ووجه المرأة وعنقها، ويثبت ضلعا المثلث على الصدر بواسطة دبوس خاص أو تثبته على رأسها بواسطة شريطين طويلين إضافيين من نفس لون القماش يمنعاه من الحركة أو الانزلاق عن الرأس، وهذا النوع من التعميم كان يقصد به ستر المرأة أكثر من تلبية حاجة الحياة العملية. وكان في الغالب من الحرير. وكان يستعاض عن قماش الحرير الأسود بآخر من القطن الأبيض أو المقصب لدى العذارى والمسيحيات.

جـ- منديل الوجه: ويثبت طرفه الأعلى فوق الرأس مباشرة بواسطة الفجة فتسبله المرأة على الوجه أو ترسله إلى الخلف عندما لا يوجد رجل غريب، وكان من الموصلين أو الحرير الخشن والمبرقع، وفيه بعض الثقوب لتتلمس المرأة طريقها.

* انظر: حمامي. المرجع السابق. ص٣٢٧ و ص٣٢٨ و ص٣٢٩.
ثم: سجل القسمة العسكرية رقم ٢١٥/ص٦٨ مخلفات كلسن بنت خليل عبد الله.
ثم: المصدر نفسه. ص١٢. مخلفات زمزم بنت الحاج محمد البغدادي.
م: المصدر نفسه. ص١٨. مخلفات مريم بنت باكير التركاني.
ثم: المصدر نفسه. ص١٥١. مخلفات الخجا حسنة بنت السيد البرصلي.
ثم: المصدر نفسه. ص١٩٦. مخلفات فاطمة بنت شاكر السادات.
ثم: سجل القسمة العسكرية رقم ٢٩٩/ص٢٣٨. مخلفات نفيسة بنت السيد أحمد الجرّة.

(١) يقول الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي «أما أحوال النساء من أهل الإسلام فإنهن في غاية السكينة والاحتشام يبرزن غير متبرجات ولكن متنزهات أو متفرجات على وجوههن المناديل وعلى رؤوسهن الإزار الطويل، أما نساء النصارى لا يعرفن فيها ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى. انظر: نفحة البشام في رحلة الشام. ص١٤١.

(٢) ويذكر عبد الرحمن سامي بك «النساء متبعات الأزياء الإفرنجية في ملابسهن وترتيب شعورهن وفي بيوتهن يلبسن البنوار وأما في زيارتهن والأيام الرسمية كالأعياد والأفراح وماهو نحو ذلك فيلبسن بحسب المودات الإفرنجية التي تكون جارية. ولا يخرجن من بيوتهن إلا مؤتزرات مسبلات المناديل (المدوزات) على أوجههن. إلا أن المسيحيات واليهوديات فهن لا يسبلن مناديلهن إلا عند خروجهن من أحيائهن». انظر: القول الحق في بيروت ودمشق. ص٧٩ و ص٨٠.

(٣) أما الأديب الفرنسي بيير لوتي الذي زار دمشق في سنة ١٨٩٠م فيقول: «النصرانيات مؤتزرات بأزر بيض ←

زيارتهم إلى دمشق في أواخر القرن التاسع عشر، **فلاحظوا تغيراً** في الأزياء بعض الشيء إلا أن الحجاب قد احتفظ بمكانته، خاصة لدى النساء المسلمات، سواء داخل البيت أو خارجه، كما احتفظ بمكانته لدى معظم النساء المسيحيات واليهوديات خارج بيوتهن.

لباس القدمين عند المرأة في دمشق

ارتدت المرأة الدمشقية في هذه الفترة، في رجليها، أنواعاً من اللباس كالقبقاب الذي ذكرناه آنفاً، وكانت تلبسه في البيت والشوارع والسهرات وغيرها. ثم المست والبابوج، ونادراً ماتخلو تركة متوفاة من ذكر المست والبابوج، مما يدل على أنه كان عاماً. ومست المرأة كمست الرجل إلا أن حواشيه كانت توشى بشرائط ملونة، ومنه رأس زريق مدبب يرتفع إلى الأعلى وكان بمثابة الجوارب في وقتنا الحاضر.

ويذكر صاحب مجلة قطايف اللطائف المصرية في عددها الصادر عام ١٨٩٤م/ ١٣٠٠هـ، بأن الجوارب النسائية لم تكن مستعملة قبل ثمانين عاماً وعليه فإن استعمالها ولأول مرة يجب أن لا يتعدى عام ١٨١٤م/ ١٢٢٩ ـــ ١٢٣٠هـ أي في النصف الأول من القرن التاسع عشر[1]. كما ورد ذكر لاستخدام القلشين الذي صنع في بعض قرى دمشق قبل هذا التاريخ بفترة طويلة من الزمن، مما يدل على أن مشرقنا عرف هذا النوع من اللباس. ولكن على مايبدو أن المست كان أكثر انتشاراً كلباس للرجلين بديلاً عن القلشين (الجوارب) في مدينة دمشق، لدى النساء والرجال على حد سواء، بدلالة ماتطالعنا به سجلات القسمة المختلفة في دمشق.

ويذكر اليكس راسل أن نساء حلب، في فترة دراستنا هذه، كن يخرجن من بيوتهن **لابسات في أرجلهن أحذية رقيقة صفراء تصل إلى منتصف الفخذين، ويلبسن فوقه بابوجاً**

وقد أسفرن عن وجوههن الجميلة وشعورهن المزدانة بالأزهار الطبيعية أما المسلمات يظهرن في الشوارع تحت مناديل الموصلين الفاتحة وفيها أمام العينين ثقبان يبصران الدرب من خلالهما.

انظر: مجلة العمران الصادرة في دمشق عن وزارة البلديات. العدد١. سنة ١٩٦٧م.

(١) انظر: حمامي. حسن. المرجع السابق. ص٣٢٣. ثم سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ١٢٥٦/٣٦٤ ـــ ١٢٥٨هـ. ص١١. كان من مخلفات أليس بنت غطاس نعمة، زوج جرابات سلبند.

أصفر أو خفاً ، أما في الجو الماطر فكن يلبسن ، عوضاً عن البابوج ، نوعاً من القباقيب الخشبية ، يرتفع الواحد منها عن الأرض بمقدار ٨ ــ ١٠ بوصة ، ولقد استخدم القبقاب للانتقال من جناح إلى آخر داخل البيت . وقد وصل ارتفاع بغض القباقيب إلى ١٨ بوصة ، وكانت تزين بالأحجار الكريمة واللالىء بطريقة ملفتة للنظر[1] .

وبشكل عام كانت هناك فروق في ثياب النساء تبعاً . للفروق الإجتماعية بينهن ، من حيث أنواع القماش المستخدم والفراء والحلي وكميته ، وحسبنا هنا أن نسوق مثالاً على ذلك تركة ثلاث نساء من فئة واحدة في دمشق وهي فئة الأشراف . الأولى منهن الشريفة زينب بنت السيد عباس قدح بعلها افتخار المشايخ الكبار جناب الشيخ خليل أفندي سعد الدين السعدي[2] ، والثانية الشريفة ميمونة بنت جربجي الفاخوري بعلها الشيخ مصطفى السعدي[3] ، والثالثة السيدة نفيسة بنت السيد أحمد الجرّة[4] فكانت تركة الأولى منهن تبلغ مئات الألوف من القروش بالإضافة إلى عدد كبير من الثياب الثمينة والحلي الذهبية والحجارة الكريمة ، بينما الثانية كانت تركتها دون ذلك بكثير ، في حين أن الثالثة كانت تركتها لا تتجاوز عدة قروش . ولم يكن في تركتها من الثياب إلا القليل والبخس .

زينة المرأة الدمشقية وحليها

شغفت المرأة في دمشق بالزينة والحلي والمصاغ من الذهب الخالص أو المطعم بالحجارة الكريمة المختلفة (الزمرد ــ العقيق ــ اللؤلؤ ــ الألماس) وغيرها . وتراجعت الحلي الفضية أمام الحلي الذهبية . وقلدت نساء دمشق الغنيات ، نساء استانبول في ذلك ، فقمن بتزيين الرأس والعنق والأذنين والصدر والوسط واليدين والأصابع والكاحلين ، وحتى باهم الرجل والأنف .

واختلف نوع المصاغ وكميته بين امرأة وأخرى بحسب فئتها الاجتماعية . وأخذت الحلي أشكالاً مختلفه ، فكان منها الضفائر والأهلّة والحلق والأساور والخلاخل والعصائب والقلادات

1 - See: the natural history of aleppo VOL.1.P.113.

(٢) انظر : بسجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٥ / ١٢٥٣هـ . ص١٢٥ .

(٣) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩ / ١٢٣٧هـ . ص١٨٥ .

(٤) المصدر السابق . ص٢٣٨ .

والسلاسل والحبال الذهبية أو الفضية والمناطف والحجابات والمكاحل والدبابيس والأمشاط والخواتم والخزامات، والكردانات والحبيات والسلتات والطيور الذهبية والأزهار وغيرها .

وكانت النساء يستخدمن في زينتهن النقود الفضية والذهبية الأوربية، كالريال الفضي الألماني وذهب البندقية، الذي كن يرغبن به لنقاء معدنه وخلوه من الشوائب . وكن يثقبن تلك النقود ويجمعنها في سلسلة ذهبية، يجعلنها تتدلى من أعناقهن إلى صدورهن. وكلما أكثرت المرأة من تلك القطع والسلاسل ازدادت زهواً بها ومباهاة، وحتى الفلاحات كن يحملن هذا النمط من النقود كزينة لهن، خاصة الفضية منها . أما نساء الخاصة فكن لا يرغبن إلا بالذهب البندقي أو النقود الاسبانية الذهبية الكبيرة، ووصل بعضهن إلى حمل مئة قطعة أو ثلاثمائة قطعة منها دفعة واحدة. وكن يدلين قسماً منها من العنق وقسماً آخر يصففنه ويشددنه على الجبين عند حاشية عصابة الرأس[١] .

ولقد حافظ بنات ريف دمشق على الأشكال المورثة في الحلي، وضؤل تأثرهن بما جاء منها من استانبول أكثر مما حصل لبنات المدن[٢] وأبطلت بعض الحلي لدى نساء دمشق لتحل محلها حلي أخرى (كالطواقي والطشاطي)[٣] .

وكان للحلي هدف آخر غير الزينة فهي ذخيرة لأيام الحاجة، خاصة وأن أوضاع الأمن والاقتصاد والسياسة قد اضطربت أحوالها بفعل عوامل عدة داخلية وخارجية، ولتدني قيمة النقد المتداول بشكل مستمر لم يهتم به كأداة ادخار، مما جعل الناس يلتفتون إلى جعل مدخراتهم من المعادن الثمينة دون غيرها وبخاصة بعد أن حاولت الدولة العثمانية إدخال المعادن الذهبية في سك النقود وسحب مايمكن سحبه من تلك المعادن الثمينة من أيدي المواطنين، لتدعم بذلك اقتصادها المنهار . ففي ١٥ ربيع الآخر سنة ١٢٠٤هـ/ ١٧٨٩م جاء فرمان سلطاني إلى والي حلب فحواه «أن الناس تبيع الفضة الزايدة عندهم في ٢٥ كبية

---

(١) انظر : السيوفي، حبيب سورية ولبنان وفلسطين في القرن الثالث عشر . ص٩٦ لبنان المطبعة المخلصية سنة ١٩٤٩م.

(٢) انظر : بعض ماورد من هذه الحلي في ـــ التوراة ـــ سفر أشعيا ـــ الاصحاح الثالث الآية ١٨ والآية ٢٤ .

(٣) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر . ج٢، ص١٣٥ . ترجمة عبد المعطي القلانسي ـــ ويقول فيها المرادي إنه كان بالقرب من جامع بني أمية ـــ سوق لدق ذهب الطواق والطشاطي .... لعلها الطست الذي كانت تلبسه النساء في ذلك الزمان بدمشق وبطل هذا الزي في سنة سبع ومائة وألف .

والذهب في ٦ ، فالرجال لهم أغرلق كيف[١] والدواية فقط والخاتم ، والحريم الخاتم والحبية[٢] ، والزنار والحلق وماعداه يباع ومن لم يبع عليه لعنة .. فحالا أصحاب رخوت[٣] الخيل ضربوا عوضهم جلد وروبصوا[٤] الفضة وأعطوها للمحصل »[٥] . فكان من الطبيعي والحالة هذه أن تحتفظ النساء بالمعادن الثمينة على شكل حلي أو نقد قديم لاحتفاظه بقيمته ، دون التأثر بما يسمى بالتضخم النقدي ، الناتج عن إدخال المعادن الخسيسة في سك النقد .

ومن جهة أخرى فقد استخدمت النساء في حليهن ، الرباع القندقلية ثم الجهادية القديمة ، والغازي العادلي التاريخي وغيرها [٦] ، لنقاء معادنها . ولقد تعرضت النساء الدمشقيات لمضايقات بعض الولاة فيما يتعلق بزينتهن بالحلي . كما حصل في عهد والي دمشق الكنج يوسف باشا حيث أصدر أوامره بإبطال المصاغ لكامل النساء إسلام ونصارى[٧] .

ويصعب علينا إحصاء جميع أنواع الحلي التي استخدمت من قبل نساء دمشق آنئذ . وباستعراض تركات بعض النساء المتوفيات في هذه الفترة يمكننا تكوين فكرة مقبولة عنها . وحسبنا أن نرصد ماورد في سجلات محاكم القسمة في دمشق ، والتي شملت تركات مختلفة لمتوفيات في هذه الفترة ، كتركة الحاجة زينة بنت المنلا يوسف الياسلي ، التي ورد فيها مايلي : « سنوبرة ذهب وكردان ذهب ، وجوز أساور ذهب وحلق وشكل ذهب وترس ذهب وترس لؤلؤ وسوالت ذهب وأساور ذهب »[٨] ، وكذلك تركة إحدى النساء المتوفيات في سنة ١٢٥٤هـ/١٨٣٨ ـ ١٨٣٩م وكانت مجوهراتها مكونة من الآتي : « ربعية فندقلي جوز سباحات ذهب وجوز حلق ذهب محلاة بمبتة أنصاف غازي وناطور ألماس وتسعون جهادي

---

(١) أغرلق كيف « مشرب التبغ » انظر : المرتاد في تاريخ حلب وبغداد . ص١١٥ .

(٢) نوع من العقود التي كانت تلبسها النساء آنئذ وتصل إلى تحت الصدر . انظر : المرتاد . ص١١٦ .

(٣) رخوت : مفردها رخت ـ فارسية وتعني حزام أو سرج الخيل وكان يصنع من الذهب أو الفضة بحسب غنى الفرد .

(٤) روبص . ضغط وجمع « كلمة آرامية الأصل » .

(٥) انظر : الحلبي ، يوسف بن ديمتري . المرتاد في تاريخ حلب وبغداد . ص١١٥ و ص١١٦ .

(٦) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/١٢٠١ ـ ١٢٠٣هـ ص٢٧٥ .

(٧) انظر ـ مجهول تاريخ حوادث الشام ولبنان سنة ١١٩٢ ـ ١٢٥٧هـ/١٧٨٢ ـ ١٨٤١م . ص٣٧ دمشق ١٩٨١م .

(٨) انظر : سجل القسمة البلدية بدمشق رقم ٣٢٧/١٢٤٧ ـ ١٢٤٩هـ ص١٤٠ .

قديم وأربعة رباعي عادلية تاريخي وربعية فندقلي وكردان ألماس وزوج سلتات ذهب وحبلان لؤلؤ وشقفة ألماس»[1]. وكذلك تركة زليخة بنت الشيخ محمد الكردي المتوفاة سنة ١٢٠٢هـ. كان منها «زنار ذهب صغير وزنار فضة ولوح ذهب وأربعة خواتم وجوز حلق وسنوبرة وثمان ضفائر ذهب وعشرة نصفيات ذهب اسلامبولي وخرص ذهب بلولو وزنار صدف وخلخال فضة بلولو وطوقان فضة صغار»[2]. ولم يكن استخدام الحلي والمصاغ وقفاً على النساء المسلمات دون الذميات، فمثلاً. كان من تركة مريم بنت جرجس المتوفاة سنة ١١٨٤هـ/١٧٧٠ — ١٧٧١م مايلي: «طرة لولو زنار فضة خلخال وسوار ذهب، سوار شالحي، دبوس لولو، ثم حشحش ذهب ومكحلة مفضضة، وحلق لولو ومحبس ذهب ومنطف لولو بذهب وخاتم ذهب»[3].

وكانت الأساور على أنواع فمنها الأساور العريضة والمبرومة، والبقاعي التي توضع في المعصمين وكذلك الخلاخل التي كانت تلبس في الكاحلين، والأطواق في العنق والشكلات التي كانت توضع على الرأس والصدر أو على الثياب الخارجية في أماكن مختلفة منها. وحبال اللؤلؤ ورخوت الفضة التي تطوق الخصر[4].

واستخدمت النساء الحناء لتلوين اليدين والقدمين، بأشكال ورسوم مختلفة. واستخدمن الكحل الأسود لرموش العينين. ولكن لم يستخدمن المساحيق والألوان للوجه، ولم يلجأن إلى تخطيط الحاجبين إلا نادراً، وكان المجتمع الدمشقي يرفض ذلك. فإذا ماحاولت إحداهن استخدام ذلك عدّت ذات سمعة سيئة[5]. واستخدمت بعض النساء الوشم لأغراض طبية وتزيينية في مواضع مختلفة من الجسم كالوجه واليدين والكاحلين، وكانت هذه عادة البدو والمناطق المجاورة لهم كحوران. واستخدمت المرأة البدوية في زينتها عقود الزجاج أو قطع الذهب أو القطع المعدنية أو الصدف[6].

---

(١) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٤٠/١٢٥٠ — ١٢٥٤هـ. ص١٤٠ و ص١٤٧.

(٢) انظر: سجل القسمة العسكرية رقم ٢٢١/١٢٠١ — ١٢٠٣هـ. ص٢٦٥.

(٣) انظر: سجل القسمة البلدية رقم ١٨٢/١١٨٣ — ١١٩٠هـ. ص٣٥.

(٤) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦/١١١٢ — ١١١٥هـ. ص٨٤ القضية رقم ١٧٢

5 - See: Russell. op.cit. VOL.PP.109 112.

6 - Volney C.F. Voyags en egypte et en Syrie. P.282.

أزياء أبناء ريف دمشق[1]

حافظ الريفيون على أزيائهم الموروثة أكثر مما فعل أبناء مدينة دمشق. وربما يعود ذلك لعزلة أبناء الريف النسبية عن المؤثرات الوافدة. ومن جهة أخرى لعبت عوامل عديدة في رسم تلك الأزياء، وتأتي في مقدمتها الظروف الطبيعية والمناخية والظروف التاريخية المتعددة. ناهيك عن النظرة إلى الحياة، والحس الجمالي، والمعتقدات الدينية. فلا غرابة إذا ماعصيت بعض هذه الأزياء على الزمن وصمدت في وجه طغيان المؤثرات الغربية فاندفعت قدماً حتى القرن العشرين ولنراها الآن في بعض قرى الشام.

وتعددت تلك الأزياء بحيث يصعب حصرها. كما قصّرتْ المصادر التي عالجتها عن إشباع فهمنا في معرفتها بشكل كامل. ولهذا سنقتصر على بحث أهمها لدى الجنسين.

أ ــ زي الرجال

تألف لباس الجزع للرجال من القميص ثم الصدرية والميتان والقطشية. ولا تختلف هذه الثياب في خطوطها العامة عما كان يلبسها معاصروهم من أبناء مدينة دمشق[2]. وهناك لباس الوسط إلى الكاحلين وهي مانسميها بالسراويل، وصنع لباس الرجال والنساء في المدينة والريف من الجوخ أو القطن. أما الجوخ فكان بلونٍ غامق أو أسود أو أزرق أو بني أو بيج أو أبيض[3].

ومن الثياب الشال أو الزنار الذي كان يلبسه أهل القلمون. والتسمية فارسية الأصل. وهو من قماش الموصلين أو الصوف. وكان يبطن ويطوى بشكل مائل ويلف حول

---

(١) نقصد بريف دمشق سكان الريف «نساء ورجالا» الذين استقروا في المقاطعات التابعة لدمشق سواء في الغوطة أو وادي بردى أو جبال القلمون وحوران وجبل العرب. في فترة دراستنا.

(٢) انظر: ماسبق في زي أبناء مدينة دمشق. ثم انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩/ص١٧٥. ثم سجلها رقم ٢١٥/ص١٨٠.

(٣) انظر: جمامي، حسن. المصدر السابق. ص١٣٨ الى ص١٤٣. حيث يقول أيضاً: أن الجروال تسمية فارسية الأصل وقد انتشر هذا النوع في بلاد فارس والعراق وسورية وعلى طول سواحل المتوسط حتى اسبانيا حيث كان يسمى فيها (GURAGUELLA). وكان قيد الاستعمال في العهود الاسلامية الأولى.

الخصر دوائر متعددة بحيث تبدو ثنياته من الأمام متدرجة ومنسقة فوق بعضها بعدد فردي دائماً، وفي طرفيه شريطان يعقدان من الخلف عند الرجال، ومن الأمام عند النساء، ويلف حول الخصر بصورة أعرض كثيراً أو قليلاً عما كان يفعله جنود الإنكشارية... وكانت له قيمته الفنية والجمالية مما جعله في مقدمة الثياب وجاهة، ولُبس في المناسبات والأفراح، وارتداه أغنياء الريف. وكانت له رسوم نباتية وهندسية وحيوانية. أما لونه فكان أحمر وأخضر أو بنياً أو أسود(١). وكانت بعض زنانير أهل الجبال تصنع من الصوف الناعم الرقيق (الكشمير). وهناك الكمر الذي ضنع من القطن وكانت بشراشيب واستخدمته النساء لحزم ثيابهن على أوساطهن(٢).

أما غطاء الرأس فكان فيه بعض الاختلاف بين مقاطعة وأخرى. ففي جبل حوران كان رجل الدين يرتدي ترباناً لُف حوله شاش أبيض. في حين كان الفرد من العامة يرتدي الكفية(٣) أو الكوفية، وهي عبارة عن قطعة قماش بشكل مربع تطوى قبل وضعها على الرأس لتصبح بشكل مثلث، وتستخدم فوق العرقية أو الطاقية، أو وحيدة وتثبت بالعقال. والكوفية تميزت أحياناً بلونها وأهدابها وتطريزها من قرية إلى أخرى، ففي جبعدين وحلبون وبعض القرى المجاورة لوادي بردى كعين الفيجة كانت لها أهداب (شراشيب)، وكانت تطرز بالخيوط الحريرية الذهبية وتسمى حينئذ الأغباني. وكان فلاحو الغوطة يضعونها مباشرة على الرأس لتقيهم من الحر والبرد.

أما العقال الذي كان يثبتها على الرأس فهو عبارة عن طارة كبيرة توضع على الرأس بدائرتين متقاطعتين، وله من الخلف دلاية تنتهي من الأسفل بطرتين صغيرتين على شكل هلال فتحته إلى الأسفل، ويرتبط وجودهما إما بعقائد سحيقة في القدم أو بتقاليد اجتماعية أو طبقية. وكان أبناء الجبال يرتدونه فوق الحطة(٤). أما أبناء حوران فقد استخدموا عقالاً فوق

---

(١) انظر: حمامي، حسن. المصدر السابق. ص١٥١ و ص١٥٢.
(٢) حمامي: المصدر السابق. ص١٦٢.

3 - See: Burckhardt. john. «travels in Syria and the Holyland». PP.294.303.306.

(٤) حمامي: المرجع السابق. ص١٥٣.

الكوفية مصنوعاً من وبر الجمال[1]. **ولقد استخدم الطربوش في غوطة دمشق بعد عهد** التنظيمات كلباس للرأس[2].

أما العباءة : فكانت من ثياب الريف ، ارتداها الفلاح فوق ثيابه جميعها . وكان منها أنواع ، كالعباءة الجبلية لدى سكان المرتفعات ، وكانت تسمى (الزنارية أو الحمراء أو الدفية أو المشلح أو البشت) ، وهي تختلف عن العباءة التقليدية الواسعة المعروفة عند أعراب البادية ، كما تختلف أيضاً عما كانت لدى أبناء جبل حوران ، وتعود في جذورها إلى أصول آشورية وفارسية قديمة . أما قماشها فجامد وخشن ، وكان ينسج من شعر الماعز المبروم أو من الصوف المحلي على أنوال صغيرة يدوية من الخشب ، وكان قوامها قصيراً ولا تكاد تغطي ركبتي الرجل ، وأما أكمامها فقصيرة أيضاً لا تتعدى المرفقين . وهي ضيقة التفصيل بحيث لا تتلامس أطرافها من الأمام إلا قليلا وخالية من العروات أو الأزرار ، ولهذا كانت تخرم من الوسط بشريطين صغيرين من الأمام أو بزنار رفيع عند العمل لئلا تعيق صاحبها عن العمل . وكانت تترك مفتوحة سائبة في الحالات العادية والأعياد والاحتفالات . والأصل في هذه العباءة أن تكون مخططة بالأبيض والأسود أو البني . بأقلام طويلة متوالية. وهذا النوع قديم جداً خصص للعمل لدى المزارعين والرعاة وسمي لديهم بـ « العباية الدفية » ، في حين كانت عباءة العيد والاحتفالات ساذجة اللون حمراء أو زرقاء مطرزة بالإبرة بصورة جميلة جداً بخيوط من القصب أو بالألوان المختلفة وبأشكال هندسية رائعة ربما رمزت إلى معانٍ تفاؤلية قديمة وكانت تنحصر تلك الزخارف على الكتفين والصدر وأجملها على الظهر[3].

وكانت عباءة جبل حوران تختلف عما ذكرناه ، كما تختلف عن عباءة البدو ، وصنعت من الجوخ الأسود طويلة متهدلة تصل إلى القدمين ، وذات أكمام طويلة وضيقة . وهي من النوع المتصالب الذي يردف فيه الطرف الواحد على الآخر من الأمام . ولها أشرطة أمامية من نفس القماش ، تشبه السفايف في فروة البدو ، وتستخدم لتثبيتها على الكتفين[4] .

---

1 - See: Burckhardt. John and See: Russell .A. op.cit.V. op.cit.P.294. and See: Russell. A op.cit.VOL.I.P.111.

(٢) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ١٢٥٦/٣٦٤ ــ ١٢٥٧هـ ، ص٢٥ : تركة شاكر محمد رجب من أهالي دوما المتوفى سنة ١٢٥٧هـ.

(٣) انظر : حمامي . المرجع السابق . ص١٣٢ و ص١٣٣ و ص١٣٤ و ص١٣٧ .

(٤) انظر : حمامي : المرجع السابق . ص١٣٨ .

ويلاحظ في هذه الفترة أن بعض الرعاة في الجبال المحيطة بدمشق كانوا من الأكراد وكان لهم زي خاص أقرب لزي البدو من الحضر. فكان الراعي منهم يرتدي على رأسه طاقية مخروطية من اللباد (لبادة) وقميصاً على جزعه بدون ياقة، ويشد على وسطه شالاً، يثبت فيه سيفاً معقوفاً، ويرتدي (شخشيراً) يمتد من وسطه إلى الكاحلين، ليزم عندهما، وكان يرتدي فوق ثيابه جبة خالية من الأكمام والأزرار من النوع المتصالب، تصل بطولها إلى الركبتين، وينتعل في قدميه خفا وهو الزربول ويضع في يديه رمحاً تحسبا للطوارئ[1].

وكان أبناء الريف يلفون أرجلهم بقطع من القماش الطويل الصوفي ويلبسون في أقدامهم حذاءاً عالي العنق، مما يثقل السير، إلا أنه يوفر الدفء شتاء. وكان الجنود العثمانيون يستخدمون النوع الأول سواء من القماش أو الجلد وأطلق عليه اسم «الطماق».

ولقد تعددت أنواع الأحذية الجلدية التي استخدمها الريفيون وكانت ملونة أو ساذجة دون تلوين، وأهم تلك الأحذية: الخف والنعل والشاروخ والمداس والمركوب والبابوج والقندرة والجزمة واليمنية والسرموجة (الزرموجة) والمست والزربول، وتلفظ (زربون) أحياناً، وكانت بعض تلك الأسماء لمسمى واحد من تلك الأحذية، اختلفت باختلاف المناطق والقرى.

وصنعت تلك الأحذية في أماكن مختلفة، ووجدت في مدينة دمشق أسواق خاصة بها كالزرابلية والجزماتية. وماصنع منها في ميدان الحصى كان من النوع الرديء، ولون جلده أبرش وإلى الصفار أقرب. وفضله فلاحو حوران نساء ورجالاً[2].

ولعل أحسن ماصنع من الأحذية هو الكوندورا أو ماسمي بالفارسية (السرموزة). وكانت تسمى قديماً المركوب، وكان الرعاة يلبسونه في أعالي الجبال. ثم الزربون (الزربول) وهو من نوع القندرة حادة الرأس (شكلها كالجندول) تكسو مشط القدم مرتفعة مع نعل كثيف لتحمل وعورة الأرض وقسوتها[3]. أما الصرماية فهي حمراء اللون بدائر دون كعب، ومنها صنف سمي (بالحلبي) كان يلبسها أهل المدن في حين كان الريفيون يرتدون نوعاً آخر

1 - See: Porter. J.L. «five years in Damascus» VOL.1.P.337.

(٢) انظر: القاسمي. المصدر السابق. ج١، ص٨٢.

(٣) حمامي: المرجع السابق. ص١٦٧ ثم القاسمي: المصدر السابق. ج٢، ص٢٧٠.

يسمى (نصف كشفة). واستخدم الريفيون أيضاً القباقيب على نطاق ضيق، ضمن البيوت أو في أزقة القرى وسار بعضهم حفاة كما في قرى حوران[1]. وكانت ثياب أهل حوران (مسيحيين ومسلمين) متشابهة، وقريبة من ثياب البدو، وتتكون من قنباز ورداء مصنوع من قماش القطن الأبيض الخشن، ويعتمرون بالكوفية ويأتي فوقها العقال المصنوع من وبر الجمال، ليثبتها على الرأس. ويرتدون فوق ثيابهم العباءة التي يلقونها فوق الكتفين. أما صدورهم فكانت عارية، ويطلقون لحاهم ويستخدمون الكحل لتزيين رموش العينين (رجالاً ونساء)[2].

وسجلات محاكم القسمة في دمشق مليئة بتركات عدد كبير من الفلاحين. وأكثر مايسترعي انتباهنا في تركاتهم قلة ماخلفوه من ثياب، إذا ماقيس بتركاتهم من الدور والبساتين والأراضي والدراهم. مما يدل على عدم اكتراث الفلاحين بهندامهم وثيابهم. ونسوق مثالاً على ذلك ماخلفه أحد فلاحي قرية شبعة مصطفى بن عبد القادر المتوفى سنة ١١٩٨هـ/١٧٨٣ ـــ ١٧٨٤م، وكانت تركته مكونة من «٢٨٥٠٠ قرش في حين لم تتجاوز تركته من الثياب سوى العنتري ديما وقميص رقيق وشالة»[3]. ثم أحمد بشة بن عمر التلي من أهالي قرية زبدين المتوفى سنة ١١٩٩هـ/١٧٨٤ ـــ ١٧٨٥م كانت تركته تقدر بعشرات الألوف من القروش أما ثيابه فكانت مكونة من «جروال جوخ عنتري ولباس أزرق وخنجر بفضة وسكين وخاتم فضة»[4].

وكان وضع شيوخ القرى الأغنياء يختلف عن الفلاحين، ولقد شكلوا صلة الوصل بين الفلاحين والسلطات العثمانية المحلية وكان عليهم الظهور بما يليق بمقامهم، فاقتنوا الثياب المتعددة والثمينة إذا ماقيست بثياب الفلاحين. ففي مخلفات شيخ قرية الكسوة المتوفى سنة ١١٩٨هـ/١٧٨٣ ـــ ١٧٨٤م نرى الآتي: «بنش فروة ناقة وجبة فروة ناقة وبنش جوخ

1 - See: Burckhardt. J. op.cit. P.306.

2 - Ibid. P.294.

(٣) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢١٥/ص١٨٠.

(٤) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢١٥/١١٩٧ ـــ ١٢٠٠هـ/ص١٨٠ ـــ القضية في محرم سنة ١١٩٩هـ.

وجروال جوخ وعنتري آلاجة وقميص وزنار وفاس وسيف وطبنجة » بالإضافة إلى عدد من رؤوس الخيل والبقر والحمير والأحواش والأراضي[1].

أزياء نساء الريف الدمشقي

اتفق مع زي الرجال في بعض جوانبه، واختلف عنه من حيث شكل لباس الرأس والزركشة والحلي. واختلف زي النساء فيما بينهن (الغنية والفقيرة، العازبة والمتزوجة) كما اختلف بين نساء المقاطعة الواحدة والمقاطعات الأخرى التابعة لمدينة دمشق، ومابين قرية وأخرى. إلا أن زيهن بشكل عام كان يشمل الآتي :

١ ــ **البدلة** : كانت عامة من الجوخ أو المخمل الأسود، وكانت لدى نساء جبال القلمون وجبل حوران، وكانت تتألف من قطعتين منفصلتين : عليا ضيقة تبعث على الدفء، وسفلى (التنورة) عريضة وواسعة لتساعد المرأة على المسير. وقامت النسوة آنئذ بتزيين التنورة من الأسفل برسوم دائرية متوازية أو بدروب من المطرزات المتموجة والمتكسرة وبخيوط من ألوان تتماشى مع لون الثوب، وجعلن على الصدر عدة ثنيات مستقيمة ومتوازية أو دروباً من المطرزات ذات مواضيع مختلفة كالورود والزهور وأهمها شجرة الحياة.

وقامت المرأة بوضع زنار من الشال الصوفي[2]، شبيه بشال الرجل تماماً، كما أشرنا إليه سابقاً. ويأتي هذا الشال فوق البدلة، وكان يسمى محزماً، ولم تعن المرأة بهذا الشال عناية الرجل فيه، وكانت تعقده من الأمام أو الجانب بدلاً من الخلف. ولم يكن لهذا الثوب عموماً فتحة عند الصدر كما في قرى القلمون. بينما وجدت هذه الفتحة في وادي بردى مستديرة الشكل واسعة، بحيث تبرز ثديي المرأة كثيراً إلى الأمام. وتغطي المرأة ثوبها الرئيس من الأمام بواقية نصفية كانت لها تسميات مختلفة بحسب المناطق فمنها : (المملوك أو مريول أو فوقية أو حضنية أو قدامية أو دراية) كما في جبل حوران وحماه وحمص[3].

---

(١) المصدر نفسه. ص١٠٦ ــ القضية في ختام شوال سنة ١١٩٨هـ.

(٢) انظر : سجل القسمة العسكرية رقم ٢١٥/ص٩. تركة نفيسة بنت علي بيضون من قرية كفر سوسية المتوفاة سنة ١١٩٨هـ. ثم ص١٨٨. تركمة رحمة بنت الحاج محمد من قرية دوما المتوفاة سنة ١١٩٩هـ.

(٣) انظر : حمامي ــ المرجعي السابق ص١٧٣ ثم سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩/سنة ١٢٣٧هـ/ ص٢١٥. تركة المرحومة رابعة بنت السيد أحمد الجابي من أهالي قرية حرستا.

٢ ــ **الدراعة**: وكانت المرأة ترتديها عند الخروج بعيداً عن دارها، وذلك فوق البدلة. والدراعة كانت عبارة عن معطف مفتوح على طوله من الأمام وله فتحتان جانبيتان في قسمه السفلي يتراوح طولهما بين ٣٠ ــ ٧٠ سم، وتصلان من الخصر إلى الأرض. وتطرز الدراعة بزخارف وموضوعات نباتية وهندسية من الأمام وعلى الكتفين والكمين والظهر بصورة عامة. وكان هذا الثوب الإضافي قصيراً نسبياً ليسمح للبدلة الرئيسة بالظهور من الأسفل وضيقاً لا يتلامس طرفاه الأماميان إلا بواسطة أشرطة أو زنار أو أزرار. وقماش الدراعة كان من الجوخ كما في حوران أو من الخام البلدي المصبوغ بالأزرق المطرز بزخارف هندسية ملونة كما في قرية التواني (من القلمون)، أو من المخمل المطرز بالقصب كما في قرى القلمون التحتاني (القطيفة والرحيبة والمعضمية) وسمي بأسماء مختلفة، وفي القلمون ومنطقة دمشق سمي «بالمدربية»(١).

٣ ــ **القطشية**: كانت من ثياب المرأة في ريف دمشق عامة، بسهوله وجباله، ارتدتها فوق ثوبها الرئيس الطويل. وهي من لباس الجزع إلا أنها نصفية مفتوحة من الأمام عريضة وواسعة وذات أكمام طويلة وليس بها أزرار، لذا كانت تبقى مفتوحة على الدوام، وكانت موضوعاً لزخارف كثيرة ومطرزات ثمينة على غاية من الروعة. كانت في مناطق حوران أيضاً وكانت من ثياب الرجال أيضاً، يرتديها الجنسان (الرجل والمرأة) باعتزاز، ولا سيما (العرسان والشباب)، ولبسها المعذب في مضافة أبيه بكل تيه فوق سراويله وصدريته وميتانه وشالته، عندما كان يقدم القهوة المرة والنراجيل للحاضرين لأنه كان يرى فيها أجمل لباس لأجمل مناسبة. وكانت العروس في هذه المناطق تخصص هذه القطعة الثمينة لتتزين بها فوق ثيابها سيما يوم زفافها.

وهناك قطشية العمل التي كانت بسيطة دون زخارف، متوسطة الطول، أو تقتصر الزخارف فيها على دروب من الخلف بأشكال هندسية. وكانت ذات لون أسود عموماً.

٤ ــ **القبعة**: أو القباء أو الكب أو الشرش من ثياب المرأة في حوران والجولان والمرج شرقي غوطة دمشق وفي البادية.. وهي قديمة في تاريخ المنطقة وتتألف من قطعة قماش مستطيلة

---

(١) انظر: حمامي. المرجع السابق. ص١٧٩ و ص١٨٠.

الشكل تثنى عند تفصيلها نصفين متساويين ، بحيث يغطي كل جزء النصف الآخر تماماً . ثم تخاط الأطراف الجانبية وتترك فتحتان جانبيتان لتخاط فيهما الأكمام . ويفتح ضلع المستطيل من الأعلى على شكل دائرة ضيقة أو على شكل العدد (٧) سبعة من الأمام ، وذلك حسب مناخ وتقاليد كل منطقة من المناطق التابعة لدمشق ، ليدخل منها الرأس والعنق ، وتطرز فتحة الصدر هذه بشريط من الزخارف الهندسية تارة والورود والزهور الملونة تارة أخرى وكانت تستخدم هذه المطرزات على الظهر والكتفين والكمين والحواف السفلية ، ويطرز غالباً بمثلث قاعدته إلى الأعلى ورأسه إلى الأسفل أو بالعكس ، وقد يكون ضلعا هذا المثلث مسننين على شكل هرم مدرج . وكان هذا النوع عاماً تقريباً في بلاد الشام . ولونه أسود ومن نسيج القطن أو الخام البلدي المصبوغ محلياً أو من الحرير مع المبالغة في المطرزات الهندسية الملونة كلما اتجهنا نحو الشمال السوري . أما الألوان المستخدمة في خيوط التطريز في القبعة فهي : الأصفر والبرتقالي والأخضر والبنفسجي وغيرها .

وكان القباء في حوران والجولان من الحرير والأطلس اللامع أو الجوخ أو المخمل بلون أسود ، مع اختفاء المطرزات . أو أزرق اللون قاتم مع أساور بيضاء من نفس القماش في أعلى الكمين على الطريقة المصرية القديمة ، وتقتصر المطرزات الهندسية على الياقة والحوافي السفلى للثوب وعلى طرفي الأكمام ، كما كان في بصرى الشام ، وسمي هناك بالشرش أو الثوب . وفي القلمون التحتاني كان هذا الثوب من الخام الأبيض المقصور أو الأزرق مع أردان طويلة مثلثة الشكل ، ومطرزاته على غاية من الدقة والاتقان وبأشكال هندسة وألوان غامقة تشغل مقدمة الثوب والأردان معاً . وكانت تطلق أثناء تفتيلة العروس وترسل على الكتفين وتعقد على الظهر . وكانت العروس تطرز هذا الثوب قبل الزفاف بإبرتها الرشيقة مدة طويلة ، وتعاونها فيه صديقاتها أو قريباتها ممن اشتهرن بالدقة والمهارة . وتنسجم مواضيع المطرزات مع موضوع الزواج عامة إذ تتضمن ، إما معاني تفاؤلية أو وفائية خدمة للعريسين في حياتهما الجديدة . وكانت المرأة ترتدي فوقها إما قطشية عادية أو مزركشة وذلك في الجبال العالية أو الدراعة كما في حوران . وتسمى البيرمية (لفظة تركية تعني العيدية)[1] ، لكونها تلبس في المناسبات المفرحة كالأعياد والأعراس .

---

(١) انظر : حمامي . المرجع السابق . ص١٩٠ و ص١٩٩ .

وهناك ثياب داخلية كانت ترتديها نساء ريف دمشق (في السهول والجبال) وهي كثيرة وثقيلة منها ثوب عريض أو ثوبان متشابهان يأتيان مباشرة بعد الأثواب الخارجية يليهما قميص نصفي عريض وطويل يدخل ضمن (سروال) طويل ضيق أو عريض يصل إلى أسفل القدمين ويعقد بتكة.

٥ ــ **الشنتيان أو الجنتيان**: كانت ترتديه المرأة كسوة لعورتها من الوسط إلى الكاحلين. ويسمى سروالة أو شنتياناً أو شلواراً أو جنتياناً أو شخشيراً أو لباساً[١]، وكانت تثبته بتكة تربطه من الخلف على وسطها، وكان يوفر الدفء لها ويغطي ساقيها. ويكون مطرزاً في الأسفل في بعض الأحيان بموضوعات هندسية تتناسب مع لونه عامة كما كان في قرى القلمون.

٦ ــ **الزنار النسائي**: استعملته النساء لتحقيق الدفء والزينة ولحزم الثوب الرئيس من الداخل أو الدراعة من الخارج. وكان منه أنواع لهذا اتخذ تسميات مختلفة هي:

أ ــ الشالة العجمية: استخدمتها نساء القلمون المسنات كما في قريتي صيدنايا ورنكوس. واستخدمت بعض النساء في فترة متأخرة من دراستنا، الشالة الانكليزية، كنساء قرى الغوطة[٢].

ب ــ الشالة الملونة: كانت من الحرير المقلم، بألوان كثيرة طويلة تتراوح بين الفضي والبنفسجي والأخضر البرتقالي، استعملتها العروس والشابات آنئذ.

ج ــ الكمر: كان زناراً نسائياً من الصوف بطول ٤ ــ ٥ أمتار وبعرض ١٠ ــ ١٢ سم، وملوناً بأقلام أفقية حمراء وسوداء وخضراء، وتنتهي

---

(١) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢١٥/ص٩، تركة نفيسة بنت علي بيضون من قرية كفر سوسية المتوفاة ١١٩٨هـ. ثم ص١٨٨، تركة رحمة بنت الحاج محمد من أهالي قرية دوما المتوفاة سنة ١١٩٩هـ.
ثم: سجل القسمة العسكرية رقم ٢٦٥/ص١٢٤، تركة صفية بنت الشيخ محي الدين من قرية كفر سوسية المتوفاة سنة ١٢٥٣هـ.

(٢) انظر: سجل القسمة العسكرية. رقم ٣٦٥/١٢٥٣هـ. ص١٢٤، تركة صفية بنت الشيخ محي الدين من قرية كفر سوسية.

أطرافه بشراشيب من الصوف بنفس الألوان السابقة، استخدمته نساء سهول دمشق (حران العواميد) .

د ــ الحزام الفضي أو الذهبي : اختصت به العروس والمرأة الشابة عموماً، وكان عبارة عن سلك فضي رقيق يتراوح عرضه مابين ٥ ــ ٧ سم وله قفل جميل من الأمام، يتخذ غالباً موضوعاً لزخارف متنوعة مصاغة بأسلاك رفيعة من الفضة الملتفة والمرصعة بالأحجار الكريمة المختلفة كالفيروز والياقوت[١].

وكان الزنار القماشي يعقد من أحد الجانبين أو من الأمام، فتهتز شراشيبه أثناء المسير بطريقة جذابة وجميلة[٢].

أما لباس رأس المرأة الريفية آنئذ فكان متنوعاً وبأشكال مختلفة، نتيجة لتنوع الموروث التاريخي، فكان منه مايعود في أصوله إلى الكنعانيين والآشوريين والحثيين، والمصريين ومابين النهرين، وغيرهم. ولقد اختلف من منطقة إلى أخرى من حيث تزيينه واستخدام المجوهرات والمصاغ، وكانت عمائم النساء مخروطية أو أسطوانية، والنوع الأخير كان محبباً للنساء، لأنه يزيد من طول المرأة ورشاقتها، وكانت تلبسها بنوع من الزهو. وتلف فوقها طرحة شفافة، كنساء قرى القلمون وحوران. ولقد تشكل غطاء الرأس بشكل عام من الأجزاء الآتية :

١ ــ **الطاقية** : كانت مستديرة الشكل بيضاء أو حمراء سميت (عرقية)، وكانت توضع مباشرة على الرأس، ويلف في طرفها السفلي عند الجبهة رتل أو صف من الغوازي العثمانية الذهبية[٣]، مرصوفة إلى جانب بعضها، وتسمى (شك أو صفية)، وكانت الغاية من الطاقية تثبيت العمامة وامتصاص العرق، واستخدمت نساء جبل حوران وجبل لبنان، وبعض القرى المحيطة بدمشق، التربان أو الطرطور بديلاً عن الطاقية .

---

(١) انظر : سجل القسمة العسكرية رقم ٢١٥ / ص١٨٨، تركة الحاجة رحمة بنت الحاج محمد من أهالي قرية دوما . القضية ١٩ / ربيع الثاني سنة ١١٩٩هـ : ثم سجلها رقم ٢١٥ / ص٦٨، تركة كلسن بنت خليل عبدالله المتوفاة ١١٩٧هـ كان لديها زنار من الفضة وزنار من الذهب .

(٢) انظر : حمامي . حسن . المرجع السابق، ص١٩٠ و ص١٩٩ .

(٣) استخدمت المرأة أنواعاً عديدة من النقود الذهبية (عثمانية وغير عثمانية) في هذه الصفة وغيرها من أدوات الزينة . وكان من هذه النقود : غازي قديم، وفندقلي، وعادلي، ومجري، وجهادي تاريخي اسلامبولي وافرنجي أبو شوشة وافرنجي أبو عامود وغيره . انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٥ / ص٣٠ .

٢ ــ **العصبة** : كانت عبارة عن **قطعة مربعةالشكل من القطن أو** الحرير ، ذات لون أسود أو بني أو خمري ، مطعمة بالخيوط الذهبية أو الفضية وفق خطوط مستقيمة ، أو بزخارف نباتية ، ولها شراشيب على جميع أطرافها ، تطوى باتجاه أحد القطرين بصورة مسننة ، وقد تطبق بانتظام حول الرأس بدورين أو أكثر بحيث تظهر صفية الغوازي متدلية على الجبين وخيوط القصب واضحة من الأمام ، ثم تعقد أطرافها من الخلف كأكثر مناطق دمشق ، أو من الأمام لدى نساء قرية زاكية ، أو على أحد الجانبين لدى نساء قرية يبرود ويخعة[١] .

ولقد سعت أكثر النساء لجعل العصبة عريضة من الأمام لتستوعب مجموعات المصاغ الفضي والذهبي ، الذي يعكس في بريقه الأضواء والأنوار على وجوههن ، فيزيدهن سحراً وجاذبية ، وكانت العصبة تبطن من الداخل بحيث يبلغ وزنها الكيلو غرامين ، أو توضع ضمن ثنياتها بعض الحشيات من الخرق ليبدو شكل الرأس أكثر كبزاً وفخامة ، مما يزيدها جمالاً ومهابة .. وفي جبل حوران تحولت العصبة إلى طربوش أحمر طري تثبت على أطرافه السفلى والعليا صفيات الغوازي ، وينتهي في أعلاه بقرص ذهبي أو فضي مصاغ بمواضيع زخرفية بأسلاك فضية ملتفة حول نفسها بدوائر متناظرة . وهذا مايسمى عند الصياغ بطريقة (كسر جفت) أو (Felagrane) . ويقول الرحالة (لين ــ LANE) الذي زار مصر سنة ١٨٣٦م واصفاً ذلك بقوله : «إن النساء المصريات يلبسن على رؤوسهن طربوشاً يلف حوله قماش ثمين أو شال من الكشمير ، ويثبت عليه أحياناً قرص من الفضة أو الذهب » وربما يدل على أن بنات جبل حوران قد توارثنه من عهد الفاطميين . وقد تطورت هذه العصبة الضخمة في قرى وادي بردى ووادي تل منين وبعض قرى القلمون ، كالنبك ، إلى شاشية رقيقة شفافة يعصب بها الجبين من الأمام وعليها رسوم نباتية مختلفة[٢] .

٣ ــ **الطرحة** : كانت عبارة عن غطاء رقيق مؤلف من قطعة مستطيلة الشكل يُسبل فوق العصبة فيغطيها كلياً أو جزئياً ، ثم يردف قسم منها إلى الخلف فيلف العنق وجزءاً من الوجه والكتفين . وكانت الطرحة بيضاء اللون في جبل حوران ووادي بردى وبعض قرى القلمون كالنبك والقطيفة . وقد تطوّل الطرحة حتى تصل عدة أمتار ، فتلف العنق وتردف إلى الخلف

(١) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩ /ص٢١٨ ، تركة أسما بنت علي بن الشيخ عمر من كفر سوسية .

(٢) انظر : حمامي . المرجع السابق ، ص٢٠١ .

حتى تصل إلى الأرض ثم ترفع إلى الأعلى، وتعلق بواسطة زنار المرأة في بعض قرى القلمون مثل يبرود ويخعة، وكانت الطرحة خليطاً بين الأسود والبني، كما في معلولا وعين التينة ورنكوس وغيرها من ريف دمشق. وكانت المرأة تكتفي أحياناً بوضع لفاح أسود على الرأس مباشرة يُلف به العنق وله طرز أو شراشيب على أطرافه، كما في جيرود وصيدنايا، أو يضع من الصوف البلدي المشغول بسنارة واحدة، وسمي بـ (صوفية) كما في النبك، وكان أسود اللون أو صُوفاً ساذجاً. أو من الحرير الطبيعي الساذج ويُحاك بسنارة واحدة وتزين أطرافه ويُسمى (بالقزية)[1].

٤ ــ **الشنبر**: كان عبارة عن منديل حرير أسود اللون مستطيل الشكل، طوله متران أو أكثر وعرضه يتراوح بين ٥٠ ــ ٦٠ سم، يطرح على الرأس مباشرة ويلف شعر الرأس والعنق والصدر، ويردف إلى الخلف فيغطي النقرة، وتنزل أطرافه ذوات اللون الأحمر تحت ثوب المرأة الرئيس المسمى (بالشرش) كما في حوران.

٥ ــ **العصبة**: كانت الغاية من لبسها حماية الرأس من حر الشمس والعينين من الغبار الشديد، لهذا كانت كثيفة وعريضة من الأمام لتسمح بوضع قطع الحلي بصورة ظاهرة، وكانت توضع العصبة فوق الشنبر مباشرة. وكانت في هضبة الجولات والجيدور، ذات لون خمري ومبرومة كالعقال ومقصبة بخيوط من الفضة. وكانت تسمى في حوران «بالعصابة» وكانت طويلة من القطن وذات لون أسود، وتعقد عند مؤخرة الرأس، بحيث يتدلى طرفها المثلث الشكل إلى الأسفل[2].

حلي المرأة في الريف الدمشقي

اهتمت المرأة في ريف دمشق بالحلي الفضية، بالإضافة إلى الحلي الذهبية المطعمة بالحجارة الكريمة أو بدونها، وكانت بأشكال مختلفة تزين بها رأسها وأذنيها وعنقها ومعصميها وأصابع يديها ووسطها وساقها. وأهم هذه الحلي:

---

(١) كانت تسمى «شيكان قزي». انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤/ص٤. مخلفات أسما بنت محمد شريف العطار المتوفاة سنة ١٢٥٦هـ.

(٢) انظر: حمامي. المرجع السابق. ص٢٠٦ و ص٢٠٧ و ص٢٠٨.

١ ــ العُرجة: وكانت المرأة تزين بها رأسها. وهي عبارة عن طاقية من الفضة ذات سلسلتين عريضتين متقابلتين، بعرض يتراوح مابين ٤ ــ ٥ سم. ويتدلى من هذه الطاقية شرابات فضية تتأرجح على جبينها بشكل اللوزة[١]، وكانت ترمز إلى الماء والنماء والخصب والخير، لتلاقيه العروس في حياتها الجديدة. وفي مؤخرة الطاقية وجد شريط من القماش المزركش والمطرز بالألوان المختلفة مشغول بالإبرة علقت فيه النقود الفضية، وغطت هذه العصبة نقرة العروس، وكانت تخرج من أسفلها، دلاية من القماش المزخرف أيضاً شبيهة بالقطعة السابقة بعرض ١٠سم تقريباً، تتدلى على الظهر، وكانت تعلق فيها مجموعة من الريالات العثمانية (المجيدى)، بعدد فردي، وكان يحمل آخر ريال منها من الأسفل، خمس قطع من النقود الفضية الصغيرة، وتلي ذلك طرر حريرية ملونة ملتفة مرسلة، وكان ذلك لدى نساء منطقة المرج شرقي الغوطة وحوران[٢].

ــ القلادة: كانت عبارة عن طوق من الفضة وكانت المرأة تضعه في جيدها أو يتدلى على صدرها. ويتألف من سلسلة واحدة أو سلسلتين، تعلق فيهما قطع مختلفة من النقود الفضية القديمة، وكان يخرج من كل منها عدة ديالات تحمل كل واحدة بدورها قطعة نقدية صغيرة كما في القلمون (القطيفة)، وكانت تحوي القلادة عدة سلاسل تحمل بدورها نقوداً فضية، بشكل القلب أو اللوزة أو الهلال أو القرون أو الأجراس.

٣ ــ الشكل: وكانت من أجمل حلي الفضة آنئذ، وتعتبر آية في فن الصياغة السورية القديمة وتعود في أصولها إلى الآشوريين.

٤ ــ الخلخال: زينت المرأة به ساقها، وعضدها أحياناً. وكان من الذهب أو الفضة وسمي (بالحجول) وأضيفت إليه أجراس لدى الأطفال المدللين.

٥ ــ القرص المستدير: لبسته نساء جبل حوران فوق طربوش أحمر. وكان من الفضة أو

(١) سميت في مدينة دمشق (بالسنوبرة) وهي من الذهب. انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢١٥/ص٦٨، تركة كلسن بنت خليل عبد الله المتوفاة سنة ١١٩٧هـ في دمشق.

(٢) حمامي. المرجع السابق. ص٢٠٩.

الذهب ، وبه زخارف من أسلاك الفضة ملتفة على نفسها بدوائر تؤلف في مجموعها موضوعاً فنياً رائعاً ، يعود في جذوره إلى الفاطميين في مصر[1].

ــ وهناك بالإضافة إلى ذلك الحجاب[2] من الفضة ، والجدادة والزيبقلية .

أما لباس القدمين فلم يختلف بشكله عن حذاء الرجل بصورة عامة . ولقد اتصف هذا اللباس بشكل عام (لدى الجنسين) بنعل مزدوج ليقاوم وعورة الأرض ، ووجهه من الجلد الأحمر أو الأسود أو الساذج الذي يميل إلى الصفرة قليلاً . وكان حذاء المرأة في القرى المحيطة بدمشق لا يختلف عما هو لدى رجالها ، أما في الجبال فكان الأمر يختلف عما ذكرناه . حيث كانت النساء في بعض المناطق الريفية لا يسرن حافيات كما في حوران . في حين قامت بعض نساء الجبال بنسج قلشين خاص لبسنه في الشتاء .

ومن لباس القدمين كانت الصرماية التي كان جلد وجهها أحمر اللون بدائر ، ولا كعب لها ، لبسها أهل الريف ، وكان منها نوع لطيف الشكل يسمى (بنصف كشفة) ، ثم النوع الأصفر الذي لبسه بعض أهل العلم . وبقيت صنعتها رائجة في الشام إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر (لرغبة من يلبس الصرماية)[3] ثم البابوج وكان ذو وجه أصفر بلا دائر ، لبسه أهل العلم وفقراء الطلبة والنادر من النساء العجائز . وكان على أنواع ، فمنه مالبسته نساء الفلاحين ، وهو أنواع أيضاً على حسب عاداتهم في ملبوسهم ، إذ كان لكل قرية طراز يخالف الأخرى[4] . ومن الأحذية التي لبسها الريفيون المست الأصفر والأسود[5] ، والجزمة ، التي كانت لباس الرجال ، تستر الساقين وبدون كعب ، فالعالي منها لبسه أمراء البدو وشيوخهم ، جلدها أحمر قانٍ بها طيات أمام الساق ، وكان على رأس ساقها المطوي طرة حريرية طويلة ، لونها أزرق تلتف عليها خيوط من السيم ، وبأسفل قدميها حذوة من الحديد ، يلبسها البدوي ويفتخر بها . وهي مثمنة ، والوسط دونها في القيمة والحسن ، ثم

---

(١) حمامي . المرجع السابق ، ص٢١١ و ص٢١٢ و ص٢١٣ و ص٢١٥ .
(٢) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٥ /ص١٢٢ تركة الحرمة صفية بنت الشيخ محي الدين من قرية كفر سوسية .
(٣) القاسمي : محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية . ج٢ ، ص٢٧٠ .
(٤) القاسمي : المصدر السابق . ج١ ، ص٥٧ .
(٥) القاسمي : المصدر السابق . ج٢ ، ص٤٤٣ .

الدون وكان لهما سوق مخصوص بميدان الحصا ، يقال له سوق الجزماتية حيث كانوا يشتغلون بها الجزمات الدون ، لون جلدها أبرش إلى الصفار أقرب ، وكان يلبسها فلاحو حوران نساء ورجالا ، وأهل تلك الجهات من البدو[1] .

التجميل وأدواته لدى نساء ريف دمشق

لم يسمح المجتمع آنئذ للفتاة في أن تضع على وجهها المساحيق والألوان « الغندرة » حتى ليلة زفافها ، وإذا مافعلت إحداهن مثل ذلك ، كانت تعتبر خارجة على مألوف عاداته وتقاليده ، ويستدعي ذلك ذمها وتأنيبها والشك برصانتها ، مما جعل النساء لا يعرفن أصول الغندرة ، وإذا ماجاءت مناسبتها ، وهي ليلة زفافها ، استخدمت في غندرتها كميات كبيرة خرجت عن المعقول وشذت عن القواعد الجمالية . ولقد سمح المجتمع للمرأة ببعض الجوانب التي اعتبرت من الأسس الجمالية والصحية وهي :

أ ـــ **الـوشم** : الذي كانت المرأة تزين وجهها به وتبالغ فيه ، وله عندها مكانة هامة ، وكان له عدة مواضع ومواضيع ، فالنقطة الزرقاء في رأس الأنف مثلاً تسمى (دق) والمثلث المسنن من الخارج بين الحاجبين يدعى (حجاب) والخط المستقيم بنصف الشفة السفلى هو (رثمة) . كما أن الرسوم على طرفي الفم والعينين والذقن ورأس الخدين والرسغين وعلى الزند والبطن والساق والظهر كان لكل منها اسمها ووظيفتها التجميلية أو الوقائية والعلاجية .

ب ـــ **الـحـنـاء** : وكانت المرأة تخضب بها يديها وقدميها في مواسم معينة ، وفي مناسبات خاصة ، كحنة رجب والعيدين وعند الزواج .. وكانت للحنة أشكال معروفة تسمى كل نقشة باسمها ، ويشترك الرجال والأطفال أحياناً في ذلك . وجلب هذا الصباغ المسحوق من الهند ، وكان نوعين : الأحمر لليدين ، والأسود للعجائز يتخذنه صباغاً للشعر .

ج ـــ **الـكـحـل** : استخدمه (الجنسان) على حد سواء ، وهو الإثمد من نوع الانتموان أو شحار زيت الزيتون ، كان يسحق وينخل بشاشة ناعمة جداً ، ثم يمزج ببعض الأصبغة العضوية ، ويوضع بمكحلة فيها ميل رفيع تخطط به العينان والحاجبان ، وكان له من النواحي

---

(١) القاسمي : المصدر السابق . ج١ ، ص٨١ .

التزيينية والطبية قيمة كبرى، إذ يضاعف جمال العينين، فيزيدهما اتساعاً وصفاء أو سواداً فوق البشرة البيضاء، وكانت الحرارة والغبار الشديدين يجعلان منه ضرورة لازمة. لأنهم كانوا يعتقدون بأن يطفىء حرارة الأجفان ويزيد الرجال وقاراً ومهابة.

د ـــ **البرّاق**: كان عبارة عن مسحوق ناعم (درور)، يثبت على الوجه، أو تلصقه الماشطة بأصابعها، فيعطي تموجات جميلة. وقد سمي بعرف العرائس مهرجاناً، واستعمل في (بخعة وجبعدين)، وهما قريتان سريانيتان، وفي قرية حينة من جبل الشيخ. وربما يعود هذا النوع من التزيين إلى أصول آرامية[1].

هـ ـــ **التسريحة**: كانت عند البنات والنساء، بإطالة الشعر الذي اعتبر رمزاً للجمال، فجعلنه ضفائر، مضافاً إليه جدائل من الصوف الأزرق، يرسلنها وراء ظهورهن. وكانت الثريات منهن يربطن جدائلهن بقطع من النقد والفضة المتداولة آنئذ. ودامت هذه العادة حتى أواخر القرن التاسع عشر[2].

و ـــ **الحوائج الخاصة**: وكانت السيدة تحمل حاجات خاصة، منها الحجب وبها آيات قرآنية، أو بعض الأدعية والتعاويذ، موضوعة ضمن غلاف معدني (فضة أو ذهب).

وكانت السيدة تحمل أحياناً أطواقاً من الخرز الأزرق وقطع الشب، تتوسطها أحجار العقيق وناب الذئب وموسى صغيرة وجوزة وترس سلحفاة صغير. ويحمل كل منها تاريخاً لعقائد شعبية قديمة تعود لأقدم العصور في التاريخ، فمنها مايعود للأصل الحجري دينياً كأنواع الخرز، أو يعود إلى العصر المعدني، كحمل الأجراس الرمزية وحدوة الحصان، ومنها مايمت لمذهب الانمسم بصلة الاعتقاد ورمز الأفعى ولباس جلود الحيوانات المفترسة القوية كلها تعود إلى عصر الصيد. وكانت المرأة تحمل ضمن تلافيف زنارها دراهمها ومرآتها وإبرة الخياطة والكشتبان، ومفتاح صندوقها ومفتاح الدار الخشبي، وأحياناً أنواعاً من القضامة والزبيب والتين وغيرها[3].

---

(١) انظر حمامي. المرجع السابق. ص٢٢٣ وص٢٢٤ و ص٢٢٥.

(٢) انظر: خنشت، يوسف، طرائف الأمس غرائب اليوم. ص١٥.

(٣) انظر: حمامي. المرجع السابق، ص٢٢٦.

زي أهل الذمة (النصارى واليهود والسامرة)

ألزم أهل الذمة (النصارى واليهود والسامرة) بزي خاص يميزهم عن المسلمين. وفرضت عليهم بعض القيود في مجال البناء وركب المطايا وطريقة مخاطبة المسلم. وكان اليهود قبل ١٦٠٠م/١٠٠٩هـ، يرتدون على رؤوسهم قبعات حمراء بدون حواف، ولكن في حدود ذلك التاريخ أصدر الصدر الأعظم أوامره بإجبارهم على ارتداء القبعات الزرقاء (التربانات) على أن يبقى الشاش أحمر[1] حتى اليهود الأوربيين في الدولة العثمانية أجبرهم الحاخام للتقيد بذلك[2].

أما السامرة فمنذ أوائل عهد السلطان ناصر بن قلاوون امتازوا بزي خاص يميزهم عن اليهود الربانيين والقرائيين، وفرض التمييز في (التربانات) فيما بين أهل الذمة، من حيث حجمها ولون شاشها على أن يكون التربان لدى اليهودي أصغر من تربان المسيحي، وتربان المسيحي أصغر من تربان المسلم[3].

ولقد ألزم أهل الذمة في هذه الفترة من العهد العثماني بارتداء الغيار في الملبس الذي يميزهم عن المسلمين، ويميزهم فيما بينهم، فالزم النصارى باللون الأزرق أو الكحلي، واليهود، القراؤون الربانيون باللون الأصفر والسامرة باللون الأحمر[4] وفرض على المسيحيين وضع صليب من الحديد أو الرصاص أو النحاس في رقابهم عند دخولهم الحمامات، وحرم عليهم ركوب الخيل والبغال النفيسة داخل دمشق عدا الرئيس الديني، وحرم عليهم حمل السلاح والتقلد بالسيوف، ولبس العمائم الزاهية. وكان لون عمائم النصارى الأزرق أو الكحلي،

(١) انظر: ماير. الملابس المملوكية/ص١٢٥ و ص١٢٦ نقلا عن قاسم عبده قاسم. أهل الذمة في مصر في عهد المماليك. ص١٩١ و ص١٩٢. رسالة قدمت إلى جامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم التاريخ، لنيل درجة الدكتوراة سنة ١٩٧٥م.

2 - See: Russell .A. op.cit.VOL.2.P.59.60.

(٣) انظر: الزيات، حبيب. مقالته في مجلة المشرق العربي التي تصدر عن جامعة القديس يوسف (اليسوعية) العدد ٣٦/ص١٧٠، لعام ١٩٣٨م.

(٤) يذكر مجهول في كتابه، تاريخ حوادث الشام ولبنان. والذي يؤرخ فيه لأحداث سنة ١١٩٢ ـ ١٢٥٧هـ/١٧٨٢ ـ ١٨٤١م «أن النصارى كانوا يرتدون لباس رأس شاش كحلي واليهود بشاش أحمر وكل معروف أمره ولا أحد يتعدى الرسوم الذي كسمه شال لا يمكنه يلبس قاووق». انظر: ص٢٣ و ص٢٤ منه.

واليهود اللون الأصفر والسامرة اللون الأحمر[1] . وفرض على النصارى أن يشدوا على أوساطهم الزنار وهو غليظ كالحبل ويشد إلى أوساطهم ، أو يكون من الكتان فوق الثياب . ويبدو أن الزنار كان كافياً في بعض الأحيان تمييز النصارى لأنه من لون الثياب الملزمين بلبسها .

أما نساء أهل الذمة فقد قيدن بدورهن بأزياء مللهم ، فكان على المرأة المسيحية أن تشد الزنار فوق ثيابها ومن تحت الإزار (الملاءة) الزرقاء (الكحلية) ، وكان على المرأة اليهودية أن ترتدي الإزار الأصفر والسامرية الإزار الأحمر[2] .

وفرض على المرأة الذمية انتعال خف من لونين متباينين ليميزها عن المرأة المسلمة . وفرضت على أهل الذمة القيود في مجال بناء الجديد من أديرتهم وبيعهم وكنائسهم وحتى أبواب بيوتهم ، بحيث تكون بارتفاع معين حتى لا يضطر المسلم لخفض رأسه إذا دخلها . وأجبر الذمي على عدم رفع صوته في وجه المسلم أو السير عن يمينه فيما لو صدف مرورهما في إحدى الطرقات ، وألزم بحمل (كيس الحاجة) على كتفه في بعض الأحيان لتقديم خدمات طارئة ومجانية للمسلم ، كأن يحمل له أشياءه إلى داره[3] .

ولقد توقف هذا التشديد على الظروف الداخلية والخارجية التي أحاطت بالدولة العثمانية . فمثلاً عند هزائمها أمام الأوربيين (المسيحيين) كانت تصدر الأوامر للتضييق على المسيحيين كما حصل إبان الثورة اليونانية ، أو عندما تتكرر هزائم الدولة العثمانية أمام روسية ، وعلى المستوى الداخلي والمحلي ، لعب رعاع المسلمين والجهلة منهم دوراً في عملية الإزلال تلك ، وشكل عقلاؤهم سياج حماية للمسيحيين .

ولقد لعبت المناطق البعيدة عن متناول السلطة في دمشق ، دوراً في تراخي قبضتها عن فرض تلك القيود ، كما حصل لنصارى حوران[4] وجبال القلمون . ففي صيدنايا عزف

---

1 - See: Douin .G. Mission Boisle combte en Syrie. P.201.

(٢) ثم انظر : قاسم ، قاسم . المرجع السابق . ص٨١ و ص٨٢ و ص١٩١ و ص١٩٢ .

(٣) ماير . الملابس المملوكية ص١٢٥ و ص١٢٦ نقلا عن قاسم عبده قاسم ـــ المرجع السابق ، ص٨٣ .

مجهول . حسر اللثام عن نكبات الشام : ص٣٨ . ثم : مشاقة ، ميخائيل . مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان . ص٢٦ و ص٢٧ ، مصر ١٩٠٨م .

(٤) يقول بوركهارت الذي زار حوران في أوائل القرن التاسع عشر . إن زي النساء المسلمات والمسيحيات كان واحداً في حوران ، لكنه يختلف عما لدى الدرزيات في الجبل وكان زي الحورانيات يشبه زي النساء البدويات . فلباس رأسهن ، النقاب ، ونادراً مايغطين وجوههن انظر كتابه :

TraveLs in Syria and the Holyland. P.254.

النصارى عن التقيد بزيهم المفروض، مما دفع بوالي دمشق درويش باشا، لإصدار أوامره إلى اختيارية ومشايخ القرية المذكورة ليجبروا النصارى على العودة إلى قيود اللباس المحدد للنصارى، وجاء في أوامره الصادرة سنة ١٢٣٦هـ/ ١٨٢٠ ــ ١٨٢١م مايلي: «البادي هو أن النصارى عندكم عمال يقلدوا الإسلام في ملابسهم وعمائمهم وفعالهم وتعدوا درجاتهم وخالفوها فهذا مالم يعط به رخصة.. فيجب أن تنبهوا عليهم أن يتقيدوا بملبوسهم الأزرق والعمامة السوداء والنعال الأسود ولا تدعوهم يقلدوا الإسلام بأدنى شيء لا نساء ولا رجال»[١].

ولقد اختلف موقف من قام بمهمة المحتسب، في دمشق في هذه الفترة، من قيود الثياب على أهل الذمة (كالقضاة والولاة والصدر الأعظم). فمثلاً والي دمشق محمد باشا العظم تساهل في ذلك، في حين أن والي دمشق الكردي الأصل الكنج يوسف باشا، الذي اتصف بالتعصب، قد تشدد في ذلك، فأرسل منادياً في الأسواق ينادي على النصارى رجالاً ونساء أن لا يلبسوا إلا السواد حتى الحذاء وأن لا يلبسوا أخضر زيتي وأن حريمهم يجعلوا أغطيتهن وملبوسهن أسود إلا المست والبابوج. ولقد صادف أن اعتقل فلاحان من جبل لبنان (زحلة) متزنرين بحزام صوف أخضر[٢]. وهو مخالف للون الأسود أو الأزرق الخاص بالنصارى، فخيّرهما بين الدخول في الإسلام أو القتل، فأسلم أحدهما والثاني رفض ذلك فقطع عنقه[٣].

وقام بعض الولاة بمساومة النصارى، على مبلغ من المال مقابل غض الطرف عن قيود اللباس. ففي سنة ١١٨٨هـ/ ١٧٧٤ ــ ١٧٧٥م قام والي حلب محمد باشا ابن ابراهيم باشا زادة «بإحضار وكلات النصارى الأربعة ــ روم ــ موارنة ــ سريان ــ أرمن وأمرهم بأن يلبس النصارى قلابق وباقي الملبوس أسود والمست والحدا (الخف) يكون عنابي والجخجور بنفسجي ... وبعد مساومتهم قطع الجرم بأربعة آلاف ذهب»[٤].

كما أثرت التمزقات التي حصلت في الكنيسة الأرثوذكسية في القرن الثامن عشر،

---

(١) مجهول. حسر اللثام عن نكبات الشام، ص٤٣ و ص٤٤.

(٢) كان اللون الأخضر زي الأشراف وبعض الطرق الصوفية.

(٣) مجهول. تاريخ حوادث الشام ولبنان. ص٣٨ و ص٤١.

(٤) الحلبي. المرتاد في تاريخ حلب وبغداد. ص١٧ و ص١٨.

وانسلاخ فئة منها وانضمامها إلى الكنيسة الكاثوليكية ، دوراً في جعل الفريقين يكيدان لبعضهما البعض لدى الحكام العثمانيين ، وقام الأخيرون باستغلال ذلك أبشع استغلال . ففي عهد والي الشام عبد الله باشا ، قام الأرثوذكس باتهام الكاثوليك « بأنهم متواطؤون مع الإفرنج وبمداخلة بطريرك الأرثوذكس سيروفيم مع الوزير المذكور أصدر الأخير أوامره ضد الكاثوليك لمنعهم من ارتداء ثياب حمراء ولا سيما الحذاء الأحمر فاضطروا لتسويده قبل خروجهم من بيوتهم »[1] .

لقد أطلق النصارى لحاهم شأن المسلمين ، إلا أن البعض بدأ يحلق ذقنه في عهد ابراهيم باشا المصري ، ويرسل شاربيه مقلداً بذلك الأوربيين آنئذ . مما أثار سخرية المسلمين فأطلقوا عليهم اسم (المخنجرين)[2] ، لأن المجتمع لم يكن قد اعتاد على ذلك من قبل .

أما فيما عدا ذلك فلم يختلف زيهم عن زي المسلمين . فمثلا نجد في مخلفات نقولا ولد ميخائيل المتوفى في دمشق في شوال سنة ١٢٣٧هـ/ ١٨٢١ ــ ١٨٢٢م مايلي من الثياب : « مدربية طويلة قطني ــ عنتري قطني ــ بنش جوخ ــ جبة جوخ ــ جروال ــ فروة »[3] . وكذلك مخلفات الأرمني كرابيت ولد أستاروك الأماصيلي والمتوفى في دمشق سنة ١٢٣٨هـ/١٨٢٢ ــ ١٨٢٣م كانت تتكون من الآتي : « زنار طرابلسي ــ بنش ــ عنتري ــ رقيق ــ أغباني ــ جيكان جروال ــ عباية »[4] . وورد في مجلة المشرق أن قيافة الرجل المسيحي كانت تتكون من الآتي : « عمامة زرقاء مخططة بالبياض ــ حليق الذقن ــ طليق الشاربين ــ يرتدي على جزعه قنبازاً من نوع السبع ملوك وسروالاً أوربياً ــ وفي قدميه مست وبابوج وفوق القنباز والسراويل زنار يطوق وسطه من شال الترما وتحت جميع الثياب قميص حسيني ــ العباءة الزرقاء فوق ثيابه جميعها »[5] . وهو نفس زي المسلم ولا يختلف عنه إلا في بعض ألوانه .

---

(١) انظر : مشاقة . مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان . ص٧٧ .

(٢) انظر : الصايغ . المقترب في حوادث الحضر والعرب . ص٣٥ب . ثم : العبد ، حسن آغا تاريخه . ص٢٨ . ثم : مجهول . حوادث الشام ولبنان . ص٣٩ .

(٣) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩ / ص٢٢١ . القضية في شوال سنة ١٢٣٧هـ .

(٤) المصدر السابق . ص١٩٥ القضية ١٩ صفر سنة ١٢٣٨هـ .

(٥) انظر : اليسوعي ، الأب . توتل ، مقالته في المجلة المذكورة العدد ٣٦ /ص٤٨٤ ـ سنة ١٩٣٧م .

وكانت ثياب النساء المسيحيات مماثلة لثياب المسلمات. وحسبنا هنا أن نسوق مثالاً على ذلك ماخلفته إحدى المسيحيات المتوفاة والذي ورد ذكره في إحدى سجلات القسمة في دمشق وكان يتكون من: «قنباز ــ قبوط ــ شروال ــ قنباز زرلي مقصب ــ قنباز أغباني ــ شالة ــ قنباز آلاجة ــ فرملية جوخ ــ زنار بقجة ــ قميص ومست وبابوج وصاية ولباس خام»[1]. وهناك مثال آخر على ذلك مانراه في تركة حنة بنت كساب المتوفاة بدمشق سنة ١٢٦٤هـ/١٨٤٧ ــ ١٨٤٨م وكانت مكونة من الآتي: «عنتري آلاجة ــ عنتري كرمسوت ــ رقيق ــ مانوص مخمل ــ قميص ــ زنار فروة ــ إزار ــ طربوش ــ منديل ــ مست وبابوج قلشين ــ شالة ــ حلق ذهب ــ محملين لولو ــ سباحات خرز ولولو ذهب وخواتم»[2]. ومخلفات مرته بنت نقولا الدياك المتوفاة بدمشق سنة ١٢٥٧هـ/١٨٤٢ ــ ١٨٤٣م كانت مكونة من «عنتري قصب ــ فرملية مخمل ــ جروال كزي ــ عنتري آلاجة ــ ورقيق آلاجة ــ قمصان قنباز ــ شالة تقليد ــ تنورة آلاجة ــ أحمدية ــ عنتري ــ سلبند طربوش ــ عنتري أغباني ــ عنتري أبيض ــ إزار ــ مست وبابوج ــ سيف ذهب ــ وجوز حلق»[3].

وبقي الغيار الخارجي في أزيائهم مفروضاً إلى أن رفعت القيود عنهم في عهد ابراهيم باشا المصري، وأعلنت المساواة التامة في تنظيمات السلطان عبد المجيد، فألغيت القيود على أزيائهم الخارجية. ومع ذلك بقيت لهم أزياؤهم الطوعية المفضلة، كالقنباز والسراويل المائلة للون الأصفر، والطرابيش التي تميزهم عن المسلمين بالمناديل التي تطوقها كالخمار، ويقول أحمد حلمي العلاف الذي عاش في أواخر القرن التاسع عشر «إنك إذا مارأيت رجلاً في دمشق يلبس قنبازاً مقلماً أصفر، أو طربوشاً فوقه منديل، أدركت أنه مسيحي ويعرفون بحلق لحياتهم وإطلاق شواربهم ويلبسون تحت القنابيز شراويل بيضاء يدخلون نهايتها داخل الجوارب (لفافة رجل) ويربطونها بها، أما شبابهم فيلبسون الطرابيش المائلة إلى السواد، وتكون طويلة وبها يعرفون، أما وقت العمل فيتحررون من الغيار كاليهود ويكتفون بالسراويل والقميص»[4].

---

(١) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩/١٢٦٤ ــ ١٢٦٥هـ. ص٢٣٣.
(٢) المصدر السابق. ص١١٧.
(٣) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤/ص٥٩.
(٤) دمشق في مطلع القرن العشرين... ص٣٢ و ص٣٣ و ص٣٤.

أما زي رجال الدين، **فكان فيه بعض الإختلاف من طائفة إلى أخرى فالمطران منهم** يرتدي برداً بسيطاً أسود وفوقه عباءة سوداء، ويحمل في يده عصا من البلوط طويلة تعبيراً عن هيئة الأساقفة[1]، وله قلنسوة خاصة على رأسه. والأسقف الكبوشي الكاثوليكي كان له زي متميز أيضاً. فالبادري توما الذي قتل في عهد ابراهيم باشا المصري كان يرتدي ثوباً أسود وحزاماً كالعادة عبارة عن حبل أبيض وفوق رأسه طربوش أسود[2]. ورهبان الكاثوليك الذين كانوا من الروم لا يختلفون في زيهم عن الرهبان الأرثوذكس فعلى الرأس القلوصة وعلى أجسامهم الثياب السوداء[3].

أما راهبات دير صيدنايا الأرثوذكسيات فكن يرتدين زياً موحداً، مكوناً من الثوب «الفستان» الطويل من قماش الشيت القطني الأزرق، ومن الوسط إلى الأسفل سراويل واسعة من نفس القماش المذكور. وعلى رؤوسهن نقاب أسود واسع. ويشبه زيهن هذا زي نساء القرى المحيطة بديرهن ولا يختلف عنه إلا من حيث اللون[4].

ورغم القيود التي فرضت على لون الثياب الخارجية، بالنسبة لنساء النصارى، إلا أن النصارى، وخاصة في حلب قد شغفن بالمقصب والخرج والبرق في زينة الرأس، واعتبر ذلك من رجال دين النصارى خروجاً على الدين، ففي سنة ١٨٢٧م/١٢٤٢ ـــ ١٢٤٣هـ، اضطر المطران جرمانوس لاصدار أوامره إلى رعيته في حلب لإيقاف مثل ذلك والعودة إلى القديم «حيث حل القنباز محل الفستان القديم وأصبحت القنابيز شفافة خالية من البطانات وانتشر لبس القصبليات المشروطة واستخدم الخرج العريض والقصب المزين بالبرق»[5] ولا شك أن ذلك تم في حلب قبل دمشق لانفتاح الأولى على الغرب قبل الأخيرة بفترة طويلة من الزمن.

ومن جهة أخرى فقد استرعت أناقة الثياب المسيحيات في دمشق نظر الرحالة

---

1 - See: Burckhardt. op.cit. P.28.

(٢) انظر: رستم، أسد الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا. ج٢. ص١١.

(٣) رستم. المصدر السابق. المجلد ٢، ص٦٣.

4 - See: Porter. J.L. «five years in Damascus». VOL.1.P.345.

(٥) انظر: مجلة المشرق العدد ٣٦/ص ٧٠، سنة ١٩٣٨م.

الأوربيين الذين أتيح لهم زيارة بعض أسرها، وعلى رأس هؤلاء لامارتين الشاعر الفرنسي الذي زار دمشق في بداية العقد الرابع من القرن التاسع عشر حيث يقول: «إن الصورة الجميلة التي كونتها في مخيلتي عن جمال نساء أوربة وأثينا، قد اضمحلت وفقدت قيمتها، برؤيتي نساء سورية وبخاصة نساء الأرمن في دمشق، حيث لا يوجد من يماثلهن في الجمال، فعينا الواحدة منهن تشعان بنور صادق أخاذ، ينم عن صفاء الروح، وفوقهما حاجبان سوداوان ناعمان تعجز أمهر يدي رسام عن تقليدهما، وتسبح المقلتان فاحمتا السواد في لجة ثلجية البياض. والوجنتان مشربتان بحمرة دفاقة أعارتا للورد نشوته، أما الشفتان فقرمزيتان يفتران عن لآلئ ناصعة البياض فريدة في جمالها. وتشنف الآذان رنة الصوت المغناج، كل شيء في تلك النسوة متناسق ومدهش، وإذا ماتحدثن تنساب نبرات أصواتهن في دلال ونبل وتواضع فكأنما خلقن لإثارة الإعجاب. ولقد ساعدهن في ذلك مناخ دمشق وحياتهن في بيوت خلت من العواطف المصطنعة التي نشاهدها في مجتمعا ، أخرى، والتي كانت تستهلك الروح والجسد، وشاهدت في كل بيت دخلته الأم وبناتها كأنهن أخوات في نضارتهن وجمالهن، على الرغم من أن البنات كن في الخامسة عشرة أو السادسة عشر من أعمارهن، حيث كانت الفتاة تزوج وهي مابين الثانية عشر والثالثة عشر من عمرها، ولاأخفي إعجابي بأناقتهن التي فاقت في جمالها معظم أزياء الشرق، أما رؤوسهن فمكشوفة تطوقها جدائل الشعر الملفوفة لعدة مرات على جانبي الجبين كما تنهدل ضفائر طويلة إلى العنق والكتفين. ونرى إسرافاً في زينة الشعر مكونة من فصوص الجواهر والمعادن الثمينة، وتتسنم قمة الرأس، طاقية (كلوتة) صغيرة مقصبة بخيوط الذهب، أما النهدان فيندفعان إلى الأمام شبه عاريين، وعلى الجزع سترة قصيرة بأكمام عريضة مفتوحة من الأمام، صنعت من قماش حريري موشحة بخيوط الذهب، والسراويل البيضاء تصل إلى الكعبين، وفي القدمين المست المصنوع من الجلد الأصفر، وفوق الجسم ترى ثوباً بلونه الصارخ ينسدل على الكتفين مفتوحاً من الأمام ليبرز ماتحته من الصدر والسراويل، وفي الوسط حزام جميل تدلت أطرافه باتجاه الأرض. كل ذلك قد سمر ناظري بحيث لم أستطع تحويلهما عن هذا المشهد الساحر[1].

ولقد فرض على اليهود والسامرة من أهل الذمة زي خاص شأن النصارى، وقرر اللون الأصفر في ثيابهم الخارجية (القراؤون والربانيون من اليهود) كما فرض اللون البنفسجي في لباس

1 - See: Lamartine. «Voyage en orient».VOL.1.PP.5-6.

القدمين. أما لباس الرأس فكان أزرق (ساذجاً أو مقلماً) وكان حجم التربان أصغر مما كان لدى النصارى. وكان اليهود يطلقون لحاهم ويرسلون سوالفهم. أما اليهود السامرة فكانت ثيابهم الخارجية بلون أحمر[1] ولقد أبطل السلطان العثماني قبل ١٧٩٩م/١٢٦٣ ــ ١٢٦٤هـ لبس القاووق[2]، فقام اليهود بإبطاله بدورهم «وصاروا حكم النصارى حتى ماعادوا ينعرفوا إلا من لهم سوالف طويلة»[3] ولقد التبس أمر تمييز اليهود عن النصارى على قوات الصدر الأعظم التي عبرت دمشق متجهة إلى مصر لطرد قوات نابليون، فقام هؤلاء الجنود بلص اليهود وإيذائهم وإهانتهم على أنهم نصارى.

إلا أن اليهود لم يتعرضوا للاضطهاد كما تعرض النصارى له، كونهم لا يشكلون خطراً على الدولة العثمانية كالنصارى، ولأن اليهود أقلية لا تربطهم روابط دينية بالدول الأوربية كالمسيحيين.

وسعى بعض اليهود (كالصيارفة والتجار) للتخلص من قيود الزي المفروض على أبناء جلدتهم. بحصولهم على براءة سلطانية ووضع أنفسهم تحت حماية القناصل الأجانب، فيعاملوا معاملة رعايا الدول الأوربية بموجبها ويتزيوا بالأزياء الأوربية كما فعل الصراف اليهودي روفائيل الفارحي[4]، وامتاز اليهود في دمشق بلكنة في نطقهم العربية، واستخدموا عبارات عبرية في سلامهم خاصة يوم السبت[5].

أما ثياب اليهودي بشكل عام، فكانت كأزياء المسلمين إلا أنها أيضاً تختلف بين غنيهم وفقيرهم. فمثلاً زي شيخ حارة اليهود في دمشق الخواجة شحادة الفارحي المتوفى سنة ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠ ــ ١٨٤١م كان مكوناً من الآتي: «عنتري هندي ــ عنتري زمام ــ عنتري الحجر ــ جبة جوج عدد ٣ ــ زنار حرير بوشية ــ شالة، شال كمخة ــ شالة الكنار ــ شالة حمراء ــ فروة سمور عدد ٣ ــ ميتان عنتري ــ آلاجة ــ بزكهريا

---

(١) انظر: الزيات، حبيب. مجلة المشرق. العدد ٣٦/ص٧٠ سنة ١٩٣٨م ثم: Russell. A. op.cit. PP.59.60.

(٢) مجهول: حوادث الشام ولبنان. ص٢٣ و ص٢٤.

(٣) حوادث الشام ولبنان. ص٢٣.

(٤) مجهول: مذكرات تاريخية. ص٢٤ و ص٢٤٠ و ص٢٤٣ مطبعة القديس بولص ــ حريصا ــ لبنان.

5 - Russell .A. op.cit.VOL.2.P.60.

عدد ٣ ــ شروال جوخ ــ فروة سنجاب ــ فرو عزق ــ فروة قاقوم ــ جبة فروة مضربية ــ زنار أبيض ــ شروال جوخ ــ كمر ــ جبة خان صوف ــ عنتري آلاجة ــ زنار حمصي، عنتري زمام ــ شروال وفرملية ــ فروة سنجاب ــ فروة ناقة ــ فروة سلط ــ مضربية ــ كرمسوتية ــ جبة شال ــ ثوب أغباني ــ ثوب عزيز خان ــ عنتري أبيض ــ عنتري أطلس ــ عنتري عزيز خان ــ أسلك ــ فرجية ــ فروة كزي ــ طاقية قصب حلبية ــ طاقية هندية ــ طاقية افرنجية ــ شيكان ــ شخشير وقدرت ثروته بـ ٤٦٩٠٢ قرشاً »[١].

أما زي النساء اليهوديات فلم يختلف عن زي المسلمات، إلا من حيث لون الثياب الخارجية التي قيدت بلون خاص، لتميز بها النساء اليهوديات، وكن يلبسن الأزار عند خروجهن من بيوتهن ويتركن إحدى الذراعين حرة[٢].

وخفضت القيود على أهل الذمة بعد دخول الجيش المصري إلى دمشق سنة ١٨٣١م/١٢٤٦ـ ١٢٤٧هـ، حيث نادى المصريون بالمساواة بين المسلمين وأهل الذمة (نصارى ويهود وسامرة). واعتبروا الحمية الدينية تعصباً مزموماً، وأزالوا الفوارق والقيود التي فرضت على أهل الذمة (كالزي وركب المطايا وشرب الخمر بشكل علني الخ) وسمحوا للأوربيين بالتجول في دمشق بأزيائهم الأوربية، التي لم يعتد الدماشقة على رؤيتها من قبل في مدينتهم[٣].

وعندما كان هؤلاء يرون مسيحياً أو أوربياً يمتطي جواداً في المدينة يقولون: « لا إله إلا الله ومحمد رسول الله » تعبيراً منهم عن الغيظ، مما دفع بابراهيم باشا لوضع جنوده في شوارع

---

(١) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤/سنة ١٢٥٦ ــ ١٢٥٧هـ. ص٢٢.

2 - Russell .A. op.cit.VOL.2.P.114.

كانت مدينة دمشق أكثر حفاظاً من حلب في هذه الأمور. لهذا راعى الأجانب الأوربيون عدم الظهور في شوارعها بأزيائهم القومية الغربية، حتى أن القنصل الفرنسي كان يلبس لباس أهلها كي لا يثير نفور الأهلين، وعندما دخلها الشاعر الفرنسي لامارتين مع زوجته راعى أن يكون زيه مع زوجته مماثلاً لأزياء أبنائها.

(٣) انظر: العبد، حسن آغا. تاريخه. المقدمة، ص١٠٧. أول رسالة جامعية لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث من كلية آداب جامعة دمشق سنة ١٩٧٦م.

دمشق على بعد النظر بين الجندي والآخر، خوفاً من هياجهم واعتدائهم عليهم[1]. ومن جهة أخرى طلب ابراهيم باشا المصري من الأوربيين المرافقين لجيشه أن يحتفظوا بأزيائهم القومية المخالفة لأزياء أبناء دمشق كي يتعود الدماشقة على ذلك[2]. إلا أنه لم يهضم بسهولة من قبلهم وكان أمره عسيراً عليهم، واقتضى من المصريين تسكينهم بالقوة. وزاد في الطين بلة ترك أهل الذمة لقيود الثياب وتقليد المسلمين بثيابهم حتى خروج ابراهيم باشا من سورية سنة ١٨٤٠م/ ١٢٥٦ ـ ١٢٥٧هـ، وعندما استعاد العثمانيون دمشق بعد هذا التاريخ، قام متسلم الوالي العثماني الجديد بمعاقبة من تعاون من الدماشقة مع ابراهيم باشا المصري، وكان منهم (أغوات سابقون وتجار وعناصر من الروم الأرثوذكس والكاثوليك ويهود أو غيرهم). ثم حرم على النصارى اقتناء الجواري، ولف الشاش الأبيض على عماماتهم، وركوب الخيل وتقلد السلاح، إرضاء منه لشعور المسلمين في دمشق. وتعرض بعض المسيحيين، ممن لف شاشاً أبيض للاعتداء وبقي حالهم هكذا إلى أن أصدر السلطان عبد المجيد تنظيماته وتعهداته للدول الأوربية بإلغاء الفروق بين المسلمين وأهل الذمة. ونتيجة لذلك قام والي دمشق أحمد زكريا باشا بإرسال منادي في شوارع دمشق معلناً: «إن النصراني يقتني جواري ويلف لفة بيضاء، ويركب خيل ويشرب عرق وخمر، ويكون مثل أيام ابراهيم باشا وزيادة، ولا أحد يتعارضه بشيء من ذلك، وكل من يتعارض نصراني يترتب قصاصه، وصار فرح عظيم عند النصارى». إلا أن المسلمين لم يقبلوا ذلك بسهولة، ويقول صاحب مذكرات تاريخية «طهمز أهالي البلد على النصارى وصاروا أهل سوق السلاح كلما نظروا نصراني لافف لفة بيضاء يخربطوها له»[3]. مما دفع بالوالي العثماني للتصدي للمعتدين بحزم فأصدر أوامره «أن كل مسلم أياً كان يبدو منه أي تعدي على المتعمم بعمامة بيضة من الطائفة المسيحية ينال قصاصاً صارماً»[4].

وبدأت الأحداث المستجدة على الساحة الدولية العثمانية والدمشقية تؤثر على أزياء أبناء دمشق بشكل عام، وشملت شكل اللباس والتخفيف من مظاهره القديمة، فحل القنباز الطويل والشالة والزنار الحريري والطربوش الاسلامبولي، محل الثياب القديمة، وصغرت

1 - See: Douin .G. op.cit.P.202.

2 - Ibid. P.204.

(٣) مجهول: مذكرات تاريخية. ص١٣٨ و ص١٣٩.

(٤) مشاقة، ميخائيل. مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان. ص١٣٧.

العمامات، وحل قماش الأغباني محل الشاش الضخم على الطربوش، واختفت الطيلسانات الطويلة التي كانت تلبس فوق الثياب لتحل محلها البالطات. وبدأ القوم بحلق شعر الرأس وتشذيب اللحية وإرسال الشوارب. أما النساء فقد خففن بدورهن من ثيابهن القديمة، خاصة العمائم الكبيرة، ليحل محلها غطاء رأس مناسب من قماش رقيق وبقي الحجاب، إلا أنه قمن بتقليد الأزياء الافرنجية، وصرن يظهرن في كل يوم بزي جديد. ومع كل اجتهادهن في ذلك، لم يستطعن مجاراة الإفرنجيات في أزيائهن، وبدأن بنبذ الأقمشة الوطنية وبحسبان كل قماش غير موسوم بسمة افرنجية شيطاناً رجيماً[1] وتجلى ذلك بدءاً من النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

زي البـدو

لم يتغير زي البدو منذ أقدم العصور إلا بشكل بسيط. وعلى ذلك كان يختلف عن زي بعض الحواضر والمدن[2] ويتألف لباس البدو من قميص واسع طويل. وفوقه قميص أطول وأوسع حتى القدمين اسمه «الثوب»، وهو ثوب أبيض أو (ثوب مردون)، ذو أكمام عريضة طويلة فضفاضة مشقوقة تدعى (الردون جمع ردن). ولون الثوب أبيض أو ترابي مدبوغ بقشر الرمان في مدن الشام ونسيجه من القطن. وكلما كانت الردون طويلة دلت على عراقة لابسها في البداوة فردون (العنتري) أطول مما هي عند عربان الديرة. وإذا وقف لابسها وألقى يديه إلى جانبيه كاد ردنا ثوبه يمسان الأرض ولكنهما في الغالب يعقدان وراء الظهر.

أما السروال إن وجد فكان فضفاضاً؛ كما كان لدى عربان الديرة، شأن القرويين في (أطراف الغوطة وحوران)، أما البدو الأقحاح فلم يلبسوا سراويل قط، وربما عابوا لابسها (رجالهم ونساؤهم في ذلك سواء) ويزعمون أنها تحبس الهواء. وكان البدوي لا يغسل ثيابه إلا كل شهرين أو ثلاثة أشهر مرة، إذ ليس لديه غيرها. وقد يعود ذلك لندرة الماء في أغلب الأحيان خاصة من كان متوغلا في البادية.

ولبس البدوي فوق الثوب (الصاية) أو الزبون، وهو عبارة عن قنباز من القماش

(١) انظر: القساطلي، نعمان. الروضة الغناء في دمشق الفيحاء. ص١٢٦.

2 - Russell .A. op.cit.VOL.I.P.180.

الرقيق اللماع مفتوح من الأمام ومشقوق من أسفله على الجانبين . أما أكمامه وردونه فهي أقصر منها في الثوب . وله في كل جانب جيوب تدعى (مخبأ) . ولبس البدوي فوق الصاية زناراً وهو حزام من الصوف ، عرضه نحو عشرة سنتيمترات وطوله بقدر مايلف الخصر ، مرتين أو ثلاث مرات وهو أبيض أو أحمر ، وإذا كان مزدوجاً يسمح بوضع النقود وحفظها فاسمه (كمر) . وكان يلبس فوق الصاية (محازم) أو جنادات تمر من فوق الأكتاف من الجلد وفيها بيوت لوضع أشيائهم الصغيرة . وكانوا لا يرفعون هذه الجنادات عنهم أثناء النوم . وكان من عادة البدو أن يناموا (نساء ورجالاً) بثيابهم كلها[1] .

وبعض القبائل لم تعرف تمييزاً في زيها صيفاً أو شتاءً كعنزة وشمر . إلا أن الأغنياء منهم كانوا يلبسون عباءة رقيقة في الصيف يسمونها (مزوية) أو حسوية . وفي الشتاء يزيدون عليها كساءاً مبطناً أو جلداً من جلود الغنم المدبوغة يسمونه (فروة) أو صديرية . وكان البدوي يتدارك لباسه مخيطاً من البائع الشامي الذي كان يسمى (القبيسي) أو (الكبيسي) وكان هؤلاء البياعون يلتحقون بالعشائر ويبيعونها أكثر حاجياتها المجلوبة من دمشق وغيرها[2] عندما تغرب القبائل وتقترب من الحواضر .

وكان أمراء البدو يرتدون الشاش الأسود عندما يأتون إلى المدينة . وكان يتدلى إلى أسفل العنق من جانب واحد ، والعباءة العربية ، ثم القنباز ولكن ليس الضلمان أو الضلماية .

أما لباس رأس البدوي فكانت الحطة (الكوفية أو الشماخ) وهي من نسيج الحرير أو القطن مربعة الشكل محبوكة الحياكة ، مخططة بخيوط متسعة صفراء وحمراء ، وتبرم لحمتها من الحاشية إلى خيوط متينة وقصيرة ، وتطوى هذه الكوفية (الكفية) بشكل مثلث ، لتوضع على الرأس ، فيتدلى طرفاها على الكتفين أو أمامهما ، بينما يتدلى الطرف الثالث منها إلى الوراء ، ويلف فوقها العقال أو البريم ، بني اللون من وبر الجمال ، مبروماً ثلاثة أطواق على بعضها البعض .

---

(١) انظر : زكريا ، أحمد وصفي . عشائر الشام . ج١ ، ص٢٢٦ و ص٢٢٧ . دمشق سنة ١٩٤٥م .

(٢) زكريا : المصدر السابق . ص٢٢٦ . ثم الصايغ . المقترب في حوادث الحضر والعرب . ص٨آ و ص٨ب و ص٢١آ .

وكانت ترى من تحت الكفية ضفائر شعره المجدولة التي تتدلى حتى تصل إلى كتفيه ويعتبرها رمزاً للجمال والقوة والشباب، وكنت ترى اللحى مسترسلة والشوارب طليقة. وتأخذ اللحية شكل المثلث[1]، لا تغادر الكوفية رأس البدوي صيفاً أو شتاءً. فهي تقيه حر الهاجرة صيفاً وقارص البرد شتاءً، ويغطي بها وجهه عندما تهب الريح فتثير الغبار[2].

أما لباس القدمين فكان الخف أو الشاروخ (النعل)، وهذا الحذاء يلائم طبيعة الأرض الطرية المرملة والحارة، لذا فإن أحسن حذاء لديه ماكان يوفر الآتي:

١ ــ أن يكون مستوياً وعريضاً ليتفادى الغروز في الرمال الطرية، لهذا لم يكن له كعبان.

٢ ــ وماكان مفتوحاً من الجوانب، بحيث يسمح بخروج حبات الرمال، إذا ماتسربت تحت القدم، ويوفر عدم انحباس الهواء في قدميه.

٣ ــ أن يوفر ثباتاً في القدم يساعد على الحركة والركض والعمل، وهذا مايوفره الخف، فكان ذا أشرطة جلدية ضيقة في أسفل النعل تربط بالقدم بواسطة إبزيم. وهذا النوع من الأحذية قديم في تاريخ منطقتنا، لا بل أقدم الأنواع على الإطلاق، استعملته النساء بالإضافة إلى رجال البدو.

ولبس البدوي في البرد القارس الجورب من الصوف وكان مكوناً من قطعتين: الساق الطويلة والقدم وكانت الساق عبارة عن أسطوانة صوفية تغطي ساق البدوي من الكاحل حتى مادون الركبة. أما القطعة الثانية فكانت تغطي كامل القدم. وكانت تقوم بغزل الصوف البدويات بواسطة مغزل خشبي طويل، ثم يقمن بعد ذلك بنسجه بعيدان محلية، ويطلق على لباس القدمين اسم (القلاشين).

وكان البدو رجالاً ونساء يرتدون في الشتاء الموحل حذاء أسود بعنق يصل إلى ماتحت الركبة، ودون أشرطة. وكان يشاركهم في لبسه فلاحو المرج شرقي الغوطة. وكان أصفر اللون به طرة ضخمة زرقاء، تثبت على وجه الحذاء، وكان هذا النوع رقيقاً يرتفع قليلاً إلى العلاء. على

---

(١) انظر: فريزر، جيمس. رحلة فريزر إلى بغداد. ص٨٩ و ص٩٠.

(٢) حمامي. حسن. المرجع السابق. ص٢٣٨.

أن بعض البدو الفقراء كانوا يسيرون حفاة القدمين حتى تمسي أقدامهم قاسية الأديم بحيث لا تؤثر فيها حصا الطرق ولا لسعات الرمال الحارة أو لدغات الحيّـات والعقارب[1].

زي البـدويـة

كانت المرأة البدوية ترتدي الجلباب المصنوع من القطن بلونه الأسمر أو الأسود أو الأزرق أو النيلي، وكان الثوب طويلاً لدرجة كانت تسحبه البدوية على الأرض حين تسير. وتشد فوقه على وسطها زناراً من الصوف يسمى (الشويحي) وأحياناً تشد على وسطها (الكمر) وهو بلون أحمر، وتلبس الفتاة البدوية (دراعة جوخ) زرقاء اللون أو سوداء قصيرة الكمين.

أما لباس رأسها فسمي (بالمقرونة)، وهي تقابل كوفية الرجال إلا أنها أوسع منها. وهي من الحرير الأسود، وأطرافها ملونة، وذات أهداب سوداء، تجعلها بشكل عمامة وتدعى (العصبة) أو القمطة، وتلبسها تحت الشنبر، وهو ضرب من المناديل الملونة تضعه في مؤخرة الرأس ليظهر من بين قطعتي القماش قسماً من خصال الشعر. وتعقد المقرونة وراء الرأس وهذا عند عنزة، أما فتيات عربان الديرة فلم يلبسن الشمبر (الشنبر) بل وضعن على رؤوسهن كوفية أو مقرونة دون أن يدورنها بشكل عصبة (الشنبر)، وكانت من القطن أو الحرير الرقيق، وكن يلبسنها على رؤوسهن بشكل قمطة، فتتدلى ذات اليمين وذات الشمال على الصدر وعلى الظهر. وكن يتمنطقن بكمر يضعن فيه نقودهن، ويلبسن الحراير والقمصان في بعض المناسبات، بالإضافة إلى بعض الحلي من المرجان والخرز والسوارات في أيديهن[2] وكان أكثرهن يمشين حافيات[3]، أما في فصل الشتاء فكن يلبسن الجزمة أو الزربول وهو من الجلد الأصفر أو الأحمر، له من الأمام هدبات زرقاء متدلية وفي نعله مسامير ضخمة. ولثقله كن يزحفن به زحفاً، ويحدثن به قرقعة خاصة، إذا سرن في شوارع المدينة[4].

وحين العمل كانت البدوية تلبس ثوباً مخصوصاً يسمى (قب) وهو القباء بلون

---

(١) حمامي. المرجع السابق. ص٢٤٢ و ص٢٤٣ و ص٢٤٧.

(٢) انظر: الصايغ. المقترب في حوادث الحضر والعرب. ص٨ب.

3 - See: Volney .C.F. op.cit.P.282.

(٤) انظر: زكريا، أحمد وصفي. المرجع السابق. ج١، ص٢٢٩ و ص٢٣٠.

أصفر ، وهو كالثوب إلا أن أكمامه أقصر ولونه أخضر ثم يسود ويتلون بسرعة . وكانت بعض البدويات يدخنّ بالغليون الذي يصنعه الرعاة من الطين[1] .

ولقد استخدمت المرأة البدوية آنئذ طرقاً عديدة في تزيين نفسها . فكان منها الحلي والمصاغ والوشم[2] والحناء وغيرها ، فاستخدمت المصاغ لتزيين أنفها (الخزام) وصدرها ونحرها (القلادات) أو أذنيها (الحلق) أو ساعديها (الأساور) وعضدها وكاحليها (الخلاخل) أو أصابع يديها (الخواتم) ، وكانت تلك الحلي من الفضة والخرز والزجاج الملون والذهب وغيره .

وأكثر ماكان يسترعي انتباهنا في حليها ، خزام أنفها ، حيث كانت تثقبه من جهة اليمين لتضع فيه حلقة بقدر ١٫٥ بوصة ، وصيغ الخزام من معدن الرصاص أو النحاس أو التوتياء لدى فقيرات البدو ، ولقد اتسعت حلقة الخزام حتى وصل قطرها من الأنف إلى شفة الفم ، وكانت تعتبر كياسة كبيرة من الزوج البدوي عندما يقبل زوجته من خلال تلك الحلقة (الخزام) .

ولقد لعب القبيسي دوراً في تزويد البدويات بحاجاتهن من الحلي (الفضية والزجاجية والكهرمان أو الخرز البندقي) وغيرها من الحاجات . وكانت المرأة البدوية تجدل شعرها في ضفائر . أما البدويات اللواتي اضطرتهن ظروف الحياة للعمل في المدن وداخل الحرملك ، فكن يقلدن سيداتهن في أزيائهن ولا يلوّن شفاههن كما لا يستخدمن الخزام في الأنف ، ويلبسن الكتان الخاص الأنيق والحذاء الأصفر أو البابوج ، ولا يخرجن من البيت إلى الشارع إلا محجبات . واحتفظن بأزيائهن البدوية ، كالثوب الأزرق والمقرونة ، والأخيرة استخدمنها في حجب الوجه بزاوية بحيث يتم حجب الفم والأنف ، واستخدم بعضهن (قناعاً) حجاباً صغيراً من الكتاب ، كن يرمينه ملتصقاً فوق الرأس ، ونادراً مايرين داخل المدينة حافيات شأن نساء البادية[3]

---

(١) انظر : زكريا . المرجع السابق . ص٢٣ .

(٢) استخدمت الإبر في الرشم فرادي أو مجموعة ، بحيث يتم رسم شكل ما على الجلد المطلوب وشمه ، ثم يثقب هذا الرسم بالإبرة أو بمجموعة إبر ، ويرشون بعد ذلك على الجلد المثقب مسحوقاً معيناً فيتحول إلى اللون الأزرق ، كما كان يرى آنئذ لدى البحارة الانكليز وعامة الشعب البريطاني . See: Russell.A.op.cit. VOL.1.P.162

3 - Ibid .P.164.

القماش والفراء

صنعت ثياب الدماشقة من أنسجة مختلفة محلية ومستوردة، وزركشت وطرزت بالخيوط برسوم مختلفة، وبطنت بفراء الحيوانات. وقام بتفصيلها وإخاطتها أصحابها ممن يعرفون الخياطة، أو دفعت إلى الخياطين المختصين، واستخدم هؤلاء في ذلك المقص والهنداسة والإبرة والكشتبان والدف الأملس[1].

وكانت الأقمشة الحريرية تنسج في دمشق وبعض المدن الشامية «كحماه وحمص وبعلبك وصيدا واللد والقدس[2] ونابلس[3] وطرابلس وغيرها» ومن الأقمشة ماستورد بواسطة قوافل تجارة العراق أو الحج من (اليمن ومصر والمغرب)[4] والعراق. ومنها ماكان يؤتي به من كرمان[5] واستانبول[6] أو من بعض مدن الأناضول، ومن خارج الامبراطورية العثمانية كبلاد فارس[7] والهند[8] وانكلترا[9] وفرنسا[10].

---

(١) انظر: القاسمي. المصدر السابق. ج١. ص١٣٠ و ص١٤٤.

(٢) المؤتمر الدولي الثاني لبلاد الشام. ج١. ص٥٠ جامعة دمشق كلية الآداب ١٩٧٨م ويذكر هذا المرجع أن الأوربيين تنافسوا على استيراد النسيج البعلبكي والخام والحموي والديمة ونسيج الجبل... من أواخر القرن السابع عشر.

(٣) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٩٩/ص٧٤.

(٤) الديما المغربية. انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤/ص٤٠.

(٥) العنتري الكرماني. انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩/ص٢٢٨. ثم الشال الكرماني والشالة الكرماني المقلمة. انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤/ص٢ و ص٤.

(٦) الزنار الاسلامبولي. انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢١٥/ص١٠ و ص٩١. ثم الجيكان الكزي والعنتري والصرتي. انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩/ص١٩٦ ثم ص١٨٨.

(٧) الشالة العجمية: انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩/ص٢٢٨ و ص٢١٧.

(٨) الثوب الهندي. انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢١٥/ص٩٥ و ص١٠ تركة السيد محمود أفندي بن الدرويش. ثم العنتري الهندي والطاقية الهندية انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤/ص٢٢. تركة الخواجة موسى بن شحادة الفارحي اليهودي. ثم اللفات الهندية. سجل القسمة العسكرية رقم ٢٩٩/ص٢٤١. ثم بطانات هندية، المصدر السابق. ص٢٣٩. ثم الكرمسوت (الحرير الهندي). انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢١٥ و ص٧٧ و ص٧٨.

(٩) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤/ص١١.

(١٠) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩/ص٢٢٠ و ص٢٢٨. ثم أثواب افرنجية بيضاء. انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩/ص١٧٤.

وصنعت الأقمشة آنئذ من خيوط القطن أو الكتان أو الصوف أو الحرير أو وبر الجمال أو الماعز أو ذيول الخيل. وقصب بعضها بخيوط الذهب والفضة. أو كانت خليطاً وبنسب معينة من بعض هذه الخيوط لسد حاجة معينة. ويذكر ابن طولون (١) أن في عهده كان ألف نوع من الحيّاك، إلا أنه لم يذكر إلا خمسة عشر نوعاً منهم في دمشق وغيرها، فكان منهم: حياكو القطن الذين ينسجون البطاين واشتهر في ذلك أهل بعلبك، ثم النسيج الرفيع واشتهر به أهل الموصل، والثياب الملونة واشتهر بها أهل الكرك، والعمائم والأزر واللحف واشتهر به أهل اليمن. والكتان الأبيض الذي اشتهرت به مصر، وكان منه الكتان الأزرق والحصف والملون كالظهور والكتان مع الحرير (التفاصيل)(٢).

وكانت الالاجة من أهم الأقمشة التي دخلت في ثياب الدماشقة آنئذ، وصنعت من الحرير والقطن، وحيكت بأشكال مختلفة، فكان منها الهندية والقطنية والمصرية والكمخة والمثمنة والمسننة والعطافية، وسميت القطعة منها اسم (صاية آلاجة) وهي ماكان لها بريق ولمعان كالأمواج(٣)، ولقد راج نسيجها نظراً لاستخدامه في ثياب الرجال والنساء في دمشق على حد سواء، وانتشرت أنواله في الصالحية(٤) والخانات التي تقع داخل دمشق وخارج أسوارها وحي الشاغور البراني والقبيبات وغيرها(٥).

ثم صاية الديما المصنوعة من القطن، وكانت بأقلام صفراء وحمراء أو صفراء وبيضاء، وكانت الصاية أنواعاً منها المصرية والهندية والعثمانية وغير ذلك(٦). ولقد استخدم الدماشقة أقمشة مصنوعة من خيوط الحرير والكتان أو الحرير المقصب بخيوط الذهب أو الفضة، ويذكر ابن طولون أصنافاً منها مثل «عمل الدار ــ والهرمزي ــ والرش ــ والنيل

---

(١) انظر: ضوء السراج فيما قيل في النساج، وثيقة قدمتها الدكتورة ليلى الصباغ إلى المؤتمر الثاني لتاريخ بلاد الشام. ج١. ص٣٥ إلى ص٩٤.

(٢) الصباغ، ليلى. مؤتمر بلاد الشام الثاني. ج١. ص٤١ ومابعدها.

(٣) القاسمي. المصدر السابق. ج١، ص٣٩.

(٤) انظر: الصباغ، ليلى: المرجع السابق. ج١. ص٣٩.

(٥) انظر: بسجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٧ / ١٢٢١ ــ ١٢٢٢هـ/ص٨٥ و ص٢١٩ و ص٣٠٦ و ص٣٠٧ و ص٣١٤.

(٦) انظر: حمامي، حسن. المرجع السابق، ص٢٧٤.

والنجيل»[1]. إلا أننا لم نقع على ذكر لها في كتب التاريخ وسجلات محاكم دمشق المختلفة في هذه الفترة، وربما يعود ذلك لبطلانها أو تغيير تسمياتها[2]، وكانت الأقمشة الحريرية بألوان مختلفة «فمنها الأحمر والأصفر ــ والكرازي ــ والأبيض ــ والذهبي ــ والبردقاني ــ والكحلي ــ واللازوردي ــ وماشاكلها من الأشكال حسب طلب معلم الحرير وهي حرفة رائجة»[3] رغم أن عدداً من رجال الدين المسيحيين والمسلمين وحتى الولاة حاولوا منعها[4]، لاعتقادهم بأن لبسها مذموم فيقول ابن طولون: «إن لبس الحرير قاصر النفع لأنه من أمور النساء. وثانيهما أن صنعة حيّاكه تحتاج إلى صبي يخلون به ويغلقون عليه الباب وتبقى سيقانه عند رأسه وهذا أمر محرم بلا ريب»[5]. وصنعت من الحرير ثياب مختلفة كالزنانير (الحمصية والطرابلسية والحموية) والعنتري المقصب والعبيدية الحرير. والجيكان. والقمصان[6] والطاقيات وبغض العمائم. ولقد وجد في دمشق بعض الحرفيين الذين يقومون بالرسم على ثياب الحرير وسمي عملهم بـ (التطريز)، وقصب الحرير بخيوط الذهب أو الفضة وغيرها وسمي القماش (بالصرمة)[7].

أما الأقمشة الصوفية. فكان غالبها يستورد من بلاد الإفرنج، حيث كانت صناعة النسيج الرئيسة في أوربا، واشتهرت بها البندقية حتى منتصف القرن التاسع عشر، ثم نافستها في ذلك إنكلترا وهولندا ــ وصنعت أقمشة الصوف في بلاد الروم وآسيا الصغرى، وكان الأتراك العثمانيون أصحاب هذه الصناعة، وكانت تجلب من بلادهم إلى دمشق، وسمي هذا

---

(١) الصباغ، ليلى. المرجع السابق. ج١، ص٤٢.

(٢) طاقية قصب حلبية. انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤/١٢٥٦ ــ ١٢٥٨هـ/ص٢٢.

(٣) القاسمي. المصدر السابق. ج٢، ص٢٦٧.

(٤) انظر: مجهول. تاريخ حوادث الشام ولبنان. ص٢٣ و ص٢٤. حيث قام والي دمشق الكنج يوسف باشا بمنع لبس المقصب وذلك في عام ١٢١١هـ/١٧٩٩م.

(٥) الصباغ، ليلى. المرجع السابق. ج١. ص٤٣.

(٦) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤/ص٢ و ص٢٥. زنار حمصي حرير. والعنتري المقصب. ثم انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩/١٢٣٧هـ، ص١٨٥ و ص١٨٦. ص١٩٥ و ص١٩٦. أما القميص فهذا نوع من الألبسة يرتدى فوق السروال وقد يكون طويلاً ويصل إلى الركبة أو قصيراً فيمتد إلى الخصر أو مابعده بقليل. انظر: DOZY. P.371.

(٧) القاسمي. المصدر السابق. ج١، ص١٥٤.

النوع (بالمختم)، ووجد نوع آخر منه في **دمشق سمي** (بالمغربي) وكان يصنع من الصوف والحرير، ويبدو أنه جاء من المغرب أو نقل صناعته بعض المغاربة الذين استقروا في دمشق[1].

أما قماش الجوخ فكان كالقماش الصوفي يعمل في بلاد الإفرنج والروم. ويقول بن طولون أنه «رأى في دمشق من يقلد حياكة الجوخ من مادة القطن.. ولكنه ليس في حسن الجوخ وماويته»[2]. وكان الصوف الملون يطرز كالحرير وسمي آنئذ (بالكناويشا)[3]. واستخدمت الإبرة والسنارة في تطريز الثياب من الداخل والظاهر[4].

واستوردت دمشق النيل من أوربا عن طريق ميناء صيدا، حيث أقام فيها بعض التجار الأوربيين الذين كانوا يستوردونه من أوربا، ويصدرونه إلى تجار دمشق، ويقوم هؤلاء ببيعه إلى الدماشقة فمثلاً في سنة ١١٩٠هـ كان «عبد الرحيم بشة بن أحمد آغا عبد الرحيم وكيلاً في دمشق للخواجة لويزو الذمي الإفرنجي المقيم بمدينة صيدا، وكان يتزود منه بالجوخ والنيل»[5]. أما أقمشة الكتان فكان منها المجوز وهو أنواع، كأثواب الكركي والمحازم الكتانية وأثواب الشيب الأسيوطي والقماش البلدي والمناديل والشاشات الشامية وغيرها[6] ثم شاش الاوز وقمصان الاوز[7]، وعنتري الاوز وجدوال الاوز[8]، ثم قماش المارنوس المخملي واليمني والثوب الهمايون وشقق مضام وشقق مناديل[9].

---

(١) انظر: سجل محكمة حماه رقم ١/ص١٦٠ و ص١٧٥. القضية رقم ٤٧١ ورقم ٤٩٠.

(٢) الصباغ، ليلى. المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام. ج١، ص٤٢. والجوخ كلمة تركية عربت وأصلها جوقة وتعني نسيج صوفي. ويبدو أن هذا النسيج الذي كان يصنع في أوربا لم يرحب به المشارقة لأول وهلة ومن المعلوم أن البندقية مصدره الأول أما الثاني فكان إنكلترا وهولندا. انظر: المصدر نفسه. ص٥٩ و ص٦٠.

(٣) القاسمي. المصدر السابق. ج١، ص١٥٤.

(٤) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢١٥/ص٩٥.

(٥) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٠١/١١٩٠ ــ ١١٩٢هـ، ص٢٣ القضية رقم ٦٢ تاريخ ١٣ ذي الحجة سنة ١١٩٠هـ.

(٦) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦/ص٣٣٧ القضية رقم ٦٩٢.

(٧) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤/ص٤.

(٨) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩/ص١٨٤ و ص١٩٦.

(٩) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩/ص٨٦.

وكان الشال أنواعاً ، فمنه الغراماش والسليمي والكرماني والكرماني المقلم[١] والخراساني[٢] وشال الكنار[٣] والشال الانكليزي والافرنسي[٤] وماشاكله من الشال الفاخر ، ولقد كانت هذه الصنعة رائجة آنئذ في دمشق نظراً لكثرة الرغبة فيه في الشام . ولكن مع الزمن قل راغبوه سيما وقد قلدوه بالشال المعروف بالشال شغل الشام ، كالبزري[٥] والشال التقليد الأغباني[٦] وهو بالنسبة للشال القديم بخس جداً[٧] .

وبرز في هذه الفترة نوع من النسيج سمي بالكركي أو الكريكي وشرحه (DOZY) بأنه نوع من الحرير ، تصنع منه الفرجية ، ومن المرجح أنه صنع في الكرك من جبل لبنان التي تقع بالقرب من بعلبك ، التي كانت آنئذ مركزاً لنسيج القطن . أو في كرك الأردن التي كانت تقع على طريق قوافل التجارة والحج . ولقربها من وادي الأردن الذي يزودها بصباغ النيلج[٨] .

أما الفراء : فعادة لبسه قديمة جداً في مدينة دمشق[٩] ، وكانت منه أنواع كثيرة . كفرو السمور والألا وهو أعلى أنواعه ، والسمور الأحمر والسنجاب والقاقوم وهو الأوسط والأبيض والسلوا وهو الأدنى[١٠] ، ثم فرو القط الأسود والنمس والناقة والذرداوة[١١] وفراء تقليد (يلنجتي) وسطرنجي[١٢] ، ثم فروة الغنم الناعم التي كان يصنعها الفراؤون ويستخدمونها ذوو اليسار

---

(١) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤ / ص٢ .

(٢) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩ / ص٢٠٦ .

(٣) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤ / ص٢٢ .

(٤) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩ / ص١٢٦ و ص١٦٠ و ص٢٢٨ . ثم سجلها رقم ٣٦٥ / ص٣٠ .

(٥) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢١٥ / ص٥ .

(٦) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤ / ص٤٠ .

(٧) القاسمي . المصدر السابق . ج٢ ، ص٢٤٨ .

(٨) الصباغ ، ليلى . المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام . ج١ ، ص٦٢ .

(٩) انظر : سامي ، عبد الرحمن بك . القول الحق في بيروت ودمشق ، ص٧٩ .

(١٠) القاسمي . المصدر السابق . ج٢ ، ص٣٣٨ .

(١١) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩ / ٢٤٣ و ص٢١٧ . ثم سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢١٥ / ص٣٠ و ص٢٢٧ .

(١٢) سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢١٥ / ص٢٢٧ .

خرجوا إلى قراهم، وغالب المتوسطين كانوا يلبسونها داخل البلدة، ثم الصنف الثاني من الفراء شعره طويل أحمر أو أبيض وكان يعني بلبسه أهل القرى والبدو[1].

وكانت عادة أصحاب صنعة الفراء أن يسافروا في أواخر الشتاء إلى البلاد التي يوجد بها أصناف الفراء لشرائه وإخاطته بشكل مناسب، ويشكلون كل قطعة كبيرة بطول ٥ر١ ذراعاً وبعرض ١٥ر١ ذراعاً، وتكون أكبر أو أصغر من ذلك، ويطلق على هذه القطعة اسم (شقة)، ويأتون بهذا الفرو في فصل الخريف لبيعه، وكانت تصل قيمة الفروة النفيسة التي هي من خالص الألما أو السمور خمسين ذهباً[2]، في حين تطالعنا سجلات محاكم دمشق بأسعار بعض الفراء المستعمل آنئذ، فمثلاً في سنة ١١٩٩هـ كان سعر فروة القط الأسود المستعملة ٤٢ قرشاً وفروة الزرداوة ٣٠ قرشاً وفروة يلنجي ١٣ قرشاً وفروة سطرجي ٤٠ قرشاً[3].

ومن جهة أخرى فقد لعبت شدة البرد في دمشق دوراً في رواج سوق الفراء، وكلما خفت البرودة كسد سوقه. وأسهمت الظروف الاقتصادية التي أحاطت بدمشق في هذه الفترة دوراً في ارتفاع أسعاره وندرة وجوده، مما أدى إلى إقلاع عدد كبير من متوسطي الحال عن اقتنائه وأصبح اقتناء الجيد منه وقفاً على الفئة الميسورة دون غيرها.

ونلاحظ ذلك من خلال إطلاعنا على تركات المتوفين في دمشق. حيث أصبح لبس فراء السمور يميز به الأغنياء والمتنفذون، وأصبحوا يتباهون بلبسه ويتفاخرون[4].

وبقيام الثورة الصناعية في أوربا في أواخر القرن الثامن عشر، واستخدام الأوربيين لطاقة البخار بديلاً عن طاقة الانسان والحيوان في صناعة النسيج. أدى ذلك إلى ضرب معظم الأنوال النسيجية في الأقاليم العثمانية ومنها بلاد الشام[5]، واستطاعت صناعة النسيج الأوربية

---

(١) القاسمي. المصدر السابق. ج٢، ص٣٤٢.

(٢) انظر: القاسمي. المصدر السابق. ج٢، ص٣٣٩.

(٣) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢١٥/١١٩٧ ــ ١٢٠٠هـ. ص٢٢٧ تسعير تركة قادن بنت أحمد أفندي البهنسي المتوفاة بدمشق سنة ١١٩٩هـ.

(٤) انظر: جبري، شفيق، مقالته تحت عنوان (بيت القهوة). مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ــ المجلد ٤٢/ص٣٧٥ ربيع الأول ١٣٨٧هـ/تموز (يوليو) ١٩٦٧م.

(٥) يقول ألفرد وود: دخلت موانىء بلاد الشام في طور جديد إثر قيام الثورة الصناعية في أوربا التي اعتمدت ←

أن تكتسح الأسواق الشامية بإنتاجها النسيجي المتفوق على مايصنع منه في دمشق وبلاد الشام، من حيث اتقانه وصباغه ورخص أثمانه وارضائه لأذواق المستهلكين، فتكدست منه كميات كبيرة في أسواق الشرق وشمال أفريقيا. وبقيت دمشق صامدة في وجه هذه الموجة إلى دخول ابراهيم باشا المصري، الذي مكّن القناصل الأوربيين من دخول دمشق. وبدأ هؤلاء، بعد رفع القيود عن أهل الذمة، بالاتفاق مع التجار منهم لإدخال البضائع الأوربية، فحلت محل البضائع الدمشقية والمحلية، وبدأ هؤلاء يقلدون الأوربيين في أزيائهم، وتغيرت طبيعة العلاقات الاقتصادية وأدت بدورها إلى الأزمات السياسية التي انفجرت في أحداث سنة ١٨٦٠م في لبنان ودمشق، واعتبر المسيحيون مسؤولون عما أصاب دمشق من خراب اقتصادي.

على طاقة البخار فتبدلت طبيعة الحركة التجارية فيها فأصبحت بريطانيا تنهج طريقة جديدة في تجارتها فلم تعد تأخذ كالسابق كل البضائع المكدسة في الموانىء الشامية. بل أصبحت تستورد ماتحتاجه من المواد الأولية الصالحة لصناعتها وتقدم مقابل ذلك المواد النسيجية والقطنية. ففي سنة ١٧٨٠م كانت قيمة بضائع بريطانية القطنية المصدرة إلى الشرق ٣٣٥٫٠٦ جنيها ارتفعت إلى ١٫٨٧٥٫٠٤٦ جنيها ثم ارتفعت إلى أكثر من سبعة ملايين جنيها سنة ١٨٠١م وفي سنة ١٨٥٥ وصلت إلى ٣٠٫٧٩٥٫٠٠٠ جنيها وكانت بضائعها رخيصة ومتينة وخفيفة ولونها ثابت الصباغ وبهيج، صممت خصيصاً لترضي أذواق الشرقيين، كانسة من طريقها البضائع المصنوعة محلياً، وبلغت درجة عالية من الاتقان، ويقول القنصل الفرنسي دروفيتي في تقريره لحكومته والمؤرخ سنة ١٨١٢م «إن كل مخازن ومستودعات آسيا وإفريقيا قد امتلأت بالبضائع الانكليزية الرخيصة».

See: Wood .A.A. hisrory of Levant company. PP.188,189,190,192,193. London. 1935.

الفصل السادس

الأفــراح والأتــراح والتسليّــة

ـ الأعياد وطقوسها في دمشق

١ً ـ أعياد المسلمين واحتفالاتهم الدينية

آ ـ تقاليد دمشق في عاشوراء

ب ـ الاحتفال بالمولد النبوي

ج ـ مراسم المدارس في الأعياد

د ـ مراسم الختام

هـ ـ مراسم الختان

و ـ دور الطرق الصوفية في الاحتفالات الدينية

ز ـ الاحتفالات بتوديع واستقبال قافلة الحج الشامي

١ً ـ موكب الزيت والشموع

٢ً ـ موكب المحمل والصنجق

٣ً ـ موكب قافلة الحج

٤ً ـ استقبال قافلة الحج

٢ً ـ أعياد أهل الذمة في دمشق

ـ المواكب والاحتفالات الرسمية في دمشق

١ً ـ الاحتفالات بالمناسبات السلطانية

آ ـ الاحتفال بتنصيب سلطان جديد

ب ـ الاحتفال بولادة الأمراء والأميرات

ج ـ الاحتفال بختان أبناء السلاطين

٢ً ـ استقبال الصدور العظام والولاة وضيوف الوالي.

٣ً ـ استقبال قاضي القضاة والمتسلم والمفتين وأغوات الإنكشارية.

ـ الاحتفالات بالمناسبات العسكرية المختلفة

ـ الأفراح في دمشق وريفها

آ ـ أعراس دمشق

ب ـ أعراس الريف

ج ـ أعراس البدو

د ـ أعراس أهل الذمة في دمشق

ـ الأتراح لدى مسلمي دمشق

ـ مآتم أهل الذمة في دمشق

ـ الولع بالموسيقى والغناء

ـ الألعاب وتمضية الوقت : الحاوي، ألعاب الخفة والبهلوانية، الخمسان والسيران

ـ شرب المنبهات والتدخين والمسكرات والمخدرات

ـ نتائج البحث العلمية

الأعياد وطقوسها في دمشق

تعددت أعياد دمشق بتعدد طوائفها، وكان لكل طائفة فيها عاداتها وتقاليدها وطقوسها الخاصة بها، تمارسها بحسب العيد وأهميته الدينية. وسنحاول فيما يلي رصد هذه الأعياد وطقوسها الدينية ومظاهرها الاجتماعية، كما سنرصد قدر الامكان انعكاس التغيرات عليها في هذه الفترة، وسنتناول مظاهرها بالبحث بحسب أهمية الشرائح الاجتماعية آنئذ من جهة، وبحسب أهمية تلك الأعياد لديها من جهة أخرى.

١ ــ أعياد المسلمين واحتفالاتهم الدينية

كان في دمشق فئتان من المسلمين، أولاهما فرقة السنة والثانية فرقة الشيعة. ورغم اشتراكهما في الأعياد الدينية الرئيسة إلا أننا نلاحظ فرقاً بينهما في تركيز إحداهما على عيد أو مناسبة، في حين لا نرى لدى الأخرى، كشهر محرم، والاحتفال بعاشوراء.

وأهم الأعياد المشتركة والرئيسة هي: الاحتفال بقدوم شهر رمضان، ثم الاحتفال بعيد الفطر (العيد الصغير) ثم الاحتفال بعيد النحر أو الأضحى أو الأضحية (العيد الكبير). وهناك أعياد أخرى كالاحتفال بشهر محرم الحرام وليلة النصف من شعبان وليلة المعراج الشريف، وعاشوراء ووجدت مناسبات دينية مختلفة ليست أعياداً دينية، ولكن الاحتفال بها

شابه الأعياد الدينية ، لا بل فاقها في بعض مظاهره . كتوديع واستقبال قافلة الحج الشامي ، ثم تطبيق السنة في الختان ، وإيفاء النذور وغيرها كما سنرى .

وسنرصد فيما يلي مظاهر الاحتفال بتلك الأعياد في فترة دراستنا ، ومدى الاهتمام الذي أولته السلطات العثمانية لتلك المظاهر ، وسبب ذلك :

شهر رمضان وعيد الفطر

اهتمت الدولة العثمانية بالأعياد الدينية ، وسعت لاظهار الاحتفالات بمظهر يتناسب مع قدر هذه الأعياد في نفوس المسلمين ، خاصة وأن ذلك كان يظهرها بمظهر الحامي لحمى الشريعة الإسلامية والدين الحنيف ، في وقت كان للدين تأثيره الكبير على النفوس . ولا غرابة ذلك إذا ماعلمنا أن الدين هو الرابطة الوحيدة التي كانت تربط دمشق بالدولة العثمانية .

أولت الدولة العثمانية أهمية كبيرة للإحتفالات بشهر رمضان ورجب وشعبان ، وهي الأشهر الفضيلة لدى المسلمين . وكثيراً ماكان عدد كبير من المسلمين يصومون هذه الأشهر كلها . فيبدأون صيامهم من شهر رجب الفرد لأنه وحده المنفصل عن الأشهر الحرم[1] . وفي شهر رجب يومان مقدسان هما (جمعة رجب وليلة المعراج) التي عرج فيها الرسول الأعظم إلى السماء ، وكان مسلمو دمشق في جمعة رجب يقصدون الصالحية من سائر جهاتها ، ومن القرى المجاورة بهدف زيارة الأماكن المقدسة فيها كأضرحة الأنبياء والأولياء والصالحين . وكان ذلك يتم قبل صلاة الظهر من ذلك اليوم فيتسلقون جبل قاسيون ويزورون الكهف والأربعين والجوعية وذا الكفل عليه السلام ، وبقية مراقد الصالحين . ومنهم من يعمد بعد زيارته تلك إلى زيارة مسجد الحنابلة « المسجد المظفري » فيقف أمام بابه الغربي ويقرأ

---

(١) الأشهر الحرم : ذو القعدة ـــ ذو الحجة ـــ محرم ـــ رجب . وكانت هذه الأشهر معروفة في الجاهلية ولها تقاليدها في علاقات الناس الاجتماعية والسياسية ولقد احترمها الإسلام . وأهم المواسم والأعياد الإسلامية : بدء صوم رمضان ورمضان وليلة القدر في ٢٧ رمضان وختام الصوم وفيه وقفة عيد الفطر في ٣٠ رمضان ، ثم عيد الفطر في ١ شوال ، ثم آخر أيام عيد الفطر في ٣ شوال ، ثم وقفة عيد الأضحى والوقوف في عرفات في ٩ ذي الحجة ، ثم عيد الأضحى في ١٠ ذي الحجة ، ثم عيد رأس السنة الهجرية في ١ محرم ، ثم يوم عاشوراء في ١٠ محرم ، وعيد المولد النبوي في ١٢ ربيع الأول ، ثم ليلة الإسراء والمعراج في ٢٦ رجب . انظر : جريدة البشير . ص٣٩ . بيروت ، لبنان . المطبعة اليسوعية . ١ أيلول ١٩٣٢م .

ماتيسر من آيات الله ويوهب ذلك إلى الأنبياء وأرواح الصالحين . ومنهم من يضرب حلقة الباب كناية عن الطلب ليحظو بالإجابة ويذكر أثناء ذلك حاجته كائنة ماكانت[1] .

أما الاحتفال بليلة المعراج الشريف والتي تقع في السادس والعشرين من رجب ، فكان المسلمون يجتمعون في هذا اليوم في المساجد والدور لسماع قصة المعراج الشريف ، ويصغون إليها باحترام ويتذكرون مابها ماعملوا من شر فيرجعون إلى الله تائبين ... ويزورون موتاهم ويتصدقون على أرواحهم[2] .

وكان المسلمون يحتفلون بليلة النصف من شعبان ، فكانوا يراقبون الهلال وغالباً مايصومون سحابة نهار ذلك اليوم وبعد صلاة المغرب يجلسون في المساجد أو في بيوتهم مع عائلاتهم ، لقراءة دعاء النصف من شعبان ويباشرون مراسم الاحتفال بها على الصورة التالية : فإذا كان الاحتفال بها في المساجد يلتف المسلمون حول الإمام ويوكل لأحد القراء سورة (يس) . وبعد الانتهاء من التلاوة سراً يباشر بالدعاء ، وإذا انتهى من قراءتها أشار الإمام بقراءتها ثانية ثم ثالثة ، فالمرة الأولى بنية طول العمر ، والثانية بنية دفع البلاء ، والثالثة بنية الاستغناء عن الاستجداء . وكان بعض المسلمين يحيون هذه الليلة في المساجد والكهوف والأماكن المقدسة من الصالحية ، وتوزع الحلوى الغريبة[3] بهذه المناسبة .

وأقامت دمشق مراسم للاحتفال بشهر رمضان المبارك ، وكان لها تقاليدها الموروثة في هذا المجال ، وكانت تبدأ بأثبات شهر رمضان ، فإذا ماكانت ليلة الثلاثين من شعبان ، جلس القضاة والعلماء والوجهاء في المحكمة خلال الساعات التي يتوقع خلالها ظهور هلال رمضان ، فإذا ماثبت ظهوره توقد القناديل في أسواق ومآذن جوامع المدينة وخاصة في مآذن الجامع الأموي ، وتضرب المدافع لاثباته حتى منتصف الليل ، ويحصل للناس زحمة في حركة السحور ، حتى تفتح دكاكين الطعام ليلاً كالخبازين والسمانين[4] .

وكان المسلمون يحتفلون بليلة القدر التي تقع في السابع والعشرين من شهر رمضان

(١) انظر : العلاف ، أحمد حلمي . دمشق في مطلع القرن العشرين . ص٦٦ .
(٢) العلاف أيضاً ، ص٦٧ .
(٣) العلاف أيضاً . ص٦٧ و ص٦٨ .
(٤) البديري . حوادث دمشق اليومية . ص٢٣ .

فيحيونها إلى وقت السحور . وكان لها تقاليدها الدينية الخاصة ، وتقام في جامع بني أمية وبقية جوامع دمشق ويشارك فيها الخاصة والعامة .. وكانت عادة المسلمين في شهر رمضان السهر في لياليه بالتسلية وتقام فيها حفلات خيال الظل وغيره من المسارح[1] . وكان المسحراتية يقومون بإيقاظ الناس لتناول طعام السحور . وكان لهؤلاء طائفة خاصة بهم وكان لكل حي مسحر خاص به ، ينقر على طبلته مكرراً بعض العبارات المتعارف عليها ويقرع الأبواب واحداً بعد آخر بالسقاطات أبو بالضرب على الباب بيده وينادي صاحب البيت باسمه[2].

وفي شهر رمضان كان الصفاء الروحي يسود بين الدماشقة فيتخلقون بآداب رمضان الروحية ، وينصرفون إلى الاذكار والطاعات ويتوافدون إلى المساجد والتكايا والزوايا ، والمسجد الكبير . ويتحلقون حول الأئمة والوعاظ يتفقهون في شؤون دينهم . ويلعب موظفو الدولة الدينيون دوراً في توجيه العامة لمحبة السلطان العثماني ، والدعاء له وشد العامة إلى محبة الدولة العثمانية .

أما المخازن في أسواق دمشق فكانت تبقى مفتوحة خلال جزء كبير من الليل ، وتبقى بيوت القهوة والحمامات فاتحة أبوابها حتى قرب الفجر ، وكان اليهود والنصارى يشاركون المسلمين في هذا الصخب الليلي ، أما النساء فكن لا يتجولن في الشوارع أثناء الليل . وكان الناس يخرجون الصدقات والذكوات والتوسيع على الفقراء وتكثر الزيارات ويصفح القوم عما بينهم من خصوصات وسيئات[3] . ولكن الظروف الاقتصادية السيئة في هذه الفترة أثرت على العديد من تلك المظاهر ، وانعكست إلى حد ما على تعامل الناس بشكل سلبي ، فكانت الأسعار ترتفع في هذا الشهر ، ويندر وجود المواد الغذائية . ويعيد البديري الحلاق أسباب ذلك إلى عدم تفتيش الحكام[4] . وفي الحقيقة لم يكن عدم التفتيش على الأسواق أو مراقبة الباعة هما السببان الرئيسان في ارتفاع الأسعار في شهر رمضان في هذه الفترة ، بل تعددت الأسباب وكان من أهمها : زيادة استهلاك السلع والمواد الغذائية في هذا الشهر ، وقلة

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية . كلمة (رمضان) ، ص١٧٦ الترجمة .
(٢) القاسمي ، محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية ، ج١ ، ص٦٩ .
(٣) كرد علي ، محمد . خطط الشام ، ج٦ . ص٢٧٤ و ص٢٧٥ .
(٤) حوادث دمشق اليومية . ص٢٥ .

المعروض منها، فتقل كميتها وترتفع أسعارها انطلاقاً من مبدأ (قانون العرض والطلب)، ناهيك عن عملية الإحتكار من قبل بعض التجار والباعة.

ويقول نعمان القساطلي: «إن معدل عدد الأغنام التي تذبح في دمشق كل يوم /٢٨٠/ رأساً ومقطوعية المدينة كل يوم من الحنطة ٢٣٠٠ كيلة ومن الشعير ٢٥٠٠ كيلة»[1] في حين تتضاعف كمية الاستهلاك من هذه المواد عن المعدل العادي في شهر رمضان فلا غرابة إذا ماارتفعت أسعارها وقل وجودها في الأسواق.

ومن التقاليد التي اتبعت بمناسبة شهر رمضان في هذه الفترة، قيام ولاة دمشق العثمانيين بإيلام الولائم من أول يوم إلى آخر يوم في هذا الشهر. ويخصون بولائهم الخاصة والعلماء وأحياناً العامة ورجال الدين ومشايخ الطرق الصوفية وغيرهم.

وكان رجال الدين على اختلاف فئاتهم يتوجهون إلى دار السيد نقيب أشراف دمشق ليباركوا له بهذا الشهر، فيولم لهم الولائم بهذه المناسبة. وبعد ذلك يقوم نقيب الأشراف بدوره وبصحبته رجال الدين ومشايخ الطرق الصوفية، بزيارة الوالي ليباركوا له في هذا الشهر. ثم يقوم المفتي والنقيب بزيارة العلماء ومشايخ الطرق الصوفية ورجالات الأحياء[2].

وكان الأغنياء والخاصة من المسلمين يقيمون موائد الإفطار للعامة، فيحضرها عدد من أبناء دمشق، ويشترك الدمشقيون في ولائم جماعية، بحيث يحضر كل واحد منهم ماعنده من المآكل، ليفطروا سوية في بيت أحدهم[3].

وكانت الاحتفالات تبلغ ذروتها في الليالي العشر الأخيرة من رمضان، ويبرز ذلك جلياً لدى طائفة المسحرين خاصة في ليلة السابع والعشرين من رمضان (ليلة القدر)، حيث كانوا يجتمعون في مقهى السروجية[4] في الشاغور، أو في مقهى النجارين الغربية في نفس

---

(١) الروضة الغناء في دمشق الفيحاء. ص١٣٠.

(٢) كيال، منير. رمضان وتقاليده الدمشقية. ص١١٥.

(٣) ابن بدران، عبد القادر. منادمة الأطلال ومسامرة الخيال. ص٥٥.

(٤) يقع هذا المقهى مقابل مسجد الشيخ أحمد السروجي الذي يطلق عليه اسم (بطاح الجمل) وللسروجي مكانة روحية لدى أهل الحي المذكور. حيث تقدم له النذور (كالشموع) وزيت الإنارة انظر: كيال، منير. رمضان وتقاليده. ص١١٩.

الحي المذكور، ويستثنى من هذا الاجتماع مسحرو حي الصالحية والشيخ محي الدين، ويتصدر اجتماعهم شيخ الكار والنقيب والشواش، ويجلس المسحرون من حولهم وتنصب أمامهم مائدة مضاءة بالشموع تمثل مسحري دمشق. ويدخل كل مسحر بيده طبلة وفانوس وسلة. وبعد أن يباركهم شيخ الكار ويشيد بعملهم، يبدأ الجميع بإنشاد المدائح النبوية، ويرافق ذلك نقراتهم على طبلاتهم، أو نقرات الدفوف والصنوج، ويتساجلون بالمدائح النبوية [1].

وكان شهر رمضان ينتهي بعيد الفطر الذي يستمر لمدة ثلاثة أيام، فيعلن العيد بإطلاق المدافع بعد إثباته بظهور هلال شوال، وتبقى معظم الحوانيت مقفلة خلال الأيام الثلاثة من العيد، وتنصب على أبواب المدينة الألعاب المختلفة، وتملأ الأكشاك باللعب والفواكه في العراء. ويقوم الرقاصون والمصارعون والمشعوذون بألعابهم بأجور معينة، ويعرض بعضهم الضباع والأفاعي والهوادج المحملة على الجمال المزينة.. يرافق ذلك الأهازيج.

وكان الأطفال يرتدون ثيابهم الجديدة كاملة، من الطربوش إلى البابوج، ويتراكضون لتقبيل الأيادي ويمدون أيديهم لتلقي العيدية، فإذا ماحصلوا على مبتغاهم انطلقوا إلى حيث يصرفون أموالهم من شراء المآكل وقضاء فترة التسلية [2].

وكانت المدينة ترتدي حلة قشيبة من الأنوار في مآذنها ومساجدها وطرقاتها، وتفرد بسطات الباعة في كل مكان، يدللون على بضاعتهم بما يرغّب من العبارات لترويجها، فتتحول الأسواق والساحات إلى بحر متلاطم من البشر.

أما النساء في البيوت فكن ينهضن لتهيئة المضافة، والسلاملك، ويمدون الأسمطة من الحلوى ويوقدن الفحم في المناقل، ويرقدن القهوة الساذجة ويعددن طعام العيد، وكان الرجال يتوافدون إلى المساجد مكبرين مهللين، فتهدر الأصوات حتى إذا ماتمت صلاة العيد، صعد الخطيب إلى المنبر يحدث القوم في أمور دينهم ودنياهم، ويحذرهم من مغبة ترك الأولاد على سجيتهم في المآكل والتجوال.. مطالباً إياهم الاستمرار في خلق رمضان وروحه. فإذا ماانتهى

---

(١) القاسمي، محمد سعيد. المصدر السابق. ج١، ص٦٨.

(٢) كيال، منير. رمضان وتقاليده الدمشقية. ص١٣٠و ص١٣١ و ص١٣٢ و ص١٣٣ و ص١٣٤.

الخطيب تلاقت الأكف وشدت على بعضها مهنئة مباركة . ثم ينطلق القوم إلى المقابر لزيارة موتاهم مصطحبين معهم أغصان الآس والزهور لتزيين شواهد القبور . فترتدي القبور حلة خضراء ، وتتلى الفاتحة على أرواح الموتى كما تتلى آيات من القرآن . ثم يعودون لاستقبال المهنئين بالعيد[1] . وكانت العادة المتبعة في دمشق أن يقوم المسحرون بالمرور على البيوت لأخذ العيدية ، وما أن تأتي ليلة الثاني من شوال (الليلة اليتيمة) حتى يأوي الناس إلى مضاجعهم باكراً نتيجة للارهاق الذي أصابهم بإحيائهم ليالي رمضان . ولهذا تكثر سرقات اللصوص مستفيدين من استغراق الناس في نومهم[2] .

أما الاحتفال بيوم عرفة ، وهو من أهم أيام ذي الحجة وفيه كان الدمشقيون يخرجون بعد صلاة الظهر من يوم عرفة إلى المساجد ، ويقف بهم أئمتهم كاشفي الرؤوس داعين خاضعين ملتمسين البركة متوخين الساعة التي يقفون في عرفة ، ويبقون على هذه الحالة حتى غروب الشمس ، فينفرون كما ينفر الحجاج باكين إلى ماحرموه من ذلك الموقف الشريف في عرفات ، داعين الله أن يوصلهم إليها[3] .

آ ــ تقاليد دمشق في عاشوراء

كان مسلمون دمشق يتذكرون فاجعة كربلاء بحزن عميق ، وكان ذلك الجرح يُقض سنوياً في العاشر من شهر محرم وكان ذلك يبرز أكثر مايبرز لدى الشيعة في دمشق ، حيث كانوا يتجمعون في اليوم الأول من شهر محرم في أحد دورهم ، ويقوم أحدهم بقص تفاصيل الفاجعة على الجميع ، ويبدأ البكاء والنحيب والعويل ، فيضربون كفا على كف ، ومنهم من يضرب رأسه وصدره قائلاً (آه ليتنا كنا معهم) ، وتتجلى سحابة حزن عميق على الجميع . وفي العاشر من محرم كانوا ينظمون موكباً هائلاً ينتظم فيه كافة الشيعة في دمشق وأرجائها ، ويسير موكبهم متجهاً إلى قبر السيدة زينب (في راوية) ، ويكون في المقدمة الرجال الأقوياء وبأيديهم العصي والحراب القصيرة ، وفي وسطهم تابوت مجلل بالبياض إشارة إلى تابوت شهداء عاشوراء ، وخلفهم يسير الشيوخ والنساء ويرتفع صوت البكاء والصراخ ، ويضربون

---

(١) المرجع السابق . ص١٣٣ .

(٢) العلاّف ، أحمد حلمي . ص٧١ و ص٧٢ و ص٧٣ .

(٣) انظر : ابن بدران . منادمة الأطلال ومسامرة الخيال ، ص٥٦ .

رؤوسهم وأجسامهم إلى أن يصلوا إلى قبر السيدة زينب، وهناك تقام بعض مراسم الأدعية والصلوات ويبقى بعضهم ثلاث ليال، ومنهم من يعود بعد إقامة المراسم إلى دورهم.

وكان المسلمون يصومون في عاشوراء، ويفطرون على طعام من الحبوب اتباعاً لسنة نبي الله نوح (عليه السلام) عند نزوله من سفينته بعد الطوفان. ويوزع هذا الطعام على الفقراء والجيران والأصحاب، ويستعد بعضهم لاستقبال ذويهم العائدين من الحج. وكان لبعض المسلمين الدماشقة تقليد خاص في آخر يوم أربعاء من شهر صفر، بأن يكتبوا آيات من القرآن على بطاقات صغيرة ويضعونها في ماء ويشربونه للتبرك به[1].

ب ــ الاحتفال بالمولد النبوي

كان المسلمون قبل حلول الثاني عشر من ربيع الأول بأيام، يقيمون معالم الزينة وينصبون أغصان الشجر ويعلقون بها القناديل وأنواع المفروشات الفاخرة في كافة الأسواق والأحياء، ويعين كل حي ليلة لقراءة المولد باسم المحلة، ويدعى أبناء الحي وبعض وجوه الأحياء الأخرى. وتجرى مختلف الألعاب بالسيف والترس والحكم[2] وغيرها من الألعاب، وتتوزع صفائح الحلوى على المستمعين، فيأكلون أو يوزع عليهم الملبس وهكذا في سائر الأسواق والأحياء والبيوت والمدارس، أما السلطات العثمانية فكانت حفلة المولد النبوي الشريف نهاراً في المسجد الأموي[3].

جـ ــ مراسم المدارس في الأعياد

يقوم تلاميذ المدارس بتظاهرات قبل حلول الأعياد الدينية بثلاثة أيام، فيطوف بهم

---

(١) العلّاف، أحمد حلمي، ص٧٥.

(٢) لعبة الحكم: هي عبارة عن طارتين من الجلد محشوتين قطناً وصوفاً، لها وجه الترس وخلفها ممسك من جنسها، تمسك باليد اليسرى، وتكون في اليمين خيزرانة أو قضيب سفرجل فيحمل كل منهما على الآخر ويتقي (بالحكم) من أن تصيب جسمه الضربات الموجهة إليه. فإذا انتهى اللعب انتقل إلى التمرن على السيف والترس. ثم على القوس والنبل ويسمونه (القوس والنشاب). انظر: العلاف. المصدر السابق، ص٢٤٠.

(٣) العلاف، أحمد حلمي، أيضاً، ص٦٤.

شيخهم أو شيختهم (الخجا) بنظام الزكا (اثنين اثنين) يسيرون خلف بعضهم، يتقدمهم أحد الأطفال واضعاً على رأسه كرسي التلاوة وعلى الكرسي المصحف الشريف مجللاً بالمخمل الأخضر. وعلى جانبي الطفل زميلان أو أكثر خلف بعضهم وبيد كل منهم ورقة طويلة ملتفة على بعضها بطول متر أو أقل أو أكثر، فيفردها قليلاً قليلاً لقراءة مافيها ويلف القسم الذي انتهى من قراءته أثناء ذلك. وأما محتويات هذه الأوراق فهي عبارة عن أناشيد مختلفة مكتوبة بخط الشيخ على القاعدة النسخية باللون الأسود، ومنقطة بالأحمر ومخاطة بخطوط خضراء، وبين كل سطر وآخر نقطة مستديرة بماء الذهب، وفي مطلع الورقة عنوان لها مخطوط ماء الذهب أيضاً. وعندما يصل الشيخ أمام مدرسته يأمرهم المبادرة بالانشاد، فيبدأ حملة الأوراق بأناشيدهم منفردين ويردد أقوالهم بقية الطلبة ومن ذلك قولهم :

يا ربنا يا ربنا   إغفر لنا ذنوبنا
وكفر عنا سيئاتنا   نحن وكل المسلمين

فيردد الجميع هذه العبارات ومن ذلك أيضاً :

يا ربنا بالبقرة   وبالرجال العشرة
تجعل أموري ميسرة   أنا وكل المسلمين

فيرددونها أيضاً ثم :

ياربنا بآل عمران   وبالنبي العدنان
تحفظنا بسر القرآن   أنا وكل المسلمين
ربنا بالمائدة   وبالرجال القاعدة
تجعل أموري نافذة   أنا وكل المسلمين

وهكذا إلى أن يصلوا إلى أقرب دار من دور الأولاد، حيث يعلم ذلك ذووهم فيعدون لهم المقاعد في صحن الدار ليسجلوا عليها، وعندما يفتح لهم باب الدار يدخلها الطلاب ويقولون :

سلام سلام، سلام سلام   سلام عليكم فردوا السلام

ويكررها الجميع ثم يطوفون في باحة البيت دورة أو دورتين على هذا النحو، ويجلسون والشيخ سائر إلى جانبهم ليجلس على متكأ خاص معد له من قبل ولي الطالب. وبعد استراحة بضع دقائق توزع عليهم قطع الحلوى والدراهم على حسب سعة ولي الطالب. ثم يمد الشيخ يده بالصحفة ليتناول قرشين أو ثلاثة باسم عيدية وقبل خروجهم من الدار ينهض الطالب ابن صاحب الدار ويقول كلمات علمه إياها شيخه هكذا:

أنت ياوالدي نعم الوالد شفيق رفيق مسعد
عسى نراك في الجنات قاعد في فردوس ونعيم خالد

ثم يلتفت إلى جهة أمه ويقول:

وأنت ياأمي فنعم الوالدة شفيقة رفيقة مساعدة
عسى نراك في الجنات قاعدة مع زينب ومريم وفاطمة

على أن كل معاني هذه العبارات الموجهة إلى أبويه تتضمن معاني الدعاء عليها بالموت السريع كما ترى، في حين أن الشيخ يقصد من تعليمها للطفل بأنه سيكون بعدهما نعم الطفل يذكرهما بخير في حياتهما وبعد موتهما، وغير عاق بهما بل وفياً كل الوفاء. ويخرجون من الدار إلى بقية دور الطلاب على النحو المذكور. وبعد أن يزوروا ويجوبوا الأسواق بقصد الدعاية للشيخ ومدرسته يعودون إلى مدرستهم فيوجه الشيخ إليهم العبارة الآتية (يا أولاد اسمعوا، الذي منكم أعطاني أبوه عيدية فهو مسموح له من الآن أن يذهب إلى داره إلى مابعد العيد وأما الذي لم يعطني أبوه العيدية فسيبقى يداوم على المدرسة كل يوم حتى يأتي بالعيدية) وقد يستعين بالخيزرانة أحياناً على جوانب الطفل لو على رجليه ليذهب باكياً إلى أبيه ويأتيه بالعيدية.

د ــ مراسم الختام

كانت العادة لدى مسلمي دمشق، في حال ختم الطالب للقرآن، تبشير والده، ويختار موسم الأعياد لذلك. فيجلس الطالب الخاتم للقرآن في المدرسة أمام الشيخ ويقرأ مبدأ سورة البقرة حتى يصل إلى آية: «ختم الله على قلوبهم»، فيقوم أحد الطلاب من زملائه

فيصفعه على قفاه، ويلتقط طربوشه ويمضي جرياً إلى أبيه فيسلمه إياه مقابل (حلوان)، ثم يعود إليه فيلبسه طربوشه، ويخرج الطلاب بالصورة المذكورة في موسم الأعياد بين الأناشيد والصياح إلى دار الطالب الخاتم فقط، ويتناولون طعام الغداء والحلوى، ويهنئونه بإتمام معرفته لقراءة المصحف. ويتناول الشيخ الحلوان ويذهب الطالب ليمارس صنعة أبيه ويساعده على مضض الحياة إذا كان فقيراً، وإن كان غنياً أو متوسط الحال يستمر في دراسته[1].

هـ ــ مراسم الختان

وهي من العمليات التي كان يهتم بها الدمشقيون وكانت تلك العملية تجرى للطفل بين الرابعة والثانية عشر من عمره، ويطلق عليها اسم (الطهور)، وهي لدى المسلمين واليهود، ويقوم الوالدان بدعوة الأقارب والأصحاب إلى يوم معلوم لحضور حفلة الختان، ويهيئون الأطعمة ومختلف السكاكر والحلوى للمدعوين. ويمد الأقارب يد المساعدة بكثير من القمح والسمن والأرز والسكر. ومنهم من يقدم الخرفان أو نوعاً من المصاغ والجواهر، ويرسلون ذلك قبل حلول اليوم المحدد إلى دار الوالدين، وذلك على سبيل المعاونة فيحفظ الوالدان ذلك لهم وينتهزان فرصة أو مناسبة عند أحدهم ليقوما بواجبهما مقابلة المثل بالمثل. وفي اليوم المعين يتقاطر المدعوون إلى دار الوالدين، وإذا لم تكن دارهما على استعداد لاستيعاب المدعوين، فإنهما يستعيران دار الأقوياء أو الجيران[2].

وإذا أراد الوالدان إقامة نشيدة بمناسبة ختان إبنهما، فيجمع أبناء الكتّاب ويكون الجميع لابسين أحسن ثيابهم، ويلبس الطفل المراد ختنه الأثواب المقصبة والمزركشة، ويزين بأصناف الحلي فتصطف الأولاد مثنى مثنى (بنظام الزكا) وهو بينهم، وأمامه المجمري لابساً ثوباً أحمر يصيح بصوت جهوري: سعيد من يصلي على النبي، قلب العامر يصلي على النبي. وبيده مجمرة فيها أنواع العود والبخور، والأولاد ينشدون بأصوات عالية أناشيد الكتاتيب، ويدورون بغالب أسواق البلد، ويعودون لدار صاحب النشيدة، حيث يكون قد هيأ لهم الطعام وبعده يفرق عليهم جميعاً الدراهم[3].

---

(١) العلاف، أحمد حلمي، ص٦٠ و ص٦١ و ص٦٢.

(٢) انظر: العلاف، أحمد حلمي. ص٦٣ و ص٦٤.

(٣) القاسمي، محمد سعيد، المصدر السابق. ج٢، ص٤١٨. كما أورد أليكس راسل صورة الاحتفال بالختان في

أما عملية الختان فكان الحلاقون يقومون بها ، ويوضع الولد بين يدي الحلاق ، ويحاول مد يده إلى الطفل مموهاً بأنه يريد أن يأخذ قياس طول ألبسته ، ليأتي له بلباس فاخر ، وبذلك يحصل التعارف بين الطفل والحلاق ، ويبعد بذلك الرهبة والخوف عن الطفل .. ثم يتقدم الحلاق ثانية من الطفل ويكلف أحد الحاضرين وعلى مسمع من الطفل قائلاً : خذ لي قياس قدمه من الخلف حتى لا أخطيء بالحذاء المقصب الجميل ، هذا والولد بدون سرواله . فيأتي الرجل ويمسك قدمه من الخلف ، ويضمه إلى صدره قابضاً على يدي الطفل من الأمام ، وهنا يسرع الحاضرون بالصياح والتصفيق والصلوات بصخب وضجيج ، حتى لا ينتبه الطفل إلى يدي الحلاق (المزين) حيث يخرج مروداً من الحديد دقيقاً وموسى ماضية ، وبسرعة البرق يدخل المرود في حمامة (القلفة) الطفل بين الجلد والتمرة ، ويعكفها إلى الخلف ، ثم يقوم بقطع القلفة . ويضمدها باللصوق والأدوية ، ويتعهده الحلاق حتى يشفى . وله إكرام على ذلك كل شخص على حسبه[1].

وكان من عادات الختان في دمشق أن ينذر الوالدان لابنهما نذوراً غريبة ، فمثلاً : إذا ماكبر وتم ختانه ، أن يقيموا له نوبة وهي حفلة يدعون إليها بعض الفقراء والمشعوذين ممن

حلب ولم تكن عادتهم في ذلك لتختلف عما كانت عليه في دمشق في هذه الفترة . فكانت العادة أن يلبّس الولد المراد إجراء الختان له ثياباً جديدة ، وعوضاً عن الشملة ترباناً يزين بالأزهار والأشرطة وبعض الجواهر والحلي ، ويركب على ظهر حصان يزين بدوره أيضاً ، ويدار به في شوارع المدينة في عراضة ، وتصدح الموسيقى في موكبه ويقوم بعض الرجال الذين يرافقون موكبه ، باللعب بالسيوف المعقوفة والتروس ، ومن خلفهم تطلق قريبات الولد من النسوة الزغاريد بين الفينة والأخرى لإثارة الحماس وخلق البهجة . ويقوم الرجال بإطلاق التراويد . وقد يخرج أكثر من ولد ممن يراد ختانهم على ظهور الأحصنة فيزداد الموكب روعة وجمالاً . RUSSELL. op.CIT. VOL.1 ولقد أورد أحمد حلمي العلاف صورة لطريقة الختان ومراسمه في دمشق في نهاية القرن التاسع عشر لا تختلف عما كانت عليه في حلب فيقول : « كان بعض الدماشقة يحتفلون بمناسبة الختان كأن يضعوا الحناء والنقوش بالشمع المغلي الملون على الأكف والأصابع والقدمين وإذا كان الطفل طالباً بإحدى المكاتب القرآنية زينوه بأفخر الملابس ووضعوا على رأسه إكليلاً من الزهور فوق الطربوش ومشوا به على غرار سعيهم عند حلول الأعياد . وذلك على ظهر دابة مجلاة بالديباج يطوفون به في الأسواق في عراضة حتى يصلوا به إلى داره ويرافقه أهله وأقاربه وأصدقاؤهم وتقام حفلات الأغاني والرقص ويبقون كذلك إلى شفاء جرح المختون وهذ الحفلات تعد بأهميتها في الدرجة الثانية بعد الأعراس» انظر : دمشق في مطلع القرن العشرين . ص٧٨ .

(١) انظر : القاسمي ، محمد سعيد قاموس الصناعات الشامية . ج٢ ، . ص٤٣٥ و ص٤٣٦ . ثم العلاف . المصدر السابق . ص٧٦ و ص٧٧ .

يضربون على الطار والطبل، ويلعبون الشيش أو بقطع من السلاح الابيض، ويطفئون بافواههم النيران فيجتمع عليهم الأطفال وبعض صغار الأحلام[1]. إلى غير ذلك من الطرق والتقاليد.

أما أفراد الهيئة الحاكمة فكانوا يحتفلون بختان أولادهم بطريقة يبرزون فيها علو مكانتهم الاجتماعية، ويحاولون فيها كسب ود الخاصة والعامة على حد سواء. فيدعون إليها جمعاً غفيراً منهم، ويذبحون الذبائح لضيوفهم ويولمون الولائم ويوزعون الدراهم على الفقراء والمحتاجين، ويختنون عدداً كبيراً من أبناء الشعب على حسابهم. ونسوق مثالاً على ذلك ماتم إبان ختان أحمد بك ابن والي دمشق سليمان باشا العظم سنة ١١٥٦هـ/١٧٤٣م حيث قام الوالي المذكور «بجمع حشد كبير من طبقات الشعب المختلفة في الجنينة التي في محلة العمارة، وجمع فيها سائر الملاعب وأرباب الغناء واليهود والنصارى، واجتمع فيه من الأعيان والأكابر من الأفندية والأغوات ما لا يحصى، وأطلق الحرية لأجل الملاعب يلعبون بما شاؤوا، من رقص وخلاعة وغير ذلك، ولا زالوا على هذا الحال سبعة أيام بلياليها، ومن ذلك امر بالزينة فتزينت أسواق الشام كلها سبعة أيام بإيقاد الشموع والقناديل زينة ماسمع مثلها، وعمل موكب ركب فيه الأغوات والشربجية والأكابر والانكشارية، وفيه الملاعب الغريبة من تمثيل شجعان العرب وغير ذلك، وتاني يوم طهّر ولده أحمد بك وأقر من صدقاته أنه يطهر من أولاد الفقراء وغيرهم ممن أراد. فصارت الناس تقبل بأولادهم وكلما طهروا ولدا يعطوه بدلة وذهبين، وأنعم على الخاص والعام والفقراء والمساكين، بأطعمة وأكسية وغير ذلك»[2].

و ــ دور الطرق الصوفية في الاحتفالات الدينية

شاركت الطرق الصوفية مجتمع دمشق احتفالاته الدينية، وحتى المدنية منها. وكان لكل طريقة أسلوبها الخاص ومظهرها المتميز. في شهر رمضان كان التغالبة يقرعون الطبول ويهللون[3] وكانت الطريقة السعدية تقيم الدوسة[4] في رمضان وغيره من المناسبات الدينية

(١) انظر: كرد علي، محمد. خطط الشام. ج٦. ص٢٧٥.

(٢) البديري. حوادث دمشق اليومية. ص٣٨ و ص٣٩.

(٣) انظر: البديري الحلاق، حوادث دمشق اليومية، ص٢٣ و ص٨٣ و ص٩٠ و ص٩١ و ص٩٢ و ص١٨٧.

(٤) احتفال كان يقيمه رجال الطريقة السعدية في مولد النبي وبعض الأولياء. فكان بعض رجالها ينبطحون أرضاً

والمدنية ، كالمولد النبوي أو عندما تشح السماء ، أن تصاب دمشق بجائحة الطاعون وغيرها . وكانت الطرق الصوفية تشارك رجال الدين في الصلوات في الجوامع والمساجد ، ويرافق ذلك البكاء والنحيب والتضرع إلى الله برفع البلاء عن دمشق[1] .

وكانت تلك الطرق تقيم حفلات دينية في تكاياها أو زواياها ويرتدي أتباعها أزياء خاصة أثناء ذلك ، فمثلاً دراويش المولوية كانوا يرتدون زياً أبيض فضفاضاً وعلى رؤوسهم (كلاة) أو كلاه . أما شيخهم فيضع على رأسه عمامة خضراء وكانوا يدورون حول أنفسهم على نغمات الموسيقى وحفلاتهم أتقن الحفلات الدينية على الإطلاق وهي بالحفلات المدنية أليق منها بالدينية[2] .

وكانت بعض هذه الطرق تقيم حفلات الأزكار في ليالي الأعياد الدينية كافة ، وكان المريدون والمقدمون وشيوخ الطرق يجتمعون في كل ليلة إثنين أو جمعة في أحد المساجد عقب صلاة المغرب أو عقب صلاة العشاء ليقيموا الأزكار . أما إذا كان اجتماعهم في دار عادية أو في زاويتهم الخاصة بهم فيهللون ويكبرون قياماً وركوعاً وقعوداً ، وهم يذكرون الله تعالى أثناء ذلك . وينشد بعض ذوي الأصوات الجميلة أناشيد الزهاد أو أناشيد شيوخهم بصورة تتناسب مع أصوات التهليل ، ثم ينتهي ذلك بالدعاء لكافة المسلمين والصلاح لأولياء الأمور ويتلون ماتيسر من آيات الله لأرواح المسلمين .

وقامت الطرق الصوفية بتنظيم مواكب زيارات خاصة إلى أضرحة الزّهاد والأولياء في دمشق في أيام معينة من السنة . وكان يطلق عليها اسم السيارة . وكانت مواكبهم في غاية الترتيب والخشوع ، حيث يسير المريدون على شكل صفوف مؤلفة من خمسة أو أكثر يلبسون طواقي ملونة بحسب الطريقة فمنها الأخضر والأحمر والبني ، وعليهم أردية من نفس اللون غالباً ، ويذكرون الله تعالى أثناء مسيرهم جهراً . ثم يأتي خلفهم حملة المزاهر يقرعونها بلطف وبينهم يسير حامل اللواء الكبير وله أطراف تنتهي بقطع من المرس يمسك بأطرافها

على وجوههم ثم يسير شيخ الطريقة فوقهم ممتطياً جواده يقوده اثنان من أتباعه فيدوسهم واحداً بعد آخر ولا يُصاب أحد بضر . انظر : دائرة المعارف الإسلامية (مادة الدوسة) المجلد ٩ . ص٣١٧ و ص٣١٨ .

(١) البديري الحلاق ، المصدر السابق . ص٩١ و ص٩٢ .

(٢) كرد علي ، محمد . خطط الشام . ج٦ ، ص٢٧٦ .

بعض المريدين يتوزعون على مسافة منه وحوله ليساعدوا خامله كي لا يقع إذا ماسفه الريح. ثم يأتي بعدهم حامل الطبل الكبير (الخليلية) وهي عبارة عن صفحتين من النحاس يضرب بهما حاملهما بإيقاع ينسجم مع ضربات الطبل. ويأتي خلفهما شيخ الطريقة الحالي (ابن الوقت) راكباً على فرس ولابساً عمامة شيوخه الأوائل. ويحيط به جماعة من المريدين يحملون أعلاماً صغيرة كتب عليها بعض الآيات القرآنية. ويأتي بعده طبقة المريدين من الشبان يحملون نقارات صغيرة يضربون عليها، ويأتي بعدهم المريدون المتبقون، وينطلق هذا الموكب من زاوية الطريقة الصوفية الخاصة بها إلى الضريح المراد زيارته وتنشد الأفواه بالذكر تهليلاً وتكبيراً [1].

وكانت كل طريقة تتجه إلى أحد الأضرحة فمنها من يذهب إلى ضريح الشيخ رسلان ظاهر دمشق من ناحية الشرق، أو إلى مقام الولي العارف بالله السروجي في حي الشاغور، أو إلى ضريح الزغبي في الصالحية أو إلى ضريح الشيخ محي الدين بن عربي.

وكانت هذه السيارات عبارة عن تمارين لهذه الطرق حيث تسير مجموعة بعد ذلك إلى قرية برزة حيث كهف مقام ابراهيم الخليل. وكان يطلب من كل شيخ طريقة هناك أن يدخل الكهف مع فرسه، وفي ذلك مجاذفة ولم يقدم على ذلك إلا من تأكد من طهارة جسمه وسريرته، لضيق الكهف، إذ قد يودي ذلك بحياته، وإذا لم يستطع الشيخ الدخول فيسبب له حرجاً أمام مريديه ومريدي الطرق الأخرى. وكان الشيوخ يتعاقبون على الدخول بأفراسهم ولم يكن ليتجاوز عدد من يقحمون أنفسهم بهذه المخاطرة أكثر من أربعة أو خمسة من جميع شيوخ الطرق. كان يطلق على هذا المهرجان الكبير اسم (موسم جمعة برزة) أو موسم (خميس المشايخ) [2]. ثم بعد ذلك كانت تعود المواكب إلى زواياها التي انطلقت منها جموعهم ومنها إلى بيوتهم.

ز ــ الاحتفالات بتوديع واستقبال قافلة الحج الشامي

وتعتبر مراسم الاحتفال بها أطول المراسم الدينية والمدنية، وأكثرها روعة، كما أن عدد

---

(١) كرد علي، محمد خطط الشام. ج٦، ص١٣٠.

(٢) العلّاف. أحمد حلمي. المصدر السابق، ص١٢ و ص١٣٠ و ص١٣١ و ص١٣٢ و ص١٣٣.

المشاركين فيها يزيد على ماعداهم من المشاركين في الاحتفالات الأخرى التي كانت تقام في دمشق لسبب أو لآخر، وشملت تلك المراسم مواكب عديدة منها: موكب الشموع والزيت، ثم موكب المحمل والصنجق وموكب القافلة نفسها.

١ً ــ موكب الزيت والشموع

أقيم هذا الموكب في السابع من شوال من كل عام، وكان هذا الاحتفال خاصاً بموكب الزيت والشموع التي سترسل من دمشق إلى الحرم النبوي الشريف مع القافلة. فكان الزيت يؤتى به من قرية كفر سوسية في ضروف مزخرفة تحملها جمال مزينة أيضاً، ويسير في مقدمتها بيرق أخضر بشراشيب حمراء داكنة ويكتب على تلك البيارق بعض العبارات الدينية، وتتقدم الجمال جوقة موسيقية. وينطلق هذا الموكب من قرية كفر سوسية إلى دمشق. أما تلك الجوقة الموسيقية فكانت مكونة من أربعين ٤٠ شخصاً، منهم عشرة رجال ينفخون في آلات موسيقية (Brass) وتسعة آخرون ينفخون في آلات موسيقية تشبه الناي (Flutes) واثنان منهم يضربان على طبليهما وآخرون يضربون بالصنوج النحاسية. وكان يشارك في هذا الموكب عدد من أهالي كفر سوسية بألعابهم ورويدهم، ومنهم من يلعب بالسيف والعصى حتى يصل الموكب إلى باب السريجة بالقرب من ضريح الصحابي زيد بن ثابت، حيث يتجه الموكب إلى سوق باب الجابية فسوق الدرويشية فباب السرايا فمركز الكلار في منطقة السنجقدار حيث يوضع الزيت إلى جانب أدوات الحج الأخرى.

وكانت الشموع تصنع في دار أحد ذوات دمشق لينال من وراء ذلك البركة. وكانت تصنع بمقاييس مختلفة وعند انتهاء صناعتها يؤتى بها في موكب خاص محمولة على أيدي مجموعة من الرجال، إما محضونة من قبلهم أو موضوعة بشباك خاصة ويحمل كل شبكة رجلان. وتلف تلك الشموع قبل حملها بشال من الكشمير الفاخر وترافق موكبها الموسيقى السلطانية، ويسير خلفها مؤذنو الجامع الأموي وجمع غفير من الأشراف والذوات والعامة. ويرأس المؤذنين رئيس مؤذني الجامع الأموي حيث يعتمر بقلنسوة سوداء ويسير وراءه سبعة رجال يحملون المباخر إحداها مصنوعة من الفضة وأما المباخر الأخريات فهي من الفضة إلا أنها مطلية بالذهب، إلى أن يصل الموكب إلى الكلا رخانة حيث توضع تلك الشموع في

أكياس خاصة بها[1]. وكان هذان الموكبان يسبقان ماعداهما من مواكب الحج، كالمحمل والصنجق والقافلة نفسها.

٢ ـــ موكب المحمل والصنجق[2]

كان موكبهما يبدأ في دمشق في الثامن من شوال. ولقد اعتبرتهما الحركة الوهابية من البدع التي دخلت على الإسلام. وعندما سيطر الوهابيون على الأماكن المقدسة في أوائل القرن التاسع عشر منعوهما من دخول الأماكن المقدسة وتسبب ذلك في منع القافلة كلها كما حصل في سنة ١٨٠٧م[3].

أما طريقة الاحتفال بهما في دمشق، فكانت تتم بوضع المحمل على جمل مخصص له، ويرفع الصنجق على سارية خاصة به، بعد إخراجهما معاً من الكلار خانة، الموجود بالقرب من جامع السنجقدار. ويتقدم على الصنجق جمل المحمل المبارك، ويكونان مزينين بالزينة المصنوعة من خيوط الذهب الخالص. ويرفع الصنجق على أيدي حامليه وإلى جانبه الأيمن مجموعة من الجنود، ويحمل دعاماته الذهبية رجلان وترافقه عشرة أعلام أحدها أبيض واثنان

---

1 - See: Burton Isabel.op.cit.PP.46-47. ثم: عربي كاتبي، محمد عز الدين. الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية، ص٣٠.

(٢) المحمل: هيكل مغطى بقماش مخملي أخضر، كتب عليه بالقصب آيات من القرآن، يحمله جمل مزين بأقمشة مزركشة وجلود جميلة خيطت عليه أصداف صغيرة ومرايا. يرافق أمير الحج من دمشق إلى الأماكن المقدسة في الحجاز. واعتبر شعاراً للسلطان العثماني ورمزاً لسيادته على الحرمين الشريفين. أما الصنجق: فهو علم النبي العربي (ص) كان يحمّل على جمل ويمسك بهذا الجمل موظف خاص يلبس هنداماً خاصاً مزركشاً. وتقول إيزابيل بورتن: إنه ستارة خيمة عائشة أم المؤمنين. أو عمامة صهيب الرومي. وأنه انتقل إلى يد الأمويين ومنهم إلى العباسيين في بغداد، ثم انتقل إلى القاهرة على يد الفاطميين، وأعيد إلى دمشق على يد السلطان سليم الأول بعد القضاء على دولة المماليك. ونقل إلى استانبول بواسطة الصدر الأعظم سنان باشا ووضع تحت حماية كزلار آغاسي في غرفة خاصة من الباب العالي أطلق عليها اسم «خرقة شريف أودة سي» ولم يسمح إلا لقلة من المسلمين بلمسه نظراً لقدسيته. وكان الدمشقيون يحترمون هذين الجملين ويتمسحون بهما تبركاً ويخرج موكبهما من دمشق إلى الحج في السادس عشر من شوال. انظر: العظم، خالد مذكراته. ج١ ص١١. ثم جان، سوفاجة. دمشق لمحة تاريخية. ص٤٤. ثم ابن كنان المصدر السابق، ص١٧٩. ثم Burton. op.cit. PP.48,49,45.

3 - See; Koury, George. «province of Damascus». PP.125-126.

أخضران وبقية الأعلام بلون أحمر. أما أحجامها فمختلفة، فالأربعة الأولى منها بأحجام صغيرة ومثبتة على البنادق في حين أن الستة الأخرى متدرجة في أحجامها وتسير خلف بعضها، الأصغر في المقدمة ويليه الكبير فالأكبر وهكذا. ويصادف إخراجهما انتهاء صلاة الظهر في جامع السنجقدار. ويُحمل مع الصنجق غلافه الأخضر المرسل من استانبول للحفاظ عليه وصيانته.

وكانت مجموعة من المؤذنين يتقدمون هذا الموكب ويحملون المباخر في أيديهم. وخلف الصنجق والمحمل المحمولين يأتي الجربجية في أزيائهم القشيية وبأسلحتهم المذهبة، ويأتي، من بعدهم، السكبانية والأرناؤوطية (الجنود الخاصة) ثم الينكجرية والسباهية والزعماء وعسكر القلعة وأعواتهم وأكابر الدولة وقاضي المحمل بعمامته وباش دفتردار وآغا القابي قول بعمامته وكاتب الينكجرية بعمامته ثم تأتي التخوت (جمع تختروان) المزينة بالأطالس ومعهم عامة الحج الشريف أجواقاً أجواقاً ثم أمير الحج. وعندما يبدأ الموكب بالمسير، تطلق المدفعية نيرانها ابتهاجاً بهذه المناسبة، ويردد المؤذنون والمصلون العبارات الدينية ثلاث مرات، وكان دراويش الطرق الصوفية يشاركون في هذا الموكب بأسمالهم البالية والمرقعة، وعلى رؤوسهم قبعات يحيطها فراء، ويعلو تلك القبعات شعار طريقتهم المختلف بين طريقة وأخرى.

ويتحرك الموكب من السنجقدار، إلى السنانية، فمرقص السودان، فطريق الشاعور، فباب كيسان، فباب شرقي، فسيدنا بلال، فبرج الروس، فالسادات، فالعمارة، وينعطف الموكب بعد ذلك إلى السرايا، وأمام بابها الظاهري (الكبير) تقدم الضيافات من سائر الألوان. ويوضع السنجق في السرايا [1] وينفض الموكب. وكانت الشوارع والأسطحة تغص بالمتفرجين من الجنسين بالأعمار المختلفة وكانت النساء تشاهدن هذا الموكب من خلال مصبعات شبابيك بيوتهن المطلة على هذه الشوارع. أو في الشوارع نفسها التي يمر منها الموكب.

ومن جهة أخرى كان الصنجق يخرج من مكانه بمناسبة تنصيب سلطان جديد في استانبول، فتسير العراضات وتزين دمشق، ويتقدم تلك المواكب الصنجق الشريف. وكانت

(١) ابن كنان. المواكب الإسلامية، ص١٧٨ و ص١٧٩. مخطوطة في الظاهرية تحت رقم ٢٦. ثم انظر:
Burton.I. op.cit. PP.48-49.

السلطات العثمانية تصر على ذلك لتعطي منصب السلطان صفة دينية ولتشد العامة إلى السلطان العثماني .

٣ً ــ موكب قافلة الحج

كان خروجها مابين ١٥ ــ ١٧ شوال من كل عام[١] حيث تنطلق في الساعة التاسعة والنصف صباحاً . وكانت تضم حجاجاً من جنسيات وقوميات مختلفة سواء عثمانية أو غيرها . وكان حجاج أوربة وآسيا يعدون بالآلاف بين رجلٍ وامرأة[٢]، وكان من الحجاج ، العرب والفرس والأكراد والتركمان والهنود واليزبك والجرجانيون والشركس والألبان والبشناق والأفغان ، وبعض أبناء جنوب شرق آسيا الذين يأتون براً ، وغيرهم من مسلمي القوميات الأخرى .

ولأهمية قافلة الحج عينت الدولة أميراً عليها والي دمشق في هذه الفترة وأعفته من جميع الالتزامات تجاه الدولة العثمانية ، شأن بقية ولاة بلاد الشام ، مقابل تأمين القافلة وسلامتها .

إلا أن عدد الحجاج قد تناقص في أواخر القرن الثامن عشر ، وتوقفت القافلة نهائياً مابين عامي ١٨٠٧ ــ ١٨١٤م/ ١٢٢١ ــ ١٢٢٨هـ ، لسيطرة الوهابيين على مكة والمدينة[٣] . ثم عادت القافلة من جديد إلى الديار المقدسة لأداء مناسك الحج وذلك بعد استعادة الأماكن المقدسة منهم .

وبدخول ابراهيم باشا المصري إلى دمشق ١٨٣١م ، توقفت قافلة الحج لفترة من

---

(١) انظر : البديري الحلاق ، حوادث دمشق اليومية ، المقدمة . ص٥١ . تحقيق أحمد عزت عبد الكريم .

(٢) حدد تريس (TRESS) وقت مبارحة أمين الصرة للعاصمة العثمانية في ٢٥ رجب ووقت وصوله إلى دمشق من ٢٠ ــ ٢٥ رمضان في القرن الثامن عشر ويذكر تريس أن عدد المشتركين في قافلة الحج الشامي ٤٠ ألفاً ثم تناقص العدد في القرن التاسع عشر . وفي تقدير الرحالة بوركهارت ١٨١٤م بلغ عدد الحجاج /٥/ آلاف وفي عام ١٨٣٤م ٤٥٠٠ وفي عام ١٨٥٣م /٧/ آلاف حسب تقدير إيزابيل بورتن . نقلاً عن مقدمة أحمد عزت عبد الكريم ، لحوادث دمشق اليومية ، للبديري الحلاق ، ص٥١ .

(٣) يقول حسن آغا العبد : «أنا كنت صحبة الحج ، توجهت صحبة الوزير ، وأنا أرفا أميني وحجينا ، وكانت وقفتنا يوم الجمعة ، واجتمع حضرة الوزير مع محمد علي باشا وزير مصر ، ومراده يروح إلى الوهابي إلى بلدة الدرعية ، وجمع عساكر كثيرة ، وفي اثنين وعشرين ذي الحجة ، كان قيام الوزير والحاج من مكة إلى نحو الشام ، ووصل الحج والوزير إلى دمشق سالمين» . انظر : تاريخ حسن آغا العبد . ص١٠٦ و ص١٥٧ .

الزمن، ثم عادت لتستأنف **سيرها إلى مكة المكرمة.** ولقد انشغلت دمشق على المستويين الرسمي والشعبي بقافلة الحج، من حيث اعدادها واستعراضها وتوديعها، وفي بعض الأحيان إمدادها بما تحتاجه أثناء العودة. ويبدو أن موكب قافلة الحج سار على وتيرة واحدة تقريباً إلى هذه الفترة. وحسبنا أن نسوق وصفاً له ماأوردته إيزابيل بورتن للقافلة التي شاهدت موكبها في أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر حيث تقول: «تخرج أولاً الصناديق المقفلة بإحكام، والمربوطة بقماش الخام، والمختومة بخاتم الوالي الخاص، وتعقبها أربعة طبول وخلفها ثلاثون فارساً مكلفين بحراسة هذه الصناديق التي بها (عفش أمير الحج والقافلة) وتأتي بعدهم هدايا الحكومة العثمانية للمدينتين المقدستين»[1]، محروسة بجنود غير نظاميين، حلوا محل الجنود النظاميين، يؤلفون أربع كتائب، كل كتيبة منهم مكونة من ١١٣ رجل ويرأسها قائد. ولهذه الكتائب قائد عام برتبة (بمباشي)، فيمضي هؤلاء ليلتهم في مسجد القدم خارج بوابة الله أو (مصر قبوسي) أي باب مصر في الضاحية الجنوبية. وتعقب كتائب الفرسان تلك، جمال تحمل عفش أمير الحج، مزينة شكل جميل، عليها أوسمة بشكل مرايا، تتدلى منها بخيوط معدنية للزينة. ثم تعقب العفش محفات السفر، وفي آخرها جملان تتدلى عن جانبي كل منهما (محارتان) على شكل أسرّة الأطفال الهزازة أو على شكل سلال كبيرة، تستخدم للسفر والنوم، مغطاة بمظلات صغيرة، كل واحدة منها على شكل النجمة، لونها أزرق وضعت للوقاية من لفح أشعة الشمس، ويرتفع فوقها علم مثلث الشكل، مثبت على رأس رمح.

وكانت تسير بين الجمال خيالة (فرسان) من الرجال وبعض النساء اللواتي كن يرتدين الأزار ويعلو وجه الواحدة منهن نقاب (حجاب)، وهن على صهوات الجياد مفعمات بالنشاط والحيوية، كل واحدة منهن منفرجة الساقين شأن الرجال فوق تلك الصهوات.

ويمر بعد ذلك أفراد الفرقة الموسيقية يملؤهم الاعتزاز وهم يعزفون على آلاتهم المختلفة،

---

(١) خصص في عهد السلطان محمد شلبي العثماني ٤ آلاف ذهب لتوزع على فقراء الحجاز: كما خصص بعد ذلك السلطان سليم الأول بعد احتلاله لبلاد الشام سنة ١٥١٦م، لكل شيخ من شيوخ عشائر الحجاز، ولكل بدوي ذهبة.. ولكل شريف من الأشراف خمسمائة ذهبة، وخصص ٥ آلاف ذهبة لفقراء مكة المكرمة، وألفي ذهبة لفقراء المدينة المنورة، وقمحاً وأرزاقاً تقدر قيمتها بمائتي ألف ذهبة توزع على الفقراء والبدو. انظر: النمر، إحسان. تاريخ جبل نابلس والبلقاء، ج١. ص١ ص٦٣ و ص٦٤ و ص٦٥.

المكونة من النايات والأبواق والصنوج والباغودة من النحاس، وتتدلى منها أجراس صغيرة تصدح بألحان حزينة فتثير في نفس السامع الحزن والكآبة أكثر مما تثيره من حماس. ثم تعقب هذه الفرقة فرقة الطبول الصغيرة لتأتي بعدها عربة الوالي ويأتي خلفها الموكب الرئيس للقافلة، وعلى رأسه صفان من الضابطية يقودهم أحد البكوات أو قائمقام. ثم تأتي من بعدهم مجموعة من الفرسان يبلغ عددهم مائتي رجل بأزيائهم الحمراء القرمزية، ويتكون زي الرجل منهم من سترة صغيرة وبنطال واسع وعلى رأسهم العمرات ويتسلحون بالبنادق الصغيرة (القربينات)، وبعد ذلك تمر المدفعية ممثلة بمدفعين من النحاس على عربتين خضراوين، وسدنتهما يسيرون على الأقدام، حيث يكون في انتظارهم بقية سرية المدفعية المرافقة لقافلة الحج خارج بوابة الله. ويلي المدفعين تختروان فارغ خاص بأمير الحج مزين بالذهب... محمول على عضادتين مزخرفتين بنقوش مختلفة، وبه نوافذ عليها زجاج شاف لا يحجب الرؤية عمن في داخله، وعلى نوافذه ستائر خاصة، وفرشت أرضيته بالفرش المناسب وفوق الفرش سجاد، وزود في مقدمته بقنديل للاضاءة ليلاً. ويحمل التختروان بغلان أحدهما في مقدمته والآخر من خلف الأول. وهذان البغلان مسرجان بسرجين أحمرين مزركشين ينهدل عن ظهرهما قماش أحمر مطـرّز بجدائل وضفائر صفراء.

ويأتي خلف التختروان العلماء المحليون على صهوات جيادهم بأزيائهم الخاصة المميزة بياقاتستراتها العريضة والموشاة بالذهب، وتطوق طرابيشهم الحمراء لفات شاش مختلفة، أما معاطفهم فكانت قرنفلية اللون مطرزة وموشاة بدورها بأشكال جميلة للغاية. ويأتي في مقدمتهم الملا أفندي (قاضي القضاة) بعمامته البيضاء المزينة بشريط ذهبي وخلفه نائبه الحنفي ثم نوابه الآخرون بأزيائهم الرسمية، ويأتي بعدهم رجال الدين مع طلابهم الذين يرتدون تربانات (عمائم) مختلفة في أحجامها واتساعها وألوانها. للدلالة على وظائف أصحابها.

ويلي هذا الموكب المحمل الشريف ثم الصنجق فأمير الحج ويعقبه رتلان من حرسه الخاص والمكون بدوره من عدد من الرجال الأشداء، ومن ورائهم جنود يقرعون على طبولهم. ويأتي بعدهم مايقرب من مائة رجل من البدو الشجعان القادمين من جوار بغداد وحماه والسخنة أو أماكن أخرى من البادية، يركبون الهجن (الجمال السريعة) يتمايلون على ظهورها بقربيناتهم، وتتدلى من جمالهم شرابات طويلة. وتنطلق من الجمال رائحة قوية. أما ثيابهم فرثة ويقودون الهجن بعيدان من خشب اللوز أو مايسمى واحدها (بالمشعب) وكان بعضهم

يحمل سيفاً عربياً أو بارودة ذات سبطانة طويلة، تزينها شرابات خاصة، تتدلى منها، وبها نطاق من الجلد يطلق عليه نطاق الحج[1]. وتسير خلفهم جمال تحمل صناديق تحوي حقائب الحجاج وبضائعهم. ومن خلال هذا الوصف لموكب القافلة يمكن أن نلاحظ مدى الاهتمام الذي أولته الدولة العثمانية للقافلة في فترة التنظيمات لما لها من أهمية دينية وسياسية بالنسبة لها. ويمكن ملاحظة الفرق بمقارنة ذلك بما كان عليه وضع القافلة وموكبها في القرن السابع عشر[2].

وكان أبناء دمشق يتزاحمون على أبواب المدينة للولوج إلى داخلها في هذه المناسبة. وهم في أبهى حللهم القشيبة وألوان أزيائهم الزاهية. فتمر الشخصيات البارزة وهي تمتطي صهوات جيادها بسروجها المذهبة والبعض الآخر على الحمير البيضاء، وترى بعضهم يقف متكاسلا ليدخن في غليونه أو يحتسي القهوة، والنساء يقفن أمام المخازن على المصاطب النافرة

---

1 - Burton.I. op.cit.PP.54-55

(٢) يمكن أخذ مثال على ذلك وصف موكب قافلة الحج في دمشق في ٢٩ ك الثاني ١٦٩٧ كما ورد في كتاب توماس رايت حيث يقول: «كان أمير الحج لهذا العام والي طرابلس سنان باشا. ولضمان سلامتنا كأوربيين ودرء شر المتعصبين، استأجرنا حانوتاً في أحد الأسواق يمر من أمامه موكب القافلة.. فمر أولاً من أمامنا موكب فرسان مكون من ٤٦ دلي، يحمل كل واحد منهم بيده علماً من الحرير الأحمر والأخضر أو من الأصفر والأخضر، وجاء بعدهم ثلاث مجموعات من السكبان يقودهم رجل تركي. ثم جاء بعض جند السباهية بقيادة واحد منهم، فثمان سرايا من المغاربة (الذين كانوا يسمون بالأتراك البرابرة) سيراً على الأقدام، فمجموعة من الرجال المكلفين بحماية قلاع الحج والذين يبدلون كل عام بغيرهم من الجنود. وفي وسط المغاربة مرت ست مجموعات محلية سيراً على أقدامها وهي من جنود حامية قلعة دمشق، بستراتهم المدرعة، يحملون بأيديهم تروسهم الواقية، ثم قطعات أخرى عليها دروع قديمة، ثم قطعتان من فرسان الانكشارية يرأسهما الآغا، ومر بعدهما طوغا الباشا يحملهما آغا القصر، ومن ورائه ستة عناصر تقود خيولاً مسرجة بشكل ممتاز وأنيق، وفوق كل بردعة حصان حزام متين لقيادته، وعلى كل بردعة ترس فضي كبير مطلي بالذهب. ثم جاء بعد هذه الخيول المحمل، الذي هو عبارة عن سرادق (خيمة كبيرة أو فسطاط) من الحرير الأسود منصوبة على ظهر جمل ضخم للغاية، تتدلى شراشيبه من حوله حتى تصل إلى الأرض وتزين قمته كرة ذهبية، تتدلى منهما أيضاً شراشيب ذهبية. وكان جمل المحمل مزيناً بها لا حصر له من الزينات، كالمرايا والصدف وذيول الثعالب وأقمشة الزينة المختلفة، تتدلى على رقبته وفخذيه وإبطيه وظهره، وكان هذا المحمل يرسل سنوياً لتغطية ضريح النبي محمد (ص) في المدينة من قبل السلطان (Griat signoy) ليحل محل القديم الذي تصطحبه القافلة أثناء عودتها إلى دمشق. ويأتي بعد المحمل الباشا وحراسه وخلفهم عشرون جملاً محملاً، ومن خلفها تأتي بقية القافلة. وكان مرور الموكب يستغرق أربعين دقيقة تقريباً.

See: early travels in palestin. PP.489-490.

أمامها، والأطفال على أسطحة **المنازل والمحلات**. فكنت **لا** ترى بوصة واحدة مربعة إلا مشغولة بالنساء المتلفعات بالأزر الزرقاء والبيضاء، وبعضهن يحملن أطفالهن.

وكانت تلك المناسبة ممتعة للجميع إلى الدرجة القصوى، فكنت ترى في هذا الزحام الفرس والتركان عليهم عمائمهم وعباءاتهم الخاصة الفضفاضة المصنوعة من جلد الخواريف. أما الهنود والأفغان فيرتدون ستراتهم السوداء وعماماتهم الكبيرة البيضاء، والمغاربة ببرنسهم الوطني أبيض اللون وبأعداد كبيرة، والسمرقنديون والبخاريون الذين يمتازون بوجوههم المنبسطة وأنوفهم الفطساء وعيونهم الضيقة ونظراتهم الخالية من التعبير والشعر الباهت. أو الأصفر كالروس والقفقاسيين مسترسلي اللحى ويعتمرون بعمامات ضخمة لا لون لها. أو بقلنسوات فرائية خشنة، مطوقة بشاش مدرب. أما الجنود الأتراك فيرتدون زياً مزركشاً على شكل جنود الزواوة (الجزائريين)، والحجاج الفرس باللباد وبلحى أرجوانية أو مخضبة بالحناء، ويرتدي بعضهم جلود الحملان وتبدو على وجوههم مظاهر رسوخ العقيدة، ويتلفعون بسترات صوفية طويلة من الشال أو ماشابه ذلك. أو بثياب فضفاضة وبها نقاط خضراء محبوكةٌ بشكل جيد[1].

أما الطرق الصوفية فكانت كل واحدة منها تشارك في هذا الموكب بأسلوبها الخاص، فيقوم الدراويش بعمل عقدات (أنشوطات) على شكل وردة النساء مع قيامهم بالإنشاد والتراتيل الدينية كآيات من القرآن الكريم. وتراهم مسترسلي الشعر الطويل واللحى تصل بطولها حتى منتصف الصدر، ويضعون على رؤوسهم قلنسوات من اللباد. وترى على كتفي شيخ الطريقة جلد نمر أو غزال وتتدلى من عنقه سبحة خشبية الحبات أو مصنوعة من الخزز طويلة وضخمة تصل في طولها إلى حزامه أو وسطه، أو يحمل بيديه فرعاً يابساً من محار البحر يطلق عليه إسم كجكول (Kajkul)، أو وعاء من التنك، وتقوم النساء بوضع قطع نقدية صغيرة أو قطع من الخبز فيه[2]. في حين كان دراويش المولوية مع شيخهم يحتفلون بهذه المناسبة بطريقتهم الخاصة التي تتصف بدورانهم بانتظام وعلى رؤوسهم قلنسواتهم المخروطية الشكل المصنوعة من قماش الدرّاب ذي اللون (الأسمر الفاتح أو من اللباد)[3].

1 - See: Burton. Isabel. op.cit.PP.50.

2 - Ibid.P.50.

3 - Ibid.P.57.

واستغل هذه المناسبة بعض الكسبة لبيع الحلوى وحبوب البقول المسلوقة والمخللات (الكوامخ) كاللفت والشوندر أو الخبز المجفف والشرابات وغيرها، وينادون على سلعهم بكلمات وأصوات مختلفة مع قرع بعض الصحون المعدنية اللماعة على بعضها كبائعي السوس، حيث يحمل الواحد منهم وعاء السوس على ظهره ويفتح صنبوره بيده اليمنى عند الحاجة ليملأ الكأس ويقدمها لزبونه. وهناك بائعو الكعك والفواكه والمأكولات المختلفة، ولكل واحد منهم نداؤه الخاص الذي يختلف عن صاحبه لاسترعاء انتباه الجمهور إلى سلعته"[1].

٤ً ـ استقبال قافلة الحج

كان استقبال القافلة، كتوديعها، مرهوناً بالظروف الأمنية والسياسية والاقتصادية العامة والمحلية التي أحاطت ببلاد الشام والحجاز في هذه الفترة، والتي أثرت على عدد الحجاج المشاركين بالقافلة. لهذا نرى أن حجم القافلة وطريقة توديعها واستقبالها، مرّ في مراحل متباينة، بدءاً من السبعينات في القرن الثامن عشر. فبعد عزل أسعد باشا العظم وتعيين حسين باشا مكي بديلاً عنه هاجم بنوصخر القافلة في سنة ١١٧١هـ/١٧٥٨م[2] ونهب المحمل الشريف والصنجق، وقتل عدد من الحجاج، ونهب مابحوزتهم وتشتت شملهم، وسُبيت الحاجّات من النساء وانتهكت أعراضهن. وعزل حسين باشا مكي عن ولاية الشام كما قتل أسعد باشا العظم لاتهامه بتحريض البدو على ذلك، وعين عبد الله باشا الجته جي وكلف بالقضاء على البدو في طريق القافلة، وطلب إليه وضع قوات اليرلية كحاميات في قلاع الحج. ولكن مع ذلك تناقص عدد الحجاج[3]، رغم أنه قادها بأمان ودخل في معركة ح [illegible] وانتصر عليهم[4].

واستطاع خلفه عثمان باشا الكرجي أن يؤمن قافلة الحج مابين عامي ١١٧٤ ـ ١١٨٥هـ/١٧٦٠ ـ ١٧٧١م، بفضل ماعمره من قلاع ووضعه الحاميات فيها[5]. وعندما جاء محمد بك أبو الذهب ليحتل دمشق، تأثر وضع القافلة وتناقص عدد

1 - Ibid. P.57.

(٢) البديري. ص٢٠٦ و ص٢٠٧ و ص٢٠٨.

(٣) رافق، عبد الكريم. بلاد الشام ومصر، ص٣٥٦.

(٤) البديري. ص٢٢١.

(٥) رافق. بلاد الشام، ص٣٥٩ و ص٣٦٠.

المشاركين فيها . وفي عهد أحمد باشا الجزار الذي عين والياً على ولايتي صيدا ودمشق أكثر من مرة ، استطاع هذا بما لديه من قوة وبما استخدمه من بطش ، أن يؤمن قافلة الحج حتى وفاته (١٨٠٤م/١٢١٩هـ) ، رغم تعرض بلاد الشام في عهده لهجوم نابليون بونابرت وانشغاله في صده ، واستطاع خلفه سليمان باشا الجزاري ، تأمين قافلة الحج رغم مافرضه الوهابيون على القافلة من رسوم ، ومع ذلك كانت القافلة ناجحة ولم تتوقف . وفي عهد والي دمشق ابراهيم قطر آغاسي كانت قافلة الحج من القوافل الكبرى[١] .

إلا أن أحوال القافلة قد ساءت بدأً من ١٨٠٦م/١٢٢١هـ ، حين قام الوهابيون بقيادة سعود بن عبد العزيز بالسيطرة على المدينتين المقدستين (مكة والمدينة) وفرضوا شروطاً مهينة على أمير الحج عبد الله باشا العظم ، مما اضطره للعودة دون أداء مناسك الحج . ويعلق حسن آغا العبد بقوله : «جمع عبد الله باشا العظم أكابر الحج واستشارهم فشاروا عليه بأن يرجع من غير حج . فرجع هو والحجاج سوى»[٢] .

واستطاع الوهابيون أن يحكموا قبضتهم على الحجاز ، فتوقفت بذلك قافلة الحج نهائياً إلى سنة ١٨١١م/١٢٢٥هـ ، مما دفع بالدولة العثمانية بعد عجز ولاة دمشق وبغداد عن التصدي لهم ، لتكليف محمد علي باشا والي مصر للقضاء على الوهابيين ، فاستطاع أن يستعيد المدينتين المقدستين من الوهابيين في سنة ١٨١٣م/١٢٢٧هـ ــ ١٢٢٨هـ . واستأنفت القافلة سيرها من جديد إلى الديار المقدسة . إلا أن قافلة حج عام ١٨١٤م/١٢٢٩هـ أصيبت بطاعون قضى على الكثيرين من الحجاج . ولكن بعد هذا التاريخ زاد عدد الحجاج ، ففي سنة ١٨٢٤م/١٢٣٩ ــ ١٢٤٠هـ وصل عددهم إلى ٢٠,٠٠٠ حاج ، والتحق بهم / ٢٥٠٠ / حاج من بغداد في مزيريب[٣] . وأصيبت القافلة بنكسة أخرى في فترة الاضطرابات التي أصابت دمشق في عهد واليها محمد سليم باشا ، ثم توقفت في سنة ١٨٣١م/١٢٤٦ ــ ١٢٤٧هـ عندما دخلت قوات ابراهيم باشا المصري إلى دمشق حيث قام بإعفاء أهل دمشق من ضريبة الميري لهذا العام فحرمت القافلة من تمويلها[٤] .

---

1 -. Koury. province of Damascus. P.114.

(٢) العبد : تاريخه . ص١٣٢ .

(٣) مجهول . مذكرات تاريخية . ص٤٩ . حريصا ، لبنان .

4 - Koury. op.cit.PP.174-175.

وعندما عينت الدولة أميراً للحج ووالياً على دمشق علوش باشا «حضر بعسكر زهيد وموكب مختلف عن حال من هو وزير نظيره وذلك خوفاً واحتساباً، واجتهد في تدبير سفر الحج فتعسر الأمر وماراح الحاج بهذه السنة لعدم وجود السلامة»[1]. وبعدما سيطر ابراهيم باشا على كامل بلاد الشام استأنفت القافلة رحلاتها لأداء مناسك الحج، إلا أن عددها تناقص بسبب ظروف الحرب بين المصريين والعثمانيين، إلى أن انسحبت القوات المصرية من بلاد الشام في سنة ١٨٤٠م فقامت الدولة العثمانية بتنظيمها مرة أخرى.

أما مايخص استقبال القافلة في دمشق في الحالات العادية فكان يجري على الشكل التالي: يدخل الجوقدار مابين الرابع والعشرين والسابع والعشرين من شهر محرم ليبشر بسلامة القافلة[2]، فيخرج الناس لملاقاة ذويهم الحجاج إلى خان ذنون والبعض الآخر إلى أبعد من ذلك. فإذا كان الوقت ليلاً ينادون على الحجاج يافلان «باسمهم من أجل التعرف على أقربائهم بين هذا الحشد الكبير من الحجاج»[3]، ثم يرافقونهم إلى دمشق حيث تكون شوارعها غاصة بالناس على امتداد أميال وبحشد كبير من المتفرجين، وكنت ترى من القلق بادياً على الوجوه حتى يطمئنوا على عودة الأقرباء والأصدقاء. والجميع ينظرون إلى الحجاج نظرة الاحترام والتبجيل، لما عانوا وتجشموا من المصاعب والمخاطر في طريقهم لأداء مناسك الحج. وكنت ترى الحجاج من هو سائر على قدميه أو راكب حماراً أو جملاً أو حصاناً أو في محفات (تختروان) أو محارات على جانبي الراحلة.

وفي السادس من شهر صفر يدخل المحمل الشريف، يرافقه «موكب من الكواخي والبشاوات ويرافقه غالباً والي صيدا أو طرابلس ثم أمير الحج الشامي»[4] ويدخل أمام أمير القافلة / ٣٠٠ / دالي (خيال)، على صهوات جيادهم مسلحين بأسلحة فردية متنوعة ثم عدد من الرجال على ظهور الجمال، وهم مسلحون بالقربينات (بنادق قصيرة) يضعونها أمامهم مثبتة على قاعدة دوارة، ثم يدخل بعد ذلك كبار ضباط المدينة مرتبين على نسق

---

(١) انظر: الدمشقي، ميخائيل. تاريخ حوادث الشام ولبنان. سنة ١١٩٢ ـ ١٢٥٧هـ / ١٧٨٢ ـ ١٨٤١م تحقيق سبانو.

(٢) البديري: المصدر السابق. ص١٧٩ و ص١٨٣ و ص١٨٨.

(٣) انظر: الخياري، ابراهيم. تحفة الأدباء وسلوة الغرباء. ج١. ص٨٥ و ص٨٦ ـ بغداد ١٩٦٩م.

(٤) الخياري أيضاً. ص١٨٨.

جيد . وبأزيائهم الخاصة المزركشة ، ويسير خلفهم عدد من الانكشارية التابعين لوالي طرابلس بقبعاتهم الجيدة وبتسليحهم الكامل ، حيث يسير وراءهم الباشا نفسه مع ضباطه وبقية حرسه الخاص . ثم يعقبهم عدد من الرجال المسلحين بالقربينات وعددهم ٣٠ رجلاً وخلفهم ١٥٠ رجلاً من الألبانيين في زيهم الخاص المتميز ، يسيرون بتنظيم اثنين اثنين ، ثم يعقبهم الصنجق الشريف ، وهو من الحرير الأخضر ، وعليه بعض الآيات القرآنية ، بخيوط من ذهب ، تحميه عناصر من المشاة المغاربة الأقوياء ثم تعقبهم أطواخ الباشا الثلاثة ، وهي من شعر الخيل الأبيض يحملها عدد من الرجال على ظهور اثني عشر حصاناً ، سروجها مفرطة في زركشتها وزينتها ، ويحمل كل واحد منهم ترساً فضياً وسيفاً مقوساً ذا حد وحيد . ثم ستة رجال يقودون جمالاً بحللهم القشيبة . ويعقب هؤلاء عدد من أعيان دمشق ، منهم آغا القابيقول في قلعة دمشق ، ومن ورائه المحصل وأخيراً الباشا نفسه الذي يرتدي رداءً من القماش الأخضر ، مزيناً بفراء الثعلب الأسود ، ثم خلفه حرسه الخاص المكون من ٤٠٠ مسلح على ظهور جيادهم ، يسيرون على نسق دقيق . ومن بعدهم ١٠٠ جمل تحمل خيام وحاجيات السفر . كل ذلك والموكب يمر بدون جلبة أو ضوضاء ، والدماشقة واقفون للفرجة لساعات طويلة[1] .

أما الحجاج الغرباء فكانوا يتابعون مسيرهم باتجاه أوطانهم والبعض الآخر يبقى في دمشق لعدة أيام ثم يتابع طريقه باتجاه الوطن . ويستعد الحجاج الدماشقة لاستقبال المهنئين من الأقرباء والأصدقاء ، ويتبادلون الهدايا ، كل حسب مقدرته المادية ، بهذه المناسبة .

ولم يكن استقبال الحجاج في دمشق بالضرورة على هذا النسق في كل عام فقد لعبت الظروف الأمنية التي أحاطت بطريق القافلة وداخل دمشق دوراً في ذلك[2] . ففي هذه الفترة

---

1 - See: Browne.W. «travels in Africa Egypte and Syria». PP.395-396.and : Barker, Edward, Syria and Egypte under the Last five Sultans of Turkey. VOL.1.PP.156-158.

(٢) ولم يكن موكب استقبال الحجاج في دمشق بالضرورة على هذا النسق فقد لعبت الظروف الأمنية التي أحاطت بطريق القافلة دوراً في ذلك . وحسبنا أن نسوق مثالاً على ذلك ماحصل للقافلة في سنة ١١٧١هـ/١٧٥٨م حيث قام البدو بمهاجمتها ، ويقول البديري أنه جاءت الأنباء في سابع عشر صفر من نفس العام إلى الشام « بأن الحج قد شلحه العرب ونهبوه والعرب سلبت الرجال والنساء أموالهم وحوائجهم . فضجت العالم وتباكت الخلق وأظلمت الشام وبلغ الناس بأنه جاء إلى المتسلم ستة مكاتيب أن يخرج إلى

تجمعت ظروف عدة انعكست على استقبال القافلة بشكل سلبي ، فمنها عزل الولاة وهم في طريقهم إلى دمشق[1] . أو منعت القافلة من أداء مناسك الحج ، فعادت من حيث أتت قبل دخولها الأماكن المقدسة بفعل سيطرة الوهابيين عليها ، وبتهديدهم لدمشق نفسها . أو هوجمت من البدو في طريق عودتها فشتتوا شمل الحجاج بعد نهب مابحوذتهم ، ناهيك عن مهاجمة دمشق نفسها من قبل قوات خارجية كقوات أبي الذهب أو تهديدها بالهجوم بقوات نابليون بونابرت التي وصلت طلائعها إلى جبل طابور[2] .ثم هجوم قوات ابراهيم باشا المصري على دمشق واحتلالها وزحفها شمالاً ، مما جعل الطرقات غير آمنة ، بفعل الصدام بين قواته وقوات السلطان . وقد أدى ذلك كله إلى خلق جو من الاضطراب وفقدان للأمن أثر بدوره أيما تأثير على القافلة ككل ، من حيث توديعها واستقبالها . ودام الحال إلى خروج ابراهيم باشا المصري من سورية ، وهي نهاية فترة دراستنا ، حيث استعادت الدولة العثمانية تلك الممتلكات التي كانت مقسمة بينها وبين السلطات المصرية ، كما أعادت تنظيم قافلة .

ومن جهة أخرى فقد شاهدت دمشق مواكب كبرى ، كاستقبال خزنة مصر المرسلة إلى استانبول براً عن طريق دمشق . وصادف وصولها أحياناً وصول قافلة الحج الشامي[3] وعلى أيام متتالية . كما أقامت دمشق موكباً لاستقبال ماء السمرمر[4] ، وكانت العادة أن يخرج

الحاج نجدة فلم يظهرها فقامت العامة وهجموا على المتسلم في السرايا ورجموه بالأحجار ... وفي يوم الخميس خامس وعشرين صفر الخير أقبلت انكشارية الشام من جهة الحج ومعهم حجاج مركبين كل اثنين أو ثلاثة على دابة وهم في آخر درجة العدم والمنادي معهم معه راية بيضاء ينادي هذه راية الانكشارية فضجت الناس بالبكاء والويل وأخبروا أن خلفهم خلق كثير من الحجاج ومعهم النساء والبنات مع الكشرة حفايا عرايا وبعد يومين أقبلت شرايحة الانكشارية من المزيريب ومعهم المشطجي والقفطجي والجميع مشلحين وفي ذلك اليوم رجعت الانكشارية ومن بقي من الملاقية .. وفي يوم الجمعة ثالث عشر ربيع الأول وصل خبر إلى دمشق أن عمر الحاميد شيخ حوران وجد المحمل والسنجق عند العرب وقد أرضاهم حتى فكهما منهم وفي سادس وعشرين ربيع الأول وصل المحمل ودخل الشام وهو محمول على جمل وقد ستروه بثوبه الأخضر التحتاني ومعه محمد بشة السقباوي وبعض فرسان درو وبعض عربان ثم صارت الحجاج تأتي زمراً زمراً ثم جاءت البلطجية ومعهم قاضي المدينة وبعض النساء . انظر : البديري . ص٢٠٦ و ص٢٠٧ و ص٢٠٨ و ص٢٠٩ .

(١) مجهول . حوادث الشام ولبنان ، ص١٤ .

(٢) العبد . تاريخه . ص٨٦ .

(٣) انظر : البديري . ص١٧٨ .

(٤) والسمرمر نوع من الطير كان الناس يعتقدون أنه يفتك بالجراد فكانوا يحرصون على الاتيان به إذا نزل الجراد ←

لملاقاته مشايخ وأهل الطرق الصوفية بالإعلام والمزاهر وطبول الباز ويدخلون بموكب عظيم ويبكي خلق كثير ويقومون بتعليقه في منارة الشيخ الأكبر (الشيخ محي الدين) في الصالحية ومنارة تكية المرجة ومنارات الجامع الأموي وفي بعض الأماكن الأخرى[1].

فمثلاً سنة ١٨١٦م/ ١٢٣١ ـــ ١٢٣٢هـ أغارت أسراب الجراد على بلاد الشام وأهلكت الزرع، ويقول الأمير حيدر الشهابي: «أرسل الله السمرمر ففقس في أرض وادي التيم وغير أماكن ثم لحق الجراد بعد طيرانه فاختفى من جميع عربستان»[2] وبقي الاهتمام بماء السمرمر إلى دخول ابراهيم باشا المصري حيث استخدم طرقاً حديثة في مكافحة الجراد، وبدأ الاهتمام يتراجع بماء السمرمر منذ ذلك التاريخ إلى أن توقفت مواكبه نهائياً في دمشق.

أعياد أهل الذمة في دمشق

احتفل النصارى من أهل الذمة في دمشق بأعيادهم الدينية الخاصة[3]، إلا أن

بأرضهم ولكنه في اعتقادهم لا يأتي إلا تابعاً نوعاً خاصاً من الماء يجلب خصيصاً من عين بين أصفهان وشيراز فإذا نزل الجراد بأرض، جلب إليها من تلك العين ماء، بحيث أن حامل الماء لا يضعه على الأرض ولا يلتفت وراءه، فيبقى طير السمرمر على رأس حامل ذلك الماء كالسحابة السوداء إلى أن يصل الأرض التي بها الجراد، وتقع الطيور عليه وتقتله. ومن شرطه أن يكون حامل الماء من أهل الصلاح ولا يمر به تحت سقف فإن فعل بطل مفعوله.

انظر: المرادي، سلك الدرر. ج٣. ص٢١٤ و ص٢١٥. ثم الغزي. ج٣. ص٢٣٠ و ص٢٦١ و ص٢٦٤.

(١) انظر: البديري. ص٨١.

(٢) ج٣. من تاريخه. ص٦٣.

(٣) كان لدى المسيحيين على اختلاف طوائفهم أعياد وأصوام وقطاعات. فلدى الطوائف الكاثوليكية عيد الختانة ويصادف يوم الأحد الأول من كانون الثاني. ثم عيد الغطاس في ٦ كانون الثاني. ثم عيد دخول المسيح إلى الهيكل في ٢ شباط. وعيد مار مارون لدى الموارنة في ٩ شباط. ثم عيد مار يوحنا مارون في ٢ آذار وعيد الأربعين في ٩ آذار وعيد البشارة أو بشارة العذراء في ٢٥ آذار. وعيد الفصح في ١٦ نيسان وتأتي القيامة في ١٧ نيسان. ثم عيد حماية مار يوسف في ٧ أيار. وعيد خميس الصعود في ٢٥ أيار وعيد العنصرة في ٤ حزيران ثم عيد الثالوث الأقدس في ١١ حزيران. وعيد خميس الجسد في ١٥ حزيران. وعيد قلب يسوع في ٢٣ حزيران وعيد مولد يوحنا المعمدان في ٢٤ حزيران وعيد الرسولين بطرس وبولس في ٢٩ حزيران وعيد مار غريغوريوس عند الأرمن في ١ تموز ثم عيد مار توما الرسول عند الكلدان في ٣ تموز ثم عيد الشهداء المسابكيين في ١٠ تموز ثم عيد إيليا النبي في ٢٠ تموز ثم عيد القديسة حنة أم العذراء في ٢٦ تموز

احتفالاتهم كانت على نطاق الحارات التي **يقطنونها وضمن** أديرتهم وبيعهم وكنائسهم، سواء ماكان منها داخل دمشق أو في القرى المحيطة بها.

وكانت طريقة الاحتفال وزمنه يختلفان من طائفة إلى أخرى، لأن كل واحدة منها تتبع تقويماً يختلف عن الأخرى. وأيضاً بحسب رأيها في قدسية العيد. ونتيجة لتلك الإختلافات كانت أعياد كل طائفة تتقدم أو تتأخر عن الطائفة الأخرى. وكان لكل طائفة قديسوها الذين تحتفل بأعياد ميلادهم أو ذكرى وفاتهم. ولن نرصد هنا إلا الأعياد الرئيسة الكبيرة والصغيرة لدى النصارى، التي كانوا يحتفلون بها في دمشق في تلك الفترة.

فالأعياد الكبيرة هي: عيد البشارة الذي بشر فيه جبريل العذراء بمولد السيد المسيح عليه السلام، ثم عيد الزيتونة أو الشعانين ومعناه التسبيح في ذكرى دخول السيد المسيح إلى القدس ثم دخوله الهيكل راكباً على اليعفور (الحـ ر)، والناس بين يديه يسبحون، وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. ثم العيد التالي وهو عيد الفصح، وهو بمثابة العيد الكبير لدى المسلمين وهو يوم الفطر لديهم بعد صومهم الأكبر وتمثيل قيام السيد المسيح بعد صلبه ودخوله على تلامذته وتسليمه عليهم وأكله معهم وإقامته في الأرض أربعين يوماً. ثم العيد الرابع وهو خميس الأربعين حيث ترك تلامذته وصعد إلى السماء ثم العيد الخامس وهو عيد الخميس أو عيد العنصرة. ويعتقد النصارى أن روح القدس حلت في حواريي السيد المسيح. ثم عيد الميلاد ثم عيد الغطاس حيث قام يوحنا المعمدان (يحيى بن زكريا) بتعميد السيد المسيح في مياه الأردن[1].

ثم عيد مولد السيدة في ٨ أيلول ثم عيد الصليب المقدس في ١٤ أيلول ثم عيد الملائكة الحراس في ٢ تشرين الثاني ثم عيد القديس ديمتريوس في ٢٦ تشرين الأول ثم عيد جميع القديسين في ١ تشرين الثاني ثم عيد تقدمة العذراء للهيكل في ٢١ تشرين الثاني ثم عيد القديس يوحنا الدمشقي في ٤ كانون الأول ثم عيد ميلاد الرب حسب الجسد في ٢٥ كانون الأول الحبل بلا دنس في ٨ كانون الأول انظر: جريدة البشير ص٣٥ ص٣٦ ٣٧ عدد أيلول ١٩٣٢م. بيروت. أما أعياد الروم الأرثوذكس فهي: عيد رأس السنة الشرقي في ١ كانون الثاني ثم عيد الغطاس في ٦ كانون الثاني ثم عيد دخول المسيح إلى الهيكل في ٢ شباط شرقي ثم عيد البشارة في ٢٥ آذار ثم عيد الفصح في ٣ شباط ثم عيد الصعود في ١٢ أيار شرقي وعيد العنصرة في ٢٢ أيار شرقي ثم عيد التجلي في ١٦ آب ثم عيد إنتقال العذراء في ١٥ آب شرقي ثم عيد ميلاد العذراء في ٨ أيلول ثم عيد تقدمة العذراء للهيكل في ٢١ تشرين الثاني ثم عيد الميلاد في ٢٥ كانون الأول شرقي.

انظر: جريدة البشير. ص٣٩. عدد أيلول ١٩٣٢م.

(١) انظر: المقريزي، تقي الدين. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. ج١. ص٢٦٤ و ص٢٦٥ و ص٢٦٩.

أما الأعياد الصغيرة فهي: عيد الختان وهو خاص بالأقباط، حيث يقومون، دون غيرهم من النصارى، بختان أبنائهم، ثم عيد الأربعين وخميس العهد، وحد الحدود. ثم عيد التجلي ثم عيد الصليب. وفي هذا العيد من كل عام كانت تجرى قرب دير صيدنايا اجتماعات وأفراح، ويأتيها الناس من الأقاليم المجاورة وغيرها (١).

وكان للنصارى تقاليدهم الخاصة للاحتفال بهذه الأعياد. إلا أن ذلك كان يتم في أحيائهم الخاصة وفي بيعهم(٢)، وبقي حالهم كذلك إلى أن احتل ابراهيم باشا المصري دمشق حيث ألغى القيود عن أهل الذمة، فنالوا بعض حقوقهم التي حرموها في العهود السابقة، وتغير حالهم في طريقة الاحتفالات.

أما الفئة الثانية من أهل الذمة فكانت طائفة اليهود، التي لم يبق منها في دمشق سوى أتباع فرقتين هما: فرقة (الربانيين والسامرة)، وكان لكل فرقة من هاتين الفرقتين كنسها، وخصصت في كل بيت من بيوتهم حجرة كبيرة للعبادة، وكانت كنسهم العامة عديدة ومنتشرة في أحيائهم، وأشهرها كنيس سوق الجمعة(٣) ثم كنيس جوبر وهو أقدمها(٤)، ولقد احتفلوا بأعيادهم ومناسباتهم الدينية على طريقتهم الخاصة. وقسمت المصادر الغربية أعيادهم إلى قسمين(٥): أعياد شرعية وأعياد محدثة.

---

(١) انظر: كرد علي، محمد. خطط الشام. ج٦. ص٣٤.

(٢) انظر: الدمشقي، ميخائيل. حوادث الشام ولبنان، ص١٣. تحقيق سبانو.

(٣) انظر: القساطلي، نعمان. الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، ص١٠٤.

(٤) وفيه مغارة النبي الياس (إيليا) أو الياهو ويذكر الرحالة اليهودي الرابي بتاخيا الراتزبوني الذي قام برحلته مابين ١١٧٠ ـــ ١١٨٧م وزار دمشق فيها أنه بقرب دمشق كنيس مشهور قديم بناه النبي اليشاع ويقصد بذلك كنيس جوبر انظر:

Adler. «jewish Travelers. The travel ot Rabbi Petachia of Ratislon 1701-1767. AD.P.90.

نقلا عن الفارس دارفيو. وصف دمشق في القرن السابع عشر، ص٩٢. ترجمة أحمد إيش كما ذكر الرحالة اليهودي الرابي موشيه باسولا (١٥٢١ ـــ ١٥٢٢م)، أن سدنة الكنيس أخبروه أنه قائم منذ أيام اليشاع ولقد بنى الكنيس بعد عام ٣٠٤٣ للخليقة / القرن التاسع قبل الميلاد / ومن ثم اتخذ اليهود حول الكنيس قرية سكنوها وهي جوبر، ورغم قدم الكنيس فإن الكتب الحديثة لم تعرج على ذكره إلا نادراً، وكان سكان جوبر يعدون في سنة ١٨٣٩م ٦٠٠٠ نسمة وقد نهب قبل هذا التاريخ بفترة، ولكنه لم يعز اليهود السطوالي الدولة، لأنها كانت تعاملهم معاملة حسنة

See: Bowring Areport on the commercial statistics of Syria.P.7.

(٥) القلقشندي. صبح الأعشى / ج٢. ص٤٢٦ و ص٤٢٨. والمقريزي. الخطط. ج٢. ص٤٧١

أ ــ أما الأعياد الشرعية: وعددها خمسة وهي مانطقت التوراة بها، وهذه الأعياد هي: عيد رأس السنة أو رأس هاشا وبالعبرية الحديثة (روش هاشناه)، وهي بمثابة عيد الأضحى عندهم، ويحل موعده في أول تشري أحد شهور اليهود ٢١ أيلول[1]، في ذكر افتداء الله لاسماعيل بعد أن كاد ابراهيم عليه السلام أن يذبحه تنفيذاً لأمر الله سبحانه وتعالى، ويعتبر هذا العيد أيضاً عيد عتق وحرية اليهود، لخلاصهم من فرعون، وسمّاه المقريزي (بعيد البشارة) وكان اليهود الربانيون يحتفلون به بنفخ الأبواق أثناء الصلاة في معابدهم. أما العيد الثاني فهو عيد (صومازيا) أو الكبور وهو يوم الغفران أو الكفارة أو عيد الغفران الكبير لديهم، وهو الصوم الكبير وجعل مدته الربانيون خمساً وعشرين ساعة، تبدأ قبل غروب شمس التاسع من تشري وتنتهي بعد مضي ساعة من غروبها في اليوم الثاني (٣٠ أيلول)، ولقد تشدد السامرة في صيام ذلك اليوم حتى أنهم لم يستثنوا منه الأطفال الرضع، وقد عرف هذا العيد بالعاشور، وقد اشترط اليهود رؤية ثلاثة كواكب عند الغروب لجواز الإفطار، ويعتقد اليهود أن هذا اليوم هو تمام الأربعين الثالثة التي صامها موسى عليه السلام.

ثم عيد المظلة أو عيد الظلل أو الظل أو الظلال، كان الاحتفال به في الخامس عشر من شهر تشري / ٥ ت١ / وهو سبعة أيام يعيّــدون في أولها وفي اليوم الثامن عيد الاعتكاف عند الربانيين ويجلسون فيه تحت ظلال سعف النخل الأخضر وأغصان الزيتون وغيرها من الأشجار التي لا يتناثر ورقها على الأرض، تذكاراً للغمام الذي أظلهم الله به في التيه.

ثم عيد الفطير وقد سمي أيضاً بعيد الفصح، ويقع في خامس عشر شهر نيسان (الموافق ١ نيسان) اليهودي، واحتفل به الربانيون ثمانية أيام بينما احتفل به السامرة لمدة ستة

ومابعدها. ثم قاسم عبده قاسم. أهل الذمة في مصرفي عصر سلاطين المماليك، ص١٤٦ ومابعدها القاهرة آذار ١٩٧٥.

(١) يعتبر شهر تشري سابع شهور السنة العبرية من الوجهة الشرعية رغم أن المتعارف عليه بين اليهود أنه أول شهور السنة العبرية، والسبب في هذا التحوير أن خروج بني اسرائيل من مصر كان في شهر نيسان الذي أمروا فيه بعيد الفصح، ومن ثم يعتبر شهر نيسان بداية العام شرعاً والسنة العبرية الآن هي ٥٧٤٤ من بدء الخليقة. وهي تقابل ١٩٨٣م. انظر: المقريزي الخطط ج٢. ص٤٧١ و ص٤٧٣. ثم مراد، فرج القراؤون والربانيون ص١٢٤ و ص١٢٥. وحسن ظاظا، الفكر الديني الاسرائيلي ص١٩٤ و ص١٩٨. ثم جريدة البشير العدد ١٩٣٢/ ص٤٠، بيروت المطبعة اليسوعية.

أيام فقط، وفي أثناء هذه الأيام، ينظف اليهود بيوتهم، من خبز الخمير ولا يأكلون سوى الفطير، احتفالاً بذكرى نجاتهم من فرعون، وخروجهم إلى الصحراء، ويعملون خبز الفطير، ويحيون حياة البداوة، ولا يصح هذا العيد لدى الربانيين أن يبدأ يوم الاثنين أو الأربعاء أو الجمعة، ويعتبر هذا العيد من مواسم التضحية والحج لديهم. فيحج الربانيون إلى بيت المقدس، ويضحون على الصخرة المقدسة، بينما يحج السامرة إلى جبل جرزيم بنواحي نابلس ويضحون على صخرته.

أما العيد الخامس فهو عيد الأسابيع أو عيد العنصرة أو شبعوت أو عيد الخطاب ويسمى بالعبرية (عشرتا) الاجتماع أو هي الأسابيع التي أنزل الله فيها الفرائض على بني اسرائيل، ومنها الوصايا العشر المنسوبة إلى النبي موسى، وموعد الاحتفال بهذا العيد في السادس من شهر سيوان ٣١ أيار، وفيه يصنعون القطائف ويأملونها تذكاراً للمن والسلوى التي أنزلها الله عليهم في التيه كما يزعمون، ويعيّد الربانيون فيه ويجب أن يكون عندهم يوم الثلاثاء أو الخميس أو السبت[(١)].

ب ـــ أما أعياد اليهود المستحدثة فهي: عيدان أولهما عيد الفوز (بالعبرية البوريم) وموعده السنوي ثالث عشر آذار ومن قائل في ٩ آذار، ويبدأ بصوم يسمى بصوم أستير[(٢)]،

---

(١) انظر: قاسم: المرجع السابق، ص١٤٦ و ص١٤٧ و ص١٤٨ و ص١٤٩ و ص١٥٠. ثم جريدة البشير العدد ١٩٣٢ / ص٤٠، بيروت المطبعة اليسوعية.

(٢) وتدور أصول هذا العيد التاريخية حول قصة أستير الواردة في السفر المعروف باسمها والذي يتكون من اثني عشر صحاحاً تحكي قصة مفادها أنه بعد تدمير أورشليم على يد بخت نصر سنة ٥٨٦ ق. م ونقل اليهود من فلسطين إلى بابل في الأسر البابلي الشهير وأثناء سكناهم هناك وقع امبراطور الفرس: (أكسركيس) يسميه اليهود (أحشويروش) ويسميه المؤرخون العرب (ازدشير بن بابك) في غرام أستير التي كانت رائعة الجمال، وكانت ابنة عم أحد أحبار اليهود واسمه (مردوخاي) ولما تزوج الامبراطور الفتاة الجميلة حظيت عنده بمكانة كبيرة، مما جعله يقرب مردوخاي ابن عمها، وكان للملك الفرس وزير اسمه هامان (هيمون) أثار غيظهم ماتوصل إليه اليهود من مكانة لا سيما مردوخاي فأقسم هامان أن سيتأصل شأفة اليهود جميعاً من بلاده وحدد لذلك موعداً هو اليوم الثالث عشر من آذار ولكن جواسيس مردوخاي أخبروه بذلك فنقله إلى ابنة عمه التي أخبرت الملك بدورها فأمر بقتل هيمون وأباح لليهود قتل (شيعته) لمدة يومين من الثالث عشر حتى الخامس عشر من آذار. فاتخذ اليهود من هذه المناسبة عيداً اتسم بمظاهر اللهو والخلاعة حتى أطلقت عليه المصدر العربية اسم (المسخرة أو المساخر).. انظر: قاسم، قاسم، المرجع السابق، ص١٥٠. ثم انظر: جريدة البشير العدد ١٩٣٢م/ص٤٠، بيروت.

ويستمر حتى خامس آذارا، حيث يتم احتفال صاخب. ويتسم الاحتفال به بمظاهر اللهو والخلاعة حتى أطلقت عليه المصادر العربية اسم المساخر أو المسخرة.

أما ثاني الأعياد المستحدثة فهو عيد (الحنكة أو الحانوكة) أي التنظيف، ويستمر ثمانية أيام، تبدأ من ليلة الخامس والعشرين من شهر كسليو أو كسليف، ويقع في ١٣ كانون الأول. وترجع مناسبة هذا العيد إلى سنة ١٦٥ق. م عندما حاول الملك اليوناني إرغام اليهود على عبادة الأصنام، ولكن كاهنهم الأكبر قاد حركة مقاومة ضده، وانتصر وانتزع من الهيكل الأوثان الإغريقية، وزوّد الهيكل بمذبح جديد، وفي هذا العيد يوقدون المصابيح على أبواب دورهم في كل ليلة حتى تتم ثمان ليال. وكان يحتفل بهذا العيد الربانيون دون غيرهم[١]. ويتبادلون الهدايا بهذه المناسبة فيما بينهم.

ومن المواسم الدينية لديهم صوم السابع عشر من تموز وصوم التاسع من آب. أما يوم السبت لدى اليهود فهو مقدس، وتقوم نساؤهم بإعداد البيت لهذا اليوم بدءاً من ظهر يوم الجمعة، فكن يذهبن إلى الحمام، ويقمن بإيقاد الفوانيس قبل بدء يوم السبت. ويقوم رجالهم بترك أعمالهم قبل الوقت المعتاد ويرتدون أجمل مالديهم من الثياب، ويعدون أنفسهم لأداء فرائض العبادة منذ الصباح، وبعد الظهر يذهبون مع النساء إلى الكنيس للعبادة والصلاة. وبعد الصلاة يتبادلون الزيارات. وفي المساء كنت ترى رجالهم يتنزهون في الحدائق والجنائن ويجلسون على شرفات منازلهم. ويتوقفون في هذا اليوم عن أداء أي عمل، وحتى طعامهم يكون معداً من اليوم السابق للسبت، ويمتنعون عن إضرام أية نار، وذلك انسجاماً مع تقليد ديني قديم. ولا يسمح بتجاوز هذا التقليد إلا في حال وجود مريض في البيت، تقتضي حالته تناول طعام خاص أو ساخن. وكانوا يستخدمون في بيوتهم خادمات من البدو أو المسيحيات. وفي يوم السبت كنت تشاهد نساء بدويات يتكسبن في أحياء اليهود بتقديم نار لنارجيلاتهم وينادين في أحيائهم (نار، نار) ونادراً ماكانوا يقومون بزيارة المرضى منهم في هذا اليوم، مالم يكن من الأقوياء المقربين وحتى نساءهم كن يفعلن فعلهم[٢].

---

(١) انظر: قاسم، قاسم، المرجع السابق، ص١٥٢.

2 - Russell. alex.op.cit.VOL.2.PP.64-65.

ثم انظر: جريدة البشير: ص٤٠، العدد ١٩٣٢م، بيروت.

المواكب والاحتفالات الرسمية في دمشق

شاهدت دمشق في هذه الفترة إحتفالات ومواكب غير دينية متعددة، اختلفت مراسمها ومدتها وعدد المشاركين بها من وقت إلى آخر، وبحسب ظروفها الداخلية. وأهم هذه المواكب ماكان يتم بمناسبات سلطانية كتنصيب سلطان جديد في استانبول أو ولادة الأمراء والأميرات فيها، وختان أبناء السلاطين. واحتفت دمشق بالصدور العظام القادمين إليها، أو بالولاة المولين عليها. وبمجيء المقرر السنوي لهم أو بمناسبة قدوم دفتردار أو قاض، وغيرهم من الشخصيات الهامة العسكرية والمدنية والدينية. كما نصبت الزينات وأقيمت المواكب والأفراح بمناسبة الانتصارات العسكرية آنئذ.

وسعت السلطات العثمانية لاظهار هذه المواكب في دمشق بمظهر الأبهة، لاعتقادها بأن ذلك قد يرسخ احترامها في نفوس الدمشقيين، والتعويض عما افتقدته من هيبتها من جراء الهزائم العسكرية على جبهات القتال.

ومن جهة أخرى فإن الظروف الداخلية في الدولة العثمانية، والمحلية التي أحاطت ببلاد الشام، قد أثرت أيما تأثير على طابع هذه الاحتفالات. فكثرة عزل الولاة وقصر مددهم في مناصبهم، وتنامي القوى المحلية، والحملات العسكرية التي اجتاحت دمشق أو هددتها بالاجتياح، مثل حملة أبي الذهب الأولى والثانية، وحملة نابليون بونابرت على فلسطين وحصاره لها، وقيام الحركة الوهابية في الجزيرة العربية واحتلالها للأماكن المقدسة، وتهديدها لدمشق نفسها، ومقتل بعض الولاة على يد القوى اليرلية في دمشق، واحتلال القوات المصرية لها سنة ١٨٣١م/١٢٤٦ ـــ ١٢٤٧هـ، ناهيك عن ظروف استانبول والصراعات فيها، وعزل السلاطين ومقتلهم، كل ذلك انعكس على دمشق وأثر فيها بشكل سلبي، وانعكس على طبيعة مواكبها واحتفالاتها، ومع ذلك نرصد بين الفينة والأخرى مواكب متنوعة، أقيمت في دمشق في مناسبات مختلفة، كانت من أهمها:

١ً ـــ الاحتفالات بالمناسبات السلطانية المتعددة، كالاحتفال بتنصيب السلاطين وولادة الأمراء وختان أبنائهم

أ ـــ الاحتفال بتنصيب سلطان جديد: حيث كانت ترد الأوامر إلى الوالي بهذه

المناسبة لاقامة الزينات والعراضات (المواكب) لمدة سبعة أيام . ولكننا نلاحظ في هذه الفترة أن سلطانين قد قتلا ، وهما : السلطان سليم الثالث ومصطفى الرابع ، والسلطان الثالث هو السلطان محمود الثاني الذي استخدم العنف في تصفية الانكشارية وأعوانهم في استانبول . ولم يورد الإخباريون أي ذكر لاحتفالات أقيمت في دمشق بمناسبة تنصيب هؤلاء السلاطين ، وجل ماذكروه . عزل سلطان ونصب آخر . وهكذا فإن أمر الاحتفالات في دمشق بهذه المناسبة توقف على أوضاع استانبول وأوامرها .

ب ــ **الاحتفال بولادة الأمراء والأميرات** : أولت السلطات المركزية في استانبول اهتماماً كبيراً لذلك ، فأقامت الاحتفالات في الولايات بمناسبة ولادة الأمراء والأميرات (أبناء وبنات السلطان) ، وكانت ترسل (قبجي خاص) إلى دمشق من أجل إقامة الزينات والعراضات . ويذكر المرادي أنه في سنة ١١٧٤هـ / ١٧٦٠ ــ ١٧٦١م وبمناسبة ولادة سليم خان ابن السلطان مصطفى خان ، أقام والي دمشق عثمان باشا زينة عظيمة فيها دامت سبعة أيام وبذل عليها أموالاً عظيمة[1] . ويذكر حسن آغا العبد في أحداث عام ١١٩٠هـ / ١١٧٦ ــ ١٧٧٧م أنه « كانت زينة مولانا السلطان محمود خان ابن السلطان عبد الحميد وهو سلطان زماننا وكانت زينة ماشاهد مثلها بحيث امتدت سبعة أيام بلياليها كأنها الأعياد »[2] ، وكانت العادة أن توجه استانبول دعوة لبعض الشخصيات في دمشق للمشاركة في احتفال يقام بهذه المناسبة في تلك المدينة .

ج ــ **الاحتفال بختان أبناء السلاطين** : وهي أيضاً من المناسبات التي كانت تقام من أجلها احتفالات كبرى في العاصمة والولايات العثمانية بما فيها دمشق ، وكان السلطان يوجه دعوات كثيرة للأشخاص البارزين وكبار رجال الدين في دمشق لحضور تلك

---

(١) انظر : سلك الدرر . ج٣ ، ص١٦١ .

(٢) تاريخ حسن آغا العبد . ص٣ و ص٤ . ويذكر أحمد حلمي العلاف في كتابه ، دمشق في مطلع القرن العشرين ص١٢٠ مايلي : « كانت الحكومة تقيم أعياداً رسمية في الأيام المصادفة ليوم جلوس السلطان ، أو يوم ولادته ويشترك الناس اشتراكاً شعبياً محلياً في سائر أنحاء المملكة العثمانية ، وبالجملة فقد كانت دمشق تحيي هذه الذكرى طوعاً أو كرهاً فتقام معالم الزينة على الحوانيت والأبنية الرسمية ودور كبار الموظفين وتقوم رجال الأحياء بالعراضات ليلاً ونهاراً في ذلك اليوم في فرحة وتزيين . فأما نهاراً فيجتمع وجوه كل حي ويضعون الأسس للموكب ويدعون الناس للعمل وفق ترتيبهم ويتوجهون بالموكب حتى يبلغوا دار الحكومة وبعد أن يقفوا قليلاً ويظهروا شعور الولاء ومشاطرة الحكومة بالأفراح يعودون من حيث أتوا » .

الاحتفالات في استانبول . ويذكر أحد علماء دمشق وهو الشيخ عبد الرزاق البيطار أن الدعوة قد وجهت لوالده من السلطان عبد المجيد خان عندما عزم على ختان ولديه مراد وعبد الحميد(١) .

٢ ــ **استقبال الصدور العظام والولاة وضيوف الوالي** : فهي من المناسبات التي كانت السلطات الرسمية في دمشق توليها اهتماماً كبيراً . ولقد حرص الصدور العظام والولاة عند دخولهم إظهار أعلى قدر ممكن من القوة والعظمة في مواكبهم . كما حصل في سنة ١٢١٤هـ / ١٧٩٩ ــ ١٨٠٠م عندما دخل الصدر الأعظم يوسف باشا الذي كان متوجهاً مع قواته إلى مصر للتصدي لقوات نابليون بونابرت . ويصف الإخباري حسن آغا العبد موكبه أثناء دخوله دمشق يقوله : « دخل دمشق بموكب عظيم ، وهرعت جميع أهل البلد إلى الفرجة عليه ، ودخل معه من قدامه نحو خمسماية رجل بطرابيش فاس ووراه نحو ثلاثماية مدرع ، وهذا كله ماعدا العساكر ونزل في التكية والمرجة »(٢) ، فأقام في دمشق لمدة ثمانية وأربعين يوماً ثم رحل عنها يوم السبت عاشر جمادى الأولى من نفس السنة ، متوجهاً إلى فلسطين عن طريق المزة ، وأثناء عودته إلى دمشق حرص أيضاً على إظهار موكبه بنفس العظمة (٣) .

ولم يحصل بعد ذلك أن استقبلت دمشق صدوراً عظاماً في هذه الفترة من دراستنا ، بل استقبلتهم ولاة عينوا عليها . لهذا كان استقبالهم كاستقبال الولاة العاديين ، مع احتفاظهم

---

(١) انظر : حلية البشر ... ج١ . ص١٤٣ .

(٢) انظر : تاريخ حسن آغا العبد ، ص٦٧ و ص٦٨ .

(٣) ويقول حسن آغا العبد واصفاً عودة الصدر الأعظم إلى دمشق بقوله : خرج لملاقاته حسن أفندي الرزمنجي في ٨ ذي القعدة ، ثم خرج عبد الرحمن أفندي شيخ مراد وأسعد أفندي المحاسني وقاضي القضاة وقضاة دمشق من العلماء ورجال الدين لملاقاته . « وحضر فرمان مخصوص إلى آلاي بيك بأن يطلعوا جميع الزعماء ويكوموا تلال تراب من الشام إلى أن يوصلوا إلى عند الوزير ، مابين التل والتل ساعة لأن هذا معتاد الأسفار ولأجل يعلموا أن عرضي همايون مر من هذا الطريق بعد حين . وفي يوم الخميس عشرين من ذي القعدة ست وعشرين ومائتين وألف مع طلوع الشمس وصل طواخ الوزير الأعظم إلى الشام وصحبته بيرق بنوبة سلطانية وما إنقطع يوم الأربعة ويوم الخميس السكر ليلا ونهار عن المجيء وأنه اتخذت بيوت البلد الكبار منازل إلى أتباع الوزير وفي يوم الجمعة إحدى وعشرين من ذي القعدة دخل الوزير الأعظم يوسف باشا العظم في موكب عظيم ونزل في دار السعادة وزينت البلد له » .
انظر : تاريخ حسن آغا العبد . ص٦٩ و ص٧٠ .

بأطواخهم[1] كصدور عظام سابقين، ورفعت تلك الأطواخ في مقدمة مواكبهم. وكانت تلك الأطواغ تزيد على أطواغ الولاة العاديين.

ومن جهة أخرى فقد أسرف بعض الولاة في إظهار مواكبهم بمظهر القوة لاعتقادهم بأن ذلك يوقع في قلوب الشعب الاحترام والهيبة. ومن هؤلاء أحمد باشا الجزار الذي عين والياً على دمشق عدة مرات بالإضافة إلى منصب ولاية صيدا فكنت ترى في موكبه رتلاً طويلاً من الفرسان مزركشي الثياب زاهية ألوانها ومدججين بالسلاح، ترافقهم الطبول ويطلقون بين الفينة والأخرى عيارات نارية[2].

وفي حال تعيين والٍ جديد على دمشق يخرج لملاقاته أعضاء الهيئة الحاكمة ورجال الدين وأركان السرايا كالكيخية والحواجبية والترجمان في السرايا وديوان أفندي العربي والحاخام اليهودي ورجال الدين المسيحي برئاسة البطريرك حيث يستقبلونه بالمزمار والقيثارة[3]، ويحمل المستقبلون معهم الهدايا من محاسن المأكول والشرابات والسكرية مما يليق بالباشا. ثم يجعل خيمته في حرستا كالعادة وتقدم له الضيافة بقدر جماعته من سائر الألوان. ويقدم العليق للخيل ويستقبله هناك اليتكجرية والزعماء والقبوقول وحكام القلعة وأئمتها والباش دفتردار من المتعممين والجربتجية وهم عدد معلوم والأدباشية والأياباشية، ثم قاضي الشام والمفتي والمدرسون وأرباب الرقع الصوفية والمدرسون الكبار، ثم بعد ذلك يهيئ موكبه ليدخل دمشق بهذه العناصر جميعها بزينتها وخيولها وسلاحها وريشها وقوات الوالي الخاصة، مشكلين موكباً في ترتيب معين فيأتي على الرأس الزعماء، وأحياناً يكون أولاً الجربجية وأحياناً يتأخر الريش ثم دولة القلعة حيث آغاتها بعمامته ثم بعده باش دفتردار ثم العلماء فالمدرسون فاليدكات قاضي الشام الذي يسير على يمين الباشا ثم أولاد خزنة الباشا إلى أن يصلوا إلى مصطبة السرايا بتوزع العسكر ليدخل من تبقى من الرجالات إلى السرايا بحسب رتبهم في حين يقف

---

(١) وكان عدد أطواغ الصدر الأعظم خمسة أطواغ. انظر: جيب وباوون. المجتمع الإسلامي والغرب. ج١، ص١٩٧. والطوغ عبارة عن ذنب حصان معقود على صعدة يعلوها آكرة من نحاس مذهب. انظر: الغزي، نهر الذهب. ج١، ص٣١٥.

(٢) انظر: إدوار لوكروى. أحمد الجزار، ص١٥٨ و ص١٥٩ و ص١٦٠ و ص١٦١. ترجمة جورج مسرة — البرازيل — سان باولو سنة ١٩٢٤م.

(٣) انظر: مشاقة، ميخائيل. مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان. ص٧٦ و ص٧٧.

العلماء مقابل السرايا وتأخذ بالسلام من غير دخولها وقد يدعوهم للدخول. وبعد ذلك ينفض الجمع. وعامة الشعب كانوا يستقبلون الوالي الجديد وهم يحملون في أيديهم المباخر والمشاعل ويزينون الشارع ويبدون له أسمى آيات الطاعة ويطنبون في مديحه رغم أنهم لا يعلمون أي شيء عنه[1].

وفي أول جمعة الواقعة بعد وصول الوالي إلى دمشق واستلامه مهام منصبه يتجمع الجربجية والجاويشية والأياباشية والتراجمين والكتاب بالسرايا وغالب الجند الشامي وأرباب الريش بالريش على ظهور خيولهم حيث يرافقون موكب الباشا في طريقه إلى باب الجامع الأموي (باب البريد) حيث يدخل الجميع وقدامه الريش الصغار ليصلي عند رأس نبي الله يحي عليه السلام ثم يصلي الجمعة ويسمع العشر ثم يعود إلى السرايا بالموكب الذي طلع فيه[2].

وكانت عادة دمشق أن تزين لمدة أربعة أيام بهذه المناسبة[3]. كما احتفلت دمشق بمجيء المقرر السنوي للوالي من استانبول. وكانت العادة المتبعة أن يجتمع أعيان دمشق في المحكمة الكبرى أو السرايا وبحضور الوالي حيث يقرأون الفرمان السلطاني علناً ويعقب ذلك شنك فتضرب المدافع ثم يقوم الوالي بإلباس الحاضرين من أصحاب المناصب العالية فروات سمور.

وهناك صورة أوضح لما كان يجري في هذه المناسبة في ولاية حلب، حيث يقول الشيخ كامل الغزي إن الوالي كان «يدخل دار الحكومة بموكب رسمي، فيخرج التقليد من خريطة معه، ويقبله ويدفعه لمن اختاره من كبار الكتبة، فيتناوله الكاتب ويقبله، ويبدأ بقراءته بصوت مرتفع واقفاً إلى جانب الوالي، وفي جانبه الآخر القاضي وأصحاب الرتب والموظفون والرؤساء الروحانيون ورئيس الحاخاميين «اليهود»، ويكون الناس والعسكر والموسيقى في الخارج، وعندما يفرغ من قراءته تضرب المدافع من القلعة، ثم بعد ذلك يخطب الوالي بالدعاء للسلطان، ويثني على أهل الولاية ويدعو المفتي للسلطان ثم يعقبه المطران والحاخام، ثم تعزف

---

1 - See: Koury .G.op.cit.P.162.

(٢) انظر: ابن كنان. المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية. ص١٧٧ و ص١٧٨.

(٣) انظر: العبد حسن آغا. ص١٣٤.

الموسيقى بألحانها عدة فصول، ثم يصيح العساكر بلسان صوت واحد قائلين (باديشاجم جوقيشا) ثم ينفض الجمع ويباشر الوالي أعماله»[1]. وليعزز الوالي الجديد هيبته في نفوس الشعب، كان يقوم بإعدام بعض المجرمين[2].

وحرص بعض الولاة العابرين لمدينة دمشق لسبب ما، على أن يُستقبلوا بمظاهر الاحترام. وروعيت بعض الاعتبارات في استقبالهم من قبل والي دمشق، منها: «مرتبة الوالي وعدد أطواغه»، فإذا كانت مرتبة الوالي مساوية لمرتبة والي دمشق، أو كانت أعلى من مرتبته، يخرج والي دمشق إلى حرستا لاستقبال ضيفه، ويدخل الواليان دمشق في موكب رسمي، تحف بهما الحاشية ورجالات الدولة والدين، أما إذا كان والي دمشق أعلى من ضيفه مرتبة، فيستقبله ثاني يوم في السرايا، ويرافق موكب الاستقبال إطلاق المدافع والزينات[3].

وكان والي دمشق يراعي في استقبال ضيوفه اعتبارات عديدة أهمها: مكانة الضيف الإجتماعية والإدارية. فإذا كان أحدهم القاضي أو المفتي أو نقيب الأشراف أو أحد رجال الولاية أو أحد كبار رجال الدين، فينهض الوالي عن مقعده لاستقبال ضيفه عند دخوله إلى قاعة جلوس الوالي، أمّا ماتبقى من الضيوف والزوار فيستقبلهم الوالي وهو جالس، أو ينهض قليلاً عن مجلسه. وبعد ذلك يأخذ الضيوف أماكنهم على الدفانات[4] في القاعة، ليتناولوا أطراف الحديث مع الوالي، وكان الخُدّام يقومون بتقديم الضيافات المختلفة[5]. وفي أيام

---

(١) انظر: نهر الذهب في تاريخ حلب. ج١، ص٣٢٢ و ص٣٢٣. على أن الإخباري حسن آغا العبد الذي كان أحد أفراد الهيئة الحاكمة في دمشق والذي رصد أحداثها لم يفصل في وصف مواكب الولاة وجل ماذكره في هذا المجال أن دخل الوالي فلان إلى دمشق بموكب عظيم. انظر مثلاً تاريخ حسن آغا العبد ص١٠ و ص١١ و ص١٣.

2 - See: Koury .G.op.cit.P.162.

(٣) انظر: ابن كنان. المواكب، ص١٨٠.

(٤) الديفانات. كانت توضع في أركان مريحة من الغرفة (المربع) وهي واطئة لاترتفع عن الأرض أكثر من ١٦ ــ ١٨ بوصة إلا قليلاً وكانت تفرش بالنوطايات أو (فرشات) صغيرة وفوقها السجاد وتحيط بها مساند لتوفير الاستناد والراحة لمن يجلس عليها. وكانت تفرش في بعض الأحيان بالحرير. ولقد استخدمت الديفانات للأكل أو الجلوس والتدخين والنوم واستقبال الضيوف.

(٥) ويذكر توماس رايت في كتابه وصفاً لعملية الضيافة في مجلس الوالي فيقول: ماأن يستقر الضيوف على الديفانات حتى يأتي القهوجي بسراويله الحريرية الفضفاضة حاملاً بين يديه صينية مدورة مغطاة بقماش أحمر في وسطها قدر القهوة ويحيط بالقدر نصف دزينة من فناجين القهوة مطبوبة على وجهها ويقف إلى

الأعياد والمناسبات الرسمية والدينية كان يكثر عدد ضيوف الوالي، الذين يأتونه على دفعات، فيقوم الخدم بمهام الضيافة دون إيعاز من سيدهم. ويعرفون وقت تقديم الرائحة العطرة للضيوف. وكانت الضيافات تقدم للضيوف بعد انتهائهم من تدخين غلايين التبغ. وفي نهاية الزيارة كان الخادم يأتي بالمبخرة الفضية التي لها غطاء مثقب وبها فحم خشبي متقد مضافة إليه قطع من خشب (ALO) أو خشب الند المعطر، ويدور بها على الضيوف، فينطلق منها دخان عطر الرائحة، ويتغلغل في لحى الضيوف فيضمخها. ويعني ذلك انتهاء الزيارة حيث يغادر الضيوف المكان.

وكانت العادة إذا ماطلب أحد الأجانب، أو أي شخص عادي، مقابلة الباشا، أن يدخل هدية مناسبة للوالي ليقوم بعد ذلك بتحديد موعد للمقابلة. وعندما كان الضيف يدخل إلى الباب الخارجي، يستقبله أحد الضباط أو رجالات السرايا، وهكذا من جناح إلى آخر حتى يصل إلى المربع الذي يجلس فيه الباشا. وكان على الضيف أن يتملق للباشا المضيف بكلمات الإطراء لأن ذلك يدخل إلى قلب المضيف أفضل آيات البهجة والحبور[1].

هذا مالحناه فيما سبق من العادات والتقاليد المتعلقة في استقبال الولاة في دمشق، واستقبالهم بدورهم لضيوفهم المختلفين. إلا أن ذلك يقودنا للتساؤل عن كيفية توديع الولاة المعزولين في هذه الفترة، فهل تم ذلك في ظروف طبيعية ولاقوا الحفاوة التي لاقوها حين استقبالهم؟ والحقيقة أن الأمر كان معاكساً لاستقبالهم، فأغلب الولاة عزلوا عن دمشق

جانبه عدد من الخدم الأول منهم يحمل منديلاً مطرزاً من الحرير يتقدم نحو الضيوف ويركع على ركبتيه ليفرش المناديل فوق ثيابهم لوقايتها مما قد يلوثها من الضيافة. ويتقدم خادم ثاني بعد الأول ليقدم المربى (الحلوى) المعنة من أوراق الزهر أو الليمون أو التمر هندي أو زهر البرتقال، وتقدم هذه الحلوى لكل ضيف في كأس مع ملعقة، فيقوم الضيف بعد ذلك بخدمة نفسه، ويقوم خادم ثالث بأخذ الكأس من القهوجي، ويكون جاهزاً بالقهوة ولا يركع أمام الضيوف بل يقف باحترام وخضوع ويراقب من ينهي مابكأسه من الحلوى ليزيد له أو لأخذ الكأس منه، ثم يحضر خادم رابع الغلايين المفعمة بالتبغ بعد أن يضع النفاضات أمام الضيوف، التي ستستقر بها أجران الغلايين، ويقدمها بيده إليهم ويده الأخرى موضوعة على صدره تعبيراً عن الاحترام، وعندما ينتهي الضيوف من احتساء ما بالفناجين من القهوة يسرع الخادم لجمع الفناجين في الطبق (الصينية) وهو راكع ويسحب الفوط (المناديل) من الضيوف. ويتراجع الخدم إلى العتبة باحترام.

See: Early TraveLs in Palestine.P. 407.

1 - Ibid.P.408 and Russell. op.cit.VOL.1.PP.168-169-170.

وخرجوا منها في حالة سيئة، وصودرت أموالهم بعد ذلك بأوامر من السلطات المركزية من استانبول، ففي سنة ١١٩٨هـ /١٧٨٣ ــ ١٧٨٤م. عزل أحمد باشا الجزار عن ولاية دمشق قهراً عنه[١]. وفي ١٢١٣هـ /١٧٩٨ ــ ١٧٩٩م عزل عبد الله باشا العظم ورحل من العسالي ودمر مدافعه وخيامه وخزينته عندما رأى في أعين جنوده الغدر[٢] به. وفي سنة ١٢٢٥هـ / ١٨١٠ ــ ١٨١١م طرد الكنج يوسف باشا من دمشق ونهبت أمواله[٣]. وفي سنة ١٢٣١هـ / ١٨١٥ ــ ١٨١٦م عزل سليمان باشا عن ولاية دمشق ونزعت أطواغه منه[٤]. وعندما عزل ابراهيم باشا في ١٢٣١هـ / ١٨١٥ ــ ١٨١٦م جاءت أوامر استانبول لأن «يسقوا عليه ويحرروا أمواله ويصادروها»[٥]. وعندما عزل الحافظ علي باشا ١٢٣٢هـ / ١٨١٦ ــ ١٨١٧م. جرت صدامات بين القوى المحلية وسكرت البلد[٦]، وقتل الدمشقيون والي دمشق محمد سليم باشا وذهب دمه هدراً دون محاسبتهم من السلطات العثمانية، نظراً لدخول ابراهيم باشا المصري إلى دمشق.

أما استقبال الشخصيات الرسمية التي كانت تلي الوالي في الأهمية، كالدفتردار والمتسلم والقاضي والمفتي ونقيب الأشراف والأغوات وغيرهم. فقد روعيت في استقبالهم مراسم وتقاليد معينة تتناسب مع الشخصية ومكانتها الاجتماعية، فالدفتردار مثلاً الذي كان يأتي في أهميته بعد الوالي، كان استقباله يتوقف أيضاً على مرتبته الوظيفية، فإذا كان بمرتبة وزير، يرسل الوالي كاتبه وأغواته والمهتر خانة وجميع دائرته واليرلية والقابيقول مع أغواتهم إلى حرستا لاستقباله، ومن ثم يؤلف هذا الجمع موكباً رسمياً يسير إلى دمشق ويجري شنك بهذه المناسبة[٧].

٣ ــ أما استقبال قاضي القضاة والمتسلم والمفتين وأغوات الانكشارية: فكانت العادة أن يخرج لاستقبالهم قضاة دمشق والمدرسون وكتاب المحاكم. ويخرج أحياناً الدفتردار والمتسلم

---

(١) انظر العبد. المصدر السابق، ص١٠.
(٢) انظر العبد. المصدر السابق. ص٩١ و ص٩٢.
(٣) أيضاً العبد. ص١٥٢.
(٤) أيضاً العبد. ص١٥٩.
(٥) أيضاً العبد. ص١٦٢.
(٦) أيضاً العبد. ص١٦٢.
(٧) أيضاً العبد، ص٥٩ و ص٩٣.

وأغوات القابي قول واليرلية ، ويدخل جمعهم إلى دمشق في موكب رسمي ، فيمر على الأبارين فباب البريد فدار الحكم فالمحكمة الكبرى (بالنسبة لقاضي القضاة) أما بقية الشخصيات فكل واحد منهم يذهب إلى مقر عمله في دمشق أو إلى بيته ، وفي اليوم الثاني يذهب المتسلم ليسلم على هذه الشخصية ثم بعد ذلك يقوم هؤلاء بزيارة الوالي ، فيخلع عليهم فراء السمور ، ويخرجون من عنده بالفراء المذكور وبرفقتهم حاشيتهم[١] .

وكانت العادة في دمشق أن يُستقبل المتسلم أيضاً بمواكب رسمية وشعبية . فبعد استقباله من رجالات دمشق الرسميين في القابون ، يقوم الدماشقة بإقامة العراضات « حيث تقوم كل حارة من حاراتها بفرقة خاصة بها يرافق ذلك القواص ولعب السيف والترس والرماح والتراويد »[٢] .

وكان الأشراف أو نقيبهم عندما يدخلون دمشق تسعى الأشراف فيها لإكرامهم وإقامة المواكب لهم . ويذكر المحبي أنه عندما قدم الشريف أحمد بن زيد إلى دمشق في طريقه إلى استانبول مع أصحابه « تلقاهم أهلها وأمراؤها وكبراؤها وعلماؤها ونقيبها ودخلوا بموكب عظيم والأشراف من أهل الشام حولهم مئات بأمر نقيبهم »[٣] .

وتقلصت بعض هذه المواكب في دمشق في عهد ابراهيم باشا المصري وشاهدت مواكب لم تشاهدها من قبل ، كمواكب دخول القناصل . كما حصل في سنة ١٢٤٩هـ /١٨٣٣ ــ ١٨٣٤م عندما دخلها القنصل الانكليزي (Mr Ferren)[٤] .

---

(١) ابن كنان . المصدر السابق ، ص١٧٩ و ص١٨٠ .

(٢) مجهول . مذكرات تاريخية ، ص٣٩ .

(٣) خلاصة الأثر ... ج١ ، ص١٩١ .

(٤) ويذكر صاحب مذكرات تاريخية أنه : « طلع لملاقاته عمر بك مير اللواء واستنظره في قصر عبد الرزاق باشا الذي بالمرجة ، وصحبته ألف عسكري نظام وكان يرافق القنصل حاضر من بيروت أربعة وعشرين خيال في بيارق النظام وقواصة عدة ثمانية وعبدين وتراجمين ثلاثة وكيخية وخزندار وحول في قصر عبد الرزاق باشا عند عمر بك تفكجي باشي واستقام مقدار نصف ساعة وقام ركب مشوا قدامه ألف عسكري نظام في الموسيقا وبين باشي وبعده ثلاثين قواص من قواصة الوزير وبعده الخيالة الذين حضروا معه من بيروت ببيارقهم وبعده تفكجي باشي وجماعته وبعده قواصة لابسين طقومة وردي . جزايرلي مقصب وبيدهم عصي فضة مكوبجين ذات قبضة على كسم صليب وبعدهم التراجمين في الشالات الكشميري والخيل المنظومة وبعدهم القنصل راكب على راس خيل من الخيول الجياد عدته مشغولة من الصرما ولابس على راسه برنيطة محجرة بالألماس وفي ←

الاحتفالات بالمناسبات العسكرية المختلفة

أقيمت الزينات والمواكب والاحتفالات في دمشق بطرق مختلفة في المناسبات العسكرية المتعددة، كدخول قوات جديدة إليها، كما حصل في سنة ١١٦٤هـ / ١٧٥٠ ـــ ١٧٥١م عندما قامت استانبول بإرسال قوات جديدة، من القابي قول بهدف الحد من نفوذ قوات اليرلية فيها، فأرسلت الأورطة أتمش إيكي أي الأورطة (الثانية والسبعين) ويقول البديري الحلاق إنه «خرج لملاقاتها كل من لف برمه مع مائتي تفكجي وجماعة من الدالاتية كل ذلك بأمر الباشا ودخلت بعراضة أي موكب ولا موكب الحج الشريف وخرجت الناس للفرجة رجالاً ونساءً كباراً وصغاراً وزينوا لهم حارة العمارة بالقناديل والمشاعل ودخلوا بكبر وجبر وعتو»[١] إلا أن قوات اليرلية لم تشارك في استقبال هذه الأورطة لادراكها أنها ستكون الهدف المطلوب ضربه في دمشق، في حين شاركت قوات المرتزقة المتمثلة بالدالاتية في استقبالها وتحالفت القوتان ضد اليرلية فيما بعد.

واحتفلت دمشق بمناسبات الانتصارات العسكرية المختلفة، فأقامت الزينات والعراضات، وزينت شوارعها وأسواقها، وفي الليالي أوقدت الشموع في الدكاكين وإلى جانبها «الصمد والفرش» ورافق ذلك الدق والغناء والنوبات وتسيير العراضات في جميع الأسواق[٢]. فمثلا في سنة ١٢١٣هـ / ١٧٩٨ ـــ ١٧٩٩م جاءت سبعة رؤوس من النصارى الفرنسيين إلى دمشق «فصار شنك في الشام» وعندما استرجع العثمانيون مصر من الفرنسيين «صار

راسها جملة ريش أبيض وأحمر ويرمي سلام ووراه كيخيته وخزنداره وعبيده وتنظر العالم منتشرة من عند قصر المرجة شي لا ينحصى وحكم طريقه على الدوالك على بيت يوسف باشا على باب السرايا على سوق الأروام وسوق الجديد على باب القلعة على باب البريد على سوق الجديد على البزورية على مئذنة الشحم على الخراب على طالع القبة على حمام المسك على باب توما على حمام البكري على زقاق القميم (القميلة) على بيته. فكانوا قبل بمدة آخذين له بيت قزيها الذي قدام قناية الحطب ودخلوا العساكر جميعها لعند بيته فحالاً رفعوا له البنديرة فوق باب البيت على راس السطوح وتاني يوم وضع فوق باب بيته نيشان المملكة (الآرمة) مصور فيها تاج الملك وحصان وسبع وكان يوجد قدام بيته على مدة سبعة ثمانية أيام مثل فرجة الحاج (لكثرة) الناس فوق بعضها».

انظر: مجهول. ص٦٨ و ص٦٩.

(١) انظر: حوادث دمشق اليومية. ص١٥٩.

(٢) مجهول. مذكرات تاريخية. ص٦٦.

شنك في الشام ثلاثة أيام وثلاثة ليالي وزينت البلد »[1]. وكانت طوائف دمشق الدينية تحدد موقفها من هذه الإحتفالات على ضوء انتمائها الطائفي. فمثلاً عندما زحفت قوات ابراهيم باشا المصري شمالاً، وعند سقوط دمشق بيدها، ودحرها للقوات العثمانية، صدرت الأوامر إلى دمشق لتنظيم الزينات بهذه المناسبة، فبالغ المسيحيون في إقامة الزينات والأفراح في حين لم يشاركهم في ذلك سوى الرسميين وعناصر قلعة دمشق وقلة من المسلمين[2].

وأصدرت السلطات المصرية في دمشق أوامرها بالزينة مرة أخرى بمناسبة توقيع معاهدة كوتاهية بين المصريين والسلطان في سنة ١٨٣٣م /١٢٤٨ ــ ١٢٤٩هـ، فقام بالجانب الأعظم من الزينة المسيحيون في دمشق في حين « يومها كانت أهالي البلد كادت تفقع مرايرها من الذي عملوه النصارى »[3] ويمكن تفسير موقف المسلمين السلبي هذا بعدم رضاهم عن سياسة المساواة التي نادى بها ابراهيم باشا بينهم وبين أهل الذمة من جهة، ولأن السلطان العثماني في نظرهم هو الزعيم الديني الإسلامي الوحيد، وإن مايقوم به ابراهيم باشا من أعمال ماهو إلا بإيعاز من بعض الدول الأوربية التي تكيد للإسلام من خلال محاولة القضاء على الدولة العثمانية، بالإضافة إلى تضرر مصالح خاصتهم من التغيرات التي أدخلها ابراهيم باشا. كل ذلك جعل موقفهم بارداً من انتصاراته، مما أفقد تلك المواكب زهوتها وألقها المعتادين في مثل هذه المناسبات.

---

(١) العبد، حسن آغا. تاريخه، ص٥٤.
(٢) مجهول. مذكرات تاريخية. ص٦٨.
(٣) أيضاً: المصدر السابق. ص٨٣.

الأفراح في دمشق وريفها

كانت الأفراح ظاهرة اجتماعية لها تقاليدها الموروثة منذ أجيال، ولعبت في إظهارها عوامل اقتصادية وسياسية واجتماعية وغيرها، واختلفت طريقة الاحتفال ومظاهره من فئة اجتماعية إلى أخرى، من حيث عدد المشاركين والمخصصات المالية. فلا عجب إذا ماتأثرت هذه الظاهرة بظروف دمشق في هذه الفترة.

ومن جهة أخرى كانت الأفراح تقام في مناسبات دينية ومدنية. وكان للدمشقيين في كل واحدة منهما طريقتهم الخاصة في إقامتها. ولقد سبق لنا توضيح الاحتفالات الدينية، أما هنا فسنتناول الجانب الآخر منها كالأعراس والخلاص من مشقة، وعودة الغائب من سفر طويل، وإبلاء الشخص من مرض وغيرها.

آ ــ أعراس دمشق

وكانت عبارة عن احتفالات تقام بمناسبة زف العر ـين إلى بعضهما وأجريت هذه الاحتفالات قبل وأثناء وبعد زف العروسين وكانت العادة أن يبدأ الاستعداد لها قبل أيام من إقامتها، وكانت تتم على مراحل، على مستوى العروسين والأهل والأصدقاء والأصحاب.

وعلى الشكل التالي:

١ ــ النقش: حيث تقوم النسوة بنقش يدي ورجلي العروس قبل زفافها، ويشترك من أهلها وذويها مَـنْ يرغب في نقش اليدين والأصابع وتقوم النقاشة بذلك[١]، وكان النقش يتم بإذابة كمية من الشمع العسلي على النار مع اللبان الأسود، وتنقش به اليد عروقاً متنوعة بواسطة قشة تغمس بالخليط المذاب فيجمد على اليد في الحال، وغب ذلك يوضع على تلك العروق معجون الحناء وتلف الأيدي والأرجل بلفائف من قماش عتيق. حتى إذا ثبتت الحناء على النقش ينزعون تلك اللفائف ويقلعون الشمع واللبان مع الحناء، فتظهر تلك العروق التي صبغتها الحناء بلون أحمر فيطلونها بـ (الغشوش) وهو ماكان من مسحوق القلي والزرنيخ مع الحناء فتظهر تلك العروق التي صبغت من الحناء والفلفل والبهار جداء متساوية فيمزجونها بقليل من الدبس يدهن محل النقش مقدار ربع ساعة ثم يغسل ذلك الطلاء فيصبح ذلك اللون أحمراً إلى سواد قاتم[٢]، وقل الاهتمام بالنقش في أواخر القرن التاسع عشر واقتصر على لفيف من العوام وفي أطراف دمشق.

٢ ــ الزمر والطبل: كان يبدأ عملهما الدعائي للحفلة قبل ثلاثة أيام. فلا يزال الطبال يضرب على طبله في غالب أوقات النهار والرجال والأولاد آخذون في اللعب بالسيف والعصا. وكانت أوقات السرور المصطلح عليها عند الدمشقيين ثلاثة أيام، يمرحون ويلعبون و «أبوناعسة» وهو أحد النور يقدم لهم أصناف السخريات المضحكة، ويقوم ببعض الألاعيب حتى اليوم الرابع، حيث تبدا مرحلة الزفاف حيث تزف العروس إلى عريسها[٣].

ولم تخلُ احتفالات العامة بالأعراس في هذه الفترة، مما يعكر صفوها من قبل عناصر السلطة وجنودها، ففي سنة ١١٦٠هـ /١٧٤٧ ــ ١٧٤٨م أقام أحد العامة عراضة بمناسبة زفاف ابنه، فهاجمها الجنود «فالبعض ترك قاووقه وآخر بابوجه وثالث جبته وتفرق جمعهم»[٤].

ولقد احتفلت خاصة دمشق بمثل هذه المناسبات، وكان أفراد الهيئة الحاكمة منها، يبالغون في إظهار علو مكانتهم الاجتماعية ويستغلون مثل هذه المناسبات لدعم نفوذهم

---

(١) انظر: القاسمي، محمد سعيد. المصدر السابق. ج٢، ص٢٨٧ و ص٢٨٨.

(٢) القاسمي. المصدر السابق، ص٤٨٢.

(٣) البديري. حوادث دمشق اليومية، ص٢٨٨.

(٤) أيضاً البديري، ص١١٣.

السياسي، من خلال توجيههم الدعوة لممثلي فئات الشعب المختلفة وتقديم الهدايا لهم، وكانت احتفالاتهم بأعراس أبنائهم تدوم سبعة أيام متصلة، ونسوق مثالاً على ذلك ماقام به دفتردار ولاية دمشق فتحي القلانسي الذي زوج ابنته من ابن أخيه في سنة ١١٥٦هـ/١٧٤٣ ــ ١٧٤٤م «فخصص اليوم الأول لحضرة والي الشام سليمان باشا العظم، واليوم الثاني إلى الموالي وعلماء الأتراك والأمراء، واليوم الثالث للمشايخ والعلماء، واليوم الرابع للتجار والمهنيين، واليوم الخامس إلى النصارى واليهود، واليوم السادس إلى الفلاحين، واليوم السابع إلى المغاني والمومسات، وهم بنات الخطا والهوى، وقد تكرم عليهم كرماً زائداً، وأعطاهم الذهب والفضة بلا حساب، وكان قبل الفرح عمل تهليلة جمع بها جميع مشايخ الطرق»[١].

ومن جهة أخرى، برزت حرف عديدة قدمت خدماتها في هذه المناسبات المفرحة، كالتختراونيين[٢] والجمرجين والحمالين والخانجية والحنائيين ومؤجري أواني النحاس، ويذكر المرادي أن حسن الشهير بالحنبلي اقتنى أواني النحاس بكميات كبيرة ليؤجرها للناس في الأفراح واتخذ منها حرفة[٣].

٣ ــ أما مرحلة نقل الجهاز إلى دار العريس: فكان يقوم بهذه المهمة أفراد الأسرة والأقرباء والأصدقاء، في حين كانت الأسر الغنية توكل أمر ذلك، للحمالين المهرة ذوي الخبرة والمختصين بذلك. فكانوا يضعون الأواني الزجاجية الرقيقة والتحف اللطيفة من جهاز العروس على رؤوسهم، مركّزة على فروش خشبية مستديرة ذات إطارات واقية من صفائح الخشب بشكل يجعلها بارزة للعيان، ومنهم من يحمل ثياب العروس كل ثوب على حدة، بأنواعها المختلفة التي كانت تلبس آنئذ، كالصارمة والشال والخراساني والغراماشي وغيرها، أو يحمل أدوات زينة العروس وأرديتها وألبستها الخارجية وحتى الأحذية منها كالبوابيج بمختلف أشكالها وأنواعها والقباقيب الخشبية ذات السيور المطرزة والقباقيب الشبراوية الطويلة الأكعاب، أو العادية منها أو المفضضة أو المطعمة بالصدف أو التي تعلوها سيور من الجلد أو القماش المزركش بخيوط الفضة والذهب. وبعضهم الآخر يحمل (القواطع) الديفانات

(١) انظر: البديري. حوادث دمشق اليومية، ص٣٩.

(٢) انظر: مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق. ج١. المجلد ٤٥/ص١٤٣. شوال، ١٣٨٩هـ/ك٢، ١٩٧٠م.

(٣) المرادي. سلك الدرر. ج٢، ص٣٠.

والمفروشات المحشية قطناً أو صوفاً والمغلفة بأقمشة من ألوان مختلفة، ولقد تباين ذلك بحسب انتماء العروسين الإجتماعي.

وكانت العادة أن يقوم أهل العروس ومحبوهم بمدافعة وممانعة أهل العريس عند نقل الجهاز، لهذا كان يرافق الموكب عدد كبير من الرجال الأشداء، ولهم مكافأة عندما يوصلون الأمتعة إلى محلة العريس[1]، وكانوا يصطحبون معهم البغال والحمير لنقل الجهاز من الحارات البعيدة، وكان أهل حارة العروس يفرجون عن الجهاز ويكفون عن الممانعة، عندما يقدم أهل العريس رؤوس الأغنام أو بعض المال لهم[2].

٤ ــ مرحلة نقل العريس والعروس إلى بيت الزوجية: كان رفاق العريس وغيرهم يقومون بإلباس العريس ثيابه الجديدة المعدة لهذه المناسبة وذلك مابين الصلاتين (المغرب والعشاء). وبعد الانتهاء من ذلك يأتي المجمري وهو لابس ثوباً أحمر (جبة حمراء) مزركشة ومعتمراً بعمامة مطرزة بخيوط خضراء وممسكاً بيساره عصا ضخمة ليتوكأ عليها إن كان مسناً، ويحمل بيمينه (مجمرة) فيها جمرات من الفحم المتقد ويصب عليها البخور والحصلبان والعود فينطلق الدخان منها مفعماً برائحة طيبة. ويصيح هذا المجمري بين الحين والآخر وبصوت عريض حسن «سعيد من يصلي على النبي ــ القلب العامر يصلي على النبي»[3] وهو سائر أمام موكب العريس المكون من أصحاب العريس وأقربائه وأصدقائه وأهل حارته. يرافقهم المرفعجية فيطبلون ويزمرون، ويحمل بعض المشاركين السلاح، ويصيحون بأصوات مختلفة وبأدوار حماسية عامية مقفاة إلى أن يصلوا بالعريس إلى داره[4] وسط الأهازيج والزغاريد. وتتداخل أهازيج الرجال خارج البيت بزغاريد النساء وتهاليلهن داخل البيت.

أما موكب العروس فكانت تخرج في شيء يقال له السربوش[5]، ويسمى المقنزع

---

(١) الداغستاني، كاظم. حكاية البيت الشامي الكبير. ص٢٧ و ص٣٢.

(٢) مقالة لعبد الهادي هاشم تحت عنوان «أعراس دمشق» مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق. المجلد ٣٢ ص٣٣٢. رمضان سنة ١٣٧٦هـ/ نيسان سنة ١٩٥٧م.

(٣) الداغستاني. المصدر السابق. ص٣٤. ثم القاسمي. المصدر السابق. ج٢. ص٤١٧.

(٤) القاسمي. المصدر السابق. ج٢، ص٤١٨.

(٥) لفظة فارسية الأصل. والسربوش عبارة عن لباس تضعه النساء على الرأس وعرف المتأخرون السربوش وقالوا أنه يشبه التاج شكله مثلث يجعل على الرأس بغير عمامة. انظر: معجم الثياب، ص٢٢

وتوضع في تختروان إلى بيت الزوجية في موكب من النساء وسط زغاريدهن وتهاليلهن . وعندما تصل إلى البيت توضع في مكان بارز من الدار ويكون أهل العريس قد أحضروا « شمعة لا تقل عن ثلاثة أذرع مقصورة بيضاء مزينة على أصناف النقوش والفاكهة من رمان وإجاص وتفاح وغيرها المعمولة من الشمع الملصق ذلك بالشمعة . لتوضع إلى جانب العروسين وبعدها يدخل العريس على عروسه »[1] . ولا تفارق الداية أو الماشطة العروس أبداً ، فهي التي قامت بتمشيطها وتسريح شعرها وإلباسها ثيابها وتزيينها بأصناف الحلي والحلل والشكول .

وبعد انصراف الأهل تبقى الماشطة على باب مخلى العروسين منتظرة نداءها ، ولتحقيق مايطلبه العريس كإحضار أمه أو أخته أو عمته أو الذهاب بالعروس إلى قضاء حاجة أو فرش الفراش وأمثال ذلك . ولا تزال على باب العروسين إلى الصباح . ويكرمها الزوج بمجمع أنواع الحلوى مع شمعة عسلية ويضيف إلى ذلك دراهم على قدر ثروة أهل العرس .

وإذا كانت العروس صغيرة وقد لا تطيق غشيان زوجها ، كان العريس ينادي الماشطة ، فتحضر وتمسكها أو تقعد على صدرها وترفع له رجليها قسراً ، وتشير عليه أن يفعل ، وهي تصرخ وتستغيث ولا من من مغيث ، وقد حصل من جراء ذلك حوادث مؤلمة كثيراً ماأفضت إلى موت العروس ضحية الجهل المركب . وتنظر الماشطة منديل الفراش وتلوثه لتذهب به إلى أهلها زعماً أنه دليل عفتها وأنه قاطع للقيل والقال ، وكله جهل بحقيقة الحال . وثمة شيء أقبح وهو توكيل الزوج الماشطة أن تفتض البكارة بإصبعها .... وقد جرت عادة جميع الشرقيين بالاهتمام بغشاء البكارة ويرون ذلك وصفاً محققاً لعفة البنات وبراءتهن من الزنا[2] .

ب ــ أعراس الريف

جرت العادة في قرى غوطة دمشق وريفها البعيد ، أن يجلب النور الذين يتقنون

وذيل المعاجم العربية . ج١ ، ص٧٤٢ نقلاً عن مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق . ج٢ . المجلد ٣٢ / ص٣٣٦ رمضان سنة ١٣٧٦ هـ / نيسان سنة ١٩٥٧ م .

(١) انظر : الشيبي علوان . نسمات الأسحار . حيث وصف تلك الاحتفالات التي تقام في الأعراس وذلك في القرن العاشر للهجرة ٩٠٦ هـ / السادس عشر للميلاد . ولا يختلف عما أورده القاسمي في هذا المجال مما يدل على أن تطور الظاهرات الاجتماعية كان بطيئاً جداً . انظر : مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ج٢ . المجلد الثاني والثلاثون ، ص٣٣٦ .

(٢) القاسمي ، محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية . ج٢ . ص٤٠٩ و ص٤١٠ و ص٤١١ .

الضرب على الطبل بغاية الرشاقة لإحياء حفلات الأعراس. وكان يتخلل ذلك فترات متواليات من الطرب، خصوصاً إذا رافق الطبال زمّار. ولا يزال الطبّال يضرب على طبله في غالب أوقات النهار والرجال والأولاد آخذين في اللعب بالسيف والعصا. وأوقات السرور المصطلح عليها عندهم ثلاثة أيام يمرحون ويلعبون حتى إذا دخل اليوم الرابع يزفون العروس إلى عريسها [1]. ويتم قبل ذلك تدوير العريس حول القرية ويعطى المشاركون الشموع من قبل أهل العريس فيحملونها مشعلة بما فيهم النساء المشاركات. وعند زف العروس تحمل كل واحدة منهن بيدها شمعة مشعلة وأمام العروس شمعة كبيرة تمسكها إحدى أقاربها [2].

وكانت العادة أن تركب العروس على حصان أو جمل يرافقها رقص الراقصين وزغردة النساء. إلى أن تصل إلى بيت عريسها، حيث يكون بانتظارها على شرفة البيت وبيده قطع الحلوى والنقود فيرميها فوق رأسها قبل ولوجها إلى البيت، أملاً في جلب السعادة وكثرة الذرية. فيتزاحم الأولاد لالتقاطها من على الأرض. كما تعطى العروس قطعة من العجين لإلصاقها على عتبة الباب قبل دخولها عنواناً للمحبة والبركة.

ويبدو أن تقاليد الاحتفال بالعرس كانت واحدة بين قرى دمشق تقريباً، وإن كان ثمة اختلاف فكان في بعض التفاصيل الصغيرة. فأغنياء الفلاحين كانوا يوجهون الدعوات في مثل هذه المناسبة لجميع الأقرباء في القرية، والأقرباء والأصدقاء من القرى المجاورة، ويولمون الولائم وينحون الذبائح وتقدم موائد الطعام في المضافات والبيوت المعدة لذلك. وكان الأقرباء بالمقابل يقدمون الهدايا في مثل هذه المناسبة للعريس وأهله.

وحسبنا أن نسوق رواية رحالة أجنبي شاهد عرساً في إحدى قرى حوران سنة ١٨٠٩م / ١٢٢٣هـ حيث يقول: «لقد كان حظي كبيراً عندما شاهدت عرساً في حوران كانت العروس من قرية (عيرة، Aaere) وهي مسيحية زفت إلى عريسها من قرية تبعد عن قرية عريسها مسير نصف ساعة، وقد جاءت العروس ومجموعة من صديقاتها وقريباتها من قريتها على ظهر جملين مزينين بالشراشيب الجميلة، وأنزلن لدى أحد أقاربهن في قرية العريس، وأثناء دخول العروس القرية رافقتها زغاريد النساء، وهن يضربن على دفوفهن ابتهاجاً بهذه

---

(١) أيضاً القاسمي. نفس المصدر. ج٢، ص٢٨٨.

(٢) أيضاً القاسمي. نفس المصدر. ج٢. ص٢٥٨ و ص٢٥٩.

المناسبة، ورافق ذلك إطلاق عيارات نارية من شباب القرية. أما عريسها فقد انسحب من بين زملائه إلى نبع القرية للاستحمام وارتداء ثيابه الجديدة، وعاد بعد ذلك راكباً جواده المزين وعلى بردعته غطاء مزركش، محاطاً بشباب القرية، وكان اثنان منهم يضربان على الدفوف أما البقية فكانوا يطلقون العيارات النارية من بنادقهم وسار موكبهم بالعريس إلى بيت شيخ القرية، وحمل هناك على ذراعي رجلين، وسارا به لمدة ربع ساعة وسط المغنين والهاتفين، وعادوا به مرة أخرى إلى شيخ القرية، حيث قام بتهنئته وتبعه في ذلك جميع الحضور، وبقيت الاحتفالات حتى غروب الشمس والعريس موضع لنكات الزملاء والأصدقاء. وبعد ذلك أخذ إلى كنيسة القرية حيث كان الخوري بانتظاره مع عروسه لتكليلهما وعقد قرانهما» وبعد ذلك عادت جوقة الشباب إلى سابق أمرها في الهتافات والرقص والغناء.. أما والد العريس فقد قام منذ الصباح بذبح عدد من الحملان والجدايا ليسلقها في ثلاث حلل خاصة، ويطبخ البرغل إلى جانبها، كل ذلك في مضافة شيخ القرية، ولقد خصصت حلتان منها لإطعام عامة الناس أما الحلة الثالثة فخصصت لإطعام وجوه القرية. وفي الليل تم زفاف العروسين»[1].

جـ ــ أعراس البدو

لم تتبدل عادات البدو في هذا المجال عما ورثوه منذ أجيال. فالبدوي يسعى للزواج مابين سن ١٥ ــ ٢٥، وقلما يتأخر إلى سن الثلاثين. وينتقي البدوي شريكة حياته من خلال الحل والترحال واختلاط الجنسين وتعارفهما. وكان يراعى في ذلك الاعتبارات الاجتماعية. ويقول فتح الله بن أنطون الصايغ: «البدو لا يتزوجون إلا كل واحد من أمثاله الكبير بالكبير والمتوسط بالمتوسط والصغير بالصغير. وذلك كي لا يضيع النسب بل يبقا دايما محفوظ»[٢].

ومن جهة أخرى كانت البنات البدويات يطلبن للزواج وهن صغيرات السن أكثر من أخواتهن الحضريات. لأن عيش البداوة وإقليم البادية يعجل في نضجهن مبكراً. ويهرمهن أيضاً في سن مبكر. ولم تستشر الفتاة البدوية في اختيار شريك حياتها إلا عند عقد قرانها.

1 - See: Burckhardt. john «travels in Syria and the Holyland». PP.297.

(٢) انظر: المقترب في حوادث الحضر والعرب. ص١٦آ و ص١٦ب.

فوالدها أو ولي أمرها يزوجها لمن يشاء، وغالباً لمن يزيد في نقدها. وزواجها يتم بحسب القاعدة الشرعية. وتتم خطبة الفتاة بعد استمزاج رأي والديها، فإذا ماقبلا يستصحب ولي العريس جماعة من ذوي الوجاهة إلى مضارب أهلها، ومعهم مايلزم للطعام من ذبائح وبرغل وطحين وسمن وقهوة.. وعند وصولهم يقوم كبيرهم مخاطباً والدها أو وليها قائلاً: «جيناك طالبين ومن عندك إن شاء الله مانعود خايبين» فيجيب على ذلك «حياكم الله القمراء أمامكم والظلمة قفاكم» وعندئذ يعلنون الموضوع فيجيبهم إلى طلبهم بأنه وهبها لهم، فيجيب والد العريس نقابل عملك هذا بمكافأة كذا من المال والحلال من الماشية أو الجمال.

وكان مهر الفتاة يزداد وينقص بحسب وضع والدها وعريسها المادي والاجتماعي. وتبدأ المراسم بذبح الذبائح وإيلام الولائم ويقدم الخطيب لخطيبته كوفية حريرية معقودة على نقود ذهبية عنوان الرضى والربط والقبول.

ويُذكر أن قبائل الشرارات وأمثالهم من القبائل المتوغلة في البوادي، كانوا إذا ماأرادوا الاقتران أو الزواج لا يذبحون ذبيحة بل يضع الخطيب في قبضة يده اليمين حنطة وتطبق مخطوبته يدها فوق يده. ويخاطبها قائلاً: «أتقبليني لك رجلاً على سنة الله ورسوله» فتجيبه «قبلتك» فيقول: «بحق البر وخالق البر لأتوق ولا نوق هي سنة الله ورسوله ورباط العيش ورب العيش أنا لك زوج وأنت لي حليلة»[1].

أما مايتعلق بمراسم العرس لدى البدو فكانت الاستعدادات تتم قبل بداية الاحتفالات ويبدأ الاحتفال في يوم الأحد غالباً ويجتمع الرجال كل مساء والنساء حيث يغنون (ويدبكون) ويرقصون معاً حتى يوم الثلاثاء، حيث تتشكل قافلة من رجال ونساء عشيرة العريس، يركبون على الخيول وبعضهم يسير على الأقدام وبعض النساء في الهوادج المحمولة على الإبل. وتخرج تلك القافلة إلى منزل أهل العروس وهم يمرحون على ظهور الخيل والنساء يغنين والرجال يطلقون العيارات النارية في الفضاء.

ويدعوهم لضيافته أول من يصادفهم، فيلبون دعوته، وبعد إكرامهم تذهب النساء إلى أهل العروس فيستقبلن بالترحاب، ويأتي الأهل بالعروس التي تكون قد اختفت من الوجه

---

(١) انظر: زكريا، أحمد وصفي. عشائر الشام. ج١، ص٢٣٨.

خجلاً فيحملنها ويلبسنها أثواب العرس ويعطرنها كما هو المعتاد، وهن يغنين وينشدن. ويذبح لهن ذبيحة خاصة ويعد لهن الطعام. وفي المساء يأتي من محارم العروس (والدتها ــ شقيقتها ــ خالاتها ــ عماتها ــ ومن يمت إليها بقرابة) يحممنها ويزينها بأجمل ماأمكن من أنواع الزينة السخية (تنميق الحبايب) وفي الصباح يأخذن العروس ومعها أمها وإحدى المحرمات، بالنشيد والأغاني وإطلاق الرصاص إلى مضارب خيام العريس ويسمون القافلة (قطار العرس). وفي هذا الوقت يكون العريس قد استحم وأعد نفسه للزفاف. ثم تعد للعروسين خيمة منفردة متوسطة يسمونها (البرزة). وفي اليوم الثاني يقدم العريس لعروسه نقوداً يسمى (نقوطاً)، وصباح اليوم الثاني يتوافد الأصدقاء لتقديم التهنئة العرايسية مع تقديمهم الهدايا ويقوم أهل العريس بذبح الذبائح وإعداد الطعام لهم. وبعد أسبوع تقوم العروس بزيارة أهلها وتأخذ معها سمناً لتقدمه لهم، وتعود من عندهم بالهدايا هذا مايتعلق بعرس البدوية العذراء، أما الثيب فلا يتم لها مثل هذا الاحتفال[1].

وكانت عادة البدو عندما يتجولون مع زوجاتهم في البادية أن يحملوا معهم شهادة زواجهما كي لا يتعرضا لأي مكروه من قبل البدو الآخرين. ويذكر الصايغ أنه كان على العروس «أن تحفظ هذه الوثيقة في رأسها حفظاً جيداً وتحترس عليها من الضياعان (الضياع) وأسباب ذلك من حيث وجودهم بالجول (البادية) يروحوا مراراً كثيرة إلى عند بعضهم من قبيلة إلى أخرى لأجل يروحوا لعند أقربائهم أو أحبابهم من المعلوم يمرون على قبائل عرب كثيرة بالطريق فيمسكوه ويطلبوا منه ورقة الزيجة... وخوفاً ليلا يكون مشروطاً من عند أهلها يعني خاطفها وهارب بها فحينئذ يظهر لهم الورقة فيطلقوا سبيلهم يتوجهوا إلى محل مقصدهم والذي يكون مامعه ورقة، ضايعة منه يخلصوا المرا منه ويحطوها في بيت الحاكم حتى يروح زوجها يرجع إلى قبيلته ويجيب ورقة ثانية بشهود وختم الحاكم يسلموه زوجته ويروح إلى حلل سبيله»[2].

د ــ أعراس أهل الذمة في دمشق

لم يكن من خلاف يذكر بين أعراس المسلمين وأعراس أهل الذمة في هذه الفترة، إلا

---

(١) انظر: زكريا، أحمد وصفي. المرجع السابق. ج١، ص٢٤٦ و ص٢٤٧.

(٢) المقترب في حوادث الحضر والعرب. ص٧ب و ص٨آ.

من حيث الطقوس الدينية، ودرجة التحرر. ويقول نعمان القساطلي إن النصارى «لا تظهر نساؤهم على رجالهم وكان اختيار العروس عندهم كاختيار المسلمين لها وهذه عادة مضرة جداً بالنظر إلى الأمة المسيحية التي لا طلاق عندها. وكم فتاة شنيعة المنظر سيئة الطباع تزوجت بجمال أختها لأنهم كانوا يرون الخاطبات الجميلة ويبدلونها وقت العرس بالشنيعة إلى غير ذلك من الأعمال المضرة»[1] ولا غرابة في ذلك فحجاب النساء عادة قديمة في الشرقيين وكان يحرم الاختلاط بين الجنسين واستمر الحال في هذه الفترة، حيث كانت قريبات العريس يقمن برؤية الفتاة شريكة حياته المقبلة ويقمن بوصفها له ولا يسمح له برؤيتها إلا بعد كتب كتابها.. وبدأ التغير يطرأ على أهل الذمة في هذا المجال في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بعد أن فتحت دمشق على المؤثرات الغربية وازداد الاحتكاك بالغربيين فاقتبس الدمشقيون بعض عاداتهم وخاصة النصارى واليهود. فأصبح الخطيب قادراً «أن يختار الفتاة التي تناسبه فيما إذا قبلت به» أما مدة الاحتفال بالعرس فكان سبعة أيام ثم صار ثلاثة أيام وبعد سنة ١٨٦٠م / ١٢٧٦هـ صار يوماً وليلة[2].

وكانت عادة النصارى أن يوزعوا الدعوات قبل سبعة أيام من العرس، ويأتي المدعوون إلى بيت العريس يوم الأحد مساء، وتأخذ آلات الطرب تعزف من الساعة الرابعة أو الخامسة، ويذهب الجمع رجالاً ونساء ليأتوا بالعروس، ولا يسمح للعذارى بمرافقة الموكب، والرجال يحملون الشموع الموقدة في أيديهم. وعند وصول موكبهم إلى بيت العروس يجدون باب بيتها مغلقاً فيطرقونه، ولا يفتح لهم بسهولة، وهي عادة قديمة، وتعني أن العروس عزيزة على أهلها. وعندما يفتح الباب يدخل الإشبين أولاً (وكيل العريس) فيكرم البواب بدراهم، ويدخل وراءه الناس، فيستقبلون أحسن استقبال. وبعد أن يلبثوا ببسط وانشراح وشرب يوزع وكيل العريس شمعاً على الرجال الذين في بيت العروس، ثم تغطى العروس بإزار ويذهبون بها إلى بيت العريس بالأغاني والتراتيل والرجال تتقدم النساء كما أتوا. وحينما يدخلون البيت تلبث النساء مع العروس في حجرة وحدهن، وبعد هنيهة تصير صلاة الإكليل، ثم تحيط النساء بالعروس، ويجلبنها برقص وغناء والشموع بأيديهن، ويذهبن إلى حجرة المائدة، وتكون عليها المآكل الفاخرة من الحلوى والفواكه. وبعد أن يأكل جميع الحاضرين يذهب بالعروس إلى

(١) انظر: الروضة الغناء في دمشق الفيحاء. ص١٢٦ و ص١٢٧.

(٢) القساطلي، نعمان. المصدر السابق، ص١٢٧.

حجرة معدة لها ولعريسها، ويأتون بعريسها ويأخذون بالانصراف ولا يبقي إلا بعض النساء اللواتي هن أشد قرباً للعريس مع والدة العروس[1].

أما أعراس اليهود فكانت مزيجاً من عادات المسلمين والنصارى[2]، وكان الزواج يتم لديهم في سن مبكرة أكثر من المسلمين، والبعض منهم يخطب في سن مبكرة جداً، أو قبل الزواج بأشهر قليلة، على اعتبار أن زواجهم لا يتم إلا من أبناء دينهم ويتم بين الأقرباء، وفي مثل هذه الحال تكون الفرصة مهيئة لتعرف العروسين على بعضهما البعض[3]. وأهم ماميز اليهود في هذا المجال، سؤال الشاب عن الفتاة ومالديها من مال، ومايريد أهلها وهبها منه[4]. ومتى تمت الخطبة يكتب بين الخطيبين مايسمي (قنيان) أي عهد، ويسمونه (شيطارا)، ويعينون فيه مقدار المهر المدفوع من الطرفين، ويذكرون فيه ماأتفق الطرفان عليه من شروط. وفي اليوم المحدد تنعقد جمعية يسمونها «كتبة»، فيتسلم الزوج الأمتعة والنقود التي تعهدت الزوجة بتقديمها إليه. وبعد ثلاثة أيام تكون حفلة الزفاف المعروفة باسم (قدوس)[5].

وكان عرس اليهودي مشهوراً بما يظهر فيه من مظاهر الفرح، وكانت تقام وليمة العرس لمدة سبعة أيّام كاملة، بحضور الأقرباء والأصدقاء، وكان يظهر في هذه المناسبة بين نسائهم عديد من النساء المسلمات والمسيحيات المدعوات للعرس، فتعزف الموسيقى ويبدأ الجمع بالرقص، والمهرجون بتقديم ألعابهم، وكانت عادتهم أن يشترك الجنسان (ذكوراً وأناثاً) في إحياء حفلة العرس. وكانت العروس تجلس على كرسي ذي ذراعين في وسط الديوان المفتوح، أو على ديوان في فجوة أو زاوية وخلفها ثلاثة شموع ضخمة طويلة مشعلة في حين تكون العروس مغطاة بحجاب القز الأحمر الشفاف لدرجة يشف عما تحته، وتكون أجفانها مطبقة، أما بشرة وجهها فمطلية بالحمرة[6] وثيابها من الحرير وكانت تزين جسمها المجوهرات والحلي وكانت تجلس والدتها أو إحدى قريباتها إلى جانبها. أما بقية النسوة فيجلسن محجبات على بعد خطوة وراء العروس، وتبقى العروس على هذا الوضع لمدة ساعة حتى ظهور الرجال

---

(١) أيضاً القساطلي. المصدر السابق، ص١٢٨.

(٢) أيضاً القساطلي المصدر السابق. ص١٢٩.

3 - Russell. alex. op.cit. VOL.2.P.79.

(٤) القساطلي، نعمان. المصدر السابق، ص١٢٩.

(٥) كرد علي، محمد. خطط الشام. ج٦. ص٢٩٠.

(٦) في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

القادمين لإتمام بعض الإجراءات الدينية للعريس في الكنيس. وحالما تنتهي تلك الطقوس الدينية كانوا يأتون بموكب يتقدمهم الحاخام و ٢ ـــ ٣ من الربانيين ويدخلون إلى العروس فتتوقف الموسيقى والغناء ويقود العريس والده إلى يسار عروسته ليغطي رأسيهما بنقاب صوفي وتسمى (طليطة) أي طيلسان، ثم يقدم الزوج إلى زوجته قطعة من الفضة فتأخذها منه ويشهد بذلك رجلان ليس لهما قرابة بأحد الطرفين ومن حين تسلم الزوجة القطعة المذكورة من الزوج، يخاطبها بقوله: « هاري آت ميقديشت لي بي طباعت زكيدات موشي واسرائيل » أي أنت مقدسة لي بهذه القطعة مثل دين موسى واسرائيل. ويعود الوالد إلى الوراء، ويقدم زجاجتين من الخمر للحاخام الكبير فيبارك ذلك بدعاء طويل باللغة العبرانية، ويشرب منه جرعة ثم يدار على الحاضرين، فيشرب كل واحد منهم جرعة ثم يعاد إلى الحاخام فيرميه إلى الأرض فينكسر.. وقد تسفح الخمرة على الأرض وتعاد الزجاجتان الفارغتان مرة أخرى إلى الحاخام.. وبعد ذلك ينزع الحجاب عنهما ويتقدم العريس من الديوان لتقبل التهاني من أصدقائه، وكان يصحبه موكب الرجال إلى بيته الخاص، ليتجمعوا على وليمة كبيرة تكون معدة لهذه المناسبة، وتحتوي على الفاكهة والحلويات الفاخرة المنوعة.

وعندما يصل إلى ذلك البيت تكون عروسه قد وصلت إلى بيت الزوجية بصحبة النساء. وتستأنف الموسيقى عزف الألحان ويرافق ذلك الغناء. وتبقى قريبات العروس حتى نهاية الأسبوع. أما بقية النساء فيذهبن مع الليل إلى بيوتهن[١] وبعد زواجهما، كان على العريس الإمساك عن زوجته خمسة عشر يوماً، وأن ينطبل أي ينغمس في حوض خصوصي. وعلى الزوج أن يدعو في ثاني يوم من زواجه عشرة من رؤساء الدين ليولم لهم، وعلى رئيسهم قبل الأكل أن يبارك على المائدة سبع مرات كما بارك على كأس الخمر يوم الزفاف[٢].

---

(١) كرد علي، محمد. خطط الشام. ج٦، ص٢٩٠. ثم انظر: Russell.A.op.cit.PP.80-81-82 وماذكره محمد كرد علي عن الاجراءات وتقاليد العرس لدى اليهود لا يختلف عما ذكره اليكس راسل لدى اليهود في حلب في القرن الثامن عشر.

(٢) كرد علي، محمد. المصدر السابق. ج٦، ص٢٩٠.

الأتراح لدى مسلمي دمشق

الموت أهم حدث يثير الحزن لدى الانسان ، سيما إذا كان المتوفى قريباً أو عزيزاً ، ولهذا كانت المراسم والتقاليد التي ترافق حدث الموت محترمة بكل أجزائها ، وهي منقولة من أجيال سابقة ويكاد يستوى في رعايتها الفقير والغني والجاهل والعالم والكبير والصغير ، وطقوسها الدينية واحدة وجل مافيها من اختلاف كان في مراسمها الاجتماعية بحسب فئة المتوفى الاجتماعية .

فمن العادات التي كانت متبعة آنئذ في دمشق لدى أغنيائها استدعاء بعض النادبات لذكر مناقب الميت ، واستدرار الدمع مقابل أجر معلوم يدفعه أهله لهن . ويقول القاسمي كان « ثمة نساء متهتكات يكلفن بالندب فيندبن وذلك عندما يموت أحد الأغنياء أو التجار الكبار فيأتي أهله باللطامات ويوفوهن أجورهن سلفاً ، فعلى قدر مايعطونهن من الأجرة يقمن بنظيره إن كان كثيراً فكثيراً وإن كان قليلاً فقليلاً ، وهن مؤلفات من أربع إلى عشر نساء ، يلبسن الثياب السود ويسخمن وجوههن وأيديهن بمسحوق الفحم ويحللن شعورهن على أكتافهن ، ويدرن بأطراف الدار وهن كالرئيس ، وأهل الميت حولهن كالتلاميذ ، فيأخذن بالولاويل والصراخ والبكاء والنحيب والندب ، ويعددن صفات الميت ومحاسنه وماكان عليه في حال حياته من بره وكرمه وعطائه وإحسانه للفقراء والأرامل والأيتام وغيرهم ، ويلطمن على

، دورهن وأرجلهن ويصحن بالولاويل ويساعدهن على ذلك أهل الميت[1]، إلى أن يخرج بالميت من الدار ويبقى ذلك ثلاثة أيام متتالية، وإذا ماقضى أحدهم نحبه خارج بلده غريباً وحيداً وبلغ أهله ذلك يأتون باللطامات ويقيمون المآتم ثلاثة أيام متتالية[2] ولقد استنكر علماء دمشق هذه العادات واعتبروها منافية للإسلام وزالت مع الزمن فأصبح نادراً وقوعه إلا من أراذل الناس وسفلتهم»[3].

ومن الإجراءات المتبعة أن يغسل الميت قبل الصلاة عليه ودفنه، وتغسيل الميت له هدفان: هدف ديني وهدف اجتماعي. أما الهدف الديني فتغسيله «كغسل الجنابة وفرائضها وسنتها وفضائلها سواء بسواء»[4] أما الهدف الاجتماعي فهو بمثابة الكشف الطبي في وقتنا الحاضر للتأكد من أن المتوفى قضى نحبه بشكل طبيعي دون عملية غدر من أحد. وكان يقوم بهذه المهمة أناس محترفون فيغسل المتوفى رجل مختص وتغسل المتوفاة امرأة مختصة أيضاً. وكانت هذه الحرفة متوارثة في أسر معينة في دمشق وقراها، وكان على محترفيها أن يحصلوا على إقرار من القاضي في دمشق وتسجل موافقته في سجلات محاكم دمشق. فمثلاً في ٢٢ صفر سنة ١٢١٧هـ / ١٨٠٢ — ١٨٠٣م قرر القاضي محمد سعدي صديقي «راجحة بنت السيد عثمان في وظيفة التغسيل بقرية عين ترما لنساء أموات المسلمين لشغور ذلك»[5].

وغالباً مايوضع الميت على المغتسل الذي هو ملك عام للحي أو القرية ويغطى بغطاء معين كي يستر العورة إذا كان على ملأ من الناس، وبعد ذلك تنشف الجثة وتكفن بقماش خام وتحمل على نعش أو سحلية حيث يوجد في مقابلة الرأس قطعة خشب مثبتة في النعش

---

(١) يذكر نعمان القساطلي أنه من عوائد «الدماشقة في أحزانهم عندما يصاب أحد أفراد البيت بالموت يسكن أهل المتوفي وأصحابه فيأتون ويلبسون ملابس سوداء أما النساء فيحللن شعورهن ويأخذن في أنواع النحيب وبعضهن يبالغن في ذلك حتى يسببن ضرراً لزواتهن وأقرب الناس إلى الميت يلبسون الأسود حزناً عليه مدة طويلة». انظر: الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، ص١٢٩.

(٢) القاسمي: قاموس الصناعات الشامية. ج٢، ص٤٠٣. ثم السباعي، بدر الدين أضواء على قاموس الصناعات الشامية. ص١٤٢.

(٣) القاسمي. المصدر السابق. ج٢، ص٤٠٣. ثم السباعي. المرجع السابق، ص١٤٣.

(٤) القاسمي. المصدر السابق. ج٢، ص٤٥٩.

(٥) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠ / ١٢١٦ — ١٢١٧هـ / ص١٥٤.

يوضع عليها التربان أو الطربوش « في الفترة المتأخرة » أو العمامة أو الطبزة إذا كان المتوفى من شيوخ الطرق الصوفية [١].

وكان من عادة الحلبيين في هذه الفترة بعد تغسيل الجثة دهن بعض أجزائها بمرهم الناردين « مرهم عطري الرائحة » أو بمسحوق مركب من هذا المرهم مضافاً إليه بعض الأعشاب العطرية الطبية ، ويغطى نعش المرأة المتوفاة بغطاء من القز الأبيض ويوضع أحياناً على النعش بعض طاقات الزهور [٢].

ويرافق موكب الجنازة أقرباء الميت وأصحابه ، والقراء الذين يقرأون القرآن بالأصوات الحسنة والتهاليل ويكون على رأس الموكب الشيوخ المسنون ويأتي بعدهم النعش محمولاً على أيدي رجال مخصوصين لهذه الغاية يأخذون أجراً على ذلك ويحيطه بعض الشيوخ ، ويأتي خلف النعش أقرباء المتوفى الذكور أما أصحابه فيسيرون بحسب مراتبهم الاجتماعية ، ثم بعدهم تأتي النساء والعبدات الجواري ، وبينهن النادبة أو النادبات ، مسدلات الشعور والنقاب مسدل بغير إحكام مطلعات الولولات ناشجات باكيات وإذا مااشتد الهياج يشددن شعرهن ضاربات صدورهن العارية .

أما إذا كانت المتوفاة هي الأم فيلحق بناقليها إلى قبرها أولادها . أما المرأة المسنة والأرملة فكانت ترافقها الأسرة دون حزن عميق ، ويبدو الهدوء على النسوة المرافقات لها ، وقد يكلفن إحدى النادبات للقيام بهذه المهمة . وفي مثل تلك الحالة فإن موكب الجنازة يتقدم بخطى سريعة إلى ساحة أقرب جامع مجاور لبيت الميت . أما إذا كان المتوفى من الشخصيّات البارزة في دمشق كأحد كبار رجال الدين والحكام وغيرهم فغالباً ماكان يصلى عليهم في الجامع الأموي فيوضع الميت قبالة المقصورة ، ويدخلونه بالقراءة إلى موضع الصلاة ، وإن كان من سواهم قطعوا القراءة عند باب المسجد ودخلوا بالجنازة . وبعضهم يتجمع له بالبلاط الغربي من الصحن على مقربة من باب البريد ، فيجلسون وأمامهم عات القرآن يقرؤون فيها ويرفعون أصواتهم بالنداء لكل من يصل من القراء من كبار البلدة وأعيانها ويقولون : « بسم الله فلان الدين بن كمال وجمال وشمس وبدر وغير ذلك ، فإذا أتموا القراءة قام المؤذنون فيقولون : افتكروا

---

(١) القاسمي . محمد سعيد . ج٢ ، ص٣٧٤ .

2 - Russell .A. op.cit.VOL.1.P.307.

واعتبروا صلاتكم على فلان الرجل الصالح العالم ويصفونه بصفات الخير ثم يصلون عليه ويذهبون به إلى مدفنه »[1].

وكانت دمشق تجتمع لجنازة أحد علمائها فيورد البديري كما يورد صاحب سلك الدرر عديداً من الأمثلة على ذلك. فمثلاً في سنة ١١٦٣هـ / ١٧٤٩ ـــ ١٧٥٠م مات الشيخ محمد بن عبد الهادي العمري وصلوا عليه في الجامع الأموي ودفن في مقبرة مرج الدحداح وكانت جنازته غاصة بالرجال والنساء، وأيضاً لما توفي نجيب أفندي السفرجلاني الذي كان من صدور أكابر دمشق، صار له مشهد عظيم ودفن في مقبرة باب الصغير وكذلك لما توفي الشيخ الصالح العالم الشيخ مصطفى بن الشيخ شعيب من محلة باب السريجة، صار له مشهد عظيم بالاعلام وخرجت بجنازته جميع مشايخ الطرق[2]. وعندما توفي أحمد السيد المرادي سنة ١١٨٠هـ / ١٧٦٦ ـــ ١٧٦٧م اجتمع للصلاة عليه وعلى دفنه جميع علماء وكبراء دمشق[3]. وعندما مات والي دمشق الوزير محمد باشا العظم في سنة ١١٩٧هـ / ١٧٨٢ ـــ ١٧٨٣م «اجتمعت الأعيان والرؤساء بداره فغسل بها وخرج بجنازته على السوق الجديد حتى وصلوا إلى الجامع الأموي، فوضعت تجاه ضريح سيدي يحيى وتقدم للصلاة عليه المولى أسعد أفندي الصديقي المفتي ثم حمل بجمع عظيم لم يتخلف عنه أحد من أهل دمشق من الرجال والنساء وخرجوا بالجنازة على سوق جقمق فالباب الصغير حيث دفن بها »[4].

وكانت عادة الدماشقة قراءة القرآن والأذكار على روح المتوفى، ويطلق عليها اسم (التهليلة) وكانت تقام في الليلة الثالثة وليلة أول خميس من وفاته ثم ليلة الأربعين أو ليلة وفاء عدة زوجته، أو ليلة تمام السنة. ففي هذه المواعيد تقام التهاليل خاصة إذا كان المتوفى غنياً أو طبقاً لوصيته قبل وفاته. وعلى ضوء ذلك يختلف الاحتفال بذلك، وكمية الأموال المصروفة من شخص لآخر، وتوهب خير الآيات المتلوة إلى روحه. وكان يقوم بذلك في دمشق بعض

---

(١) انظر: ابن بدران، عبد القادر. منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، ص٥٦.

(٢) حوادث دمشق اليومية، ص١٣٦ و ص١٣٧.

(٣) سلك الدرر. ج١، ص١٤٥.

(٤) المرادي، محمد خليل. المصدر السابق. ج٤، ص١٠٢.

الشيوخ العميان أو بعض الطرق الصوفية[1]. ويعطون من أموال بحسب هبته أو بحسب ماتبرع به الورثة وأهل الفقيد، وتراوح المبلغ مابين الخمسماية قرش إلى عشر ليرات، أو ربما زاد عليها[2]. ويأخذ شيخ التهليلة المال ليشتري به سمناً لقلي العوامة، وطحيناً من الجنس العالي، وزيتاً وخشباً وسكراً ودخاناً، ويرسل وراء قلا العوامة فيأتي ويتفق معه على العجين والطحين، فيحضر ويعجن من النهار في أطباق ويبني كانونه ويهيأ له تنكة سمن ويكون بيت الشيخ قد تهيأ بفرشه وتزينت أمكنة الجلوس للضيوف المدعوين وتعلق المصابيح بعد أن يكون قد دعا رئيس الذكر مع جماعته وهم نحو ستة أو أكثر. وقد يدعى لها جماعة من المولوية حتى إذا أذن لصلاة العشا أخذ المدعوون وأهل الذكر ومن يدعوهم الشيخ من أهله وجيرانه، يغدون إلى دار الشيخ وبعد أن يلبث الجميع حصة يتناولون بها القهوة، تفرق أجزاء الربعة، فبعد أن يقرأ منها مايقرأ، تمد لرئيس الذكر وجماعته فرش يجلسون عليها، ويبدأون بعملهم وتسمى (المسبحة الأولى)، ويبقى الذكر نحو ساعة ونصف والمنشدون من ورائهم ستة إلى عشرة بحسب أهمية التهليلة، ويضيفون إلى الإذكار كثيراً من الأناشيد الأخرى، كالششترى، ويقرؤون الإكرامية ومنظومة الدردير أو البكري بتمامها. وكنت ترى ضجة المنشدين الذاكرين تسمع من مسافة عشرين بيتاً أيام الصيف، وبعد انقضاء العمل، يستريحون برهة يشربون فيها القهوة، ثم يقومون إلى إعادة العمل السابق، ويستمر ذلك لمدة ساعة. ثم يستريحون أيضاً ويقرؤون بعد ذلك للوقوف فيذكرون وهم قيام أقل من ساعة أنواعاً من أناشيد الهيام والتواجد، وهناك يلبس جماعة المولوية وهم عشرة أوائل، لباسها الأبيض، ويدورون على الذكر ثلاث مرات في ثلاث ترويحات، ثم ينصرفون. ويختم رئيس الذكر وجماعته بعدهم الذكر المعروف بذكر الحجازي الذي هو الآمدية. ثم يختمون ويدعو شيخ التهليلة للميت ويؤمن الحاضرون على هذا الدعاء، ويهدى ثواب قراءة القرآن ونشدان الإذكار إلى الميت. ثم يجلسون ويكون

---

(١) القاسمي، قاموس. ج٢، ص٤٥٩.

(٢) «أوصى المرحوم قواص الحاج علي بن ابراهيم كناهوي قبل وفاته أن يصرف من ماله مائة وثلاثون غرشاً لاسقاط الصلاة وكفارة وللفتال والحمال وصدقات للفقراء وخمسة وأربعين قرشاً للغير وثمانية وستين غرشاً ونصف للكفن ولشاهدة تسعة غروش ولتلاوة ختم القرآن إحدى وعشرين قرشاً ولوقف مكرم شريف ثمانية غرش وبساط إلى الجامع الأموي الشريف. وثمانية غروش ومائة قرش يعمل بها حلاوة على روح المتوفي فتكون بدون تكرار ٥٨٣ قرشاً». انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٤٠/ ١٢٥٠ ـــ ١٢٥٤هـ. ص٣٥.

أهل دار الشيخ قد هيأوا سفرة الطعام للمسبحة الأولى . ودعوا لها من حضر تدريجياً على حسب المقام . ولا يفرغ الذكر بتمامه حتى يكون قد أكل كثير من الحاضرين وانصرفوا . ثم يفرق الشيخ الجوائز على الذاكرين والمنشدين والمولوية والخدم وماتبقى فيأخذه لنفسه[1] .

وفي الأيام المحددة (العدان) التي ذكرناه آنفاً يذهب أهل المتوفى إلى الشيخ الذي اشتهر بإقامة التهاليل في داره فيعطونه المقدار الموصى به للتهليلة أو المتبرع به ، فيتكلف الشيخ بإقامة التهليلة « ولا يقام وزن للتهليلة حتى ولو قدمت جميع المآكل دون العوامة »[2] .

ويقوم أهل المتوفى بطبخ الطعام وتقديمه للفقراء والمساكين داخل الدار ويوزعون أرغفة الخبز وفي طيها الطعام والدراهم ، فيأتي الكلاليب[3] لتناول بعض الصدقات سواء كانت طعاماً أو دراهم. ولقد كثر عدد أصحاب هذه الحرفة بدمشق وكثر أذاهم وكان لهم جواسيس يجلبون لهم الأخبار عمن مات ويحسبون لهم مواسم الموتى من أربعين وإتمام السنة ... ويمكن تفسير ذلك بسوء الأحوال الاقتصادية إذ لو توفر لبعضهم الكسب الحلال لما امتهنوا تلك الحرفة التي غالباً ماكانت على حساب كرامتهم .

---

(١) انظر : القاسمي . قاموس الصناعات الشامية . ج٢ . ص٢٢٢ و ص٢٢٣ .

(٢) انظر : القاسمي . المصدر السابق . ج٢ ، ص٣٢٤ و ص٣٢٥ .

(٣) جمع كلّاب وهو من الفقراء والمعدمين الذي يتبع الجنائز فيأتي دور الموتى لتقبل الصدقات التي يوزعها أهل المتوفي عن روحه في العدانات المعروفة . وبعض الكلاليب لا يرضون بما يعطون فيتكلبون بالانسان ولا يمكنه أن ينفك عنهم حتى يرضيهم ، وقد يكون من وزع الدراهم غير مهاب ولا ميسور ، فيشتمونه ويضربونه ، وقد يتسابون مع بعضهم ويتضاربون ، إذا كانت صدقة أحدهم تزيد عن الآخر ، ويدخل هؤلاء الدار بالرغم من أهلها ، وقد يضطر أهل المتوفي لوضع حارس عند باب الدار ، ويكون شجاعاً ليدافع ويمانع ولكن لا ينصرفون دون شيء .
انظر : القاسمي . قاموس الصناعات الشامية . ج٢ ، ص٣٩١ و ص٣٩٢ .

مـآتم أهل الذمة في دمشق

كانت مراسمها تنسجم مع عقائدهم الدينية . فاليهود منهم اعتادوا عندما تحضر المنية أحدهم أن يجلس اثنان منهم عند رجليه ويذكرانه بقولهما : « شيماع اسرائيل آدوناى ايلو هيو آدوناى آحاد » أي اسمع يااسرائيل الديان إلهنا الديان واحد . فإذا قضى نحبه وضعوه على (اللوحوت) أي المغتسل ، ويغسلونه بالماء الفاتر ، ثم يدرجونه في ثوب من الكتان ، ويعيبونه بالتقريض والخروق كيلا يطمع به نباشو القبور ، ثم يضعون الجثة في (الأورت) أي النعش ، ويحضر أحد أقربائه ويقرأ عليه (قداشا) أي يصلى عليه صلاة الميت ، ثم يحمل النعش بين ثلاثة أشخاص وعلى كل من مرت به الجنازة أن يمشي معها أربعة أذرع أو أكثر ، ويطلب من الميت السماح ، فإذا وصلوا بالنعش إلى الكنيس قرأ عليه أحد أقربائه قداشا آخر ثم يحملونه إلى مدفنه ويوارونه في التراب ، ويقوم أحد الحاضرين ويبارك عليه بقوله « باروخ ديان ها ايميت » أي تبارك من شرع الحق . ثم يقرأ ولده قداشا ثانياً ويعود هو ومن معه من الأقارب والأصحاب إلى بيت الميت ، وفي أثناء الطريق يغسل كل واحد من الحاضرين يديه ويقول : « عينينو لو رأوو يادينو لو شافيخو بيدام هذه » أي عيوننا مارأت وأيدينا ماسفكت هذا الدم . فإذا وصلوا إلى بيت الميت قام أحد الحاضرين إلى كل وارث له ومزق ثوبه من زيقه وهو يقول : « باروخ ديان ها ايميت » ثم تحضر مائدة عليها أطعمة متنوعة يرسلها أحد الحاضرين فيأكل منها ورثة الميت على شرط أن يضع الطعام بأيديهم أحد الحاضرين ويبارك لهم بقوله

« باروخ ميناحيم ابيليم » أي تبارك الذي يسلي الحزين. وعلى ورثة الميت أن يلزموا منازلهم سبعة أيام لا يعملون فيها عملاً مطلقاً، ويسمونها (التآبيل) أي الحداد. وفي اليوم السابع يصنع طعام للفقراء، وهكذا في اليوم الثلاثين وبمرور تسعة أشهر ومرور سنة [1].

وكانت عادة النصارى إذا مااحتضر أحدهم جاءه الكاهن (يستأديه واجباته الدينية)، وبعد أن يقضي نحبه يتربصون بدفنه مدة أربع وعشرين ساعة يضعونه خلالها في صندوق ليحضر أقرباؤه وأصدقاؤه وفي الوقت المحدد يضعون الصندوق في نعش يزدان بالأيقونات وأكاليل الزهور فيحمل إلى البيعة ليصلي عليه، ثم يحمل إلى المقبرة، وأمامه صفوف الكهنة يترنمون بآيات من الإنجيل، ووراءهم عظماء الطائفة وتلامذة المكاتب وحملة الصلبان والشموع، وقد التف النعش أربعة من كبار الطائفة يمسكونه من أربع أطرافه بسفائف من الحرير الأسود. وحينما يصلون به إلى اللحد يضعه الحمالون عن كواهلهم ليوارى في لحده. ويصطف أهل المتوفى لتقبل التعازي ويمر عليهم المشيعون لجنازته لتعزيتهم وفي مقدمتهم رجال الدين. وفي اليوم الثالث للوفاة تقام صلاة للمتوفى في البيعة يسمونها جنازاً، يسرجون فيها المصابيح قدر مايقع عليه الاتفاق من النقود بين أهل الميت وبين كهنة الطائفة، وهذه الصلاة تعاد في اليوم التاسع وفي يوم الأربعين وفي نصف السنة. وكانت للنصارى تقاليدهم في الحداد ومدة يحدون فيها بحسب درجة قرابة المتوفى، فحداد الولد على أبويه ثلاث سنين، والأخ على أخيه والزوجين أحدهما على الآخر والأبوين على ابنهما سنتان [2] وكان لبعض الأسر مغارات يدفنون فيها موتاهم، ولقد تعرضت موجوداتها للسرقة من قبل بعض اللصوص. ففي عهد سليمان باشا وفي سنة ١٢١١هـ /١٧٩٦ ــ ١٧٩٧م توفي مسيحي ميداني ودفن في ساحة مار جرجس فقام بسرقة ثيابه أناس من الشاغور، وعندما شكت والدة المتوفى للوالي ألقى القبض على اللصوص وأعدمهم [3]. وإن دلت هذه الظاهرة على شيء فإنما تدل على تسيّب الأمن من جهة وعلى الظروف الاقتصادية السيئة التي كانت تعاني منها دمشق من جهة أخرى مما دفع باللصوص للسطو على موجودات الأموات في مقابرهم.

---

(١) انظر: كرد علي، محمد. خطط الشام. ج٦. ص٢٩٠ و ص٢٩١.
ثم: رستم، أسد. المصدر السابق، ج٥، ص٥.

(٢) انظر: كرد علي، محمد. خطط الشام. ج٦، ص٢٨٨ و ص٢٨٩.

(٣) انظر: تفاصيل ذلك في تاريخ حوادث الشام ولبنان. لميخائيل الدمشقي، ص٤٨.

التسلية والملاهي في دمشق

أمضى الدمشقيون أوقات فراغهم بطرق مختلفة. كالسهرات في البيوت بين الأهل والأقرباء والأصدقاء، أو بارتياد أماكن التسلية في بيوت القهوة، وتناولوا فيها أطراف الحديث فيما بينهم، أو بالاستماع إلى النوبات والآلات الموسيقية والغناء، أو بالـلعب بالـلُعَبِ المختلفة التي كانت سائدة آنئذ كالفناجين والخطة والشطرنج والنرد والضومنا والمنقلة، أو بالاستماع للحكايا من الحكواتي أو من أحد الحاضرين، أو بمشاهدة الكركوزاتي (خيال الظل).

ويلاحظ في هذه الفترة ازدياد عدد مرتادي المقاهي والخانات لتمضية وقت الفراغ، مما يدل على تزايد عدد العاطلين والمتسكعين، ولم يرتد تلك الأماكن سوى الذكور دون الأناث إلا من كانت من بنات الهوى للارتزاق.

واختصت بيوت القهوة بالعامة دون الخاصة، فارتادها الحرفيون وأبناء الأقطار العربية المقيمون في دمشق وأبناء القوميات غير العربية، لهذا كنت ترى فيها بيوتاً خاصة بأبناء حارة معينة يرتادها أولئك دون غيرهم. ووجدت بيوت قهوة يرتادها أبناء الحرفة الواحدة كقهوة اللحامين والنجارين وغيرهم[1]. ووجدت بيوت خاصة بالانكشارية اليرلية وأخرى خاصة

(١) كان لمحترفي تربية الطيور مكان يجتمعون فيه يسمى (قهوة الحمام) يقصده كل من يقوم أو يرغب بتربية الحمام ويطلق عليهم اسم حميماتية. انظر: القاسمي، المصدر السابق. ج٢، ص٢٩٩.

بالقابي قول، وثالثة خاصة بالجنود المرتزقة توضع على عتباتها شاراتهم الخاصة، فاعتبرت لذلك ملاذا لكل من يلجأ إليها وكان على روادها حمايته مهما كانت فعلته حتى ولو كانت جريمة[1]. ووجدت بيوت قهوة خاصة بالمواصلة والبغداديين (البغادة) والمغاربة وغيرهم، وبيوت خاصة بالأكراد والأفغان والأرناؤوط والأتراك. ولهذا يمكن اعتبار بيوت القهوة آنئذ بمثابة أندية في عرفنا الحاضر، تلتقي فيها تلك الفئات المختلفة فتحل مشاكلها وتعقد فيها المؤامرات ضد بعضها البعض وترسم الخطط، بالإضافة إلى كونها أماكن للهو والتسلية. وملتقى للعاطلين والساقطين من أبناء مجتمع دمشق. ولهذا لم يأمن الخاصة على سمعتهم إذا ماارتادوها. ويقول القاسمي: «لا يدخل تلك القهاوي من كان به أي شهامة أو عقل أو دين حيث إنها مجمع الأسافل والأرزال»[2]. وكثيراً ماهوجم صبي يسير على قارعة الطريق من أحد الجالسين فيها أو اغتصبت امرأة أو قتل أحد المارة بسلاح أحدهم دونما ذنب اقترفه.

وكان من الطبيعي أن يخاف أفراد الخاصة على سمعتهم فيما لو جلسوا فيها. لهذا وصف من يجلس منهم فيها بالتواضع. ويذكر البديري الحلاق في أحداث سنة ١١٧٠هـ /١٧٥٧م أما أن الشيخ ابراهيم الجباوي «قد بلغ جاهاً عظيماً مع تواضع كلي بحيث يجلس بالقهاوي»[3]. ولا غرابة في قول البديري إذا ماعلمنا أن الجباوي سليل أسرة دينية صوفية عريقة في دمشق.

ومن جهة أخرى فقد إختلف عدد بيوت القهوة في دمشق من فترة إلى أخرى. وما أن جاء القرن التاسع عشر حتى بلغ عددها /١١٠/ مائة وعشرة مقاهي في أنحائها وأحيائها. وأشهر بيوت القهوة آنئذ هي: قهوة السكرية في باب الجابية وقهوة اللحامين بالقرب منها، وقهوة الدرويشية وقهوة العصرونية وقهوة المناخلية وقهوة الجنينة بسوق الخيل، وقهاوي العمارة وقهوة الجاويش بالقيمرية وقهوة الرطل بباب توما وقهوة باب السلام[4]. على أن أكثر المقاهي اتساعاً وأجلبها للانشراح ماكان منها في المرجة. ففي فصل الصيف تتسع لـ /٤٠٠ ــ ٥٠٠/ شخص تظللها أغصان وارفة، وإذا ماتساقطت أوراقها في الخريف

---

(١) القساطلي، نعمان. الروضة الغناء في دمشق الفيحاء. ص١٠٩ و ص١١٠.

(٢) انظر: قاموس الصناعات الشامية. ج٢، ص٣٦٨.

(٣) حوادث دمشق اليومية. ص١٩٣.

(٤) القساطلي. المصدر السابق، ص١١٠.

استعيض عنها بالحصر. وكان منها قسمان قسم صيفي وآخر شتوي، ومنها ماكان يقع في جزر صغيرة كوّنها النهر ويعبر إليها على جسور أو مخاضات، وكان يرتاد هذه المقاهي عدد كبير من الأتراك، فيجلسون على الديفانات ليمتعوا الأنظار بما يونقهما من الماء والخضرة [1].

ولم يكن ليسمح بتناول المسكرات في تلك المقاهي علناً، إلا بعد دخول ابراهيم باشا المصري إلى دمشق في سنة ١٨٣١م /١٢٤٦ ــ ١٢٤٧هـ. وإذا ماأراد أحد تناول المسكرات كان عليه أن يذهب إلى المقاهي المسيحية في باب توما، ويقول القاسمي: «من أراد تعاطي المسكرات والعياذ بالله يذهب لجهة باب الشرقي في حارة النصارى حيث يوجد هناك قهاوي متعددة تعرف بالجنائن في باب توما وقاصدوها يتعاطون القهوة والأراكيل والمسكرات»[2] وبقي حال دمشق هكذا إلى أن وقعت معاهدة كوتاهية بين ابراهيم باشا المصري والسلطان العثماني في سنة ١٨٣٣م /١٢٤٨ ــ ١٢٤٩ حيث أعلن المصريون في دمشق عن قرارهم بإنشاء خمارة في دمشق، وبيع انتاجها في مقاهي دمشق كقهوة علي ابن منين وقهوة باب شرقي وقهوة باب توما ودكاكين في باب الجابية وسوق الخيل وباب مصلى»[3].

وقدم الزبائن في بيوت القهوة، البن والأراكيل والشرابات المثلجة[4] مثل شراب الورد والتوت وغيرها، كما قدمت أدوات التسلية المختلفة المعروفة آنئذ والتي ذكرنا بعضها آنفاً. ولقد تطوربت المقاهي في القرن التاسع عشر بفعل المؤثرات الغربية فأصبحت نوعين: الأول وهو القديم وكان يسمى بالبلدي وتتألف من مصاطب مستديرة عليها حصر أو طوطايات وبها كراسي مربعة كوانين للتدفئة وبها مناضد متينة موازية للكراسي. أما النوع الثاني فهو المدني وبها كراسي خيزران، ومايلزم من أدوات اللعب كالشطرنج والنرد والبيلارد واليزبلك وورق اللعب وغيرها[5].

---

1 - See: Wright. Thomas.op.cit.PP.491-492.

(٢) قاموس الصناعات الشامية. ج١، ص٥١. وج٢، ص٣٦٢.

(٣) مجهول. مذكرات تاريخية. ص١٢ و ص٨٩. مطبعة القديس بولس ــ حريصا ــ لبنان.

(٤) كان يطلق على الثلج المحفوظ في كهوف جبال القلمون اسم (السويق) وكان يحفظ في كهوف نظيفة نسبياً زمن الشتاء، ويجلب إلى دمشق في فصل الصيف على الدواب ويباع لأصحاب المحلات والمقاهي.

(٥) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٤٠ / ١٢١١ ــ ١٢١٦هـ. ص٤٧٥. ثم سجلها رقم ٢٢١ لعام / ١٢٠١ ــ ١٢٠٣هـ. ص٢٤٣. ثم سجل محكمة الميدان رقم ٣٢٣ / ١٢٤٧هـ / ص٦٥ و ص٧٣. ثم البارودي، فخري. مذكراته ج١، ص٩٣. بيروت ــ دمشق سنة ١٩٥١م.

ولقد أغفلت سجلات محاكم دمشق لهذه الفترة أدوات اللعب فلم تأت على ذكرها. وربما اعتبرتها أدوات ميسر نهى عنها الدين الإسلامي فتجاهلتها. وجل ماذكرته منها، مكانها وهندستها وأثاثها.. وحسبنا أن نسوق مثالاً على ذلك موجودات القهوة خانة التي كانت موجودة ظاهر دمشق بمحلة سوق السنانية التي كانت تعرف بقهوة الحمام المشتملة على: «داخل وفناء وسقف وبركة ومساطب مستديرة وأوجاق معد لطبخ القهوة ومنافع شرعية، ويشمل كامل كدكها على رفوف وخرستان وشبابيك وأوجاق ولكن وغال وسكرة ومفاتيح وسبعة أراكيل قشور وأربعة أراكيل نحاس وطاسة نحاس ولكن نحاس وتبعية نحاس وأربعة دولات نحاس وخمسين كرسي وبساط أحمر... وعدة قناديل ومنافع شرعية وهي من أوقاف سنان باشا»[1].

ولقد وجد في بيوت القهوة حكواتية وكراكوزاتية يقدمون حكاياتهم وعروضهم لروادها مقابل أجر معين يدفعه الحاضرون. وكان معظم رواد الكاراكوزاتية والحكواتية من الناس الذين يمجدون البطولة، ويهتمون بأبطالهم في مغامراتهم ومعاركهم وحياتهم وبؤسهم وشقائهم ونعيمهم وسعادتهم، فكنت ترى الحزن يسيطر عليهم عندما تحيق بأبطالهم الصعاب ويقعون في المآزق، ويتمنون لو أنهم يستطيعون مساعدتهم، كما ترى الفرح والبهجة في عيونهم وحركاتهم وتعليقاتهم عندما ينتصر أبطالهم على الصعاب والأعداء. وكانوا يرددون في مجالسهم وفي أوقات فراغهم تلك الحكايا والروايات التي شاهدوها أو سمعوها في بيوت القهوة[2]. ولهذا فإن هذا النوع من التسلية كان مفيداً وله أهداف تربوية. فكان يساعد على ترسيخ القيم الإيجابية في نفوس الجماهير ويشذب من أخلاقهم وينتزع جانباً من سلبياتها.

الحكواتي: كان الحكواتي يأتي إلى بيت القهوة في وقت مخصوص لإلقاء الحكايات. وكان يلقيها عن ظهر قلبه أو من الكتاب كقصة عنترة أو الملك الظاهر أو الملك سيف بن زي يزن، أو بعض الحكايات المضحكة وغير ذلك[3].

وكان أغلب أوقات تواجده في القهوة بعد المغرب وبعد العشاء. وقبل شروعه في

---

(١) انظر: سجل محكمة الميدان دمشق رقم ٤١١ لعام ١٢٦٥هـ. ص٦١.

(٢) انظر: المسيوفي، حبيب. سورية ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر. ج٢، ص٨. لبنان المطبعة المخلصية سنة ١٩٤٩م.

(٣) القاسمي. قاموس الصناعات الشامية. ج١، ص١١٢.

الحكاية يحكي لهم مقدمة تسمى (الدهليز) فيها أمور مضحكة، ونصائح وهي من العجب ثم بعد إتمامها يشرع في إتمام ماكان قدمه لهم في الليلة الماضية، لأن الحكواتي يقف في محل من القصة تتحرق النفوس لتوقفه، وبعضهم يتأذى بذلك القطع التأذي العظيم، وذلك شطارة ومهارة من الحكواتي حتى يبكر الناس لاستماع تمام القصة في اليوم التالي... ويورد لنا صاحب قاموس الصناعات الشامية صوراً عن تفاعل المستمعين مع الحكواتي تفاعلاً قوياً يصل إلى حد الخروج على حدود الصبر، وينبذ الأكل والشرب ويسيطر القلق ويطير النوم من عيون البعض. ويورد لنا مثالاً على ذلك الحمصي الذي علم بسقوط عنترة أسيراً بتوقف الحكواتي عند ذلك، فاسودت الدنيا في عينيه وذهب إلى بيته حزيناً رافضاً الطعام مسيئاً معاملة زوجته، وخرج إلى الأسواق لا يقر له قرار. حتى ذهب إلى بيت الحكواتي موقظاً إياه من نومه قائلاً: «قد وضعت عنترة في السجن قعيداً وأنت تنام مستريح البال فأرجوك أن تخرجه من السجن وأنا أعطيك ماتجمعه من الجمهور وإلا فإني لا أقدر أن أنام وعنترة محبوس مسجون. فلم يزل الحمصي على حاله من الغضب والهيجان حتى أتم له الحكواتي القصة... وأخرج عنترة من السجن فطابت نفسه وحسن حاله».

ولم يقتصر عمل الحكواتي على القهاوي بل ذهب إلى بعض البيوت بأجرة مخصوصة، عند اقتضاء ليلة سرور، وأما أجرته في القهوة فنصف أجرة صاحب القهوة، لأن كل شخص يدفع لصاحب القهوة عشر بارات ويشرب قهوة ودخان فيأخذ الحكواتي نصف الحاصل[1]. وأكثر مايسترعي انتباهنا هو استخدام الحكواتية لأكثر من لغة في سرد حكاياهم مراعاة منهم لنوعية المستمعين في مقاهي دمشق. ويذكر لنا الإخباريون بعضاً من مشاهيرهم، فيقول البديري الحلاق في أحداث سنة ١١٥٥هـ أنه توفي سليمان بن الحشيش الحكواتي الذي «كان فريد عصره ووحيداً في أوانه وكان يحكي سيرة الظاهر وعنترة وسيف ونوادر غريبة في التركي والعربي ومع ذلك فهو أمي لا يقرأ ولا يكتب»[2].

وأورد محمد خليل المرادي اسم أحد الحكواتية الذين عاصرهم وهو أحمد شاكر الحكواتي ١١٢١ ــ ١١٩٣هـ / ١٧١٠ ــ ١٧٨٠م الذي كان يعمل في «بيوت القهوة

(١) القاسمي: المصدر السابق. ج١، ص١١٤.

(٢) حوادث دمشق اليومية. ص٣٤.

فينقل الحكايات والوقائع ويبدي النوادر واللطائف في أقبح المواضع مع فضله وأدبه الذي لا ينكر »[1].

الكاركوزاتي : يبدو أن الكاركوزاتي كان أكثر تأثيراً بمشاهديه ومستمعيه من الحكواتي، فالحكواتي كان تأثيره يقع على المستمعين من خلال وقائع قصته من ناحية، ومن نبرات صوته التي تتلون حسب وقائع الأحداث بحيث يعطي نبرة الحزن التي تختلف عن نبرة الفرح، أو الحماس أو الشمم أو الإباء وهكذا من أجل إحداث التأثير في سامعيه وشد انتباههم إلى أحداث القصة. في حين أن الكاركوزاتي بالإضافة إلى ماتقدم، يعرض صوراً لشخصيات قصصه المختلفة، ويلون نبرات صوته من وراء الستارة مع كل شخصية بحيث تختلف من شخصية إلى أخرى، ويتعقب تحركات شخصياته التي يعرضها بأصوات مختلفة، فتارة يركضون أو يركبون الخيل أو يحملون السلاح أو يدخلون المعارك، بانفعالات مختلفة كالضحك والبكاء، ويرتدون الأزياء الملونة. وهنا لا تخاطب حاسة السمع لدى المشاهدين كالحكواتي فحسب بل يخاطب حاسة البصر أيضاً، وهما أمران هامان للتأثير على المشاهدين. لذلك يمكن القول أنه كان بمثابة الرائي (التلفزيون) في وقتنا الحاضر.

ويصف لنا القاسمي عمل الكاركوزاتي بأنه كان « يعمل في القهاوي فينصب ستارة من قماش في زاوية من القهوة، يربط بأسفل الشاشة خشبة على عرض الستارة ويضع فوقها سراجاً يوقد من زيت الزيتون، وهو يقف خلف الستارة يلاعب الخيالات، وتكون القهوة مملوءة بالمتفرجين »[2].

ولقد وجد عدد من الكاركوزاتية ممن أتقنوا هذه الحرفة بسرعة تحريكهم الخيالات. ومرافقة ذلك بالغناء الجميل وتعليقاتهم الذكية والمؤثرة. وكان للكاركوزاتي طريقة في العمل. فقبل أن يبدأ بتحريك صوته على الطريقة التي يقتضيها فصل القصة يخرج شخصاً يسمى (الوصّاف) فيخطب خطبة يعظم الله فيها ويحمده. ثم يتكلم على كل صنف من الصور التي تخرج بعده من خلف الستارة، ثم يعلم الجماعة أن الله تعالى نصب هذا مثلاً لعباده ليعتبروا ويعلموا أن هذا العالم مع الله مثل هذه الصور مع محركها وإن هذه الستارة حجاب

---

(١) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر. ج١، ص١٥٥.

(٢) قاموس الصناعات الشامية. ج٢، ص٣٨٤.

سر الغد، المحكم في الخلائق، ومع هذا كله يتخذه الغافلون لهواً ولعباً"[1]. ثم يبدأ العرض والتعليق.

ولقد لعب الكاركوزاتي دوراً اجتماعياً وسياسياً، حتى أنه في المراحل الأخيرة من حكم العثمانيين أرسلت السلطات العثمانية العيون إلى المقاهي لمراقبة ماتقدمه الكراكوزاتية لمشاهديهم من تحريض أو نقد لاذع للسلطات بطريقة غير مباشرة، مما يدل على أن ذلك كان يفعل فعله في نفوس المشاهدين.

صندوق الدنيا: ولقد كان قليل الأهمية بالنسبة للحكواتي والكراكوزاتي، إلا أنه كان له زبائنه وعشاقه. وكان معظمهم من الأطفال والفلاحين وبعض العوام. وهو عبارة عن صندوق خشبي له عيون بللورية مكبرة وبه لولبان ملفوفة عليهما الصور. فيعرضها بإدارة اللولب ويعلق على كل صورة في الوقت الذي ينظر إليها متفرج أو أكثر بحسب عدد الفتحات في الصندوق. وبعد انتهاء عرض الصور تنتهي الفرجة فيدفع المتفرج لصاحب الصندوق مبلغاً من المال[2].

الولع بالموسيقى والغناء

لم تكن الموسيقى والغناء أداتي طرب وتسلية لقتل الفراغ في شيء جميل محبب للنفس فحسب بل ارتبطا في بعض جوانبهما بالنواحي الدينية. وبرزا في قراءة القرآن ترتيلاً وتجويداً، كما برزا لدى المؤذنين والقائمين بالذكر لدى بعض الطرق الصوفية، وفي التواشيح النبوية. وأقام المتصوفون احتفالاتهم الدينية باستخدامهم الآلات الموسيقية التي يرافق عزفها إنشاد المنشدين، حتى أن الطريقة المولوية كان أفرادها يدورون على أنغام موسيقية مطربة جداً «وهي بالحفلات المدنية أليق منها بالدينية»[3].

وفي هذه الفترة استمر الجدل في الموسقى والغناء بين علماء دمشق. فحسين بن طعمة البيتماني تلميذ عبد الغني النابلسي المتصوف الكبير، يروي لنا رسالة في السماع وأنه

(١) انظر: قاموس الصناعات الشامية. ج٢، ص٣٨٥.
(٢) وصف ذلك القاسمي في قاموس الصناعات الشامية. ج٣، ص٣٠٣.
(٣) انظر: كرد علي، محمد. خطط الشام. ج٦، ص٢٧٦.

ضربت نوبة السماع في منزل محمد المرادي في حضرته وحضرة عبد الغني النابلسي وكان منها السنطير والناي والكمنجة والعود والوتر والشبّاب مع إنشاد الشعر والغناء والنقر باليد. وإن أحداً لم ينكر ذلك. وكتب البيتماني مقتفياً آثار أستاذه النابلسي كتاباً أسماه «إيضاح الدلالات في سماع الآلات» كما أخلف النابلسي إكثار الناس الكلام بين الخواص والعوام فيما يتعلق بالآلات والسماع ويرد تلميذه البيتماني «إن السماع بالآلات كالمطر ينزل على أرض النفوس فتهتز فتنبت مافيها من الأسرار الالهية والتقادير العلمية الكامنة في خزائن النفوس. فإن كان طيباً نبتت طيباً وإن كان خبيثاً نبت خبيثاً»[1].

ولقد برز عديد من رجال الدين في هذه الفترة ممن كانوا موهوبين بأصواتهم الجميلة ومتقنين لفن الموسيقى. ويورد لنا المرادي وغيره من الاخباريين والمؤرخين أسماء عدد من هؤلاء. ولم يكن ذلك وقفاً على المسلمين بل شاركهم في ذلك بعض أبناء أهل الذمة في دمشق، كسليم بن جبرائيل الخوري الذي «اشتغل في فن الموسيقى وقصد أن يضبط الألحان العربية على الروابط الافرنجية فوضع مقدمة لتأليف مخصوص في هذا الفن»[2]. ومن المسلمين عمر بن شاهين المتوفى سنة ١١٨٣هـ/١٧٦٩م والذي تفوق بالموسيقى ودرس تلاوة القرآن بالألحان مع مراعاة التجويد وكان أستاذه في ذلك عمر بن محمد البصير المصري الذي كان يعلمه كيفية الانتقال من نغم إلى نغم. ونستطيع أن نتلمس من خلال تتمة رواية ابن شاهين معالم العناية التي حظي بها الصوت في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، فقد كان يتلقى قراءة التحقيق والترتيل والحدر والوقف والابتداء وكان أستاذه يباحثه في طول النفس إذ ربما درج ثلاث آيات أو أربعاً من الآيات المتوسطات في نفس واحد. ولا غرابة أن يبرع في الموسيقى والغناء من يفترض منهم التزمت والتحنث مثل صالح المزور خطيب السليمية في صالحية دمشق الذي وصف بأنه: «حسن الصوت ماهو بالموسيقى والألحان»[3]. ثم سعيد السمان الشافعي الدمشقي سنة ١١١٨ ــ ١١٧٢هـ/١٧٠٤ ــ ١٧٥٨م كان حسن الصوت

---

(١) انظر: حسين بن طعمة كشف الالتباس في مسألة الاستماع أو رسالة السماع، ص١٩٨. ضمن مجموع تحت رقم ٦٠٦٩ خط، دار الكتب الظاهرية. دمشق.

(٢) انظر: مردم بك، خليل: أعيان القرن الثالث عشر في الفكر والسياسة والاجتماع. ص٣٠٠ و ص٣٠١. بيروت سنة ١٩٧٧م.

(٣) المرادي. سلك الدرر. ج٣، ص١٧٧ و ص١٨٩. ثم ج٢، ص٢٠٢.

والأداء له معرفة بالموسيقى[1] ثم **محمد سعيد القاسمي كان له معرفة بالموسيقى وأنغامها**، ألف قصيدة ضمّن كل بيت من أبياتها اسم نغم من الأنغام الشرقية كلها[2].

ورغم مواقف علماء دمشق المتباينة من الآلات والغناء فقد مال بعض رجال الدين وغيرهم من العامة في هذه الفترة للاستماع والطرب (العامة والخاصة على حد سواء). واستخدم الدمشقيون أدوات موسيقية مختلفة لعزف الألحان ومرافقة الغناء. وكان من هذه الآلات. العود ـــ الكمنجة ـــ الدف ـــ النقارات ـــ الدربكة ـــ الناي ـــ الرباب ـــ المزمار ـــ القانون ـــ والسنطير وغيرها. وسمعت ألحانها في بيوت القهوة وبيوت الخاصة والعامة ـــ وفي متنزهاتها وعلى مستوى النوبات الرسمية للدولة في المواكب واحتفالاتها.

وكان السيران أو النزهة في بساتينها وجنائنها الغنّاء، تستوجب السماع في فصل الربيع والصيف. وإذا ماحل الشتاء، استعاضوا عن ذلك بالاجتماع في بيوت القهوة أو البيوت فيقيمون حفلاتهم فيها ويأتون بعوادين وآلاتية[3].

ومن جهة أخرى احترف البعض الضرب على الآلات الموسيقية وكذلك الغناء، وكان منهم يهود ومسيحيون ومسلمون، بهدف الارتزاق، وكانوا يحيون الحفلات في بيوت الأكابر والمتوسطين[4]. وبلغت أجرة بعض هذه الفرق مئة قرش فأقل[5].

واستقبلت دمشق بعض الفرق الموسيقية من المدن الشامية والعثمانية، وقدمت تلك الفرق عروضها في بيوت القهوة. ويذكر البديري في أحداث سنة ١١٦٠هـ /١٧٤٨م أنه «ورد إلى الشام ثلاثة يهود من مدينة حلب لهم مهارة في ضرب الآلات بأحسن النغمات، فصاروا يشتغلون في قهاوي الشام ويسمعهم الخاص والعام»[6].

---

(١) المرادي. المصدر السابق. ج٢، ص١٤١. ج٣، ص١٨٨ و ص١٩٠. وذكر المرادي آخرين ممن اشتهروا بالغناء والموسيقى كصالح الحلبي وعبد المعطي القلاقنسي وعليم الله الهندي اللاهوري نزيل دمشق. انظر: المصدر السابق ج٢، ص٢١٦. ثم ج٣، ص١٣٥، ص٢٦١.

(٢) السباعي بدر الدين. المرجع السابق. ص١٤٠ و ص١٤١.

(٣) القاسمي. قاموس الصناعات الشامية. ج١، ص٨ و ص٩.

(٤) القاسمي. المصدر السابق. ج٢، ص٣٢٣.

(٥) القاسمي. المصدر السابق. ج٢، ص٣٤٦.

(٦) حوادث دمشق اليومية، ص٩٥.

وعلى المستوى الشعبي أحيا بعض الجعيدية والنور حفلات الأعراس والختان، وأيضاً النذور وغيرها. بالضرب على الطبل والنفخ في المزمار، وجال بعضهم في أسواق دمشق وأمام دكاكينها يعزفون على مزمار القصب (المجوز) أو الشبابة أو الناي يسمعون السابلة أنغاماً فيجذلون لهم العطاء[1].

ومع ذلك قام بعض الولاة العثمانيين ممن أتسموا بالتزمت والجمود بمنع حفلات الغناء والسماع ظناً منهم أن ذلك يفتن الشعب عن عقيدته وإيمانه. فالكنج يوسف باشا الذي كان والياً على دمشق أصدر أوامره في سنة ١٢٢١هـ/١٨٠٦ ــ ١٨٠٧م بمنع (النوبات والالات)[2]، كما ضيق على البعض مما اضطرهم لإقامة حفلات الطرب في سراديب تحت الأرض كي لا يسمع صوتهم إلى الخارج، ومع ذلك تعرضوا لغضب الوالي أو حاشيته أو الأغوات أو شيخ الحارة[3]. ولقد تأثر في سلوكه هذا بتوجيهات شيخه النقشبندي الكردي مما دعا رجال الدين المسلمين للتدخل في الأمر وكلموه عن الخلل الذي حاصل منه وأنه ينافي مذهب الإسلام.. وأشاروا عليه بطرد الشيخ الكردي من عنده فقبل كلامهم وطرد الشيخ وأظهر لطفاً وعدلاً»[4].

الألعاب وتمضية الوقت

لم نر جديداً في مجال الألعاب وطرق تمضية الفائض من الوقت في هذه الفترة،

---

(١) القاسمي. المصدر السابق، ج١، ص١٦٨.

(٢) العبد، حسن آغا. المصدر السابق، ص١٤٠.

(٣) مجهول. حسر اللثام عن نكبات الشام، ص٣٩. كانت الدولة العثمانية على مذهب أبي حنيفة النعمان (١٥٠هـ/٧٦٧م) ولقد قال بكراهية الغناء وجعله من الذنوب، وقد شدد أتباع مذهبه في هذا بحيث أنهم حرموا سماع الملاهي كلها حتى الضرب بالقضيب «صرحوا بأنه معصية يوجب الفسق، وتُرَدُّ به الشهادة».

انظر حول ذلك:

أ ــ الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، ج٢، ص٢٣٠ الطبعة الأولى ــ مصر ١٣٠٢هـ.

ب ــ ابن قيم الجوزية، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ج١، ص٢٧٧، تحقيق محمد حامد الفقي، مطبعة البابي، القاهرة سنة ١٩٣٩م.

ج ــ ابن عابدين، محمد أديب، رد المحتار على الدر المختار، شرح تنوير الأبصار ج٥، ص٢٤١ و ص٢٤٤، مصر سنة ١٣٠٧هـ.

(٤) انظر: مجهول. تاريخ حوادث الشام ولبنان. ص٣٩ و ص٤٠ و ص٤١.

ومعظمها كان موروثاً من عهود سابقة. فكان منها مايخص الأطفال أو الشباب ومنها ماكان للفرجة والارتزاق. وكان لبعضها صفة الميسر، ومنها ماكان رياضة للذهن أو البدن، أو ذا أهداف تربوية أو من ألعاب الخفة والسيما الخ .... وسنتناول معظمها فيما يلي :

الحاوي: وهو الذي يهتم بمسك الأفاعي والثعابين «خاصة من البيوت حيث كان يقرأ في طاسة ماء ويرشها على أربع جهات البيت ثم ينده (ينادي) الحية قايلا تعالي يامباركة فتطلع من وكرها تحضر إلى بين رجليه فيمسكها ويوضعها بجراب جلد فيعطيه صاحب البيت أجرته أربعة خمسة غروش ويأخذها وينصرف»[1]. وكان بعض الحواة يرقصون الأفاعي المطرمة (المنزوعة الأنياب) على نغم الناي في أسواق دمشق فيتصدق عليهم بعض المارة بشيء من النقود. واستخدم بعض الرعاع من الحواة الأفاعي في بعض أحياء دمشق للتخويف وجمع المال. وكان العقاربي يأتي بالعقارب حية فيكسر إبرتها ويتركها تخرج ويدور على الحارات ليفرجها للأطفال والنساء ويأخذ مقابل ذلك بعض الدراهم[2].

ووجد في دمشق من يقوم بألعاب الخفة والبهلوانية في أسواقها أو مقاهيها أو ساحاتها وجنائنها على الملأ. ويذكر البديري في أحداث سنة ١١٦٣هـ / ١٧٥٠م أنه: «جاء رجل من الأتراك إلى دمشق ومعه صحن من نحاس يضعه على عود ويفتله عليه ويقذفه إلى أعلى قامتين ويتلقاه على العود وهو يفتل وينقله من إصبع إلى إصبع وهو دائر يفتل ويلم فلوس من المتفرجين.. كما جاء رجل آخر من أبناء الترك قبل الذي ذكرناه يصفق بأصابعه يضرب الواجدة على الأخرى ويدق برجله على الأرض دقاً محكماً ويغني بالتركي والعربي فتجمع عليه الخلق ويعطونه فلوساً»[3].

وكان في دمشق بعض المزعبرين الذين يقدمون ضروباً من الخزعبلات والشعوذة، فمنها مايسمى السيما ومنها النيرنجيان «ونيرنج فارسي معرب وأصله نورنك أي لون جديد» والنيرنجيان هو إظهار الأفعال العجيبة القائمة على سرعة الحركة وخفة اليد وهي حرفة كان يحترفها قلة من أبناء دمشق يقدمون ألعابهم في القهاوي، وجاء إلى دمشق بعض الغرباء فقدموا ألعابهم في القهاوي وكانت تغص بالمتفرجين.

---

(١) انظر: الصايغ. المقترب في حوادث الحضر والعرب، ص٤٨ب.

(٢) القاسمي. المصدر السابق. ج٢، ص٣١٥.

(٣) حوادث دمشق اليومية. ص١٤٦.

وعندما فتحت دمشق على الغرب على نطاق واسع في عهد ابراهيم باشا المصري، جاءت إليها بعض الفرق البهلوانية لتقديم عروضها. فقد أتى في هذه الفترة إلى دمشق شخص يقال له (مالديس) «وافتتح وقتاً في قهوة العصرونية وجمع أموالاً كثيرة وهرعت الناس إليه من كل فج عميق»[1]. وقدم إلى دمشق في صيف عام ١٨٣٨م / ١٢٥٣ ـ ١٢٥٤هـ فريق مكون من أربعة خمسة أنفار إفرنج بهلوانية استأجروا جنينة الأفندي التي كانت في باب توما.. «ثلاثة أشهر عملوا في دايرها ثلاثة قاطات (طبقات) خشب لأجل جلوس الناس وتركوا الوسط فاضي لأجل اللعب وصاروا يلعبوا بالجمعة يومين لأجل الرجال ويوم لأجل الحريم ويوم الذي يلعبوا يلصقوا أوراق في جميع أسواق البلد. في المصلبات في صفة اللعب الذي مرادهم يلعبوه ويكتبوا ورقة صغيرة يلصقوها جانب التصاوير مكتوب فيها بخط مشبق إعلام إلى أهالي دمشق أن الفرجة على البهلوان في جنينة الأفندي الساعة بالثمانية من النهار الجالس يعطي خمسة قروش والواقف قرشين فتوجه الناس تتفرج وجمعوا من البلد مبلغ ولكن الذي يلعبوه ونظراً لصورة اللعب الذي مصور في الورقة التي يلصقوها في شوارع البلد مثل السيما لأن البهلوان منهم يقف على ظهر الحصان رجله الواحدة على ظهر الحصان والثانية رافعها إلى الخلا ويديه واحدة ماسك فيها رمح والثانية سيف والحصان عمال يركد فيه بالساحة ويفتل مثل الدولاب» وقدموا لعبة ثانية وثالثة ورابعة وخامسة إلى درجة إنهم شعبوا عقول الناس،[2] مما يدل على أن مجتمع دمشق لم يألف هذه الألعاب من قبل. وقدم بعض المصارعين عروضهم في مقاهي دمشق مقابل مبلغ من المال[3].

وكان للكبار والصغار ألعابهم وتسلياتهم التي يمضون بها وقت فراغهم (فرادي ومجتمعين). فالأطفال كانت لهم ألعابهم في الأيام العادية والأعياد خارج البيت وداخله. ففي البيت يتراكضون في ساحة الديار وعندما يتعبون يحرنجمون حول إحدى العجائز (كالجدات والأمهات) فتروي لهم نكات جميلة وقصصاً قصيرة على لسان الحيوانات ويبقى أولئك مصغين لحديثها حتى يدب النعاس في أجفانهم فينامون ويلقون على أسرتهم واستخدم بعضهن اللعب الطريفة والحزازير والأحاجي[4] لتسلية الأطفال.

---

(١) القاسمي. المصدر السابق. ج٢، ص٤٣٤.

(٢) مجهول. مذكرات تاريخية. ص١٠٣ و ص١٠٤. تحقيق سبانو.

(٣) القاسمي. المصدر السابق. ج٢، ص٤٤٤.

(٤) العلاف. أحمد حلمي. دمشق في مطلع القرن العشرين. ص٣٣٥ و ص٣٤١.

أما الأولاد الكبار فكانوا يلعبون في المساء ألعاباً مختلفة لا تحتاج في الغالب لأدوات معينة. كالطميمة في حاراتهم، حيث يختبئون ويبقى أحدهم باحثاً عنهم ويتراكضون. ثم لعبة الدحل ولعبة شال العجم، ولعبة الخطة ولعبة العطوز ولعبة طرة ونقش ولعبة الدوش ولعبة العرج ولعبة الحجر والمقرعة ولعبة القاق ولعبة ساقك ولعبة نوم اسكندرية ولعبة البيل[1] ثم لعبة المروحة وهي لعبة ضرب الكف ولعبة الطبقة[2] ثم لعبة الطيح والأسير وأم عميش وكسرة اليد وسياف الركض، ثم لعبة السيف والترس ولعبة الحكم[3].

أما ألعاب الأعياد فكانت متنوعة، ويعتمد الأطفال فيها على أصحاب الأدوات والحيوانات التي يقدمونها لهم مقابل أجر معين، فمنها ركب الحمير أو الخيول المعدة للتنقل لمسافات قصيرة والعربات المجللات بالطنافس، والركوب في الهوادج والمحارات على ظهور الجمال تشبهاً بركب حجاج بيت الله الحرام. وفي فترة متأخرة كانوا يركبون القلابات ذات الأسرة الأربعة فتدور بهم دورات محورية، أو الدويخات ذات الأسرة المتنوعة الأشكال، وكان يعد لطائفة البنات من الأناث في مثل هذه المناسبات أراجيح ضمن دور مستورة مختلفة الشكل منفصلة عن الذكور، وكن يجلسن بها ويتأرجحن وينشدن ويضربن على الدف[4]، وجاء بعض الناس بالحيوانات المفترسة كالضباع والذئاب وغيرها مغلولة أو في أقفاص ووضعوها في أحد الأماكن المغلقة وأدخلوا الناس عليها للفرجة مقابل أجر معين.

وكانت للنساء تسلياتهن الخاصة داخل بيوتهن خاصة عندما تستضيف الأسرة أسرة أخرى، فينفصل الرجال عن النساء، ويستقبل الرجال الرجال في السلاملك في حين تدخل النساء الضيفات إلى الحرملك، فيمارسن أساليب عديدة من التسلية، كتناول أطراف الحديث. أو الاستماع إلى حكواتية[5]. أو يقمن ببعض الألعاب التي تثير الضحك بطريقة الأسئلة والأجوبة المضحكة[6] إلى انتهاء السهرة، فيخرجن مع رجالهن إلى بيوتهن.

---

(١) العلاف. المصدر السابق. ص٣٧٤ و ص٣٨١.

(٢) البارودي، فخري. مذكراته. ج١، ص١٠٦ و ص١٠٨.

(٣) البارودي. المصدر السابق. ج١، ص٤٥ و ص٤٦.

(٤) العلاف. دمشق في مطلع القرن العشرين ص٤٨ و ص٤٩.

5- See: Russell .A. op.cit.PP.251-259.

(٦) العلاف. أيضاً. ص٢٣١ و ص٢٣٢.

الخمسان والسيران: وكانت العادة في دمشق في شهر آذار أن تبدأ معه الخمسان، فأول خميس يدعى «خميس النبات» والثاني «خميس القطاط» والثالث «خميس الأموات» يهرع الناس إلى زيارة القبور ويتكون من ذلك حركة جديدة للبيع والأخذ والعطاء. وقد يتخلل موسم البرد وخاصة في نهايته بعض أيام جميلة قبيل استقبال الربيع، يخرج الناس فيها إلى ظاهر المدينة والأمكنة المرتفعة لمشاهدة الأعشاب الطبيعية في الجبال والسهول. على أنهم يقسمون الأيام غالباً على المواقع الجميلة حتى يتمكنوا من التمتع بمختلف زخارفها وحللها الطبيعية الجديدة. وكان لكل يوم من أيام الأسبوع المكان المفضل في نزهتهم، فهناك نزهة السبت أو (السبتية) حيث كانوا يذهبون به حيث يشاؤون، وغالباً إلى قرية جوبر حيث مجتمع اليهود في كنيسهم. ثم يوم الأحد إلى الصوفانية حيث يشاهدون مرح النصارى في الناحية الشمالية الشرقية من خارج دمشق، ثم يوم الاثنين إلى سيدي دحية الكلبي في قرية المزة، فيشاهدون السهل الفسيح بمروجه، ثم يوم الثلاثاء يذهبون إلى صدر الباز، حيث المرج الفسيح على الشاطئ الأيمن من مجرى نهر بردى، فيجلسون على المرج الأخضر بضع ساعات حسب دفء الطقس، فيأكلون ويمرحون ثم يرجعون، ثم يوم الأربعاء إلى قرية برزة لزيارة كهف مقام ابراهيم الخليل عليه السلام، ثم يوم الخميس يذهبون إلى العسالي ظاهر دمشق من جهة باب مصر فيستقبلون السهول الممتدة شرقاً وغرباً حتى متعرج قرية الكسوة. أما يوم الجمعة فيذهبون إلى الصالحية حيث ينتشرون في سفح جبل قاسيون فيمتعون أبصارهم بمناظر كافة أنحاء الغوطتين، والنيربين ويزورون هناك بعض الأماكن المقدسة وأضرحة الأولياء والصالحين(1).

وكان بعض الدمشقيين مولعين بالطبيعة، يلجأون إليها بين الفينة والأخرى، ليلقوا بأنفسهم إلى أحضانها. ولا غرابة في ذلك إذا ماعلمنا جمال طبيعة الغوطتين الآخاذ ومواسمهما المزهرة المثمرة. ومن تلك المواسم كان موسم زهر السفرجل والمشمش للأشجار اللوزية والآس وغيرها، فكانت أماكنها القريبة(2) ملاذهم ومقيلهم.

ولقد أطلق الدماشقة على نزهاتهم اسم (السيران)، أو سيرين، ومازالت هذه العبارة تستخدم في دمشق حتى وقتنا الحاضر، ولم يكن هذا السيران وقفاً على العامة دون الخاصة

---

(١) العلاف. أيضاً. ص١٧١ و ص١٧٢ و ص١٧٣.

(٢) انظر: العلبي، أكرم حسن. دمشق في نهاية عهد المماليك، وعهد سيباي. ص١٠٣.

من أبنائها، بل شارك الجميع في هذه المواسم والأيام من فصل الربيع والصيف وأمضوا أوقاتاً ممتعة في ربوعها، وتناولوا الأطعمة المختلفة المعدة لمثل هذه النزهة (السيران)، وحتى ولاة الدولة العثمانية وقضاتها قاموا بالسيران مع من يحبون فأولموا الولائم في الغوطة للأصدقاء والأصحاب والأتباع.

ويذكر البديري الحلاق أن والي دمشق أسعد باشا العظم، قد ذهب إلى السيران في جنينة أبيه في مسجد الأقصاب، وقام في يوم الاثنين سادس جمادى الأولى بسيران في أرض الغوطة ومعه أكابر دمشق وأعيانها[1]. كما يذكر لنا البديري سيران العامة في دمشق الذين كانوا يذهبون فيها إلى متنزهات قريبة. فالبديري نفسه قام بسيران في يوم الخميس ثامن عشر ربيع الأول في الشرف المطل على المرجة مع بعض أحبابه ويذكر أن الوقت مبادئ خروج الزهر وجلس مع أصحابه مطلين على المرجة والتكية السليمانية وأن النساء أكثر من الرجال جالسين على شفير النهر على أكل وشرب قهوة وتتن كما تفعل الرجال ويعلق على ذلك بقوله: «هذا شيء ماسمعنا بأنه وقع نظيره حتى شاهدناه ولا حول ولا قوة إلا بالله» ثم يقول: «ولم نزل في سرور وانبساط حتى أنشدت هذه المواليا:

مضى لنا يوم ماسبق ياخال ... في مرجة الشام ماتشوفون موضع خال
ملا خميس[2] مضى ماصادفه أرزال ... في ثامن عشر ربيع الآخر راح البرد
ياهل الأدب ارخوه ... الضيق عنكم زال[3]

وكان الشباب وغيرهم من أهالي دمشق يعدون العدة للذهاب في سيرانهم إلى ضواحي المدينة قبل يوم أو يومين. ويخرجون إلى تلك المروج مبكرين ومعهم حاجياتهم من طعام وأسباب التسلية، فيأكلون وينغمون ويقيمون الألعاب المختلفة مثل لعبة المقارع[4] أو

(١) السيران: تعبير أهل الشام ويعني النزهة في الخلاء. انظر: حوادث دمشق اليومية. ص١٢٩ و ص١٤٥، الحاشية.

(٢) كان أحد الخمسان الذي يحتفل به قبل العهد العثماني. انظر: العلبي. المرجع السابق. ص١٠٣. ثم: العلاف. المصدر السابق. ص١٧١.

(٣) البديري. ص١٤٠.

(٤) مفردها المقرعة. وهي السوط وكل ماقرع به. وكانت تستعمل في دمشق مقارع قماشية. انظر: العلاف. المصدر السابق. ص٢١٢. الحاشية.

المخازيق فيتناول أحدهم المقرعة ويخبي شيئاً معه ويسأل أحدهم عن مكان الخبيئة فيسير إلى أحد اخوانه فإذا لم تكن لديه ضربه السائل بالمقرعة وسأل الثاني والثالث وهكذا حتى يعلم مكانها وهكذا ... ولعبوا أيضاً لعبة الأسير أو القفز. فإذا ماجاء المساء جمعوا متاعهم وجاؤوا إلى أحدهم من خفيفي الدم المضحكين، فجعلوا على رأسه إكليلاً من الزهور كالعروس وإلى جانبه آخر كالعريس، وراحوا يتظاهرون بالأهازيج حتى يصلوا المدينة إلى أن يتفرقوا إلى دورهم، أو أنهم أجمعوا مسبقاً واتفقوا على أن ينزلوا بدار أحدهم حتى الانتهاء من السيران، فيواصلون سيران النهار بسهر الليل، ويقيمون شتى الألعاب والأهازيج والدبكات والرقص والنكات المستملحة حتى مطلع الفجر[1].

ولقد سار الدمشقيون إلى متنزهاتهم مشياً على الأقدام أو باستخدام العربات أو الحمير أو الخيول. ووجد في دمشق بعض أصحاب الحمير الذين يؤجرونها لمن يريد استئجارها، للذهاب إلى مرابع الغوطة لقضاء السيران. وأطلق على أصحاب الحمير تلك اسم (الحمارون) وكان الحمار يرسل أحد غلمانه مع الغريب لإيصاله إلى المكان الذي يريده، ويعود بالحمار إليه، ويحدد له موعداً ليعود به إلى دمشق. كل ذلك مقابل أجر معين. وبقي الحمار يستخدم إلى جانب العربة في السيران إلى سنة ١٣٠٩هـ/١٨٩٣م[2].

ونلاحظ مما تقدم أن أبناء دمشق، رغم كل ماألم بهم في هذه الفترة، لم يتخلوا عما اعتادوه من التمتع بمحاسن الطبيعة التي حباها الله بها، وبقوا ينطلقون بين الفينة والأخرى من منازلهم إلى أحضان الطبيعة.

---

(١) العلاف. المصدر السابق. ص٢١٣ و ص٢١٣. ثم القاسمي المصدر السابق. ج٢. ص٣٠٥ و ص٣٥٤.

(٢) القاسمي. المصدر السابق. ج١. ص١٠٦.

شرب المنبهات والتدخين والمسكرات والمخدرات

أما المنبهات فتأتي القهوة على رأسها، حيث عم شربها في دمشق سواء في المحلات العامة أو الخاصة، وفي دوائر الدولة، في هذه الفترة. ويعتقد أن البن قد دخل إلى دمشق عن طريق اليمن وأن أول من اتخذها شراباً هو الشيخ الصالح العارف بالله أبو بكر بن عبد الله الشاذلي العيد روسي الذي مات بدمشق سنة ٩٠٩هـ / ١٥٠٤م، وذلك عندما كان سائحاً باليمن فشاهد شجرة البن واقتات من ثمارها، فرأى فيها تجفيفاً للدماغ واجتلاباً للسهر وتنشيطاً للعبادة، فاتخذه قوتاً وطعاماً وشراباً، وأرشد مريديه وأتباعه إلى ذلك، ثم انتشر في اليمن ثم في الحجاز ثم في الشام ومصر.

ولقد اختلف العلماء في أول القرن العاشر في أمر القهوة وإباحة شربها أو تحريمها، وانقسموا في ذلك قسمين ولكن أكثرهم أباحها. ويبدو أن تحريمها كان يعود لجهل في مفعولها، حيث خشي بعضهم أن تكون من نوع المخدرات. ومع ذلك فقد أدخل شربها إلى تركيا في عام ٩٦٢هـ / ١٥٥٥م وفي سنة ٩٦٣هـ / ١٥٥٦م أقام رجل حلبي مشرباً للقهوة في الاستانة[1]، ثم تأسست بيوت القهوة في أكثر من محل في دمشق، وبدأت تقدم شرابها لزبائنها.

---

(١) انظر: الحصني، محمد أديب. منتخبات التواريخ لدمشق. ج٢. ص٥٦٦ و ص٥٦٨ و ص٥٦٩.

ومع ذلك استمر الخلاف حول إباحة شربها إلى القرن الثامن عشر في دمشق ، ووقف بعض الولاة إلى جانب تحريمها ، وهددوا من شربها بالصلب أو الشنق ، ففي أحداث عام ١١٦٢هـ /١٧٤٨ ـــ ١٧٤٩م يذكر البديري أن والي دمشق أسعد باشا العظم قد « أمر برفعها من سائر قهاوي الشام وأسواقها وصار شربها في الشام من أعظم المصائب »[١] .

ولقد اعتبرت صنو التبغ ، وكتب فيها الكثيرون ، فحامد العمادي مفتي دمشق وضع رسالة في القهوة إلى أن أبيح شربها ، فأصبحت تشرب من قبل الجميع وتقدم للضيوف ، وفي محاكم دمشق من قبل قضاتها أنفسهم ، وشربها الرجال والنساء في السيران والمتنزهات . وفي العهد المصري بدأت دمشق تستورد القهوة عن طريق جديد وهو أمريكا اللاتينية بواسطة السفن الأوروبية ، وخاصة بواسطة فرنسا التي كانت تأتي بها من سانت دومينيغو[٢] . ولقد أثار الدخان أو التبغ أيضاً جدلاً بين فقهاء العصر ، وتباينت آراؤهم في ذلك بين محلل وكاره ومحرم ، مما دفع بعبد الغني النابلسي نفسه إلى أن يضع رسالة ينبئك عنوانها عن الخلاف الذي أثاره موضوع التدخين بين الفقهاء ، وكان عنوانها « الصلح بين الإخوان في حكم إباحة الدخان »[٣] ، إذ كان النابلسي نفسه يبيح التدخين مخالفاً من حرّمه أو قال بكراهيته ، لأنه لم يثبت لديه فقهياً مايحرمه أو يكرهه ، واستهلاله الرسالة بقوله في منافع الدخان كالإسراع في الهضم « وكم له من منافع أخرى يعرفها المجربون ولا سيما وقد تأيدت تجربتهم بما في كتب الأطباء من التصريح بنفعه من السموم وخاصة العقرب شرباً ومصاً »[٤] يقطع بالرأي من مسألة كثر فيها الأخذ والرد في مجتمع دمشق وبين فقهائها .

وحرصه على تبيان موقفه من الدخان ليس تعصباً وإنما هو الحرص على الأحكام الشرعية « حتى لايدخلها شيء من الزيادة أو النقصان » إذ ليس في الشرع مايزيل حكم الإباحة[٥] . وقد تعدى البحث النطاق الفقهي للدخان ، فإذا به يتناول أصله وابتداء استعماله ، ومجيئه الشام وأشعار المتأخرين في التغزل به . فمثلاً في تقييده للفتاوى بتحريمه ،

---

(١) حوادث دمشق اليومية . ص١٣٠ .

2 - See: Polk.op.cit.Introduction.pxix.

(٣) مخطوطة في دار الكتب الظاهرية بدمشق تحت رقم / ١٨٦٩ .

(٤) انظر : النابلسي ، الصلح بين الإخوان في إباحة الدخان . ص٢ . الظاهرية بدمشق تحت رقم ١٨٦٩ .

(٥) انظر : ص٤ . من المخطوطة السابقة الذكر .

وتبيان منشئه والأدلة التي حرم بها، واستخلاص مايقال في التصريح بإباحة شربه بعد انتفاء الحرمة والكراهة ومن الطريف أن يختم البحث بشعر من نظمه فيقول:

قولوا لمن يشرب الخمر الحرام هنا   شيء حلال بلا سكر له طرب
غليون تبغ نظيف طيب نفحت   روائح المسك منه حين تقترب

ثم يصف محرمه بأنه:

يظل يكذب من فرط العناد على   رب العباد بما لم تحوه الكتب[1]

وهكذا خمد أوار الجدال بين فقهاء دمشق بخصوص الدخان في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وعم استعماله على نطاق واسع لدى العامة والخاصة ورجال الدين أنفسهم، فمثلاً خالد بن أحمد بن حسين الشهرزوري الشافعي النقشبندي طريقة ونزيل دمشق في سنة ١١٩٣هـ / ١٧٨٠م «كان يشرب الدخان وقد أخذ عليه بعض علماء دمشق ذلك فاستدعاهم إلى وليمة وقبل تناول الطعام أخذ يبحث في أصل إباحة وخطر الأشياء حتى وصل إلى شرب الدخان، فما برح يناظرهم منه حتى ألزمهم القول بحله بالبرهان[2] وما أن جاء القرن التاسع عشر حتى كنت تراه يباع في دكاكين عديدة من دمشق، وكان يسمى بائعه (التتونجي)، ثم بدأت زراعته في أكثر من مكان من غوطة دمشق. وكان أنواعاً مختلفة، كالممتاز والوسط والدون، وسمي بأسماء القرى التي يزرع في أراضيها. كالشبعاوي والكوراني، وهذا النوع كان مرغوباً فيه، ثم الكفرسوساني والحسن كيف وهو الأدنى، وكان منه العربي والاسلامبولي والافرنجي، أما العربي فكان منه أنواع أيضاً.

أما فيما يتعلق بطريقة تدخينه فكانت له أدوات خاصة يطلق عليها اسم الجوبوق والغليون. وكان صانع الجوبوق يطلق عليه اسم الجوبوقجي أما صانع الغليون فأطلق عليه اسم (الغليونجي)[3]. وكان الغليون يصنع من قطعتين أو ثلاث قطع، الأولى وهي (الجرن) الذي

---

(١) انظر: النابلسي ـ عبد الغني. الصلح بين الإخوان. من ص٥ ـ ص١٥.
(٢) انظر: الحصني، محمد أديب. ج٢. ص٦٥٢ و ص٦٥٣.
(٣) القاسمي، محمد سعيد. ج٢. ص٢٣٧. ثم ج١. ص٦٦ و ص٦٧.

يوضع فيه التبغ (التوتون)، وهذا يصنع من الصلصال أو التراب المطحون المنخول، يخمر في الماء حيث يكور ويحضر بطريقة تسمح بوضع التبغ وفتحة لسحب دخانه بواسطة أنبوبة خشبية، وكانت تشوى العجينة الطينية على النار في فرن معد له، وغب إخراجه من الفرن يدهن بالدهان المرغوب من أسود وأحمر وذهبي، وكان يصنع له أنبوب خاص، يصل مابين الجرن وفم المدخن يسمى (القصبة). وهي أنواع من حيث تزيينها ونوع العيدان المستخدمة في صنعها، وتكون بطول ثلاثة أذرع، وقد تكون قطعة مجوفة من الكهرباء النفيس أو من الذهب أو الفضة وكانت تسمى «البز» وكانت تجلب أقصاب الغليون من قرية شبعا، وكانت تضع من أعواد اللوز أو الورد وغيرها وتثقب وتزركش[1].

وكانت تجارة التبغ والتنباك والبن والمخدرات مورد رزق لعديد من الدمشقيين، ونورد بعض أسمائهم على سبيل المثال وليس الحصر. ففي سنة ١٢٦٤هـ /١٨٤٧ ــ ١٨٤٨م كان علي آغا بن حسن آغا جاويش أوغلي الوانلي: «يبيع توتن مفروم وتوتن كوراني وتوتن جردي وتوتن حسن كيف وتوتن سقط وتوتن بشاري وتوتن كهنة»[2]. وتاجر بعضهم بالتنباك والخشخاش والبن الإفرنجي أو الحجازي[3]. ولقب بائع التنباك بالتنبكجي أيضاً. وكان التنباك أنواعاً، وأجوده القادم من بلاد العجم، وتاجره غالباً مايثري[4]، ودخن التنباك في النارجيلات (الأركيلات) في البيوت والمقاهي والمنتزهات، من الخاصة والعامة. وكان خدم الخاصة يكلفون بإعداد الغلايين والأركيلات لسادتهم.

أما المسكرات والمخدرات فقد انتشر تعاطيها في دمشق وازدادت في هذه الفترة. ربما كانت هروباً من الهموم اليومية والمعاناة بسبب الظروف المعاشية، كما كانت وسيلة للمتعة من جهة أخرى. ولقد تشدد بعض الحكام والولاة في دمشق بمنع المسكرات والمخدرات، وكافحوا تعاطيها وأرسلوا من ينادي في الأسواق «لا أحد يسكر»[5]، إلا أنهم مع ذلك لم يستطيعوا

---

(١) القاسمي. المصدر السابق. ج٢. ص٣٣٠ و ص٣٥٦.

(٢) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩ /تاريخ ١٢٦٤ ــ ١٢٦٥هـ ص١٠ القضية تاريخ ١٩ شوال سنة ١٢٦٤هـ.

(٣) المصدر السابق. ص١٥٧.

(٤) القاسمي. المصدر السابق. ج١. ض٧٠ و ص٧١.

(٥) العبد، حسن آغا. المصدر السابق. ص١٣٩.

إيقاف تيار تعاطيها الجارف في دمشق. ويعلق أحد الإخباريين على ذلك بقوله: «السكر صار مباح في الشام»[1] وذلك في سنة ١١١٩هـ /١٧٠٧ ـــ ١٧٠٨م. دلالة على استغرابه وعجز السلطات العثمانية عن منعه. ويبدو أن بعض الغرباء والجنود والزعر أسهموا في نشر شرب الخمر في دمشق. وبقيت عملية قمع السلطات العثمانية لشرب الخمر وملاحقة شاربيه بين مد وجز إلى أن تم توقيع معاهدة كوتاهية سنة ١٨٣٣م /١٢٤٨هـ بين السلطات العثمانية وابراهيم باشا فأنشأ في دمشق خمارة للدولة وقام بتلزيمها لأناس في دمشق، ويعلق أحد الإخباريين على ذلك بقوله: «عمره ماصار قبلا بالشام»[2]. وأصبح الخمر يباع على قارعة الطريق ويشربه من يريد.

ولجأ البعض لتعاطي المخدرات، كالأفيون والبرش والخشخاش وغيره، كابراهيم سعد الدين الذي كان يأكل البرش المعجون المشهور[3]، وأحمد المنقار كان يتعاطى المكيفات فغلبت عليه السوداء فاختلط عليه، كما تعاطاها توفيق بن محمد الكيلاني حيث كان يأكل الأفيون[4]. وانتشر ذلك على نطاق واسع، ويمكن تفسير ذلك بالظروف العديدة السيئة الضاغطة على أحاسيس الناس فكانت ملاذاً خادعاً من المتاعب والآلام التي كانوا يعانون منها وتزايد الطلب على المشروبات الكحولية السورية من الأقطار المجاورة، لأنه رغم السماح بشربها، لم يتسع انتشارها وصدر الفائض منها إلى مصر[5].

---

(١) العبد. المصدر السابق. ص١١٦.
(٢) مجهول. مذكرات تاريخية. ص٨٨ و ص٨٩.
(٣) المرادي. سلك الدرر. ج١. ص٤٢.
(٤) المحبي. خلاصة الأثر. ج١. ص٢٩٦ و ص٤٩.

5 - See: Polk.op.cit.P.168.

نتائج
البحث العلمية

يمكننا أن نجمل نتائج هذا البحث وماتضمنته من حقائق ومعلومات، على النحو التالي:

إن الفترة التي تناولها البحث (١١٨٦ ـ ١٢٥٦هـ / ١٧٧٢ ـ ١٨٤٠م) كانت فترة هامة خصبة بالحوادث والمستجدات بفعل عوامل متعددة، عثمانية ودولية، إضافة إلى الظروف المحلية الخاصة بدمشق، ويمكن اعتبار هذه الفترة مرحلة إرهاص لمتغيرات جذرية ستحصل في الفترة اللاحقة.

ومن جهة أخرى، فإن التغيرات الاجتماعية في وجوهها المختلفة لم تكن على مستوى واحد، بل تفاوتت بين جانب وآخر، بحيث يظهر التغير واضحاً في أحد الجوانب، في حين تبقى جوانب أخرى وكأنها جامدة على حالها دون تغيير.

لقد حافظت دمشق بالنسبة لمدن بلاد الشام الأخرى على مركزها الممتاز حتى مجيء حملة أبي الذهب، وانتقل مركز الثقل السياسي إلى جنوب بلاد الشام، وتقلصت قافلة الحج الشامي في مطلع القرن التاسع عشر، بظهور الوهابيين في الجزيرة العربية وسيطرتهم على المدينتين المقدستين، وتوقفت هذه القافلة بعد ذلك، الأمر الذي حرم دمشق من مورد اقتصادي هام كان يحد من أثر الظروف الخارجية، الدولية والعثمانية، السلبية.

ثم كانت الحملة المصرية بقيادة ابراهيم باشا، فأحدثت تغيرات كبيرة من أهمها، فتح دمشق على المؤثرات الغربية، الاقتصادية والفكرية بعد أن كانت مغلقة أمامها، مما انعكس على مجتمعها بشكل عام وهيأتها لمرحلة تالية انتهت بسقوط دمشق والمنطقة بيد الاستعمار الغربي.

وكان لنمو الدول الغربية، فكرياً واقتصادياً وعسكرياً، والصراع فيما بينها على مناطق النفوذ، وضعف الدولة العثمانية من جهة أخرى دور بعيد في دفع بلاد الشام إلى مقدمة الاهتمامات الدولية.

وبرز ذلك بشكل مفاجئ بحملة نابليون بونابرت على مصر وبلاد الشام، وماتلا هذه الحملة من الصراع الاستعماري على المنطقة، الذي ظهر كأوضح مايكون بمجيء الحملة المصرية واحتلالها دمشق، ثم انسحابها، ومارافق ذلك من تأثيرات.

فعلى المستوى الاقتصادي، كان من نتائج الحكم المصري، دخول القناصل والتجار الأجانب والبعثات التبشيرية إلى دمشق، وأدى ذلك إلى ربط اقتصاد دمشق وبلاد الشام بالاقتصاد الأوربي، فتدفقت السلع الأوربية، الأمر الذي كان له أثر كبير على الحرف المحلية التقليدية، وعلى البنية الاجتماعية في دمشق، بظهور طبقة جديدة من التجار الوسطاء للغرب، حلت محل الطبقة القديمة، التي اندفعت إلى الاهتمام بالأرض والزراعة، إضافة إلى قلة منها شاركت في تجارة الغرب بدلاً من الشرق. كما كان له أثره في حركة السكان في بلاد الشام بشكل عام، وتحولها من هجرة أبناء الريف إلى المدينة إلى هجرة معاكسة.

وكان من أثر نمو التجارة مع الغرب في ظل الثورة الصناعية، أن تغيرت طريقة التعامل التجاري بين أوربا ومدن بلاد الشام، التي كانت تقوم على المقايضة إلى طريقة البيع نقداً، مما أدى إلى نزيف نقدي وفقر بالمعادن الثمينة. وهذا مادفع السلطة العثمانية لخلط المعدن الثمين المستخدم في سك النقود بمعادن خسيسة، مما أدى إلى تدني قيمة النقد الشرائية وارتفاع الأسعار، وبالتالي إلى تفشي الرشوة والابتزاز والفوضى الادارية والتفسخ الاجتماعي.

وبالرغم من محاولة الحكم المصري إصلاح النظام المالي وتنظيم جباية الضرائب ومنع التجاوز والابتزاز، ومحاولة العثمانيين فيما بعد السير في السياسة نفسها، إلا أن تغلغل

الاقتصاد الأوربي من جهة وزيادة الضرائب لتغطية نفقات الجيش والعمليات العسكرية وتعويضات الحروب من جهة أخرى، جعل أثر هذه السياسة محدوداً.

ومن زاوية أخرى، فقد عرف الاقتصاد الشامي بعض الومضات التي توهم بشيء من الانتعاش في هذه الفترة. وكان ذلك نتيجة عوامل متعددة أهمها: إن نسبة كبيرة من السكان الذين هم عماد الإنتاج الزراعي والحرفي كانت تذهب ضحية الجائحات الوبائية. فكان لجوء الحكم المصري لإيجاد نوع من الرعاية الصحية العامة، بمكافحة الأوبئة وإدخال بعض قواعد الطب الوقائي، والاهتمام بالنظافة العامة، عاملاً في تقليص الخسائر التي كانت تحيق باليد العاملة أداة الانتاج الرئيسة آنذاك.

كما أن اهتمام الحكم المصري بتوفير الأمن وتوطين البدو، واستعمال بعضهم للوقوف في وجه غارات البعض الآخر، ومكافحة الآفات الزراعية المختلفة والحشرات الضارة، أدى من جهة إلى استقرار الفلاح في أرضه، ومن جهة أخرى إلى هجرة من المدينة إلى الريف وإعمار القرى المهجورة وتوسع الرقعة الزراعية، وبشكل عام إلى انتعاش نسبي في الريف بالمقارنة مع المدن، وتحولت فئة من التجار الذين فقدوا تجارتهم نتيجة تحول حركة التجارة الدولية وطبيعتها، وبعض عناصر الفئة الحاكمة، إلا الاهتمام بملكية الأرض وزراعتها، حفاظاً على مستواهم المادي.

والظاهرة البارزة هي أن مجتمع دمشق، في الفترة التي بدأنا فيها هذه الدراسة، لم يكن مجتمعاً من نسيج واحد، بالمعنى الكامل لهذه الكلمة، بقدر ما كان تجمعات متعددة تكاد تنغلق على نفسها، مبنية على أسس طائفية أو إقليمية أو قومية.

وفيما يتعلق بالفئة الحاكمة، فقد تأثرت إلى حد كبير بضعف السلطة المركزية في استانبول، وبالظروف المحلية. وانعكس ذلك على مواردها وسلطتها، فقصرت مدة ولاية الولاة في مناصبهم، وازداد اعتمادهم في إدارتهم على الشدة والقسوة، وانصب اهتمامهم على جمع المال بدل الاهتمام بالمصالح العامة. ونتج عن ذلك ظهور قوى محلية تصدت للدفاع عن مصالحها في مجتمع انعدم فيه الأمن، فبرزت قوة اليرلية مدعومة بطوائف الحرف وبعض الشرائح الاجتماعية.

وكان من أثر انعدام الأمن أن اهتم السكان بتأمين الدفاع عن النفس في أماكن سكنهم، وانعكس ذلك على خطط المدينة بشكل عام، وتجلى في طريقة بناء الحارات الجديدة التي حاكت الحارات القديمة بضيق أزقتها وكثرة دخلاتها المسدودة وانعدام النوافذ المطلة على الشارع في بيوتها، ووجد باب رئيس وحيد للحارة يغلق عند اللزوم وتؤمن حراسته من قبل أبناء الحارة أنفسهم، مع مراعاة صغر أبواب دور السكن ومنعتها. إلا أنه أفقد تلك الحارات رونقها. وأدى ذلك من الناحية الاجتماعية، إلى تماسك أبناء الحارة الواحدة وتشبثهم بالانتماء إليها، وعدم اندماجهم مع أبناء الحارات الأخرى، وبرز ذلك واضحاً في الحارات التي سكنت من قبل أقليات طائفية أو قومية، ونمت قوة (شيخ الحارة) والمتنفذين فيها، الذين شكلوا صلة الوصل بين الحاكمين والمحكومين.

ونلحظ أيضاً نمو سلطة رجال الدين، بحكم التوجه الديني وبحكم توليهم الوظائف المختلفة التي وفرت لهم إمكانات مادية واسعة. إلا أن سلطتهم ونفوذهم قد تعرضا لهزة كبيرة في أوائل القرن التاسع عشر، نتيجة لسياسة محمود الثاني في مجالي الأوقاف والاقطاع (التيمار) ووضعهما تحت إشراف الدولة، مما حرمهم من مورد مالي كبير، فضعفت مكانتهم لضعف ركائزهم المادية، وأجبروا على الارتباط بالدولة والتقيد بأوامرها أكثر من السابق.

وكان لظهور التعليم العلماني في العهد المصري، ثم للمدارس التي افتتحتها البعثات التبشيرية، أثر كبير في فقدان رجال الدين المسلمين مكانتهم الاجتماعية التي كانوا يستمدونها من إشرافهم الكامل على التعليم. وكان لظهور هذه المدارس، العلمانية والتبشيرية، إلى جانب المدارس الدينية الإسلامية، دور كبير في وجود شرائح اجتماعية تختلف من حيث توجهاتها الفكرية وانتماءاتها السياسية، وشكل ذلك أول احتكاك مع الغرب بطريق غير مباشر.

أما أهل الذمة، فقد حافظوا على أوضاعهم سابقة حتى دخول ابراهيم باشا إلى بلاد الشام، ومناداته بالمساواة بين الطوائف، ورفع بعض القيود التي كانت مفروضة على أهل الذمة، وكانت هذه السياسة، التي لم يستطع العثمانيون التراجع عنها بعد خروج المصريين، الخطوة الأولى نحو المساواة بين الطوائف.

ففي عهده ومابعده تغيرت أوضاع أهل الذمة وارتفع مستواهم من نواح مختلفة،

فكرية واقتصادية واجتماعية ، فمن الناحية الفكرية توفر لهم دخول المدارس الحديثة التي أنشأها ابراهيم باشا ، والمدارس التي أنشأتها البعثات التبشيرية بعد ذلك . وكان دخول المدارس محظوراً عليهم من قبل كونها مدارس دينية إسلامية .

ومن الناحية الاقتصادية كان لسياسة ابراهيم باشا بالانفتاح على الغرب أن أصبح بعض المتنفذين من أهل الذمة وكلاء ووسطاء للتجارة مع أوربة ، وجنوا من ذلك مرابح كثيرة غيرت من وضعهم المادي والاجتماعي .

وفيما يتعلق بالأسرة ، والمرأة ، لا نشاهد تطوراً ملحوظاً في واقعهما ، إذ بقي نمط الأسرة الكبيرة هو النمط المسيطر ، وحافظ رب الأسرة على سلطاته الموروثة منذ أجيال ، فكان المرجع الأعلى لأسرته ، من حيث توجيههم واختيار ميادين عملهم والتحكم بمواردهم المالية والانفاق عليهم ، ومن حيث علاقتهم بالغير وعلاقة الأسرة ككل بالأسر الأخرى ، وحافظ على تمتين الرابطة مابين أعضاء أسرته ، وشاركت زوجته في هذه السلطة بالنسبة لنساء الأسرة من فتيات وزوجات الأبناء .

وبقي حال المرأة كما كان عليه دون تغيير ، فمجال عملها محدود بفعل العزلة والحجاب المفروضين عليها ، مما حال دونها ودخول المدارس ومتابعة التحصيل ، باستثناء فئة قليلة من الفتيات الذميات اللواتي التحقن بمدارس البعثات التبشيرية .

ومما يسترعي الانتباه فيما يتعلق بالمرأة في هذه الفترة كثرة حالات الطلاق خلال سنوات الحكم المصري وبطلبات تقدمت بها الزوجات للقاضي . وذلك يعود لغياب الأزواج في جهات مجهولة هرباً من الجندية ، وبالتالي انعدام المورد المالي الذي يؤمن لهن سبل الحياة فلجأن إلى الطلاق . والبحث عن أزواج جدد وهكذا . وبقيت المرأة في وضع دوني بالنسبة للرجل داخل الأسرة وفي المجتمع ....

وكان الرقيق يشكل جزءاً أساسياً من الأسرة ، سواء في ذلك السراري والمربيات والخادمات . وأكثر مايسترعي الانتباه في هذه الفترة تناقص عدد الجواري والمماليك البيض بالمقارنة مع الإماء والعبيد السود وذلك بسبب انقطاع النوع الأول بتوسع روسيا واستيلائها على مواطن الرقيق ومحاربة دول أوربة لتجارة الرقيق مما كان له بعض الأثر في تغيير البنية السكانية لمجتمع دمشق .

أما الأزياء فقد حافظت على **خطوطها العامة**. وما لحقها من تغيير اقتصر على التخفيف من المبالغة في مظاهر الأبهة والزينة من جهة، كتخفيف غطاء الرأس «التربان والعمامة وغيرهما»، واستخدام أقمشة أوربية بدلاً من الأقمشة الشرقية التي أصبحت غالية الثمن، إذا ماقورنت بالأقمشة الأوربية، والتخفيف من استخدام الفراء المستورد من البلاد الشمالية، لارتفاع أسعاره، أو استخدام فراء الحيوانات المحلية كفراء الأغنام وغيرها.

أما أثر الغرب في ميدان الأزياء فكان محدوداً واقتصر على أزياء الهيئة الحاكمة والجند بعد الإصلاح، كما أن زي أهل الذمة تغير قليلاً بتخفيف القيود عنهم وتقليد أغنيائهم للزي الأوربي فيما بعد. وبشكل عام بقي السواد الأعظم من سكان دمشق محافظاً على زيه التقليدي الموروث، وبخاصة أبناء الريف، الذين لم تعرف أوضاعهم تغييراً يذكر حتى دخول المصريين وتطبيقهم سياسة زراعية أدت إلى زوال الاكتفاء الذاتي الذي كان سمة الزراعة قبل عهدهم بإدخالهم زراعة محصولات جديدة ذات مردود تجاري، حلت محل المحصولات التي كانت توفر للفلاح هذا الاكتفاء.

أما البدو فقد شجع المصريون استقرارهم في الأرض والعمل بالزراعة واستخدموا بعضهم في حماية الحواضر ضد غارات القبائل الأخرى. ولم يخل هذا المجتمع من ظاهرات الانحراف، إن لم نقل إن هذه الظاهرات قد ازدادت واستفحلت في هذه الفترة نتيجة للفوضى السياسية والإدارية وانعدام الأمن من جهة، وسوء الأوضاع الاقتصادية من جهة أخرى. إضافة إلى ازدياد أعداد الغرباء من جند ووافدين بحثاً عن الرزق بعد أن ضاقت أسبابه. ومنها ظاهرات الرشوة والغش والابتزاز والسطو والاحتيال والعهر وتعاطي المخدرات والمسكرات.

لكل ذلك رأينا أن الفترة التي قمنا بدراستها كانت فترة هامة في تاريخ مدينة دمشق والمنطقة بكاملها، واعتبرناها فترة إرهاص شكلت منعطفاً تاريخياً يدعو للاهتمام بها وكشف مغاليقها.

الدكتور ــ يوسف نعيسة

ثبت المصادر والمراجع

الوثائق

١ــ سجلات الأوامر السلطانية المحفوظة في مديرية الوثائق التاريخية بدمشق

المجلد الثاني : الوثائق ذات الأرقام : ١١ ، ١٤ ، ٢٤ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٦ ، ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٧٠ ، ١٧٢ .

٢ــ أيضاً الصور الضوئية للأزياء العثمانية ذات الأرقام

١١٥/٧ ، ١١٦/٨ ، ١١٧/٩ ، ١١٨/١٠ ، ١١٩/١١ ، ١٢١/١٣ ، ١٢٣/١٥ ، ١٢٦/١٨ ، ١٢٧/١٩ ، ١٣٢/٢٧ ، ١٣٨/٣٠ .

٣ــ سجلات محاكم دمشق الشرعية وهي

أ ــ سجل محكمة الباب رقم ٣٢٢ /من ١٥ ربيع الأول ١٢٤٦هــ إلى ٤ ذي القعدة ١٢٤٦هـ .

ب ــ سجلات المحكمة الكبرى بدمشق ذات الأرقام

٣٣ من ١١ جمادى الآخر سنة ١١٢٤هـ إلى ١٦ ربيع الأول سنة ١١٢٥هـ .

١٤٦ من غرة ربيع الأول سنة ١١٦٩هـ إلى ١١ ربيع الثاني ١١٧٠هـ .

٢٠٢ من ١٩ شعبان سنة ١١٩٠هـ إلى ٨ ربيع الأول سنة ١١٩١هـ .

٢٢٠ من ٥ ربيع الأول سنة ١٢٠١هـ إلى ٢ جمادى الثاني سنة ١٢٠٢هـ .

٢٢١ من ١١ ربيع الأول ١٢٠١هـ إلى غرة ربيع الثاني سنة ١٢٠٣هـ.
٢٣٠ من ربيع الأول سنة ١٢٠٨ هـ إلى ١٠ جمادى الأولى سنة ١٢٠٩هـ.
٢٣٤ من ١٦ جمادى الثاني سنة ١٢١٠هـ إلى ١٦ جمادى الثاني ١٢١١هـ.
٢٣٥ من ١ ذي الحجة سنة ١٢١٠هـ إلى ١٢ محرم سنة ١٢١١هـ.
٢٣٦ من غرة شوال سنة ١٢١٠هـ إلى ١٧ شوال سنة ١٢١٧هـ.
٢٣٩ من ١٩ جمادى الثاني سنة ١٢١٠هـ إلى ١٨ ربيع الأول سنة ١٢١١هـ.
٢٤٠ من ١٦ شعبان سنة ١٢١١هـ إلى ٦ صفر سنة ١٢١٦هـ.
٢٥٠ من ختام شعبان سنة ١٢١٦هـ إلى ١٧ شعبان سنة ١٢١٧هـ.
٢٥٧ من ٥ ربيع الثاني سنة ١٢٢١هـ إلى ١٤ محرم سنة ١٢٢٢هـ.
٢٦٠ من ١٦ جمادى الأولى ١٢٢٢هـ إلى ٣ محرم سنة ١٢٢٣هـ.
٣٢٣ من ١٠ محرم سنة ١٢٤٧هـ إلى ٨ رجب سنة ١٢٤٧هـ.
٣٢٤ من ١٣ شعبان سنة ١٢٤٧هـ إلى ٩ ذي الحجة سنة ١٢٤٧هـ.
٣٢٦ من ١٩ شوال سنة ١٢٤٨هـ إلى ١٣ ذي القعدة سنة ١٢٤٨هـ.
٣٥٧ من ١١ محرم سنة ١٢٥٥هـ إلى ختام رمضان سنة ١٢٥٦هـ.
٣٧٩ من ٧ شوال سنة ١٢٥٩هـ إلى ٤ شوال سنة ١٢٦٠هـ.
٣٩٨ من ٨ ربيع الثاني سنة ١٢٦٣هـ إلى ١٩ رجب سنة ١٢٦٣هـ.

ج ـ سجلات محاكم القسمة العسكرية بدمشق ذات الأرقام

٣ من ١٠٣٩ إلى ١٠٤٢هـ (قسمة عسكرية).
٨ من ٨ صفر سنة ١٠٦٠هـ إلى ١٦ رجب سنة ١٠٦٢هـ.
١٠ من ٥ صفر سنة ١٠٩١هـ إلى ١٣ صفر ١١٠٢هـ.
١١ من ١١ محرم ١٠٩٢هـ إلى ١٧ محرم ١٠٩٣هـ.
١٢ من ١٠٩٣هـ إلى سنة ١٠٩٥هـ.
٢٦ من ٢ شعبان سنة ١١١٢هـ إلى ٢٣ ذي الحجة سنة ١١١٤هـ.
٥٩ من ١٤ محرم سنة ١١٣٩هـ إلى ١٠ ذي الحجة ١١٤١هـ.
١٥٠ من ٩ ذي الحجة سنة ١١٧٠هـ إلى ١٥ ذي الحجة سنة ١١٧٠هـ.
١٠٢ من ١٤ ربيع الآخر سنة ١١٩٠هـ إلى ٩ شعبان سنة ١١٩٢هـ.

٢١٥ من ٣٠ محرم سنة ١١٩٤هـ إلى ١٥ جمادى الأولى سنة ١٢٠٠هـ.
٢٣٨ من ١٦ ربيع الأول سنة ١٢١١هـ إلى ١٩ صفر سنة ١٢١٢هـ.
٢٩٩ من ١١ رجب سنة ١٢٣٧هـ إلى ختام ربيع الثاني سنة ١٢٤٥هـ.
٣٠٨ من ١٧ ذي القعدة سنة ١٢٤١هـ إلى ١٣ ربيع الثاني سنة ١٢٤٣هـ.
٣٣٠ من ٦ ربيع الثاني سنة ١٢٤٨هـ إلى ١٥ شعبان سنة ١٢٦٥هـ.
٣٣٤ من ٢٠ ربيع الأول سنة ١٢٥٠هـ إلى ١١ ذي القعدة سنة ١٢٥٠هـ.
٣٣٦ من ١٩ شوال سنة ١٢٥٠هـ إلى ١٦ صفر سنة ١٢٥١هـ.
٣٤٠ من ١٠ ذي القعدة سنة ١٢٥٠هـ إلى ٢٠ رجب سنة ١٢٥٤هـ.
٣٤١ من ٢١ ذي الحجة سنة ١٢٥٠هـ إلى ٥ محرم سنة ١٢٥٢هـ.
٣٦٤ من ٢٤ شوال سنة ١٢٥٠هـ إلى ١١ صفر سنة ١٢٥٨هـ.
٣٦٥ من ٦ جمادى الثاني سنة ١٢٥٣هـ إلى ١٥ محرم سنة ١٢٥٨هـ.
٤٠٩ من ٦ ذي القعدة سنة ١٢٦٤هـ إلى ٢٥ ربيع الأول سنة ١٢٦٥هـ.
٤٢٠ من غرة ربيع الثاني سنة ١٢٦٦هـ إلى ٨ شعبان سنة ١٢٦٦هـ.

د — سجلات القسمة البلدية ذات الأرقام

١٨٢ من ١ جمادى الآخر سنة ١١٨٣هـ إلى ١٩ ذي الحجة سنة ١١٩٠هـ.
٢٢٤ من ١٧ ذي القعدة سنة ١٢٠٥هـ إلى ١٠ محرم سنة ١٢٠٨هـ.
٢٩٠ من ١٦ ذي القعدة سنة ١٢٣٢هـ إلى ١٣ ربيع الأول سنة ١٢٣٧هـ.
٣٢٧ من ١٠ ذي القعدة سنة ١٢٤٧هـ إلى ١٣ ربيع الأول سنة ١٢٤٩هـ.

هـ — سجل المحكمة العونية بدمشق رقم

٣٢٣ من ٥ ذي الحجة سنة ١٢٤٧هـ إلى ١٨ رجب سنة ١٢٤٧هـ.

و — سجلات محكمة الميدان بدمشق ذات الأرقام

١٩٨ من ١٢ صفر سنة ١١٨٠هـ إلى ١٥ شعبان سنة ١١٩٠هـ.
٢٢٣ من ١٧ ذي القعدة سنة ١٢٠٢هـ إلى ٩ ربيع الأول سنة ١٢٠٤هـ.
٣٠٤ من ١١ جمادى الأولى سنة ١٢٣٨هـ إلى ٢ رجب سنة ١٢٤٠هـ.

٣٧٨ من ١٠ محرم سنة ١٢٥١هـ إلى ٩ رجب سنة ١٢٥٩هـ.
٤١١ من ١٠ شوال سنة ١٢٦٤هـ إلى ١٢ شوال سنة ١٢٦٥هـ.

ز ـ سجلات محاكم دمشق التي لم نستطع تحديد عائديتها وهي ذات الأرقام التالية :

٢٨ من سنة ١١١٣هـ إلى سنة ١١١٨هـ.
٥٠ من ٣٠ ربيع الأول سنة ١١٣٦هـ إلى ١٦ ذي القعدة سنة ١١٣٦هـ.
١٤٦ من ربيع الأول سنة ١١٦٩هـ إلى ربيع الثاني سنة ١١٧٠هـ.
٢١٣ من منتصف ذي الحجة سنة ١١٩٥هـ إلى ١٦ ذي القعدة سنة ١١٩٥هـ وبها أحداث من عام ١١٩٦هـ.
٣٢٥ من ٢ ذي الحجة سنة ١٢٤٧هـ إلى ٧ جمادى الثاني سنة ١٢٤٨هـ.
٣٥٧ من ١١ محرم سنة ١٢٥٥هـ إلى ختام رمضان سنة ١٢٥٦هـ.
٣٧٩ من ٧ شوال سنة ١٢٥٩هـ إلى ٤ شوال سنة ١٢٦٠هـ.

ح ـ سجلات محاكم حلب ذات الأرقام

١٥ من ٣٠ ربيع الثاني سنة ١٠٣٥هـ إلى ١٤ شوال سنة ١٠٤٦هـ.
١٥ من ٢ رجب سنة ١١٩٠هـ إلى ٢٠ جمادى الأولى سنة ١١٩٢هـ.

ط ـ سجل محكمة حماه رقم
٥٠ من ١ ربيع الأول سنة ١٢٥١هـ إلى ٢٧ شعبان ١٢٦٣هـ.

المخطوطات

١ـ ابن كنان، محمد بن عيسى. المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية صورة فوتوغرافية. مكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق رقم ٢٦. عن مخطوطة في دار الكتب المصرية في القاهرة.
٢ـ البرزنجي، جعفر. النفح الفرجي في الفتح الجتة جي. مخطوطة في المكتبة الظاهرية تحت رقم ٨٧٢٤.
٣ـ الحلبي، يوسف بن ديمتري. المرتاد في تاريخ حلب وبغداد. تحقيق ودراسة فواز الفواز. قدم إلى كلية الآداب في دمشق لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر لعام ١٩٧٧م.
٤ـ الصايغ، فتح الله بن أنطون. المقترب في حوادث الحضر والعرب. صورة لمخطوطة في مكتبتي الخاصة.

٥ـ طعمة، حسين. كشف الالتباس في مسألة السماع أو «رسالة السماع». المكتبة الظاهرية في دمشق. تحت رقم ٦٠٦٩/ خط.
٦ـ القاسمي، جمال الدين. تعطير المشام بمآثر دمشق الشام. صورة لمخطوطة بخط يد المؤلف مكونة من جزئين. الجزء الأول خالي من الترقيم في حين رقم الجزء الثاني. مكتبة حفيده محمد سعيد القاسمي دمشق ـ مهاجرين ـ جادة القسطل.
٧ـ النابلسي، عبد الغني. الصلح بين الاخوان في حكم إباحة الدخان. المكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم /١٨٦٩.
٨ـ ضوء السراج فيما قيل عن النسّاج. وثيقة قدمتها الدكتورة ليلى الصباغ إلى المؤتمر الثاني لتاريخ بلاد الشام ج١. سنة ١٩٧٨م. «وهي من تأليف محمد بن طولون».

المصادر العربية المطبوعة

١ـ القرآن الكريم.
٢ـ ابن الحوراني، الاشارات إلى أماكن الزيارات. دمشق ١٣٢٧هـ.
٣ـ ابن طولون، محمد:
أ ـ أعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى. تحقيق محمد أحمد دهمان. دمشق سنة ١٩٦٤م وقد ترجم (H. LAOUST) هذا الكتاب إلى الفرنسية ونشره مع مخطوط ابن جمعة في سنة ١٣٤٨هـ. les Gouvernenrs de Damas, Damas. 1952.
ب ـ الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام. نشره صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٥٦م.
ج ـ الشمعة المضية في اخبار القلعة الدمشقية. دمشق سنة ١٣٤٨هـ.
د ـ القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية. تحقيق محمد أحمد دهمان. دمشق ١٩٤٩م.
هـ ـ مفاكهة الخلان في حوادث الزمان. جزءان نشرهما محمد مصطفى في القاهرة سنة ١٩٦٢ و ١٩٦٤م.
٤ـ ابن عساكر، الحافظ. التاريخ الكبير. ٥ أجزاء دمشق سنة ١٣٢٩ ـ ١٣٣٢هـ.
٥ـ ابن عبد الهادي، يوسف:
أ ـ نزهة الرفاق عن شرح أحوال الأسواق.

ب ـ ثمار المقاصد في ذكر المساجد. تحقيق محمد أحمد طلس. دمشق المعهد الفرنسي سنة ١٩٤٣م.
ج ـ الإعانات في معرفة الخانات.

٦ـ ابن عابدين، محمد أمين. رد المحتار على الدر المختار. ٥ أجزاء القاهرة ١٢٩٩هـ.
٧ـ آصاف، عزتلو يوسف بك. تاريخ سلاطين آل عثمان من أول نشأتهم حتى الآن. القاهرة ١٩٠٩م.
٨ـ أبو النصر، حسنين. الشجرة الزكية في مناقب السادة البازية والقادرية والرفاعية. استانبول سنة ١٣٠١هـ.

٩ـ الاسكندري، أحمد. تاريخ آداب اللغة العربية. القاهرة ١٩٢٧م.

١٠ـ اسماعيل، عادل. وخوري، أميل. السياسية الدولية في الشرق العربي من ١٧٨٩ ـ ١٩٥٨م ٣ أجزاء. بيروت ١٩٥٩م.
١١ـ البارودي، فخري. مذكرات فخري البارودي. دمشق ـ حزيران سنة ١٩٥١م.
١٢ـ باسكوال، جان بول. البيئة والتغذية في حوران في القرن التاسع عشر. بحث قدمه إلى المؤتمر الثاني لتاريخ بلاد الشام. دمشق ١٩٧٨م.
١٣ـ باشا، محمد علي. الرحلة الشامية. بيروت ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
١٤ـ البغدادي، عبد الرحمن. مراصد الاطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع. تحقيق علي البخاري ـ القاهرة سنة ١٩٥٤م.
١٥ـ بدران، عبد القادر. منادمة الأطلال ومسامرة الخيال. دمشق ١٩٦٠م.
١٦ـ البوريني، الحسن بن محمد. تراجم الأعيان من أبناء الزمان، صدر منه جزءان نشرهما صلاح الدين المنجد دمشق ١٩٥٩ ـ ١٩٦٣م.
١٧ـ تولّي، الآنسة. عشرة أعوام في طرابلس. ترجمة عبد الجليل الطاهر.
١٨ـ البيطار، عبد الرزاق. حلية البشر في القرن الثامن عشر. ٣ أجزاء تحقيق بهجة البيطار دمشق سنة ١٩٦١ ـ ١٩٦٣م.
١٩ـ التفتازاني، أبو الوفا الغنيمي. مدخل إلى التصوف الإسلامي. القاهرة سنة ١٩٧٦م.
٢٠ـ الجبرتي، عبد الرحمن. عجائب الآثار في التراجم والأخبار. ٣ مجلدات بيروت.
٢١ـ جودت، أحمد باشا. تاريخ جودت. المقدمة. ترجمة عبد القادر الدنا ـ بيروت ١٣٠٨هـ.

٢٢ــ جيب، هاملتون. وباوون، هارولد. المجتمع الإسلامي والغرب: جزءان. ترجم الجزء الأول أحمد عبد الرحيم مصطفى القاهرة ١٩٧١م.
٢٣ــ حطب، زهير. تطور بنى الأسرة العربية والجذور التاريخية والاجتماعية لقضاياها المعاصرة. لبنان ١٩٧٦م.
٢٤ــ الحصني، محمد أديب تقي الدين. منتخبات لتواريخ دمشق. ٣ أجزاء. مع مقدمة الدكتور كمال سليمان صليبي. بيروت ١٩٧٩م.
٢٥ــ البديري، أحمد. حوادث دمشق اليومية ١١٥٤ ــ ١١٧٦هـ. تنقيح محمد سعيد القاسمي، تحقيق أحمد عزت عبد الكريم. القاهرة ١٩٥٩م.
٢٦ــ حمامي، حسن. الأزياء الشعبية وتقاليدها في سورية. دمشق ١٩٧٢م.
٢٧ــ حنا، عبد الله، القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سورية ولبنان. القسم الأول ١٨٢٠ ــ ١٩٢٠م. بيروت ١٩٧٥م.
٢٨ــ حوراني، ألبرت. الفكر العربي في عصر النهضة. ترجمة كريم عزقول. بيروت ١٩٦٨م.
٢٩ــ خاطر، لحد. العادات والتقاليد اللبنانية. جزءان. مطبعة الجبل ــ درعون ــ حريصا ــ لبنان.
٣٠ــ الخالدي، عبد المجيد الخاني. الأنوار القدسية في مناقب السادات الخالدية. مطبعة الحبانية ١٣١٦هـ.
٣١ــ خنشت، يوسف موسى. طرائف الأمس غرائب اليوم. حريصا. ١٩٣٦م.
٣٢ــ خوري، فيليب. طبيعة السلطة السياسية وتوزعها في دمشق. بحث مقدم إلى المؤتمر الثاني لتاريخ بلاد الشام. ج١. سنة ١٩٧٨م.
٣٣ــ الخياري، ابراهيم. تحفة الأدباء وسلوة الغرباء. بغداد ١٩٦٩م.
٣٤ــ خير، صفوح. مدينة دمشق، دراسة في جغرافية المدن. دمشق ١٩٨٢م.
٣٥ــ دارفيو، الفارس. وصف دمشق. ترجمة أحمد إيبش. دمشق ١٩٨٢م.
٣٦ــ الداغستاني، كاظم. حكاية البيت الشامي الكبير. دمشق ١٩٧٢م.
٣٧ــ الدمشقي، ميخائيل بريك. تاريخ الشام ١٧٢٠ ــ ١٧٨٢م/١١٣٣ ــ ١١٩٦هـ/ قام بالتعليق على حواشيه الخوري، قسطنطين الباشا ــ حريصا ــ لبنان ١٩٣٠م.
٣٨ــ ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا. مجموعة أبحاث ودراسات تاريخية. القاهرة ١٩٤٨م.
٣٩ــ الذكرى المئوية الأولى لوفاة سعيد الذكر مكسيموس الثالث المظلوم. ١٨٥٥ ــ ١٩٥٥م.
٤٠ــ زكي، عبد الرحمن. التاريخ الحربي لعصر محمد علي الكبير. مصر ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م.

٤١ــ زكريا، أحمد وصفي. عشائر الشام. دمشق ١٩٤٥م.
٤٢ــ الزياني، أبو القاسم. الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً. تحقيق عبد الكريم القيلالي ــ المغرب ١٩٦٧م.
٤٣ــ زيادة، نقولا. الحسبة والمحتسب في الإسلام. بيروت ١٩٦٢م.
٤٤ــ رافق، عبد الكريم
أ ــ تاريخ مصر وبلاد الشام من الفتح العثماني إلى حملة نابليون ١٥١٦ ــ ١٧٩٨م دمشق ١٩٦٨م.
ب ــ العرب والعثمانيون. دمشق ١٩٧٤م.
ج ــ مقالاته في مجلة دراسات تاريخية العدد: الأول ــ الرابع ــ السادس.
٤٥ــ الرافعي، عبد الرحمن. تاريخ الحركة القومية وتطور الحكم في مصر، عصر محمد علي ٣ أجزاء ــ القاهرة ١٩٣٠م.
٤٦ــ رستم، أسد. الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا. بيروت ١٩٣٠ ــ ١٩٣٤م.
٤٧ــ الريحاوي، عبد القادر. خانات مدينة دمشق. بحث نشر له في مجلة الحوليات الأثرية السورية. المجلد ٢٥ سنة ١٩٧٥.
٤٨ــ سامي، عبد الرحمن. القول الحق في بيروت ودمشق. لبنان ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
٤٩ــ السباعي، بدر الدين. أضواء على قاموس الصناعات الشامية. دمشق ١٩٧٧.
٥٠ــ سمارة، يوسف. سورية ملتقى الحضارات. دمشق ــ مطبعة الإنشاء. خالية من التاريخ.
٥١ــ سوفاجة، جان. دمشق الشام، لمحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى العصر الأخير. تعريب فؤاد أفرام البستاني ١٩٣٦م.
٥٢ــ سويد، ياسين. التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عصر الإمارتين. جزءان ــ بيروت سنة ١٩٨٠.
٥٣ــ السيوفي، حبيب. سورية ولبنان وفلسطين في القرن الثالث عشر. جزءان ــ صيدا ــ المطبعة المخلصية ١٩٤٨م.
٥٤ــ الشبيب، محمد رضا. رحلة في بادية السماوة. بغداد ١٩٦٤م.
٥٥ــ شداد، عز الدين. الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة. تاريخ مدينة دمشق. تحقيق سامي الدهان ــ دمشق ١٩٥٦م.

٥٦ـ القاياتي، محمد عبد الجواد. نفحة البشام في رحلة الشام. دار الرائد العربي ـ ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
٥٧ـ الشدياق، طنوس يوسف. أخبار الأعيان في جبل لبنان. جزءان ـ بيروت ١٨٥٩م.
٥٨ـ شهاب، حيدر أحمد
أ ـ الروض النضير في ولاية الأمير بشير قاسم الكبير وأعماله حتى موته ـ القاهرة مطبعة السلام ١٩٠٠م.
ب ـ تاريخ أحمد باشا الجزار. قدّم له ووضع حواشيه وفهارسه وألحقه بذيل الأب أنطونيوس شبلي اللبناني، والأب أغناطيوس عبده خليفة اليسوعي. بيروت مطابع قلفاط ـ ١٥ آب ١٩٥٥م.
٥٩ـ تاريخ الأمير بشير الشيهابي. لبنان ـ زحلة ١٩١٤م.
٦٠ـ تاريخ الأمراء الشهابيين. المؤلف أحد أمرائهم في وادي التيّم. نظر فيه ونقحه ووضع فهارسه الدكتور سليم حسين هشي. دمشق ١٩٧١م.
٦١ـ شليشر، ليندا. بعض مظاهر أحوال الأعيان بدمشق في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام. ج١، ١٩٧٨م.
٦٢ـ الصباغ، ليلى. المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني. دمشق، وزارة الثقافة ١٩٧٣م.
٦٣ـ الصيادي، محمد عز الدين. الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية. دمشق ١٣٣٠هـ.
٦٤ـ الطاهر، عبد الجليل. البدو والعشائر في البلاد العربية. محاضرات في طلاب الدراسات العالية الاقتصادية ـ القاهرة ١٩٥٤م.
٦٥ـ الطويل، توفيق. التصوف في مصر إبان العصر العثماني. القاهرة ١٩٤٦م.
٦٦ـ عاشور، سعيد عبد الفتاح. الحركة الصليبية. جزءان. الطبعة الثانية. القاهرة، ١٩٧١م.
٦٧ـ عانوتي، د. أسامة. الحركة الأدبية في بلاد الشام خلال القرن الثالث عشر. الجامعة اللبنانية ـ بيروت ١٩٧١م.
٦٨ـ العبد، حسن آغا. قطعة من تاريخ حسن آغا العبد. تحقيق يوسف جميل نعيسة. دمشق ١٩٧٩م.
٦٩ـ العظم، خالد. مذكرات خالد العظم. ٣ أجزاء. بيروت ١٩٧٣م.
٧٠ـ عفيفي، د. أمين مصطفى. و د. عبد الكريم، عزت. تاريخ أوربا الاقتصادي. مصر ١٩٥٤.
٧١ـ العكاوي، ميخائيل نقولا الصباغ. تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني حاكم عكا وبلاد صفد نشره وعلق عليه ووضع حواشيه. الخوري، قسطنطين الباشا المخلصي. مطبعة القديس بولس ـ حريصا ـ لبنان ـ مكتبة المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية في دمشق. تحت رقم ١٦٠/٨.

٧٢ـ العلاّف، أحمد حلمي. دمشق في مطلع القرن العشرين. تحقيق علي جميل نعيسة. دمشق ١٩٧٦م.
٧٣ـ العلبي، أكرم حسن. دمشق في نهاية عهد المماليك وعهد سيباي. رسالة مقدمة لجامعة عين شمس لنيل درجة الماجستير في التاريخ. القاهرة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
٧٤ـ العلموي، عبد الباسط. مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى أحوال دور القرآن والحديث والمدارس. تحقيق صلاح الدين المنجد. دمشق ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م.
٧٥ـ عوض، عبد العزيز محمد. الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ ـ ١٩١٤. دار المعارف. مصر ١٩٦٩م.
٧٦ـ غرابية، عبد الكريم. مقدمة تاريخ العرب الحديث. الجزء الأول. دمشق ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.
٧٧ـ غران، بيتر. الأسس الاجتماعية للثقافة في دمشق. نشر في المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام الجزء الأول ١٩٧٨م.
٧٨ـ الغزي، كامل بن حسين بن بالي. نهر الذهب في تاريخ حلب. المطبعة المارونية ٣ أجزاء، حلب، ١٣٤١ ـ ١٣٤٥/١٩٢٢ ـ ١٩٢٦.
٧٩ـ الغلاييني، محمد خادم الأربعين. العقد الثمين في مقام الأربعين. دمشق ـ الطبعة الثانية.
٨٠ـ الفاضل، أكرم. المفصل بأسماء الملابس عند العرب. بغداد ١٩٧١م.
٨١ـ فرج، حداد. القراؤون والربانيون. القاهرة ١٩١٨م.
٨٢ـ فريزر، جيمس بيلي. رحلة فريزر إلى بغداد. ترجمة جعفر الخياط. بغداد ١٩٦٤م.
٨٣ـ قاسم عبده قاسم. أهل الذمة في مصر، في عهد سلاطين المماليك. بحث قدّم لنيل درجة الدكتوراة في التاريخ الإسلامي من جامعة القاهرة. مارس (آذار) ١٩٧٥م.
٨٤ـ القاسمي، محمد سعيد. وجمال الدين. وخليل العظم. قاموس الصناعات الشامية. تحقيق ظافر القاسمي. جزءان طبع في باريس ١٩٦٠م.
٨٥ـ القادري، علي. نزهة الخاطر في ترجمة سيدي الشريف عبد القادر. طبع استانبول سنة ١٣٠٧هـ.
٨٦ـ قدامة، أحمد. معالم وأعلام في بلاد العرب. الجزء الأول، مطبعة أديب. دمشق ١٩٦٥م.
٨٧ـ قرألي، بولس. فتوحات ابراهيم باشا المصري في فلسطين ولبنان وسوريا. ١٨٣١ ـ ١٨٤١م. مطبعة القديس بولس ـ حريصا ـ ١٩٣٧.
٨٨ـ القلقشندي، شهاب الدين أحمد بن علي القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١هـ. صبح الأعشى في صناعة الإنشا. ١٤ جزءاً. طبعة دار الكتاب ١٩١٢م (أفدت من الجزء الثاني)

٨٩ــ القساطلي، نعمان. الروضة الغناء في دمشق الفيحاء. صورة لمخطوطة في مكتبة المعهد العلمي الفرنسي بدمشق تحت رقم ١٦٦٣٠ / ٨.
٩٠ــ كرد علي، محمد.
أ ــ الإسلام والحضارة العربية. القاهرة سنة ١٩٣٦م.
ب ــ خطط الشام. ٦ أجزاء. طبعة بيروت ١٩٧٢م.
٩١ــ كميد، ميشيل سليم. مجازفات اللادي أستر استانهوب في الديار الشامية. صيدا، مطبعة العرفان ١٩٣٥م.
٩٢ــ كيال، منير.
أ ــ الحمامات الدمشقية وتقاليدها، دمشق ١٩٦٦م.
ب ــ فنون وصناعات دمشقية. دمشق ١٩٦٢م.
ج ــ رمضان وتقاليده الدمشقية. دمشق. مكتبة المعهد العلمي الفرنسي بدمشق تحت رقم ٩٦٨٨ / ٨.
٩٣ــ لوتسكي، فلاديمير. تاريخ الأقطار العربية الحديث. ترجمة عفيفة بستاني. دار التقدم ــ موسكو ١٩٧١.
٩٤ــ لوفران، جورج. تاريخ التجارة منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث. ترجمة هاشم الحسني ــ بيروت.
٩٥ــ لوقا، اسكندر. الحركة الأدبية في دمشق. ١٨٠٠ ــ ١٩١٨م ــ طبع دمشق ١٩٧٦م.
٩٦ــ لوكروى، إدوار. أحمد الجزار. ترجمة جورج مسرة ــ البرازيل ــ سان باولو ١٩٢٤م.
٩٧ــ الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي. الأحكام السلطانية والولايات الدينية. مصر، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.
٩٨ــ مجهول. حسر اللثام عن نكبات الشام. مصر ١٨٩٥م.
٩٩ــ مجهول. مذكرات تاريخية. لأحد كتاب الحكومة الدمشقيين. نشر وتعليق قسطنطين الباشا ــ طبع ــ حريصا ــ لبنان ــ بدون تاريخ. ثم: طبعة مصورة. أحمد غسان سبانو ١٩٨٠م.
١٠٠ــ محاسني، سليمان. حلول التعب والآلام بوصول أبي الذهب إلى دمشق الشام. تحقيق صلاح الدين المنجد. دار الكتاب الجديد. بيروت ١٩٦٢م.

١٠١ــ المحبي ــ محمد خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر . ٤ أجزاء ــ القاهرة ١٢٨٤هـ .
١٠٢ــ المرادي ، محمد خليل .

أ ــ سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر . مصر . بولاق سنة ١٣٠١هـ .
ب ــ عرف البشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام . مطبعة زيد بن ثابت ــ دمشق ١٣٩٩هـ /١٩٧٩م .

١٠٣ــ مردم بك ، خليل . أعيان القرن الثالث عشر في الفكر والسياسة والاجتماع . بيروت ١٩٧٧ .
١٠٤ــ مشاقة ، ميخائيل . مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان . مصر ١٩٠٨م .
١٠٥ــ المعلوف ، اسكندر . دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف . بعبدا ــ لبنان ١٩٠٧م ، ١٩٠٨ .
١٠٦ــ المقريزي ، تقي الدين ابن أبي العباس أحمد بن ع ي . المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . ٤ أجزاء ــ الأول ١٩١١ ــ الثاني ١٩١٣ ــ الثالث ١٩٢٠ ــ الرابع ١٩٢٤ ــ القاهرة .
١٠٧ــ المنجد ، صلاح الدين .

أ ــ أبنية دمشق الأثرية المسجلة ــ بيروت ١٩٤٨م .
ب ــ دمشق القديمة ــ أسوارها ــ أبوابها ــ أبراجها ــ دمشق ١٩٤٥م .
ج ــ المؤرخون الدمشقيون في العهد العثماني وآثارهم المخطوطة . بيروت ١٩٦٤ .
د ــ ولاة دمشق في العهد العثماني . دمشق ١٩٤٩م .

١٠٨ــ مورهيد ، آلان .

أ ــ النيل الأبيض . ترجمة بدر الدين خليل ــ القاهرة ١٩٦٥م .
ب ــ النيل الأزرق . ترجمة نظمي لوقا . القاهرة ١٩٦٦م .

١٠٩ــ النعيمي ، عبد القادر محمد . الدارس في تاريخ المدارس . تحقيق جعفر الحسيني . دمشق سنة ١٩٤٨ ــ ١٩٥١م .
١١٠ــ النمر ، احسان . تاريخ نابلس والبلقاء . دمشق ١٩٣٨م .
١١١ــ نسكايا آ ، سيمليا . الحركات الفلاحية في لبنان في النصف الأول من القرن التاسع عشر . تعريب عدنان جاموس . دمشق وبيروت ١٩٧٢م .
١١٢ــ اليسوعي ، لويس شيخو . الاداب العربية في القرن التاسع عشر ــ بيروت ١٩٢٤م .
١١٣ــ اليشرطية ، الحسينية ، فاطمة . رحلة إلى الحق . بيروت ، بدون تاريخ .

الموسوعات والمجلات والمعاجم والتقاويم العربية والأجنبية

١ــ دائرة المعارف الإسلامية ــ المجلد ١، ٩، ١٠، ١٩، الترجمة.

ــ الموسوعة الميسرة. شفيق غربال. طبع القاهرة سنة ١٩٦٥م.

٢ــ جريدة البشير. العدد سنة ١٩٣٢م المطبعة اليسوعية ــ بيروت.

٣ــ مجلة الحوليات الأثرية السورية. المجلد الخامس عشر لعام ١٩٦٥م. ثم المجلد السابع عشر لعام ١٩٦٧م.

٤ــ مجلة المجمع العلمي بدمشق وأحياناً ترد تحت اسم مجلة مجمع اللغة العربية حيث سميت مؤخراً بهذا الاسم.

ــ المجلد الأول. الجزء التاسع سنة ١٩٢١م.

ــ المجلد الثاني. الجزء الأول جمادى الأولى سنة ١٣٤٠هـ / كانون الثاني سنة ١٩٢٢م.

ــ المجلد الثالث. العدد ٣٥ جمادى الأولى سنة ١٣٤٨هـ / تشرين الثاني سنة ١٩٢٩م.

ــ المجلد الخامس. العدد ٣٦ سنة ١٩٣٨ ــ ١٩٢٦م.

المجلد السادس عشر. سنة ١٩٦١م.

المجلد ١٨.

المجلد ٢٤.

الجزء التاسع. ١٩٢٩م.

المجلد رقم ٢٢. الجزء الخامس. جمادى الأولى سنة ١٢٦٦هـ / نيسان ١٩٤٧م.

المجلد ٢٤. الجزء الأول. ربيع الأول سنة ١٣٦٨هـ / كانون الأول سنة ١٩٤٩م.

ــ المجلد ٣٢. العدد ١ رمضان سنة ١٣٧٦هـ / نيسان سنة ١٩٥٧م /.

ــ المجلد ٣٦. الجزء الرابع سنة ١٩٦١م.

ــ المجلد ٣٩. العدد ١ ذو القعدة سنة ١٣٨٣هـ / نيسان ١٩٦٤م /.

٥ــ مجلة المشرق، التي تصدر عن جامعة القديس يوسف في بيروت ــ (الجامعة اليسوعية).

العدد ٣٥ سنة ١٩٣٧م.

العدد ٣٦ سنة ١٩٣٨م.

العدد ٣٧ سنة ١٩٣٩م.

العدد ٤٦ سنة ١٩٢٢م.

العدد ٥٨ سنة ١٩٦٤م.

٦ــ مجلة دراسات تاريخية، العدد ١، ٤، ٦.

مجلة القدس، العدد ٢٠ ــ رجب سنة ١٤٠١هـ / كانون أول سنة ١٩٨١م.

مجلة المعرفة، المجلد ٩. ترجمة مصر.

٧ــ قاموس شمس الدين سامي. (تركي ــ تركي) تحقيق أحمد جودت. استانبول ١٣١٧هـ.

٨ــ سالنامة در العثمانية سورية ولايتي. مطبعة أحمد احسان ــ القسطنطينية سنة ١٣٢٢هـ.

المراجـع الأجنبيـــة

REFERENCE

1 - BARKER; EDWARD. B.B. Syria Egypt Under The last Five SULTANS of TURKEY. volume. 1 New York. 1973.
2 - BODMAN, H.I.Jr. Political factions in Aleppo. 1760-1826. The Univrsity of North Carolina Press. 1963.
3 - BOWRING, JOHN. Report on the commercial Statistics of Syria. New-York. 1973.
4 - BROWNE, W.G. Travels in Africa, Egypt and Syria, from the year, 1792-1798.
5 - BURCKHARDT, J.L. Travels in Syria and the Holyland. London Londres-Murray. 1822.
6 - BURTON, ISABEL. The Inner. Life of Syria Palestine and the Holyland-Londres. 1884.
7 - CATTENOZ, H.G. Tabbes de Concordancer dis eres chretienneet Hegirienne. Rabat. 1954.
8 - CHEVALLIER. DOMINIQUE. A. Begining of Modernization in midelle East the nineteenth century. 4 Partes.
B- WESTERN Development and Crisis in Nineteenth Century. The University of Chicago. press.
9 - DOUINE, GEORGES. La Mission du Borton Boisle Cmbte au Ministre. 3. Partes. 1927.
10 - ENKIRI, GABRIEL. IBRAHIM PACHA, Le Caire. 1948.
11 - ENCY CLOPEDIE de L'Islam. Dictionaire Geographique, Ethnographique Et Biographique Des Peuples Musulmans. Leyde. Librairie Et Imprimerie Ci-De Vant E.J. Brill. 1927. Paris, Aucust Piard. Editeur. 82. Rue Bonaparte.

12 - DACHESTANI, K. La Famile Musulumane Contemporaine en Syrie, Paris-1932.
13 - DOZY, R. Supploment Aux Dictionaires Arabes. 1927. Paris.
14 - GIBB. H.A.R. and BOWEN. Harold . Islamic Society, and the West Volumes, in 4 parts, London 1951-1957.
15 - HOLT. P.M. Egypt and the fertile Crescent. 1516-1922. London. 1966.
16 -LA MARTINE. Voyage En Orient. 2 Volumes Paris 1856.
17 - MAO Z, MOSHE. Ottoman Reform in Syria and Palestine. 1840-1861, Oxford 1968.
18 - MARROTT. J.A.R. The Eastern question and lustorecal Study in Europein Diplomc. Oxford, 1951.
19 - MEYNARD. BERBIER. Sur Nome et Sobriquests dans la Btleroture Arabe. Paris. 1907.
20 - MILLER. WILLIAM. The Ottoman Empire and it's Successores. London 1966.
21 - POLK, WILLIAM. R. The Opening of South Lebanon 1788-1840. Harvard-University Press. 1963.
22 - PORTER. J. L. Five Years in Damascus. of the History Tepographe including on account of the travels and Researchres and Antiquities of that city the Palmyra-Lebanon and Houran. London, 1855.
23 - PRÉCIS de L'Histoire d'Egypt par dines historiens et archéologues. 1933 L'Caire imprime par l'imprimerie de L'institut Français D'Archéologie-Oriental. Duc Caire.
24 - RAFEQ. A. K. The Province of Damascus, 1723-1783, Beirut. 1970.
25 - REDHOUSE. W. Aturlish and English Lexicon. Beirut. 1974.
26 - RENAUNIN. Histoire des Relations in temation nales 5. Parties.
27 - Russell. Alex. The Natural-History of Aleppo, 2 vols., 2nd Ed., London. 17.
28 - KOURY, GEORGE. Province of Damascus PH. D. disirtation the University of Michigan. 1978.
29 - SHAW, STUNFORD. History of the Ottoman Empire and modern Turkey 2. volumes. Cambridge University Press. 1977.
30 - Trimingham. J. The Sufi Orders in Islam, Oxford. Clarendon Press-1971.
31 - VOINEY J.F. Voyages En Egypt et en Syrie. 3. vols, Paris. 1823.
32 - Wood, ALFRED C. History of the Levant Company. London 1939.
33 - WRIGHT, T. Early Travels in Palestine. London. 1848.
34 - ZELLER, GASTON. Histoire des Relations Internationales. Paris. 1955.

نتائج البحث
باللغة الانكليزية

ABSTRACT

This research deals with the study of the society of Damascus from 1772-1840 A.D. 1186-1256 A.H. The dissertation is divided into six chapters preceded by an introduction and presentation of the sources. The first chapter deals with the name of Damascus, her general view at the end of the 18th century until the middle of the 19th century. The walls of Damascus, her streets, inhabitants, narrow roads, markets, picknick places, baths, hospitals fountains, (takiyas) hotels, khanat, graves, are all illustrated in this chapter as well.

In the second chapter the rulers and their social standards have been discussed as well as the wali, deftardar, Kakhia, mutasallim, officers of the army, the soldiers and their different corps, the reforms in the army, then the governed people like the merchants of Damascus, the artisans, peasants, bedouins, the policy of the Ottoman Government towards them, the position of the Dhimmis, the European Consuls, the European Merchants and the slaves.

The third chapter deals with the political and religious importance of Damascus, the schools, programs of teaching the stages of studying, the scientific certificates, the libraries, and cultural centres, the religious men, teachers the Sufi orders, the judges, and muftis, the Notables-Al-Ashraf the position of endowments (Al-Awqaf) their social role, and the tricks used to dominate them.

The fourth chapter discusses the famous Damascene families, the fami-

lies of the peasants, the large family, the architecture of the Damascene houses, the palaces, the rural houses, the life of the Damascene family, its activity, the Damascene woman, her work, and several abnormal phenomenons like theft, narcotics, intoxicants sexual perversion.

The fifth chapter discusses the style of dresses, their social indications, the clothes of the ruling authorities, the country fashions, the clothes of the Damascene woman, her adornments and ornaments, the clothes of the rural woman, her adornments and ornaments, the clothes of the Dhimmis, the bedouins, the furs and the kinds of cloth.

The sixth and last chapter deals with the feasts of the Moslems and Dhimmis, the country celebrations, the amusements and their instruments, and in the en I mentioned the most important changes that have taken place during this period and which I regard as the scientific results that the dissertation has reached to.

Dr. Y. Nousah.

الأعلام الواردة في الكتاب

آ

الاسم ورقم الصفحة

ب

ت

ج

ح

خ

د

ر

ز

س

ش

ص

ض

ط

ظ

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

فهرس الجزء الثاني

الفصل الثالث

أوضاع دمشق

الدينية والعلمية

الفصل الرابع

البنى الاجتماعية

في دمشق

الفصل الخامس

الأزياء في دمشق وريفها
ومدلولاتها المختلفة

الفصل السادس

الأفراح والأتراح
والتسلية

الفهرس العام للجزأين

فهرس الجزء الأول

الفصل الأول

دمشق

ومنشآتها العمرانية

الحاكمون والمحكومون
في مجتمع دمشق

فهرس الجزء الثاني

الفصل الثالث

أوضاع دمشق
الدينية والعلمية

الفصل الرابع

البنى الاجتماعية
في دمشق

الفصل الخامس

الأزياء في دمشق وريفها
ومدلولاتها المختلفة

الفصل السادس

الأفراح والأتراح والتسلية

مجتمع مدينة دمشق في الفترة ما بين ١١٨٦ ـــ ١٢٥٦ هـ
١٧٧٢ ـــ ١٨٤٠ م/ يوسف جميل نعيسه. ط. ١ . ـــ
دمشق: دار طلاس؛ ١٩٨٦ . ـــ ٢ ج. (٨٢٦ ص٠):
موضح؛ ٢٤ سم.

١ ـــ ١ر٩٥٦ ن ع ي م ٢ ـــ العنوان ٣ ـــ نعيسه

الجزء الثاني ع ـــ ٤٧٦/ ٥/ ١٩٨٦